نوح جوردون



الطبيب

رواية

ترجمة: مرضي زنباع





صفصافة
SEFSAFA PUBLISHING HOUSE

الطبيب



مرضي زنباع/ مترجم مصري من مواليد محافظة البحيرة تخرج في كلية الألسن جامعة المنيا عام 2007، قسم اللغة الإنجليزية. ويجيد اللغة الألمانية إلى جانب العربية والإنجليزية. ويعمل في مجال الترجمة منذ عام 2008 حتى الآن. وحصل على شهادة إدارة الأعمال من كلية فوكس فالي تيكنكال كولدج، ولاية ويسكنسون، الولايات المتحدة الأمريكية عام 2014. وقد ترجم كتاب "نسيم الصبا في أخبار الإسلام وأخبار علماء بلاد يوربا" للكاتب آدم عبد الله الألوري من اللغة العربية إلى الإنجليزية. وكتاب "الجنس والدين: التعاليم والمحظورات في تاريخ الأديان" للكاتب داج أوستين إندشو، منشورات دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات.

الطبيب
طبعة 2024
رقم الإيداع:2023/9964





دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات
49 شارع العريش، العمرانية، الجيزة - مصر

نوح جوردون

الطبيب



ترجمة:

مرضي زنباع



بطاقة فهرسة

إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية،
إدارة الشئون الفنية

نواه غوردون، ١٩٢٦-٢٠٢١

الطبيب: رواية/ نوح جوردون، ترجمة مرضي زنباع

الجيزة، دار صفصافة للنشر والتوزيع والدراسات، ٢٠٢٣

٩٧٢ ص، ٢٢ سم

تدمك ٥-٣٣٥-٨٢١-٩٧٧-٩٧٨

١- القصص الأميريكية

أ- زنباع، مرضي (مترجم)

ب- العنوان ٨٢٣

رقم الإيداع: ٩٩٦٤/ ٢٠٢٣


أهم جروبات على تليجرام
باحثون
هنا سور الأزبكية
غواص في بحر الكتب
قناة مصر الثقافية و الفنية

كل الحب إلى نينا

التي أهدتني لورين


جروب باحثون
غواص في بحر الكتب

اتَّقِ اللهَ وَاحْفَظْ وَصَايَاه، لأَنَّ هذَا هوَ الإِنْسَان كلّه.

سفر الجامعة 12: 13

أحْمَدكَ مِنْ أَجْلِ أَنِيّ قَدِ امْتَزْت عَجَبًا.

سفر المزامير 14: 139

إِنَّمَا يَسْتَجِيب الَّذِينَ يَسْمَعونَ وَالْمَوْتَىٰ يبْعَثهم اللَّه ثُمَّ إِلَيْهِ يرْجَعونَ.

سورة الأنعام؛ آية: 36

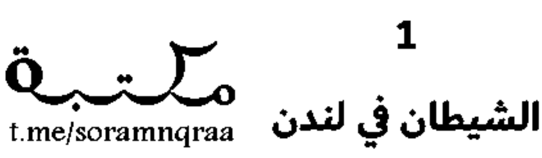
لاَ يَحْتَاج الأَصِحَّاء إِلَى طَبِيبٍ بَلِ الْمَرْضَى.

ماثيو 9: 12

الجزء الأول

صبيّ الحلّاق

1



الشيطان في لندن

كانت هذه هي الأوقات الأخيرة الملأى بالأمن والطمأنينة التي كان يتمتع فيها روب جيه كول بنعمة البراءة المقدّسة، ورغم ذلك إلا أن حماقته كانت تدفعه ليرى هذه النعمة نوعًا من وعثاء الانتظار الذي أرغمه على المكوث قرب منزل أبيه مع إخوته وأخته. وكان ذلك في أوائل فصل الربيع حين تسطع الشمس فوق الأفق وترسل أشعتها الدافئة التي تتسلل إلى حواف السقف المغطّى بالقش حيث كان روب كول يجلس متمدّدًا مبعثرًا أطرافه على بسطةٍ حجريةٍ خشنةٍ بالقرب من الباب الأمامي وهو يستمتع بأشعة الشمس الدافئة الحنونة التي تداعب جسده. كانت هناك امرأة تمشي بخطى متثاقلة في شارع متكسِّر وغير ممهّد يسمّى شارع النجّار. وكان الشارع في حاجةٍ إلى الرصفِ والإصلاحِ مثلما كانت معظم منازل العمال الصغيرة المبعثرة المتراصة بإهمالٍ والتي بناها الحرفيون المهرة الذين يكسبون قوتهم عن طريق تشييد المنازل لأصحاب الثراء الفاحش.

كان روب يقشّر سلة مترعة بالبازلاء الغضة وهو يحاول مراقبة الأطفال الصغار، حيث كانت هذه هي المهمة التي اضطلع بها في غياب الأم. كان وليام إستيوارت، البالغ من العمر ست سنواتٍ، وآن ماري، البالغة من العمر أربع سنواتٍ، ينبشان التراب بأظافرهما لصق المنزل، وكانا يلعبان ألعابًا مثيرة للضحك ويقهقهان خِلسة. وكان جوناثان كارتر، البالغ من العمر ثمانية عشر شهرًا، يرقد في فراشه المصنوع من جلد الخِراف، ويتناول طعامه ويتجشأ ويقرقر. في حين أن صموئيل إدوارد الذي يبلغ السابعة من عمره كان يتملص من مساعدة روب كول. وبطريقةٍ ما أو

بأخرى كان صموئيل الماكر يهرب بعيدًا دون مشاركة روب في عمله، لكن روب كول كان يراقبه عن كثبٍ وهو يتلوى سخطًا. كان روب يقشّر قرون البازلاء الخضراء واحدًا تلو الآخر ثم يدفع بذور البازلاء الغضة من قرونها شاحبة اللون بإبهامه مثلما كانت تفعل الأم دون توقفٍ حتى لاح له طيف امرأة قادمة نحوه مباشرة.

وكانت تلك المرأة ناهدة الثديين ترتدي صديرية حمراء اللون وقد ارتفع صدرها لدرجة أنها كلما تحرّكت بدت حلمتاها النافرتان بلون أحمر الشِّفاه، وكان وجهها اللحمي الفاقد الحس يطفح بمستحضرات التجميل. وعلى الرغم من أن روب كول كان ابن تسع سنوات فحسب، أدرك بخبرته بصفته طفلًا عاش في لندن أنها امرأة عاهرة.

وقد تقدّمت المرأة وقالت: «ها هنا منزل ناثانيال كول؟».

تفرّس روب كول في وجهها بامتعاضٍ لأنها ليست المرة الأولى التي تأتي فيها المومسات إلى منزلهم بحثًا عن أبيه. قال روب بصوتٍ أجش: «من يريد أن يعرف؟»، واستطرد قائلًا: «مسرور أن أباه خرج بحثًا عن عملٍ، إلا أنها اشتاقت إليه، ومسرور أن أمه خرجت لتوصيل المشغولات المطرزة، ورفع عن نفسه الحرج».

«زوجته في أمس الحاجة إليه. هي التي أرسلتني».

تحجّرت يدا الفتى الشاب وتوقف عن تقشير البازلاء وقال دهشًا: «ماذا تقصدين بعبارة أمس الحاجة إليه؟».

رمقته العاهرة دون اكتراثٍ بعدما أدركت رأيه فيها من خلال نبرته وأسلوبه وأَضافت: «هل هي أمك؟».

فكان الجواب إيماءة يسيرة.

قالت العاهرة ورحلت: «أمك في مرحلةِ المخاضِ وولادتها متعسرة، وهي الآن في إسطبل إيجلستون قرب شارع باديل دوك. من الأجدى أن تعثر على أبيك وتخبره».

نظر الفتى حوله بعدما اعتراه اليأس وصاح بأعلى صوته على صموئيل، ولكن صموئيل الوغد كان في الخارج ولا أحد يعرف مكانه كالعادة، ثم أعاد روب أخيه وليام وأخته آن ماري من أمام المنزل وهما يلعبان. وقال لأخيه وليام: «اعتنِ بالصغار». ثم بارح المنزل وبدأ يهرول.

وحكى أولئك الذين يعتقد أنهم يثرثرون بكلامٍ فارغٍ أن سنة 1021، السنة التي حملت فيها أجنيس حملها الثامن، سنة إبليس. وأشد ما كان يميّز هذه السنة ما أصاب الناس من نوازل وملمات وأهوال الطبيعة. ففي الخريف الماضي تلفت المحاصيل في الحقول بسبب موجات السقيع الشديدة التي جمّدت مياه الأنهار. وكانت السماء تمطر كأفواه القرب. ومع ذوبان الجليد السريع، ارتفع منسوب المياه في نهر التايمز وانهارت الجسور والمنازل. اختفت النجوم المتلألئة، وانسكب الضوء في سماء الشتاء الملبّدة بالغيوم، وظهرت المذنبات في السماء. وفي فبراير وقع زلزال شديد. وأطاح البرق برأس الصليب وغمغم الناس قائلين إن المسيح والقديسين غطّوا في نومٍ عميقٍ. وأشيع أن ينبوعًا من الينابيع تفجّر بالدماء لمدة ثلاثة أيام وحكى الرحالة أن الشيطان ظهر في الأحراش والأماكن السرية.

وأخبرت أجنيس ابنها البكري ألا يلقي بالًا لمثل هذه الأحاديث، ولكنها أضافت وقد ضاق صدرها أن روب إذا رأى أو تناهى إلى مسامعه أي شيء غير مألوف، يجب عليه أن يرسم علامة الصليب.

كان الناس في تلك السنة ساخطين على قضاء الله لأن تلف المحاصيل جعلهم يشهدون أوقاتًا عصيبة. ناثانيال كول لم يكسب أي أموال لأكثر من أربعةِ أشهرٍ وكان يعيش على مساعدة زوجه وقدرتها على صنع

المشغولات المطرزة وإنتاجها.

وعندما كان ناثانيال وزوجه حديثي عهد بالزواج، كانا متيمين بالحب ويحدوهما الأمل نحو مستقبلٍ مشرق؛ فكان من بين خططه أن يصبح ثريًّا بوصفه مقاولًا معماريًّا. ولكن أنشطة التطوير كانت بطيئة داخل النقابة العمالية للنجارين، فضلًا عن أعضاء لجان الفحص الذين يمحصون المشاريع التجريبية ويدققونها كما لو كان من المفترض أن كل مشروع مصمم خصيصًا للملك. لقد قضى ست سنوات عمل فيها صبيّ نجار وسنتين عمل فيها نجارًا مرافقًا. والآن كان يجب أن يكون له طموح يراوده ليصبح نجارًا محترفًا لأن هذا هو التصنيف المهني المطلوب ليصبح مقاولًا، ولكن هذا الأمر استهلك طاقته وسلبه الأيام الخوالي، واستبدّ به الإحباط ليحول بيه وبين قدرته على المحاولة.

ورغم أن حياتهما استمرت تتمحور حول النقابة العمالية للنجارين، لكن مؤسسة لندن للنجارين خذلتهما، حيث كان ناثانيال كل صباحٍ يتردد على المبنى ويخبرهم فحسب أنه لا توجد وظائف متاحة. وشأنه شأن الرجال الآخرين الذين استبدّ بهم اليأس، وأفضى بهم الأمر إلى الهروب إلى الخمور التي يسمونها صِباغ: أحد النجارين يحضر خمرًا بنكهة العسل وآخر يحضر بعض المقبلات، والمؤسسة توفر جرة النبيذ في المتناول.

وأخبرت زوجات النجارين الآخرين أجنيس أنه في أغلب الأحيان يخرج أحد الرجال ويعود بامرأة يتناوب أزواجهن العاطلون على مضاجعة هذه المرأة الثملة.

وبغض النظرِ عن تردي وضعه، إلا أنها لم تغض الطرف عنه لأنها كانت مولعة باللذة الجنسية. كان يتسبب في جعلها حبلى بمجرد أن تضع حملها مرة تلو الأخرى، وكلما شارفت على موعد الولادة، تجنب العودة إلى المنزل.

كانت حياتهما تتماشى تقريبًا بالضبط مع التنبؤات القاتمة التي تنبأ بها والدها في الوقت الذي كانت فيه حبلى بالفعل في روب كول، عندما تزوجها النجّار الشاب الذي جاء إلى واتفورد للمساعدة في بناء مخزن الحبوب لجارهم. وكان والدها يلوم عليها التحاقها بالمدرسة، وكان دائمًا ما يقول إن التعليم لا يمنح المرأة سوى الحماقة.

كان والدها يمتلك مزرعته الصغيرة التي منحها له إثيلريد (ملك ويسكس) تعويضًا له عن التحاقه بالخدمة العسكرية. كان والدها أول فرد في عائلة كيمب يصبح من صغار الملاك. وقد أرسل والتر كيمب ابنته للالتحاق بالمدرسة على أمل أن تتزوج من مالك أطيان، لأن ملاك الضّياع وجدوا أنه من المفيد الارتباط بامراة جديرة بالثقة تجيد القراءة والقيام بالعمليات الحسابية، وما المانع أن تكون تلك المرأة زوجة؟ كان والدها يتلوى سخطًا عندما تورطت ابنته في زيجة دون المستوى وغير متكافئة. ولم يتمكن حتى من حرمانها من ميراث رجل لا شاة له ولا بعير لأنه بعد أن وافته المنية، عادت ممتلكاته الصغيرة إلى التاج البريطاني لسداد ضرائب متأخرة.

وعلى الرغم من ذلك، كان طموح والدها يشكّل حياتها. فسنواتها الخمس الملأى بالسعادة التي علقت في ذاكرتها كانت في مرحلة الطفولة التي قضتها في مدرسة الراهبات. كانت الراهبات يرتدين الأحذية القرمزية والسترات ذات اللون الأبيض والبنفسج والحجاب المخمّليّ الناعم. فقد تعلمت على أيديهن القراءة والكتابة وبعض اللاتينية لأنها كانت تستخدم في تلقين التعاليم المسيحية، وتعلمت قص القماش والحياكة السحرية، وتعلمت تصنيع المشغولات المطرزة بأناقة رائعة والتي أصبحت مطلوبة في فرنسا باعتبارها مشغولات إنجليزية ذائعة الصيت.

إن الحماقة التي تعلمتها من الراهبات هي التي جعلت عائلتها في

مأمن من الجوع.

وفي هذا الصباح كانت تفكر فيما إذا كانت ستذهب لتسليم المشغولات المطرزة أم لا. ورغم أن موعد ولادتها قد اقترب ورغم شعورها بالضخامة والثقل، لكن لم يبق سوى القليل من مؤونة البيت في خزانة الطعام. فكان لزامًا عليها أن تذهب إلى سوق بيلينجيسجيت لشراء بعض الدقيق والطحين، ولهذا السبب كانت في أمس الحاجة إلى المال الذي قد يدفعه مصدّر المشغولات المطرزة الذي كان يقطن في ساوثوارك على الجانب الآخر من النهر. حملت صرتها الصغيرة، وشقّت طريقها بخطى وئيدة تقصد شارع التايمز صوب جسر لندن.

وكالعادة كان شارع التايمز مكتظًّا يعج بالدواب والعتّالين في الميناء الذين ينقلون البضائع بين صوامع التخزين الكبيرة المتسعة والسفن ذات الصواري الراسية على أرصفة المرفأ. اقتحمت أذنيها ضوضاء صاخبة مثل حبات المطر التي انهمرت على أرض جدب. ورغم المتاعب التي حاصرت حياتهما، لكنها كانت ممنونة إلى ناثانيال الذي انتشلها من واتفورد والمزرعة.

أحبت أجنيس هذه المدينة كذلك!

وكانت هناك امرأة غاضبة تصرخ على شخص لم تره أجنيس وقالت بعلو صوتها: «أيها الوغد! عد إلى هنا وأعطني نقودي. ردها إليّ».

امتزجت الضحكات مع طائفة من الكلمات التي نطقت بلغات أجنبية. وانطلقت اللعنات مثل الدعوات الرقيقة.

مرت أجنيس في الميناء أمام العتّالين المستعبدين المنهكين الذين يحملون الحديد الزهر وينقلونه إلى السفن الرابضة. ونبحت الكلاب على جماعة من الرجال البائسين الذين يصارعون عبء الأحمال الثقيلة التي

ينوؤون بحملها وحبات العرق تلمع على رؤوسهم الحليقة مثل اللآلئ. واستنشقت رائحة الثوم التي تفوح من ثيابهم الرثة المتسخة ورائحة كريهة من الحديد الزهر الذي يحملونه، ثم تسللت إلى أنفها رائحة أكثر ترحيبًا من عربة تجرها الخيول كان يقف بداخلها رجل يبيع شطائر محشوة بشرائح اللحم. سال لعابها ولكنها لم تكن تمتلك سوى قطعة نقدية واحدة في جيبها وأطفالًا في المنزل يتضورون جوعًا. وصاح الرجل قائلًا: «الشطائر مثل الخطايا اللذيذة: حارة ورائعة».

كانت المراسي تفوح بعبق الصنوبر قاتم السواد الذي تشبع بدفء الشمس والحبال المطلية بالقار. وضعت يدها على بطنها وهي تمشي وتحسست جنينها وهو يتحرك داخل أحشائها كأنما يسبح في محيط تحمله بين وركيها. وعلى الناصية، تجمهر حشد من البحارة المهمشين الذي يرتدون قبعات محمّلة بالزهور وهم يصدحون بالغناء في لهفة، في حين أنه اجتمع ثلاثة من الموسيقيين الذين كان أحدهم يعزف على الناي، والثاني يقرع الطبل، والثالث يعزف على قيثارة. ولأنها كانت تسير أمامهم لاحظت رجلًا يتكئ على عربة غريبة المنظر تجلّت فيها رسومات وعلامات تتعلق بالأبراج. كان هذا الرجل فيما يبدو في الأربعين من عمره. وقد بدأ الصلع يغزو رأسه، وكانت لحيته كثة بنية اللون. كانت قسمات وجهه توحي بوسامته، كان يتفوق على ناثانيال في الوسامة باستثناء حقيقة أنه كان بدينًا. كان متورد الوجنتين وقد اندلق بطنه مثل بطنها تمامًا. كان متصالحًا مع بدانته، بل على النقيض كانت بدانته مصدر فتنة وسحر وتوحي إلى كل من يراه أن ثمة روحًا ودودة طيبة تسكن هذا الجسد مغرمة بالأشياء المثلى في هذه الحياة. كان لعينيه الزرقاوين بريق ولمعان يضاهي الابتسامة التي ارتسمت على شفتيه. قال لها يا سيدتي: «أريدك زوجة». دهشت والتفتت حولها لترى إلى من يتحدث ولكن لم يكن هناك أحد سواها.

«هيهات!» وكالعادة كان يمكنها أن تمنع هذا الهراء في لمح البصر وتتوقف عن التفكير فيه لكنها كانت تمتلك روح الدعابة والفكاهة التي أضفت ظلالها على الرجل وكان ذلك كافيًا.

قال لها والحماس يملؤه: «خلقنا بعضنا لبعض، سأموت من أجلك يا سيدتي».

فردت: «لا حاجة لك لتفعل ذلك، فقد فعلها المسيح يا سيد».

رفعت هامتها وقامت بتعريض منكبيها وسارت بعيدًا وهي تتمايل في دلال، وقد تقدمتها ضخامة بطنها غير المعقولة التي تحمل جنينها ثم لم تنشب أن ضحكت مع الرجل.

وقد مضى وقت طويل منذ أن فجّر الرجل أنوثتها حتى ولو كان على سبيل المزاح حيث إن الحوار الدائر بينهما الذي اتّسم بالعبثية رفع من روحها المعنوية وهي تتسكع في شارع التايمز. لا تزال الابتسامة تملأ وجهها وهي تقترب من شارع بادل دوك عندما داهمها الألم.

همست: «الرحمة يا أمنا».

أصابها الألم للمرة الثانية، فبدأ في بطنها واجتاح عقلها وجسدها بأكمله حتى خارت قواها ولم تعد قادرة على الوقوف. ولأنها تعثرت اصطدامًا بالحصى في الطريق العام، انفجر كيس الماء.

وصرخت في أحد المارة وقالت: «النجدة».

وتجمّع حشد من اللندنيين في آن واحد يتطلعون في لهفة لرؤية ما يجري، وسرعان ما أطبقت ساقيها. وفي خضم وطاة الألم وشدته، رأت مجموعة من الوجوه ترمق نصفها السفلي بنظرات حادة.

تأوّهت أجنيس.

زمجر قائد عربة النقل غاضبًا وقال: «هنا حالًا، أيها الأنذال المناكيد». واستطرد: «أفسحوا لها حتى تلتقط أنفاسها. ودعونا نكسب قوت يومنا. وأبعدوها عن الطريق حتى تمر عرباتنا».

وحملها الناس إلى مكان كثيف الظلام والرطوبة وتسللت إلى أنفها بشدة رائحة روث الخيول. وفي خضم الهرج والمرج أثناء نقلها، سرق شخص ما مجموعة من المشغولات المطرزة خاصتها. وكلما انغمس الإنسان في الوجوم، تبدّلت الأشياء العظيمة وتأرجحت. وركل أحد الخيول بحافره أحد الألواح المهملة وأحدث صوتًا مدويًا، وارتفع صهيل الخيول مدويًا.

وقال أحدهم بصوت مكسور: «ما هذا كله؟ الآن، لا يمكنكم إحضارها إلى هنا. وكان صاحب الصوت رجلًا نزقًا، بدينًا، مفلوج الأسنان وعندما رأت حذاءه ذا العنق الطويل والقلنسوة التي يرتديها عرفت أنه جيوفري إيجليستون وعرفت أنها كانت في أحد إسطبلاته. أعاد ناثانيال بناء بعض الحظائر هنا لأكثر من عام مضى، وقد استوعبت هذه الحقيقة.

قالت بنبرة متوسلة: «السيد إيجليستون، أنا أجنيس كول زوج النجّار الذي تعرفه جيدًا».

اعتقدت أنها رأت على وجهه قبولًا غير مرحب به، ولكن المعرفة المؤكدة أنه سمح لها بدخول المكان.

تزاحم الناس خلفه والتمعت أعينهم بفضول شديد.

شهقت أجنيس وقالت: «رجاءً، هلا تكرّم أحدكم وذهب لإحضار زوجي».

غمغم إيجليستون بكلام غير مفهوم وقال: «لا يمكنني أن أترك عملي. شخص آخر يجب أن يذهب لإحضار زوجها».

لم يحرك أحد ساكنًا أو ينبس ببنت شفة.

توغّلت أصابعها في جيبها وعثرت على القطعة النقدية وقالت للمرة الثانية: «رجاءً» ورفعت القطعة النقدية لأعلى.

وقالت امرأة من فورها، وكانت فيما يبدو أنها من بنات الليل: «سأقوم بواجبي المسيحي»، وامتدّت أصابعها مثل مخالب تنتزع القطعة النقدية.

كان الألم لا يحتمل، كان جديدًا ومختلفًا تلك المرة. اعتادت أجنيس على الانقباضات المتواترة حيث إن ولاداتها السابقة كانت صعبة بشكل طفيف وخاصة بعد حمليها الأول والثاني، ولكن أثناء عملية الولادة كانت تصاب بالإعياء الشديد. فقد تعرضت لحالتي إجهاض قبل ولادة آن ماري وبعدها، إلا أنها وضعت حملها في جوناثان والفتاة بسهولة ويسر بعد انفجار كيس الماء مثل بذور صغيرة ملساء انزلقت بين إصبعيها. ففي الولادات الخمس السابقة لم تكابد مثل هذه المعاناة.

وقالت في صمت مطبق: «عزيزتي أجنيس. عزيزتي أجنيس التي تغيث الحملان، أغيثيني».

ودائمًا في كل ولادة تتضرع بالدعاء إلى قديسة تحمل نفس اسمها، والقديسة أجنيس تستجيب لها، ولكن هذه المرة كان العالم بأسره نسيجًا من الألم المتواصل، وكان الجنين ملتصقًا بها يأبى الخروج من أحشائها.

وفي نهاية المطاف، لفتت صرخاتها المتهدّجة انتباه قابلة عابرة، عجوز شمطاء، ثملة قليلًا، ولمّا دخلت الإسطبل طردت المتفرجين بعدما أمطرتهم بوابل من اللعنات. وعندما استدارت القابلة للخلف، تفحّصت أجنيس باشمئزاز. وغمغمت بكلام غير مفهوم وقالت: «الرجال الأوغاد أنزلوها في مكان قذر». ألم يكن هناك مكان أفضل من ذلك المكان القذر حتى ينقلوها إليه. ورفعت تنورة أجنيس أعلى خصرها ومزّقت سروالها،

ثم على الأرض قبال الفرج الفاغر مسحت الروث المخلوط بالقش بيدها التي نظفتها بفوطة متسخة.

ومن جيبها أخرجت قنينة من شحوم الخنزير قاتمة السواد جرّاء إضافة الدماء وإفرازات النساء الأخريات. استخرجت بعض الشحم زنخ الرائحة ودلّكت يديها بحركات دائرية حتى غدت زلقة، ثم سهّلت إدخال إصبعين ثم ثلاثة حتى انزلقت يدها بالكامل في الفرج الفاغر للمرأة المنهكة التي كانت تعوي مثل حيوان يتلوّى ألمًا.

قالت القابلة باقتضاب: «يا سيدتي: سوف تتألمين مرتين بنفس القدر». وزلّقت ذراعيها حتى الكوع وقالت: «الصعلوك الصغير قد يعضّ أصابع قدميه، أيعقل أن يفعل ذلك. إنه يخرج بمؤخرته أولًا.

2

عائلة في النقابة العمالية

بدأ روب كول يهرول صوب شارع بادل دوك. ولمّا أدرك أنه كان يتعين عليه العثور على أبيه، عرّج على النقابة العمالية للنجارين، حيث إن كل ابن من أبناء الأعضاء يعرف ما الذي يجب فعله وقت المحن.

كان مقر اتحاد لندن للنجارين يقع في نهاية شارع النجّار في مبنى عتيق مصنوع من الأسوجة المضفرة، وهو إطار من الأعمدة الخشبية والمعدنية المنسوجة مع الفروع والعصي المتراكبة بكثافة مع الملاط الطيني الذي يتعين تجديده كل بضع سنوات. وفي داخل هذه النقابة العمالية للنجارين رحبة الأرجاء، كان يجلس عشرات الرجال الذين يرتدون سترات ضيقة مصنوعة من الجلد وأحزمة المعدات الحرفية على مقاعد خشنة حول طاولات وفّرتها اللجنة المسؤولة داخل المقر؛ وقد تعرّف روب كول على الجيران والأعضاء الذين ينتمون إلى عشيرة أبيه ولكنه لم ير ناثانيال بينهم.

كانت النقابة العمالية تمثل كل شيء بالنسبة للعمال المشتغلين بالنجارة في لندن؛ كانت بمثابة مكتب توظيف، ومستوصف، وجمعية تختص بمراسيم الدفن، ومركز اجتماعي، ومنظمة إغاثة إبان فترات البطالة، ومركز تحكيم، وصالة توظيف توفر خدمات التنسيب والتوظيف، ومكان له نفوزه السياسي وتأثيره المعنوي. كانت النقابة العمالية جمعية منظمة بإحكام تتألف من أربع مجموعات من النجارين تسمى كل جماعة بالمئة. وكل مئة تتألف من عشرة عشائر وكل عشيرة من عشرة أنفار يجتمعون

في لقاءات منفصلة وتربطهم صلات وثيقة، وبمجرد أن تفقد العشيرة أحد أعضائها جرّاء الموت أو الإصابة بمرض عضال، يعين عضو جديد بانضمامه إلى النقابة العمالية كصبيّ نجّار الذي يكون عادة من بين الأسماء في قائمة الانتظار التي تحتوي على أسماء أبناء الأعضاء. وقد أسرع روب كول نحو رئيس النجارين، ذلك المسمى الوظيفي الذي يوحي بالوجاهة والنفوذ في المقام الأول وكان صاحب هذا اللقب يسمى ريتشارد بوكيريل.

كان بوكيريل محني الأكتاف وكأنما أحنت المسؤولية جسده. وقد بدا كل شيء يخصه قاتم السواد. شعره كان أسود فاحمًا، وكان لعينيه ظلال أشبه بأشجار البلوط الناضج، وكان سرواله وسترته الضيقتان مصنوعين من الصوف الخشن المصبوغ بقشور الجوز، وكانت بشرته سمراء مثل لون الجلد المعالج، لفحتها شموس ألف منزل شيّده. وقد تحرّك روب كول نحو الرجل وتحدّث في أناة، وقد استمع له بوكيريل وكله آذان مصغية وأردف قائلًا:

ناثانيال ليس هنا، يا بني.

هل تعرف أين يمكنني العثور عليه، يا سيد بوكيريل.

تردّد بوكيريل وقال: رجاءً، المعذرة يا بني، وقال له في النهاية إن ناثانيال خرج إلى مكان حيثما يجلس العديد من الرجال بالقرب من هنا.

وقد استطاع روب كول أن يسمع كلمة عابرة فحسب أو جملة مهموسة.

«هل ناثانيال مع تلك العاهرة»، تلك الجملة التي غمغم بها بوكيريل.

وفي لحظة تراجع رئيس النجارين عن قول ذلك وأردف قائلًا: «نعرف المكان الذي يمكن أن نعثر فيه على أبيك». أسرع بالذهاب إلى أمك يا بني.

سوف نحضر ناثانيال ونتبعك في أقرب وقت ممكن».

أعرب روب كول عن امتنانه وظل يركض في طريقه قاصدًا المكان الذي توجد فيه أمه.

واصل الركض دون أن يلتقط أنفاسه، متفاديًا عربات الشحن ومتجنبًا السكارى، متخبّطًا بين الحشود الغفيرة، قاصدًا شارع بادل دوك. وفي منتصف الطريق هناك رأى غريمه اللدود، أنتوني تيتي، الذي تشاجر واشتبك معه في العام الماضي في ثلاث معارك ضارية. ومع اثنين من أصدقائه المشردين، كان أنتوني تيتي يمارس استفزازه وتنمره على بعض العتّالين المستعبدين في الميناء.

قال روب كول ببرود: لا تؤخرني أيها الوغد الصغير.

حاول أن تتجنبني أيها التافه وإلا سأتصرف معك حقًّا.

سأتصرف معك بنفس الطريقة التي يتصرف بها الفرد مع الحمقى الفاسدين.

ورأى روب كول واحدًا من الأصدقاء المشردين يدله على مكان أنتوني، ولكن تجاهلهم وواصل السير في طريقه.

كان منقطع الأنفاس يجتاحه ألم شديد في جانبه عندما وطأت قدماه إسطبل إيجليستون في الوقت المناسب لترى عيناه امرأة عجوزًا تلفّ المولود في ملاءة.

كان الإسطبل يفوح برائحة روث الخيول ودماء الأم. كانت الأم مستلقية على الأرض وكانت عيناها مغمضتين ووجهها شاحب اللون. وقد أدهشه ضآلة جسمها.

تساءل قائلًا: هل هذه أمي؟

فجاءه الجواب: هل أنت ابنها؟

أومأ وصدره يتنهّد.

بصقت العجوز على الأرض وقالت له: «دعها تنال قسطًا من الراحة».

وعندما حضر ناثانيال بالكاد لمح روب كول. وفي عربة مملوءة بالقش اقترضها بوكيريل من أحد عمال البناء أخذوا الأم ومضوا إلى المنزل بالمولود الذي منحوه اسم روجر كيمب كول.

وقد اعتادت الأم بعد ولادة طفل جديد أن تظهر الطفل الجديد لأطفالها الآخرين للتفاخر به لإغاظتهم، ولكن الأم الآن مستلقية فحسب تحدّق في السقف المصنوع من القش.

وفي نهاية المطاف، نادى ناثانيال على أرملة تسمى ديلا هارجريفز من المنزل الأقرب إلى منزله. وأخبرها أن الأم لا يمكنها حتى إرضاع وليدها.

قالت ديلا هارجريفز إن الرضيع ربما سيتبرز. وكانت تعرف مرضعة حيثما أخذت الطفل الرضيع بعيدًا عن روب كول حتى تزيل عن كاهله عبئًا ثقيلًا. حيث إن ما في وسع روب كول هو أن يعتني بالأطفال الأربعة الآخرين. وقد تدرّب جوناثان كارتر على قضاء الحاجة ولكنه يفتقد اهتمام أمه، وقد بدا أنه نسي هذه الحقيقة.

مكث الأب قابعًا في المنزل. وكان روب كول يتحدث إلى أبيه باقتضاب دون الدخول معه في مناوشات كلامية.

كان روب كول يفتقد الدروس التي اعتاد أن يتلقاها من أمه كل صباح، لأن الأم كانت تصنع من هذه الدروس لعبة الحظ السعيد. ولم يعرف روب كول أحدًا يملؤه الدفء والحب إزاء سوء تصرفه والصبر على بطء تفكيره غير أمه.

وقد كلّف روب كول أخاه صموئيل بإبقاء وليام وآن ماري بالقرب من المنزل. وفي تلك الليلة بكت آن ماري لافتقادها ترنيمة النوم. وقد حملها روب كول بين ذراعيه واحتضنها وناداها باسمها المفضل آن ماري. وفي النهاية، أنشدها أغنية الأرانب الناعمة الجميلة والعصافير المكسوة بالفراء الناعم في أعشاشها وظل يردد «ترا- لا- لا» وشعر بالامتنان أن أنتوني تيتي لم يكن شاهدًا على ما حدث. كانت لأخته آن ماري وجنتان مستديرتان، وكانت ممتلئة الجسم أكثر من الأم، ودائمًا ما قالت الأم إن آن ماري في ملامحها وقسمات وجهها أقرب إلى عائلة كيمب، وكان فمها يتدلى متراخيًا أثناء النوم.

بدت الأم في حال أفضل في اليوم الثاني ولكن أباه قال إن حمرة خديها تنذر بإصابتها بالحمى. أخذت الأم رجفة شديدة في فراشها حتى دثّروها بأكوام من الأغطية.

وفي صباح اليوم الثالث عندما أعطاها روب كول رشفة ماء، صدمته حرارة وجهها التي شعر بها. ربّتت على يديه وهمست بصوت أجش: ابني روب. وكانت رائحة نفسها كريهة وكانت تلهث أنفاسها وتتسارع.

وعندما أمسك يدها، سرى في ثنايا عقله شعور ما. إنه الشعور بخطورة الموقف. لقد عرف بما لا يدع مجالًا للشك ما يؤول إليه حالها. تحجّر الدمع في عينيه. وكتم صرخاته. كان قد نما الشعر كثيفًا على مؤخرة عنقه. كان يملؤه رعب مخيف. ولم يجابه مثل هذا الرعب في حياته سواء عندما كان يافعًا أو طفلًا.

وفي خضم هذا الرعب ضغط على يديها حتى تألّمت. رآه أبوه وقرعه قرعًا خفيفًا على رأسه.

وفي الصباح التالي عندما نهض من الفراش، كانت أمه قد فارقت الحياة.

جلس ناثانيال كول وأسبلت عيناه لدرجة أن الأطفال استبدّ بهم الخوف وداهمهم الذهول والرعب ولم يستوعبوا حقيقة رحيل الأم إلى الأبد. فلم يروا أباهم يبكي من ذي قبل ولم يجتمعوا سويًا والرعب مرسوم على الوجوه الشاحبة والعيون الساهرة.

تولت النقابة العمالية للنجارين الأمر برمته.

حضرت النسوة ولم تكن إحداهن صديقة مقربة إلى أجنيس لأن التحاقها بالدراسة كان مشوبًا بالريبة والاشتباه. والآن تتغاضى النسوة عن تعليمها السابق ويجهزنها لتشييع الجثمان إلى مثواه الأخير. وإلى الأبد ظلّ روب كول يكره رائحة الروزماري. وإذا كان الوقت مناسبًا، قد يفد الرجال في المساء بعد الانتهاء من أعباء العمل ولكن الكثير منهم كانوا عاطلين عن العمل وأتوا مبكرًا. جاء هوج تيتي، والد أنتوني تيتي الذي يشبه والده، ممثلًا عن لجنة تجهيز النعوش، تلك اللجنة الدائمة التي تتولى مسؤولية تجهيز التابوت لجنائز الأعضاء.

ربّت هوج تيتي على كتفي ناثانيال وقال له: «لديّ قطع كافية من الصنوبر الجاف مدسوسة بعيدًا في مكان آمن. وهذه القطع متبقية من مهمة عمل ما في مخزن في باردويل من العام الماضي، هل تتذكر هذه الأخشاب الجيدة؟ يتعين علينا القيام باللازم مع أجنيس.

كان هوج تيتي أحد الرحّالة الذين يفتقرون إلى الحذاقة والبراعة وقد سمع روب كول أباه وهو يتحدث بازدراء عن الرجل لجهله بكيفية استخدام الأدوات، ولكن ناثانيال الآن يومئ فحسب تبعًا للأصول ويتجه نحو الجعة.

لقد وفرت النقابة العمالية للنجارين كميات كبيرة من الطعام والخمور حيث إن الجنازة هي المناسبة الوحيدة المسموح فيها بالشرب حتى الثمالة

والأكل بشراهة ونهم حتى التخمة. وبالإضافة إلى شراب التفاح الفوّار وبيرة الشعير، كانت هناك الجعة العذبة ومزيج يسمى شراب العسل المصنوع من مزج العسل والماء مع ترك المحلول حتى يتخمر لمدة ستة أسابيع. وفد الأصدقاء يقدمون التعازي لصديقهم النجّار ويحملون الأصباغ، وشراب التوت الذي يسمى المورات، وخمر بنكهة العسل يعرف بالميثيجلين. جاؤوا محمَّلين بحقائب السمان المحمر والسمان المطبوخ، وصحاف من الأرانب المقلية ولحم الغزال، وأسماك الرنجة المدخنة، وأسماك السلمون المرقط الطازج، وأسماك الموسيّ، وأرغفة من خبز الشعير.

أعلنت النقابة العمالية للنجارين المساهمة بجنيهين لجمع الصدقات والتبرعات باسم أجنيس تخليدًا لذكراها الطيبة، ووفّرت النقابة العمالية للنجارين الأفراد الذين يحملون النعش إلى الكنيسة، والحفّارين الذين جهّزوا القبر. وفي داخل كنيسة سانت بوتولف، قرأ عليها الكاهن الذي يسمى كيمبتون القدّاس وهو شارد الذهن وأودع الأم في أحضان يسوع، ثم تلى أعضاء النقابة آيتين من سفر المزامير على روحها. دفنت أجنيس في فناء الكنيسة أمام شجرة صنوبر صغيرة.

ولما عاد المشيعون إلى المنزل، كانت وليمة الجنازة التي أعدتها النسوة حارة وجاهزة. وظلّوا يأكلون ويشربون لساعات كأنما تحرّروا من براثن الفقر جرّاء وفاة جارتهم. وجلست الأرملة هارجريفز مع الأطفال وأطعمتهم طعامًا حلو المذاق حتى شعروا بالتخمة. وحضنت هارجريفز الأطفال بقوة وضمّتهم إلى صدرها حتى تشمّموا رائحتها لدرجة أنهم رغبوا في التملص من حضنها جرّاء المعاناة. وعندما شعر وليام بالإعياء بسبب الطعام، أخذه روب إلى الخارج وراء المنزل وأمسك رأسه، ولكن حالته ازدادت سوءًا وحاول التقيؤ. وفيما بعد ربّتت ديلا هارجريفز على رأس وليام وقالت إن ما حدث كان باعثًا على الحزن والأسى، ولكن روب كول عرف أنها أطعمت الطفل (وليام) بسخاء من طعامها الذي صنعته

بنفسها، وفيما تبقى من طعام الوليمة، أبعد روب كول الأطفال عن أوعية أسماك الثعابين التي صنعتها هارجريفز.

ورغم أن روب كول كان يفهم ويعي حقيقة الموت، لكنه كان ينتظر عودة الأم إلى المنزل. ولن يتفاجأ بشدة إذا فتحت الأم الباب وتجوّلت داخل المنزل وهي تحمل المؤون التي اشترتها من السوق أو النقود التي جلبتها من مصدّر المشغولات المطرزة في ساوثوارك.

الأم تقول: درس التاريخ يا روب.

ما هي القبائل الجرمانية الثلاث التي غزت بريطانيا إبان الفترة ما بين القرنين الرابع والخامس الميلادي؟

وروب كول يجيب: قبائل الأنجلو والجوت والسكسون يا أمي.

من أين جاءت هذه القبائل يا حبيبي؟

من ألمانيا، والدنمارك، وغزت هذه القبائل بريطانيا بالإضافة إلى الساحل الشرقي ووجدوا مملكة نورثمبريا ومملكة ميرسيا ومملكة أنجليا الشرقية.

ما الذي يجعل ابني لبقًا حذقًا؟

الأم اللبقة الحذقة؟!

آه! هذه قبلة لك من أمك اللبقة الحذقة. وهذه قبلة أخرى لأنه لديك أب لبق وحذق أيضًا. لا ينبغي لك أن تنسى أن أباك لبق حذق.

ولدهشته الشديدة، رأى أباه منزويًا. بدا ناثانيال راغبًا في الحديث إلى الأطفال، ولكنه عجز عن فعل ذلك. قضى الأب معظم الوقت في إصلاح سقف المنزل المصنوع من القش. وبعد مرور أسابيع قلائل على جنازة

الأم، بدأ الذهول يتلاشى رويدًا رويدًا، وبدأ روب كول يفهم كيف ستسير حياته بشكل مختلف، ووجد الأب في نهاية المطاف عملًا.

كان الطين على ضفاف نهر لندن البني اللون، العميق، الناعم، المتماسك منبع حشرات تسمى ديدان السفن. وقد تسببت هذه الديدان في تلف أخشاب السفن وأحدثت حفرًا على مر السنين في المشيدات والهياكل الخشبية للأرصفة والموانئ، مما أدّى إلى استبدالها وإحلالها. كان العمل شاقًّا وبعيدًا كل البعد عن العمل الذي اعتاد عليه ناثانيال من بناء المنازل ونحوه، ولكنه في غمار المحنة التي حلّت به، رحب بهذا العمل.

وبالنسبة لروب كول، وقع على عاتقه مسؤولية المنزل رغم أنه كان يفتقر إلى مهارات الطهي. ففي الغالب كانت ديلا هارجريفز تحضر طعامًا جاهزًا أو تصنعه. وفي العادة عندما يكون ناثنانيال في المنزل، كانت تحرص على أن تتطيب بالعطر وتكون بشوشة وتهتم بالأطفال الصغار. كانت بدينة ولم تكن جذّابة، ولون بشرتها مشرب بالحمرة، ووجنتاها بارزتان، ولها ذقن مدبب، ويدها صغيرة ممتلئة، واعتادت على القيام بأقل قدر ممكن من العمل. كان روب كول دائمًا يعمد إلى الاعتناء بإخوته وأخته، ولكنه الآن أصبح المصدر الوحيد لرعايتهم حيث إن أيًّا منهم لا يروق له هذا الأمر. كان جونثان كارتر وآن ماري يبكيان باستمرار. أما وليام إستيوارت فقد شهيته للطعام وضوى جسده وضعف وجحظت عيناه حتى كادتا أن تسقطا من محجريهما، وأما صموئيل إدوارد برزت عظام وجنتيه أكثر من ذي قبل، واعتاد في المنزل على السبّ والشتم بالألفاظ النابية التي يرمي بها روب كول جذلًا، ولم يجد الابن الأكبر رادعًا لأخيه إلا أن ينهال عليه بالضرب.

حاول روب كول أن يفعل أي شيء اعتقد أنها قد فعلته.

وفي أوقات الصباح بعدما يتناول الرضيع طعامه ويتناول بقية الأطفال

خبز الشعير ويحتسون مشروبًا ما، ينظف روب كول التنّور أسفل الفتحة المستديرة التي يتصاعد منها الدخان التي من خلالها تتساقط قطرات المطر التي تطفئ أجيج النار. يأخذ روب كول رماد الحريق من التنّور وراء المنزل ويتخلص منه ثم يكنس أرضية المنزل. ينفض نثار الغبار من على الأثاث في الحجرات الثلاث. ويتسوق ثلاث مرات في الأسبوع من سوق بيلينجيسجيت لقضاء بعض الحاجيات التي كانت الأم تجلبها إلى المنزل في زيارة واحدة إلى السوق كل أسبوع. تعرّف عليه الكثير من أصحاب الأكشاك في السوق، وقدّم بعضهم إلى روب كول هدايا صغيرة أول مرة وفد فيها إلى السوق وحده تعبيرًا عن تعازيهم في وفاة الأم. وكانت الهدايا بعض التفاح وقطع من الجبن وأسماك مملحة صغيرة. وفي غضون أسابيع قلائل اعتادوا على بعضهم وبدأ يساومهم بشدة أكثر مما كانت الأم تفعل خشية أن يفكروا في استغلاله باعتباره طفلًا. وفي طريقه للعودة من السوق إلى المنزل، كان يجر قدميه متثاقلًا لأنه لم يكن راغبًا في أن يرفع عن كاهل أخيه وليام عبء الصغار لينهض هو به.

كانت الأم تريد أن يبدأ صموئيل الدراسة هذا العام. وقفت الأم في وجه ناثانيال وأقنعته أن يذهب روب كول إلى كنيسة بوتولف ليتلقى تعليمه على أيدي الرهبان، وكان روب يذهب سيرًا على الأقدام كل يوم إلى مدرسة الكنيسة على مدار عامين قبل أن تجبره الظروف على المكوث في المنزل حتى تتفرغ الأم للمشغولات المطرزة. والآن لم يعد الأخوان يذهبان إلى المدرسة لأن الأب كان أميًّا لا يقرأ ولا يكتب وكان يرى أن الدراسة ما هي إلا مضيعة للوقت. تغيّب روب كول عن المدرسة. وكان يتجول في أحياء فقيرة مثيرة للاشمئزاز، مكتظة بالمنازل المتلاصقة، وكان يتذكر بالكاد كيف غدا هدفه الأساسي يتمحور حول الألعاب الصبيانية ومضايقات أنتوني تيتي التافه. وقد رآه أنتوني تيتي ورفاقه يمر أمامهم دون مطاردته وكأنما فقدان أمه منحه حصانة من مضايقتهم.

وذات ليلة أخبر ناثانيال ابنه أنه قد أحسن صنعًا وقال: «تبدو دائمًا أكبر من سنك». قالها ناثانيال بامتعاض. وقد نظرا بعضهما إلى بعض في ضيق وتحدّثا باقتضاب شديد. فلو كان ناثانيال يقضي وقت فراغه مع العاهرات، فابنه روب كول لم يكن على علم بذلك. فهو لا يزال يبغض أباه كلما اجتاحته فكرة أن أمه كانت أوفر حظًّا من أبيه إلا أنه كان يعرف أن ناثانيال كان يكافح بطريقة حازت إعجاب أمه.

فالأب قد يعهد بالصغار إلى الأرملة. وقد لاحظ روب كول ذهابها ورواحها وهي يحدوها الأمل، لأن الجيران على سبيل المزاح والضحك أخبروه أن الأرملة هي المرشحة لتكون زوجة أبيه. كانت الأرملة عاقرًا، وقد توفي زوجها لاننج هارجريفز الذي كان يعمل بالنجارة قبل خمسة عشر شهرًا إثر سقوطه من على عارضة خشبية (السقالة). وكان من المعتاد أن المرأة التي يواريها الثرى وتترك وراءها أطفالًا صغارًا، يتزوج زوجها الأرمل مرة ثانية على نحو السرعة، ولكن أمر ناثانيال كان محل تعجب وتساؤل بعض الشيء عندما بدأ يقضي الوقت بمفرده مع ديلا في منزلها. ولكن الفواصل الزمنية كانت محدودة لأن ناثانيال كان عادة ما يكون متعبًا جدًّا. كان يتعين تقطيع الركائز والمتاريس المستخدمة في بناء أرصفة الميناء في شكل مربعات من جذوع البلوط ثم توضع بعمق في قاع النهر أثناء انخفاض المد. كان ناثانيال يعود من عمله مبتلًّا ومرتجفًا من البرودة. وقد أصيب مع بقية طاقم العمل بسعال جاف متقطع وكان دائمًا ما يعود إلى منزله مضجرًا. ومن عمق الطين الرطب في نهر التايمز، كانوا يستخرجون شواهد على التاريخ مثل صندل جلد روماني ذي أربطة كاحل طويلة، ورماح مكسورة، وبقايا من الفخار. وقد جلب ناثانيال إلى المنزل قطعة مصقولة من الحجر الصوان لابنه روب كول التي كانت حادة كنصل السكين، حيث قد عثر على رأس السيف على بعد عشرين قدمًا إلى الأسفل.

هل هذ رومانية؟ سأل روب وهو متلهف لمعرفة الجواب.

هزّ الأب كتفيه وقال ربما تكون سكسونية.

ولكن روب كول لم يطرح أي سؤال عن نشأة القطعة النقدية التي عثر عليها لاحقًا بعد أيام قلائل. وعندما بلّل روب كول رماد الحريق على أحد جانبي القرص المسود وظل يفرك ويفرك، ظهرت الكلمات التالية: أول فيلق من فيالق الرومان في لندن. ثم قال: أثبتت الكنيسة اللاتينية أنهما تقريبًا سواء. وأضاف قائلًا: «ربما هي تشير إلى أول فيلق في لندن». وعلى الجانب الآخر كانت تظهر صورة فارس روماني يمتطي صهوة جواده، وثلاثة أحرف «آي. أوه. إكس».

سأل روب أباه قائلًا: «ماذا تعني هذه الأحرف الثلاثة «آي أوه إكس»؟».

لم يعرف روب كول ماذا تعني. الأم قد تعرف ماذا تعني ولكن روب كول لم يعرف أحدًا آخر ليسأله، ثم وضع القطعة النقدية جانبًا.

اعتاد الصغار على سماع سعال ناثانيال الذي لم يعد يسمع. ولكن ذات صباح عندما كان روب ينظف التنّور، صارت جلبة خارج المنزل. وعندما فتح روب كول الباب، رأي هارمون وايت لوك- أحد أعضاء الطاقم الذي يعمل فيه أبيه- واثنين من العبيد من عمال الميناء اللذين دهش منهما وهما يحملان نثانيال إلى المنزل.

كان روب كول مذعورًا من العبيد. توجد طرق عديدة تجعل الإنسان يفقد حريته. حيث يصبح سجين الحرب خادمًا لأحد المحاربين الذي قد يسلبه حياته ولكن يؤمّنه. وقد تصدر أحكام بشأن الأحرار تجعلهم يقبعون في الرق والعبودية جراء جرائم خطيرة يرتكبونها مثلما يحدث مع الأفراد الذين أرهقت الديون كاهلهم أو أولئك الذين عجزوا عن دفع غرامة باهظة. بل تقبع زوجة العبد وأطفاله تحت وطأة الرق والعبودية

معه والأجيال المستقبلية من عائلته.

كان هذان العبدان من الرجال الأقوياء الأشداء ذوي الرؤس الحليقة التي تشير إلى العبودية وكانا يرتديان أسمالًا بالية تفوح منها رائحة كريهة بطريقة شائنة. ولم يستطع روب كول أن يميز ما إذا كان الرجلان غريبين أم إنجليزيين لأنهما لم ينبسا ببنت شفة ولكن ظلّا يحدجانه بنظرات حادة. لم يكن ناثانيال هزيلًا ولكنهما كانا يحملانه بطريقة توحي بانعدام وزنه وضآلة جسمه. أرعب الرجلان روب كول رعبًا يفوق الرعب الذي أصابه جرّاء رؤية أبيه شاحب الوجه أو الطريقة التي تدلّى بها رأسه عندما أنزله الرجلان.

صاح روب قائلًا: «ماذا حدث؟».

هزّ وايت لوك كتفيه وقال: «إنها مأساة. نصفنا سقط بسببها؛ السعال والبصاق طوال الوقت. اليوم كان هزيلًا واستجمع قواه فور انخراطنا في العمل الشاق. أتوقع أن يسترد عافيته بعد أيام قلائل ينال فيها قسطًا من الراحة وسنراه ثانية في رصيف الميناء».

وفي الصباح التالي كان ناثانيال غير قادر على مغادرة فراشه، وكان صوته خشنًا. وقد أحضرت عشيقته هارجريفز إبريقًا من الشاي الساخن الممزوج بالعسل واقتربت منه. جرى الكلام بينهما همسًا وبحميمية، ومرة أو مرتين ضحكت المرأة.

ولكن هارجريفز عندما جاءت في الصباح التالي، كان ناثانيال مصابًا بحمى شديدة ولم يكن في حالة مزاجية للمزاح أو الكلام المعسول، لذا غادرت المرأة عجلى.

عانى من احمرار اللسان والحلق وداوم على طلب الماء.

وفي غضون الليل رأى فيما يرى النائم أنه ذات مرة كان يصرخ على الدنماركيين كريهي الرائحة الذين كانوا يخرجون من نهر التايمز في قواربهم عالية الطاقة. كان صدره مملوءًا بالبلغم اللزج الذي لم يستطع طرده وكان يتنفّس بصعوبة بالغة. ولما هتك الصبح ستار الليل، هرول روب كول نحو البيت المجاور ليحضر الأرملة ديلا هارجريفز، ولكنها أبت أن تحضر. «بدت لي أنها عدوى القلاع. عدوى القلاع سريعة الانتشار بدرجة عالية». قالت ذلك وأغلقت الباب.

لا يوجد مكان آخر يذهب إليه روب كول ولكنه عاد مرة أخرى للنقابة العمالية للنجارين. وهناك استمع ريتشارد بوكيريل إليه بجدية ثم تبعه إلى المنزل. ولما وصل بوكيريل، جلس على طرف السرير لبرهة من الوقت، ولاحظ وجه ناثانيال المتورد وسمع حشرجة في صدره عند التنفس.

والحل السهل يمكن أن يكون بدعوة الكاهن، فالكاهن قد يفعل القليل ولكن الشموع المضيئة والصلوات قد تفعل الكثير، وبوكيريل يمكنه أن يدير ظهره دون خشية النقد. لقد كان بوكيريل بنّاءً ناجحًا على مدى بضع سنوات، ولكن كان أبعد عن فهمه باعتباره رئيس اتحاد لندن للنجارين، القيام بمحاولة استغلال الموارد الضئيلة لتحقيق أكثر ما يمكن تحقيقه.

ولكنه كان يعرف ما الذي قد يحدث لهذه العائلة ما لم ينجُ أحد الأبوين، وهرول بعيدًا واستغل أموال النقابة العمالية للنجارين لاستدعاء الطبيب توماس فيراتون.

وفي تلك الليلة تحدّثت زوجة بوكيريل إلى زوجها بعد أن ثارت ثائرتها. وقالت: «طبيب؟» هل ناثانيال كول فجأة أصبح من الأعيان أو النبلاء، الآن؟ فإن الجرّاح العادي جيد بدرجة كافية للاعتناء بأي شخص فقير في لندن، لماذا ناثانيال كول يحتاج إلى طبيب ليكلفنا هذه التكاليف الباهظة

يا عزيزي؟».

كل ما فعله بوكيريل أنه غمغم معتذرًا، لأنها كانت على صواب. النبلاء والتجار الأغنياء وحدهم من يدفعون مقابل الخدمات باهظة التكاليف التي يقدمها الأطباء. في حين أن الناس العاديين يستأجرون الجراحين، وفي بعض الأحيان يدفع الإنسان الكادح نصف بنس لاستئجار حلّاق جرّاح لعمل حجامة أو وصف علاج وهمي. وبقدر ما كان يساور بوكيريل من قلق، كان يرى جميع المعالجين متطفلين ملاعين يضرون أكثر مما ينفعون. ولكنه أراد أن يمنح كول كل فرصة، وفي لحظة ضعف استدعى الطبيب وأنفق الاشتراكات التي جمعت بشق الأنفس من جيوب النجارين الأمناء.

عندما حضر الطبيب فيراتون إلى منزل عائلة كول، كان يملؤه التفاؤل والثقة؛ كان مظهره يؤكد الصورة الباعثة على الرفاهية. سرواله الضيق كان مقصوصًا بطريقة جميلة وأساور قميصه كانت مزخرفة بالتطريز الذي أيقظ على الفور في روب كول شعورًا مؤلمًا وذكرّه بأمه. سترته المبطنة، المصنوعة من أجود أنواع الصوف الموجود آنذاك المضمخة ببقع الدم الجافة والقيء، اعتقد أنها بكل فخر دعاية مشرفة لمهنته.

فهو ابن تاجر أصواف ثري -والده كان يدعى جون فيراتون- وقد تلقى فيراتون تدريبًا على يد طبيب يدعى بول ويليبالد الذي كان ينتمي لعائلة ميسورة الحال اشتغلت في صناعة النصال الحادة وبيعها. كان الطبيب ويليبالد يعالج الأثرياء، وبعد أن انتهى فيراتون من التدريب على يديه، انخرط فيراتون في ذلك النوع من التدريب الذي يعرف بالتدريب الذاتي. وكان علاج المرضى في طبقة النبلاء حلمًا بعيد المنال لابن التاجر، ولكن في المنزل اعتراه الشعور بالثراء؛ حيث تجمعه قواسم مشتركة من النزعات والاهتمامات مع طبقة النبلاء. فهو لم يقبل عن عمد أن يعالج

مريضًا من الطبقة الكادحة، ولكنه افترض أن بوكيريل مبعوث نيابة عن شخص من النبلاء. وعلى الفور أيقن فيراتون أن ناثانيال كول مريضًا غير جدير بالاحترام، ولكنه لم يرغب في إحداث ضجة، وقرر إنهاء هذه المهمة الثقيلة بأسرع وقت كلما أمكن.

لمس فيراتون جبهة ناثانيال بلطف، وحدّق في عينيه، وتشمّم رائحة نفسه.

قال: «حسنًا» سوف تزول هذه الحالة.

سأل بوكيريل قائلًا: «ما هذه الحالة؟» ولكن فيراتون لم يرد.

شعر روب كول بفطرته أن الطبيب لم يعرف.

وفي نهاية المطاف قال فيراتون: «إنه الخناق»، وأشار إلى القروح البيضاء في حلق أبيه القرمزي. وهو التهاب قيحي ذو طبيعة مؤقتة. لا شيء أكثر من ذلك. ووضع رباطًا ضاغطًا حول ذراع ناثنيال، وفصد ذراعه بمهارة حتى نفر منه دم غزير.

وسأل بوكيريل قائلًا: «ماذا لو لم تتحسن حالته؟».

صرّ الطبيب ما بين عينيه. فهو لن يعاود زيارة منزل مريض من الطبقة الدنيا.

قال الطبيب: «لقد فصدته للمرة الثانية كي أتأكد»، وبالفعل فصد ذراعه الأخرى. وترك الطبيب قنينة من سائل الكالوميل الممزوج بالخيزران المتفحم، وتقاضى أتعابه من بوكيريل مقابل الزيارة، والفصد، والدواء كل على حدة.

غمغم بوكيريل بكلام غير مفهوم قائلًا: «مصّاص دماء الكادحين! أحد النبلاء الحمقى السفاحين»، وحدج الطبيب بنظرة حادة. ووعد بوكيريل،

رئيس النجارين، روب أنه سيرسل امرأة لتعتني بأبيه.

استلقى ناثانيال دون حراك وهو ممتقع الوجه هزيل الجسم. وخيّل له عدة مرات أن الصبي هو أجنيس وحاول الإمساك بيده. ولكن سرعان ما تذكّر روب ما حدث إبان الفترة التي لازمت فيها أمه فراش المرض وانسحب بعيدًا.

وفيما بعد، اعترى الصبي شعور بالخجل، وعاد إلى جوار أبيه. أمسك يد ناثانيال التي أنهكها العمل الشاق، ولاحظ أظافره المكسورة الخشنة، والأوساخ العالقة، والشعر الأسود المتجعد.

وحدث كما حدث من قبل. كان روب كول يعي أن أباه يتضاءل ويتلاشى مثل لهيب شمعة يخبو شيئًا فشيئًا. كان يدرك بطريقة أو بأخرى أن أباه كان يحتضر وأن ذلك سوف يحدث في القريب العاجل، واستبدّ به رعب مكتوم مماثل لذلك الرعب الذي استولى عليه عندما كانت أمه تصارع الموت.

وخلف السرير كان يقبع إخوته وأخته. ورغم أنه كان صبيًّا صغيرًا، لكنه كان حاد الذكاء، عندما طغت الضرورة الملحة على الأسى الذي يحاصره ومعاناة الألم.

هزّ روب ذراع أبيه. وتساءل بصوت عال قائلًا: «ماذا سيحدث لنا؟» ولكن لم يأته الجواب.



3

الافتراق

ولأن هذه المرة من انقضى عمره هو أحد أعضاء النقابة العمالية للنجارين وليس مجرد شخص معال، فقد دفع اتحاد لندن للنجارين ثمن تلاوة خمسين مزمورًا. وبعد يومين على مرور الجنازة، ذهبت ديلا هارجريفز إلى مدينة رامسي إلى شقيقها لتعيش معه. انتحى ريتشارد بوكيريل بروب جانبًا للحديث معه.

قال رئيس النجارين دون سابق إنذار: «عندما لا يكون هناك أقارب، يجب تقسيم الأطفال وتوزيع الممتلكات». «سيتولى اتحاد لندن للنجارين الأمر برمته».

تحجّر شعور الفتى.

وفي ذلك المساء حاول أن يشرح لإخوته وأخته الأمر. كان صموئيل يعرف ما كان يتحدث عنه فحسب.

«علينا أن نفترق، إذًا؟».

«نعم..».

«هل سيعيش كل واحد منا مع عائلة أخرى؟».

«نعم..».

في تلك الليلة تسلّل أحدهم إلى السرير بجانبه. كان يتوقع أن يكون المتسلل هو ويليام أو آن ماري، ولكن صموئيل هو من طوّقه بذراعيه

وتشبّث به كما لو كان يحميه من السقوط. «أريدهما أن يعودا، يا روب».

«وأنا كذلك». كان يربّت على الكتف النحيلة التي كان يلكزها كثيرًا.

بكيًا سويًّا لبعض الوقت.

«ألن نرى بعضنا بعضًا مرة أخرى، إذًا؟».

شعر بالجفاء. «أوه! صموئيل. كف عن سخافتك الآن. لا شك أننا سوف نعيش في نفس الحي وسنرى بعضنا بعضًا طوال الوقت. سنظل إخوة إلى الأبد».

لقد أعادت هذه الكلمات صموئيل إلى رحاب الطمأنينة ونام لبعض الوقت، ولكن قبل الفجر، بلّل الفراش كما لو كان أصغر من جوناثان. وفي الصباح كان يشعر بالخجل ولم يتحمّل أن تلتقي عيناه بعيني روب. كانت مخاوفه مبررة، لأنه كان أول من رحل. كان معظم أعضاء العشيرة المكونة من عشرة أنفار التي ينتمي إليها أبوهم لا يزالون عاطلين عن العمل. ومن بين النجّارين التسعة، كان هناك رجل واحد فحسب قادرًا وراغبًا في ضم طفل إلى أسرته. وبالإضافة إلى صموئيل، ذهبت مطارق نثانيال ومناشيره إلى تيرنر هوم، وهو نجار خبير كان يسكن على بعد ستة منازل فحسب.

وبعد يومين، جاء قس يدعى رانالد لوفيل مع الأب كيمبتون، الرجل الذي أقام صلاة القدّاس للأم والأب. قال الأب لوفيل إنه نقل إلى شمال إنجلترا ويريد طفلًا. لقد تفحّصهم جميعًا وانبهر بوليام. كان رجلًا ضخمًا وقوي البنية بشعر أصفر شاحب وعينين شقراوين حاول روب أن يقول لنفسه إنهما عينان رحيمتان.

لم يستطع شقيقه، الأبيض والمرتجف، إلا أن يهزّ رأسه ويتبع

الكاهنين خارج المنزل. قال روب: «وداعًا، إذًا، ويليام».

تساءل دون حماس لربما أنه لم يستطع الاحتفاظ بالصغيرين. لكنه كان بالفعل يوزع آخر طعام تبقى من جنازة أبيه، وكان فتى واقعيًا. مُنح حزام الأدوات وسترة أبيه الجلدية وجوناثان إلى عضو رفيق يدعى أيلوين الذي ينتمي إلى جماعة المئة التي كان ينتمي إليها ناثانيال. عندما جاءت مسيز أيلوين، شرح لها روب أن جوناثان قد تدرّب على قضاء الحاجة ولكنه يحتاج إلى الحفاض عندما يشعر بالخوف، وقبلت أن تأخذ الملابس التي لم تغسل بعد والطفل بابتسامة عريضة وإيماءة.

احتفظت المرضعة بالطفل الرضيع روجر وحصلت على مواد التطريز الخاصة بالأم. أبلغ ريتشارد بوكيريل روب، الذي لم يسبق له أن رأى المرأة.

كان شعر آن ماري بحاجة إلى الغسيل. لقد فعل ذلك بعناية – كما تعلم، ولكن لا يزال بعض الصابون يتسلسل إلى عينيها وكان صعبًا وحارقًا. ثم مسّد شعرها وجففه وحضنها وهي تبكي، وتشمّم شعرها البني النظيف الذي تنبعث منه رائحة تشبه رائحة الأم.

وفي اليوم التالي، أخذ الخباز وزوجته، مسيز هافرهيل، قطع الأثاث الأكثر صلابة، وذهبت آن ماري للعيش فوق متجر المعجنات. أمسك روب بيدها، وأعادها إليهم: وداعًا إذًا أيتها الفتاة الصغيرة. «أحبك يا فتاتي آن ماري»، همس وهو يحتضنها عن قرب، ولكن يبدو أنها تلومه على كل ما حدث ولن تودعه.

بقي روب كول وحده، دون ممتلكات، وفي تلك الليلة جاء بوكيريل لرؤيته. ورغم أن رئيس النجارين كان ثملًا، إلا أن عقله لم يغب. وقال: «قد يستغرق الأمر وقتًا طويلًا للعثور على مكان لك. في تلك الأوقات، لا

أحد لديه طعام يلبي شهية صبي كبير لا يستطيع القيام بعمل الرجال». وبعد صمت مطبق، تحدث مرة أخرى. «عندما كنت أصغر سنًّا، قال الجميع إذا كان بإمكاننا الحصول على سلام حقيقي فحسب والتخلص من الملك إيثيلريد، أسوأ ملك دمر جيله على الإطلاق، فإن الفترات القادمة ستكون جيدة. تعرضنا لغزو بعد غزو: الساكسون، الدنماركيين، وكل القراصنة الدمويين. الآن أخيرًا لدينا مَلكية قوية لحفظ السلام يمثلها الملك كانوت، ولكن يبدو الأمر كما لو أن الطبيعة تتآمر لتقييدنا. عواصف الصيف والشتاء العظيمة قادرة على إبادتنا. ثلاث سنوات متتالية فسدت فيها المحاصيل. المطاحن لا تطحن الحبوب، البحارة في الموانئ ماكثون. لا أحد يبني، والحرفيون عاطلون. إنها أوقات عصيبة يا ولدي. لكنني سأجد لك مكانًا، أعدك».

«شكرًا لك يا رئيس النجارين».

كانت عيون بوكيريل السوداء متعبة. «لقد رأيتك يا روبرت كول. لقد رأيت صبيًّا يهتم بعائلته مثل رجل جدير بالاحترام. كنت أصطحبتك إلى منزلي إذا كانت زوجتي من نوع مختلف من النساء». رمشت عيناه، واستشعر الحرج عندما أدرك أن الخمر أرخت لسانه أكثر من اللازم، وانحنى متثاقلًا. «ليلتك سعيدة، يا روب».

«ليلة سعيدة، يا رئيس النجارين».

أصبح روب كول ناسكًا. كانت الغرف شبه الفارغة كهفه. لم يدعه أحد إلى طعام. كان جيرانه قادرين على تجاهل وجوده لكنهم دعموه على مضض.

جاءت مسيز هافرهيل في الصباح وتركت رغيف الأمس غير المبيع من المخبز وجاءت مسيز بوكيريل في المساء وتركت قطعة صغيرة من الجبن،

مشيرة إلى عينيه المحمرتين وألقت عليه محاضرة مفادها أن البكاء كان امتيازًا نسائيًّا. كان يسحب الماء من البئر العام كما كان يفعل من قبل، وكان يعتني بالمنزل ولكن لم يكن هناك أي شخص ليجعل المكان الهادئ المنهوب في حالة من الفوضى ولم يكن لديه ما يفعله سوى القلق والتظاهر.

ففي بعض الأحيان أصبح كشافًا رومانيًّا، كان يستلقي قرب النافذة المفتوحة خلف ستار الأم ويستمع إلى أسرار أعداء العالم. سمع صوت سحب العربات وهي تمر بسرعة، ونباح الكلاب، ولعب الأطفال، وأصوات الطيور.

وبمجرد أن يتناهى إلى مسامعه أصوات جماعة من الرجال من النقابة العمالية للنجارين. «روب كول صفقة». قال بوكيريل: «شخص ما يجب أن يفوز به».

استلقى هناك بائسًا متخفيًا، يسترق السمع إلى الآخرين وهم يتحدثون عنه كما لو كان شخصًا آخر.

«نعم، انظر إلى حجمه. سوف يعمل بلا كلل أو ملل عندما يبلغ أشده»، قالها هوج تيتي على مضض.

ماذا لو أخذه تيتي؟ فكر روب في استياء في احتمال العيش مع أنتوني تيتي. لم يكن مسرورًا عندما زمجر هوج في اشمئزاز. «لن يكون كبيرًا في السن بما يكفي ليكون صبيّ نجار حتى ثلاث سنوات أخرى ويأكل كثيرًا كمن يأكل الأخضر واليابس الآن، عندما تكون لندن ممتلئة برجال أشداء وبطون فارغة». ابتعد الرجال.

وبعد يومين، خلف نفس ستار النافذة، دفع ثمنًا باهظًا لخطيئة التنصت عندما سمع مسيز بوكيريل تتناقش مع مسيز هافيرهيل حول رئاسة زوجها لمكتب النقابة العمالية للنجارين.

«الجميع يتحدث عن شرف كونه رئيس النجارين. فالنقابة لا تضع الخبز على مائدتي. على العكس تمامًا، فإنها تمثل التزامات مرهقة. لقد سئمت من الاضطرار إلى مشاركة دعمي مع أمثال ذلك الفتى الكسول الكبير القاطن هناك».

«أيًّا كان المصير الذي سيؤول إليه هذا الفتى؟» قالت مسيز هافرهيل وهي تتنهّد.

«لقد نصحت السيد بوكيريل بأنه ينبغي بيعه باعتباره فقيرًا. حتى في الأوقات الصعبة فإن العبد الصغير سوف يحقق سعرًا لسداد مستحقات النقابة ومستحقاتنا جميعًا مقابل كل ما أنفق على عائلة كول».

كان غير قادر على التنفس.

شهقت مسيز بوكيريل. وقالت بمرارة: «لن يسمح رئيس النجارين بذلك. أنا على ثقة من أنني سأقنعه في النهاية. ولكن بحلول الوقت سوف يغير رأيه، لن نكون قادرين على استرداد التكاليف».

عندما ابتعدت المرأتان، استلقى روب وراء ستار النافذة كما لو كان محمومًا، ومتعرقًا باستمرار ومرتجفًا من البرودة.

طوال حياته، رأى العبيد، واعتبر أن حالهم أمر مسلّم به لا علاقة له به كثيرًا، لأنه ولد إنجليزيًّا حرًّا.

كان صغيرًا جدًّا لدرجة تحول دون أن يعمل كعامل شحن في أرصفة الموانئ. لكنه كان يعلم أن العبيد كانوا يستغلون في المناجم، حيث عملوا في الأنفاق الضيقة جدًّا التي لا يمكنها أن تستوعب أجساد الرجال. كان يعلم أيضًا أن العبيد كانوا يرتدون أسمالًا بالية وكانوا يأكلون فتات الطعام،

وغالبًا ما يجلدون بوحشية جرّاء المخالفات الصغيرة التي يرتكبونها. وإنه بمجرد استرقاقهم مرة واحدة، فإنهم يصبحون مملوكين مدى الحياة.

استلقى وبكى. في النهاية استنفر قواه واستجمع شجاعته وحدّث نفسه أن الوغد بوكيريل لن يبيعه أبدًا ليكون تحت نير العبودية، لكنه كان يخشى أن ترسل مسيز بوكيريل آخرين للقيام بذلك دون إبلاغ زوجها. قال لنفسه إنها كانت قادرة تمامًا على مثل هذا الفعل.

كان ينتظر في المنزل المهجور الذي خيّم عليه الصمت يتذكر ويرتجف عند سماع كل صوت.

وبعد مرور خمسة أيام ثقال على جنازة أبيه، جاء رجل غريب إلى المنزل.

«أأنت الفتى كول؟».

أومأ بحذر، والقلب يخفق.

«اسمي كروفت. جئتك بإيعاز من رجل يدعى ريتشارد بوكيريل، التقيت به أثناء الشرب في حانة باردويل».

رأى روب رجلًا ليس شابًّا وليس طاعنًا في السن بل ممتلئ الجسم بوجه لفحه الهواء يبدو جليًّا وسط شعر مفروق مديد الطول لرجل حر ولحية مستديرة مجعدة بلون الزنجبيل.

«ما اسمك بالكامل؟» «روبرت جيريمي كول، يا سيدي»، «ما عمرك؟».

«تسع سنوات».

«أنا حلاق جراح وأبحث عن صبيّ. هل تعرف ما يفعله الحلّاق الجرّاح أيها الفتى؟».

«هل أنت طبيب في تخصص ما؟».

ابتسم الرجل السمين. «في الوقت الحالي، هذا يكفي تقريبًا. أخبرني بوكيريل بظروفك. هل يروق لك عملي؟».

كلا. لم يكن لديه رغبة في أن يصبح مثل المتطفل التي يستنزف والده حتى الموت. ولكن حتى أقل من ذلك لم يرغب في أن يباع كعبد، وأجاب بالإيجاب دون تردد.

«ألست خائفًا من العمل؟».

«أوه، لا يا سيدي!».

«هذا جيد، لأنني سأثقل عليك بالعمل. قال بوكيريل إنك تقرأ وتكتب وتعرف اللاتينية؟».

تردد كول، وقال: «القليل جدًّا من اللاتينية، في الحقيقة».

ابتسم الرجل. «سوف أجربك لبعض الوقت، يا فتى. هل لديك أغراض هنا؟».

كانت صرته الصغيرة جاهزة منذ أيام. سأل نفسه قائلًا: هل نجوت؟ في الخارج، صعد إلى أغرب عربة رآها على الإطلاق. على جانبي المقعد الأمامي كان هناك عمود أبيض مع شريط سميك ملفوف حوله مثل ثعبان قرمزي. كانت عربة مغطاة مطلية باللون الأحمر الفاتح ومزخرفة بصور بلون أشعة الشمس الذهبية لكباش، وأسود، وحراشف، وماعز، وأسماك، ورماه، وسلاطيع...

سحبهما الحصان الرمادي الأرقط بعيدًا وتدحرجا إلى شارع النجّار وتجاوزا مبنى النقابة العمالية للنجارين. جلس متجمدًا لأنهما كانا يتجولان بحذر في غمرة الصخب في شارع التايمز، وتمكّن من إلقاء نظرة سريعة على الرجل ولاحظ الآن وجهًا وسيمًا على الرغم من السمنة، وأنفًا بارزًا ومحمرًا، وثؤلولًا على الجفن الأيسر، وشبكة من الخطوط الدقيقة التي تشع من زوايا عينين زرقاوين ثاقبتين.

عبرت العربة الجسر الصغير على شارع والبروك ومرت بإسطبلات إيجليستون والمكان الذي سقطت فيه الأم. ثم انعطفا يمينًا واهتزّا فوق جسر لندن قاصدين الجانب الجنوبي من التايمز. والسفينة الراسية بجانب الجسر كانت عبّارة لندن، وبعد ذلك بقليل، كان يوجد سوق ساوثوارك الكبير حيث تدخل الواردات إلى إنجلترا. وقد مرّا بمستودعات أحرقها ودمرها الدنماركيون وأعيد بناؤها مؤخرًا. وعلى جانب الجسر كان هناك صف واحد من الأكواخ المصنوعة من العرائض الخشبية والملاط، وهي منازل الصيادين، وعمال المراكب، وعمال الأرصفة والموانئ. وكانت هناك استراحتان قديمتان للتجار الذين يحضرون السوق. وبعد ذلك، على الجسر المتاخم الواسع، كان هناك صف مزدوج من المنازل الكبرى، وضياع التجار الأثرياء في لندن، وكل هذه المنازل كانت مسوّرة بحدائق غناء وبعضها كان مبنيًّا على أعمدة خشبية مثبتة في الأرض. تعرف على منزل مصدّر المشغولات المطرزة الذي كانت تتعامل معه أمه. لم يسافر قط أبعد من هذه البقعة.

«سيد كروفت؟».

عبس الرجل. «لا لا. أنا لم أنادَ قط بكروفت. أنا دائمًا ما أنادى بالحلاق، بسبب مهنتي». قال: «نعم أيها الحلاق». في لحظات أصبحت ساوثوارك وراءهما، ومع ارتفاع وتيرة الرعب أدرك روب كول أنه دخل إلى العالم

الخارجي الغريب وغير المألوف.

«أيها الحلاق، إلى أين نحن ذاهبان؟» لم يستطع أن يمسك نفسه عن البكاء.

ابتسم الرجل وشدّ اللجام، مما تسبب في هرولة الحصان الأرقط.

وقال: «إلى أي مكان».

4

الحلّاق الجرّاح

قبل الغسق، نصبا خيمة على تل بجانب مجرى مائي. قال الرجل إن الحصان الرمادي الوئيد هو تاتوس. وتاتوس اختصار لـ«إنكيتاتوس»، أحب الإمبراطور كاليجولا الحصان كثيرًا لدرجة أنه جعل الحيوان كاهنًا وقنصلًا. «إنكيتاتوس خاصتنا هو حيوان جميل عابر لمتسول ما له شاة ولا بعير وهو مخصي»، قال الحلاق وأوضح له كيف يعتني بالحصان المخصي، ويفركه بحفنة من العشب الناعم الجاف ثم يسمح له بالشرب والذهاب للرعي قبل أن يمضيا إلى تلبية حاجاتهما الخاصة. ورغم أنهما كانا في العراء، على بعد مسافة من الغابة، إلا أن الحلاق أرسله لجمع الحطب الجاف وقودًا للنار وكان يتعين عليه القيام بنشاط مضاعف لجمع كومة من الحطب. وسرعان ما اشتعلت النار، وقد تحلّب فمه عندما بدأت تفوح رائحة الطعام. وفي قدر حديدي، وضع الحلاق كمية كبيرة من لحم الخنزير المدخن المقطّع إلى شرائح سميكة. والآن يسكب معظم الدهن المذاب، وفي الشحم الذي يبقبق يقطّع واحدة من اللفت الكبير والكثير من الكرّاث، ويضيف حفنة من التوت المجفف ونثارًا من الأعشاب. وإبان الوقت الذي نضج فيه المزيج اللاذع، لم يكن روب قد اشتمّ أي شيء أفضل من هذه الرائحة. أكل الحلاق بتبلد، وراقب روب ثم ازدرد جزءًا كبيرًا من الطعام وفي صمت أعطاه جزءًا آخر. كانا يمسحان الأطباق الخشبية بقطع من خبز الشعير. ودون أن يطلب منه، أخذ روب القدر والأطباق إلى المجرى المائي وفركها بالرمل.

وعندما أعاد الماعون، ذهب إلى شجيرة مجاورة وبال.

قال الحلاق وهو يقترب منه فجأة: «سيدي وسيدتي المباركان، ولكن هذا بطرس رائع المظهر». انتهى قبل حاجته إلى الانتهاء وأخفى العضو. «عندما كنت رضيعًا»، قال متبرمًا، «لقد تعرضت للإهانة... هناك». قال الحلاق: «تناهى إلى مسامعي أن جراحًا قطع القلفة في نهاية الذكر».

حدّق فيه الحلاق دهشًا. وقال: «نزعوا الغرلة. لقد خضعت للختان مثل وثني ينزف دمًا». ابتعد الصبي، وكان مضطربًا جدًّا. كان حذرًا ومترقبًا. اشتدّ عصف الريح البارد تجاههما من الغابة، فتح صرّته الصغيرة وأخرج قميصه الآخر، ارتداه فوق القميص الذي كان يرتديه.

أخرج الحلاق قطعتين من الجلد المكسو بالفراء من العربة ورماهما نحوه فجأة. قال الحلاق: «سنفترش العراء، لأن العربة ملأى بشتى الأغراض على مختلف أنواعها».

في الصرّة المفتوحة، رأى الحلاق وميض القطعة النقدية والتقطها. لم يسأل الحلاق عن المكان الذي عثر فيه على القطعة النقدية، ولم يخبره روب. قال روب: «يوجد عليها نقش». «أنا وأبي... اعتقدنا أن النقش يشير إلى أول فيلق من الرومان وفد إلى لندن».

فحصه الحلاق. وقال: «نعم».

من الواضح أنه كان يعرف الكثير عن الرومان ويقدّرهم، انطلاقًا من الاسم الذي أطلقه على حصانه. استولى على روب يقين منقوص أن الرجل سيحتفظ بالقطعة النقدية. قال بصوت أجش: «توجد حروف على الجانب الآخر».

أخذ الحلاق القطعة النقدية ليقرأها في الظلام الكثيف على وهج النار. «آي. أوه. إكس. آي أوه تعني «صيحة». إكس تعني «عشرة». إنه هتاف روماني تعبيرًا عن النصر: «عشر صيحات!»».

تقبّل روب عودة القطعة النقدية بارتياح ورتّب فراشه بالقرب من النار. كانت الجلود التي وضعها على الأرض من جلد الخراف، حيث جعل الجانب المكسو بالصوف من أعلى، وجلد الدب تدثر به. ورغم أن الجلود كانت بالية ذات رائحة نفاذة، إلا أنها ستمنحه الدفء.

رتّب الحلاق فراشه على الجانب الآخر قرب النار، ووضع سيفه وسكينه حيث يمكن استخدامهما لردع المهاجمين أو -كما اعتقد روب وهو يتملكه الخوف- للبطش بصبي هارب. كان الحلاق قد أزال قرنًا سكسونيًّا كان يرتديه على حزام جلدي حول عنقه. أغلق المؤخرة بسدادة عظمية، وملأه بسائل داكن من قارورة وأمسكه باتجاه روب. «مشروباتي الروحية. اشرب حتى الثمالة».

لم يكن راغبًا في الشراب ولكنه خشي أن يرفض. تعرض طفل من الطبقة العاملة في لندن للتهديد بحكاية مرعبة وصعبة عن البعبع، ولكن روب قد بصر وعرف في وقت مبكر أن هناك بحارة وعمال شحن وتفريغ حريصين على إغراء صبي خلف مستودعات مهجورة. عرف بشأن الأطفال الذين قبلوا قطع الحلوى والقطع النقدية من رجال مثل هؤلاء، وكان يعرف ما يجب عليهم فعله في المقابل. كان يدرك أن السكر ما هو إلا بداية. ورغم أنه حاول رفض المزيد من الخمور، لكن الحلاق كان يقطّب جبينه. ويأمره قائلًا: «اشرب. الشرب سيجلب لك الراحة».

لم يشعر الحلاق بالرضا إلا بعد أن ابتلع روب رشفتين كاملتين وكان قد بدأ يسعل بشدة. أعاد الحلاق القرن إلى جانبه قرب النار واحتسى القارورة كلها وتبعها بأخرى، وأخرج ريحًا مسموعًا واستقرّ في سريره. ونظر إلى روب مرة أخرى فقط. وقال: «استرخ، يا فتى. نم جيدًا. ما من شيء يدعوك للخوف مني».

كان روب متأكدًا من أنها خدعة. استلقى تحت جلد الدب كريه الرائحة

وظل مشدود الوركين. وفي يده اليمنى أمسك القطعة المعدنية. وفي يده اليسرى، على الرغم من يقينه أنه حتى لو كان يمتلك أسلحة الحلاق، فلن يضاهي الرجل في قوته، وسيكون تحت رحمته، أمسك بحجر صخري ثقيل.

ولكن في النهاية كان هناك ثمة دليل دامغ على أن الحلاق غطّ في نوم عميق. كان شخير الرجل مدويًا ومزعجًا.

امتلأ فم روب بالمذاق الطبي للكحول. كان جسده يفوح برائحة الكحول لأنه كان يغوص في عمق الفراء وتدحرج الحجر الصخري من يده. تشبث بالقطعة النقدية وتخيل الرومان، رتبة عسكرية تلو الأخرى، وهم يصيحون عشر مرات للأبطال الذين لا يسمحون لأنفسهم بأن يهزمهم العالم. وفي السماء، تلألأت النجوم كبيرة وبيضاء، وبدت أنها تدور في حركة دائرية في أرجاء السماء. ولذلك تمنى أن تدنو منه حتى يبلغها ويتخطفها حتى ينسج منها قلادة لأمه. كان يفكر في كل فرد من أفراد عائلته؛ واحدًا تلو الآخر. ومن بين الأحياء، افتقد صموئيل أكثر من غيره، وكان ذلك غريبًا لأن صموئيل كان قد استاء منه باعتباره الأكبر وتحداه بكلمات بذيئة ولسان سليط. كان قلقًا بشأن ما إذا كان جوناثان يبلل حفاضه وما إذا كانت مسيز أيلوين مقيمة الصلاة تتحلى بالصبر مع الصغير. كان يحدوه الأمل في أن يعود الحلاق إلى لندن قريبًا جدًّا، لأنه كان يتوق لرؤية الأطفال الآخرين مرة أخرى.

كان الحلاق يدرك الشعور الذي ينتاب صبيه الجديد. كان في نفس عمره بالضبط عندما وجد نفسه وحيدًا بعد أن قصف المحاربون المتوحشون قرية كلاكتون، القرية المشهورة بالصيد التي ولد فيها. لقد احترقت في ذاكرته.

كان إثيليرد هو من يجلس على عرش الملكية عندما كان في مرحلة

الطفولة. وفي وقت مبكر كما يتذكر، كان والده دائمًا يصب لعناته على إثيليرد، ويقول إن الناس لم يقبعوا في براثن الفقر المدقع في ظل حكم أي ملك آخر غير إثيليرد. استبدّ إثيليرد وفرض الضرائب، مما وفر رغد العيش لإيما، المرأة قوية الإرادة بارعة الجمال التي جلبها من نورماندي لتكون ملكته. كما أنه بنى جيشًا بالضرائب ولكنه استخدمه لحماية نفسه أكثر من حماية شعبه، وكان قاسيًا متعطشًا للدماء لدرجة أن بعض الرجال بصقوا لما سمعوا اسمه.

في ربيع 991 بعد الميلاد، جلب إثيليرد العار إلى رعاياه عن طريق رشوة المهاجمين الدنماركيين بالذهب لإبعادهم عن ملكه. وفي الربيع التالي عاد هيت الدنماركي إلى لندن كما فعل منذ مئة عام. وفي هذه المرة لم يكن لدى إثيليرد أي خيار؛ جمع مقاتليه وسفنه الحربية، وهزم الدنماركيين في نهر التايمز في مذبحة عظيمة. ولكن بعد ذلك بعامين، كان هناك غزو أكثر خطورة، عندما أبحر أولاف، ملك النرويج، وسويجن، ملك الدنمارك، في نهر التايمز بأربع وتسعين سفينة حربية. ومرة أخرى، جمع إثيليرد جيشه في جميع أنحاء لندن وتمكن من إبعاد الاسكندنافيين، ولكن هذه المرة رأى الغزاة أن الملك الجبان قد ترك بلاده عرضة للخطر من أجل حماية نفسه. قسّم الاسكندنافيون أسطولهم البحري وأرسوا سفنهم الحربية على طول الساحل الإنجليزي ونشروا الخراب والدمار في المدن الساحلية الصغيرة.

وفي ذلك الأسبوع، اصطحبه والده في أول رحلة طويلة له بعد صيد سمك الرنجة. وفي الصباح، عادا بصيد ثمين، ثم ركض متلهفًا ليرتمي بين ذراعي أمه وسماع كلمات المديح منها. كان هناك نصف دزينة من القوارب الطويلة النرويجية مخبأة بعيدًا عن الأنظار في خليج صغير قريب. وعندما وصل إلى كوخه رأى رجلًا غريبًا يرتدي جلود الحيوانات يحدق فيه من خلال مصاريع النافذة المفتوحة.

لم تكن لديه أي فكرة عن كينونة الرجل، ولكن فطرته جعلته يلتفت ويركض مباشرة نحو أبيه لينقذ حياته.

كانت والدته مستلقية على الأرض وقد لفظت أنفاسها بالفعل، ولكن والده لم يكن يعرف ذلك. سحب لوك كروفت سكينه وهو يتجه نحو المنزل، لكن الرجال الثلاثة الذين التقوا به بالقرب من الباب الأمامي كانوا يحملون سيوفًا. ومن بعيد، رأى هنري كروفت والده غلب على أمره واقتيد. أمسك أحد الرجال بيدي والده خلف ظهره. شد آخر شعره بكلتا يديه وأجبره على الركوع ومد رقبته. قطع الرجل الثالث رأسه بالسيف. وفي التاسعة عشرة من عمره، شهد الحلاق إعدام قاتل في ولفرهامبتون؛ لقد شقّ السيّاف التابع لرئيس الشرطة رأس المجرم كما لو كان يذبح ديكًا. وعلى النقيض من ذلك، قطع رأس والده بشكل غير لائق، لأن الفايكنج كان يقومون بمجموعة من الأعمال الوحشية كما لو كانوا يقطعون قطعًا من حطب المدفأة.

تملكت هنري كروفت حالة هستيرية من الحزن والخوف، وقد دخل في الأدغال وأخفى نفسه مثل حيوان مطارد. وعندما كان يتجول في الخارج، كان مذهولًا ويتضور جوعًا، ذهب النرويجيون لكنهم تركوا الموت والخراب. ثم جمع هنري مع الأولاد الأيتام الآخرين وأرسلوا إلى دير كرولاند في لينكولنشاير.

وتسببت عقود من الغارات المماثلة التي شنّها الاسكندنافيون في هجرة الكثير من الرهبان للأديرة وزيادة عدد الأطفال اليتامى، لذا فقد حلّ البينديكتون مشكلتين من خلال ترسيم العديد من الأولاد اليتامى كهنة ومن ثم إيوائهم. وفي التاسعة من عمره، تلقّى هنري تعاليم أن يقطع على نفسه عهدًا إلى الرب بأنه سيعيش في زهد وعفة إلى الأبد طاعة للمبادئ التي وضعها القديس المبارك بنديكت نورسيا.

وهذا أكسبه قدرًا من التعليم. كان يدرس أربع ساعات في اليوم، ويعمل ست ساعات في اليوم في خضم الرطوبة والقذارة. كان يضم دير كرولاند مساحات شاسعة، معظمها ساحات، وفي كل يوم من الأيام كان يقوم هنري والرهبان الآخرون بفلاحة الأرض الموحلة، وجر المحاريث مثل الخيول الجامحة من أجل تحويل المستنقعات إلى حقول. وكان من المتوقع أن يقضي بقية وقته في التأمل أو الصلاة. كانت هناك صلوات صباحية، وصلوات بعد الظهر، وصلوات مسائية، وصلوات مستمرة. اعتبرت كل صلاة من الصلوات بمثابة خطوة واحدة على درب لا نهاية له من شأنه أن يصعد بروحه إلى الجنة. لم يكن هناك أي ترفيه أو ألعاب رياضية، لكن سمح له بالتريض في الرواق، وهو ممشى مغطى على شكل مستطيل. وفي الجانب الشمالي من الرواق كانت توجد غرفة الاعتراف، والمباني التي تحفظ فيها الأواني المقدسة. وفي الشرق كانت توجد الكنيسة؛ وفي الغرب يوجد منزل الراهب؛ وفي الجنوب، قاعة طعام غير مبهجة تتكون من غرفة طعام ومطبخ وحجرة المؤن في الطابق الأرضي ومهجع فوقها.

وداخل الرقعة المستطيلة كانت توجد القبور، الدليل القاطع على أن الحياة في دير كراونلاند يمكن التنبؤ بها: الغد سيكون مماثلًا للأمس وفي النهاية سيدفن كل راهب من الرهبان في هذا الرواق. ونظرًا لأن البعض أخطأ في هذا الأمر من أجل السلام، فقد اجتذبت كراونلاند العديد من النبلاء الذين فرّوا من بطش سياسات البلاط الملكي ووحشية إثيلريد وأنقذوا حياتهم بارتداء عباءة الدين. عاشت هذه النخبة المؤثرة في خلايا فردية، كما فعل المتصوفة الحقيقيون الذين بحثوا عن الرب من خلال آلام الروح وآلام الجسد التي يتلذذون بها وهم في رداء تعذيب الجسد، والوخز الباعث على الإلهام، وجلد الذات. وبالنسبة للذكور الآخرين البالغ عددهم سبعة وستين ذكرًا الذين اكتست رؤوسهم برقعات حليقة كعلامة على الترهب على الرغم من حقيقة أنهم كانوا غير مدعوين وغير

مقدسين، كان المنزل عبارة عن غرفة واحدة كبيرة تحتوي على سبعة وستين مفرشًا من مفارش النوم. إذا استيقظ هنري كروفت في أي لحظة في أي ليلة، فقد يسمع السعال والعطس، والشخير بمختلف الأصوات، وأصوات الاستمناء، وصرخات الحالمين الجرحى، وهبوب الرياح، وخرق قانون الصمت من خلال الشتائم غير الكنسية والمحادثات السرية التي تكاد تكون دائمًا عن الطعام. كانت الوجبات في كراونلاند ضئيلة للغاية.

كانت بلدة بيتربورو على بعد ثمانية أميال فقط، لكنه لم يرها قط. وفي أحد الأيام عندما كان يبلغ من العمر أربعة عشر عامًا، طلب من كاهن اعترافه، الأب دونستان، الإذن بتلاوة الترانيم وتلاوة الصلوات على ضفاف النهر بين صلاة الغروب وصلاة النوم. ومنح هذا الإذن. ولأنه كان يسير في أحد مروج النهر، تبعه الأب دونستان على مسافة بكماء. كان هنري يسير بخطى وئيدة ومتعمدة، ويداه خلف ظهره ورأسه محني كما لو كان يتعبد بعبادة تليق بأسقف. كانت أمسية صيف جميلة ودافئة مع نسيم منعش هبّ من الماء. حكى له الأخ ماثيو، الجغرافي، عن هذا النهر، نهر ويلاند. كان نهر ويلاند ينبع في ميدلاندز بالقرب من كوربي وينحدر بسهولة ويلتوى في كراونلاند مثل ثعبان، ومن ثم يتدفق شمالًا شرقًا بين التلال المتدحرجة والوديان الخصيبة قبل الاندفاع عبر المستنقعات الساحلية ليصب في الخليج العظيم لبحر الشمال المسمى خليج ومصب «ووش».

تجلت نعم الرب في الغابة والحقول التي تحيط بالنهر. صرّت صراصير الليل. غردت الطيور على الأشجار وحملقت فيه الأبقار باحترام وفي صمت وهي ترعى. كان هناك قارب صغير يرسو على ضفة النهر.

وفي الأسبوع التالي طلب السماح له بتلاوة صلاة انفرادية على ضفاف النهر بعد تقديم عبارات الثناء والمديح، صلاة الصبح. ومنح الإذن ولكن

هذه المرة لم يأت الأب دونستان. عندما وصل هنري إلى ضفة النهر، وضع القارب الصغير في الماء، وصعد إليه ودفعه بعيدًا.

استخدم المجاديف فحسب للدخول في عمق التيار، ثم جلس في وسط القارب الهش وراقب المياه البنية، تاركًا النهر يأخذه مثل ورقة الشجر الطافية. وبعد مدة زمنية، عندما أدرك أنه أبحر بعيدًا، بدأ يضحك. كان يصيح ويصرخ بأشياء صبيانية. «هذا من أجلك!» لقد بكى دون أن يعرف ما إذا كان يتحدى ستة وستين راهبًا سيناموِن من دونه، أو يتحدى الأب دونستان أو الإله الذي كان يراه في كرولاند إنسانًا قاسيًا.

مكث في النهر طوال اليوم، حتى غدا اندفاع الماء نحو البحر عميقًا جدًّا وخطيرًا كما يحلو له. ثم جذب القارب إلى الشاطئ وبدأ حياة جديدة عندما عرف ثمن الحرية.

كان يتجول في القرى الساحلية، ينام في أي مكان، ويعيش على ما يمكن أن يحصل عليه بالتسول أو السرقة. كان عدم وجود ما يأكله أسوأ بكثير من تناول القليل من الطعام. أعطته زوجة مزارع جوالًا من الطعام وسترة قديمة وسراويل ممزقة مقابل العادة البنديكتينية التي كانت تصنع القمصان الصوفية لأبنائها. وفي ميناء جريمسبي، أخذه صياد أخيرًا كمساعد وعمل لديه بطريقة منهكة لأكثر من عامين مقابل أجر زهيد ومأوى خاو على عروشه. وعندما بلغ الصياد أجله، باعت زوجه القارب لأشخاص لا يرغبون في صبية لمساعدتهم. قضى هنري شهورًا وهو يتضور جوعًا حتى وجد فرقة من المهرجين وسافر معهم، وحمل أمتعتهم وساعدهم في تلبية احتياجات حرفتهم مقابل بقايا الطعام والحماية. حتى في نظره كانت فنونهم خرقاء لكنهم عرفوا كيف يقرعون الطبول ويجذبون الجماهير، وعندما يمررون قبعة فارغة، تقذف الجماهير الغفيرة في القبعة الفارغة العملات المعدنية. كان يراقبهم في

حيرة ودهشة. لقد كان أكبر من أن يكون مهرجًا، حيث يجب تكسير عظام المهرجين وهم لا يزالون أطفالًا. لكن المشعوذين علموه حرفتهم. لقد حاكى الساحر وتعلم أبسط مآثر الخداع؛ علمه الساحر أنه يجب ألا يعطي انطباعًا عن استحضار الأرواح، ففي جميع أنحاء إنجلترا كانت الكنيسة والتاج البريطاني يشنقان السحرة. لقد أصغى باهتمام إلى القاص الذي كانت أخته الصغيرة المرأة الأولى التي سمحت له أن يدخل جسدها. ورغم أنه شعر بقرابة مع هؤلاء المهرجين، إلا أن الفرقة انحلّت في ديربيشاير بعد عام وتفرقت بأعضائها السبل وسلك كل واحد منهم طريقًا مختلفًا من دونه.

وبعد بضعة أسابيع في مدينة ماتلوك، أخذ حظه منعطفًا جديدًا عندما استأجره حلاق جراح يدعى جيمس فارو لمدة ست سنوات. وفي وقت لاحق، أدرك أنه لا أحد من الشباب المحليين قد يعمل لدى فارو كصبيّ لأنه كانت هناك حكايات تربطه بالسحر. وبحلول الوقت الذي سمع فيه هنري الشائعات كان قد قضى مع فارو عامين وعرف أن الرجل ليس ساحرًا. وعلى الرغم من أن الحلاق الجراح كان رجلًا باردًا وصارمًا، فإنه كان يمثل فرصة حقيقية لهنري كروفت.

كانت بلدة ماتلوك ريفية ومأهولة بالقليل من السكان، وتخلو من المرضى الذين ينتمون إلى الطبقة العليا أو طبقة التجار الأثرياء لدعم الطبيب ماديًّا، وكانت تخلو أيضًا من عدد كبير من السكان الأكثر فقرًا لجذب الجراح. وفي منطقة زراعية نائية جدًّا قرب ماتلوك، كان جيمس فارو، الحلاق الجراح الريفي، له شأن عظيم، بالإضافة إلى قيامه بإعطاء حقن التطهير وقص الشعر وحلقه، كان يجري عمليات جراحية ويصف العلاجات. أوفى هنري بالتزامه معه وقضى معه مدة تربو عن خمس سنوات. كان فارو سيد المهمات الصعبة. لقد ضرب هنري عندما ارتكب بعض الأخطاء، لكنه علّمه كل شيء يعرفه بدقة.

وخلال السنة الرابعة لهنري في ماتلوك، كان ذلك عام 1002، ارتكب الملك إثيلريد أفعالًا كانت لها عواقب وخيمة بعيدة المدى. وفي خضم محنته، سمح الملك لبعض الدنماركيين بالاستقرار في جنوب إنجلترا ومنحهم الأرض شريطة أن يقاتلوا من أجله ضد أعدائه. وهكذا اشترى خدمات أحد النبلاء الدنماركيين يدعى باليج توكسين، الذي كان زوجًا لجون هيلدا، أخت سويجن، ملك الدنمارك. ففي ذلك العام غزا الفايكنج إنجلترا واتبعوا أساليبهم المعتادة؛ الذبح والحرق. وعندما وصلوا إلى ساوث هامبتون، قرر الملك دفع الجزية مرة أخرى، وأعطى الغزاة أربعة وعشرين ألف جنيه إسترليني ليذهبوا بعيدًا.

وعندما تغلبت سفنهم على النرويجيين، شعر إثيلريد بالخزي واستبدّ به الغضب والإحباط. وأعطى أوامره بقتل جميع الدنماركيين الذين كانوا في إنجلترا في عيد القديس برايس، يوم الثالث عشر من نوفمبر. نفذت جريمة القتل الجماعي الغادرة بأمر من الملك، وبدا أنها تفتح بابًا من أبواب الشر الذي كان يتفشى في الشعب الإنجليزي.

كان العالم دائمًا وحشيًّا، ولكن بعد مقتل الدنماركيين أصبحت الحياة أكثر قسوة. وقعت جرائم عنيفة في جميع أنحاء إنجلترا، وتعرض السحرة للطرد والإعدام شنقًا أو حرقًا، وبدا أن شهوة الدم قد استولت على الأرض.

اكتمل تدريب هنري كروفت تقريبًا عندما توفي رجل مسن يدعى بيلي إيليرتون في ذلك الوقت الذي كان فيه تحت رعاية فارو. لم يكن هناك شيء يمكن ملاحظته بشأن الوفاة، ولكن سرعان ما انتشر الخبر انتشار النار في الهشيم بأن الرجل قد فارق الحياة لأن فارو قد أغرز الإبر فيه وسحره.

وفي يوم الأحد السابق، في الكنيسة الصغيرة في ماتلوك، تحدث الكاهن عن سماع الأرواح الشريرة وهي تتسامر وتحتسي الخمر في منتصف

الليل حول القبور في باحة الكنيسة، وتشارك في الجماع الجسدي مع الشيطان. «من الشائن للمخلص خاصتنا أن الميت ينهض بمساعدة الشيطان. وصاح وقال: «فالذين يمارسون هذه الحِرَف هم أعداء الرب» وحذر الكاهن من أن الشيطان كان من بينهم وكان يخدمه جيش من السحرة متنكرين في زي مخلوقات بشرية ويمارسون السحر الأسود والقتل السري.

وحصّن المصلين الذين يرتعبون ويخافون من السحرة بتعويذة يستخدمونها ضد كل من تحوم حوله شبهة ممارسة السحر: «أيها الساحر اللدود الذي يهاجم روحي، سوف تنقلب تعويذتك، وترتد عليك لعنتك ألف مرة. باسم الثالوث الأقدس أعد لي عافيتي وقوتي مرة أخرى. بسم الآب والابن والروح القدس. آمين».

وذكّرهم بتعاليم الكتاب المقدس، لن يتحمل ساحر ليعيش. وحذرهم قائلًا: «يجب البحث عنهم والقضاء عليهم إذا كان كل واحد منكم لا يرغب في الاحتراق في نيران المطهّر المتوهجة».

توفي بيلي إيليرتون يوم الثلاثاء، توقف قلبه عندما كان يحرث الأرض في الحقل. ادّعت ابنته أنها شاهدت ثقوبًا على جلده. لم يرَ أحد على وجه اليقين هذه الثقوب، ولكن صباح يوم الخميس، اقتحم حشد من الغوغاء فناء منزل فارو بعد أن امتطى الحلاق الجراح حصانه، وتجهز لزيارة المرضى. كان لا يزال يرمق هنري بنظراته ويعطيه التعليمات لهذا اليوم الذي فيه انتزعوه من السرج.

كان يقودهم سيمون بيك، الذي كانت أرضه متاخمة لأرض فارو. صاح سيمون بيك قائلًا: «جردوه من ثيابه».

كان فارو يرتجف رعبًا عندما مزّقوا ثيابه. قال فارو: «أنت أحمق، يا

بيك!» صاح فارو. «أحمق!» بدا فارو أكبر سنًّا وهو عارٍ، بدا جلد بطنه المندلق رخوًا في شكل طيات، وأكتافه المستديرة ضيقة، وعضلاته متهدلة وهزيلة، وبدا قضيبه ذابلًا صغيرًا فوق خصيتين ضخمتين أرجوانيتي اللون.

ها هي هناك! صاح سيمون بيك وقال: «علامة الشيطان!».

على الجانب الأيمن من فخذ فارو، كان جليًّا للرائي وجود بقعتين صغيرتين داكنتين، مثل لدغة الثعبان. قطع سيمون بيك واحدة بسكينه.

«شامات!» صاح فارو.

سال دمه الذي لم يكن من المفترض أن يسيل لو كان ساحرًا.

قال سيمون بيك: «إنهم أذكياء، وقادرون على النزف متى أرادوا».

قال لهم فارو بازدراء: «أنا حلاق ولست ساحرًا»، ولكن عندما ربطوه في صليب خشبي وحملوه إلى بركة الماء خاصته، بدأ في الصياح والصراخ طلبًا للرحمة.

ألقوا الصليب في بركة الماء الضحلة وأحدث اضطرابًا مدويًا وبقي أسفل سطح الماء. هدأ الحشد وهم يراقبون الفقاعات. وفي الوقت الحالي سحبوا الصليب لأعلى ومنحوا فارو فرصة للاعتراف. كان لا يزال يتنفس، ويثرثر بعد أن خارت قواه.

«هل أنت جار فارو الذي عمل مع الشيطان؟» سأله سيمون بيك بلطف.

لكن الرجل المقيد لا يمكنه إلا أن يسعل ويشهق من أجل الهواء. غطّسوه مرة أخرى. ولكن هذه المرة بقي الصليب تحت سطح الماء حتى توقفت الفقاعات. ولا يزال فارو تحت سطح الماء لم يرفعوه.

لم يستطع هنري فعل شيء سوى أنه اكتفى بالمشاهدة والبكاء، كما لو رآهم يقتلون والده مرة أخرى. ورغم أنه كان قد بلغ مبلغ الرجال، ولم يعد صبيًا، إلا أنه كان عاجزًا أمام صائدي الساحر، وقد خشي أن يأخذوا فكرة أن الصبيّ مع الحلاق الجراح كان مساعد الساحر.

وفي النهاية أفلتوا الصليب المغموس في الماء وقرؤوا التعويذة وذهبوا بعيدًا، تاركين فارو في بركة الماء.

وعندما ذهب الجميع، انغمس في البركة متسللًا عبر الطين ليسحب الصليب إلى الشاطئ. وسمع صوت بقبقة مدوية بين شفتي معلمه. أغلق عينيه اللتين ابيضتا في وجهه الأبيض والتقط طحلبًا من كتفي فارو قبل أن يحرره.

كان الحلاق الجراح أرمل بلا عائلة، وبالتالي فإن المسؤولية تقع على عاتق خادمه. وارى الجثةَ الثرى في أسرع وقت ممكن.

عندما عرّج على منزل فارو اكتشف أنهم سبقوه إلى هناك. لا شك أنهم كانوا يسعون للحصول على دليل على عمل الشيطان عندما سلبوا مال فارو وخموره. ورغم أن محتويات المنزل سلبت بأكملها، إلا أنه كانت هناك مجموعة من الثياب في حال أفضل من تلك التي كان يرتديها، وبعض الطعام الذي وضعه في جوال. كما أنه أخذ حقيبة من الأدوات الجراحية واستولى على حصان فارو الذي امتطاه ليخرج من ماتلوك قبل أن يتذكروه ويعودوا.

أصبح جائلًا مرة أخرى، ولكن هذه المرة كانت لديه حرفة أحدثت تغييرًا جوهريًا في حياته. ففي كل مكان كان هناك أشخاص مرضى يدفعون بنسًا أو بنسين من أجل العلاج. وفي النهاية تعلم الربح الذي يمكن أن يجني من بيع الأدوية، ولجمع الحشود استخدم بعض الطرق

التي تعلمها أثناء ترحاله وسفره مع المهرجين.

واعتقد دومًا أنه قد يتم البحث عنه، لذا لم يكن يمكث طويلًا في مكان واحد وتجنب استخدام اسمه الكامل، وغدا اسمه الحلاق. لم يمض وقت طويل على نسج هذه الأشياء في نسيج الوجود الذي يناسبه؛ كان يرتدي ثيابًا دافئة وجيدة، وكان لديه نساء مختلفات، ويشرب عندما ينتشي ويأكل بشهية في كل وجبة يتناول فيها طعامه، وقطع على نفسه عهدًا ألا يجوع مرة أخرى. زاد وزنه بسرعة. ففي الوقت الذي التقى فيه بالمرأة التي تزوجها، كان يزن أكثر من ثمانية عشر حجرًا. كانت لوسيندا إيمز أرملة لديها مزرعة جميلة في كانتربري، ولمدة نصف عام كان يرعى حيواناتها وحقولها، ويلعب دور الفلاح. كان يتلذذ بعجزها الأبيض الصغير، ويهوى قلبها الأبيض الحنون. وعندما كانا يمارسان الحب، كانت تدفع طرف لسانها الوردي من الزاوية اليسرى من فمها، مثل طفل يقوم بأشياء قاسية. ألقت باللوم عليه لعدم جعلها حبلى. ربما كانت على حق، لكنها لم تحمل من زوجها الأول أيضًا. أصبح صوتها صاخبًا، ونغمة صوتها مريرة، وطبخها مهمل، وقبل فترة طويلة من انتهاء العام معها كان يتذكر النساء الأكثر دفئًا والوجبات الممتعة، ويتوق لها أثناء إخراج لسانها.

كان ذلك في عام 1012، وهو العام الذي سيطر فيه سويجن، ملك الدنماركيين، على إنجلترا. لمدة عشر سنوات، كان سويجن قد استفز إثيلريد، متحمسًا لإحراج الرجل الذي قتل أقاربه. أخيرًا هرب إثيلريد إلى جزيرة وايت بسفنه، ولجأت الملكة إيما إلى نورماندي مع ابنيها إدوارد وألفريد.

وبعد ذلك بوقت قصير، وافت سويجن المنية. ترك ولديه، هارولد، الذي خلفه في المملكة الدنماركية، وكانوت، وهو شاب يبلغ من العمر تسعة

عشر عامًا كان ملكًا على إنجلترا بفضل قوة السلاح الدنماركية.

لقد شنّ إثيليرد هجومًا واحدًا وطرد الدنماركيين، ولكن على الفور تقريبًا عاد كانوت، وهذه المرة استحوذ على كل شيء باستثناء لندن. كان في طريقه لغزو لندن عندما سمع أن إثيلريد قد وافته المنية. وبجرأة، دعا إلى اجتماع «ويتان» (البرلمان)، مجلس حكماء إنجلترا، وذهب الأساقفة ورؤساء الأديرة والنبلاء والإقطاعيون إلى ساوث هامبتون واختاروا كانوت ليكون الملك الشرعي.

أظهر كانوت عبقريته في رأب الصدع وجمع شمل الأمة بإرسال مبعوثين إلى نورماندي لإقناع الملكة إيما بالزواج من خليفة زوجها الراحل على العرش، ووافقت على الفور تقريبًا دون تردد. ورغم أنها كانت تكبره بسنوات، لكنها كانت لا تزال امرأة مرغوبة تتمتع بقدر من الجمال، وقيلت النكات المازحة عن مقدار الوقت الذي قضته هي وكانوت في الغرف.

حتى عندما كان الملك الجديد يسارع نحو الزواج، كان الحلاق يفر منه. لقد ابتعد ببساطة عن دهاء لوسيندا إيمز وطهيها السيئ ذات يوم، واستأنف السفر والترحال. اشترى عربته الأولى في باث، وفي نورثمبرلاند اصطحب صبيه الأول في عمل السخرة. كانت المزايا جلية للعيان في الحال. ومنذ ذلك الحين، على مر السنين، قام بتدريب عدد من الفتيان. القلة منهم الذين كانوا يتمتعون بالبراعة والمهارة أكسبوه المال، والآخرون نفذوا ما طلبه في التدريب.

عرف ما حدث لصبي فشل وتعرض للإقصاء. واجه معظمهم كوارث: من حالفهم الحظ انخرطوا في علاقات جنسية أو أصبحوا عبيدًا، ومن لم يحالفهم الحظ تضوروا جوعًا حتى الموت أو قتلوا. لقد أزعجه ذلك أكثر مما كان يبالي بالاعتراف والتسليم به، لكنه لم يستطع الاحتفاظ بصبي

بغيض؛ لقد كان هو نفسه أحد الناجين، وكان قادرًا على تقسية قلبه عندما يتعلق الأمر بمصلحته.

يبدو أن الأخير، الصبي الذي وجده في لندن، حريص على إرضائه، ولكن الحلاق كان يعلم أن المظاهر خدّاعة ويمكن أن تضلل فيما يتعلق بالصبيان. لا داعي للقلق من هذه المسألة دون التوقف عن التفكير فيها وتركيز اهتمامنا عليها. وحده الوقت سيخبرنا بذلك، وسيعلم قريبًا بما فيه الكفاية ما إذا كان الشاب روب كول لائقًا للبقاء على قيد الحياة.

5

الوحش في تشيلمسفورد

استيقظ روب مع ائتلاق الفجر ليجد معلمه الجديد قد استيقظ بالفعل وقد نفد صبره. لقد رأى على الفور أن الحلاق لم يبدأ يومه بروح معنوية عالية، وفي هذا الصباح الهادئ أخذ الرجل الرمح من العربة وشرح له كيفية استخدامه. «ليس ثقيلًا جدًّا بالنسبة لك إذا استخدمته بكلتا يديك. فهو لا يتطلب مهارة. ادفع بأقصى ما تستطيع. إذا كنت تستهدف منتصف جسد المهاجم، فمسؤوليتك غرس الرمح في مكان ما في جسده. وإذا قمت بإبطائه بإحداث جرح فيه، فمن المحتمل أن أقتله. هل فهمت؟».

أومأ برأسه حرجًا مع شخص غريب.

«حسنًا، يا فتى، يجب أن نكون يقظين وحذرين وأن نحتفظ بالأسلحة في متناول الأيدي، فهذه هي الطريقة التي تحمي حياتنا ونبقى على قيد الحياة. تظل هذه الطرق الرومانية هي الأفضل في إنجلترا، لكنها لا تحظى بالصيانة. إنها مسؤولية التاج البريطاني إبقاء الطرق مفتوحة على كلا الجانبين لتصعيب الأمر على قطّاع الطرق نصب كمائن للمسافرين، ولكن في معظم طرقنا لا يتم تهذيب الأجمة أبدًا».

بيّن له كيف يربط الحصان في العربة. وعندما استأنفا السفر، جلس روب بجانبه على مقعد السائق تحت أشعة الشمس الحارقة، ولا يزال تجتاحه كل أنواع المخاوف. وسرعان ما أخرج الحلاق إنكيتاتوس من الطريق الروماني متحولًا إلى مسار بالكاد يمكن السير فيه تحت الظلال الوارفة للغابة العذراء. تدلى من وتر مشدود حول كتفيه قرن سكسوني

بني اللون كان لثور كبير. وضعه في فمه ونفخ بعلو صوته فأحدث ضوضاء متناغمة متوسطة الضجيج ومتوسطة الأنين. «إنه يرسل إشارة إلى كل من يسمع أننا لا نتسلل بغرض السرقة أو سفك الدماء. ففي بعض الأماكن النائية، فإن لقاء شخص غريب يعني محاولة قتله. يعلن البوق أننا جديران بالاحترام والثقة، وقادران على حماية أنفسنا».

وبناءً على اقتراح الحلاق، حاول روب أن يأخذ دوره ويجرّب إرسال الإشارات، ولكن على الرغم من أنه حبس هواء الزفير حتى انتفخ خداه ونفخ بكل قوة، فلم يصدر أي صوت.

«إنها تحتاج إلى نفس أطول وموهبة. سوف تتعلمها، لا تخف أبدًا. وسوف تتعلم أشياء أصعب من النفخ بالبوق».

كان الطريق موحلًا. ورغم تناثر الأجمة في أسوأ الأماكن، إلا أنها تطلبت قيادة صعبة. وعند منعطف في الطريق، انزلقا مباشرة إلى حفرة وانغرست عجلات العربة إلى مستوى محاور الإطارات. تنهّد الحلاق.

نزلا من العربة وأخذا مجرفة لإزالة الوحل من أمام العجلات ثم جمعا الأغصان والفروع المتساقطة في الغابة. وضع الحلاق قطعًا من الأغصان والفروع بعناية أمام كل عجلة وصعد مرة أخرى ليمسك باللجام.

قال الحلاق: «يجب أن تحشر الفروع والأغصان تحت العجلات عندما تبدأ في التحرك»، وأومأ روب بالموافقة.

«هيا تاتوس!» استحثّ الحلاق الحصان على السير. حتى سمع صرير الجلد وأعمدة التدوير. صاح الحلاق: «الآن!».

وضع روب الفروع والأغصان ببراعة، وانطلق من عجلة إلى أخرى في حين أن الحصان كان يصهل بثبات. ترددت العجلات. ورغم أنه كان

يوجد انزلاق، إلا أنهما وجدا عتلة. ترنّحت العربة إلى الأمام. ولما غدت العربة على طريق جاف، استحوذ الحلاق على اللجام مرة ثانية وانتظر روب يلحق به ويصعد إلى المقعد.

لقد تلطخت أجسامهما بنثار الوحل والطين، وأوقف الحلاق تاتوس عند جدول صغير. قال الحلاق وهما يغسلان الأوساخ التي علقت بوجهيهما وأيديهما: «هيا نتناول فطورنا». قطع جذعين من الصفصاف وأحضر خطاطيف وحبلًا من العربة. ومن مكان مخفي خلف المقعد، سحب الحلاق صندوقًا. قال: «هذا هو صندوق الجراد خاصتنا». «من واجباتك أن تحافظ عليه ممتلئًا». لم يرفع الغطاء بعيدًا إلا بما يكفي للسماح لروب بوضع يده بالداخل.

خشخشت الكائنات الحية بعيدًا عن أصابع روب وغدت مذعورة ومتشنجة، وسحب واحدة برفق في راحة يده. وعندما سحب يده، وأبقى الأجنحة مطوية بين إبهامه والسبابة، خربشت أرجل الحشرة راحته بشكل مسعور. كانت الأرجل الأربع الأمامية رفيعة كالشعر في حين الأرجل الخلفية كانت قوية وذات أفخاذ كبيرة، مما مكنها من أن تكون حشرة نطاطة.

أوضح له الحلاق كيف يزلق طرف الخطاف أسفل الجزء القصير من القشرة الصلبة المتعرجة خلف الرأس. «ليس عميقًا جدًّا وإلا سينزف الجراد دبس السكر ويموت. أين كنت تصطاد؟».

«في نهر التايمز»، كان يفتخر بقدرته على الصيد، لأنه غالبًا هو ووالده كانا يدليان الطعم في النهر الواسع، يعتمدان على الأسماك للمساعدة في إطعام الأسرة أثناء فترات البطالة.

زمجر الحلاق. وقال: «هذا نوع مختلف من الصيد». «اترك جذع

الصفصاف للحظة واجث على ركبتيك ويديك».

زحفا بحذر إلى مكان يطل على أقرب مسبح واستلقيا على بطنيهما. اعتقد روب أن الرجل السمين أحمق.

وقد رأيا انعكاس أربع سمكات على صفحة الماء.

همس روب: «أسماك صغيرة».

«من الأفضل تناولها بهذا الحجم»، قال الحلاق وهما يبتعدان عن الضفة. «سمك السلمون المرقط النهري الكبير قوي ودهني. هل لاحظت كيف انجرفت هذه الأسماك بالقرب من نبع المسبح؟ تتغذى الأسماك أعلى المنبع في انتظار وجبة شهية غضة تسقط وتطفو. إنهم متوحشون وحذرون. إذا وقفت بجانب المجرى، فإنهم يرونك. إذا خطوت بقوة على الضفة، فإنهم يشعرون بخطواتك ويتفرقون. لهذا السبب تستخدم الجذع الطويل. قف جيدًا للخلف وقم بإسقاط الحشرة النطاطة برفق فوق المسبح، واترك دفق الماء يحملها إلى الأسماك».

لقد راقبه بعين ناقدة لأن روب حرّك الحشرة النطاطة حيثما كان يوجهه.

بصدمة سارت على طول جذع الصفصاف وأرسلت الإثارة إلى ذراعي روب، ضربت السمكة غير المرئية مثل التنين. وبعد ذلك كان الأمر أشبه بالصيد في نهر التايمز. انتظر بفارغ الصبر، وأعطي السلمون وقتًا ليأكل الطعم، ثم رفع طرف الجذع ووضع الخطاف كما علمه والده. وعندما سحب في أول رمية، حصل على سمكة كبيرة أعجبا بجاذبيتها، ومظهرها اللامع مثل خشب الجوز المصقول بالزيت، والجوانب الأنيقة المزخرفة بالبقع الحمراء المبعثرة بلون أحمر قوس قزح، والزعانف السوداء المميزة باللون البرتقالي الدافئ.

«احصل على خمسة آخرين»، قال الحلاق، واختفى في الأدغال.

مسك روب اثنتين ثم أفلتت واحدة أخرى وانتقل بحذر إلى مسبح مختلف. جاعت أسماك السلمون المرقط بعد الحشرات النطاطة. كان روب ينظف آخر نصف دزينة عندما عاد الحلاق بالقليل من عيش الغراب والبصل البري.

قال الحلاق: «نأكل مرتين في اليوم؛ مرة في وقت الضحى ومرة في بداية المساء مثل كل الناس المتحضرين.

نستيقظ في السادسة وتناول طعامنا في العاشرة

تناول غداءنا في الخامسة، ونخلد إلى النوم في العاشرة

وهذا يجعل الإنسان يعيش عشر مرات».

كان لدى الحلاق لحم الخنزير المقدد، فقطّعه قطعًا سميكة. وعندما كان اللحم ينضج في المقلاة السوداء، نثر الدقيق على أسماك السلمون المرقط ووضعه في المقلاة حتى يجعله مقرمشًا وبنيًّا في الدهن، ثم أضاف البصل والفطر أخيرًا.

ترفع سلسة الظهر هكذا بسهولة من اللحم المدخن، مما يؤدي إلى التخلص من معظم العظام. وإبان استمتاعهما بتناول السمك، قلى الحلاق خبز الشعير في الدهن المنكه المتبقي، وغطى الخبز المحمص بشرائح الجبن الصلب الذي سمح له بالذوبان محدثًا فقاعات في المقلاة. وانتهيا من طعامهما، وشربا الماء العذب البارد من الجدول الذي اصطادا منه السمك.

كان الحلاق مبتهجًا جدًّا. أدرك روب أنه يجب إطعام الرجل البدين ليكون في أفضل حالاته. أدرك أيضًا أن الحلاق نادرًا ما كان يطبخ

طعامًا، ووجد نفسه ينظر إلى كل وجبة على أنها حدث في اليوم. تنهّد، مع العلم أنه لم يكن ليتغذى بهذه الطريقة في المناجم. قال لنفسه عن اقتناع أن العمل لم يكن بمنأى عن متناوله على الإطلاق، لأنه كان قادرًا تمامًا على إبقاء صندوق الجراد ممتلئًا وصيد سمك السلمون المرقط ووضع الأغصان والفروع أسفل العجلات كلما غرست العربة في الوحل.

كانت القرية فارنهام. كانت هناك مزارع؛ ونزل صغير متهالك؛ وحانة عامة تنبعث منها رائحة خفيفة من الخمور المنسكبة أثناء مرورهما؛ ودكاكين حدادة ملأى بأكوام خشبية طويلة بالقرب من مناطق تشكيل المعادن؛ ودكاكين دباغة تفوح منها رائحة كريهة؛ ودكاكين نشارة الخشب ملأى بقطع الخشب المنشور؛ ومبنى مسؤول القصر الملكي الذي يطل على ميدان لم يكن حقًّا ميدانًا بقدر اتساعه في وسط الشارع، بل أشبه بثعبان ابتلع بيضة.

توقّف الحلاق في الضواحي. أخذ من العربة طبلًا صغيرًا وعصا وسلمهما يدًا بيد إلى روب. قال له: «اقرع الطبل».

عرف إنكيتاتوس ما كان على وشك فعله؛ رفع رأسه وصهل ورفع حوافره وهو يقفز. قرع روب الطبل بفخر، مفعمًا بالإثارة التي بثّها على جانبي الشارع.

صاح الحلاق: «العرض البهلواني بعد الظهيرة» «ويتبعها علاج العلل البشرية والمشاكل الطبية، سواء أكانت كبيرة أم صغيرة!».

حدّق الحدّاد، الذي كانت عضلاته معقودة محاطة بالأوساخ، خلفهما وتوقف عن سحب حبل منفاخه. وركض اثنان من الصبية في ساحة نشارة الخشب بعد أن تركا الخشب الذي كانا يكدسانه نحو صوت الطبل. استدار أحدهما وهرع بعيدًا. وصاح الآخر وقال: «إلى أين أنت

متجه يا جايلز؟».

«إلى البيت لإحضار ستيفن والآخرين».

«توقف وأخبر أخي كثيرًا!».

أومأ الحلاق بالموافقة. وصاح قائلًا: «انشروا الخبر».

خرجت النسوة من البيوت ونادين على بعضهن فيما اندمج أبناؤهن في الشارع وهن يثرثرن وينضممن إلى الكلاب النابحة التي تتبعهن وراء العربة الحمراء.

قاد الحلاق العربة ببطء في الشارع من جانب إلى آخر ثم استدار وعاد.

فتح رجل عجوز كان يجلس في الشمس بالقرب من النزل عينيه وابتسم بلا أسنان على الضجة. وخرج بعض السكارى من الحانة حاملين كؤوسهم وتبعتهم النادلة وهي تمسح يديها المبتلتين على مريلتها وعيناها تلتمعان.

توقف الحلاق في الساحة الصغيرة. أخذ أربعة مقاعد قابلة للطي من العربة ونصبها متصلة بعضها ببعض. «هذه تسمى الدكة»، وأخبر روب عن الدكة الصغيرة التي تشكلت على هذا النحو. «ستنصبها في الحال وقتما نصل إلى مكان جديد».

وضعا على الدكة سلتين مليئتين بقوارير صغيرة مغلقة بإحكام قال الحلاق إنها تحتوي على دواء. ثم اختفى في العربة وأسدل الستار.

***

جلس روب على الدكة وشاهد الناس يسارعون إلى الشارع الرئيس. جاء الطحّان، وملابسه بيضاء مضمخة بالدقيق، وتمكن روب من التعرف

على اثنين من النجارين من خلال غبار الخشب ورقائق الخشب المألوفة على سترتيهما وشعرهما. اقتعدت الأسر الأرض راغبين في الانتظار من أجل الحصول على مكان قريب من الدكة. وجاءت النسوة اللاتي يعملن في الحياكة والتفصيل والمشغولات وهن يتلكأن، والأطفال الذين كانوا يثرثرون ويتشاجرون. حدّقت مجموعة من صبية القرية في روب. وإدراكًا منه للرهبة والحسد في أعينهم، أخذ يقفز ويتبختر. ولكن بعد فترة وجيزة، طرد كل هذه الحماقات من رأسه، لأنه مثلهم أصبح جزءًا من الجمهور. ركض الحلاق نحو الدكة في تباه.

وقال: «يوم سعيد وغد سعيد». «أنا مرتاح البال لوجودي هنا في فارنهام». وبدأ يتلاعب بالكرات.

تلاعب بكرة حمراء وأخرى صفراء. بدت يداه نادرًا ما تتحرك. كان التلاعب بالكرات أجمل شيء يمكن رؤيته!

دفعت أصابعه السمينة الكرات لتطير لأعلى في دائرة متصلة، في البداية ببطء ثم بسرعة خفيفة. وعندما صفق الجمهور له، دسّ يده في سترته وأضاف كرة خضراء. ثم أخرى زرقاء. وأخرى - بنية اللون!

يا له من شيء رائع، كما اعتقد روب، أن تكون قادرًا على القيام بذلك. حبس روب أنفاسه وانتظر أن يرمي الحلاق كرة، ولكن الحلاق كان يتحكم في الكرات الخمس بسهولة، ويتحدث طوال الوقت. أضحك الناس. وكان يروي القصص وينشد الأغاني القصيرة.

وبعد ذلك، تلاعب الحلاق بالحبل الذي يتدلى منه حلقات وأقراص خشبية وبعد التلاعب بالحبل أجرى عروضًا سحرية تتسم بالبراعة والخفة. فقد استطاع إخفاء البيضة، والعثور على عملة معدنية في شعر الطفل، والقيام بتغيير لون المنديل.

«هل ترغبين في الافتتان برؤيتي وأنا أخفي كأس الجعة؟».

دوى التصفيق الحاد من العامة. انسلّت النادلة إلى الحانة العامة وظهرت فجأة ومعها كأس تعلوها الرغاوي، وضعها الحلاق على شفتيه وابتلع محتوياتها دفعة واحدة. انحنى للضحك والتصفيق الخفيفين، ثم سأل النسوة من بين الجمهور عما إذا كانت أي امرأة ترغب في الشريط.

«أوه، حقًّا!» صاحت النادلة. كانت شابة ممتلئة الجسم، وقد انتزع ردها التلقائي والعفوي للغاية ضحكة صفراء من الحشود.

التقت عينا الحلاق بعيني الفتاة وارتسمت على شفتيه ابتسامة. وسألها قائلًا: «ما اسمك؟».

«أوه، سيدي. أنا أميليا سيمسون».

«مسيز سيمسون؟».

«أنا غير متزوجة».

أغلق الحلاق عينيه. وقال في شجاعة وبأدب جم «واأسفاه». «ما هو لون الشريط الذي تفضلينه يا آنسة أميليا؟».

«أحمر».

«وما طوله؟».

«ياردتان سوف يناسبني للغاية».

غمغم الحلاق وقال: «يمكن للمرء أن يأمل ذلك»، ورفع حاجبيه.

ورغم أن الضحكات الماجنة انطلقت وملأت المكان، لكن على ما يبدو أنه نسي أمر الفتاة. قصّ قطعة من الحبل إلى أربعة أجزاء ثم أعاد ربط

الأجزاء المقصوصة بكاملها باستخدام الإيماءات فحسب. وضع وشاحًا على الخاتم وحوّله إلى حبة جوز. وبعد ذلك، وبشكل شبه مفاجئ، أحضر أصابعه إلى فمه وسحب شيئًا ما بين شفتيه، وتوقف لبرهة ليظهر للجمهور أنه نهاية شريط أحمر.

وفي حين أن المتفرجين كانوا يشاهدون ما أخرجه الحلاق من فمه، شيئًا فشيئًا، تدلى جسده وجحظت مقلتاه حتى كادتا أن تخرجا من محجريهما. وأخيرًا، شدّ طرفه ومدّ يده لأسفل بحثًا عن خنجره، ووضع النصل بالقرب من شفتيه، وأطلق سراح الشريط. سلّمه إلى النادلة مع انحناءة.

وبجوار النادلة كان يقف نشّار أخشاب القرية الذي مدّ الشريط على مسطرة القياس الخاصة به. «ياردتان بالتمام والكمال!» لفظ هذه الجملة، وانطلقت عاصفة من التصفيق الحار.

انتظر الحلاق أن يخمد ضجيج الحشد ثم رفع قارورة معبأة بالدواء. ونادى قائلًا: «السادة والسيدات والآنسات!

الدواء السحري العالمي خاصتي فحسب...

يطيل العمر، ويجدد الأنسجة المتهالكة في الجسم. يجعل المفاصل المتيبسة مرنة ويقضي على تصلب المفاصل. يعيد البريق واللمعان إلى العيون المتعبة. يقضي على المرض ويجلب الصحة، ويوقف تساقط الشعر ويغذي العقول اللامعة. يوضح الرؤية المضطربة ويشحذ العقول المتبلدة.

شراب مسكر ممتاز ومحفز أكثر من أفضل منشط، وملين ألطف من أي منظف للبطن. الدواء السحري العالمي يحارب الانتفاخ والإسهال الدموي، ويخفف من رجفة المخاض وعسر الطمث، ويقضي على الاضطرابات

الناجمة عن الأسقربوط أو البثع التي ترتبط بالشواطئ وتصيب البحّارة. إنه جيد للصحيح والعليل، ويقضي على الصمم، والرمد، والسعال، والسل، وآلام المعدة، واليرقان، والحمى، والبرداء (الملاريا). يعالج كل الأمراض! يقضي على القلق!».

باع الحلاق كمية كبيرة من هذا الدواء السحري من على الدكة. ثم أسدل هو وروب ستارًا فحص الحلاق الجراح المرضى من ورائه. انتظر المرضى والمصابون في طابور طويل لدفع بنس أو بنسين مقابل العلاج.

وفي تلك الليلة أكلا إوزة مشوية في الحانة العامة، وهي المرة الوحيدة التي تناول فيها روب وجبة مشتراة. كان يعتقد أنها جيدة بشكل خاص، على الرغم من أن الحلاق قال إن اللحم مطهو أكثر من اللازم وتذمّر لرؤية قطع من اللفت المهروس. وبعد ذلك، وضع الحلاق على الطاولة خريطة للجزيرة البريطانية. كانت هذه هي أول خريطة رآها روب وشاهدها مذهولًا في حين أن إصبع الحلاق كان يتتبع خطًّا متعرجًا، وهو الطريق الذي سوف يسلكانه خلال الأشهر المقبلة.

وفي النهاية، ارتخت العيون، وترنّح وهو ناعس العينين وعاد إلى المخيم وهو يهتدي بضوء القمر الساطع ورتّب سريره. ولكن حدث الكثير في الأيام القلائل الماضية لدرجة أن ذهنه المتألق لم يتوقف عن التفكير وجافى النوم جفونه.

كان ينام بإحدى مقلتيه وكان يبحث عن النجوم عندما عاد الحلاق، وكان في صحبة الحلاق فتاة.

قال الحلاق: «أميليا الجميلة. الفتاة اللعوب. بنظرة خاطفة على ذلك الثغر المتعطش، علمت أنني سأموت من أجلك».

قالت: «اهتم بالجذور وإلا ستسقط».

استلقى روب واستمع إلى أصواتهما وهما يتبادلان القبلات الساخنة، ورعشة الأجساد وهما يتجردان من ملابسهما، وأصوات الضحك واللهاث.

ثم انزلقت أجسادهما على الفراء المبسوط.

وسمع الحلاق يقول: «كان من الأفضل أن أستلقي على ظهري، بسبب بطني».

قالت الفتاة بصوت خفيض شرير: «بطن ضخم»، «سيكون أشبه بالوثب على لحاف مريح».

«كلا، يا فتاة، وأشار إلى ما بين فخذيه وقال: هذا هو مصدر الراحة».

أراد روب أن يراها عارية، ولكن في الوقت الذي تجرأ فيه على تحريك رأسه بالقدر الضئيل الضروري، لم تعد واقفة، وكل ما كان يراه هو بصيص شاحب من الأرداف.

ورغم أن شهيقه كان عاليًا، إلا أنه كان بإمكانه الصراخ بكل ما يهتمان به. وسرعان ما شاهد أيدي الحلاق الكبيرة المثلثة تمتد لتمسك بالكرات البيضاء المستديرة.

«آه، يا صغيرتي!».

تأوهت الفتاة.

لقد ناما قبل أن ينام. نام روب أخيرًا ورأى في منامه الحلاق الذي لا يزال يتلاعب بالكرات.

ذهبت المرأة عندما استيقظا عند غبش الليل حيث كان الجو قارس البرودة. غادرا المخيم وركبا من فارنهام في الوقت الذي كان فيه معظم سكانها نيامًا.

بعد شروق الشمس بوقت قصير، مرّا بأشجار التوت الأسود وتوقفا لملء سلة. وفي المزرعة التالية تولّى الحلاق علف الحصان. وعندما خيّما لتناول الإفطار، وعندما أشعل روب النار وصنع الخبز المحمص مع لحم الخنزير المقدد والجبن، كسر الحلاق تسع بيضات في وعاء وأضاف كمية كبيرة من الكريمة المتخثرة، وخفقها حتى كوّنت رغوة ثم طهاها دون تقليب حتى نضجت في شكل كعكة طرية، ثم كساها بالتوت الأسود الناضج. وبدا منشرح الصدر بالحماسة التي يتنازل بها روب عن نصيبه.

وبعد ظهر ذلك اليوم مرّا بحصن منيع محاط بالمزارع. كان بإمكان روب رؤية الناس على الأرض وفي الأبراج المحصّنة. استحثّ الحلاق الحصان على الهرولة، سعيًا لتجاوزه بسرعة. ولكن ثلاثة خيّالة جاؤوا وراءهما من المكان وصاحوا عليهما بالتوقف.

جاء رجال مسلحون صارمون مخيفون، ثم فحصوا العربة المزينة بفضول. «ما هي صنعتك؟» سأل شخص برتبة كان يرتدي درعًا برّاقًا.

قال الحلاق: «حلاق جراح، يا سيدي».

أومأ الرجل بارتياح وقاد حصانه. وقال: «اتبعني».

ومضى روب والحلاق في ضجة وهما محاطان بحراسهم عبر بوابة ضخمة مثبّتة في متاريس ترابية حتى بلغا بوابة ثانية مصنوعة من أسوجة من الجذوع المصقولة، ثم عبرا جسرًا عائمًا فوق خندق. ولم تطأ قدما روب حصنًا مهيبًا من ذي قبل. كان المنزل الضخم المنيع يحتوي على أساس حجري ونصف جدار من الحجر، مع طوابق علوية خشبية، ومنحوتات معقدة على الشرفة والجملونات، وسقف مذهّب يتألق تحت أشعة الشمس.

«اترك عربتك في الفناء. وأحضر أدوات الجراحة».

«ما الخطب يا سيدي؟».

«الكلبة أصيبت بجرح في يدها».

تبعاه إلى القاعة الغائرة وهما يحملان الأدوات وقوارير الدواء. كانت الأرضية ملتحفة بالحجر والعشب وكانت في حاجة إلى التغيير. بدا المكان حافلًا بالأثاث للعمالقة الصغار. كانت ثلاثة جدران مغطاة بالسيوف والدروع والرماح، في حين أن الجدار الشمالي كان معلقًا عليه منسوجات مزركشة ولكن باهتة اللون، وكان يستقر في مواجهتها عرش من الخشب الداكن المنحوت.

ورغم أن المدفأة المركزية كانت باردة، إلا أن المكان كان عابقًا برائحة دخان الشتاء الماضي ورائحة أقل جاذبية، وسارت أقوى عندما توقف مرافقهم أمام كلبة الصيد التي ترقد رابضة بجوار الموقد.

«فقدت قدمين عندما وقعت في شرك منذ أسبوعين. في البداية التئمتا بشكل جيد، ثم تقيحتا بعد ذلك».

أومأ الحلاق. رجّ الحلاق اللحم من وعاء فضي قرب رأس الكلبة، ثم سكب محتويات قنينتين من الدواء. راقبت الكلبة المتحلقين حولها بعينين دامعتين وهرّت عندما وضع الحلاق الوعاء، ولكن في غضون لحظة بدأت في لعق الدواء السحري.

لم ينتهز الحلاق الفرصة؛ ولكن عندما صارت الكلبة هامدة، شدّد على فيه الكلبة الفدامة وقيّد قدميها حتى لا تتمكن من استخدام مخالبها.

ارتجفت الكلبة ونبحت عندما قطع الحلاق مخلبها. كانت رائحته كريهة، وكانت هناك يرقات.

«سوف تفقد مخلبًا آخر».

«يجب ألا تعرج». قال الرجل ببرود: «اقطعها جيدًا».

عندما انتهى الحلاق من مهمته، غسل الدم من مخلبها مع بقية الدواء، ثم ربطه بخرقة.

«هل سأتقاضى أجرًا، يا سيدي؟» أشار بلباقة.

قال الفارس، وغادر: «يجب أن تنتظر عودة الإيرل من صيده، واسأله».

فكّ الحلاق بمساعدة روب رباط الكلبة بحذر، ثم أخذا الأدوات وعادا إلى العربة. تقدم الحلاق الحاضرين إلى الخارج بخطى وئيدة أشبه برجل لديه إذن بالمغادرة.

ولكن عندما اختفيا عن الأنظار بعيدًا عن الحصن المنيع، تنخّع وبصق. وقال: ربما لن يعود الإيرل لعدة أيام. وبحلول ذلك الوقت، إذا غدت الكلبة بصحة جيدة، فربما سيدفع هذا الإيرل بسخاء. أما إذا بلغت الكلبة أجلها أو إذا كان الإيرل متوعكًا بعض الشيء من الإمساك، فقد يسلخنا. قال واستحثّ الحصان على الابتعاد: «أنأى بنفسي بحق الإله وأغتنم الفرص في القرى الصغيرة».

وفي صباح اليوم التالي، كان مزاجه أفضل عندما وفدا إلى تشيلمسفورد. ولكن كان هناك بالفعل بائع مراهم قد تجهّز لتسلية الناس هناك، رجل أنيق يرتدي سترة برتقالية مبهرجة وله شعر أبيض يغزو رأسه.

قال الرجل في يسر: «لقاء طيب، أيها الحلاق».

«مرحبًا وات. لا يزال لديك الوحش؟».

«لا، بل أصابه السقم وأصبح عنيفًا جدًّا. استخدمته في الصيد».

«من المؤسف أنك لم تجرّعه دوائي السحري. كان من شأنه أن يجعله

جيدًا».

ضحكا معًا.

«لدي وحش جديد. هل تهتم لرؤيته؟».

قال الحلاق: «ولم لا؟» سحب الحلاق العربة تحت شجرة وسمح للحصان بالرعي أثناء تجمع الحشد. كانت تشيلمسفورد قرية كبيرة وكان الجمهور جيدًا. «هل مارست المصارعة؟» سأل الحلاق روب.

أومأ برأسه. كان يحب المصارعة؛ لأنها كانت الرياضة اليومية لفتيان الطبقة العاملة في لندن.

بدأ وات فقرة الترفيه خاصته بنفس الطريقة التي يستخدمها الحلاق؛ التلاعب بالكرات. اعتقد روب أن الطريقة التي استخدمها وات وهو يتلاعب بالكرات تتسم بالمهارة والحذاقة. ولكن لا يمكن أن ترقى طريقته في سرد القصص إلى مستوى الحلاق وضحك الناس على استحياء، ولكنهم أحبّوا الدب.

كان القفص في الظل مغطى بقطعة قماش. تمتم الحشد بكلام غير مفهوم عندما أزال وات الغطاء. كان روب قد رأى دبًّا مسليًا من قبل. عندما كان في السادسة من عمره، أخذه والده لرؤية مثل هذا الحيوان وهو يؤدي عرضًا بهلوانيًّا خارج حانة سوان، وقد هاله المنظر جدًّا. عندما قاد وات هذا الدب المكمم فمه إلى الحلبة بسلسلة طويلة، بدا أصغر حجمًا. كان بالكاد أكبر من كلب كبير، ولكنه كان ذكيًّا جدًّا.

«الدب بارترام!» أخبر وات الحشد.

استلقى الدب وتظاهر بأنه ميت فور تلقيه الأمر، فدحرج وات كرة وجلبها، وتسلق سلمًا صعودًا وهبوطًا، وفي تلك الأثناء التي كان فيها

وات يعزف على الفلوت، رقص وات الرقصة الشعبية رقصة القبقاب المسماة «كارول»، مستديرًا بشكل أخرق بدلًا من الدوران في حركات دائرية ولكن كان من دواعي سرور المتفرجين أنهم أشادوا بكل حركة يقوم بها الحيوان.

قال وات: «والآن، سيصارع الدب بارترام كل المنافسين. أي شخص يرميه سيمنح وعاءً مجانيًّا من مرهم وات، تلك المادة الخارقة للتخفيف من العلل البشرية».

صارت ضجة مسلية، ولكن لم يتقدم أحد.

قال وات: «تعالوا أيها المصارعون».

التمعت عينا الحلاق. قال بصوت عال: «هذا فتى شجاع مقدام».

لدهشة روب وقلقه الكبير، وجد نفسه مدفوعًا إلى الأمام. ساعدته الأيدي الراغبة في الذهاب إلى حلبة المصارعة.

نادى الحلاق: «فتاي ضد وحشك، يا صديقي وات».

أومأ وات برأسه وضحك كلاهما.

أوه، يا أمي! فكر روب وهو فاقد الحس.

كان حقًّا دبًّا. ترنّح على قدميه الخلفيتين ووجّه رأسه الكبير المكسو بالفرو نحوه. لم يكن هذا الدب كلبًا من كلاب الصيد، ولم يكن زميلًا في اللعب في شارع النجّار. رأى روب أكتافًا ضخمة وأطرافًا سميكة، وكانت غريزته تدفعه ليقفز من الحلبة ويلوذ بالفرار. ولكن الفرار يعد نوعًا من الازدراء للحلاق وكل ما يمثله الحلاق الجراح لبقاء روب معه. اتّخذ روب الخيار الأقل شجاعة وصارع الدب.

كان قلبه يخفق بشدة، وترنّح في حركة دائرية، ولوّح بيديه مفتوحتين أمامه كما كان يرى المصارعين الأكبر سنًّا يفعلون ذلك. ربما لم يكن صحيحًا تمامًا؛ وانطلقت ضحكة مكتومة من أحد المتفرجين، ونظر الدب في اتجاه الصوت. حاول روب أن ينسى أن خصمه لم يكن بشريًّا، فتصرف كما يفعل تجاه صبي آخر: واندفع وحاول أن يحدث إخلالًا بتوازن الدب بارترام، ولكن الأمر كان أشبه بمحاولة اقتلاع شجرة عظيمة من جذورها.

رفع الدب بارترام مخلبه وضربه بتكاسل. كان الدب مبتور المخالب ولكن الأظافر طرحت روب في منتصف الحلبة. والآن بدا روب مرتعبًا أكثر من ذي قبل؛ كان يعلم أنه لا يستطيع فعل أي شيء وأنه كان بإمكانه أن يلوذ بالفرار، ولكن الدب بارترام مشى متثاقلًا في خفة ورشاقة مخادعة وكان ينتظر. عندما اقترب من قدميه، طوّقه الدب بأطرافه الأمامية. اندفع وجه روب تجاه الدب الذي كاد أن يبتلع أنفه وفمه. كان يختنق في فرو أسود قذر تفوح منه رائحة الجلد الذي كان ينام عليه في الليل. لم يكن الدب مكتمل النمو، ولم يكن هو مكتمل النمو كذلك. وأثناء مقاومة الدب، وجد نفسه ينظر إلى الأعلى في عينين حمراوين صغيرتين بائستين. أدرك روب أن الدب كان خائفًا، ولكن الحيوان كان مسيطرًا تمامًا وكان لديه شيء ليهاجم. لم يستطع بارترام أن يعض ولكن كان من الواضح أنه سيفعل؛ وطرح الفدامة الجلدية في كتف روب وكان يلهث أنفاسه وكانت رائحة أنفاسه منتنة.

مدّ وات يده باتجاه المقبض الصغير على طوق الحيوان. لم يلمسه، لكن الدب تنشج وخنع؛ وأسقط روب أرضًا وسقط على ظهره.

«اعطه الضربة القاضية، أيها اللعين!» همس وات.

رمى نفسه ولمس الفراء الأسود بالقرب من كتفيه. ورغم أنه لم ينخدع

أحد وتهكّم عدد قليل من الناس، إلا أن الحشد كان يتمتع بروح الدعابة. حبس وات بارترام في قفصه وعاد ليكافئ روب بوعاء صلصال صغير من المرهم، كما وعد. وسرعان ما قام المهرج يصف مكونات المرهم وكيفية استخدامه للجمهور.

مشى روب إلى العربة على أرجل أنهكها التعب.

قال الحلاق: «لقد قمت بعمل رائع. لقد انقضضت عليه بحق. قليل من نزيف في الأنف؟».

خنفر وهو يعلم أنه كان محظوظًا. وقال متجهمًا: «كان الوحش على وشك إلحاق الأذى بي».

ابتسم الحلاق ابتسامة عريضة وهزّ رأسه. «هل لاحظت المقبض الصغير على رباط العنق الخاص به؟ إنه طوق خنق. يسمح المقبض بلف الشريط، وقطع أنفاسه إذا عصى. إنها طريقة تدريب الدببة». ساعد روب حتى يصعد مقعد العربة ثم أخذ مسحة من المرهم من الوعاء وفركها بين الإبهام والسبابة. «شحوم الحيوانات وشحوم الخنزير ونفحة من عطر. حسنًا، ولكنه يبيع كمية لا بأس بها»، تساءل، وهو يراقب العملاء وهم يصطفون لتسليم وات عملاتهم النقدية. «الحيوان يضمن الثراء. هناك وسائل تسلية وترفيه تعتمد في الأساس على حيوانات مثل السناجب والماعز والغربان والأغرة والكلاب. حتى السحالي، وعمومًا يأخذون أموالًا أكثر مما أفعل عندما أعمل بمفردي».

تجاوب الحصان مع اللجام وبدأ في السير في مسار وهو يهتك هدوء الأدغال، تاركًا تشيلمسفورد ودب المصارعة خلفهما. كان لا يزال روب يرتجف. جلس ساكنًا بلا حراك يفكر. «إذًا لماذا لا تقدم عروضًا بهلوانية بالحيوان؟» قال بنبرة وئيدة.

استدار الحلاق بنصف جسده في مقعده. ووقعت عيناه الزرقاوان الوديعتان على روب وبدا أنهما تقولان أكثر من فمه المبتسم.

وقال: «لقد حظيت بك».

6

الكرات الملونة

لقد بدأ بالتلاعب بالكرات، ومنذ البداية عرف روب أنه لن يكون قادرًا على أداء هذا النوع من المعجزات.

قال له الحلاق: «قف منتصبًا ولكن مسترخيًا، ويداك جانبك. ارفع ساعديك حتى يصبحا في مستوى الأرض. اقلب راحتي يديك». فحصه الحلاق بعين ناقدة ثم أومأ برأسه. «يجب أن تتظاهر بأنني وضعت على راحتي يديك صينية بيض. لا يمكن ترك الصينية تميل ولو للحظة وإلا سينزلق البيض. هكذا يكون الأمر عند التلاعب بالكرات. إذا لم تظل ذراعاك في وضع الاستواء، فستسقط الكرات على الأرض. هل هذا مفهوم؟».

أجاب روب قائلًا: «نعم، أيها الحلاق». كان روب يشعر بتوعك في معدته. قال الحلاق: «اضمم يديك على شكل كوب كما لو كنت تشرب الماء من كلتيهما». أخذ الحلاق كرتين خشبيتين. وضع الكرة الحمراء في يد روب اليمنى المضمومة على شكل كوب والكرة الزرقاء في يده اليسرى. قال الحلاق: «الآن اقذف الكرات إلى أعلى كما يفعل البهلوان، ولكن في الوقت نفسه».

ارتفعت الكرات لأعلى حتى تجاوزت رأسه وسقطت على الأرض. قال الحلاق: «لاحظ أن الكرة الحمراء ارتفعت لأعلى لأن ذراعك اليمنى أكثر قوة من ذراعك اليسرى. لذلك يجب أن تتعلم كيفية التعويض، وأن تبذل جهدًا أقل من يدك اليمنى وتبذل جهدًا أكثر من يدك اليسرى، لأن

الرميات يجب أن تكون متكافئة. والكرات أيضًا كانت عالية جدًّا. يمتلك البهلوان ما يكفي للقيام به دون الحاجة إلى سحب رأسه لأعلى والتحديق في الشمس ليرى أين ذهبت الكرات. يجب ألا يزيد ارتفاع الكرات عن هنا». ونقر الحلاق على جبين روب. «بهذه الطريقة ترى الكرات دون تحريك رأسك».

قطّب روب عن جبينه. وأردف الحلاق قائلًا: «ثمة شيء آخر. البهلوان لا يرمي الكرة أبدًا. تدفع الكرات. يجب أن تنبسط راحة يديك للحظة حتى يختفي شكل يدك المضمومة على شكل الكأس وتكون يدك مسطحة. تدفع راحة يديك الكرة لأعلى بشكل مستقيم، في حين أن الرسغ يعطي في الوقت نفسه دفعة صغيرة سريعة ويقوم الساعد بأدنى قدر من الحركات لأعلى. ويجب ألا تتحرك ذراعاك من المرفقين إلى الكتفين».

استعاد الحلاق الكرات وسلّمها باليد لروب.

وعندما وصلا إلى هيرتفورد، نصب روب الدكة ورصّص قوارير إكسير الحياة الخاصة بالحلاق ثم أخذ الكرتين الخشبيتين بنفسه وتمرن على دفع الكرات براحتي يديه. لم يكن الأمر صعبًا، ولكنه وجد أنه في نصف الوقت صبّ تركيزه على الكرة عندما رماها لأعلى، مما تسبب في انحرافها. وإذا ضرب الكرة بالتعليق عليها لفترة طويلة جدًّا، فإنها تسقط باتجاه وجهه أو تتخطى كتفه. وإذا سمح ليد أن تتراخى، فإن الكرة تبتعد عنه. ولكنه استمر في المران، وسرعان ما أدرك مهارة دفع الكرات. بدا الحلاق سعيدًا عندما أظهر مهارته الجديدة في ذلك المساء قبل تناول العشاء.

وفي اليوم التالي، أوقف الحلاق العربة بالقرب من قرية لوتون وأظهر لروب كيفية دفع كرتين حتى يتقاطع مساريهما. وقال: «يمكنك تجنب اصطدام كرتين معًا في الهواء إذا كانت إحدى الكرات لها بداية قوية أو تم دفعها أعلى من الأخرى».

وبمجرد أن بدأ العرض في قرية لوتون، انسلّ روب وأخذ الكرتين وتدرب في مساحة صغيرة في الأدغال. وفي أغلب الأحيان، تقابلت الكرة الزرقاء مع الكرة الحمراء حتى أحدثتا دويًا طفيفًا بدا وكأنه يسخر منه. سقطت الكرات وتدحرجت وكان لا بد من استعادتها، وشعر بالغباء وتعكر مزاجه. ولكن لم يراقبه أحد سوى فأر الغابة وعصفور عابر، واستمر في المحاولة. وفي النهاية، أدرك أنه يمكنه دفع كلتا الكرتين بنجاح إذا سقطت الكرة الأولى على نطاق واسع من يده اليسرى، وانخفضت الكرة الثانية وقطعت مسافة أقصر. استغرق الأمر يومين من المحاولة والخطأ والتكرار المستمر قبل أن يشعر بالرضا الكافي لإثبات ذلك للحلاق.

أوضح له الحلاق كيفية تحريك كلتا الكرتين في شكل دائري. قال الحلاق: «يبدو الأمر أكثر صعوبة مما هو عليه الآن. ادفع الكرة الأولى. وعندما تكون الكرة الأولى في الهواء، قم بتحويل الكرة الثانية إلى اليد اليمنى. تمسك اليد اليسرى بالكرة الأولى، واليد اليمنى تدفع الكرة الثانية، وهكذا، دَوَالَيْك! ورغم أن الكرات تدفع في الهواء بسرعة من راحة يديك المضمومة، لكنها تنزل بشكل أبطأ بكثير. هذا هو سر البهلوان وهذا ما ينقذ البهلوانيين. لديك الكثير من الوقت».

وبحلول نهاية الأسبوع، كان الحلاق يعلمه كيفية التلاعب بالكرتين الحمراء والزرقاء بنفس اليد. كان عليه أن يحتفظ بكرة في راحة يده والأخرى للأمام على أصابعه. كان سعيدًا أن يده كبيرة. لقد أسقط الكرات كثيرًا ولكن في النهاية أمسك بها؛ رمي الكرة الحمراء أولًا، وقبل أن تسقط مرة أخرى في يده، دفع الكرة الزرقاء لأعلى. تراقصت الكرات صعودًا وهبوطًا من نفس اليد، هوب، هوب، هوب! لقد تدرب في كل لحظة كان بمقدوره أن يتدرب فيها، والآن - التدريب على رمي كرتين في شكل دائري، كرتان متعاكستان، كرتان باليد اليمنى فحسب، كرتان بيد واحدة باليد اليسرى. وجد أنه من خلال التلاعب بالكرات من خلال

الرميات الثابتة المنخفضة جدًّا يمكنه زيادة سرعته.

لقد تأخرا خارج بلدة تسمى بليتشلي لأن الحلاق كان يشتري بجعة من أحد المزارعين. بالكاد كانت بجعة كبيرة، ولكنها رغم ذلك كانت أكبر من أي طائر رآه روب على الإطلاق تناوله على طاولة الطعام. ورغم أن المزارع باعها بريشها، إلا أن الحلاق اهتم بها اهتمامًا شديدًا، وغسلها بشق الأنفس في جدول متدفق ثم علّقها من ساقيها فوق نار صغيرة ليحرق الزغب.

حشاها بالمكسرات والبصل والدهن والأعشاب بما يليق بطائر كلفه عزيزًا. شرح لروب وهو مسرور وقال: «لحم البجعة أقوى من لحم الإوزة ولكنه أكثر جفافًا من لحم البطة، لذا يجب أن يكون غضًّا لينًا». قاما بتطرية الطائر عن طريق لفه بالكامل في طبقات رقيقة من لحم الخنزير المملح، متداخلة ومشكّلة بإحكام. ربط الحلاق البجعة بحبل من الكتان ثم علقها على النار على سيخ.

تدرّب روب على التلاعب بالكرات بالقرب من النار بحيث تكون روائح الطعام المطهو بمثابة عذاب حلو. سحبت حرارة اللهب الشحم من قطع لحم الخنزير، وغطت اللحم الطري في حين أن الدهن استلأ في الحشوة على مهل ومسح الطائر من الداخل. عندما أدار الحلاق البجعة على الفرع الأخضر الذي كان بمثابة سيخ، جف جلد الخنزير الرقيق تدريجيًّا واحمرّ؛ وعندما اكتمل طهي الطائر أخيرًا وأزاله من السيخ، احترق لحم الخنزير المملح وانفصل. وفي الداخل، كانت البجعة رطبة وطرية غضة، ونيئة بعض الشيء، ولكنها كانت مكسوة ومتبلة بشحوم الخنزير. أكلا بعض اللحم بحشوة المكسرات الساخنة والقرع الجديد المسلوق. تناول روب فخذًا رائعًا نصف مطهي.

وفي صباح اليوم التالي، نهضا مبكرًا واندفعا بقوة، والحماس يملؤهما

بعد يوم الراحة. توقفا لتناول وجبة الفطور على جانب الطريق واستمتعا ببعض صدر البجعة البارد مع الخبز المحمص والجبن. وعندما انتهيا من الأكل، تجشأ الحلاق وأعطى روب كرة خشبية ثالثة، مطلية باللون الأخضر.

لقد تحرّكا مثل النمل عبر الوهاد. كانت تلال كوتسوولد لطيفة ومتدحرجة وجميلة في الصيف الناعم. تحتضن الوديان القرى، وتضم منازل حجرية أكثر مما اعتاد روب على رؤيته في لندن. وبعد ثلاثة أيام من عيد القديس سويثون، كان روب يبلغ من العمر عشر سنوات. ولم يذكر ذلك للحلاق.

كان روب ينمو ويكبر؛ والآن تراجعت أكمام القميص الذي خاطته الأم طويلًا عن قصد فوق معصميه البارزين. أجهده الحلاق في العمل. قام روب بمعظم الأعمال الروتينية، التي تشمل تحميل العربة وتفريغها في كل بلدة وقرية، ونقل حطب النار وجلب المياه. اشتدّ ساعده وبدا مفتول العضلات قوي العظام من الطعام الغني الفاخر الذي أبقى جسد الحلاق مستديرًا بشكل كبير. لقد اعتاد بسرعة على تناول الطعام الرائع.

اعتاد روب والحلاق على عادات وطباع بعضهما بعضًا. والآن عندما أحضر الرجل السمين امرأة إلى المخيم لم يكن الأمر جديدًا؛ ففي بعض الأحيان كان روب يستمع إلى أصوات المضاجعة ويحاول أن يسترق النظر، ولكنه عادة ما يتقلب في فراشه ويخلد إلى النوم. وإذا كانت الظروف مواتية، فقد يقضي الحلاق الليلة في منزل امرأة من النساء، ولكنه كان دائمًا يقضي الوقت مع النساء في العربة حتى طلوع الفجر وحتى يحين الوقت لمغادرة المكان.

وشيئًا فشيئًا قد نما لدى روب فهم أن الحلاق حاول أن يدلل كل امرأة يراها ويلاطفها وفعل الشيء نفسه مع الأشخاص الذين كانوا يشاهدون

عروض التسلية والترفيه التي كان يقدمها. أخبرهم الحلاق الجراح أن الدواء السحري خاصته دواء شرقي، صنع عن طريق نقع زهرة مجففة مطحونة من نبات يسمى «فيتاليا» الذي يوجد فقط في صحاري بلاد الأشوريين البعيدة. ومع ذلك، عندما نفد الدواء السحري، ساعد روب الحلاق في خلط كمية جديدة ورأى أن الدواء كان في الغالب عبارة عن شراب كحولي يومي.

لم يضطرا للاستفسار أكثر من نصف دزينة من المرات قبل العثور على مزارع كان سعيدًا ببيعه برميل من الميثيجلين. كان من الممكن أن يكون أي نوع مفيد ويؤدي الغرض، ولكن الحلاق قال إنه حاول دائمًا العثور على الميثيجلين، وهو مزيج من العسل المخمر والماء. «إنه اختراع ويلز، يا فتى، أحد الأشياء القلائل التي قدموها لنا. سمي من الكلمة «ميزج» التي تعني في لغة ويلز «الطبيب»، وكلمة «لين» التي تعني الخمور القوية. إنها طريقتهم في تناول الدواء وهي طريقة جيدة، لأن الميثيجلين يخدر اللسان ويدفئ الروح».

تحول الفيتاليا، عشب الحياة القادم من بلاد الآشوريين البعيدة، إلى كمية من النترات، النترات التي قلّبها روب جيدًا في كل جالون من الميثيجلين. فهو يضفي على المشروبات الروحية القوية لمسة طبية، ويخفف بواسطة حلاوة العسل المخمر الذي كان أساسه.

كانت القوارير صغيرة. قال الحلاق: «اشتر برميلًا رخيصًا، وبِع قارورة يا عزيزي». «مكاننا وسط الطبقات الدنيا والفقراء. فوقنا يوجد الجراحون، الذين يتقاضون رسومًا باهظة، وفي بعض الأحيان يرمون لأمثالنا مهام قذرة لا يرغبون في تلويث أيديهم بها، مثل رمي القليل من اللحم الفاسد إلى الأشخاص عديمي الفائدة! وفوق ذلك يوجد الكثير من الأطباء السفاحين، الذين يتمتعون بمكانة عالية ويلبّون احتياجات طبقة

النبلاء لأنهم يتقاضون أكثر من أي شخص آخر.

«هل تساءلت يومًا لماذا لا يقوم هذا الحلاق بتشذيب اللحى أو قص الشعر؟ ذلك لأنني قادر على اختيار المهام الخاصة بي. ولأن هذا درس، تعلمه جيدًا أيها الصبيّ: من خلال مزج الدواء المناسب وبيعه بجدية، يمكن للحلاق الجراح أن يربح نفس القدر من المال مثل الطبيب.

إذا فشل كل شيء آخر، هذا كل ما عليك أن تعرفه».

عندما انتهيا من مزج الدواء للبيع، أخرج الحلاق قدرًا أصغر وصنع المزيد. ثم تحسس ثيابه. وقف روب مذهولًا وشاهد الدفق يئز في الدواء السحري أزيزًا.

«تركيبتي الخاصة»، قال الحلاق بسلاسة ولطف، وهو يستمني.

«بعد غد سنكون في أكسفورد. مسؤول القصر الملكي هناك، السيد «جون فيتس»، يجبرني على الدفع حتى لا يطردني من المقاطعة. وفي غضون أسبوعين، سنكون في بريستول، حيث يتلفظ حارس حانة يدعى بوتر دائمًا بإهانات شديدة بصوت عال خلال تقديم عروض التسلية والترفيه الخاصة بي. أحاول الحصول على هدايا صغيرة مناسبة جاهزة لمثل هذه الأنواع من الرجال».

عندما وطأت أقدامهما أكسفورد، لم يختف روب للتدرب على التلاعب بالكرات الملونة. انتظر وراقب حتى ظهر مسؤول القصر الملكي في سترة ملساء متسخة، رجل طويل نحيف ذو خدود غائرة وابتسامة باردة دائمة بدت مدفوعة ببعض التسلية الخاصة. رأى روب الحلاق وهو يدفع الرشوة، ثم قدم زجاجة الميثيجلين، مترددًا بعد تفكير طويل.

فتح مسؤول القصر الملكي القارورة وأفرغ محتوياتها في جوفه.

انتظره روب أن يمزح ويبصق ويصيح من أجل إلقاء القبض عليهم على الفور، ولكن اللورد فيتس ابتلع القطرة الأخيرة وقضم شفتيه.

«شراب كحولي مناسب».

«شكرًا لك، سيدي جون».

«أعطني عدة قوارير لأحملها إلى المنزل».

تنهّد الحلاق كما لو كان قد تعرّض للاحتيال. «بالطبع يا سيدي».

خدشت الزجاجات المبللة لتمييزها على أنها مختلفة عن الميثيجلين غير المخفف، وتم الاحتفاظ بها منفصلة في أحد أركان العربة؛ ولكن روب لم يجرؤ على شرب أي خمر من خمور العسل خوفًا من ارتكاب خطأ. جعلت التركيبة الخاصة كل الميثيجلين مثيرًا للغثيان، وربما أنقذته من أن يصبح سكيرًا في سن مبكرة.

كان التلاعب بثلاث كرات صعبًا للغاية. لقد تدرّب على ذلك لأسابيع دون تحقيق نجاح كبير. بدأ بإمساك كرتين في يده اليمنى وواحدة في يده اليسرى. أخبره الحلاق أن يبدأ بالتلاعب بكرتين في يد واحدة، كما تعلّم بالفعل. عندما بدت اللحظة مناسبة، دفع الكرة الثالثة بنفس الإيقاع. سترتفع كرتان معًا، ثم واحدة، ثم اثنتان، ثم واحدة... الكرة المنفردة التي تتحرك صعودًا وهبوطًا بين الاثنتين الأخريين صنعت صورة جميلة، ولكنها لم تكن طريقة حقيقية للتلاعب بالكرات. كلما حاول رمي الكرات الثلاث في حركة تقاطع، لم يكن الأمر على ما يرام.

لقد مارس كل لحظة ممكنة. ففي الليل أثناء نومه رأى كرات ملونة تتراقص في الهواء، خفيفة كالطيور. وعندما كان مستيقظًا، حاول أن يدفعهم هكذا، ولكنه سرعان ما واجه مشكلة.

كانا في ستراتفورد عندما حاز هذه المهارة. لم يستطع رؤية أي شيء مختلف في الطريقة التي حرّك بها الكرات أو أمسكهم بها. لقد اكتشف الإيقاع بإيجاز؛ بدت الكرات الثلاث وكأنها تنهض بشكل طبيعي من يديه وتعود كما لو كانت جزءًا منه.

كان الحلاق مسرورًا. قال: «إنه يوم ميلادي، وقد أعطيتني هدية رائعة». للاحتفال بكلا الحدثين، ذهبا إلى السوق واشتريا قطعة لحم غزال طرية، قام الحلاق بسلقها، ودهنها بالدهن، وتتبيلها بالنعناع والحميض، ثم حمّرها في الجعة مع قطع الجزر الصغيرة والإجاص السكري. «متى يحين عيد ميلادك؟» سأل الحلاق وهما يأكلان.

قال روب: «ثلاثة أيام بعد عيد سويثون»

«ولكن هذا التاريخ مضى! وأنت لم تذكر ذلك أمامي».

لم يرد روب.

نظر إليه الحلاق وأومأ. ثم قطّع المزيد من شرائح اللحم ووضعها في صحن روب.

وفي ذلك المساء، أخذه الحلاق إلى الحانة العامة في ستراتفورد. شرب روب عصير التفّاح الحلو لكن الحلاق تجرّع نوعًا جديدًا من الجعة وصدح بالغناء احتفالًا بهذه المناسبة. لم يكن صوت الحلاق رائعًا ولكن كان بإمكانه الحفاظ على اللحن. عندما انتهى الحلاق من الغناء، دوى تصفيق حاد ودقت الكؤوس على الطاولات. جلست امرأتان بمفرديهما في الزاوية، وكانت المرأتين الوحيدتين هناك. كانت إحداهن بدينة وشقراء في ريعان الشباب. وكانت الأخرى نحيفة وأكبر سنًّا، وشعرها بني رمادي. «المزيد!» صرخت المرأة الأكبر سنًّا بجرأة.

قال الحلاق: «يا سيدتي، أنت امرأة جشعة». أرجع الحلاق رأسه للوراء وصدح بالغناء:

«ها هي أغنية جديدة مرحة لجذب أرملة ناضجة، ضاجعت وغدًا بعث في نفسها حزنًا تجلّى.

الرجل الذي داعبها ودللها وعنها تخلى.

سلبها كل ما لديها من ذهب من أجل مضاجعتها وعنها ذهب!».

صاحت النساء وصرخن ضاحكات وأخفين أعينهن وراء أيديهن.

أرسل لهن الحلاق جعة وصدح بالغناء:

«لقد داعبتني عيناك مرة،

ويداك تعانقانني الآن...

سوف نتدحرج معًا قريبًا

لذلك، لا تقطعن نذرًا غير ذي جدوى».

وعلى نحو مفاجئ وسريع رقص الحلاق رقصة القبقاب والحماس يلمؤه مع كل واحدة من النساء على حدة، في حين أن الرجال في الحانة العامة صفقوا بالأيادي وصاحوا بعلو صوتهم. كان الحلاق يتقاذف النساء المبتهجات ويدور حولهن في يسر وسهولة، فرغم بدانته إلا أنه كان يملك عضلات حصان يجر عربة بأربع عجلات. نام روب بعد فترة وجيزة من إحضار الحلاق النساء إلى طاولته. لم يكن يدرك جيدًا أنه أيقظ إثر مساعدة النساء للحلاق لأنهن ساعدن الحلاق في الرجوع، متعثرًا، إلى المخيم.

وعندما استيقظ في صباح اليوم التالي، كانت النساء الثلاث يرقدن تحت

العربة، متشابكات مثل الثعابين الميتة.

صار روب مهتمًّا جدًّا بالثديين ووقف عن قرب وتفحص النساء. كان لدى المرأة الأصغر سنًّا ثدي متدلٍّ بحلمات كبيرة في وسط دوائر بنية كبيرة نبت فيها بعض الشعيرات. وفي حين أنه كان لدى المرأة الأكبر سنًّا ثدي مستوٍ تقريبًا بأخاديد صغيرة مزرقة مثل أنثى الكلب أو أنثى الخنزير.

فتح الحلاق عينًا واحدة وراقبه وهو يتفحص النساء. والآن تطهر الحلاق وربت على الصليب والنساء النائمات، وأيقظهن حتى يتمكن من إنقاذ الفراش وإعادته إلى العربة في حين أن روب كان يربط الحصان في العربة. لقد ترك لكل واحدة منهن هدية من قطعة نقود وزجاجة من الدواء السحري. ازدراهما مالك الحزين الذي كان يرفرف عاليًا، ثم قادا العربة خارج ستراتفورد في الوقت الذي بدأت فيه أشعة الشمس تتراقص على صفحة النهر.

7

المنزل على خليج لايم

ذات صباح عندما حاول روب نفخ البوق الساكسوني، انفجر الصوت مدويًا وليس مجرد صفير في الهواء. وسرعان ما رسم رجع الصدى الوحيد ملامح طريقهما اليومي بفخر وتباه. ومع انتهاء الصيف وقصر الأيام باطراد، بدآ في السفر إلى الجنوب الغربي. أخبره الحلاق قائلًا: «لدي منزل صغير في إكسماوث». «أحاول قضاء كل شتاء على الساحل المعتدل، لأنني أضيق بالبرد ذرعًا».

أعطى الحلاق روب كرة بنية اللون.

لم يكن التلاعب بأربع كرات مثيرًا للخوف، لأن روب كان يعرف بالفعل كيف يتلاعب بكرتين في يد واحدة، والآن يتلاعب بكرتين في كل يد على حدة. ورغم أنه كان يتدرب باستمرار، لكن كان محظورًا عليه التلاعب بالكرات أثناء السفر في مقعد العربة، لأنه غالبًا ما كان يخطئ ويرهق الحلاق من كبح الحصان والانتظار حتى يقفز من العربة ويجمع الكرات.

وفي بعض الأحيان كانت أقدامهما تطأ مكانًا يعج بأولاد في مثل سنه فيراهم يبللون أنفسهم في النهر أو يضحكون ويمرحون، وينتابه الشعور بالحنين إلى أيام الطفولة. ولكنه كان مختلفًا بالفعل عنهم. هل صارعوا دبًّا؟ هل يمكنهم التلاعب بأربع كرات؟ هل يمكنهم نفخ القرن الساكسوني؟

في جلاستونبوري، لعب دور الأحمق من خلال التلاعب بالكرات أمام مجموعة من الأولاد الذين ارتسم على وجوههم احترام جم في باحة الكنيسة

بالقرية في حين أن الحلاق كان يقدم عرضه في الساحة المجاورة وتسلل الضحك والتصفيق إلى آذانه. كان الحلاق يستنكر عليه هذا الأمر ويقول له: «لا يجب أن تتلاعب بالكرات ما لم تكن متمكنًا أو حتى تصبح بهلوانًا حقيقيًّا، وهذا قد يتحقق أو لا يتحقق. هل هذا مفهوم؟».

أجابه روب قائلًا: «نعم، أيها الحلاق».

وصلا أخيرًا إلى إكسماوث في إحدى الأمسيات في أواخر أكتوبر. كان المنزل موحشًا ومهجورًا، وكان يقع على بعد بضع دقائق سيرًا على الأقدام من البحر.

قال الحلاق: «لقد كانت مزرعة منتجة تعمل بكامل طاقتها، لكنني اشتريتها دون أرض وبالتالي اشتريتها بثمن بخس». «وقف الحصان في شونة التبن السابقة ووقفت العربة في تلك السقيفة المخصصة لتخزين الذرة». الحظيرة الملاصقة التي كانت مأوى بقرة المزارع حافظت على الحطب من العوامل الجوية. كان المسكن بالكاد أكبر من المنازل المتراصة في شارع النجار في لندن وكان له سقف من القش أيضًا، ولكن بدلًا من وجود التنور كانت هناك مدخنة حجرية كبيرة. في الموقد، كان الحلاق قد وضع حامل القدر الحديدي، وحاملًا ثلاثي الأرجل، ومجرفة، وحطب إشعال النار كبير الحجم، ومرجلًا، وخطاف لحم. وبجوار الموقد كان يوجد التنور، وعلى مقربة كان يستقر هيكل سرير ضخم. كان الحلاق قد جعل الأشياء مريحة خلال فصول الشتاء الماضية. كان هناك طست عجين وطاولة ومقعد وخزانة جبن وعدة أباريق وبضع سلال.

عندما اشتعلت النار في الموقد، أعادا تسخين بقايا لحم الخنزير الذي اعتمدا عليه في طعامهما بالفعل طوال الأسبوع. كان مذاق اللحم الناضج قويًّا وكان هناك عفن في الخبز. لم تكن وجبة رئيسية. قال الحلاق في تجهم: «غدًا يجب أن نوفر المؤن».

حصل روب على الكرات الخشبية وتدرّب على الرميات المتعاكسة في الضوء الوامض. تدرّب ببراعة ولكن الكرات انتهى بها المطاف على الأرض.

أخذ الحلاق كرة صفراء اللون من حقيبته وألقى بها على الأرض، حيث تدحرجت لتعانق الكرات الأخريات.

الحمراء والزرقاء والبنية والخضراء. والآن الصفراء.

خطر ببال روب كل ألوان قوس قزح وشعر بأنه يغوص في قاع اليأس العميق. وقف ورمق الحلاق بنظرة. كان يدرك أن الرجل يمكن أن يرى في عينيه مقاومة وإصرارًا لم يكونا موجودين من قبل لكنه وقف عاجزًا عن مساعدة نفسه.

«كم تبقى؟».

لقد فهم الحلاق السؤال وأدرك اليأس. وقال في هدوء: «لا شيء. تلك هي الأخيرة».

عملا للتحضير لفصل الشتاء. كان هناك ما يكفي من الأخشاب ولكن بعضها يحتاج إلى التقطيع؛ وكان لا بد من جمع حطب إشعال النار وتكسيره وتكديسه بالقرب من الموقد. كان المنزل مكونًا من غرفتين: واحدة للمعيشة والأخرى للمؤن. عرف الحلاق بالضبط إلى أين يتجه للحصول على أفضل المؤن. حصلا على اللفت والبصل وسلة من القرع. وفي بستان في إيكسيتر، قطفا برميلًا من التفاح أبيض اللب بقشرة ذهبية وحملاه إلى المنزل في العربة. وضعا برميلًا صغيرًا من لحم الخنزير في محلول ملحي. اشتريا لحم خنزير وأسماك الماكريل ودخناها مقابل أجر في مزرعة مجاورة كان بها فرن التدخين، ثم علّقا اللحوم والأسماك مع ربع ضأن مشترى حتى تبقى عالية وجافة ويمكن استخدامها عند الحاجة في الوقت المطلوب. قال المزارع، الذي اعتاد على رؤية الأشخاص

الذين يصطادون أو ينتجون ما يأكلونه، دهشًا أنه لم يسمع قط عن رجل من العوام يشتري الكثير من اللحوم.

كره روب الكرة الصفراء. كانت الكرة الصفراء هي سبب فشله وإخفاقه.

ومن الوهلة الأولى، بدا التلاعب بخمس كرات خطأ. كان عليه أن يمسك ثلاث كرات في يده اليمنى. وفي يده اليسرى، ضغطت الكرة السفلية على راحة يده ببنصره وخنصره، بينما الكرة العلوية احتضنها إبهامه والسبابة والإصبع الوسطى. وفي يده اليمنى، تم إمساك الكرة السفلية بنفس الطريقة، لكن الكرة العلوية انحبست بين إبهامه والسبابة، والكرة الوسطى انحشرت بين سبابته والإصبع الوسطى. كان بالكاد يستطيع حملهم، ناهيك عن التلاعب بهم.

حاول الحلاق تقديم العون والمساعدة. قال الحلاق: «عندما تتلاعب بخمس كرات، فإن الكثير من القواعد التي تعلمتها لم تعد منطبقة».

«الآن لا يمكن دفع الكرة، يجب أن ترميها لأعلى بأناملك. ولتمنح نفسك الوقت الكافي للتلاعب بالكرات الخمس، يجب أن ترميها عاليًا جدًّا. ترمي أولًا كرة من يدك اليمنى. وعلى الفور يجب أن تترك الكرة يدك اليسرى، ثم يدك اليمنى مرة أخرى، ثم يدك اليسرى مرة أخرى ثم يدك اليمنى، ارمِ- ارمِ- ارمِ- ارمِ- ارمِ! يجب أن ترمي الكرات بسرعة كبيرة!».

عندما حاول روب رمي الكرات، وجد نفسه تحت وابل من الكرات المتساقطة. طرحت يداه الكرات لكنها سقطت حوله وتدحرجت إلى زوايا الغرفة.

ابتسم الحلاق. وقال: «إذًا ها هو عملك طوال فصل الشتاء».

كان مذاق الماء مريرًا لأن النبع خلف المنزل كان مختنقًا بطبقة سميكة من أوراق البلوط المتعفنة. عثر روب على مجرفة خشبية في حظيرة الحصان وسحب أكوامًا كبيرة من الأوراق السوداء المبتلة. حفر الرمل من الضفة المجاورة ونشر طبقة سميكة في النبع. عندما هدأ الماء العكر، صار الماء عذبًا حلوًا.

حلّ الشتاء مسرعًا غريبًا. أحب روب الشتاء الحقيقي مع تساقط الثلوج على الأرض. في إكسماوث في تلك السنة أمطرت الدنيا نصف الوقت، وكلما تساقطت الثلوج، ذابت رقائق الثلج على الأرض المبتلة. لم يكن هناك جليد باستثناء الإبر الجليدية الصغيرة في الماء عندما سحبه من النبع. كانت الرياح تعوي على الدوام باردة ورطبة من البحر وكان المنزل الصغير مبتلًّا ابتلالًا طفيفًا.

في الليل كان يتقاسم روب السرير الكبير مع الحلاق. استلقى الحلاق بالقرب من النار، لكن الجزء الأكبر من جسمه أشاع دفئًا ملحوظًا.

لقد بلغ كره التلاعب بالكرات من روب مبلغًا عظيمًا. حاول يائسًا التلاعب بخمس كرات لكنه لم يتمكن من التقاط أكثر من اثنتين أو ثلاث. عندما كان يمسك كرتين ويحاول الإمساك بالكرة الثالثة، عادة ما تصطدم الكرة المتساقطة بإحدى الكرات في يده وتقفز بعيدًا.

بدأ في القيام بأي نشاط من شأنه أن يحول بينه وبين ممارسة التلاعب بالكرات. أخرج الفضلات دون أن يطلب منه، وكان يدعك القدر الحجري في كل مرة حتى ينظفه. قام بتقطيع الأخشاب أكثر مما هو ضروري وداوم على تعبئة إبريق الماء باستمرار. فرك الحصان بالفرشاة حتى تألق جلده الرمادي، وجدل ناصيته. فحص برميل التفاح واحدة تلو الأخرى لاستخراج التفاح الفاسد. وحافظ على المكان مرتبًا وأنيقًا أكثر مما حافظت والدته على منزلهم في لندن.

وعلى حافة خليج لايم شاهد الأمواج البيضاء المتلاطمة تضرب الشاطئ. هبت الرياح مباشرة من البحر الرمادي اللجي الهائج، لذا سحجت الريح مقلتيه حتى تغرغرتا بالدمع. لاحظ الحلاق ارتجافه واستأجر خياطة أرملة تدعى إيديثا ليبتون التي شقت سترته القديمة وحاكت منها ثوبًا دافئًا وسروالًا ضيقًا لروب.

غرق زوج إيديثا ليبتون وولديها في البحر إثر عاصفة أطاحت بهم وهم يصطادون. كانت إيديثا امرأة متزوجة ممتلئة الجسم ذات وجه طيب وعينين بهما مسحة من حزن. وسرعان ما أصبحت امرأة الحلاق. عندما مكث الحلاق معها في البلدة، رقد روب وحيدًا في السرير الكبير قرب النار وتظاهر بأن المنزل ملكه. وذات مرة، عندما اجتاحت عاصفة ثلجية المكان وانسربت الرياح العاتية الباردة عبر الشقوق، جاءت إيديثا لقضاء الليلة. وأزاحت روب عن الأرض، حيثما تشبثت يداه بجوهرة دافئة، وكانت قدماه مربوطتين بقطع من قماش الباكرام الخاصة بالخائطة. سمع صوتها المنخفض الرخيم. وقالت: «ألا يجب أن ينام الصبي معنا، أين يمكنه أن يدفأ؟».

قال الحلاق: «لا».

وبعد فترة وجيزة، في حين كان الرجل يداعبها مهمهمًا، جنحت يدها عبر الظلام واستقرت على رأس روب بخفة ورفق كالنسمة.

كان روب ساكنًا في فراشه. وبحلول الوقت الذي قضى الحلاق منها وطرًا، كانت قد سحبت يدها. وبعد ذلك، كلما نامت في منزل الحلاق، كان روب ينتظر في الظلام على الأرض بجوار السرير، لكنها لم تلمسه مرة أخرى.

قال الحلاق «أنت لا تتقدم. انتبه. قيمة الصبيّ في تسرية الحشد. لا بد

أن يكون الصبي خاصتي بهلوانًا رائعًا».

«ألا يمكنني التلاعب بأربع كرات؟».

«البهلوان المتميز يمكنه الاحتفاظ بسبع كرات في الهواء. أعرف الكثير ممن يمكنهم التلاعب بست كرات. أحتاج إلى بهلوان عادي فحسب. ولكن إذا لم تتمكن من التلاعب بخمس كرات، ستسلك طريقك وحدك قريبًا». أطلق الحلاق من صدره تنهدة عميقة وقال: «كان لدي عدد من الصبية، ومن بينهم ثلاثة فحسب كانوا مؤهلين للبقاء معي. الأول كان يدعى إيفان كاري، الذي تعلم التلاعب بخمس كرات جيدًا ولكن كان يضعف أمام الخمر. لقد مكث معي أربع سنوات مزدهرة بعد التدريب المهني. حتى لقي حتفه طعنًا في مشاجرات السكارى في ليستر، انتهت حياته نهاية حمقاء.

والصبي الثاني كان يدعى جايسون إيرل. كان ماهرًا، كان الأفضل في التلاعب بالكرات على الإطلاق. لقد تعلم صنعتي ولكنه تزوج ابنة مسؤول القصر الملكي في بورتسموث وسمح لحميه بتحويله إلى لص مناسب وجامع رشوة.

الصبي قبل الأخير كان رائعًا. كان يدعى جيبي نيلسون. كان هو الأفضل على الإطلاق حتى لقي حتفه محمومًا في يورك». قطّب الحلاق جبينه. «كان الصبي الأخير الملعون غبيًّا. لقد فعل مثلك تمامًا، استطاع التلاعب بأربع كرات ولكنه لم يستطع التلاعب بخمس كرات، وتخلصت منه في لندن قبل أن ألتقي بك». تبادل الحلاق وروب النظرات في يأس مطبق.

«أنت، الآن، لست غبيًّا. من المحتمل أن تكون شابًّا من السهل التعايش معه وسريع في القيام بعملك. ولكنني لم أمتلك الحصان والأدوات هذه، أو

هذا المنزل أو اللحم المعلق الذي يتدلى من العوارض الخشبية، من خلال تعليم صنعتي للصبيان الذين لا يمكنني استخدامهم. ستكون بهلوانًا بحلول الربيع وإلا سأضطر إلى تركك في مكان ما. مفهوم؟».

أجاب روب قائلًا: «نعم، أيها الحلاق».

الحلاق في استطاعته أن يريه بعض الأشياء. جعله يتلاعب بثلاث تفاحات، حتى جرحت أقماع الثمار الشائكة يديه. أمسك بهم بلطف، مع انصياع يده قليلًا في كل مرة يتلقف فيها الكرة.

قال الحلاق: «ملحوظ؟» «بسبب انصياع يديك الطفيف، فإن التفاحة الممسوكة في يدك بالفعل لا تتسبب في ارتداد التفاحة الثانية من قبضتك». وجد أن هذه الطريقة تصلح مع الكرات وكذلك مع التفاح. قال الحلاق وهو يحدوه الأمل: «أنت تحرز تقدمًا».

زحف أسبوع الكريسماس عليهما على حين غرة وهما مشغولان. دعتهما إيديثا لمرافقتها إلى الكنيسة ولكن الحلاق غمغم بكلام غير مفهوم. وقال: «هل نحن عائلة جيدة، إذًا؟» ولكنه لم يعترض عندما سألت عما إذا كان بإمكانها أن تصطحب الصبي فحسب.

كان مبنى الكنيسة المصنوع من الأسوجة المضفرة يعج بالحضور، ولهذا كانت الكنيسة أكثر دفئًا من بقية مدينة إكسماوث البائسة. لم يسبق أن ذهب روب إلى الكنيسة منذ مغادرته لندن وتنفّس بشيء من الحنين إلى الماضي رائحة البخور والناس وأسلم نفسه إلى القدّاس، وهو ملاذ مألوف. وبعد ذلك، أخبر الكاهن، الذي كان من الصعب فهمه بسبب لهجة دارتمور التي يتحدثها، عن ولادة المخلص والحياة البشرية المباركة التي انتهت بقتله على أيدي اليهود، وتحدث بإسهاب عن الملاك الساقط لوسيفر الذي يصارعه يسوع المسيح إلى الأبد دفاعًا عن الجميع. حاول

روب أن يختار قديسًا لصلاة خاصة لكنه انتهي به الأمر إلى مخاطبة أنقى روح يمكن أن يتصورها عقله. احترس من الآخرين، رجاءً، يا أمي، أنا بخير، لكن ساعدي أطفالك الصغار. ومع ذلك لم يستطع أن يكف عن السؤال عن طلب شخصي: رجاءً يا أمي، ساعديني في التلاعب بخمس كرات.

عادا مباشرة من الكنيسة إلى إوزة مشوية شهية في عيدان الشواء، محشوة بالإجاص والبصل. قال الحلاق: «إذا امتلك الإنسان إوزة في عيد الميلاد، فسيحصل على المال طوال العام».

ابتسمت إيديثا وقالت: «لقد سمعت دائمًا أنه لتتلقى المال، يجب أن تأكل إوزة في عيد الملاك ميخائيل»، لكنها لم تجادل عندما أصرّ الحلاق على أنه كان في عيد الميلاد. كان سخيًّا بالمشروبات الروحية بعد أن تناولوا وجبة طعام ممتعة.

لن تمكث إيديثا لقضاء الليلة، ربما لأنه في يوم الكريسماس كانت روحها وعقلها مع زوجها وأبنائها المتوفين، كما كانت روح روب في مكان آخر.

عندما رحلت، شاهده الحلاق ينظف بعد تناول طعامهما. قال الحلاق في نهاية المطاف: «لا ينبغي أن أصبح مغرمًا جدًّا بإيديثا. إنها مجرد امرأة وسوف نتركها قريبًا».

توارت الشمس ولم تشرق أبدًا. وبعد ثلاثة أسابيع من العام الجديد، شقت السماء المكفهرة التي لم تتغير طريقها وتسللت إلى أرواحهما. والآن بدأ الحلاق في تحفيزه، وأصرّ على أن يواظب ممارسته مهما كان فشله المتكرر باعثًا على البؤس. «ألا تتذكر كيف كان الأمر عندما حاولت التلاعب بثلاث كرات؟ لم تصمد ولو للحظة واحدة، ثم بعد ذلك تمكنت

من التلاعب بالكرات الثلاث. ونفس الشيء حدث عندما حاولت نفخ البوق الساكسوني. يجب أن تمنح نفسك كل فرصة للتلاعب بخمس كرات».

ولكن بغض النظر عن عدد الساعات التي قضاها في تعلم هذه الأشياء، إلا أنه كانت النتيجة واحدة. لقد أوشك على الاقتراب من إنجاز المهمة على النحو الملائم، مدركًا حتى قبل أن يبدأ أنه يجب أن يفشل.

كان يعلم أن الربيع سيحل ولن يكون بهلوانًا.

ورأى فيما يرى النائم في إحدى الليالي أن إيديثا لمست رأسه مرة أخرى وفتحت فخذيها الكبيرين وكشفت له عن فرجها.

عندما استيقظ لم يتذكر كيف بدا شكله، إلا أن ثمة شيئًا غريبًا ومرعبًا حدث أثناء الرؤيا. لقد مسح آثار الحلم من الغطاء الفرو عندما كان الحلاق خارج المنزل ونظفه بالرماد المبلل.

لم يكن أحمق لدرجة أن يفترض أن إيديثا قد تنتظره ليصبح رجلًا ثم تتزوج منه، لكنه اعتقد أن ذلك سيحسن حالتها إذا حظيت به كابن. قال لها ذات صباح: «سوف يغادر الحلاق» وهي تساعده في حمل الحطب. «ألا يمكنني البقاء في إكسماوث والعيش معك؟».

تسلل شيء صعب إلى عينيها الجميلتين ولم تشح بنظرها بعيدًا. وقالت: «لا يمكنني الاحتفاظ بك. لكي أنجو فقط، يجب أن أكون نصف خائطة ونصف عاهرة. وإذا أبقيتك معي، يجب ألا أمتنع عن أي رجل». سقط عود من الخشب من الكومة التي تحملها بين ذراعيها. انتظرت حتى استبدله، ثم استدارت وولجت المنزل.

وبعد ذلك جاءت على الأرجح ونطقت بكلمات مقتضبة. وفي النهاية، غادرت بلا رجعة. ربما كان الحلاق أقل اهتمامًا بمتعته، لأنه نشأ قلقًا

مشاكسًا.

«الأبله!» صرخ الحلاق لأن روب أسقط الكرات مرة أخرى. وقال له: «استخدم ثلاث كرات فقط هذه المرة ولكن ارمهم إلى أعلى، مثلما ترمي الكرات وأنت تتلاعب بكل الكرات الخمس. عندما تكون الكرة الثالثة في الهواء، صفّق بيديك».

فعل روب ذلك، وكان هناك وقت بعد التصفيق باليد لالتقاط الكرات الثلاث.

«أرأيت؟» قال الحلاق منتشيًا. «في الوقت الذي تقضيه في التصفيق، ستتمكن من رمي الكرتين الأخريين».

ولكن عندما حاول، اصطدمت الكرات الخمس جميعًا في الهواء وعمت الفوضى مرة أخرى، والرجل يسب ويلعن والكرات تتدحرج في كل مكان.

وفجأة، أصبح فصل الربيع على وشك الانتهاء بعد أسابيع قصيرة.

وفي إحدى الليالي عندما اعتقد الحلاق أن روب كان نائمًا، جاء الحلاق وسوّى جلد الدب حتى يدفئه ويصبح مريحًا تحت ذقنه. وقف الحلاق فوق السرير ورمق روب بنظرة لوقت طويل. ثم تنهّد وابتعد.

وفي الصباح، أخذ الحلاق سوطًا من العربة. وقال: «أنت لا تفكر فيما تفعله». لم يسبق أن رآه روب وهو يسوط الحصان، ولكن عندما أسقط روب الكرات أطلق السوط صفيرًا وجرح سيقان روب.

إنه يؤلم بشدة، صرخ روب ثم بدأ ينتحب.

وقال الحلاق: «التقط الكرات».

جمع روب الكرات وألقاهم مرة أخرى بنفس النتيجة المؤسفة، ومزّق

السوط ساقيه.

ورغم أن روب تعرض للضرب على يد والده في مناسبات عديدة، لكنه لم يتعرض للضرب بالسوط.

ومرارًا وتكرارًا استعاد الكرات الخمس وحاول التلاعب بهم لكنه لم يستطع. وفي كل مرة يفشل فيها، يقطع السوط ساقيه، مما يجعله يصرخ.

وقال الحلاق: «التقط الكرات».

«رجاءً، أيها الحلاق!».

كان وجه الرجل قاتمًا. «هذا في مصلحتك. استخدم عقلك. فكر في الأمر». على الرغم من أنه كان يومًا باردًا، فالحلاق كان يتصبب عرقًا.

دفعه الألم إلى التفكير فيما يفعله، لكنه كان ينتفض مع النحيب الشديد وبدا أن عضلاته تخص شخصًا آخر. كان أسوأ من أي وقت مضى. وقف وارتجف، والدموع تبلل وجهه والمخاط ينهمر في فمه، في حين كان الحلاق يضربه بالسوط. قال لنفسه أنا روماني. عندما أكبر سأعثر على هذا الرجل وأقتله.

ضربه الحلاق حتى نفرت الدماء في أرجل البنطال الجديد الذي خاطته إيديثا. ثم ألقى الحلاق السوط وانسل من المنزل.

عاد الحلاق الجراح في وقت متأخر في تلك الليلة وسقط في فراشه مخمورًا.

وفي الصباح عندما استيقظ كانت عيناه هادئتين لكنه زمّ شفتيه عندما نظر إلى ساقي روب المتورمتين. سخّن الماء واستخدم خرقة لنقعها حتى يزيل الدم الجاف، ثم أحضر قدرًا به دهن دب. وقال: «افركهما جيدًا».

إن معرفة أنه فقد فرصته يؤذي روب أكثر من الجروح والكدمات.

استشار الحلاق خرائطه. «سنرتحل في يوم خميس العهد وسوف آخذك إلى بريستول. إنه ميناء مزدهر وربما تجد مكانًا هناك».

قال بصوت متهدج: «نعم، أيها الحلاق».

أمضى الحلاق وقتًا طويلًا في تجهيز الفطور وعندما أصبح الفطور جاهزًا أكل بنهم العصيدة والخبز المحمص والجبن والبيض ولحم الخنزير المقدد. قال بصوت أجش: «كُل، كُل».

جلس وشاهد في الوقت الذي أجبر فيه روب على تناول الطعام، وقال «أنا آسف. كنت أنا نفسي فتى مشردًا وأعلم أن الحياة يمكن أن تكون صعبة».

ثم وضعت الكرات الملونة بعيدًا ولم يتدرب روب أكثر من ذلك. ولكن يوم خميس العهد كان بعد أسبوعين تقريبًا واستمر الحلاق في العمل بجد وكد، مما جعله ينظف الأرضيات المتشققة في كلتا الغرفتين. في كل ربيع في المنزل كانت الأم تغسل جدران المنزل وفعل روب ذلك الآن. كان بقايا الدخان أقل في هذا المنزل من بقايا الدخان في منزل الأم ولكن يبدو أن هذه الجدران لم تغسل مطلقًا، وكان هناك فرق ملحوظ عند الانتهاء.

وفي فترة ما بعد الظهيرة، أشرقت الشمس الساطعة بأشعتها من جديد بطريقة سحرية، فحولت البحر إلى اللون الأزرق اللامع ولطفت الهواء المالح. ولأول مرة، أدرك روب سبب اختيار بعض الأشخاص للعيش في إكسماوث. وفي الغابة خلف المنزل، بدأت أشياء خضراء صغيرة تنبثق من قوالب الأوراق المبللة؛ قطف حفنة من براعم السرخس وسلق البقلات الخضراء الغضة مع لحم الخنزير المقدد. غامر رجال الصيد في البحار الهادئة والتقى الحلاق بقارب عائد واشترى سمك القد المخيف ونصف

دزينة من رؤوس الأسماك. وضع روب مكعبات لحم الخنزير المملح في المقلاة وقلّب اللحم الدسم ببطء في المقلاة حتى أصبح مقرمشًا. ثم قام بتخمير الحساء، ومزج اللحم والسمك، وتقطيع اللفت إلى شرائح، وسكب الدهن، والحليب الدسم، وقليلًا من الزعتر. لقد استمتعا بهذا الطبق في صمت مطبق مع خبز دافئ مقرمش، كل منهما يدرك أن روب لن يأكل مثل هذا الطعام قريبًا جدًّا.

اخضرّ لون بعض لحم الضأن المعلق واستأصل الحلاق الجزء الفاسد ورماه في الغابة. انبعثت رائحة نفاذة شديدة من برميل التفاح، حيث لم يبق سوى جزء بسيط من الفاكهة الأصلية صالح للأكل. قلب روب البرميل وأفرغه، وفحص كل التفاح ووضع التفاح السليم جانبًا.

بدا التفاح السليم صلبًا ومدورًا في يديه.

يتذكر كيف ساعده الحلاق على معرفة إمساك التفاح بيسر ومرونة من خلال إعطائه تفاحات للتلاعب بها، دفع ثلاث تفاحات إلى أعلى، هوب، هوب، هوب.

أمسك التفاحات الثلاث. ثم دفعها لأعلى مرة أخرى، وأرسلها عاليًا، وصفق بيديه قبل أن يسقطوا.

التقط تفاحتين أخريين وأرسلهما جميعًا لأعلى، لكن ثمة مفاجأة حدثت! - اصطدمت التفاحات وسقطت على الأرض سحقًا إلى حد ما. تجمّد وهو لا يعرف مكان الحلاق؛ كان من المؤكد أنه سيتعرض للضرب مرة أخرى إذا اكتشف الحلاق أنه يهدر الطعام.

لكن لم يكن هناك احتجاج من الغرفة الأخرى.

بدأ في إعادة التفاح السليم إلى البرميل. قال لنفسه إنه لم يكن مجهودًا

سيئًا؛ يبدو أن توقيته أفضل.

اختار خمس تفاحات أخريات بالحجم المناسب وأرسلهم لأعلى.

هذه المرة كاد أن يصيب الهدف، لكن ما أفشله هو أعصابه والفاكهة تحطمت كما لو تبعثرت من شجرتها بسبب عاصفة الخريف.

استعاد التفاح وأرسله لأعلى مرة أخرى. لقد كان حذرًا ومجتهدًا وكان متشنجًا بدلًا من أن يكون سلسًا وجميلًا، لكن هذه المرة ارتفعت التفاحات الخمس وسقطت في يديه ودفعوا لأعلى مرة أخرى كما لو كانوا ثلاثًا فقط.

صعودًا وهبوطًا وصعودًا وهبوطًا. مرارًا وتكرارًا.

قال مرتجفًا: «أوه، يا أمي»، على الرغم من أنه بعد سنوات كان يتجادل مع نفسه حول ما إذا كان لها أي علاقة بهذا الأمر.

هوب، هوب، هوب، هوب، هوب!

قال بصوت عال دون الصياح: «أيها الحلاق».

انفتح الباب. وبعد لحظة فقد كل شيء وكان هناك تفاح يتساقط في كل مكان.

وعندما نظر إليه، ارتد، لأن الحلاق كان يندفع إليه ويده مرفوعة.

«رأيت ذلك!» بكى الحلاق، ووجد روب نفسه في عناق مرح مقارنة بأفضل الجهود التي بذلها الدب بارترام.

8

المهرج

حل خميس العهد وولّى وهما لا يزالان في إكسماوث، حيث كان لا بد من تدريب روب على جميع أشكال الترفيه. لقد تدرّب على التلاعب بالكرات في إطار العمل الجماعي، ذلك العمل الذي استمتع به روب منذ الوهلة الأولى وسرعان ما أتى ثماره وأسفر عن نتائج طيبة. ثم انتقل إلى التدرب على ألعاب خفة اليد، وهي ألعاب سحرية تعادل التلاعب بأربع كرات في صعوبتها.

قال الحلاق: «الشيطان لا يعطي الحاوي رخصة».

«الألعاب السحرية فن بشري، يجب إتقانه بالطريقة التي أتقنت بها التلاعب بالكرات. ولكنه أضاف على عجل وهو يرى وجه روب قائلًا: «ولكنه أكثر سهولة ويسرًا».

أخبره الحلاق بالأسرار البسيطة للسحر الأبيض. «يجب أن تكون جسورًا لديك روح جريئة وأن تضع ثقتك في أي شيء تفعله. أنت تحتاج إلى أصابع خفيفة وأسلوب عمل نظيف، ويجب أن تجيد الكلام الغامض والتمتمة، باستخدام كلمات غريبة لتزيين أفعالك.

«القاعدة النهائية هي الأكثر أهمية إلى حد بعيد. يجب أن تمتلك حيلًا وإيماءات جسدية وأنواعًا أخرى من وسائل التسلية التي ستجعل المتفرجون ينظرون في أي مكان فيما عدا ما تفعله حقًا».

قال الحلاق إن أفضل وسيلة ترفيه كانت لديه هو وأقرانه؛ هي استخدام

خدعة الشريط للتظاهر بأنك تفعل شيئًا ما. «لهذا أحتاج إلى شرائط من اللون الأزرق والأحمر والأسود والأصفر والأخضر والبني. وفي نهاية كل ياردة، أقوم بربط عقدة منزلقة، ثم أقوم بلف الشريط المعقود بإحكام، وأقوم بعمل لفائف صغيرة موزعة في جميع أنحاء ملابسي. يتم الاحتفاظ بنفس اللون دائمًا في نفس الجيب.

وأطرح على الجمهور سؤالًا: من يريد الشريط؟».

«أوه، أنا، صغيرتك! شريط أزرق بطول ياردتين».

نادرًا ما يطلبون شريطًا أطول. فهم لا يستخدمون الشريط لربط البقرة.

«أتظاهر أنني نسيت الطلب، وأنتقل إلى أمر آخر. ثم تقوم بإطلاق القليل من الوميض، ربما عن طريق التلاعب. وإبان الوقت الذي يركز فيه المتفرجون أعينهم، أذهب إلى هذا الجيب الأيسر في سترتي حيثما يتم الاحتفاظ باللون الأزرق دائمًا. وأتظاهر بأنني أغطي فمي جراء السعال، ولفافة الشريط تكون في فمي. وفي لحظة، عندما ينصبّ انتباههم عليّ مرة أخرى، أكشف نهاية الشريط بين شفتي وأسحبه شيئًا فشيئًا. عندما تصل العقدة الأولى إلى أسناني، تنزلق. عندما تصل العقدة الثانية، أعلم أنني على بعد ياردتين، وأقص الشريط وأقدمه إلى من طلبه».

كان روب مسرورًا لتعلم الحيلة ولكنه شعر بالخذلان بسبب التلاعب غير المحبوب، والشعور بالخداع بسبب الألعاب السحرية.

استمر الحلاق في تحريره من سطوة السحر. وبعد فترة وجيزة، إذا لم يكن قد أصبح ساحرًا على ما يرام، فقد يؤدي عمل المعاون كمساعد ساحر. فقد تعلم القليل من الرقصات وحفظ الترانيم والأغاني والنكات والقصص التي لم يفهمها. وأخيرًا، تعلم الكلام الذي يثرثر به أثناء بيع

الدواء السحري. أكد له الحلاق أنه شخص سريع التعلم. وقبل مضي وقت طويل من أن يعتقد الصبي أن ذلك ممكن، أعلن الحلاق الجراح أنه جاهز.

غادرا في صباح ضبابي في شهر أبريل، وشقّا طريقهما عبر تلال بلاكداون لمدة يومين تحت أمطار ربيعية خفيفة. وبعد ظهر اليوم الثالث، صارت السماء صافية وبديعة، ووصلا إلى قرية بريدجتون. أوقف الحلاق الحصان قرب الجسر الذي منح المكان اسمه وقيمته. سأله الحلاق قائلًا: «إذًا، هل أنت مستعد تمامًا؟».

رغم أنه لم يكن متأكدًا، إلا أنه أومأ برأسه.

«ثمة فصل جيد. إنها ليست مدينة كبيرة. القوادون والعاهرات، حانة عامة مكتظة بالزوار، وعدد كبير من العملاء الذين يأتون من كل حدب وصوب للالتقاء بعضهما ببعض. إذًا هل أي شيء مسموح به، أليس كذلك؟».

لم يكن لدى روب أي فكرة عما يعنيه ذلك، لكنه أومأ برأسه مرة أخرى. استجاب إنكيتاتوس إلى حركة اللجام وسحبهما مهرولًا في ممشى السير عبر الجسر. في البداية سارت الأمور كما كانت من قبل. قفز الحصان وقرع روب الطبل أثناء تجوالهما في الشارع الرئيس. ونصب الدكة في ساحة القرية ووضع عليها ثلاث سلال مصنوعة من البلوط ملأى بقناني الدواء السحري.

ولكن هذه المرة، عندما بدأ عرض التسلية والترفيه، تقافز روب مع الحلاق على الدكة.

قال الحلاق: «يوم سعيد وغد سعيد». بدأ كلاهما بالتلاعب بكرتين. وأردف قائلًا: «نحن مسرورون لوجودنا في بريدجتون».

وفي الوقت نفسه، أخذ كلاهما كرة ثالثة من جيبه، ثم كرة رابعة وخامسة. كانت كرات روب حمراء، وكرات الحلاق زرقاء؛ كانت الكرات تنبثق من أيديهم في المنتصف وتسقط من الخارج مثل سقوط الماء في النوافير. تحركت أيديهم مسافة بوصات فحسب، وجعلا الكرات الخشبية تتراقص. وفي النهاية استدارا وواجها بعضهما بعضًا على جانبي الدكة وهما يتلاعبان بالكرات. ودون تفويت أي إيقاع، أرسل روب كرة إلى الحلاق وأمسك كرة زرقاء تم رماها إليه. أولًا أرسل كل كرة ثالثة إلى الحلاق وتلقى كل كرة ثالثة في المقابل. ثم كل كرة أخرى، تيار مستمر ثنائي الاتجاه من الكرات الحمراء والزرقاء التي أشبه بالصواريخ. وبعد إيماءة غير محسوسة تقريبًا من الحلاق، في كل مرة وصلت كرة إلى يد روب اليمنى، كان يرسلها بقوة وبسرعة، ويستعيدها بمهارة وحذاقة كما رماها.

دوى التصفيق الحاد وكان هذا أفضل صوت سمعه على الإطلاق.

وبعد الانتهاء، أخذ عشر كرات من الكرات الاثنتي عشرة وغادر الدكة، باحثًا عن ملجأ خلف الستار في العربة. كان يبتلع الهواء، وقلبه ينبض. كان يسمع الحلاق، الذي لم يكن يعاني من ضيق في التنفس بشكل ملحوظ، يتحدث عن فرحة التلاعب بالكرات وهو يرمي كرتين. «هل تعرفين ما يتوجب عليك عندما تحملين أشياء مثل هذه في يدك، يا سيدتي؟».

«ما هذا يا حلوة؟» سأل إحدى العاهرات.

قال الحلاق: «الاهتمام على وجه التمام والكمال». دوى صياح الحشود الراقصة وصراخها.

وفي العربة، أعد روب الزخارف لعدة فقرات من الأعمال السحرية ثم

عاد وانضم إلى الحلاق، الذي حول سلة فارغة إلى أخرى ملأى بورود صناعية متفتحة، وغيّر منديلًا كئيبًا إلى مجموعة من الأعلام الملونة، وانتزع العملات المعدنية من العدم، وصنع أولًا زجاجة كبيرة من البيرة ثم بيضة دجاجة وأخفاها.

أنشد روب أغنية «مناغاة الأرملة الثرية» إلى الحشود المحتجة، ثم باع الحلاق الدواء السحري خاصته على وجه السرعة، وأفرغ السلال الثلاث وأرسل روب إلى العربة لإحضار المزيد. وبعد ذلك، انتظر طابورًا طويلًا من المرضى الخضوع للعلاج من العديد من الأمراض، ولأنه على الرغم من أن الحشد الطليق كان سريعًا في السخرية والضحك، إلا أن روب لاحظ أنهم كانوا في غاية الخطورة عندما يتعلق الأمر بالبحث عن علاجات لأمراض الجسد وعلّاته.

وبمجرد الانتهاء من التطبيب، شقّا طريقهما للخروج من بريدجتون، لأن الحلاق قال إنها متاهة حيثما تذبح فيها الحناجر بعد أن يتغشّاها الظلام. ومن الواضح أن المعلم كان راضيًا عن المتحصلات التي أخذاها، وغطّ روب في نوم عميق في تلك الليلة وهو على يقين تام بأنه أمّن مكانه في هذا العالم.

وفي اليوم التالي في يوفيل، ورغم أنه أسقط ثلاث كرات أثناء العرض الترفيهي وقد اكتسى وجهه بالخزي والعار، إلا أن الحلاق لم يكن منزعجًا. وقال: «لا بد أن يحدث ذلك في بعض الأحيان في البداية. سيحدث بشكل أقل وأقل تكرارًا وفي النهاية لن يحدث على الإطلاق».

وفي وقت لاحق من ذلك الأسبوع، في بلدة تونتون، وهي بلدة التجار الكادحين، وفي بريدجواتر، حيث كان هناك مزارعون محافظون، قدّما عروض التسلية والترفيه دون فحش وبذاءة. كانت جلاستونبري محطتهما التالية، مكانًا للقوم الأتقياء الذين بنوا منازلهم حول الكنيسة

الكبيرة والجميلة للقديس ميخائيل.

قال الحلاق: «يجب أن نكون حذرين ومتحفظين. يسيطر القساوسة على جلاستونبري، وينظر الكهنة باشمئزاز إلى كل أنواع الممارسات الطبية، لأنهم يعتقدون أن الرب قد أعطاهم تكليفًا مقدسًا بشأن أجساد الناس وكذلك أرواحهم».

وصلا في صباح اليوم التالي لعيد الخمسين، وهو اليوم الذي شهد نهاية موسم عيد الفصح السعيد واحتفلوا بنزول الروح القدس على الرسل، مما قوّتهم بعد تسعة أيام من الصلاة بعد صعود عيسى إلى السماء.

لاحظ روب ما لا يقل عن خمسة كهنة واجمين غير فرحين بين المتفرجين.

كان هو والحلاق يتلاعبان في تناغم مهيب بالكرات الحمراء، التي شبهها الحلاق بألسنة النار التي تمثل الروح القدس في سفر أعمال الرسل، الإصحاح 2: 3. كان المتفرجون سعداء بالتلاعب بالكرات حتى دوى تصفيقهم الحاد، ولكنهم صمتوا عندما أنشد روب ترنيمة «كل المجد، والثناء والشرف». كان دائمًا يحب أن يصدح بالغناء؛ وقد اختنق صوته في الجزء الذي يتحدث عن الأطفال وهم يصنعون «خاتم الشكر الحلو» وأخذته رجفة مع النغمات العالية جدًّا، لكنه كان جيدًا بمجرد أن توقفت ساقاه عن الاهتزاز.

أحضر الحلاق تذكارات مقدسة في صندوق خشبي رث. «انتبهوا، أيها الأصدقاء الأعزاء»، قال فيما قاله لاحقًا إن روب كان صوت الراهب. أراهم الأرض والرمال محمولة إلى إنجلترا من جبل سيناء والزيتون؛ رفع قطعة من الصليب المقدس وقطعة من العارضة التي كانت تحمل المذود المقدس؛ وأظهر الماء من نهر الأردن، وبعض التربة من (بستان الزيتون) في أورشليم، وقطعًا من العظام تعود إلى قديسين بلا حصر ولا عدد.

ثم حلّ محله روب على الدكة ووقف بمفرده. رفع عينيه نحو السماء، كما أمره الحلاق، وغنّى ترنيمة أخرى.

«يا خالق النجوم في السماء،

اغمر شعبك الأبدي بالضياء،

يا عيسى، المخلص، أنقذنا جميعًا،

واسمع عبيدك حين يتضرعون.

أنت مكلوم على تلك اللعنة القديمة

التي نثرت في الكون الهلاك،

وتغمرنا النعمة حيثما وجد الدواء،

لعافية الأبدان وشفاء الأرواح».

وقد تأثّر المتفرجون. وفي تلك الأثناء التي تأثر فيها المتفرجون، وهم كانوا لا يزالون يتنهدون، كان الحلاق يحمل قارورة من الدواء السحري خاصته. وقال: «أيها الأصدقاء. كما أوجد الرب الدواء شفاءً للأرواح، أوجد الدواء عافية للأبدان».

حكى لهم قصة «فيتاليا» عشب الحياة، والتي من الواضح أنها أتت ثمارها الطيبة مع الأتقياء والخطاة؛ لأنهم تكالبوا على شراء الدواء السحري ثم اصطفوّا في طابور للعرض على الحلاق الجراح للاستشارة والعلاج. كان الكهنة المتفرجون يحملقون بسخط لكنهم أغدقوا بالهدايا والعطايا وعولجوا بالعرض الديني، ولم يعترض سوى رجل دين واحد من كبار السن.

فأمر بصرامة قائلًا: «لا تنزف. بالنسبة إلى رئيس الأساقفة ثيودور

كتب أنه من الخطر النزف في وقت يسطع فيه ضوء القمر ويزداد فيه المد والجزر». أبدى الحلاق موافقته سريعًا.

خيّما في ابتهاج شديد بعد ظهر ذلك اليوم. غلى الحلاق قطعًا صغيرة من اللحم البقري في النبيذ حتى غدت طرية غضة وأضاف إليها البصل، واللفت الشايخ الذي بدا متغضنًا ولكنه سليم، وبازلاء وفاصوليا طازجة، ونكهة الزعتر وقليل من النعناع. كانت لا تزال هناك قطعة من جبن استثنائي فاتح اللون ابتاعاه في بريدجواتر، وبعد ذلك جلس قرب النار وبارتياح واضح أحصى محتويات صندوق نقوده.

ربما كانت هذه هي اللحظة لطرح موضوع كان ثقيلًا على قلب روب؛ جاثمًا على صدره.

قال روب: «أيها الحلاق».

تمتم الحلاق قائلًا: «ممم».

استطرد روب قائلًا: «أيها الحلاق، متى نذهب إلى لندن؟».

وبكل عزيمة لترتيب العملات المعدنية، لوّح الحلاق بيده، غير راغب في أن يفقد العدّ. وغمغم قائلًا: «بمرور الوقت. بمرور الوقت».

9

القريحة

أخطأ روب في التلاعب بأربع كرات في كينجسوود. ورغم أنه أسقط كرة أخرى في مانجوتسفيلد، لكنها كانت المرة الأخيرة، وبعد أن قدّما عروض التسلية والترفيه والعلاج للقرويين في ريديتش في منتصف يونيو، لم يعد يقضي ساعات كل يوم في ممارسة التلاعب بالكرات، لأن عروض التسلية والترفيه المتكررة جعلت أصابعه أكثر مرونة وجعلته مفعمًا بالإحساس بالإيقاع. فسرعان ما أصبح بهلوانًا واثقًا من نفسه. ورغم أنه كان يخامره الشك في أنه في النهاية سوف يكون بإمكانه تعلم كيفية التلاعب بست كرات، إلا أن الحلاق لم يكن لديه ثمة دليل على ذلك، مفضلًا أنه يستغل وقته للمساعدة في صنعة الحلاق الجراح.

سافرا إلى الشمال مثل الطيور المهاجرة، ولكن بدلًا من الطيران، شقّا طريقهما على مهل عبر الجبال بين إنجلترا وويلز. كانا في بلدة أبيرجافيني، وهي عبارة عن صف من المنازل المتراصة المتهالكة تتكئ على جانب منحدر صخري طيني مكفهر، عندما ساعد الحلاق لأول مرة في الفحوصات والعلاج.

كان روب خائفًا. انتابه خوف فاق الخوف الذي بثته الكرات الخشبية في نفسه.

كانت الأسباب وراء أوجاع الناس غامضة. بدا من المستحيل على رجل عادي أن يفهم الأسباب ويقدم معجزات خارقة. كان يعلم أن الحلاق كان أكثر فطنة وذكاءً من أي رجل عرفه في حياته حتى يتمكن من فعل ذلك.

اصطفّ الناس أمام الستار، وأخذهم روب واحدًا تلو الآخر بمجرد أن انتهى الحلاق من فحص الشخص السابق، وقادهم إلى ركن حيث الخصوصية الجزئية التي يوفرها الحاجز الهش. كان الرجل الأول الذي أعاده روب إلى معلمه كبيرًا ومحنيًا، تنتشر على رقبته علامات سوداء، وعلى براجمه، وتحت أظافره.

اقترح الحلاق قائلًا: «يمكنك إزالة هذه العلامات بالغسيل»، ولكن بلطف.

قال الرجل: «إنه الفحم، كما ترى، يلتصق نثار الفحم عندما نحفر في منجم الفحم».

قال الحلاق: «أتحفر في منجم الفحم؟ سمعت أنه سم يحترق. لقد رأيت بأم عيني أنه تنتج عنه رائحة كريهة ودخان كثيف لا يتصاعد بسهولة من خلال فتحة دخان المنزل. وهل هناك لقمة عيش في العمل مع مثل هذه الأشياء الزهيدة؟».

«إنه موجود يا سيدي، ونحن فقراء. ولكن في الآونة الأخيرة، ظهرت آلام وتورمات في مفاصلي، ويؤلمني الحفر».

لمس الحلاق الرسغين والأصابع المتسخين، وغرس طرف إصبعه الممتلئ في الورم في مرفق الرجل. «إنه يأتي من استنشاق الرطوبة من الأرض. يجب أن تجلس في الشمس كلما أمكن. وكثرة الاستحمام بالماء الدافئ وليس الساخن، لأن الاستحمام بالماء الساخن يؤدي إلى ضعف القلب والأطراف. افرك مفاصلك المتورمة والمؤلمة بدوائي السحري، والذي قد تجني ثماره عندما يتحسن جسمك من الداخل أيضًا».

دفع الرجل ستة بنسات مقابل ثلاث قناني صغيرة وبنسين مرة أخرى مقابل الاستشارة، ولم يأبه أو ينظر إلى روب.

جاءت امرأة بدينة وصموت مع ابنتها البالغة من العمر ثلاثة عشر عامًا التي كانت مخطوبة للزواج. قالت الأم: «دورتها الشهرية منقطعة داخل جسدها ولا تتدفق أبدًا».

سألها الحلاق عما إذا جاءتها الدورة الشهرية من ذي قبل. قالت الأم: «لأكثر من عام كانت تأتيها الدورة الشهرية بانتظام». ولكن منذ خمسة أشهر حتى الآن، لا شيء».

«هل ضاجعت رجلًا؟» سأل الحلاق الفتاة بلطف.

قالت الأم: «لا».

نظر الحلاق إلى الفتاة. كانت نحيفة ومليحة، بشعر أشقر طويل وعينين يقظتين. «هل تتقيأ؟».

همست «لا».

تفحصها الحلاق، ثم أخرج يده وأحكم ثوبها. وأخذ كف أمها وضغطها على بطنها الصغير المستدير.

قالت الفتاة مرة أخرى: «لا». وهزّت رأسها. توهجت وجنتاها وبدأت تنتحب.

رفعت الأم يدها من على بطن ابنتها وضغطت على وجهها. قادت المرأة ابنتها بعيدًا دون أن تدفع، ولكن الحلاق تركهما يذهبان.

وفي تتابع سريع، عالج الحلاق رجلًا كانت ساقه معتلة قبل ثماني سنوات وكان يجر قدمه اليسرى عندما يمشي حاجلًا؛ وامرأة تعاني من الصداع؛ ورجل مصاب بالجرب في فروة الرأس؛ وفتاة غبية ومبتسمة مصابة بقرحة فظيعة في ثديها وأخبرتهما أنها كانت تتضرع إلى الرب كي يفد الحلاق الجراح إلى مدينتها.

باع الحلاق الدواء السحري للجميع باستثناء الرجل المصاب بالجرب، والذي لم يشترِه رغم أن الحلاق أوصى له بالدواء بشدة؛ ربما لم يكن في جيبه بنسان.

تحرّكا إلى التلال الأكثر نعومة في غرب ميدلاندز. وبالقرب من قرية هيرفورد، كان على إنكيتاتوس الانتظار بجانب نهر «واي» لأن الأغنام كانت تتدفق عبر معبر مائي ضحل، حتى بث هذا التدفق المستمر من ثغاء الشياه المغطاة بجزائز الصوف رعبًا مخيفًا في نفس روب. كان روب يود أن يكون أكثر راحة مع الحيوانات، ولكن على الرغم من أن أمه جاءت من مزرعة، إلا أنه كان ابن مدينة. كان تاتوس هو الحصان الوحيد الذي تعامل معه. كان أحد الجيران البعيدة في شارع النجّار يربي بقرة حلوبًا، ولكن لم يقض أي من أفراد عائلة كول الكثير من الوقت بالقرب من الأغنام.

كانت هيرفورد مجتمعًا مزدهرًا. كل مزرعة مرّا بها كان بها خنزير يتمرغ في العشب ومروج خضراء واسعة ملأى بالأغنام والماشية. كانت البيوت الحجرية والحظائر كبيرة وصلبة وكان الناس عمومًا أكثر بهجة من الناس القاطنين في تلال ويلز القابعين في الفقر المدقع على بعد بضعة أيام فحسب. ففي القرية الخضراء اجتذبت وسائل الترفيه الخاصة بهما حشدًا كبيرًا وكانت المبيعات أكثر رواجًا.

كان أول مريض للحلاق خلف الستار فتى في نفس عمر روب، ولكن بنيته الجسمانية كانت أصغر بكثير. قال والد الصبي، وهو صانع براميل خشبية، «سقط من السطح قبل ستة أيام، وافحصه». اخترقت شظية عصا برميل خشبي على الأرض راحة يده اليسرى والآن أصبح اللحم متورمًا مثل سمكة منتفخة.

أظهر الحلاق لروب كيفية الإمساك بيدي الصبي وأظهر للأب كيفية

الإمساك بساقي الصبي، ثم أخذ سكينًا قصيرًا حادًّا من أدواته.

قال الحلاق: «امسكاه بسرعة».

شعر روب أن يداه ترتجفان. صرخ الصبي وقد انفصل لحمه تحت النصل. اندفع صديد أصفر مخضر، متبوعًا برائحة كريهة ونزيف دموي.

مسح الحلاق الجرح حتى نظفه من القيح وشرع في علاجه بكفاءة دقيقة، باستخدام ملاقط حديدية لسحب الشظايا الصغيرة. «إنها أجزاء من القطعة التي أتلفته، كما ترى؟» قال الحلاق لوالد الصبي، وهو يريه.

تأوه الصبي. شعر روب بالغثيان لكنه تماسك في حين أن الحلاق استمر في تضميد الجرح بعناية بطيئة. قال الحلاق: «يجب أن نستخرج جميع الشظايا، لأنها تحتوي على شوائب فاسدة ستؤدي إلى إماتة اليد مرة أخرى».

عندما اقتنع بأن الجرح كان خاليًا من شظايا الخشب، سكب فيه بعض الدواء وربطه بقطعة قماش، ثم شرب بقية القارورة بنفسه. انسلّ المريض المنتحب، وبلغت سعادته من العمق مداها لّما بارح المكان في حين كان والده يدفع مقابل العلاج.

كان المنتظر بعد ذلك هو رجل عجوز محنيّ مصاب بسعال جاف. أدخله روب خلف الستار.

«بلغم الصباح. أوه، الكثير يا سيدي!»، وشهق عندما تحدث.

مرر الحلاق يده بعناية على صدره النحيل. «حسنًا. أريدك مقوس الصدر». نظر إلى روب وقال: «ساعده على خلع ملابسه جزئيًّا، حتى يكون صدره مقوسًا».

أزاح روب قميص الرجل العجوز بحذر شديد، لأنه بدا هشًّا. ولإعادة

المريض في مواجهة الجرّاح، أمسك روب بيدي الرجل.

كان الأمر أشبه بالإمساك بزوج من الطيور المرتعشة. انغرست الأصابع الشبيهة بالعصي في جسده، ومنها تلقى رسالة.

نظر الحلاق إليهما ورأى صبيه متخشبًا. قال بنفاد صبر: «تعال. يجب ألا نستغرق اليوم كله». يبدو أن روب لم يسمع ما قيل.

مرتين قبل أن يشعر روب بهذا الإحساس الغريب وغير المرغوب فيه الذي سرى داخله وتسرّب إليه من جسد شخص آخر. الآن، كما في كل مرة، اجتاحه رعب مطلق، وأسقط يدي المريض وهرب.

بحث الحلاق عنه وهو يصب لعناته عليه حتى وجد صبيه مختبئًا خلف شجرة.

«ما معنى ذلك. أخبرني الآن!».

«هو.. سيموت الرجل العجوز».

حدّق الحلاق. «أي نوع من الهراء التافه هذا؟».

بدأ صبي الحلاق ينتحب.

قال الحلاق: «توقف عن ذلك. كيف عرفت بذلك؟».

حاول روب التحدث ولكن انعقد لسانه. صفع الحلاق وجهه حتى لهث. وعندما بدأ بالكلام انسابت الكلمات من بين شفتيه على عجل، لأنها كانت مشوشة في ذهنه حتى قبل مغادرتهما لندن.

وأوضح أنه شعر بموت أمه الوشيك وقد حدث ذلك. وبعد ذلك عرف أن أباه ذاهب إلى الموت، ومات بالفعل.

قال الحلاق باشمئزاز: «آه، أيها المسيح الغالي».

ولكنه استمع وكله آذان مصغية، وهو يراقب روب. «أخبرني هل أنك رأيت الموت بالفعل في ذلك الرجل العجوز؟».

«نعم». لم يكن لديه أي توقع بأن يصدق.

«متى؟».

هزّ كتفيه.

«عما قريب؟».

أومأ برأسه. كان بإمكانه فقط قول الحقيقة في يأس.

رأى في عيني الحلاق أن الرجل قد أدرك ذلك.

تردد الحلاق ثم اتخذ قراره. وقال: «في تلك الأثناء التي أتخلص فيها من الناس، جهّز العربة».

لقد غادرا القرية على مهل ولكن بمجرد أن غابا عن الأنظار قادا العربة بالسرعة التي تحديا بها المسار الوعر. قرع إنكيتاتوس معبر النهر مع طرطشة صاخبة، وبعد ذلك بقليل، تفرقت الأغنام حتى تلاشى ثغاؤها المرعب تقريبًا في خضم زمجرة الراعي الذي استشاط غضبًا.

ولأول مرة كان يرى روب الحلاق وهو يسوط الحصان. «لماذا نجري؟» نادى قائلًا: انتظر.

«هل تعرف ماذا يفعلون مع السحرة؟» كان على الحلاق أن يصيح بأعلى صوته حتى يفوق صوته قرع الحوافر وقعقعة المتاع داخل العربة.

هزّ روب رأسه.

«يصلبونهم في شجرة أو صليب. وفي بعض الأحيان يغمرون المشتبه بهم في نهر التايمز اللعين وإذا غرقوا تعلن براءتهم. فإذا مات الرجل العجوز، سيقولون إنه مات لأننا سحرة، «صاح بأعلى صوته، وهو ينزل بالسوط مرارًا وتكرارًا على ظهر الحصان المرعوب.

لم يتوقفا لتناول الأكل أو قضاء حاجتهما. بحلول الوقت الذي سمحا فيه لتاتوس بالتباطؤ، كانت هيرفورد بعيدًا عن الركب، لكنهما ظلا يدفعان الحيوان المسكين حتى تلاشى ضوء النهار. استبد بهما التعب، وخيّما وأكلا وجبتهما الزهيدة في صمت مطبق.

قال الحلاق في نهاية المطاف: «احكِ مرة أخرى، دون إغفال التفاصيل».

كان يستمع باهتمام جم، ولم يقاطع روب إلا مرة واحدة فحسب ليطلب منه التحدث بصوت أعلى. عندما أدرك الحلاق ما حكاه الصبي أومأ برأسه. وقال: «في فترة التدريب المهني الخاصة بي، شاهدت معلمي الحلاق الجراح يقتل ظلمًا وبوحشية من أجل ساحرة».

رمقه روب بنظرة، وارتعد لدرجة جعلته يمتنع عن طرح الأسئلة.

«عدة مرات خلال حياتي، مات المرضى أثناء علاجي لهم. ذات مرة وأنا في مدينة دورهام، توفيت امرأة عجوز وكنت على يقين من أن محكمة كهنوتية ستأمر بالمحاكمة بالتغطيس في الماء أو بحمل قضيب حديدي ساخن. لم يسمح لي بالمغادرة إلا بعد استجواب مشبوه وصيام وصدقة. ومرة أخرى في إيديسبوري مات رجل خلف ستار العلاج خاصتي. وكان مفعمًا بالشباب والحيوية ويبدو أنه كان بصحة جيدة. وكان من الممكن أن يكون لدى مثيري الشغب أرض خصبة للنيل مني لكنني كنت محظوظًا ولم يعترض أحد طريقي عندما خرجت إلى الطريق».

عاد لروب صوته. «هل تعتقد أنني... مسّني الشيطان؟» لقد كان سؤالًا

ابتلي به طوال اليوم.

زمجر الحلاق. «إذا كنت تعتقد ذلك، فأنت أحمق وغبي. وأنا أعلم أنك لست كذلك». ذهب إلى العربة وملأ قرنه بالميثيجلين وشربه كله قبل أن يتكلم مرة أخرى.

«الآباء والأمهات يموتون. ويموت كبار السن. هذه هي طبيعة الدنيا. هل أنت متأكد من أنك شعرت بشيء ما؟ «.

أجاب روب قائلًا: «نعم، أيها الحلاق».

«ألا يمكن أن يخطئ أو يتوهم، شاب مثلك؟».

هزّ روب رأسه بعناد.

قال الحلاق: «وأقول إنه قد يكون مجرد توهم. لذلك كانت لدينا فرصة للفرار والحديث ويجب علينا أن ننال قسطًا من الراحة».

رتّب كل منهما فراشه على جانبي النار. ولكنهما رقدا لساعات وهما يستجديان النوم ويحايلانه بلا جدوى. تقلّب الحلاق واستدار وقام الآن وفتح قارورة أخرى من الخمر. واقترب من الجانب الذي رتب فيه روب فراشه قرب النار وجلس القرفصاء على كعبيه.

وقال: «فلنفترض»، ورشف رشفة من الخمر. «افترض فحسب أن كل شخص آخر في العالم قد ولد بلا عينين».

«وأنت ولدت بعينين؟».

«إذًا فيمكنني أرى ما لا يمكن لأي شخص آخر رؤيته».

رشف الحلاق رشفة أخرى وأومأ. «نعم أو تخيل أنه ليس لدينا آذان ولديك آذان؟ أو لنفترض أنه لم يكن لدينا إحساس آخر؟ وبطريقة ما،

من الرب أو الطبيعة أو ما شئت، لقد منحت... قريحة خاصة. فلتفترض فحسب أنه يمكنك معرفة متى سيموت شخص ما؟».

أطبق الصمت على روب وسرى في جسده خوف شديد مرة أخرى.

قال الحلاق: «إنه هراء، وكلانا يفهم ذلك».

«كل ذلك محض خيال من خيالك أنت، ونحن متفقان. ولكن فقط لنفترض...».

مصّ الخمر من القارورة متلذذًا حتى برزت تفاحة آدم، وضوء النار المحتضر تلألأ بحرارة في عينيه الدامعتين بالأمل ونظر إلى روب وقال: «سيكون من الخطيئة عدم استغلال هذه القريحة».

وفي مدينة تشيبينج نورتون اشتريا الميثيجلين وخلطا كمية أخرى من الدواء السحري لتزويد الإمدادات المربحة.

قال الحلاق: «عندما أموت وأقف في طابور أمام البوابة»، سوف يسأل القديس بطرس: «كيف كسبت لقمة عيشك؟» قد يقول رجل ما: «كنت مزارعًا»، أو «كنت صانع أحذية من الجلد». ولكنني سأجيب، «بعت الوهم»، قال الراهب السابق بمرح، وكانت اللاتينية التي يعرفها روب ترقى إلى مستوى المهمّة: بعت السمك في الماء.

ومع ذلك، كان الرجل السمين أكثر من مجرد بائع متجول يبيع دواءً محل شك. عندما كان يعالج المرضى خلف الستار، كان ماهرًا وحنونًا في كثير من الأحيان. ما كان الحلاق يعرفه يفعله، كان يعرفه ويفعله تمامًا، وعلّم روب كيف تكون له لمسة رقيقة ويد حنونة.

وفي باكنغهام، أوضح له الحلاق كيفية خلع الأسنان، وكان من حسن حظه أن يصادف راع متعفن فمه. كان المريض بدينًا مثل الحلاق، وهو

يتأوه فاغر العينين ويصرخ مثل النساء. وفي منتصف الطريق، غيّر رأيه. «توقف، توقف، توقف! أطلق سراحي!» ورغم أنه كان يثأثئ بصورة ملحوظة، لكن لم يكن هناك شك في أن الأسنان بحاجة إلى الخلع، وقد ثابرا؛ لقد كان درسًا ممتازًا.

ففي قرية كلافرينج، استأجر الحلاق ورشة الحداد ليوم واحد وتعلّم روب كيفية تصميم المباضع الحديدية والملاقط. لقد كانت مهمة كان عليه أن يكررها في نصف دزينة من ورش الحدادة في جميع أنحاء إنجلترا خلال السنوات العديدة القادمة قبل أن يرضي معلمه بأنه يستطيع القيام بذلك بشكل صحيح. ورغم أن معظم عمله قوبل بالرفض في كلافرينج، إلا أن الحلاق سمح له على مضض بالاحتفاظ بمبضع صغير ذي حدين كأول أداة في عدته الخاصة من الأدوات الجراحية، وهي بداية مهمة. وفي حين كانا يشقان طريقهما للخروج من ميدلاندز إلى الفينز، علّمه الحلاق أي الأوردة التي تبضع للنزيف، مما أعاده إلى ذكريات غير سارة عن أيام أبيه الأخيرة.

كان طيف والده يتسلل إلى ذهنه أحيانًا، لأن صوته بدأ يشبه صوت أبيه؛ وطابع صوته ازداد عمقًا، وكان شعر جسده آخذًا في النمو. لم تكن البقع سميكة كما ستصبح، كما كان يعلم، لأنه من خلال مساعدة الحلاق كان على دراية بالرجل العاري. ظلت النساء أكثر غموضًا، حيث استخدم الحلاق دمية عارية ومبتسمة وغامضة أطلقا عليها اسم ثيلما، التي كانت تستخدمها النساء للإشارة بكل تواضع إلى منطقة الإصابة، مما يجعل الفحص غير ضروري. لا يزال روب غير مرتاح للتدخل في خصوصية الغرباء، لكنه اعتاد على الاستفسار المعتاد عن الوظائف الجسدية:

«متى كانت آخر مرة تبرزت فيها يا سيدي؟».

«سيدتي، متى تأتيك الدورة الشهرية؟».

بناءً على اقتراح الحلاق، أخذ روب يدي كل مريض بنفسه عندما جاء دور المريض خلف الستار.

«بماذا تشعر عندما تمسك بأصابعهم؟».

سأله الحلاق ذات يوم في تيسبري عندما قام بتفكيك الدكة.

«في بعض الأحيان لا أشعر بأي شيء».

أومأ الحلاق برأسه. أخذ أحد الأجزاء من روب ووضعه في العربة وعاد متجهمًا عبوسًا.

«لكن في بعض الأحيان ... هناك شيء ما؟».

أومأ روب برأسه.

«إذًا ماذا؟» قال الحلاق بانزعاج. «ما هو الشيء الذي تشعر به يا فتى؟».

لكنه لم يستطع تعريفه أو وصفه بالكلمات. لقد كان حدسًا حول حيوية الشخص، مثل تحديق النظر في الآبار المظلمة واستشعار مقدار الحياة التي احتوتها كل منها.

اتخذ الحلاق صمت روب كدليل على تخيل الشعور. قال بخبث: «أعتقد أننا سنعود إلى هيريفورد ونرى ما إذا كان الرجل العجوز لم يعد ينعم بصحة جيدة أم لا».

انزعج عندما أبدى روب موافقته. وقال الحلاق: «لا يمكننا العودة، أيها اللعين! لأنه إذا كان قد مات بالفعل، ألا يجب أن نضع رؤوسنا في حبل المشنقة؟».

استمر في السخرية من «القريحة» كثيرًا وبصوت عال.

ومع ذلك، عندما بدأ روب يتراخى في أخذ أيدي المرضى، أمره باستئناف الأمر. قال الحلاق: «ولمَ لا؟ ألست رجلًا حذرًا في عملي؟ وهل يكلفنا الانغماس في هذا الهوى؟».

وفي بيتربورو، التي تقع على بعد أميال قليلة وعمر طويل بعيدًا عن الدير الذي هرب منه عندما كان صبيًّا، جلس الحلاق وحده في الحانة العامة طوال أمسية طويلة ممطرة في شهر أغسطس، وهو يشرب بتلذذ وباستمرار.

وعند جثوم الليل، جاء صبيه يبحث عنه. قابله روب وهو يترنح على طول الطريق وسانده في العودة إلى المكان الذي خيّما فيه. «رجاءً»، همس الحلاق مجفلًا.

لقد اندهش من رؤية الرجل المخمور يرفع كلتا يديه ويمدهما لأعلى.

قال الحلاق مرة أخرى: «آه، باسم المسيح، رجاءً». وفي نهاية المطاف، فهم روب الأمر. أخذ يدي الحلاق وحدّق في عينيه.

وفي لحظة أومأ روب برأسه.

غاص الحلاق في سريره. تجشأ واستدار على جانبه، ثم غطّ في نوم عميق.

10

الشمال

في ذلك العام، لم يتمكن الحلاق من الوصول إلى إكسماوث في الوقت المناسب لقضاء فصل الشتاء، لأنهما بدآ في وقت متأخر وقد ملأت أوراق الخريف المتساقطة الأرض وهما لا يزالان في قرية جيت فولفورد، في يوركشاير ولديز. عجّت المستنقعات بالنباتات التي أنعشت النسيم البارد بأريجها. تتبع روب والحلاق نجم الشمال، وتوقفا في القرى على طول الطريق للقيام بأعمال جيدة للغاية، وقادا العربة عبر بساط لا نهاية له من نبات الخلنج الأرجواني حتى وصلا إلى مدينة كارلايل.

أخبره الحلاق قائلًا: «هذا أقصى ما أسافر إليه في الشمال. على بعد ساعات قلائل من هنا تنتهي نورثمبريا وتبدأ الحدود. وما وراء ذلك اسكتلندا، التي يعرف الجميع أنها أرض الهمج، وهي محفوفة بالمخاطر بالنسبة للإنجليز الشرفاء».

ولمدة أسبوع، خيّما في كارلايل وذهبا كل مساء إلى الحانة، حيث سرعان ما أسفرت الحصافة والحكمة في شراء المشروبات إلى معرفة الحلاق بالمأوى المتاح. استأجر الحلاق منزلًا على المستنقع مكونًا من ثلاث غرف صغيرة. ورغم أنه لم يكن مختلفًا عن المنزل الصغير الذي كان يمتلكه على الساحل الجنوبي، لكنه كان يفتقر إلى مدفأة ومدخنة حجرية، مما أثار استيائه. رتّب كل منهما سريره على جانبي الموقد كما لو كان نار المخيم، ووجدا إسطبلًا قريبًا لإيواء الحصان إنكيتاتوس. ومرة أخرى، ابتاع الحلاق لوازم العيش لفصل الشتاء بسخاء، وبطريقة سهلة نجح

المال في منح روب إحساسًا رائعًا بالرفاهية.

حصل الحلاق على اللحم البقري ولحم الخنزير. كان يود الحلاق أن يشتري فخذًا من لحم الغزال، ولكن تعرض ثلاثة صيادين تجاريين للشنق في كارلايل خلال الصيف لصيدهم غزلان الملك التي كانت مخصصة لرياضة النبلاء. لذا ابتاع بدلًا من ذلك خمس عشرة دجاجة سمينة وجوالًا من العلف.

قال الحلاق لروب: «الدجاج هو اختصاصك».

«مسوؤليتك إطعامه، وذبحه بناءً على طلبي، ونتف ريشه، وتتبيله، وتجهيزه للطهي لي».

كان روب يعتقد أن الدجاج مخلوقات مثيرة للإعجاب، كبيرة الحجم، ناصع لونها، لها سيقان وأعرف وألغاد حمراء وشحمة أذن. لم تعترض الدجاجات عندما اختلس روب من قن الدجاج أربع أو خمس بيضات كل صباح. قال له الحلاق:

«اعتقدت الدجاجات أنك ديك شرس كبير».

قال روب: «لماذا لا نشتري لها ديكًا؟».

لأن الحلاق، الذي كان يحب النوم في وقت متأخر من صباح الشتاء البارد يمقت صياح الديكة، كان ببساطة يعلو صوت شخيره.

وقد نبت شعر بني اللون على وجه روب، ليس لحية بالضبط. قال الحلاق إن الدنماركيين فقط حلقوا شعرهم لكنه كان يعلم أن ذلك غير صحيح، لأن والده أبقى وجهه خاليًا من الشعر. وفي عدة الجراحة التي يمتلكها الحلاق، كانت هناك شفرة حلاقة وقد أومأ الرجل السمين برأسه عندما طلب روب استخدامها. ورغم أنه أحدث جرحًا في وجهه، لكن

الحلاقة جعلته يشعر بأنه أكبر سنًّا.

ففي المرة الأولى التي أمره فيها الحلاق بذبح دجاجة، شعر بأنه صغير جدًّا. كان كل طائر يحدق به من خلال حبات سوداء صغيرة يخبره أنه من المحتمل أن يكونوا قد كبروا ليصبحوا أصدقاء. وأخيرًا أرغم أصابعه القوية على الالتفاف بإحكام حول أقرب رقبة دافئة وانتفض وأغلق عينيه. التَوَى الطائر قويًّا ومتشنجًا، وانتهى أجله بالذبح. ولكن الطائر عاقبه بعد الذبح لأنه لم يتخل عن ريشه بسهولة. استغرق نتف الريش ساعات، ونظر إلى الجثة رمادية اللون بازدراء عندما سلمها يدًا بيد إلى الحلاق.

وفي المرة التالية التي طلب فيها الحلاق دجاجة، أظهر له الحلاق سحرًا حقيقيًّا. فتح منقار الدجاجة ودسّ سكينًا رقيقًا عبر سقف الفم إلى الدماغ. استرخت الدجاجة مرة واحدة حتى الموت، وانفلت الريش؛ انفصل الريش في كتل كبيرة مع أقل مجهود عند سحبه.

قال الحلاق: «هذا هو الدرس. من السهل أن تجلب الموت للإنسان، وقد فعلت ذلك. يصعب الحفاظ على الحياة، ويصعب فهم الصحة.

هذه هي الأمور التي يجب أن نضعها نصب أعيننا».

كان طقس أواخر الخريف مثاليًّا لجمع الأعشاب، وقد قاما بالبحث في الغابات والمستنقعات عن الأعشاب. أراد الحلاق على وجه الخصوص نبات الرجلة؛ لأنه إذا ما نقعه في الدواء السحري خاصته، فإنه ينتج عاملًا من شأنه أن يخفف الحمى ويبددها. ولكن لخيبة أملهما، لم يجدا شيئًا. قاما بجمع بعض الأعشاب بسهولة أكبر، مثل بتلات الورد الأحمر للكمادات والزعتر والبلوط ليتم طحنه وخلطه مع الدهون ونثره على بثور الرقبة. تطلبت بعض الأعشاب الأخرى عملًا شاقًّا، مثل التنقيب على جذر الزرنب

الذي من شأنه أن يساعد المرأة الحامل على الاحتفاظ بجنينها. قاما بجمع عشب الليمون والشبت لمشاكل المسالك البولية، وزنابق زكية الرائحة من المستنقعات لمحاربة تدهور الذاكرة بسبب الندى والبرد، وتوت العرعر الذي يجب غليه لفتح ممرات الأنف المسدودة، والترمس لعمل الكمادات الدافئة لسحب الصديد من الخراج، والريحان والخبِّيزة لتهدئة الطفح الجلدي المسبب للحكة.

«لقد كبرت أسرع من هذه الأعشاب والحشائش»، لاحظ الحلاق بسخرية، وكان ذلك صحيحًا؛ لقد كان بالفعل يقف تقريبًا بنفس ارتفاع الحلاق وقد تجاوز طوله منذ فترة طويلة الثياب التي حاكتها إيديثا ليبتون من أجله في إكسماوث. ولكن عندما اصطحبه الحلاق إلى خيّاط في مدينة كارلايل وطلب منه أن يحيك له «ثياب شتوية جديدة تليق به بعض الوقت»، وافق الخيّاط.

«لا يزال الصبيّ يكبر، أليس كذلك؟ خمسة عشر، ستة عشر عامًا؟ مثل هذا الفتى يتفوق بكبر جسمه على الملابس بسرعة».

«ستة عشر عامًا! لم يبلغ الحادية عشرة من عمره بعد!».

نظر الرجل إلى روب بتندر مشوب بالاحترام. «سيكون رجلًا كبيرًا! ومن المؤكد أنه سيجعل ثيابي تبدو وكأنها تتقلص. هل لي أن أقترح أن نعيد تصميم الثياب القديمة؟».

لذا أعيد قص وحياكة حلّة أخرى من حلل الحلاق، هذه واحدة من الحلل الرمادية الجيدة في الغالب. والأمر المضحك بالنسبة لهما، كانت الحلة عريضة جدًّا عندما ارتداها روب لأول مرة، ولكنها كانت قصيرة جدًّا من الذراعين والساقين. قصّ الخيّاط بعض الزيادة المتبقية من العرض وطوّل البنطال والأكمام، وأخفى الغرز المتصلة بشرائط من القماش

الأزرق الأنيق. خرج روب دون حذاء معظم الصيف ولكن سرعان ما حلّت الثلوج، وكان ممنونًا عندما اشترى الحلاق له حذاءً برقبة مصنوعًا من جلد البقر.

سار بالحذاء عبر ساحة كارلايل قاصدًا كنيسة القديس مرقس وطرق مقرعة الباب على أبوابها الخشبية الكبيرة التي فتحت على مصراعيها من قبل راعي الأبرشية المسن ذي العينين الدامعتين.

«إذا سمحت، أبي، أبحث عن كاهن يدعى رانالد لوفيل».

رمش راعي الأبرشية بعينيه. «كنت أعرف كاهنًا بهذا الاسم، خدم القدّاس تحت إدارة لايفنج، في الوقت الذي كان فيه لايفنج هو أسقف ويلز. مات خلال هذه السنوات العشر إبان عيد الفصح».

هزّ روب رأسه. «إنه ليس نفس الكاهن. رأيت الأب رانالد لوفيل بأم عيني ولكن قبل عدة سنوات».

«ربما كان الرجل الذي عرفته هو هيو لوفيل وليس رانالد».

«انتقل رانالد لوفيل من كنيسة في لندن إلى كنيسة في الشمال. ويعمل لديه أخي ويليام ستيوارت كول. وهو يصغرني بثلاث سنوات».

«يا بني، قد يكون لأخيك الآن اسم مختلف بحق يسوع المسيح. يقوم الكهنة أحيانًا بإحضار صبيانهم إلى الدير ليصبحوا شمّاسين. يجب أن تسأل الناس الآخرين في كل مكان. الكنيسة الأم المقدسة بحر كبير لا حدود له وأنا مجرد سمكة صغيرة وحيدة». أومأ الكاهن العجوز برأسه بلطف وساعده روب في إغلاق الأبواب.

أبهتت قشرة من البلورات صفحة الماء في البركة الصغيرة خلف حانة المدينة. أشار الحلاق إلى زوج من الزلّاجات مربوط في عارضة من

عوارض منزلهما الصغير. «من المؤسف أنها ليست أكبر. لن تناسبك هذه الزَلاَّجات، لأن قدمك كبيرة بشكل استثنائي».

كان يزداد سمك الثلج يوميًا، حتى إنه في صباح أحد الأيام سمع صوت مصمت عندما خرج روب إلى منتصف الساحة وترك آثار أقدامه. أنزل روب زوج الزلاجات الصغيرة جدًّا. كانت الزلاجات منحوتة من قرن غزال وكانت مماثلة تقريبًا للزلاجات التي صنعها والده له عندما كان يبلغ من العمر ست سنوات. كان قد نما بسرعة أكبر من الزلاجات لكنه استخدمها لمدة ثلاثة فصول شتاء على أي حال، والآن أخذ الزلاجات إلى البركة وربطها في قدميه. ورغم أنه في البداية استخدمها بسرور، إلا أنها كانت محززة الحواف وثقيلة مما تسبب حجمها وحالتها في انقلابه خلال محاولته الأولى للسير بها. ارتطمت ذراعاه وسقط بشدة وانزلق مسافة لا بأس بها.

وسرعان ما أدرك أن شخصًا ما يتلهى به.

ربما كانت الفتاة في الخامسة عشرة من عمرها. كانت تضحك والسعادة تملأ محيّاها.

«هل بإمكانك عمل شيء أفضل؟» قال بحرارة، وفي الوقت نفسه اعترف لنفسه أنها كانت دمية جميلة، نحيفة جدًّا، وثقيلة، ولكن بشعر أسود مثل إيديثا.

قالت: «هل تقصدني؟ لماذا، لا أستطيع، ولن أمتلك الشجاعة أبدًا؟».

وعلى الفور تلاشى انفعاله. قال: «لقد كانت مخصصة لقدميك أكثر من قدمي». خلعهما من قدميه وحملهما إليها حيثما كانت واقفة على الضفة. «ليس الأمر صعبًا على الإطلاق. قال: دعيني أريك».

تغلب بسرعة على اعتراضاتها وسرعان ما أحكم الزلاجات حول قدميها. لم تستطع الوقوف على نتف الثلج الناعمة غير المألوفة وتشبثت به، وزاد الرعب الذي انتابها من اتساع حدقة عينيها البنيتين واحمرّت فتحات أنفها الأفطس. قال لها: «لا تخافي، فأنا معك». دعم وزنها ودفعها على طول الثلج من الخلف، وشعر بردفيها الدافئين.

والآن هي تضحك وتحتج وهو يدفعها هنا وهناك حول البركة. أخبرته أنها تدعى جاروين تالبوت. كان والدها، ألفريك تالبوت، يمتلك مزرعة بالقرب من المدينة. وسألته قائلة: «ما اسمك؟».

فجاءها الجواب: «روب جيه كول».

تحدّثت، كاشفة عن مخزون من المعلومات عنه، لأنها كانت مدينة صغيرة؛ كانت تعرف بالفعل عندما وفد هو والحلاق إلى مدينة كارلايل، وكانت تعرف ما هي صنعتهما، والمؤن واللوازم التي ابتاعها الحلاق، ومنزلهما الذي يسكنان فيه.

سرعان ما أحببت التزحلق على الثلج. التمعت عيناها بسرور وتوردت وجنتاها بسبب البرد. سافرت جدائلها إلى الوراء كاشفة عن شحمة أذنيها الصغيرتين المشربتين بالحمرة. كانت شفاها العلوية رفيعة ولكن شفاها السفلية كانت مكتنزة لدرجة أنها بدت متورمة تقريبًا. وقد كانت هناك كدمة باهتة تعلو خدها. وعندما كشفت عن ثغرها بابتسامة رقيقة، رأى واحدًا من أسنانها السفلية كان معقوفًا. «أأنت تفحص المرضى، إذًا؟».

«نعم، حقًّا».

«وهل تفحص النساء أيضًا؟».

أجابها قائلًا: «لدينا دمية. تشير النساء عليها إلى مناطق الألم».

قالت: «يا له من أمر مؤسف أن تستخدم دمية». لقد انبهر بها وهي تسترق النظر إليه. وأردفت قائلة: «هل هي جميلة المظهر؟».

كلا، فهي لا تضاهيك في الجمال. تمنى أن يقول ذلك، ولكنه كان يفتقر إلى الشجاعة. هزّ كتفيه. «إنها تدعى ثيلما».

«ثيلما!» ضحكت ضحكة مهترئة دون افترار أسنانها لشفتيها حتى جعلته يبتسم ابتسامة عريضة. صرخت «أوه»، وهي تنظر إلى الأعلى لتبصر موضع الشمس بناظريها. وقالت: «يجب أن أعود أدراجي من أجل الحلب المتأخر»، واتكأت بجسمها الناعم الممتلئ على ذراعه.

جثا على ركبيته أمامها على الضفة وأزال عن قدميها الزلاجات. وقال: «ليست ملكًا لي. كانت في المنزل. ولكن يمكنك الاحتفاظ بهما لفترة واستخدامهما».

هزّت رأسها على عجل بالرفض. وقالت: «إذا رجعت بهذه الزلاجات إلى المنزل، فسيكون قتلي على يديه أمرًا وشيكًا، وسيرغب في معرفة الأشياء التي فعلتها للحصول على هذه الزلاجات».

شعر بفوران الدم في وجهه. وليواري إحراجه، التقط ثلاثة أكواز صنوبر وبدأ في التلاعب بها.

ضحكت وصفّقت على يديها، ثم بادرته وهي منقطعة الأنفاس لتخبره كيف يصل إلى مزرعة أبيها. غادرت، ترددت وعادت للحظة.

وقالت: «صباح كل خميس. إنه لا يشجع الزوّار، ولكن صباح كل خميس يحضر الأجبان إلى السوق».

عندما جاء يوم الخميس، لم يبحث عن مزرعة ألفريك تالبوت. وبدلًا من ذلك، كان يضيع الوقت سدى بتخوف في سريره، لا يخاف من جاروين أو

أباها، بل كان يخاف من الأشياء التي كانت تختلج في صدره ولا يستطيع فهمها، والغموض الذي كان يكتنفه ولم تكن لديه الشجاعة ولا الحكمة لمواجهته.

لقد رأى جاروين تالبوت في منامه. في الحلم كانا يرقدان في منزل مرتفع، ربما في حظيرة أبيها. كان ذلك الحلم من النوع الذي راوده عدة مرات حول إيديثا، وحاول مسح فراشه دون لفت انتباه الحلاق.

بدأ الثلج يتساقط. سقطت الثلوج مثل إوزة ثقيلة، وثبّت الحلاق الجلود فوق فتحات النوافذ. أصبح الهواء داخل المنزل ملوثًا، وحتى في وضح النهار كان من المستحيل رؤية أي شيء باستثناء المحيط قرب النار.

تساقطت الثلوج لمدة أربعة أيام تخللتها فترات انقطاع قصيرة فحسب. وبحثًا عن أشياء للقيام بها، اقتعد روب الأرض بجوار الموقد ورسم صورًا للأعشاب المختلفة التي جمعها مع الحلاق. وباستخدام أعواد الفحم التي نجت من النار، وعلى اللحاء الممزق من حطب المدفأة، رسم روب نعناعًا متغضنًا، وبراعم متدلية لأزهار مجففة، وأوراقًا معرّقة من الباقلاء البرية ثلاثية الوريقات. وفي فترة ما بعد الظهيرة، أخمد لهيب النار بإذابة الثلج فوق النار وسقى الدجاج وأطعمه، وكان حريصًا على فتح باب غرفة الدجاج وإغلاقه بسرعة، لأنه على الرغم من قيامه بتنظيف الغرفة، فالرائحة الكريهة كانت تفوح بشدة.

ظل الحلاق على سريره يحتسي الميثيجلين. وفي الليلة الثانية من تساقط الثلوج، تعثّر الحلاق في طريقه إلى الحانة العامة ورجع بفتاة مومس شقراء فاتحة تدعى هيلين. حاول روب أن يراقبهما من سريره على الجانب الآخر من الموقد، لأنه على الرغم من أنه قد شاهد الفعل عدة مرات، فقد حيّرته بعض التفاصيل التي شقت طريقها مؤخرًا إلى أفكاره وأحلامه. ولكنه لم يكن قادرًا على اختراق الظلام الدامس ولم يبصر

سوى رؤوسهما المضيئة في ضوء النار. ورغم أن الحلاق كان مفعمًا بالحيوية والتركيز، إلا أن المرأة بدت منهكة وشاحبة الوجه وحزينة، وكأنما انهمكت في عمل بائس.

وبعد مغادرتها، التقط روب قطعة من اللحاء وعصا من الفحم. وبدلًا من رسم النباتات، حاول أن يرسم ملامح المرأة.

وفي حين كان الحلاق في طريقه متجهًا إلى القدر، توقف ليتفحص الرسم وقطّب جبينه. وقال: «فيما يبدو أنني أعرف صاحب هذا الوجه».

وبعد وقت قصير، عاد إلى سريره، ورفع رأسه عن الفراء. وقال: «لماذا، إنها هيلين!».

كان روب سعيدًا جدًّا. وحاول أن يرسم صورة مشابهة لبائع المراهم الذي يسمى وات، ولكن الحلاق لم يتمكن من التعرف عليه إلا بعد أن أضاف صورة صغيرة للدب بارترام. وقال الحلاق: «يجب أن تستمر في محاولاتك لإعادة رسم الوجوه، لأنني أعتقد أن ذلك شيء يمكن أن يكون مفيدًا لنا». ولكنه سرعان ما سئم مشاهدة روب وعاد للشرب حتى أثقل الكرى أجفانه.

ويوم الثلاثاء توقف الثلج أخيرًا عن التساقط. لفّ روب يديه ورأسه بأسمال بالية وعثر على مجرفة خشبية. مهّد طريقًا من باب المنزل وذهب إلى الإسطبل لتدريب إنكيتاتوس الذي كان يزداد وزنه دون عمل وبحصة يومية من التبن والحبوب الحلوة.

وفي يوم الأربعاء ساعد بعض الصبية في المدينة في جرف الثلج من على سطح البركة. أزال الحلاق الجلود التي غطت فتحات النوافذ وسمح للنسيم العليل يتسلل إلى المنزل. واحتفل بشواء قطعة لحم ضأن قدمها مع هلام النعناع وكعك التفاح.

وفي صباح الخميس، أنزل روب الزلاجات وعلقها حول عنقه من خلال الأحزمة الجلدية. ذهب إلى الإسطبل ووضع خطام الفرس على إنكيتاتوس فحسب، ثم امتطى الحصان وذهب خارج المدينة. كان هزيز الرياح مدويًا، وكانت الشمس مشرقة والثلج نقيًّا.

تقمّص في سلوكه وهيئته شخصيات رومانية. لم يكن من الجيد التظاهر بأن يكون كاليجولا مفرشحًا ساقيه على إنكيتاتوس الأصلي لأنه كان يدرك أن كاليجولا كان مجنونًا وقد لاقى نهاية بائسة. قرر أن يكون أغسطس قيصر، وهو يتقدم الحرس الإمبراطوري عبر طريق أبيا وصولًا إلى بريندیزي.

لم يجد صعوبة في العثور على مزرعة تالبوت. كانت المزرعة توجد بالضبط في المكان الذي قالت عنه جاروين إنها ستكون فيه. كان المنزل يحمل اسمًا وكان بسيط المظهر، له سقف متدلٍّ، ولكن الحظيرة كانت كبيرة ورائعة. كان الباب مفتوحًا وقد تناهى إلى سمعه طرقات شخص ما يتحرك في الداخل بين الماشية.

ورغم أنه جلس على الحصان في حيرة من أمره، لكن إنكيتاتوس صهل ولم يكن أمامه خيار سوى الإعلان عن نفسه.

نادى قائلًا: «جاروين؟».

ظهر رجل في باب الحظيرة ومشى في تثاقل نحوه. كان يحمل شوكة خشبية محملة بروث الحيوانات المبخر في الهواء البارد. كان يمشي بحذر شديد وكان روب يرى أنه مخمور. كان رجلًا شاحبًا محنيًّا وله لحية سوداء غير مشذبة بلون شعر جاروين، وهو قد يكون ألفريك تالبوت لا محالة.

سأل الرجل قائلًا: «من أنت؟».

أخبره روب عن نفسه.

تمايل الرجل. «حسنًا، روب كول، لم يحالفك الحظ. جاروين ليست هنا. لقد هربت، العاهرة الصغيرة القذرة».

تحرّكت مجرفة الروث قليلًا وكان روب متأكدًا من أنه والحصان على وشك أن يمطرهما روث بقرة طازج مبخّر.

قال تالبوت: «ابتعد عن مزرعتي». كان الرجل يصيح.

امتطى روب ظهر إنكيتاتوس وعاد على مهل إلى مدينة كارلايل. وتساءل أين قد تكون ذهبت جاروين وما إذا كانت ستنجو.

لم يعد أغسطس قيصر الذي يتقدم الحرس الإمبراطوري. لقد كان مجرد صبي حبيسًا داخل شكوكه ومخاوفه.

وعندما عاد إلى المنزل، علّق الزلّاجات على العارضة الخشبية ولم ينزلهما مرة أخرى.

11

يهودي من تيتنهول

لم يتبق شيء يفعلانه سوى انتظار فصل الربيع. قاما بتحضير كميات جديدة من الدواء السحري وتعبئتها في زجاجات. حيث إن كل عشب سعى الحلاق بحثًا عنه، باستثناء الرجلة لمحاربة الحمى، جرى تجفيفه وسحقه أو نقعه في الدواء. لقد سئما من التلاعب بالكرات، وتعبا من تكرار الألعاب السحرية، وكان الحلاق قد سئم الشمال وعافت نفسه الشرب والنوم. وقال ذات صباح في شهر مارس، «إنني لا أطيق صبرًا على الانتظار حيث إن الشتاء قد انتهى وولّى الأدبار»، وغادرا مدينة كارلايل مبكرًا جدًّا، وأحرزا تقدمًا بطيئًا باتجاه الجنوب لأن الطرق كانت لا تزال سيئة.

استقبلا فصل الربيع في بيفرلي. حيث إن هبوب النسيم العليل وسطوع شمس الربيع أسفر عن خروج حشد من الحجاج الذين كانوا يزورون الكنيسة الحجرية العظيمة في المدينة المخصصة للقديس يوحنا الإنجيلي. ولقد بدأ كل من الحلاق وروب عرض الترفيه والتسلية بنشاط متّقد ألهب حماس الحشد الكبير الأول من المتفرجين في الموسم الجديد. وسارت الأمور على ما يرام أثناء العلاج إلى أن أرشد روب المريض السادس بالذهاب خلف ستار الخصوصية الخاص بالحلاق، فأمسك الأيدي الناعمة لامرأة مليحة.

نبض قلبه. وقال بصوت خافت: «تعالي يا سيدتي». وأحس برعشة تداهم أصابعه اقشعرّ لها جلده. استدار والتقى بالعينين المحدقتين

للحلاق.

تظاهر الحلاق بالبراءة. وبطريقة وحشية تقريبًا، سحب روب بعيدًا عن الآذان التي تسترق السمع. «هل أنت واثق من ذلك؟ يجب أن تكون على يقين».

قال روب: «سوف تموت المرأة في القريب العاجل».

عاد الحلاق إلى المرأة التي لم تكن كبيرة في السن وبدا أنها في حالة صحية جيدة. لم تتقدم بأي شكوى من صحتها ولكنها جاءت خلف الستار لتشتري تعويذة سحرية. وقالت: «زوجي رجل طاعن في السن. وحماسه يتضاءل وحبه يخبو، رغم إعجابه الشديد بي». تحدثت بهدوء جم، ومنحتها دماثة خلقها وعدم تكلف الاحتشام الزائف هيبة ووقارًا. وكانت تتشح ثوب سفر مخيطًا من أقمشة جميلة. وكان يبدو جليًّا أنها امرأة ثرية.

قال الحلاق: «أنا لا أبيع تعويذات سحرية. هذا سحر وليس دواءً يا سيدتي».

غمغمت بكلام غير مفهوم في ندم شديد. أجفل الحلاق مرتاعًا عندما لم تصحح صيغة التخاطب معه؛ لأن اتهام المرء بالسحر في وفاة امرأة نبيلة يعد لا محالة دمارًا مؤكدًا.

«غالبًا ما تعطي جرعة من شراب كحولي مقطّر نفس التأثير المطلوب. فهو قوي التأثير، ويجب أن يبتلع حارًّا قبل الخلود إلى النوم». لم يأخذ الحلاق أي مقابل مادي منها. وفور رحيلها، اعتذر للمرضى الذين لم يفحصهم بعد. وكان روب يجهّز العربة بالفعل.

ولذلك لاذا بالفرار مرة أخرى.

وهذه المرة جرى الحديث مقتضبًا بين الحلاق وروب طوال الرحلة. وعندما ابتعدا بما فيه الكفاية وخيّما بأمان لقضاء تلك الليلة، بدّد الحلاق الصمت.

قال بهدوء: «عندما يموت شخص ما في لمح البصر، يتسلل الفراغ إلى العينين». الوجه يفقد التعبير، أو في بعض الأحيان يصبح مزرّق اللون. تلتوي إحدى زوايا الفم، وتتدلى الجفون، وتتخشب الأطراف والأوصال». تنهّد الحلاق وقال: «هذا أمر شديد القسوة».

لم يرد روب.

رتّب كل منهما فراشه في محاولة لاستجداء النوم. ورغم أن الحلاق نهض من فراشه واحتسى الخمر لفترة، لكنه هذه المرة لم يمد يديه إلى صبيه للإمساك بهما.

عرف روب عن ظهر قلب أن الحلاق لم يكن ساحرًا. إلا أنه قد يكون هناك تفسير واحد آخر، وهو لم يفهمه. رقد وتضرع بالدعاء. رجاءً. ألن تسلبني هذه القريحة الوقّادة وتردها عليّ من حيث أتت؟

وقد استشاط غضبًا واستولى عليه الإحباط ولم يستطع الامتناع عن توبيخ نفسه، لأن الخنوع لم يضف إليه كثيرًا. إنها شيء قد يكون من وساوس الشيطان ولا أريد أن أنال حظًّا آخر منها كما طلب من الرب.

ويبدو أن الرب قد استجاب لدعائه. ففي ذلك الربيع لم تقع الكثير من الحوادث. كان الطقس مستقرًا ثم تحسّن مع الأيام المشمسة التي كانت أكثر دفئًا وجفافًا من المعتاد وجيدة للعمل. وقال الحلاق ذات صباح منتشيًا: «طقس جميل في عيد القديس سويثن. سيخبرك أي شخص أن هذا يعني أننا سنعيش طقسًا طيبًا أربعين يومًا أخرى». وقد تلاشت مخاوفهما رويدًا رويدًا وارتفعت معنوياتهما شيئًا فشيئًا.

وتذكّره معلمه في يوم ميلاده! وفي صباح اليوم الثالث بعد عيد القديس سويثن، قدّم له الحلاق هدية رائعة مكونة من ثلاث ريشات أوزة ومسحوق حبر وحجر خفاف. قال الحلاق: «الآن يمكنك أن ترسم الوجوه بشيء آخر غير عصا الفحم».

لم يكن لدى روب المال لشراء هدية يهديها إلى الحلاق في يوم ميلاده في المقابل. إلا أنه ذات ظهيرة متأخرة، تعرفت عيناه على نبتة أثناء مرورهما عبر أحد الحقول. وفي صباح اليوم التالي، انسلّ من الخيمة وترجّل لمدة نصف ساعة إلى الحقل، حيث اقتطف كمية من النبتات الخضراء. وفي يوم ميلاد الحلاق، أهدى روب إلى الحلاق نبتة الرجلة، عشبة الحمى، التي تلقاها في حبور.

وأظهرا في العرض الترفيهي أنهما حصلا عليها. وقد راقب بعضهما بعضًا، واتّسم أداؤهما بالبهجة، وكانا مفعمين بالحماسة، مما دفع الحشود إلى التصفيق الحاد. كان روب يطلق خياله ليحتضن به أحلام اليقظة التي رأى فيها إخوته وأخته بين المتفرجين؛ تخيل الفخر والإعجاب اللذين ملأ وجه أخته آن ماري وأخيه صموئيل إدوارد عندما رأيا شقيقهما الأكبر وهو يقوم بالألعاب السحرية ويتلاعب بخمس كرات.

قال لنفسه إنهم سوف يكبرون. هل تتذكّره آن ماري؟ هل صموئيل إدوارد لا يزال شرسًا متوحشًا؟ يجب أن يكون جوناثان كارتر الآن قد تعلم المشي والكلام، وأصبح فتى صغيرًا جيدًا.

كان من المستحيل على الصبيّ أن ينصح معلمه بمكان توجيه جواده، ولكن عندما كانا في نوتنغهام وجد أن الفرصة قد سنحت له لاستشارة خريطة الحلاق ورأى أنهما كانا بالقرب من قلب الجزيرة الإنجليزية. وللوصول إلى لندن، سيتعين عليهما الاستمرار إلى الجنوب ولكن أيضًا تغيير الاتجاه إلى الشرق. لقد حفظ أسماء المدن والمواقع عن ظهر قلب،

حتى يتمكن من معرفة ما إذا كانا سيسافران إلى حيث أراد بشدة أن يذهب.

ففي ليستر، عثر مزارع ينحت في صخرة في حقله على تابوت. ورغم أنه كان قد حفر حوله، إلا أنه كان ثقيلًا جدًّا عليه ليرفعه وظلت قاعدته ملتصقة بالأرض مثل جلمود صخرة.

وأخبرهما المزارع بكل فخر وتباه قائلًا: «يرسل الدوق رجالًا وحيوانات لتحريره وسوف يأخذه إلى قلعته».

كان هناك نقش على الرخام الخشن ذي الحبيبات البيضاء: دييس مانيبوس. فيفو مارسيانو ميليتي ليجيونيس سيكوندا أوجيستي. إيانوريا مارينا كونيونيكس بينتيسيما بوسويت ميموريام. ترجم الحلاق قائلًا: «إلى آلهة العالم السفلي. إلى فيفيوس مارسيانوس، جندي من الفيلق الثاني لأغسطس. في شهر يناير أنشأت زوجته المخلصة، مارينا، هذه المقبرة».

نظر بعضهما إلى بعض. وقال الحلاق بجدية: «أتساءل ما الذي حدث للمرأة الفاتنة، مارينا، بعد أن دفنته، لأنها كانت بعيدة جدًّا عن موطنها».

إذًا كل شيء جاهز، هكذا اعتقد روب.

كانت ليستر مدينة مكتظة بالسكان. حظي عرض الترفيه والتسلية الذي قدمانه بحضور جيد، وعندما انتهيا من بيع الدواء وجدا نفسيهما في فورة من النشاط. ففي تتابع سريع، ساعد روب الحلاق في بضع ثؤْلول لدى شاب، وتجبير إصبع شاب مكسور بعنف، وعلاج امرأة محمومة بنبتة الرجلة وعلاج طفل مصاب بمغص بالبابونج. وبعد ذلك، قاد روب خلف الستار رجلًا ممتلئ الجسم غزا الصلع رأسه وعيناه مصابتان بالمياه البيضاء.

سأله الحلاق: «منذ متى وأنت ضرير؟».

«منذ هذين العامين. لقد بدأت كعتمة وتدريجيًّا ازداد الأمر سوءًا حتى الآن نادرًا ما أتحسس الضوء. أنا موظف ولكن لا يمكنني العمل».

هزّ الحلاق رأسه، متناسيًا أن إيماءته لن ترى. «قدرتي على إعادة البصر لا تتجاوز قدرتي على إعادة الشباب إليه».

وقد سمح الموظف لنفسه أن يقتاد بعيدًا. قال لروب: «إنه خبر سيئ. لن يرى مرة أخرى!».

وعلى مقربة منهما، كان يقف رجل نحيف، على وجهه تبدو ملامح الصرامة والحزم، أقنى الأنف، وقد تناهى إلى سمعه ما قيل، ورمقهما بنظرة حادة. ورغم أن الشعر الأبيض غزا رأسه ولحيته، لكنه كان لا يزال في ريعان الشباب، وعمره لم يتجاوز عمر روب مرتين.

تقدّم للأمام ووضع يده على ذراع المريض. وسأله قائلًا: «ما اسمك؟» تحدث بلكنة فرنسية؛ سمعها روب مرات عديدة من النورمانديين القاطنين على ساحل لندن.

قال الموظف: «أنا إدجار ثورب».

رد الطبيب:»أنا بنيامين ميرلين، طبيب في تيتنهول المتاخمة. هل يمكنني فحص عينيك، يا سيد إدجار ثورب؟».

أومأ الموظف برأسه تعبيرًا عن الموافقة، ثم وقف، ورمش بعينيه. رفع الرجل جفنيه بإبهامه وفحص عتامة عينيه.

وقال الطبيب في نهاية المطاف: «يمكنني أن أعالج المياه البيضاء في عينيك وإزالة العدسة المعتمة. لقد فعلت ذلك من قبل، ولكن يجب أن تكون قويًّا بما يكفي لتحمل الألم».

همس الموظف: «أنا غير آبه بالألم».

قال الرجل: «إذًا يجب أن يكون لديك شخص ما ليأتي بك إلى منزلي في تيتنهول، في وقت مبكر من صباح يوم الثلاثاء المقبل»، ثم استدار.

تسمّر روب في مكانه. لم يدر في خلده أن أي شخص قد يحاول فعل شيء ما يفوق قدرة الحلاق.

ركض وراء الرجل ونادى. «سيدي الطبيب! أين تعلمت أن تفعل هذا... علاج العيون؟».

أجاب الطبيب: «في الأكاديمية. مدرسة الأطباء».

أردف روب قائلًا: «أين مدرسة الأطباء هذه؟».

رأى ميرلين أمامه شابًا كبيرًا يرتدي ملابس مخيطة بطريقة سيئة تبدو عليه صغيرة جدًا. وألقى نظرة على العربة المبهرجة والدكة التي وضعت عليها الكرات التي يتلاعبان بها وقناني الدواء الذي استطاع أن يخمن جودته بسهولة ويسر.

قال بلطف: «توجد في النصف الآخر من الكرة الأرضية». وتقدم نحو مهرة سوداء مربوطة وامتطى ظهرها وابتعد عن الحلاق الجراح دون أن يلتفت إلى الوراء.

أخبر روب الحلاق بأمر بنيامين ميرلين في وقت لاحق من ذلك اليوم، حيثما قام إنكيتاتوس بسحب عربتهما ببطء من ليستر.

أومأ الحلاق برأسه. وقال: «لقد سمعت عنه. إنه طبيب تيتنهول».

«نعم. لقد تحدّث بلكنة فرنسية».

«إنه يهودي من نورماندي».

«ماذا تعني كلمة «يهودي»؟».

«إن كلمة «يهودي» اسم آخر للعبرانيين، القوم الذين يدينون بالكتاب المقدس، الذين ذبحوا يسوع وطردهم الرومان من الأرض المقدسة».

«تحدّث عن مدرسة للأطباء».

«في بعض الأحيان كانوا يعقدون مثل هذه الدورات في الكلية في وستمنستر. يقال على نطاق واسع إنها دورات فقيرة المحتوى تجعل الأطباء غير مؤهلين بالمرة. ومعظم من تخرج فيها يصبح مجرد مساعد طبيب مقابل التدريب، مثلما أنت تتدرب على تعلم صنعة الحلاق الجرّاح».

«لا أعتقد أنه كان يقصد وستمنستر. قال إن المدرسة كانت بعيدة».

هزّ الحلاق كتفيه. «ربما تكون في نورماندي أو بريتاني. تعج فرنسا بالكثير من اليهود، وبعضهم شقّ طريقه هنا، بما في ذلك الأطباء».

«لقد قرأت عن العبرانيين في الكتاب المقدس، لكني لم أر واحدًا من قبل».

«هناك طبيب يهودي آخر في ماليسبري، اسمه إسحاق أدولسنتولي. طبيب مشهور. قال الحلاق «ربما تراه عندما نذهب إلى سالزبوري».

كانت ماليسبري وسالزبوري تقعان في غرب إنجلترا.

قال روب: «ألم نذهب إلى لندن، إذًا؟».

أجابه الحلاق:»لا». لقد أحسّ الحلاق شيئًا ما في صوت صبيه وكان يعلم منذ فترة طويلة أن الشاب يتوق إلى رؤية أقاربه. قال بصرامة: «نذهب رأسًا إلى سالزبوري لجني الأرباح من الحشود في مهرجان سالزبوري. ومن هناك سنذهب إلى إكسماوث، لأنه بحلول ذلك الوقت سيحل الخريف

علينا. مفهوم؟».

أومأ روب برأسه.

«ولكن في الربيع، عندما ننطلق مرة أخرى، سنسافر شرقًا ونذهب عن طريق لندن».

قال في ابتهاج هادئ: «شكرًا لك أيها الحلاق».

ارتفعت معنوياته وحلّقت في السماء فلا يهم التأخير، عندما علم أخيرًا أنهما سيذهبان إلى لندن!

كان يحلم بالأطفال.

وفي النهاية ثمة أشياء أخرى استبدت بأفكاره وجالت بخاطره. «هل تعتقد أنه سيعيد للموظف بصره؟».

هزّ الحلاق كتفيه. وقال: «سمعت عن العملية. قليلون هم القادرون على القيام بذلك وأشك في قدرة اليهودي على ذلك. قال الحلاق: «لكن الناس الذين يقتلون المسيح لن يجدوا صعوبة في الكذب على رجل ضرير»، وحث الحصان على أن يسير أسرع قليلًا، لأنه كان قد اقتربت ساعة العشاء.

12

السيف في الغمد

عندما وطأت أقدامهما مدينة إكسماوث، لم تكن عودة روب أشبه بالعودة إلى الوطن، لكن روب انتابه شعور طفيف بالوحدة أقل بكثير من ذلك الشعور الذي اجتاحه قبل عامين، عندما وطأت قدماه المكان لأول مرة. كان المنزل الصغير المطل على البحر مألوفًا ومريحًا. مرر الحلاق يده على المدفأة الكبيرة وأدوات الطهي وتنهّد.

لقد خططا لتوفير مؤن الشتاء الرائعة، كالمعتاد، إلا أن هذه المرة لن يجلبا دجاجات حية إلى المنزل مراعاة واحترامًا للدجاج العنيف كريه الرائحة الذي نقلاه.

ومرة أخرى، كبر روب وتفوّق جسمه على ملابسه. اشتكى الحلاق، وقال: «عظامك المتمددة تقودني مباشرة إلى الفقر المدقع»، لكنه أعطى روب لفافة من قماش الصوف المصبوغ باللون البني كان قد اشتراه من مهرجان سالزبوري. وأخبر روب قائلًا: «سآخذ العربة وتاتوس وأذهب إلى أثيلني لشراء الجبن ولحم الخنزير، وسأقضي الليلة في الحانة هناك. وأثناء غيابي، يجب عليك تنظيف نبع الماء من أوراق الشجر والبدء في تجهيز حطب المدفأة اللازم طوال الموسم. ولكن استغل الوقت واذهب بهذا الصوف المنسوج إلى إيديثا ليبتون واطلب منها أن تخيطه لك. هل تتذكر الطريق إلى منزلها؟».

أخذ روب القماش وشكره. وقال: «يمكنني أن أجدها».

قال الحلاق وهو متذمر نتيجة ذلك: «يجب أن تكون الملابس الجديدة

قابلة للتطويل. قل لها أن تترك الحواشي الطويلة التي يمكن تركها».

حمل القماش الملفوف في جلد الغنم لحمايته من زخّات المطر البارد الذي بدا أنه الطقس السائد في إكسماوث. كان يعرف الطريق. قبل عامين، كان يمر أحيانًا بالقرب من منزلها على أمل إلقاء نظرة عليها.

استجابت إلى طرقه على بابها على الفور. وكاد أن يسقط اللفافة وهي تمسك بيديه، وهي تسحبه من تحت المطر.

«روب كول!» دعني أتفحصك. لم أر قط مثل هذه التغييرات التي طرأت عليك منذ عامين!».

أراد أن يخبرها أنها لم تتغير على الإطلاق، إلا أن لسانه انعقد ولم ينبس ببنت شفة. إلا أنها لاحظت نظرته ولمعت عيناها بالبهجة. قالت باستهجان: «ولكنني أصبحت عجوزًا شمطاء».

هزّ رأسه. وكان شعرها لا يزال أسود وكانت بكل تفاصيلها كما هي تمامًا كما يتذكرها، خاصةً عينيها الساحرتين اللامعتين.

لقد صنعت الشاي الساخن بنكهة النعناع وشرع في الحديث يخبرها بشغف وبإسهاب عن الأماكن التي زارها وبعض الأشياء التي رآها.

قالت: «أما أنا، فأنا في حال أفضل من ذي قبل. لقد أصبحت الأوقات أسهل، والآن أصبح بإمكان الناس مرة أخرى طلب الملابس».

وهذا ذكّره بسبب مجيئه لها. فكّ لفافة جلد الغنم وأظهر القماش الذي وصفته بأنه قماش صوفي جيد. قالت بقلق: «آمل أن يكون القماش كافيًا، لأنك كبرت وصرت أطول من الحلاق». أحضرت شريط القياس وحددت عرض منكبيه ومحيط خصره وطول ذراعيه وساقيه. وقالت: «سوف أحيك سراويل ضيقة، ومعطفًا فضفاضًا، وعباءة خارجية،

وسوف ترتدي ثيابًا رائعة».

أومأ برأسه ونهض من مكانه، وهمّ بالمغادرة على كره منه.

بادرته قائلة: «هل الحلاق في انتظارك إذًا؟».

أبان لها أن الحلاق ذهب في مهمة، وأشارت له بالجلوس. وقالت: «إنه وقت تناول الطعام. لا أستطيع أن أقدم ما يقدمه الحلاق، حيث نفد ما لديّ من لحم البقر وألسنة القنبر والعصيدة الدسمة. إلا أنك سوف تنضم إلى عشاء امرأة ريفية».

سحبت رغيفًا من خزانة الطعام وناولته إلى روب ليذهب به في المطر إلى مخزن الطعام لإحضار قطعة من الجبن وإبريق من عصير التفاح الجديد. وفي عتمة الظلام الكثيف قطع فرعين من الصفصاف؛ وبالعودة إلى المنزل، قطّع الجبن إلى شرائح ونثره على خبز الشعير وغرز فرعي الصفصاف في الخبز لعمل خبز محمص على النار.

ابتسمت لما رأته يفعل ذلك. وقالت: «أوه، لقد ترك هذا الرجل بصمته عليك إلى الأبد».

ابتسم روب ابتسامة عريضة في وجهها. وقال: «من الحكمة تسخين الطعام في مثل هذه الليلة».

أكلا وشربا ثم جلسا وتحدثا بحميمية. أضاف الحطب إلى النار التي بدأت تخمد ويذهب حسيسها بعد أن تسلل إليها البخار الذي دخل من فتحة المدخنة.

قالت: «الطقس يزداد سوءًا في الخارج».

«نعم».

«من الحماقة أن تعود إلى المنزل في هذا الظلام الحالك في خضم هذه العاصفة».

لقد سار في ليال أحلك ظلمة آلاف المرات تحت وطأة الأمطار الغزيرة. قال: «إنها تثلج».

«لديّ رفقة، إذًا».

«أنا ممنون».

خرج وهو فاقد الإحساس إلى مخزن الطعام بالجبن وعصير التفاح، ولم يجرؤ على التفكير. «عندما عاد إلى المنزل كانت تقوم بخلع عباءتها. قالت: «من الأفضل نزع الثياب المبتلة»، وآوت إلى فراشها بهدوء جم في قميص نومها.

خلع سرواله المبتل وسترته ونشرهما على أحد جانبي الموقد المستدير. دخل في السرير على عجل وهو عار واستلقى بجانبها بين الفراء، وهو يرتجف. وقال: «بردان!».

ابتسمت. «لقد كنت أكثر برودة. عندما أخذت مكانك في سرير الحلاق».

ونمت على الأرض في تلك الليلة المريرة.

نعم، كان وقتها الجو باردًا».

التفتت إليه. وقالت: «ظللت أفكر فيك، طفل مسكين بلا أم. كنت أتمنى أن يدعك تدخل في السرير».

«لقد نزلت إلى الأسفل ولمست رأسي».

لمست رأسه الآن، وهي تمسّد شعره وتضغط على وجهه بأصابعها الرقيقة. «لقد حملت ولديّ في هذا السرير». أغمضت عينيها. وما لبثت أن

أرخت الجزء العلوي الفضفاض من قميص نومها وألقمته ثديًا متهدلًا.

وفيما يبدو أن الثدي النابض بالحياة في فمه جعله يتذكر دفء الطفولة المنسي منذ زمن طويل. شعر بخدر خلف جفنيه.

شبّكت أصابعها في أصابعه في رحلة استكشاف. «هذا هو ما يجب عليك القيام به». وأبقت عينيها مغمضتين.

انكسرت عصا في الموقد، لكن صوتها لم يسمع. كانت سحائب الدخان القاتمة تتصاعد من النار الخامدة.

«برفق وبصبر. وبحركات دائرية كما تفعل»، قالت وهي حالمة.

طرح الغطاء إلى الوراء وطرح قميص نومها رغم البرد القارس. أدهشه رؤية ساقيها المكتنزتين. فحصت عيناه ما تحسسته أصابعه؛ كانت أنوثتها كما رآها في منامه، ولكن لهب النار سمح له الآن برؤية التفاصيل.

«أسرع». كانت ستتفوه بالمزيد، إلا أنه لثم شفتيها. لم يكن ثغرها ثغر أم، ولاحظ أنها فعلت شيئًا مثيرًا بلسانها الجائع.

اهتدى بهمساتها المتتالية إلى تضاريس جسمها وإلى ما بين فخذيها الممتلئتين. لا توجد ثمة حاجة إلى مزيد من التعليمات؛ وبالغريزة قفز وأولج.

وقد أدرك بديع صنعَ الله، لأن غمدها كان دافئًا وزلقًا، وكان على مقاس سيفه.

انفتحت عيناها ورمقته بنظرة. التوت شفاها إلى الوراء بين أسنانها في ابتسامة عريضة وغريبة وأصدرت حشرجة خافتة من مؤخرة حلقها كانت ستجعله يعتقد أنها تحتضر لولا أنه سمع مثل هذه الأصوات من ذي قبل.

لسنوات كان يشاهد ويسمع أشخاصًا آخرين يمارسون الحب - أباه وأمه في منزلهم الصغير المزدحم، والحلاق مع مجموعة كبيرة من العاهرات. لقد أصبح مقتنعًا أنه لا بد أن هناك سحرًا وجاذبية داخل فرج المرأة للرجال ليرغبونه بشدة. وفي خضم الظلام الكثيف في سريرها، كان يصهل من النار الجائعة مثل حصان راكض، وشعر بأن الألم الذي يكابده قد تلاشى والطاقة المكبوتة قد انسربت منه. انتشى من أكثر أنواع المتعة رعبًا، واكتشف الفرق الشاسع بين المشاهدة والممارسة.

استيقظت إيديثا في صباح اليوم التالي على طرقات تناهت إلى سمعها، وانتعلت حذاءها في قدميها الحافيتين لتفتح الباب.

همس الحلاق قائلًا: «هل رحل؟».

قالت: «منذ فترة طويلة»، وسمحت له بالدخول. ذهب لينام رجلًا وأيقظ صبيًّا. تمتم بشيء حول ضرورة تنظيف النبع، وهرع بعيدًا».

ابتسم الحلاق، وقال: «هل سارت الأمور كما ينبغي؟».

أومأت برأسها بخجل مفاجئ وهي تتثاءب.

«جيد، لأنه كان على أهبة الاستعداد. أن يجد الرقة والطيبة معك أفضل بكثير من أن يجدها في بداية قاسية مع الأنثى الخطأ».

شاهدته يأخذ عملات معدنية من حقيبته ويضعها على طاولتها. وحذّر تقريبًا وقال: «لهذا الوقت فحسب». «إذا كان يجب أن يزورك مرة أخرى...».

وهزّت رأسها. وقالت: «هذه الأيام أنا بصحبة وين رايت. رجل طيب لديه منزل في مدينة إيكسيتر وثلاثة أبناء. أعتقد أنه سيتزوجني».

أومأ برأسه. «وهل حذّرتي روب ألا يسير على نهجي؟».

«قلت ذلك أنه عندما تعاقر الخمر، غالبًا ما تجعلك متوحشًا وأقل رجولة».

«لا أتذكر أنني أخبرتك كي تقولي ذلك».

قالت: «لقد قلت ذلك من خلال ملاحظتي الخاصة».

رمقها بنظرة تلقتها بثبات. «لقد استخدمت أيضًا كلماتك، كما أوصيت. قلت إن معلمه أضاع نفسه بمعاقرة الخمر ومواعدة النساء الرخيصات. نصحته أن يكون استثنائيًّا وألا يسير على نهجك».

أصغى باهتمام.

قالت في ضجر: «لم يحتمل أن أنتقدك. قال إنك كنت رجلًا حصيفًا عندما كنت غير ثمل، وسيدًا ممتازًا عندما شملته بعطفك وكرمك».

قال الحلاق: «هل قال ذلك فعلًا».

لمحت أسارير وجهه التي انفرجت ورأت السعادة التي ملأت هذا الوجه.

وضع قبعته وانسلّ من الباب. ولما وضعت النقود جانبًا وعادت إلى الفراش، كانت تسمعه وهو يصفّر.

الرجال أحيانًا مؤَاسين وغالبًا ما يكونون متوحشين، لكنهم كانوا دائمًا لغزًا محيرًا، قالت إيديثا لنفسها وهي تتقلب على جنبيها وعادت إلى النوم.

13

لندن

بدا تشارلز بوستوك وكأنه شاب متأنق أكثر من كونه تاجرًا، وكان شعره الأصفر الطويل مسدلًا إلى الوراء معقودًا بأناشيط وشرائط. وكان يرتدي كل ثيابه باللون الأحمر المخْمَليّ، ومن الواضح أنها باهظة الثمن على الرغم من طبقة الغبار العالقة بثيابه جرّاء السفر، وكان يرتدي حذاءً عالي الكعب من الجلد الناعم لغرض التباهي والتفاخر وليس الخدمة الشاقة. إلا أنه التمعت في عينيه صورة المقايض، وجلس على حصان أبيض كبير وهو مطوق بمجموعة من الحرّاس المدججين بالسلاح للدفاع عنه ضد اللصوص. لقد استمتع بالدردشة مع الحلاق الجرّاح الذي سمح لعربته بالسفر مع قافلة من الخيول محمّلة بالملح المستخرج من الماء المالح في أرونديل.

وقد أخبر الحلاق قائلًا: «أمتلك ثلاثة مستودعات على طول النهر وأستأجر مستودعات أخرى. نحن التجّار نبني لندن جديدة، وبالتالي فأمثالنا يفيد الملك والشعب الإنجليزي بأكمله».

أومأ الحلاق برأسه في أدب جم، ضجرًا من هذا المفاخر، إلا أنه كان مغتبطًا بفرصة السفر إلى لندن تحت حماية حرّاسه المدججين بالسلاح، لأنه كان هناك الكثير من الجرائم التي ترتكب على الطريق كلما اقترب المرء من المدينة. وسأله الحلاق: «فيما تكون تجارتك؟».

أجاب قائلًا: «داخل جزيرتنا أشتري وأبيع الأشياء المصنوعة من الحديد والملح. ولكنني أيضًا أشتري أشياء ثمينة لا تُنتج في هذه البلاد وأحضرها

إلى هنا عن طريق البحر. الجلود، والحرير، والذهب والأحجار الكريمة باهظة الثمن، والأقمشة النادرة، والأصباغ، والنبيذ، والزيوت، والعاج والنحاس الأصفر، والنحاس والقصدير، والفضة، والزجاج، وما شابه ذلك».

أردف الحلاق قائلًا: «إذًا أنت كثير الأسفار والترحال إلى البلدان الأجنبية؟».

ابتسم التاجر وأجاب. «لا، على الرغم من أنني أخطط لذلك. لقد قمت برحلة واحدة إلى جنوة وأحضرت منها أقمشة الستائر التي خلت أن الأثرياء من زملائي التجار قد يبتاعونها. إلا أنه قبل أن يتمكن التجار من شرائها لضياعهم، اقتناها بشغف العديد من الإيرلات الذين يساعدون الملك كانوت على حكم البلاد لقصورهم.

سأقوم برحلتين إضافيتين على الأقل، لأن الملك كانوت يعد بأن أي تاجر يبحر إلى أجزاء أجنبية ثلاث مرات لمصلحة التجارة الإنجليزية سيكون عضوًا في طبقة النبلاء. وفي الوقت الحالي، أدفع للآخرين للسفر إلى الخارج، ولكنني أميل إلى العمل في لندن».

قال الحلاق: «من فضلك اقصص علينا أنباء المدينة»، ووافق بوستوك بتعال شديد. حيث إنه كشف أن الملك كانوت قد بنى قصرًا ملكيًّا منيعًا بالقرب من الجانب الشرقي من الدير في وستمنستر. كان الملك المولود في الدنمارك يتمتع بشعبية كبيرة لأنه أعلن عن قانون جديد يسمح لأي رجل إنجليزي حر بالحق في ممارسة الصيد في ممتلكاته الخاصة - وهو حق كان مقصورًا في السابق على الملك ونبلائه. «والآن يمكن لأي مالك ضيعة أن يصطاد بنفسه الغزلان وكأنه ملك في أرضه».

قال بوستوك إن كانوت قد ورث العرش عن أخيه هارولد واعتلى عرش

الدنمارك وحكم ذلك البلد بالإضافة إلى إنجلترا. «وهذا يمنحه الهيمنة على بحر الشمال، وقد بنى أسطولًا بحريًّا من السفن السوداء التي تمشط المحيط من القراصنة وتوفر الأمن لإنجلترا وأول سلام حقيقي لها منذ مئة عام».

وبالكاد تناهى إلى سمع روب الحديث الذي جرى بين بوستوك والحلاق. وإبان توقفهم لتناول وجبة العشاء في ألتون، انضم روب إلى العرض الترفيهي مع الحلاق، ودفع إيجار مكانهما مع حاشية التاجر. قهقه بوستوك وصفّق لهما بشدة. وأهدى روب بنسين.

قال وهو يغمز بعينيه: «سيكون مفيدًا في حاضرة إنجلترا، حيث إن الفرو غال وعزيز مثل الأعزاء».

شكر له روب رغم أنه كان شارد الذهن.

وكلما اقتربوا من لندن، زاد إحساسه بالترقب.

لقد خيموا في حقل مزارع في ريدينج، ولا يكاد يبعد مسقط رأسه إلا على مسافة رحلة يوم. وفي تلك الليلة جافى النوم مضجعه، وحاول حسم أمره فيما يتعلق باختيار الطفل الذي سيحاول رؤيته أولًا.

وفي اليوم التالي بدأ في رؤية المعالم البارزة التي تذكّر فيها أجمة من أشجار البلوط المميزة، وصخرة عظيمة، ومفترق طرق قريبًا من التل الذي خيم فيه أول مرة مع الحلاق، وكل واحدة من هذه المعالم جعلت قلبه يقفز بين ضلوعه وجعلت الدم يجري في عروقه. افترقا عن القافلة في فترة ما بعد الظهيرة في ساوثوارك، حيث كان لدى التاجر بعض المصالح. كانت ساوثوارك تحتوي على الكثير من كل شيء أكثر مما كانت عليه عندما شاهدها آخر مرة. ولاحظا من الجسر تشييد مستودعات جديدة على جانب الضفة السبخة بالقرب من مزلق العبّارة القديمة، وفي النهر

كانت السفن الأجنبية محتشدة في مراسيها.

وجّه الحلاق إينكيتاتوس عبر جسر لندن في صف من صفوف المارّة. وعلى الجانب الآخر اندفع الناس والدواب، حيث كان مكتظًّا للغاية لدرجة أن الحلاق لم يستطع أن يدر العربة إلى شارع التايمز، إلا أنه اضطر إلى المضي قدمًا مباشرة للقيادة يسارًا في شارع فينتشرش، وعبرا نهر «والبروك»، ثم اهتزا صعودًا وهبوطًا على الحصى إلى شارع تشيبسايد. نادرًا ما كان روب يجلس ساكنًا، لأن الأحياء القديمة المكونة من المنازل الخشبية الصغيرة ذات الأسقف الصاج المضادة لتقلبات الطقس لم يدركها التغيير على الإطلاق.

وجّه الحلاق الحصان إلى اليمين عند ألدرزجيت ثم غادر إلى شارع نيوجيت، وحسمت مشكلة روب حول أي من الأطفال يجب رؤيته أولًا، لأن المخبز كان في شارع نيوجيت وبالتالي كان سيزور الطفلة آن ماري أولًا.

تذكّر روب المنزل الضيق مع متجر المعجنات في الطابق الأرضي وظل يراقب المكان بقلق حتى ميّزه. «هنا، توقف!» صاح على الحلاق، وانزلق من على المقعد قبل أن يتوقف الحصان.

إلا أنه عندما ركض عبر الشارع، رأى أن المتجر كان مزودًا بمعدات السفن والقوارب، فازدادت حيرته، فتح الباب ودخل. فطن رجل أحمر الشعر خلف الدكة إلى صوت الجرس الصغير على الباب وأومأ برأسه.

«ماذا حدث للمخبز؟».

هزّ المالك كتفيه وراء كومة من الحبال الملفوفة بعناية.

قال روب: «هل لا تزال عائلة هافيرهيلز تعيش في الطابق العلوي؟».

أجاب الرجل: «لا، إنه المكان الذي أعيش فيه. سمعت أن من كان يقطن هنا في السابق كان خبازًا». إلا أن المحل كان فارغًا عندما اشترى المكان قبل عامين؛ من دورمان مونك، الذي يقطن في طرف الشارع.

ترك روب الحلاق رابضًا في العربة وبحث عن دورمان مونك، الذي أثبت أنه الوحيد والمسرور بفرصة تبادل الحديث مع روب، وهو رجل عجوز يقطن في منزل مليء بالقطط.

«إذًا أنت شقيق آن ماري الصغيرة. أتذكرها، فتاة لطيفة ومهذبة. كنت أعرف عائلة هافيرهيلز جيدًا وأحسبهم أنهم جيران ممتازون. قال الرجل العجوز وهو يداعب قطة مرقطة بعيون متوحشة: «لقد انتقلوا إلى سالزبوري».

تقصلّت معدته لدخول مبنى نقابة النجّارين، ذلك المبنى الذي كان كما هو في ذاكرته بكل تفاصيله، نزولًا إلى قطعة الملاط المفقود من الجدار المصنوع من الأسوجة المضفرة فوق الباب. ورغم أنه كان هناك عدد قليل من النجّارين يجلسون ويشربون، إلا أن روب لم يعرف أيّ واحد من الجالسين.

قال روب: «هل بوكيريل هنا؟».

وضع أحد النجّارين كوبه، وقال: «من؟ ريتشارد بوكيريل؟».

قال روب: «نعم، ريتشارد بوكيريل».

«وافته المنية في هذين العامين».

شعر روب بطعنة في صدره، لأن بوكيريل كان عطوفًا معه. سأل روب قائلًا: «من هو الآن رئيس النجّارين؟».

قال الرجل باقتضاب: «لوارد». وصاح على أحد الصبيان وخاطبه قائلًا:

«أنت! اذهب وأحضر لوارد، هناك فتى يريده».

جاء لوارد من الجزء الخلفي من القاعة، وهو رجل قصير القامة ممتلئ الجسم، أخاديد وجهه بارزة، وهو شاب ليرأس النجّارين. أومأ برأسه دون أن يتفاجأ عندما طلب منه روب تزويده بمكان وجود أحد أعضاء الاتحاد.

استغرق الأمر بضع دقائق من تقليب صفحات القرطاس في دفتر الأستاذ الرائع. «ها هو ذا»، قال في نهاية المطاف، وهزّ رأسه. «لدي قائمة منتهية الصلاحية لأحد النجّارين المرافقين يسمى إيلوين، ولكن لم يكن هناك تسجيل منذ عدة سنوات».

لا أحد في القاعة يعرف إيلوين أو لماذا لم يعد على القوائم.

قال لوارد: «ينتقل الأعضاء بعيدًا، غالبًا للانضمام إلى نقابة في مكان آخر».

«ماذا عن تيرنر هوم؟» سأل روب بهدوء.

«النجار المعلم؟ لا يزال هناك، في المنزل الذي كان يملكه دائمًا».

تنفّس روب الصعداء؛ فهو على أيّ حال سيرى صموئيل.

قام أحد الرجال الذين كان يستمع إليهم وانتحى برئيس النجّارين لوارد جانبًا، وجرى الكلام بيهما همسًا.

تنحنح لوارد. وقال: «المعلم كول».

«تيرنر هوم هو رئيس عمال لطاقم يقوم بتشييد منزل في إدريد هايث. هل لي أن أقترح عليك الذهاب إلى هناك مباشرة والتحدث معه؟».

تفحّص روب الوجوه. وقال: «أنا لا أعرف إدريد هايث».

«حي جديد. هل تعرف كوينز هايث، الميناء الروماني القديم لصق جدار النهر؟».

أومأ روب برأسه.

قال لوارد: «اذهب إلى كوينز هايث. وأي شخص سوف يدلك ويوجهك إلى إدريد هايث من هناك».

كان تشييد المستودعات حتميًّا بجانب جدار النهر، وكان خلفها شوارع المنازل التي يعيش فيها عامة الناس الذين يعملون في الميناء، وصانعو الأشرعة والسفن، وعتاد السفن وحبالها، والملاحين، وعمال الشحن والتفريغ، وعمال المراكب الخفيفة، وبناة القوارب. كانت كوينز هايث مكتظة بالسكان ولها نصيبها من الحانات. ومن منزل انبعثت منه رائحة طعام كريه الرائحة، تلقى روب توجيهات إلى إدريد هايث. لقد كان حيًّا جديدًا بدأ ينشأ على حافة الحي القديم، ووجد روب هناك تيرنر هوم يشيد منزلًا على قطعة أرض سبخة معشوشبة.

نزل هوم من السطح عندما نودي عليه، بدا مستاءً من توقف عمله. تذكره روب عندما رأى وجهه. أصبح الرجل ممتلئ الوجه والشيب يغزو شعره.

قال روب: «أنا شقيق صموئيل، يا معلم هوم. روب كول».

«إذًا أنت كذلك. ولكن كيف كبرت هكذا!».

رأى روب الألم ينسرب إلى عينيه الوديعتين.

قال هوم بإيجاز: «لقد كان معنا منذ أقل من عام. كان صبيًّا يافعًا. كانت مسيز هوم متعلقة به إلى حد ما. قلنا لهم مرارًا وتكرارًا: «لا تلعبوا على أرصفة الميناء». تستحق حياة الرجل البالغ أن يحتمي خلف عربات

الشحن عندما يعيد السائق أربعة خيول، ناهيك عن طفل يبلغ من العمر تسع سنوات».

«ثماني سنوات».

بدا هوم وكأنه يستفسر عن شيء ما.

قال روب: «إذا حدث ذلك بعد عام واحد منذ أن شملته عنايتك، إذًا فهو كان في الثامنة من عمره». تصلّبت شفتاه ولم تتحركا، مما جعل الكلام صعبًا. «أصغر مني بسنتين، كما ترى».

قال هوم بلطف: «ستعرف أفضل. لقد دفن في سانت بوتولف، على الجانب الخلفي الأيمن من فناء الكنيسة. قيل لنا إنه الجانب الذي دفن فيه والدك». صمت هوم لبرهة. وقال في حرج: «وبالنسبة لعدة النجارة الخاصة بوالدك. انكسر أحد المناشير ولكن المطارق سليمة تمامًا. يمكنك استردادها».

هزّ روب رأسه. وقال: «احتفظ بهم من فضلك. لتتذكر صموئيل».

كانا يخيمان في أرض معشوشبة بالقرب من بيشوبس جيت، بالقرب من ويت لاندز في الركن الشمالي الشرقي من المدينة. وفي اليوم التالي تصرّف من تلقاء نفسه وكان بمفرده، حيث ذهب في الصباح الباكر ووقف في شارعهم القديم ونادى على الأطفال، حتى خرجت امرأة غريبة من منزل أمه ودلقت ماء الغسيل بجوار الباب.

تجوّل في الصباح بعيدًا ووجد نفسه في وستمنستر، حيث تضاءلت المنازل على طول النهر، ثم تحولت حقول ومروج الدير الكبير إلى ملكية جديدة يمكن أن تكون فقط منزل الملك، وتحيط به ثكنات للقوات والمباني الملحقة التي افترض روب أنه يتم فيها إجراء جميع أنواع الأعمال

التجارية الوطنية. لقد رأى الحرّاس المخيفين الذين تحدث الناس عنهم برهبة في الحانات العامة. كانوا جنودًا دنماركيين ضخام، جرى انتقاؤهم بعناية لحجمهم وقدرتهم القتالية ليكونوا بمثابة حماية للملك كانوت. اعتقد روب أن هناك الكثير من الحرّاس المسلحين لملك محبوب من شعبه. عاد أدراجه نحو المدينة، ودون أن يعرف كيف وصل إليها، إلا أنه في النهاية وجد نفسه قريبًا من كنيسة القديس بولس عندما ربّت أحدهم على كتفه.

«أنا أعرفك. أنت كول».

حدّق روب في الفتى وللحظة صار في التاسعة من عمره مجددًا ولم يتمكن من اتخاذ قرار بشأن ما إذا كان سيتقاتل معه أو يولي دبره، لأنه كان بما لا يدع مجالًا للشك أنه أنتوني تيتي.

إلا أنه امتلأ وجه أنتوني تيتي بابتسامة ولم يظهر أي من أتباعه. بالإضافة إلى ذلك، لاحظ روب أنه أصبح الآن أطول بثلاثة رؤوس وأثقل بكثير من خصمه القديم؛ وصفع روب أنتوني التافه على كتفه تعبيرًا عن تفاجئه بسعادته برؤيته كما لو كانا صديقين مقربين مثل الأولاد الصغار.

قال أنتوني: «هيا فلندخل الحانة وحدّثني عن نفسك»، إلا أن روب تردد، لأنه لم يكن في جيبه سوى البنسين اللذين أعطاهما إياه التاجر بوستوك مكافأة على تلاعبه بالكرات.

فهم أنتوني تيتي. وقال: «سأبتاع المشروب. كنت أعمل وأتقاضى أجرًا على مدار العام الماضي».

لقد عمل صبي نجّار كما أخبر روب عندما جلسا في ركن إحدى الحانات العامة القريبة وهما يحتسيان البيرة. قال: «أعمل واقفًا في فتحة المنشار»،

ولاحظ روب بحّة في صوته وشحوبًا في وجهه.

كان يعرف طبيعة العمل. حيث يقف الصبي في حفرة عميقة، ويوضع أعلاها لوح الخشب. ويسحب الصبي أحد طرفي منشار طويل ويتنفس طوال اليوم نشارة الخشب التي تمطره، في حين أن النجّار المرافق يقف على حافة الحفرة ويتحكم في المنشار من أعلى.

قال روب: «يبدو أن الأوقات الصعبة قد بلغت منتهاها بالنسبة للنجّارين. زرت مبنى النقابة العامة للنجّارين ورأيت عددًا قليلًا من الرجال يجلسون في كسل وتراخٍ».

أومأ أنتوني تيتي. وقال: «لندن تنمو. المدينة فيها بالفعل مئة ألف نسمة، واحد إلى ثمانية من جميع الإنجليز. يوجد مبنى في كل مكان. إنه وقت جيد لتقديم طلب التدريب في النقابة، حيث يشاع أنه سوف تنشأ مئة أخرى قريبًا. وبما أنك كنت ابنًا من أبناء النجّارين..».

هزّ روب رأسه. «لدي بالفعل تدريب مهني». أخبر عن رحلاته مع الحلاق وكان مغتبطًا بما شعر به من حسد في عيني أنتوني.

تحدّث تيتي عن موت صموئيل. وقال: «لقد فقدت أمي وشقيقي في السنوات الأخيرة، كلهم بسبب الجدري، ووالدي بسبب الحمى».

أومأ روب برأسه متجهمًا. وقال: «يجب أن أجد من هم على قيد الحياة. قد يحتوي أي منزل في لندن مررت به على آخر طفل ولد لأمي قبل وفاتها، والذي تخلّى عنه ريتشارد بوكيريل».

«ربما تعرف أرملة بوكيريل شيئًا ما».

انتصب روب في جلسته.

قال أنتوني: «لقد تزوجت مرة أخرى من بائع الخضر والفاكهة الذي

يدعى بافينجتون. ومنزلها الجديد ليس بعيدًا من هنا. بعد لودجيت فحسب».

كان منزل بافينجتون في مكان ناءٍ لا يختلف في عزلته عن العزلة التي بنى فيها الملك مسكنه الجديد، إلا أنه كان صعبًا بسبب رطوبة مستنقعات نهر فليت وكان ملجأ مؤقتًا بدلًا من كونه قصرًا. وخلف المنزل المتهالك توجد حقول طيبة من الكرنب والخس، ويحيط بها أرض بور سبخة دون صرف للمياه. وقف للحظة وشاهد أربعة أطفال عابسين كانوا يحملون أكياسًا من الحجارة، ويحومون حول الحقول التي ارتفع فيها طنين البعوض في دورية صامتة مميتة ضد أرانب المستنقعات.

وجد مسيز بافينجتون في المنزل وألقت عليه التحية. كانت تفرز المنتجات في سلال. وأوضحت أن الحيوانات ألتهمت أرباحها وهي تتذمر.

قالت وهي تفحصه كما لو كانت تفحص صنفًا من الخضروات المختارة: «إنني أتذكرك أنت وعائلتك».

ولكن عندما سألها، لم تستطع أن تتذكر أن زوجها الأول ذكر اسم أو مكان وجود المرضعة التي أخذت الرضيع الذي يسمى روجر كول.

«ألم يدوّن أحد الاسم؟».

ربما لاح في عينيه شيء ما، لأنها انزعجت على حين غرة. «لا أستطيع الكتابة. لماذا لم تحصلي على الاسم وتدونينه يا حلوة؟» أردفت: «أليس هو أخوك؟».

سأل نفسه كيف يمكن توقع هذه المسؤولية من صبي صغير كان في مثل ظروفه؛ إلا أنه كان يعلم أنها جانبها الصواب أكثر من كونها كانت على خطأ.

ابتسمت في وجهه، وقالت: «يجب ألا نفقد حاجز الاحترام فيما بيننا، لأننا تشاركنا الأيام السابقة الصعبة معًا كجيران».

لدهشته كانت تفحصه كما تفحص النساء الرجال، فكانت عيناها حالمتين. أَنْحَفَها العمل ورأى أنها كانت جميلة في وقت من الأوقات. لم تكن أكبر من إيديثا.

إلا أن بوكيريل خطر بباله والألم يعتصر قلبه وتذكّر برّه الشديد مقابل شحها بالإحسان، مذكّرًا نفسه أن هذه المرأة كانت ستبيعه كعبد من العبيد.

رمقها بنظرة هادئة وتمتم بعبارات الشكر، ثم انصرف بعيدًا.

وفي كنيسة سانت بوتولف، أجاب حامي غرفة المقدسات، وهو رجل عجوز امتلأ وجهه بالأخاديد وله شعر خطّه الشيب غير حليق علقت به الأوساخ، طرقه على الأبواب. سأل روب عن القس الذي دفن والديه.

فكان الجواب: «الأب كيمبتون انتقل إلى اسكتلندا خلال هذه الأشهر العشرة الآن».

أخذه الرجل العجوز إلى مقبرة الكنيسة.

قال: «أوه، لقد أصبحنا مزدحمين بشدة، لم تكن هنا منذ عامين، منذ وطأة الجدري؟».

هزّ روب رأسه.

«أنت محظوظ للغاية! مات الكثير، ودفنا الموتى مباشرة كل يوم. والآن نعاني من ضيق المكان. يتوافد الناس إلى لندن من كل حدب وصوب، وسرعان ما يبلغ الواحد منهم أربعين عامًا؛ تلك المرحلة العمرية التي قد يصلي من أجلها بشكل معقول».

لاحظ روب قائلًا: «إذًا أنت عمرك يربو عن أربعين عامًا».

رد العجوز: «أنا؟ أنا محمي بالطبيعة الكنسية لعملي وقد عشت بكل الطرق حياة نقية وبريئة». ابتسم في وجه روب ابتسامة عريضة على نحو مباغت، وشمّ روب رائحة الخمر التي تفوح في أنفاسه.

انتظر بالقرب من حجرة الدفن بينما كان حامي حجرة المقدسات يراجع كتاب الدفن؛ أفضل ما يمكن أن يفعله الرجل العجوز الثمل هو قيادته عبر متاهة من النصب التذكارية المائلة إلى منطقة عامة في الجزء الشرقي من فناء الكنيسة، بالقرب من الجدران الخلفية عتيقة الطراز، والإعلان عن المكان الذي دفن فيه والده وأخوه صموئيل «بالقرب من هنا». حاول أن يتذكر جنازة والده وبالتالي يتذكر موقع القبر، إلا أنه لم يستطع.

وكان من الأسهل العثور على قبر والدته؛ ورغم أنه قد نمت شجرة الصنوبر فوق قبرها في ثلاث سنوات إلا أنها ما زالت مألوفة.

ودون سابق إنذار، عاد إلى خيمتهما على عجل لغرض ما. وذهب الحلاق معه إلى منطقة صخرية أسفل ضفة نهر التايمز، حيثما اختارا صخرة رمادية صغيرة ذات سطح مفلطح وأملس بفعل سنوات طويلة من تدفق المد والجزر. وساعدهما إنكيتاتوس في سحبها من النهر.

وكان قد خطط لينحت النقوش عليها بنفسه، إلا أنه قرر العدول عن ذلك. قال الحلاق: «نحن هنا منذ فترة طويلة. دع قاطع الحجارة يفعل ذلك بسرعة وبشكل جيد. سأدفع تكاليف عمله، وعندما تكمل التدريب المهني وتعمل مقابل أجر، ستدفع لي ما دفعته».

ولقد مكثا في لندن لفترة كافية فقط لرؤية الحجر المنقوش بالأسماء والتواريخ الثلاثة ووضعاه في مكان ما في فناء الكنيسة أسفل شجرة

الصنوبر.

ربّت الحلاق بيده السميكة على كتفه وألقى نظرة خاطفة عليه. وقال له: «نحن رحّالة. نحن قادرون على الوصول إلى كل مكان حيث يجب عليك الاستفسار عن الأطفال الثلاثة الآخرين».

فتح الحلاق خريطته لإنجلترا وأظهر لروب أن ستة طرق عظيمة متفرعة من لندن: من الشمال الشرقي إلى كولشيستر؛ ومن الشمال إلى لينكولن ويورك؛ ومن الشمال الغربي إلى شروبيري وويلز؛ ومن الغرب إلى سيلشستر ووينشستر وسالزبوري؛ ومن الجنوب الشرقي إلى ريتشبورو ودوفر ولايم؛ ومن الجنوب إلى شيشستر.

قال الحلاق وهو يؤشر واضعًا إصبعه على وسط إنجلترا في الخريطة: «هنا توجد مدينة رامسي، حيث ذهبت جارتك الأرملة، ديلا هارجريفز، للعيش مع شقيقها. سوف يكون بمقدورها إخبارك باسم المرضعة التي أعطتها الرضيع روجر، وسوف تبحث عنه عندما نعود إلى لندن في المرة القادمة. وهنا في الجنوب توجد سالزبوري، حيث نما إلى علمك أن أختك آن ماري أخذتها عائلتها هافيرهيلز». قطّب الحلاق عن جبينه. وقال: «من المؤسف أنه لم تكن لدينا تلك الأخبار عندما كنا مؤخرًا في سالزبوري أثناء المهرجان». قال ذلك، وقد انسربت قشعريرة إلى روب عندما أدرك أنه هو والفتاة الصغيرة ربما مرّا ببعضهما في وسط الزحام.

قال الحلاق: «لا يهم. سنعود إلى سالزبوري في طريق العودة إلى إكسماوث في فصل الخريف».

تجاسر روب، وقال: «في كل مكان نذهب إليه في الشمال، سوف أسأل الكهنة والرهبان ما إذا كانوا يعرفون الأب لوفيل ونائبه الشاب ويليام كول».

وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي غادرا لندن وسلكا طريق لينكولن الواسع المؤدي إلى شمال إنجلترا. عندما تركا وراءهما جميع المنازل ورائحة الكثير من الناس وتوقفا لتناول وجبة فطور فاخرة مطبوخة على جانب مجرى صاخب، وقد اتفقت مشاربهما على أن المدينة ليست المكان الأمثل لاستنشاق الهواء والاستمتاع بدفء الشمس.

14

الدروس المكتسبة

في أحد الأيام في أوائل شهر يونيو، استلقى الاثنان على ظهريهما بجوار جدول بالقرب من شيبينج نورتون، وهما يراقبان السحب من خلال الأغصان المورقة وينتظران أسماك السلمون المرقط تعض الأغصان.

كانت جذوع الصفصاف ثابتة، مثبَّتة على فرعين على شكل شوكة مدكوكين في الأرض.

غمغم الحلاق عن اقتناع: «في أواخر الموسم تكون أسماك السلمون المرقط متعطشة للذباب. في غضون أسبوعين، عندما توجد الحشرات النطاطة في الحقول، سوف تصاد الأسماك بشكل أسرع».

تساءل روب قائلًا: «كيف تميز ذكور الديدان؟».

ابتسم الحلاق والنعاس يغلبه. «لا شك في أن الذباب كله في الظلام واحد، مثل النساء كلهن في الظلام سواء».

واحتجّ روب قائلًا: «النساء لسن متشابهات، ليلًا أو نهارًا».

«تبدو النساء متشابهات، إلا أن كل واحدة تتميز عن الأخرى في عطرها وذوقها وملمسها وإحساسها».

تنهّد الحلاق. «هذه هي الأعجوبة الحقيقية التي تغري الرجل».

نهض روب وذهب إلى العربة. وعندما عاد، أمسك مربعًا من خشب الصنوبر الناعم، وعليه رسم بالحبر وجه فتاة. جلس القرفصاء قبالة

الحلاق وأمسك باللوح. «هل تعرفها؟».

أمعن الحلاق النظر في الرسم، «إنها الفتاة من الأسبوع الماضي، الدمية الصغيرة في سانت آيفز».

أعاد روب الرسم وفحصه، وقد لانت أساريره.

«لماذا رسمت ندبة قبيحة على خدها؟».

«الندبة كانت هناك».

أومأ الحلاق برأسه. «أتذكر ذلك. ولكن باستخدام الريشة والحبر، يمكنك جعلها أجمل من الواقع. لماذا لا تمنحها فرصة النظر إلى نفسها بشكل أجمل مما عليه في الواقع؟».

عبس روب، مضطربًا دون أن يفهم السبب. درس الشبه. «على أي حال، لن ترى هذا، لأنني رسمتها بعد أن تركتها».

«لكن كان بإمكانك رسمها في وجودها».

هزّ روب كتفيه وابتسم.

جلس الحلاق مستيقظًا تمامًا. وقال: «لقد حان الوقت بالنسبة لنا للاستفادة العملية من مواهبك وقدراتك».

وفي صباح اليوم التالي توقفا عند حطّاب وطلبا منه أن يقطع بالمنشار دوائر رفيعة من جذع شجرة صنوبر. كانت شرائح الخشب مخيبة للآمال، حيث كانت محببة جدًّا لصعوبة الرسم عليها بسهولة بالريشة والحبر. لكن الدوائر من شجرة زان صغيرة ثبت أنها ناعمة وصلبة، وقام الحطّاب عن طيب خاطر بتقطيع خشب زان متوسط الحجم إلى شرائح مقابل عملة معدنية.

بعد الترفيه بعد ظهر ذلك اليوم، أعلن الحلاق أن شريكه سيرسم صورًا مجانية شبيهة بالأصل لنصف دزينة من سكان شيبينج نورتون.

هاج وماج المتفرجون. وتجمّع حشد من الناس حول روب، يشاهدونه بفضول وهو يخلط حبره. إلا أنه أصبح ضليعًا منذ أن تدرّب بوصفه مؤديًا وتمرّس على التأمل.

رسم وجهًا على كل قرص من الأقراص الخشبية الستة، وبالترتيب: امرأة عجوز، وشابان، وزوج من الفتيات اللائي يعملن في الألبان وتفوح منهما رائحة الأبقار، ورجل له ثؤلول على أنفه.

كانت عينا المرأة غائرتين وفمها بلا أسنان وشفاها متغضنة. وكان أحد الشابين ممتلئ الجسم ومستدير الوجه، لذا كان الأمر أشبه برسم قسمات الوجه على يقطين. كان الصبي الآخر نحيفًا وحزينًا بعينين شريرتين. كانت الفتاتان شقيقتين وبدا أنهما متشابهتان إلى حد كبير لدرجة أن صعوبة الرسم كانت تكمن في محاولة تسجيل الاختلاف الدقيق بينهما؛ لقد أخفق، لأنه كان بمقدوريهما أن يتبادلا صورتيهما المرسومتين معًا دون ملاحظته. ومن بين الرسومات الست، كان راضيًا فقط عن الرسمة الأخيرة. كان الرجل تقريبًا عجوزًا، وقد سكن الحزن في عينيه وكل خط من خطوط وجهه. دون أن يدري، استولى الحزن على روب.

ودون تردد، رسم ثؤلول على الأنف. لم يشتك الحلاق، لأن جميع الأشخاص الذين رسمهم روب كانوا سعداء بشكل واضح وقد دوى تصفيق مستمر من المتفرجين.

«ابتاعوا ست زجاجات وقد تحصلون على واحدة مجانًا، يا أصدقائي! تشابه مماثل، «صاح الحلاق، ممسكًا بالدواء السحري عاليًا وانطلق في كلامه المألوف.

وسرعان ما تجمهر صف من الناس أمام روب، الذي كان يرسم باهتمام بالغ، وصف أطول أمام الدكة التي وقف الحلاق عليها، وباع دواءه.

ومنذ أن حرر الملك كانوت قوانين الصيد، بدأ لحم الغزال في الظهور في أكشاك الجزّارين. وفي ساحة سوق بلدة ألدريث، ابتاع الحلاق قطعة كبيرة من اللحم. فرك اللحم بالثوم البري وكساه بشقوق عميقة ملأها بمربعات صغيرة من دهن الخنزير والبصل، وظل يدهن الجزء الخارجي بالزبدة الحلوة بغزارة ويصب باستمرار حتى تحمص في مزيج من العسل والخردل والبيرة بنية اللون.

أكل روب بشهية، ولكن الحلاق أنهي معظم اللحم بنفسه مع كمية هائلة من اللفت المهروس ورغيف من الخبز الطازج. «ربما أكثر من ذلك بقليل. وقال والابتسامة تملأ وجهه: «حتى أحافظ على قوتي». وفي الوقت الذي عرفه روب، زاد وزنه بشكل ملحوظ - ربما، كما اعتقد روب، بمقدار ستة أحجار. ملأ اللحم رقبته، وساعديه صارت أفخاذًا، ومعدته تبحر أمامه مثل شراع سائب في ريح شديدة عاتية. كان عطشه مذهلًا مثل شهيته.

وبعد يومين من مغادرة ألدريث، وطأت أقدامهما قرية رامسي، حيث استحوذ الحلاق في الحانة العامة على انتباه مالك الحانة عن طريق ابتلاع اثنين من أباريق البيرة دون أن ينبس بكلمة قبل محاكاة الضجيج مع التجشؤ والانصراف إلى ما في يديه.

«نحن نبحث عن امرأة اسمها ديلا هارجريفز».

استهجن المالك وهزّ رأسه.

«هارجريفز، اسم زوجها. إنها أرملة. أتت قبل أربع سنوات لتكون مع شقيقها. لا أعرف اسمه، لكني أدعوك لإمعان النظر، فهذا مكان صغير».

أمر الحلاق بالمزيد من البيرة لتشجيعه.

ران الصمت على الرجل.

همست زوجته، «أوزوالد سويتير»، وهي تقدم المشروب.

قال الرجل وهو يأخذ النقود من الحلاق: «آه، أخت سويتر».

كان أوزوالد سويتير حداد قرية رامسي، كان ضخمًا مثل الحلاق ولكنه مفتول العضلات. استمع إليهم بعبوس خفيف ثم تكلم كما لو كان غير راغب في الحديث.

«ديلا؟» قال: «لقد استقبلتها. شخصيًّا». وباستخدام الكماشة، دفع قضيبًا أحمر كرزيًّا إلى عمق الفحم المتوهج. «كانت زوجتي ودودة لطيفة معها، لكن ديلا كانت لديها موهبة في عدم القيام بأي عمل. لم تكن المرأتان ودودتين مع بعضهما. وفي غضون نصف عام، تركتنا ديلا».

«وأين ذهبت؟» سأل روب.

«باث».

«ماذا تفعل في باث؟».

«كما كانت تفعل هنا قبل أن ننبذها»، قال سويتير بهدوء. «لقد غادرت مع رجل مثل الجرذ».

«كانت جارتنا لسنوات في لندن، وكنا نحسبها امرأة جديرة بالاحترام»، كان روب مجبرًا على قول ذلك، رغم أنه لم يحبها أبدًا.

«حسنًا، سيدي الشاب، اليوم أختي مومس وتضاجع رجالًا أكثر مما تعمل لتكسب قوت يومها. قد تجدها حيث توجد العاهرات». أنهى سويتير المحادثة وهو يسحب قضيبًا أبيض مشتعلًا متوهجًا من الفحم

بمطرقته، حتى تبعهما وابل متقد من الشرر من خلال بابه.

***

لقد أمطرت السماء لمدة أسبوع مطرًا غزيرًا وهما يشقّان طريقهما عبر الساحل. ثم في صباح أحد الأيام نهضا زحفًا من أسرتهما المبتلة أسفل العربة ليستقبلا يومًا ربيعيًا رائعًا لدرجة أن كل شيء قد نسي باستثناء حظهما الطيب في كونهما طليقين ومباركين. «هيا نتريض في عالم الأبرياء!» بكى الحلاق، وعرف روب بالضبط ما يقصده، لأنه على الرغم من الضرورة الملحة لحاجته إلى إيجاد الأطفال، فقد كان شابًّا مفعمًا بالصحة وأحد الناجين في يوم كهذا.

وبين نفخة وأخرى من القرن الساكسوني، شديا في نشوة، ترانيم وبذاءات، كإشارة على وجودهما أكثر من أي شيء آخر. قادا العربة ببطء عبر مسار مشجر منحهما بالتناوب أشعة الشمس الدافئة والظلال الوارفة المنعشة للأشجار الخضراء. قال الحلاق: «ما الشيء الذي تريده بإلحاح».

قال على الفور: «الأسلحة».

تلاشت ابتسامة الحلاق: «لن أشتري لك أسلحة»، قال بعد قليل.

«لا حاجة لحمل سيف. لكن الخنجر قد يبدو معقولًا، لأننا يمكن أن نتعرض لهجوم ما».

قال الحلاق بسخرية: «أي قاطع طريق سيفكر مرتين، لأننا شخصان كبيران».

«إنه بسبب حجمي. أدخل الحانة العامة والرجال الصغار يرمقونني بنظراتهم ويفكرون، «إنه كبير ولكن صفعة واحدة يمكن أن توقفه عند

حده». وتتسلل أياديهم إلى مقابض أسلحتهم».

«ثم يلحظون أنك لا تحمل أي سلاح ويدركون أنك جرو ولست كلب درواس على الرغم من حجمك. ينتابك شعور بأنك أحمق، يتركونك وشأنك. وبضربة سيف على حزامك يجب أن تكون في عداد الموتى في غضون أسبوعين».

ركبا في صمت.

قرون من الغزوات العنيفة جعلت كل رجل إنجليزي يفكر كجندي. لا يسمح القانون للعبيد بحمل السلاح ولا يستطيع الصبيان تحمل تكاليفه؛ ولكن أي ذكر آخر اعتاد تطويل شعره يعطي أيضًا إشارة إلى ولادته الحرة من خلال الأسلحة التي يحملها.

أخبر الحلاق نفسه بضجر أنه من الصواب بما فيه الكفاية أن رجلًا صغيرًا بسكين يمكن أن يقتل بسهولة رجلًا كبيرًا دون سكين.

ثم قرر وقال: «يجب أن تعرف كيف تتعامل مع الأسلحة عندما يحين الوقت لامتلاكها. إنه جزء ضمن تعليمك الذي قوبل بالإهمال. لذلك، سأبدأ في تعليمك استخدام السيف والخنجر».

ابتسم روب وتهللت أساريره. قال «شكرًا لك أيها الحلاق».

وفي أرض منفسحة، تبارزا وسحب الحلاق خنجره من حزامه.

«لا يجب أن تمسكه مثل طفل يطعن النمل. وازن السكين في راحة يدك المقلوبة كما لو كنت تنوي التلاعب بها. حيث تقترب الأصابع الأربعة من المقبض. يمكن أن يتحرك الإبهام بشكل مسطح على طول المقبض أو يمكنه تغطية الأصابع، حسب قوة الدفع. أصعب طعنة يمكن صدها هي تلك التي تحدث في الأسفل وتتحرك إلى الأعلى.

«المقاتل بالسكين يجثو على ركبتيه ويتحرك بخفة على قدميه، مستعدًّا للانطلاق إلى الأمام أو الخلف. وتكون مستعدًّا للتمايل لتجنب طعنة المعتدي. وتكون متأهبًا للقتل، فهذه الآلة مخصصة للعمل النظيف والقذر. إنه مصنوع من نفس المعدن الجيد مثل المشرط. بمجرد أن تلزم نفسك بأي منهما، يجب أن تقطع كما لو أن الحياة تعتمد عليها، لأنها غالبًا ما تفعل ذلك».

أعاد الخنجر إلى غمده وسلمه سيفه يدًا بيد. رفعه روب، وأمسكه أمامه.

قال بهدوء: «أنا روماني».

ابتسم الحلاق. «كلا، أنت لست رومانيًا ينزف. ليس بهذا السيف الإنجليزي. كان السيف الروماني قصيرًا ومدببًا، وله حافتان فولاذيتان حادتان. لقد أحب الرومان القتال عن قرب بالسيف. هذا هو السيف الإنجليزي، يا روب جيه، أطول وأثقل. السلاح الأقوى الذي يبقي أعداءنا بعيدًا. إنه ساطور، بلطة تقطع المخلوقات البشرية بدلًا من الأشجار».

استعاد السيف وابتعد عن روب. كان يمسكه بكلتا يديه، ويجول، أومض السيف وتلألأ في دوائر واسعة ومميتة وهو يقطع ضوء الشمس.

توقف الآن واتكأ على السيف بعيدًا عن الرياح. قال لروب: «فلتجرب» وسلّمه السلاح.

وهذا منح الحلاق راحة طفيفة ليرى مدى سهولة إمساك صبيه بالسيف الثقيل في يد واحدة. لقد كان سلاحًا قويًا، كما اعتقد في حسد واضح، وأكثر فعالية عند استخدامه مع براعة الشباب.

وبقبضته على السيف محاكيًا للحلاق، جال روب بالسيف عبر الأرض المنفسحة. سمع صليل النصل في الهواء وخرجت صرخة غليظة من حلقه

دون إرادة. راقب الحلاق، وهو منزعج بشكل غامض، لأن روب اكتسح رقعة غير مرئية، قاطعًا مساحة رهيبة.

وقع الدرس التالي بعد عدة ليال في حانة عامة مزدحمة وصاخبة في فولفورد. كان هناك رعاة إنجليز من قافلة خيول تتحرك شمالًا مع رعاة دنماركيين من قافلة متجهة جنوبًا. كانت الجماعتان تقضيان الليل في المدينة، تشربان حتى الثمالة وتتطلعان إلى بعضهما بعضًا مثل مجموعات من الكلاب المقاتلة.

جلس روب مع الحلاق وشرب خمر التفاح، وهو يشعر بالارتياح. لقد كان موقفًا تعرضا له من قبل، وكانا يعرفان ما يكفي حتى لا ينجرفا إلى المنافسة.

كان أحد الدنماركيين قد خرج ليفرغ مثانته. وعندما عاد كان يحمل خنزيرًا صغيرًا يخنخن تحت ذراعه وحبل طويل. ربط أحد طرفي الحبل برقبة الخنزير والطرف الآخر بعمود في منتصف الحانة. ثم دقّ على طاولة بقدح.

«من الشجاع بما يكفي لمنافستي في صيد الخنزير على ظهر حصان باستخدام رمح؟».

صرخ في الرعاة الإنجليز.

«آه، فيتوس!» نادى أحد زملائه مشجعًا، وبدأ يطرق على طاولته، وسرعان ما انضم إليه جميع أصدقائه.

استمع الرعاة الإنجليز بتجاهل إلى الطرق والصياح الساخر، ثم سار أحدهم إلى العمود وأومأ برأسه.

تجرّع نصف دزينة من الرعاة الحصفاء في الحانة العامة مشروباتهم

وتسللوا إلى الخارج.

بدأ روب في النهوض، متبعًا عادة الحلاق بالمغادرة قبل أن تبدأ المشاكل، ولكن لدهشته وضع سيده يده على ذراعه.

«بنسان هنا لحساب داستن!» نادى أحد الرعاة الإنجليز.

وسرعان ما انشغلت المجموعتان في وضع الرهانات.

لم يكن الرجلان متكافئين. بدا كلاهما في العشرينيات من العمر؛ كان الدنماركي أثقل وأقصر قليلًا، في حين أن الرجل الإنجليزي كان مديد الطول.

كانت العصائب مربوطة على أعينهما ثم ربط كل منهما بالجانب المقابل من العمود بحبل طوله عشرة أقدام مربوطًا بكاحله.

«انتظر»، نادى الرجل الذي يسمى داستن. «شراب آخر!».

الصيحة، أحضر أصدقاؤهم لكل منهم قدحًا من الميثيجلين، والذي تجرعوه بسرعة.

سحب الرجال معصوبي الأعين خناجرهم.

أطلق سراح الخنزير، الذي كان مقيدًا في الزاويا اليمنى لكليهما، على الأرض. حاول الخنزير الفرار على الفور، لكنه قيّد كما هو، وبالكاد استطاع الركض في دائرة فحسب.

«اللقيط الصغير يأتي، داستن!» صاح شخص ما.

تأهب الإنجليزي وانتظر، إلا أن صوت الحيوان الراكض تلاشى مع صياح الرجال، وتجاوزه الخنزير قبل أن يدرك ذلك.

«الآن، فيتوس!» نادى أحد الدنماركيين.

وفي غمرة رعبه، ركض الخنزير الصغير مباشرة باتجاه الراعي الدنماركي. طعنه الرجل ثلاث مرات دون أن يقترب، فهرب من الطريق الذي جاء منه وهو يخنخن.

استطاع داستن أن يتعرف على الصوت، واتجه نحو الخنزير الصغير من اتجاه واحد بينما اقترب فيتوس من الجانب الآخر.

وجّه الدنماركي إلى الخنزير ضربة وشهق داستن متشنجًا عندما انقسم النصل الحاد على ذراعه.

«أيها الوغد الشمالي». لقد انطلق في قوس وحشي لم يقترب من الخنزير الصاخب أو الرجل الآخر.

والآن انطلق الخنزير عبر أقدام فيتوس. انتزع الراعي الدنماركي حبل الحيوان وكان في مكنته سحب الخنزير نحو سكينه المنتظر. أصابته طعنته الأولى بالحافر الأمامي الأيمن، وخنخن الخنزير بأعلى صوته.

«والآن أوقعته في شباكك، يا فيتوس!».

«أجهز عليه، نأكله غدًا!».

أصبح الخنزير الصارخ هدفًا ممتازًا واندفع داستن نحو الصوت. انزلقت يده الضاربة عن الجانب الأملس للخنزير الصغير وبضربة استقر نصله في قبضته في بطن فيتوس.

ورغم أن الدنماركي كان يغمغم في هدوء فحسب، لكنه قفز إلى الوراء، واقتلع نفسه من الخنجر.

ران الصمت في الحانة العامة ولم يسمع صوت سوى خنخنة الخنزير.

أمر أحد الإنجليز: «ضع السكين جانبًا، يا داستن، لقد فعلتها». أحاطوا بالراعي؛ ثم مزّقت عصابته عن عينيه وقطع حبله.

وفي صمت مطبق، نقل الرعاة الدنماركيون صديقهم بعيدًا قبل أن يرد الساكسون أو قبل إمكانية استدعاء رجال مسؤول القصر الملكي.

تنهّد الحلاق. قال: «دعنا ننتقل إليه، فنحن حلاقون جراحون وقد نقدم له العون».

لكن بدا من الواضح أن هناك القليل مما يمكنهما فعله من أجله. استلقى فيتوس على ظهره كما لو كان مكسورًا، بعينين كبيرتين ووجه رمادي. ورأوا في جرح بطنه المفتوح أن أمعائه مقطوعة إلى النصف تقريبًا.

أمسك الحلاق بذراع روب وسحبه لأسفل ليجلس بجانبه. قال بحزم: «انظروا إليه».

كانت هناك طبقات: جلد مدبوغ، لحم شاحب، بطانة خفيفة لزجة إلى حد ما. كانت الأمعاء لونها وردي مثل لون بيضة عيد الفصح المصبوغة، وكان الدم أحمر قانيًا.

قال الحلاق: «من المثير للفضول كيف أن الرائحة الكريهة للإنسان المفتوح بطنه أسوأ بكثير من أي حيوان مفتوح».

تدفّق الدم من جدار البطن ومع تدفق الدم أفرغت الأمعاء المقطوعة نفسها من البراز. كان الرجل يتحدث الدنماركية برطانة، وربما كان يبتهل بالدعاء.

تهوّع روب لكن الحلاق أمسك به بالقرب من الرجل الذي سقط، مثل رجل يفرك أنف كلب صغير في فضلاته.

أمسك روب يد الراعي. كان الرجل أشبه بكيس من الرمل به ثقب

في قاعه؛ كان يشعر بأن الحياة تنفد. جلس القرفصاء بجانب الراعي، وأمسك يده بإحكام حتى لم يتبق رمل في الكيس وأصدرت جوانح فيتوس حفيفًا جافًا أشبه بورقة شجر قديمة وتلاشت بعيدًا.

***

استمرا في التدرب بالأذرع، لكن روب الآن انغمس في تفكير عميق ولم يعد متحمسًا للغاية.

أمضى وقتًا أطول في التفكير في قريحته، وشاهد الحلاق واستمع إليه، وتعلم كل ما يعرفه. عندما أصبح على دراية بالمرض وأعراضه، بدأ يلعب لعبة سرية، محاولًا تحديد ما يزعج كل مريض من المظاهر الخارجية.

ففي قرية نورثمبريا في ريتشموند، شاهدا بين المنتظرين في طابورهم رجلًا هزيلًا ضعيفًا بعينين دامعتين يعاني من سعال مؤلم.

«ما الذي يعاني منه هذا الرجل؟» سأل الحلاق.

«الدرن هو الأكثر احتمالًا؟».

ابتسم الحلاق استحسانًا.

ولكن عندما جاء دور المريض المصاب بالسعال لرؤية الحلاق الجراح، أمسك روب بيديه ليقوده خلف ستار الفحص. لم يكن شخصًا ينازع الموت؛ أخبرته حواس روب أن هذا الرجل كان أقوى من أن يصاب بالدرن. لقد شعر أن الرجل قد أصيب بقشعريرة وأنه سرعان ما سيبرأ مما كان مجرد إزعاج عابر.

لم يرَ أي سبب يناقض الحلاق؛ ولكن، رويدًا رويدًا، أدرك أن القريحة لم تكن فقط للتنبؤ بالموت ولكن يمكن أن تكون مفيدة في تشخيص المرض وربما في مساعدة الأحياء.

سحب إينكيتاتوس العربة الحمراء ببطء شمالًا عبر مشارف إنجلترا، قرية تلو الأخرى، بعضها أصغر من أن يكون له اسم. وكلما أتيا دير أو كنيسة، كان الحلاق ينتظر بصبر للسؤال عن الصبي الذي يسمى ويليام كول، لكن لم يسمع به أحد من قبل.

وفي مكان ما بين كارلايل ونيوكاسل-أبون تاين، تسلق روب جدارًا حجريًّا بناه قبل تسعمئة عام كتائب الإمبراطور هادريان لحماية إنجلترا من اللصوص الاسكتلنديين. وإبان الجلوس في إنجلترا والتحديق في اسكتلندا، أخبر نفسه أن فرصته الأكثر احتمالًا لرؤية شخص من دمه تكمن في سالزبوري، حيث أخذت عائلة هافيرهيلز أخته آن ماري.

وعندما وصلا أخيرًا إلى سالزبوري، لقي معاملة سيئة في اتحاد الخبازين.

كان رئيس الخبازين رجلًا يدعى كامينجز. كان مقرفصًا وشبيهًا بالضفادع، ليس ثقيلًا مثل الحلاق ولكنه سمين بدرجة كافية للإعلان عن صنعته. «أنا لا أعرف عائلة هافيرهيلز».

«ألن تبحث عنها في سجلاتك؟».

«انظر هنا. إنه وقت المهرجان! يشارك الكثير من الأعضاء في مهرجان سالزبوري ونحن موتورون ومضطربون. يجب أن تزورنا بعد المهرجان».

وطوال فترة المهرجان، كان جزء منه فقط يتلاعب بالكرات ويرسم ويساعد في علاج المرضى، بينما كان يراقب باستمرار بحثًا عن وجه مألوف، لمحة عن الفتاة التي تخيّل أنها كبرت.

لم يرها.

وفي اليوم التالي للمهرجان، عاد إلى مبنى اتحاد الخبازين في سالزبوري.

لقد كان مكانًا أنيقًا وجذابًا، وعلى الرغم من توتره، فقد تساءل عن سبب بناء مباني النقابات الأخرى دائمًا بشكل أكثر سلامة من مباني اتحادات النجارين.

«آه، الحلاق الجراح الشاب». كان كامينجز أكثر لطفًا في تحيته وأكثر اتزانًا الآن. بحث بدقة في اثنين من دفاتر الأستاذ الكبيرة ثم هزّ رأسه. «لم يكن لدينا مطلقًا خبازًا باسم هافيرهيل».

قال روب: «رجل وزوجته». باعا متجر المعجنات الخاص بهما في لندن وأعلنا أنهما قادمان إلى هنا. لديهم فتاة صغيرة، أخت لي. اسمها آن ماري».

«من الواضح ما حدث أيها الجرّاح الشاب؛ أنه بعد بيع متجرهما وقبل المجيء إلى هنا، وجدا فرصة أفضل في مكان آخر، وسمعا عن مكان يحتاج أكثر إلى الخبازين».

«نعم. هذا محتمل». شكر الرجل وعاد إلى العربة.

كان الحلاق مضطربًا بشكل واضح لكنه نصحه أن يتحلّي بالشجاعة.

«يجب ألا تفقد الأمل. يومًا ما ستجدهم مرة أخرى، سترى».

لكن كان الأمر كما لو أن الأرض قد انشقّت وابتلعت الأحياء كما تبتلع الأموات. بدا الأمل الصغير الذي أبقاه على قيد الحياة بالنسبة لهما الآن ساذجًا للغاية. لقد شعر أن أيام عائلته قد ولّت حقًّا، ومع قشعريرة أجبر نفسه على إدراك أنه أيًّا كان ما ينتظره، فمن المؤكد أنه سيواجه الأمر بمفرده.

15

العامل الماهر

قبل بضعة أشهر من نهاية تدريب روب، جلسا يحتسيان أباريق البيرة البنية في القاعة الكبرى في الحانة في إيكسيتر وناقشا شروط التوظيف بحذر.

احتسى الحلاق شرابه في صمت، وكأنه مستغرق في التفكير، وفي النهاية عرض راتبًا زهيدًا. قال: «بالإضافة إلى طقم جديد من الثياب»، كما لو اجتاحته موجة من الكرم.

قضى روب معه ست سنوات مقابل لا شيء. هزّ كتفيه في ريبة. قال: «أتوق إلى العودة إلى لندن»، وأترع كل منهما كأسه.

أومأ الحلاق برأسه. وأضاف بعدما تفحّص وجه روب، «طقم من الملابس كل عامين سواء كنت في حاجة إليه أم لا».

طلبا عشاءً من شطيرة الأرانب، التي أكلها روب بتلذذ. انتقد الحلاق مدير الحانة بدلًا من الطعام. قال متذمرًا: «يا له من لحم أجده نيئًا للغاية ومتبلًا بغباء. قد نجعل الراتب أعلى. أعلى قليلًا»، قال.

قال روب: «إنه متبل بشكل سيئ». «هذا شيء لا تفعله أبدًا. لطالما كنت مهووسًا بطريقتك في طهي الطعام».

«ما مقدار الراتب الذي تفترضه حتى تكون عادلًا؟ لشاب عمره ستة عشر عامًا؟».

«لا أريد راتبًا».

«أليس لديك راتب؟» نظر إليه الحلاق بعين ملأى بالريبة والشك.

«لا. نحصل على الدخل من بيع الدواء السحري وعلاج المرضى. ولذلك، أريد دخلًا من كل زجاجة من الزجاجات الإثنتى عشرة المبيعة وكل مريض من المرضى الإثنى عشر الذين خضعوا للعلاج».

«كل عشرين زجاجة وكل عشرين مريضًا».

لقد تردّد لبرهة فحسب قبل أن يومئ برأسه. «تسري هذه الشروط لمدة عام واحد، كلما تجددت بالاتفاق المتبادل».

«اتفقنا!».

قال روب بهدوء: «اتفقنا».

رفع كل منهما كأسه وابتسم ابتسامة عريضة.

«هيهات!» قال الحلاق.

«هيهات!» قال روب.

أخذ الحلاق على محمل الجد نفقاته الجديدة في الحسبان. ففي أحد الأيام عندما كانا في نورثهامبتون، التي تزخر بالحرفيين المهرة، استأجر نجارًا لعمل ستار ثان، وعندما وصلا إلى المكان التالي، وكان قرية هنتنجتون، نصبه في مكان ليس بعيدًا عن مكانه.

قال: «الوقت الذي وقفت فيه على أطرافك».

وبعد عرض الترفيه ورسم الصور، جلس روب خلف الستار وانتظر.

هل سينظرون إليه ويضحكون؟ أو، تساءل، هل سيبتعدون ويعودون

للوقوف في صف الحلاق؟

أجفل مريضه الأول مرتاعًا عندما أخذ روب يديه، لأن بقرته العجوز داست على معصمه. «ركلت السطل، شيء مؤسف. وبعد ذلك، في تلك الأثناء التي كنت أقوم فيها بضبط الستار، داس عليّ الحيوان الملعون، هل ترى؟».

أمسك روب بالمفصل برقة ونسي في الحال أي شيء آخر. كان هناك كدمة مؤلمة. كان هناك أيضًا عظم مكسور، وهو العظم الذي دهس من الإبهام. عظم مهم. استغرق الأمر بعض الوقت لربط المعصم بشكل جيد وتثبيت الجبيرة.

كان المريض التالي تجسيدًا لمخاوفه، امرأة نحيفة مهزولة الجسم بعينين صارمتين. أنبأت قائلة: «لقد فقدت سمعي».

عند الفحص، لم يبدُ أن أذنيها مسدودتان بالشمع. لم يكن يعرف شيئًا يمكن أن يفعله لها. قال بأسف: «لا يمكنني مساعدتك».

وهزّت رأسها.

«لا يمكنني مساعدتك!» صاح.

«إذًا اسأل الحلاق الآخر».

«لا يمكنه مساعدتك أيضًا».

اكتسى وجه المرأة بالغضب وقالت: «فلتحل عليك اللعنة حتى الجحيم. سوف أسأله بنفسي».

كان واعيًا بضحكات الحلاق وتندر المرضى الآخرين لأنها غادرت متثاقلة وغاضبة.

كان ينتظر خلف الستار بوجنتين محمرتين عندما انضم إليه شاب ربما يكبره بسنة أو سنتين. كبح روب تنهداته وهو ينظر إلى السبابة اليسرى في مرحلة متقدمة من الغرغرينة.

«ليس مشهدًا جميلًا».

كان لدى الشاب بقع بيضاء اللون في زوايا فمه لكنه ابتسم رغم ذلك. «لقد قمت بهرسها إبان تقطيع الخشب للتدفئة منذ أسبوعين. إنه مؤلم، بالطبع، لكن يبدو أنه يتعافى بشكل جيد. ومن ثم.»

كان المفصل الأول أسود اللون، وقد وصل إلى منطقة متغيرة اللون محمرة مؤلمة تحولت إلى لحم متقرح. البثور الكبيرة تسببت في تدفق دموي ورائحة كريهة.

«كيف عولجت؟».

«نبهني أحد الجيران أن أضع عليها رماد رطب ممزوج بفضلات الإوز، لتخفيف الألم».

أومأ برأسه، لأنه كان علاجًا شائعًا. «حسنًا. إنه الآن مرض مهلك، إذا ما استمر، فسوف ينهش اليد ثم الذراع. قبل وقت طويل من تسلله إلى الجسد، سوف تموت. يجب أن تتماثل الإصبع للشفاء».

أومأ الشاب بشجاعة.

سمح روب بخروج التنهدات. كان عليه أن يكون على يقين مضاعف؛ لأن استئصال العضو كان خطوة جادة، وهذا الشخص سيفتقد الإصبع لبقية حياته وهو يحاول كسب لقمة العيش.

مشى إلى ستار الحلاق.

«شيء ما؟» التمعت عينا الحلاق.

قال روب «هناك شيء أريد أن أريك إياه»، وسبق وأن عاد إلى مريضه، الرجل السمين الذي تبعه متثاقلًا.

«لقد أخبرته أنه يجب أن يستأصل».

قال الحلاق: «نعم»، وتلاشت ابتسامته. كان هذا صحيحًا. هل ترغب في المساعدة، أيها الفتى؟».

هزّ روب رأسه. أعطى المريض ثلاث زجاجات من الدواء السحري ليتجرعه ثم جمع بعناية كل ما يحتاجه، لذلك لن يضطر إلى الذهاب للبحث في منتصف الإجراء أو الصياح للحصول على مساعدة الحلاق.

أخذ مشرطين حادين، وإبرة وخيطًا شمعيًا، وقطعة قصيرة من اللوح، وشرائط بالية للربط، ومنشارًا صغيرًا ذا أسنان دقيقة.

تم ربط ذراع الشاب على اللوح بحيث تكون يده مرفوعة لأعلى. قال روب: «اقبض يدك بدون الإصبع المصاب بالغرغرينة». ولفّ اليد بضمادات وربطها حتى تكون الأصابع السليمة في أمان.

طلب مساعدة ثلاثة رجال أقوياء من الجلساء على الكراسي القريبة، اثنان للإمساك بالشاب وواحد لإمساك اللوح الخشبي.

لقد كان شاهدًا عشرات المرات على الحلاق يفعل ذلك، وقام بفعل ذلك مرتين بنفسه تحت إشراف الحلاق، ولكن لم يسبق له أن حاول ذلك بمفرده من قبل. كانت الحيلة هي قطع مسافة كافية بعيدًا عن منطقة الإصابة بالغرغرينة لإيقاف تفاقمها، مع ترك أكبر قدر ممكن من العقب.

التقط سكينًا وقطع لحمًا سليمًا. صرخ المريض وحاول النهوض من كرسيه.

«امسكه».

أحدث قطعًا دائريًا حول الإصبع وتوقف للحظة لامتصاص النزيف بخرقة قبل شق الجزء السليم من الإصبع على كلا الجانبين وسلخ الجلد بحرص نحو البرجمة، مما أسفر عن سديلتين.

ذهب الرجل الممسك باللوح وبدأ يتقيأ.

«خذ اللوح»، قال روب للشخص الذي كان يمسك أكتافه. لم تكن هناك مشكلة في نقل المريض، فقد أغمي على المريض.

كان العظم مادة سهلة القطع، وكان المنشار يبرد بردًا مطمئنًا لأنه خلع الإصبع.

قام بتهذيب السدائل بعناية بالغة وعمل جذعًا أنيقًا كما تعلّم، ليس مشدودًا بحيث يسبب الألم أو مرتخيًا لدرجة يسبب المتاعب، ثم أخذ الإبرة والخيط وأحسن صنيعًا من خلال عمل غرز صغيرة وضيقة. كان هناك نز دموي غسله عن طريق سكب الدواء السحري على الجذع. ساعد روب في حمل الشاب الذي علا أنينه إلى مكان حيثما يمكنه التعافي تحت شجرة وارفة الظلال.

وبعد ذلك في تتابع سريع قام بربط كاحل ملتوٍ، وضمّد قطعًا منجليًا عميقًا في ذراع طفل، وباع ثلاث زجاجات من الدواء السحري لأرملة مصابة بالصداع ونصف دزينة أخرى من الزجاجات لرجل مصاب بالنقرس. بدأ يشعر بالغرور عندما جاءت امرأة خلف الستار تعاني من مرض الهزال.

لم يكن هناك ما يدعو للشك والريبة؛ بل كانت هزيلة وبشرتها شمعية، وقد التمعت قطرات العرق على وجنتيها. كان عليه أن يجبر نفسه على

النظر إليها بعد أن استشعر مصيرها من خلال يديه.

كانت تقول: «... عافت نفسي الطعام، ولا يمكنني الاحتفاظ بأي شيء آكله، وما لا أتقيأه يخرج مني على شكل براز دموي».

وضع يده على بطنها الهزيل وشعر بالصلابة الوعرة التي وضع عليها راحة يدها.

«دبل».

«ما هو الدبل، يا حليوة؟»

«كتلة تنمو بتغذيتها على لحم سليم. أنت تشعرين بعدد من الدبلات تحت يدك».

«هناك ألم رهيب. ألا يوجد دواء؟» قالت بهدوء.

لقد أحبها لشجاعتها ولم يكن يميل إلى الكذب من أجل الرحمة. هزّ رأسه، لأن الحلاق أخبره أن العديد من الأشخاص أصيبوا بداء الدبل في المعدة ومات كل منهم بسبب المرض.

عندما تركته وغادرت، تمنت أنه لو أصبح نجارًا، رأى الإصبع المبتور على الأرض. التقط الإصبع المبتور ولفّه في قطعة قماش، وحمله إلى المكان الذي يرقد فيه الشاب الذي يتعافى تحت الشجرة ووضعه في يده الطيبة.

وفي حيرة، نظر إلى روب. «ماذا أفعل بها؟».

«يقول الكهنة إنه يجب عليك دفن الأجزاء المفقودة لانتظارك في فناء الكنيسة، حتى تتمكن من النهوض بكامل جسمك مرة أخرى يوم القيامة».

فكر الشاب في الأمر ثم أومأ برأسه.

قال: «شكرًا لك أيها الحلاق الجرّاح».

عندما وطأت أقدامهما روكينجهام، كان أول شيء رأياه هو الشعر الأبيض لبائع المراهم المسمى وات. بجانب روب على مقعد العربة، شعر الحلاق بخيبة أمل، مفترضًا أن المحتال الآخر قد استولى على حقهما في تقديم عرض الترفيه والتسلية هناك. ولكن بعد أن تبادلا التحيات، أزال وات قلقهما.

«أنا لا أقدم أي عروض ترفيه وتسلية هنا. وبدلًا من ذلك، اسمحا لي أن أدعوكما إلى لعبة اصطياد الدب».

أخذهما ليريا دبه، وهو وحش كبير مصاب بالندوب مع حلقة حديدية في أنفه الأسود. «إنه مريض وسيموت قريبًا لأسباب طبيعية، لذا سيجعلني الدب أجني ربحًا طائلًا الليلة».

«هل هذا بارترام الذي صارعته؟» سأله روب بصوت بدا غريبًا في أذنيه.

«لا، لقد ذهب بارترام منذ زمن طويل، صيد منذ أربع سنوات».

قال وات، هذه أنثى خنزير، اسمها جوديفا، واستبدل القماش الذي يكسو القفص.

بعد ظهر ذلك اليوم، شاهد وات عرض الترفيه الذي قدماه ولاحظ البيع المستمر للدواء السحري الخاص بالحلاق؛ وبإذن من الحلاق، صعد البائع المتجول المحتال إلى دكة الحلاق وأعلن عن لعبة اصطياد الدب التي ستحدث ذلك المساء في الحفرة خلف المدبغة، والدخول مقابل نصف بنس.

وبحلول الوقت الذي وصل فيه هو والحلاق، حلّ الغسق وأضاء كلاهما الأرض السبخة المحيطة بالحفرة بألسنة اللهب المتطايرة من عشرات

المشاعل. كانت الحلبة صاخبة تعج بالألفاظ النابية وضحكات الذكور. أوقف المدربون ثلاثة كلاب مكممة أفواههم سال لعابهم على سلاسلهم القصيرة: كلب الدرواس الهزيل الرمادي الداكن، وكلب أحمر يشبه ابن عم الدرواس الأصغر، والكلب الإلكي الدنماركي الكبير.

قاد وات جوديفا وزوج من المدربين. كانت الدبة الخجولة مغطاة الرأس، لكنها تشمّمت رائحة الكلاب واستدارت بغريزتها في مواجهتهم.

اقتادها الرجال إلى عمود سميك في منتصف الحفرة. ثبّتت الأربطة الجلدية القوية في الجزء العلوي والسفلي من العمود، واستخدم السائس الحبل السفلي لربط الدبة من الخلف من الناحية اليمنى.

وعلى الفور اندلعت صيحات احتجاج. «الشريط العلوي، الشريط العلوي!».

«اربط رقبة الوحش بالحبل!».

«اربطها من حلقة أنفها، أيها الأحمق اللعين!».

لم يتأثر السائس بالنداءات أو الإهانات، لأنه كان من ذوي الخبرة. «الدبة منزوعة مخالبها. لذلك سيكون عرضًا مملًا حقًا إذا قُيِّد رأسها. قال: «اسمح لها باستخدام أنيابها».

فكّ وات الغطاء عن رأس جوديفا ثم قفز للخلف.

نظرت الدبة حولها في الضوء المرتعش، وهي تحدّق في الرجال والكلاب بعينين صغيرتين ملأى بالحيرة.

وبدا جليًا أنها كانت حيوانًا عجوزًا يفتقر إلى عنفوان الشباب، وحصل الرجال الذين كانوا يصيحون في نزاع على الرهان القليل على الرهانات حتى عرضوا الثلث على الكلاب التي بدت متوحشة ومتشنجة لأنهم

اقتيدوا إلى حافة الحفرة. خمش المدربون رؤوس الكلاب ودلّكوا رقابهم، ثم نزعوا الفدامات والسلاسل وابتعدوا.

وفي الحال، انقلبا كلب الدرواس والكلب الأحمر الصغير على بطنيهما، وأعينهما مثبتتان على جوديفا. زمجر الكلبان، واندفعا في الهواء في خفة ثم انسحبا، لأنهما لم يدركا بعد أن الدبة كانت منزوعة المخالب، لذا قد أجفلا منها خوفًا واحترامًا.

قفز الكلب الإلكي الدنماركي الكبير حول محيط الحفرة، ورمقته الدبة بنظرات متوترة من فوق كتفها.

صرخ وات في أذن روب: «يجب أن تشاهد الكلب الأحمر الصغير».

«يبدو أنه الأقل رعبًا».

«إنه من سلالة رائعة، تنحدر من سلالة كلب الدرواس لقتال الثيران في الحفرة».

وقفت الدبة منتصبة على مخلبيها الخلفيين، وأسندت ظهرها على العمود. بدت جوديفا مرتبكة؛ لقد رأت التهديد الحقيقي للكلاب لكنها كانت حيوانًا مؤديًا ومعتادًا على الحبال وصياح البشر، ولم تكن غاضبة بما يكفي لتحوز إعجاب السائس. التقط الرجل رمحًا طويلًا وضغط على أحد ضرعيها المتجعدين، وقطع حلمة داكنة.

عوت الدبة من الألم.

وبتشجيع حار، طار كلب الدرواس. كان ما أراد أن يمزقه هو البطن الرخو، لكن الدبة استدارت ومزّقت أسنان الكلب الرهيبة مؤخرتها من الناحية اليسرى. أصدرت جوديفا خوارها ومرقت مروق السهم. وإذا لم تنزع مخالبها بقسوة عندما كانت شبلًا، لكانت قد نزعت أحشاء كلب

الدرواس، لكن مخالبها قلّمت حتى لا تسبب الأذى. شعر الكلب أنه لم يكن الخطر الذي كان يتوقعه، وبصق على جلده ولحمه وأدرك المزيد، وثار جنونه الآن بمذاق الدم.

أطلق الكلب الأحمر الصغير نفسه في الهواء على حلق جوديفا. كانت أسنانه فظيعة مثل كلب الدرواس؛ انحسر فكه الطويل تحت الفك العلوي وتعلق الكلب تحت فدامة الدبة مثل ثمرة كبيرة ناضجة تدلت من شجرة.

وأخيرًا رأى الكلب الإلكي الدنماركي الكبير أن الوقت قد حان، وقفز على جوديفا من اليسار، متسلقًا فوق الدرواس في شغف للوصول إليها. اقتلعت أذن جوديفا اليسرى وعينها اليسرى في نفس القضمة القاطعة، وتطايرت قطع اللحم القرمزية عندما هزّت الدبة رأسها المهترئ.

كان الكلب الثور قد انحسر في ثنية كبيرة من الفراء الكثيف والجلد الرخو؛ وضغط بفكه القابض بما يكفي بلا هوادة على القصبة الهوائية للدبة حتى بدأت تمتص الهواء. والآن عثر كلب الدرواس على بطنها وكان يمزقه.

صاح وات بخيبة أمل: «معركة سيئة». «لقد تمكنت الكلاب من الدبة بالفعل».

أطاحت جوديفا ظهر كلب الدرواس بالمخلب الأيمن الكبير. لم يسمع صوت صدع العمود الفقري للكلب فوق الأصوات الأخرى، لكن كلب الدرواس المحتضر تلاشى بعيدًا فوق الرمال، ودفعت الدبة أنيابها في مواجهة الكلب الإلكي الدنماركي.

زأر الرجال مبتهجين.

وكان الكلب الإلكي الدنماركي يرمى بالقرب من الحفرة تقريبًا وظل

مستلقيًا حيث سقط، لأن حنجرته تمزقت. غرست جوديفا مخلبها في الكلب الأصغر، والذي تناثر لحمه في حمرة فاقت لونه الأحمر ممزوجًا بدم الدبة وكلب الدرواس. انحسر الفكان العنيدان في حلق جوديفا. طوت الدبة أطرافها الأمامية وضغطت بشدة أثناء وقوفها وتمايلها.

لم يهدأ شدقاها حتى أصبح الكلب الأحمر الصغير هامدًا. أخيرًا، كانت الدبة قادرة على لفح الكلب الثور على العمود مرارًا وتكرارًا حتى سقط منها في الرمال التي وطأتها الأقدام مثل البذور التي نفضت من أغلفتها.

سقطت جوديفا على أربع بجانب الكلاب الميتة لكنها لم تأبه بهم. بدأت تتألم وترتجف، وبدأت تلعق جسدها الخام النازف.

وصارت همهمة حيث دفع المتفرجون أو جمعوا رهاناتهم. تذمّر رجل بجوار روب وقال: «قريب جدًّا، قريب جدًّا».

قال آخر: «الدبة اللعينة لا تزال حية ويمكننا أن نحظى ببعض المتعة».

كان شاب مخمور قد التقط رمح السائس وبدأ في استدراج جوديفا معه من الخلف، ودسه في فتحة شرجها. هلّل الرجال في الوقت الذي فيه كانت الدبة تدور في دوامة، وتزأر، لكن الرمح ارتجّ على الحبل على ساقها لمدة قصيرة.

صاح أحدهم في مؤخرة الحشد: «العين الأخرى. دسه في العين الأخرى!».

نهضت الدبة مرة أخرى لتقف مرتعشة على طرفين.

راقبت العين الطيبة الحشد في حذر وتحد ولكن بمعرفة مسبقة هادئة، مما ذكّر روب بالمرأة التي أتت إليه في نورثهامبتون بمرض الهزال. كان السكير يهزّ رأس الرمح باتجاه الرأس الضخم عندما ذهب إليه روب ونزع الرمح من يديه.

«هنا، أيها الأحمق اللعين!» نادى الحلاق بحدة على روب وبدأ من بعده.

قال روب: «جوديفا الطيبة». وضع الرمح في وضع الاستواء ودسه بعمق في الصدر الممزق، وسرعان ما نفر الدم من أحد زوايا الفدامة الملتوية.

انبثق صوت من الرجال يشبه زمجرة الكلاب عندما اقتربوا.

نادى الحلاق على عجل: «إنه فاسد وسنعتني به».

سمح روب للحلاق ووات بدفعه خارج الحفرة وخارج بؤرة الضوء.

«أي نوع من الرجال هذا الأحمق الغبي مساعد الحلاق؟» سأل وات بغضب.

«أعترف أنني لا أعرف». بدا تنفس الحلاق وكأنه خوار. أدرك روب أنه في هذه الأيام كان تنفسه أثقل.

وفي إطار دائرة ضوء الكشاف، كان السائس يعلن بهدوء أنه لا يزال هناك غرير قوي ينتظر الطعم، وتحولت الشكاوى إلى هتافات صارخة.

ابتعد روب في حين أن الحلاق اعتذر لوات.

كان جالسًا بالقرب من العربة قرب النار عندما جاء الحلاق متثاقلًا. فتح الحلاق زجاجة من الخمر وتجرّع نصفها. ثم سقط في سريره على الجانب الآخر من النار وأخذ يحدّق.

قال: «أنت بغيض».

ابتسم روب.

«إذا لم تكن الرهانات قد حسمت بالفعل، لكنت مغتالًا ولا ينبغي أن ألومهم».

امتدت يد روب إلى جلد الدب الذي كان ينام عليه.

لقد غدا الفراء خشنًا أكثر من أي وقت مضى، ويجب التخلص منه قريبًا، كما اعتقد، وهو يضربه.

قال: «تصبح على خير، إذًا، أيها الحلاق».

16

الأسلحة

لم يخطر ببال الحلاق أنه سيختلف مع روب جيه في السابعة عشرة من عمره، كان الصبي السابق هو بالضبط ما درب عليه عندما كان صغيرًا، مفعمًا بالعمل والطاعة العمياء.

إلا أنه أجرى صفقة مثل المرأة السخيفة.

وفي نهاية السنة الأولى من العمل، طلب الحصول على نصيب واحد على اثني عشر بدلًا من واحد على عشرين. تذمّر الحلاق لكنه وافق في النهاية لأنه من الواضح أن روب كان يستحق مكافأة أكبر.

لاحظ الحلاق أنه نادرًا ما ينفق أجره وكان يعلم أنه كان يدّخر أمواله لشراء الأسلحة. وفي إحدى ليالي الشتاء في الحانة في إكسماوث، حاول بستانيّ أن يبيع إلى روب خنجرًا.

«ما رأيك؟» سأل روب، وناوله إلى الحلاق.

لقد كان سلاح بستانيّ. «نصل الخنجر من البرونز وسوف ينكسر. ربما يكون المقبض مناسبًا، لكن المقبض المطلي بشكل مبهرج يمكن أن يخفي العيوب».

أعاد روب جيه المدْيَة الرخيصة،

ولّما انطلقا في الربيع، سافرا إلى الساحل وتردّد روب على أرصفة الميناء بحثًا عن الإسبان، لأن أفضل الأسلحة الفولاذية جاءت من إسبانيا. لكنه

لم يبتَع شيئًا بحلول الوقت الذي اضطرا فيه إلى العودة إلى داخل البلدة.

وقد حلّ شهر يوليو وهما لا يزالان في منطقة مرسيا العليا. وفي بلدة بليث خيبت أمالهما وتعارضت مع اسم القرية الذي يعني البهجة؛ فاستيقظا ذات صباح ليريا إنكيتاتوس ملقى على الأرض في الجوار، متخشبًا منقطع الأنفاس.

وقف روب ونظر بمرارة إلى الحصان الميت لكن الحلاق كان ينفّس عن مشاعره من خلال السبّ وقذف الشتائم.

«هل تعتقد أن المرض أصابه؟».

هزّ الحلاق كتفيه. «لم نر أي علامة بالأمس، لكنه كان طاعنًا في السن. لم يكن صغيرًا عندما حصلت عليه منذ وقت طويل».

أمضى روب نصف يوم في الحفر والتجريف، لأنهما لم يريدا أن تأكل الكلاب والغربان إنكيتاتوس. وفي تلك الأثناء التي كان يحفر فيها روب الحفرة الكبيرة، خرج الحلاق بحثًا عن بديل. استغرق الأمر منه طوال اليوم وكلفه تكلفة باهظة، لأن حصانهما كان مهمًّا بالنسبة لهما. وفي نهاية المطاف، اشترى مهرة بنيّة اللون صلعاء الرأس تبلغ من العمر ثلاث سنوات ولم يكتمل نموها.

«هل نسميها أيضًا إنكيتاتوس؟» سأله، لكن روب هزّ رأسه ولم يطلقا عليها أبدًا أي اسم سوى الحصان. كانت تخطو بطريقة مثيرة للإعجاب، ولكن في صباح اليوم الأول، رمتهم بحدوتها، وعادا إلى بليث للحصول على حدوة جديدة.

كان الحداد يسمي دورمان مولتون ووجداه ينتهي من صناعة سيف تلألأ في عيونهما.

«كم الثمن؟» سأله روب، بشغف شديد إرضاءً لعادة الحلاق في المساومة.

قال: هذا السيف مبيع، لكنه سمح لهما بحمله والشعور بتوازنه. لقد كان سيفًا إنجليزيًّا بدون زخرفة تمامًا، حادًّا وحقيقيًّا ومطليًّا بأناقة. إذا كان الحلاق أصغر سنًا ولم يكن حكيمًا للغاية، لكان قد أغري بالمزايدة عليه.

«كم الثمن بالضبط لنظيره المماثل، والخنجر المطابق؟».

بلغ الإجمالي ما يربو عن دخل روب لأكثر من عام.

قال مولتون: «وعليك أن تدفع النصف الآن، إذا طلبت مني أن أقوم بصناعته».

ذهب روب إلى العربة وعاد بصرة دفع منها على الفور أكثر من المال المطلوب.

قال: «سنعود بعد عام واحد للحصول على الأسلحة ودفع المتبقي من ثمنها»، وأومأ الحداد برأسه وأخبره أن الأسلحة ستكون جاهزة.

وعلى الرغم من فقدان إنكيتاتوس، فقد استمتعا بموسم مزدهر، ولكن عندما كان على وشك الانتهاء، طلب منه روب سدس الدخل.

«سدس دخلي! إلى فتي تافه لم يبلغ الثامنة عشرة من العمر؟» استشاط الحلاق غضبًا حقًّا، على الرغم من أن روب استقبل غضبه بهدوء جم ولم ينبث ببنت شفة.

ومع اقتراب موعد اتفاقهما السنوي، كان الحلاق هو الساخط، حيث إنه كان على دراية بمدى تحسن وضعه بمجرد أن ألتحق به عامله الماهر.

في قرية سيمبرينغهام سمع امرأة مريضة تهمس لصديقتها: «ادخلي

في صف المرضى الذين ينتظرون الحلاق الشاب، يا إيدبرغ، لأنهم يقولون إنه يلمسك خلف الستار. يقولون إن لديه يدين فيهما الشفاء».

ذكّر الحلاق نفسه ساخرًا، يقولون إنه يبيع الكثير من الدواء السحري.

لم يساور الحلاق أي قلق من أن ستار الرجل الشاب عادة ما يقف أمامه صفوف أطول من المنتظرين. ففي الواقع، بالنسبة إلى صاحب العمل، كان روب جيه أشبه بقطعة ذهب في جيبه.

عرض أخيرًا، «الثمن».

وعلى الرغم من أنه عانى لفعل ذلك، فإنه كان سيذهب إلى السدس، لكن روب أومأ برأسه ليشعر بالراحة.

قال روب: «الثمن هو العدل».

تفجّرت فكرة الرجل العجوز في عقل الحلاق. فهو يسعى دائمًا إلى تحسين عرض الترفيه والتسلية، لذا ابتكر دور الفاسق العجوز الذي يشرب الدواء السحري ويلاحق كل امرأة قريبة المنال. قال لروب «وعليك أن تلعبه».

«أنا ضخم جدًّا. وأنت صغير جدًّا».

قال الحلاق بعناد: «لا، يجب أن تلعبه. لأني سمين جدًّا لدرجة أن نظرة واحدة إليّ ستكشف من أنا».

كلاهما راقب الرجال المسنين لفترة طويلة، وتفحصا كيف يسيرون متألمين ونوع الملابس التي يرتدونها، وكانوا يسترقون السمع إلى كبار السن وهم يتحدثون.

قال الحلاق: «تخيل كيف يكون الأمر عندما تشعر أن حياتك تنتهي».

«أنت تعتقد أنك ستكون دائمًا قادرًا على الوصول إلى امرأة ما. فكر في التقدم في السن وعدم القدرة على القيام بذلك».

صنعا شعرًا مستعارًا أشهب اللون وشارب زائف أشهب اللون أيضًا. ولم يتمكنا من إضفاء التجاعيد ولكن الحلاق غطّى وجهه بمستحضرات التجميل وقام بمحاكاة بشرة عجوز جافة ومتغضنة بفعل سنوات من التعرض للشمس والهواء. أحنى روب جسده الطويل وأخذ يعرج في مشيته ويجرّ ساقه اليمنى. وعندما تحدّث، رفع صوته وجعله متذبذب، كما لو أنه تعلم كيف يكون خائفًا قليلًا.

ظهر الرجل العجوز، الذي كان يرتدي معطفًا رثًا، لأول مرة في تادكاستر، في حين كان الحلاق يتحدث عن القوى التجديدية الرائعة للدواء السحري. مشى متألمًا، وترنّح في مشيته واشترى زجاجة من الدواء السحري.

قال بصوت متحجر صريح: «لا شك في أنني عجوز غبي لإهدار أموالي». فتح القنينة ببعض الصعوبة، وشرب الدواء السحري بعد ذلك وهناك شقّ طريقه ببطء إلى جانب النادلة التي تلقت تعليمات ودفع لها بالفعل.

«أوه، أنت جميلة»، تنهّد، ونظرت الفتاة بعيدًا في لمح البصر بعد أن احمرّ وجهها خجلًا. «هل تصنعي لي معروفًا يا عزيزتي؟»

«إذا كان في مقدرتي».

«ضعي يدك على وجهي فحسب. مجرد كف ناعم دافئ على خد رجل عجوز. آااه: تنفس بعمق لأنها وافقت في خجل.

كان يترنح وهو يغلق عينيه ويقبّل أصابعها.

في لحظة انفتح بصره على مصراعيه. تنفس، ولفظ: «القديس

أنطونيوس المبارك. أوه، إنه أمر رائع».

عاد إلى الدكة بأسرع ما يمكن وهو يعرج.

قال للحلاق، «دعني أحصل على حاوية أخرى»، وتجرعها دفعة واحدة على الفور. هذه المرة عندما عاد إلى النادلة ابتعدت وتتبعها.

قال بلهفة «أنا خادمك. السيدة...»

انحنى إلى الأمام، وهمس في أذنها.

«أوه، يا حليوة، لا يجب أن تتحدث هكذا!» تحركت مرة أخرى، واضطرب الحشد وهو يتتبعها.

وبعد بضع دقائق، عندما خرج الرجل العجوز وهو يعرج مع النادلة في ذراعه، صاح الحشد بالموافقة، وبعد ذلك، وهم ما زالوا يضحكون، سارعوا لدفع نقودهم الضئيلة إلى الحلاق.

وفي النهاية، لم يكن عليهما أن يدفعا لامرأة لتلعب الدور ضد الرجل العجوز، لأن روب سرعان ما تعلم كيف يتلاعب بالنساء في الحشد. يمكن أن يشعر عندما تتعرض الزوجة الصالحة للإساءة ويجب التخلي عنها، أو عندما لا تشعر المرأة الأكثر ميلًا إلى المغامرة بالإساءة من خلال مجاملة مثيرة أو حتى قرصة سريعة.

ففي إحدى الليالي في بلدة ليتشفيلد، ارتدى زي الرجل العجوز في البلدة في الحانة العامة وسرعان ما جعل شاربي الخمر ينتحبون ويكفكفون دموعهم على ذكرياته العاطفية.

«ذات مرة كنت فاسدًا. أتذكر جيدًا كيف كنت أتمتع بجمال صارخ... شعر مثل جزة الصوف الأسود، حلمات ضرع كنت تود حلبه. شعر حلو مثل شعر البجعة الداكنة. في حين أن الجانب الآخر من الحقيقة، كان

والدها الشرس، نصف عمري، ينام في هناءة ودون دراية».

«وكم كان عمرك حينها، أيها الرجل العجوز؟».

استقام بحذر تجنبًا لآلام الظهر. قال بصوت جاف ومكسور: «أصغر من الآن بثلاثة أيام».

كل مساء، كان الحمقى يتشاجرون من أجل حقه في تزويده بالجعة.

وفي تلك الليلة، وللمرة الأولى، ساعد الحلاق مساعده في العودة إلى خيمتهما بدلًا من أن يسنده هو نفسه.

لجأ الحلاق إلى الطعام والشراب. كان ينهش لحم الديكة ولحم البط الغض الطري، ويلتهم الطيور الداجنة حتى التخمة. في ورسيستر صادف مروره ذبح زوج من الثيران وابتاع ألسنتهما.

هنا كان يأكل!

غلي الألسنة الكبيرة لفترة وجيزة قبل تقطيعها وسلخها، ثم شوائها بالبصل والثوم البري واللفت، ودهنها بعسل الزعتر ودهن الخنزير حتى التمعت من الخارج وأصبحت حلوة ومقرمشة، ومن الداخل كانت غضة طرية للغاية وغدت لحمًا نادرًا ما يحتاج المرء إلى مضغه.

تذوّق روب بالكاد الطعام الفاخر الجيد، حيث كان في عجلة من أمره للعثور على حانة جديدة يلعب فيها دور الأحمق العجوز. وفي كل مكان جديد، منحه الشاربون باستمرار شتّى أنواع الخمور، وكان الحلاق يعلم أنه يحب البيرة أو الجعة، لكنه أدرك الآن بصعوبة أن روب سيقبل شرابًا من خمر العسل أو الصباغ أو المورات - أيًّا كان.

راقب الحلاق عن كثب علامات تدل على أن الإفراط في شرب الخمر سيضر بجيبه. ولكن بغض النظر عن مدى تقززه وبلله في الليلة السابقة،

إلا أنه بدا أنه يفعل كل شيء كما كان من قبل، باستثناء تفصيل واحد.

قال الحلاق: «ألاحظ أنك لم تعد تأخذ بأيدي المرضى عندما يقفون خلف ستارك».

«ولا أنت كذلك».

«لست أنا من يملك القريحة».

«القريحة! لقد كنت تعتقد دائمًا أنه لا توجد هذه القريحة».

قال الحلاق: «الآن أعتقد أن ثمة قريحة تمتلكها. أعتقد أنها تلاشت بسبب الشراب، وأنها تهرب قبل الاستهلاك المنتظم للمشروبات الكحولية».

«كانت من أوهامنا، كما قلت».

«استمع جيدًا. سواء هربت القريحة أم لا، يجب أن تمسك بيد كل شخص عندما يقف خلف ستارك، لأنه من الواضح أنهم يحبون هذا الأمر. مفهوم؟».

أومأ روب جيه متجهمًا.

وفي صباح اليوم التالي، التقيا بصياد طيور على طريق مشجر. كان يحمل عصا مشقوقة طويلة محشوة بطعم من كرات العجين مطمور فيها البذور. عندما جاءت الطيور لتتغذى على الطعم، عن طريق سحب الحبل، كان قادرًا على إغلاق الشق على أرجلها وإمساكها، وكان ذكيًا جدًّا مع الآلة التي كانت تتدلى معلقة في حزامه في كل مكان مع الزقزاق الأبيض الصغير. اشترى الحلاق مجموعة من الطيور. كان الزقزاق يعتبر طعامًا شهيًّا، حيث قاما بتحميصه بشكل عام دون تتبيله، ولكن الحلاق كان صعب الإرضاء للغاية. قام بتنظيف كل طائر صغير وتزيينه وصنع وجبة فطور لا تنسى، حتى تهللت أسارير روب.

في بركهامستد العظمى، قاما بتقديم عرض الترفيه الخاص بهما أمام جمهور جيد وباعا الكثير من الدواء السحري. وفي تلك الليلة، ذهب الحلاق وروب إلى الحانة معًا للتصالح وتحقيق السلام. لجزء من المساء كان كل شيء على ما يرام، لكنهما كانا يشربان المورات القوي الذي تغشّاهما بمذاقه من التوت المر، وشاهد الحلاق عيني روب اللتين تلتمعان وتساءل عما إذا كان وجهه قد احمرّ بهذه الطريقة مع الشراب.

وسرعان ما خرج روب عن طريقه ليصطدم بحطّاب ضخم البنية وأمطره بإهاناته.

وفي لحظة كانا يحاولان تشويه بعضهما بعضًا.

كانا عظيمي البنية وكان شجارهما شديد الجدية بوحشية، كان ضربًا من الجنون. أفقدهما المورات الحس، وقفا بالقرب من بعضهما وأشبعا بعضهما بعضًا ضربًا مرارًا وتكرارًا بكل قوتهما، مستخدمين قبضتيهما وركبتيهما وقدميهما، وكانت اللكمات والركلات تبدو وكأنها مطارق تدق خشب البلوط.

وأخيرًا، استنفد كل منهما قواه، وسحب كل منهما بمعرفة جيش صغير من صانعي السلام، وأخذ الحلاق روب بعيدًا.

«أحمق سكران!».

قال روب: «انظر إلى من يتحدث».

كان يرتجف من الغضب، جلس الحلاق وازدرى مساعده.

قال: «صحيح أنني قد أكون أيضًا أحمق مخمورًا، لكنني عرفت يومًا كيف أتجنب المتاعب. لم أقم ببيع السموم أبدًا. لا علاقة لي بالسحر الذي يلقي بالتعاويذ أو يثير الأرواح الشريرة. أنا فقط أشتري كميات كبيرة من

الخمور وأقدم العروض البهلوانية التي تسمح لي ببيع قوارير صغيرة بربح جيد. إنها لقمة العيش التي تعتمد على عدم لفت الانتباه إلى أنفسنا. لذلك يجب أن يتوقف غباؤك ويجب أن ترخي قبضة يدك».

حدّقا بعضهما في بعض، لكن روب أومأ برأسه.

ومنذ ذلك اليوم، بدا أن روب يقوم بمزايدة الحلاق تقريبًا ضد إرادته أثناء تحركهما جنوبًا، وهما يسابقان الطيور المهاجرة إلى الخريف. اختار الحلاق التغاضي عن مهرجان سالزبوري، لأنه أدرك أن ذلك سينكأ الجراح القديمة لروب. ذهبت جهوده سدى، لأنهما عندما خيما في وينشستر بدلًا من سالزبوري، عاد روب في تلك الليلة إلى نار المخيم وهو يترنح. كان وجهه يشبه اللحم المكدوم وكان من الواضح أنه كان يتشاجر.

«مررنا بدير هذا الصباح أثناء قيادتك للعربة، لكنك لم تتوقف للاستفسار عن الأب رانالد لوفيل وأخيك».

«ليس من الجيد أن أسأل. كلما سألت، لا أحد يعرفهما أبدًا».

كما لم يتحدث روب عن العثور على أخته آن ماري أو أخيه جوناثان أو أخيه روجر، الأخ الذي رآه آخر مرة عندما كان رضيعًا.

قال الحلاق لنفسه إنه قد تخلّى عنهم وسعى الآن إلى نسيانهم، وهو يكافح من أجل فهم ذلك. كان الأمر كما لو أن روب قد حوّل نفسه إلى دب وعرض نفسه للاصطياد من جديد في كل حانة من الحانات العامة. كانت الدناءة تنمو فيه مثل العشب؛ لقد رحب بالألم الذي أحدثه الشراب والشجار، لينفض عن كاهله الألم الذي عانى منه عندما استولى غياب إخوته وأخته على ذهنه.

لم يستطع الحلاق أن يقرر ما إذا كان قبول روب لفقدان الأطفال أمرًا صحيًّا أم لا.

كان ذلك الشتاء هو الأكثر سوءًا الذي قضياه في المنزل الصغير في إكسماوث. ففي البداية، ذهب هو وروب معًا إلى الحانة. عادة ما يشربان ويتبادلان الحديث مع الرجال المحليين، ثم يجدان النساء ويأتيان بهن إلى المنزل. لكنه لم يستطع أن يضاهي شهية الرجل الشاب التي لا تكل، ولدهشته، أنه لم يرغب في فعل ذلك. والآن الحلاق في كثير من الليالي هو الذي كان يرقد ويراقب طيفهما ويسمع ما يجري، وتمنّى لو أنه من أجل المسيح الرائع انتهى روب مما يفعله وأغلق فمه وخلد إلى النوم.

لم تكن هناك ثلوج على الإطلاق في ذلك العام، لكن السماء كانت تمطر بلا انقطاع، وسرعان ما أتعب الصفير والرذاذ الأذن وأرهق الروح. وفي اليوم الثالث من أسبوع الكريسماس، عاد روب إلى المنزل في حالة من الغضب.

«صاحب الحانة الملعون! لقد منعني من دخول حانة إكسماوث».

«دون سبب وجيه، أظن؟».

«بسبب الشجار»، تمتم روب، عابسًا.

قضى روب وقتًا أطول في المنزل ولكنه كان مزاجيًّا أكثر من أي وقت مضى، وكذلك كان الحلاق. لم تكن محادثتهما طويلة أو ممتعة. كان الحلاق في الغالب يعاقر الخمر، هذا كان رده المألوف على موسم الكآبة. عندما كان موسرًا، كان يقلد الوحوش في سباتها الشتوي. وعندما كان مستيقظًا، كان يرقد مثل صخرة عظيمة في السرير متدليًا، ويشعر بلحمه يجره إلى الأسفل ويستمع إلى أنفاسه كصفير يخرج من فمه. لقد ألقى نظرة قاتمة على العديد من المرضى الذين بدا تنفسهم أفضل من تنفسه.

راوده القلق من مثل هذه الأفكار، نهض من الفراش مرة واحدة في اليوم لطهي وجبة ضخمة، باحثًا عن اللحوم الدهنية لتمنحه الحماية من البرد والوساوس. وعادة ما كان يحتفظ بجانب سريره بقارورة مفتوحة وطبق من لحم الضأن المقلي مجمّد في شحومه. كان روب لا يزال يُنظف المنزل عندما كان في كامل قواه العقلية، ولكن بحلول فبراير، كانت رائحة المكان مثل عرين الثعالب.

لقد رحّبا بالربيع بشغف وفي شهر مارس قاما بتعبئة العربة وخرجا من إكسماوث، متحركين عبر سهول سالزبوري وعبر المنحدر المنخفض حيث حفر العبيد المتسخون في الحجر الجيري والطبشور لاستخراج الحديد والقصدير. لم يتوقفا في مخيمات العبيد لأنه لم يكن هناك نصف بنس يكسبانه هناك. كان يعتقد أن الحلاق يسافر عبر الحدود مع ويلز حتى شروزبري، هناك ليجد نهر ترينت ويتبعه باتجاه الشمال الشرقي. توقفا في جميع القرى والبلدات الصغيرة المأنوسة الآن. لم يشترك الحصان في عرض استعراضي من أي نوع يضاهي الحيوية التي أظهرها إنكيتاتوس، لكنه كان وسيمًا ووضعا على عرفه الكثير من الشرائط. كان العمل بشكل عام جيدًا جدًّا.

وفي قرية هوب أندر دينمور وجدا حرفيًّا يشتغل في الجلود كان بارعًا في صنعته، وقد اشترى روب غمدين من الجلد الناعم لحمل الأسلحة التي وعد بها.

وعندما وصلا إلى بليث، ذهبا على الفور إلى دكان الحدادة، حيث حيّاهما دورمان مولتون بتحية وهو قرير العين. ذهب الحرفي إلى رفّ في تجاويف قاتمة في متجره وعاد حاملًا حزمتين ملفوفتين في جلود حيوانات ناعمة.

فكّهما روب بفارغ الصبر والتقط أنفاسه.

إذا كان ذلك ممكنًا، فإن السيف العريض كان أفضل من الذي حاز إعجابهما في العام السابق. كان الخنجر مصنوعًا بنفس الدقة. وفي الوقت الذي ابتهج فيه روب بالسيف، رفع الحلاق السكين وشعر بتوازنه الرائع.

«إنه عمل رائع متقن»، قال لمولتون، الذي قبل الثناء على حقيقته.

أدخل روب كل شفرة في غمدها على حزامه، ليختبر الوزن غير المألوف. وضع يديه على مقابضهما ولم يستطع الحلاق مقاومة إبعاد ناظريه ليفحص روب.

كان لديه حضور طاغ. في الثامنة عشرة من عمره وصل أخيرًا إلى النمو الكامل وكان يفوق الحلاق في الطول مسافة شبرين. كان عريض المنكبين ونحيلًا، ولديه شعر بني مجعّد، وعينان زرقاوين نجلاوين غيّرت مزاجهما بسرعة أكبر من البحر، ووجه كبير العظم وفك مربع ظل يقشره حتى صار نظيفًا. سحب نصف السيف من غمده الذي أعلن ميلاده الحر، ثم أغمده مرة أخرى. وإبان إمعانه النظر في السيف، اجتاحت الحلاق قشعريرة فخر وخوف شديدين لم يعطها اسمًا.

ربما لم يكن من الخطأ تسميتها الخوف.

17

ترتيب جديد

في المرة الأولى التي دخل فيها روب إلى الحانة العامة مرتديًا أسلحته -كان ذلك في بيفرلي- شعر بالفرق الشاسع. لم يكن الأمر ألبتة أن الرجال أظهروا له الاحترام الجم فحسب، ولكنهم كانوا أكثر حرصًا معه، وأكثر يقظة. استمرّ الحلاق في إخباره أنه يجب أن يكون أكثر حذرًا أيضًا، لأن الغضب العنيف كان أحد الجرائم الثماني التي يعاقب عليها بالإعدام في كنيسة الأم المقدسة.

لقد سئم روب من سماع ما سيحدث إذا قام رجال مسؤول القصر الملكي بجره إلى محكمة كنسية، لكن الحلاق وصف مرارًا وتكرارًا المحاكمات عن طريق المحنة، حيث أجبر المتهمون على اختبار براءتهم عن طريق الإمساك بالحجارة الساخنة أو المعدن الأبيض الساخن، أو شرب الماء المغلي.

قال الحلاق بشدة: «الإدانة بالقتل تعني الشنق أو قطع الرأس». «في كثير من الأحيان عندما يرتكب شخص ما جريمة القتل غير العمد، تربط أحزمة جلدية تحت أوتار عقبيه، ثم تربط في ذيول الثيران البرية. ثم تصاد الثيران حتى الموت بواسطة كلاب الصيد».

اعتقد روب، بحق المسيح الرحيم، أن الحلاق أصبح سيدة مسنة تختتم حياتها بالتنهدات الخافتة. هل يعتقد أنني سأخرج وأقتتل الجماهير؟

اكتشف في بلدة فولفورد أنه فقد العملة الرومانية التي كان يحملها معه منذ أن استخرجها طاقم عمل والده من نهر التايمز. وفي أحلك أوقات

الفكاهة، كان يشرب ويسكر حتى كان من السهل أن يستفزّه اسكتلندي مصاب بالجدري يتزاحم معه بمرفقه. وبدلًا من تقديم الاعتذار، تمتم الاسكتلندي بفظاظة باللهجة الاسكتلندية.

«تحدث الإنجليزية، أيها القزم اللعين»، هذا ما قاله روب، لأن الاسكتلندي، على الرغم من بنيته القوية، كان أقصر ضعفين منه.

ربما تكون تحذيرات الحلاق قد ترسخت، لأنه كان يراوده شعور لفك حزام أسلحته. فعل الاسكتلندي نفس الحكمة في الحال، ثم انتهى الأمر فيما بينهما. وعلى الرغم من قصر الرجل الملحوظ، إلا أنها كانت مفاجأة وقحة أن تجده ماهرًا بشكل لا يصدق بيديه وقدميه. كسرت ركلته الأولى ضلعًا ثم كسرت قبضة منه أشبه بالصخرة أنف روب بصوت مزعج وألم حاد.

زمجر روب. «يا ابن العاهرة»، قال لاهثًا، واستفزه الألم والغضب حتى تفجرت قواه. كان بالكاد قادرًا على الاستمرار في القتال حتى استنفد الاسكتلندي قواه بشكل كافٍ لجعل الانسحاب المتبادل ممكنًا.

عاد وهو يعرج إلى الخيمة وكان يشعر وكأنه قد تعرض للضرب بلا رحمة على أيدي عصابة من العمالقة.

لم يكن الحلاق لطيفًا بما فيه الكفاية عندما عالج أنفه المكسور بأحد الغضاريف. لقد نظّف الخدوش والكدمات بالكحول، لكن كلماته كانت مؤلمة أكثر من الكحول.

قال: «أنت في مفترق الطرق». «لقد تعلمت صنعتنا. فأنت وقّاد الذهن وسريع البديهة ولا يوجد سبب يمنعك من الثراء، باستثناء سمو روحك الخاصة. لأنك إذا واصلت السير على طريقك الحالي، فستكون قريبًا سكيرًا ميؤوسًا منه».

قال روب بازدراء: «أيعلن ذلك شخص سيموت هو نفسه من الشراب والسكر». كان يتمتم وهو يلمس شفتيه المتورمتين النازفتين.

قال الحلاق: «أشك في أنك ستعيش طويلًا بما يكفي لتموت بسبب الشراب».

وبغض النظر عن مدى صعوبة البحث الذي قام به روب، إلا أنه لم يعثر على العملة الرومانية. الشيء الوحيد الذي بقي يربطه بطفولته هو رأس السهم الذي منحه إياه والده. كان به ثقب في حجر الصوان وكان يرتديه في حزام جلدي قصير من جلد الغزال مربوط حول عنقه.

يميل الرجال الآن إلى الابتعاد عن طريقه، لأنه بالإضافة إلى حجمه والمظهر الاحترافي لأسلحته، كان لديه أنف منفّر يجول قليلًا على وجهه في مراحل مختلفة من تغير اللون. ربما كان الحلاق غاضبًا جدًّا من أن يبذل قصارى جهده عندما حاول ضبط الأنف الذي لن يستقيم مرة أخرى.

تألم ضلعه لأسابيع كلما تنفس. روّض روب أثناء سفرهما من منطقة نورثمبريا إلى ويستمورلاند، ثم عادا مرة أخرى إلى نورثمبريا. لم يذهب إلى الحانات العامة أو الخمارات حيث كان من السهل التورط في معارك، لكنه ظل بالقرب من العربة ونار المساء. وأينما كانا يخيمان بعيدًا عن بلدة، كانا يجلبان عينات من الدواء السحري ويحسّنان مذاق الميثيجلين. ولكن في إحدى الليالي التي كان يشرب فيها بكثرة من مخزونهما، وجد نفسه على وشك فتح قارورة محفور على عنقها حرف «الباء». لقد كانت حاوية من الدفعة الخاصة من الخمور التي تحتوي على البول، وضعت للانتقام من أولئك الذين أصبحوا أعداء الحلاق. ارتجف روب وألقى القارورة بعيدًا؛ ومنذ ذلك الحين، اشتريا الخمور كلما توقفا في بلدة وقاما بتخزينها بعناية في أحد أركان العربة.

وفي مدينة نيوكاسل، لعب دور الرجل العجوز، حيث لجأ إلى لحية مستعارة أخفت كدماته. كان لديهما حشد كبير وباعا الكثير من الدواء السحري. وبعد الترفيه، جاء روب خلف العربة لنزع ثيابه التنكرية حتى يتمكّن من نصب ستاره وبدء فحوصاته؛ كان الحلاق هناك بالفعل، يتجادل مع رجل طويل ونحيل.

قال الرجل: «لقد تتبعتك من دورهام، حيث شاهدتك. حيثما تذهب، تجذب حشدًا من الناس. الحشد هو ما أحتاج إليه، وأقترح أن نسافر معًا ونتشارك جميع الأرباح».

قال الحلاق: «ليس لديك ربح».

ابتسم الرجل. «لديّ، لأن مهمتي هي العمل الشاق».

«أنت لص وقاطع طريق ونشّال، وسوف يقبض عليك يومًا ما ويدك في جيب شخص غريب وستكون هذه نهايتك. أنا لا أعمل مع اللصوص».

«ربما الخيار ليس لك».

قال روب: «الخيار له».

نادرًا ما كان الرجل يعطف عليه بنظرة واحدة. «يجب أن تكون صامتًا أيها الرجل العجوز، لئلا تجذب انتباه أولئك القادرين على إلحاق الأذى بك».

تقدّم روب خطوة نحوه. اتسعت عينا النشّال فجأة، وسحب سكينًا طويلًا ذا شفرة حادة من داخل ثيابه ولوّح به في حركة صغيرة تجاههما معًا.

يبدو أن خنجر روب الناعم غادر الغمد من تلقاء نفسه وانزلق في ذراع الرجل. لم يكن مدركًا للجهد ولكن غرز نصله بقوة، لأنه كان يشعر

بارتطامه بالعظم. ولمّا سحب النصل من الجسد، نفر الدم على الفور. اندهش روب من الدماء الغزيرة التي نفرت بسرعة من مثل هذه الذراع النحيلة لشخص ما.

تراجع النشّال بعيدًا ممسكًا بذراعه الجريحة.

قال الحلاق: «تعال. دعنا نربطها لك. لن نسبب لك المزيد من الضرر».

لكن الرجل كان يدور حول العربة وفي لحظة لاذ بالفرار.

«سيلاحظ الكثير من النزيف. إذا تصادف وجود أحد رجال مسؤول القصر الملكي في المدينة فسوف يأخذونه، وقد يقودهم إلينا». قال الحلاق: «يجب أن نبرح هذا المكان على جناح السرعة».

لقد هربا كما فعلا عندما كانا يخشيان موت المرضى، ولم يتوقفا حتى تأكدا من عدم ملاحقتهما.

أشعل روب النار واقتعد الأرض بجانبها، وهو لا يزال يرتدي زي الرجل العجوز ومتعبًا للغاية لدرجة لا يستطيع تبديل ملابسه، ويأكل اللفت البارد المتبقي من طعام الأمس.

قال الحلاق باشمئزاز: «كنا اثنين. كان من الممكن أن نتخلص منه».

«لقد احتاج إلى تلقين درس».

جلس الحلاق قبالته وجهًا لوجه. قال: «استمع إليّ، لقد أصبحت مصدر خطر».

ثار روب على الظلم، لأنه عمل ذلك لحماية الحلاق. شعر بغضب جديد يحتدم في أعماقه، واستياء قديم. «لم تخاطر أبدًا بأي شيء لأجلي. أنت لم تعد توفر أموالنا – لكنّي أنا أفعل. أكسب من أجلك أكثر مما كان يمكن

أن يجمعه ذلك اللص بأصابعه النشّالة».

قال الحلاق في تعب: «خطر وعبء»، ثم استدار.

وصلا إلى أقصى الجزء الشمالي من طريقهما وتوقفا في القرى الحدودية الصغيرة حيث لم يعرف السكان حقًّا ما إذا كانا إنجليزيين أم اسكتلنديين. وعندما كان هو والحلاق يتلاعبان بالكرات أمام الجمهور، كانا يتدافعان ويعملان في تناغم واضح، لكن عندما لم يكونا على الدكة، يجلسان في صمت بارد. وإذا حاولا بدء محادثة، سرعان ما تتحول إلى مشاجرة.

انصرم اليوم الذي تجرأ فيه الحلاق على رفع يده على روب، ولكن عندما كان مخمورًا كان لا يزال لديه لسان سليط ومسيء لا يعرف الحذر.

وفي إحدى الليالي في لانكستر، وهما يخيمان بالقرب من بركة ينطلق منها الضباب الملون بضوء القمر مثل سحابة الدخان الباهت، ابتليا بجيش من الحشرات الصغيرة الشبيهة بالذباب واضطرًا إلى اللجوء إلى الشرب.

«كانا دائمًا أحمقَين سكيرَين. سيدي الشاب الفأر الصغير».

تنهّد روب.

«أخذت يتيمًا أحمق... صنعته...

سيكون أقل من لا شيء من دوني».

قرر روب ذات يوم قريبًا أنه سيبدأ في ممارسة جراحة الحلاقة بمفرده؛ لقد انصرم وقت طويل على التوصل إلى استنتاج مفاده أن طريقه يجب أن ينفصل عن طريق الحلاق.

وجد تاجرًا لديه محل للنبيذ الحامض وابتاع منه كميات كبيرة: الآن

حاول أن يشرب ليبدد الصوت الصامت. لكنه استمر.

«... متبلد وبطيء الاستيعاب. كيف عملت لتعليمه التلاعب بالكرات!».

وسرعان ما زحف روب إلى العربة لإعادة ملء كأسه ولكن تبعه صوت مخيف.

«أحضر لي كأسي المفضل».

أحضره لنفسك البائسة، كان على وشك الرد.

وبدلًا من ذلك، استولت عليه فكرة لا سبيل إلى مقاومتها، وتسلل إلى المكان الذي احتفظ فيه بأباريق الدواء السحري.

أخذ واحدًا وأمسكه في مواجهة عينيه حتى رأى آثار الخدش التي حددت ماهيتها. ثم تسلل من العربة، وفتح سدادة قنينة الصلصال، وسلمها للرجل السمين يدًا بيد.

شرير، فكّر بطريقة مرعبة. ومع ذلك، لم يكن الأمر أكثر سوءًا من قيام الحلاق بإعطاء الدواء السحري إلى الكثيرين على مر السنين.

شاهد بذهول الحلاق وهو يأخذ الإبريق، ويميل رأسه إلى الوراء، ويفغر فمه، ويرفع الشراب إلى شفتيه.

كان هناك وقت حتى الآن لتخليص نفسه. كاد يسمع صوته وهو ينادي على الحلاق حتى ينتظر. كان يقول الزجاجة بها شفة مكسورة واستبدلها بسهولة بزجاجة غير موسومة من الميثيجلين.

ولكنه التزم الصمت.

دخل عنق الزجاجة إلى فم الحلاق.

ابتلع الشراب، حثه روب بشدة.

وانتفخ العنق الممتلئ عندما ارتشف الحلاق الشراب. ثم، رمى القارورة الفارغة، وعاد إلى النوم.

لماذا لم يشعر بالبهجة؟ خلال ليلة طويلة بلا نوم فكر في الأمر.

عندما يكون الحلاق حصيفًا، يمكن أن يكون رجلين؛ أحدهما لطيف وله قلب مرح، والآخر شخص منحط لم يتردد في توزيع الدواء السحري. وعندما يكون مخمورًا لم يكن هناك شك، يظهر الشخص المنحط.

رأى روب بوضوح مفاجئ، أشبه برمح من الضوء عبر سماء مظلمة، أنه كان يحول نفسه إلى الحلاق المنحط. ارتجف، وزحف الخراب عليه وهو يقترب من النار.

وفي صباح اليوم التالي، نهض مع أول شعاع ضوء ووجد الزجاجة الملقاة المعلّمة وأخفاها في الأدغال. ثم أشعل النار من جديد، وبحلول الوقت الذي كان يقلب فيه الحلاق الطعام، كان في انتظاره إفطار شهي.

قال روب عندما أكل الحلاق: «لم أكن رجلًا مناسبًا». تردّد ثم أجبر نفسه على الاستمرار. «أسألك العفو والغفران».

أومأ الحلاق مندهشًا في صمت.

ألجما الحصان وركبا دون التحدث حتى منتصف الصباح، وفي بعض الأحيان كان روب يلاحظ عيني الرجل الآخر المتسغرق في التفكير ترمقه.

قال الحلاق أخيرًا: «لقد فكرت في الأمر مليًّا. الموسم المقبل يجب أن تخرج بصفتك جراحًا حلاقًا من دوني».

اعترض روب، وشعر بالذنب لأنه قبل يوم واحد فقط توصل إلى نفس

النتيجة. «إنه المشروب اللعين. المادة تحول كل واحد منا بقسوة. يجب أن نتخلى عن هذا وسنواصل العمل كما كان من قبل».

بدا الحلاق وكأنه يتحرك لكنه هزّ رأسه. «إنه المشروب نسبيًا، ونسبيًّا هو أنك شاب في حاجة إلى تجربة حظه وأنا عجوز». وقال في ضجر: «وعلاوة على ذلك، ولأنني عجوز، فأنا ضخم للغاية ومنقطع الأنفاس. يتطلب الأمر مني كل قوتي لمجرد صعود الدكة، وفي كل يوم يكون من الصعب بالنسبة لي تقديم عروض التسلية والترفيه. سأكون سعيدًا للبقاء في إكسماوث إلى الأبد، للاستمتاع بالصيف الهادئ وأعتني بحديقة الخضراوات، كي تقول كلامًا فارغًا عن الملذات التي سأكتسبها من مطبخي. أثناء ذهابك يمكنني أن أقوم بتخزين الكثير من الدواء السحري. أيضًا، سأدفع مقابل صيانة العربة والحصان حتى الآن. يجب أن تحتفظ لنفسك بالعائد من كل مريض تقوم بعلاجه، وكذلك من كل زجاجة خامسة من الدواء السحري تباع في السنة الأولى وكل زجاجة رابعة تباع كل عام بعد ذلك».

قال روب تلقائيًا: «كل زجاجة ثالثة في السنة الأولى. وكل زجاجة ثانية بعد ذلك».

قال الحلاق محتدًّا: «هذا مبالغ فيه لشاب يبلغ من العمر تسعة عشر عامًا». التمعت عيناه. قال: «دعنا نفكر في الأمر معًا، لأننا رجال عقلاء».

وفي النهاية اتفقا على الدخل من كل زجاجة رابعة خلال السنة الأولى، وعلى الدخل من كل زجاجة ثالثة في السنوات التالية. وستكون الاتفاقية سارية المفعول لمدة خمس سنوات، وبعد ذلك سيجري تقييمها.

كان الحلاق مبتهجًا ولم يصدق روب ثروته الجيدة، لأن أرباحه ستكون رائعة لشخص في مثل عمره. سافرا جنوبًا عبر نورثمبريا بروح معنوية في أعلى مستوياتها وتجديد الشعور الجيد والرفقة الجيدة. وفي ليدز، قضيا

عدة ساعات بعد عملهما في التسوق: ابتاع الحلاق الكثير من الأغراض وأعلن أنه يجب عليه إعداد عشاء مناسب للاحتفال بهذا الترتيب الجديد.

لقد تركا ليدز على طول مسار منخفض بجانب نهر إير، لأميال من الأشجار القديمة السامقة التي تنتصب فوق غابات خضراء وبساتين ملتوية ومنفسحات غابية مزدهرة. لقد خيما في وقت مبكر بين أحواض من أشجار الحور الرومي والصفصاف حيثما اتسع النهر، وساعد لساعات الحلاق في صنع شطيرة لحم رائعة. وضع الحلاق في الشطيرة اللحم المفروم والمزوج من ساق غزال اليحمور وخاصرة من لحم العجل، وديكًا مخصيًّا سمينًا وزوجًا من الحمام، وست بيضات مسلوقة ونصف رطل من الدهن، وغطى المزيج بطبقة من العجين كانت سميكة وهشة وزيت دبق.

لقد أكلاها حتى التخمة، ولم يناسب الحلاق أي شيء سوى البدء بشرب الميثيجلين عندما زادت الشطيرة عطشه. وهو يتذكر عهده الأخير، شرب روب الماء ورأى احمرار وجه الحلاق وجحوظ عينيه بشكل عابس.

وفي الوقت الحاضر، طلب الحلاق من روب أن يحمل صندوقين من القوارير من العربة ويضعهما بالقرب منه، حتى يتمكن من مساعدة نفسه متى شاء. فعل روب ذلك وشاهده بقلق في حين أن الحلاق كان يشرب. وسرعان ما بدأ الحلاق في الحديث بشكل غير مألوف عن شروط اتفاقهما، ولكن قبل أن تسوء الأمور، تغشّاه النعاس وغط في نوم مفاجئ.

وفي الصباح المشرق والمشمس الذي صدحت فيه الطيور، كان الحلاق شاحبًا ومضطربًا. لا يبدو أنه يتذكر سلوكه المتغطرس في الأمسية السابقة.

قال: «دعنا نطارد سمك السلمون المرقط. يمكنني أن أكون في أحسن

حال مع وجبة فطور من السمك المقرمش ونسمة الهواء العليل تهب من نهر إير». ولكن عندما نهض من سريره اشتكى من ألم في كتفه الأيسر. قرر قائلًا: «سوف أحمل العربة، لأن الحركة غالبًا ما تعمل على تزليق المفصل الذي يؤلمني».

حمل أحد صناديق الميثيجلين عائدًا إلى العربة، ثم عاد وأخذ الآخر. وفي منتصف الطريق إلى العربة أسقط الصندوق بخبطة ودبدبة. تسللت نظرة محيرة إلى وجهه.

وضع يده على صدره متجهمًا. رأى روب أن الألم تسبب في انحناء كتفيه. قال بأدب جم: «روبرت». كانت هذه هي المرة الأولى التي يسمع فيها روب الحلاق ينطق باسمه الحقيقي.

خطا خطوة واحدة نحو روب، ودفع كلتا يديه.

لكن قبل أن يصل إليه روب انقطعت أنفاسه. مثل شجرة كبيرة -لا، مثل انهيار جليدي، مثل موت جبل- فقد الحلاق توازنه وسقط، وارتطم جسمه بالأرض.

18

فليرقد بسلام

«لم أعرفه».

«كان صديقي».

قال الكاهن بصرامة: «لم أرَك قط».

«هل تراني الآن». أفرغ روب متاعهما من العربة وأخفاه خلف أجمة الصفصاف، من أجل إفساح المجال لجسد الحلاق. كان قد قطع ست ساعات للوصول إلى قرية آير كروس الصغيرة بكنيستها العتيقة. والآن هذا رجل الدين ذو العينين الخسيستين يسأل أسئلة مريبة وعابرة، كما لو أن الحلاق قد تظاهر بالموت، فقط من أجل إزعاجه.

زمجر الكاهن في رفض صريح عندما كشف تحقيقه عما كان يفعله الحلاق في الحياة. «طبيب أو جراح أو حلاق، كل هؤلاء يستهزئون بالحقيقة الجلية القائلة بأن الثالوث والقديسين فقط هم من يملكون القوة الحقيقية للشفاء».

كان روب مثقلًا بمشاعر قوية ولم يكن على استعداد للاستماع إلى مثل هذه الأصوات. كفى، زمجر في صمت. كان واعيًا بالأسلحة المربوطة على حزامه، لكن كان الأمر كما لو أن الحلاق نصحه بالتسامح. تحدّث بهدوء وفي حبور إلى الكاهن وقدم مساهمة كبيرة للكنيسة.

أخيرًا تنشق الكاهن. «حظر رئيس الأساقفة وولفستان على الكهنة إغواء أبناء أبرشية كاهن آخر مقابل العشار والمكوس».

قال روب: «لم يكن من أبناء أبرشية كاهن آخر». وفي النهاية جرى ترتيب الدفن في أرض مقدسة.

كان من حسن الحظ أنه أخذ معه كيس نقود كاملًا. لا يمكن تأجيل الأمر، لأن رائحة الموت كانت عابقة بالفعل. دهش نجار القرية عندما رأى حجم الصندوق الذي يجب أن يصنعه. كان يجب أن يكون القبر واسعًا في المقابل، وحفره روب بنفسه في ركن من أركان باحة الكنيسة.

كان روب يعتقد أن قرية آير كروس سميت بهذا الاسم لأنها كانت تتميز بوجود معبر ضحل على نهر آير، إلا أن الكاهن قال إن القرية الصغيرة كانت تسمى بها الاسم بعد وضع صليب كبير من خشب البلوط المصقول داخل الكنيسة. وأمام المذبح عند سفح هذا الصليب الضخم، وضع تابوت الحلاق المنثور عليه الروزماري. وبالصدفة كان اليوم عيد القديس كاليستوس، لذا كانت الكنيسة تعج بالحاضرين. وعندما تليت صلوات ودعوات الرحمة، امتلأ المزار الصغير تقريبًا.

وهتفوا قائلين: «يا رب أنزل رحمتك، أيها المسيح، الرحمة». لم يكن هناك سوى نافذتين صغيرتين. ورغم أن البخور كان يقاوم الرائحة الكريهة، إلا أنه تسلّل بعض الهواء عبر جدران الأشجار المتصدعة والسقف المصنوع من القش، مما تسبب في ارتعاش الأضواء في تجاويفها. ناضلت ست شمعات موقدة ضد العتمة والقتامة في دائرة حول النعش. كل شيء كان مسجى بالقماش الأبيض ما عدا وجه الحلاق. كان روب قد أغلق عينيه وبدا نائمًا، أو ربما كان مخمورًا جدًّا.

«هل كان أبًا لك؟» همست امرأة عجوز. تردّد روب، ثم بدا أنه من الأسهل أن يجيب بإيماءة. تنهّدت وربّتت على ذراعه.

لقد دفع ثمن قدّاس الموتى شارك فيه الحضور متأثرين بالوقار

والمهابة، ورأى بارتياح أن الحلاق لم يكن ليحضر أفضل من ذلك القدّاس لو كان ينتمي إلى نقابة، ولم تُتلَ له هذه الصلوات باحترام حتى ولو كان ينتمي إلى طبقة الملوك.

وعندما انتهى القدّاس وانصرف الحضور، اقترب روب من المذبح. ركع أربع مرات ووضع الصليب على صدره كما علّمته أمه منذ زمن بعيد، وانحنى إلى الآب والابن والسيدة العذراء، وأخيرًا للرسل وجميع الأرواح المقدسة.

ذهب الكاهن حول الكنيسة وأطفأ الأنوار بسرعة، ثم تركه في حداد عند النعش.

غادر روب دون أن يأكل أو يشرب، لكنه ظل راكعًا، على ما يبدو معلقًا بين ضوء الشموع الراقص والظلام الكثيف.

مرّ الوقت دون أن يدري.

أصابته الدهشة عندما قرعت الأجراس لتعلن صلوات الصبح، ونهض لينزل في الممر على ساقيه المثقلتين.

قال الكاهن ببرود: «قم بأداء التحية الموقرة»، وفعل ذلك.

وفي الخارج، سار على الطريق. وتحت شجرة بال، ثم عاد وغسل يديه ووجهه من الدلو عند الباب في الوقت الذي أكمل القس فيه مسؤوليات منتصف الليل داخل الكنيسة.

وفي وقت ما بعد أن ذهب الكاهن بعيدًا للمرة الثانية، انصهرت الشموع تاركة روب وحده في الظلام مع الحلاق.

والآن سمح لنفسه بالتفكير كيف أنقذه الرجل عندما كان صبيًا في لندن. كان يتذكّر الحلاق عندما كان لطيفًا وعندما لم يكن كذلك؛

وحبوره الشديد في تحضير الطعام وتقاسمه وأنانيته؛ وصبره في إعطاء التعليمات ووحشيته؛ وشبقه، ونصيحته الرصينة؛ ضحكته وهياجه؛ وروحه الدافئة وسكره.

عرف روب أن ما كان بينهما لم يكن حبًّا. ومع ذلك، فقد كان شيئًا يحل محل الحب بشكل كافٍ، ونظرًا لأن ضوء الصباح طمس الوجه الشاحب، فقد بكى روب جيه بمرارة، دون أن يكترث لهنري كروفت.

دفن الحلاق بعد طقوس الثناء والمديح. لم يقض الكاهن وقتًا طويلًا عند القبر. قال لروب: «يمكنك ردمه». ولما كان الحجر والحصى يهتزان على الغطاء، سمعه روب يتمتم باللاتينية، شيئًا عن الأمل المؤكد للقيامة.

فعل روب ما كان سيفعله للعائلة. متذكرًا قبوره المفقودة، ودفع للكاهن ليأمر بنحت حجر وحدد كيفية تمييزه.

هنري كروفت

حلّاق جرّاح.

المتوفى في 11 يوليو عام 1030 م.

«فلربما يرقد في سلام، أو بعض من هذا القبيل؟» قال الكاهن.

المرثية الوحيدة الحقيقية للحلاق التي جاءت إليه كانت «اغتنم اليوم»، «استمتع باليوم». ولكن، بطريقة أو بأخرى...

ثم ابتسم.

انزعج الكاهن عندما سمع هذا المقتطف. إلا أن الشاب الغريب الأغر كان يدفع ثمن الحجر وأصرّ على ذلك، لذلك كتبه رجل الدين بعناية فائقة.

بعت الوهم. «بعت السمك في الماء».

وعقب مشاهدة هذا الكاهن المتحفظ وهو يفرغ أرباحه والرضا يملأ محيّاه، أدرك روب أنه لن يكون رائعًا إذا لم يرفع أي حجر إلى جراح حلاق ميت. ومع ذلك لم يكن أحد في قرية آير كروس ليهتم بالأمر.

«سأعود يومًا ما قريبًا لأرى أن كل شيء كما يرضيني».

كانت عينا الكاهن مسجاة بالوشاح. «فليكن معك الرب»، قال باقتضاب، وعاد إلى الكنيسة.

وبجسم أنهكه التعب الشديد وبطن يقرقر جوعًا، قاد روب الحصان إلى حيث ترك أغراضه في أجمة الصفصاف.

لم ينزعج شيء. عندما أعاد تحميل كل شيء إلى العربة، جلس على العشب وأكل. كان ما تبقى من شطيرة اللحم الفاسدة، لكنه مضغ وابتلع رغيفًا قديمًا كان الحلاق قد خبزه قبل أربعة أيام.

خطر له أنه الوريث. كان حصانه وكانت عربته. لقد ورث الآلات والتقنيات، وبطاطين الفراء الرديئة، وكرات ألعاب الخفة، والخدع السحرية، والانبهار والدخان، والقرارات بشأن المكان الذي يتوجه إليه غدًا وبعد غد.

أول شيء فعله هو إزالة قوارير الدواء السحري ورماها على صخرة، وحطّمها واحدة تلو الأخرى.

سوف يبيع أسلحة الحلاق؛ كانت أسلحته هي الأفضل. ولكنه علّق القرن السكسوني حتى تدلى حول رقبته.

صعد إلى المقعد الأمامي للعربة وجلس هناك، مهيب الركن ومنتصب القامة، كما لو كان يجلس على عرش.

ربما كان يعتقد أنه سيتفقد المكان حوله ويحصل على صبيّ.

19

امرأة في الطريق

كان سيقول الحلاق: إنه سافر كما اعتادا أن يفعلا دائمًا، «يقوم بجولة في عالم الأبرياء». ففي الأيام الأولى لم يستطع إجبار نفسه على تفريغ العربة أو تقديم عرض التسلية والترفيه. وفي لينكولن، اشترى لنفسه وجبة ساخنة من الحانة العامة لكنه لم يطبخ، وكان يتغذى في الغالب على الخبز والجبن الذي يصنعه الآخرون. لم يحتس الخمر على الإطلاق. وفي المساء، جلس بجوار نار المخيم واجتاحته العزلة المخيفة.

كان ينتظر حدوث شيء ما. ولكن لم يحدث شيء، وبعد قليل أدرك أنه سيتعين عليه أن يعيش حياته.

وفي ستافورد قرر العودة إلى العمل. رفعت المهرة أذنيها وقفزت، في حين أنه كان يقرع الطبل وأعلن عن وجودهما في ساحة المدينة.

كان الأمر كما لو كان يعمل دائمًا بمفرده. الناس الذين تجمعوا لم يعرفوا أنه كان يجب أن يكون هناك رجل أكبر سنًّا ليعطي إشارة بالوقت الذي يجب أن يبدأ فيه أو يوقف التلاعب بالكرات ويروي أفضل الحكايات. اجتمعوا واستمعوا وضحكوا، وشاهدوا وهم مأسورون وهو يرسم صورًا مطابقة، واشتروا مشروباته الكحولية، وانتظروا في الصف للخضوع للفحص والحصول على العلاج خلف الستار. وعندما أمسك روب بأيديهم اكتشف أن القريحة عادت إليه. حداد قوي البنية بدا وكأنه قادر على رفع العالم كان لديه شيء بداخله يستهلك حياته، ولن يدوم طويلًا. الفتاة النحيفة التي قد يشير مظهرها الشاحب إلى إصابتها

بالمرض لديها مخزون من القوة والحيوية التي ملأت روب بالفرح عندما شعر بها. ربما، كما أعلن الحلاق، قد حجبت القريحة بالشراب وتحررت بالامتناع عن شرب الكحول. مهما كان سبب عودتها، فقد وجد نفسه مفعمًا بالإثارة والاشتياق إلى الإمساك بزوج الأيدي التاليين.

غادر ستافورد بعد ظهر ذلك اليوم، وتوقف في مزرعة لشراء لحم الخنزير المقدد ورأى حظيرة صائدي الفئران تعج بمجموعة من القطط الصغيرة. قال له المزارع وهو يحدوه الأمل: «اختر الأفضل. سأضطر لإغراق معظمهم، لأنهم جميعًا يستهلكون الطعام».

لعب روب معهم، وقد أرخى قطعة من الحبل أمام أنوفهم، وكانت كل واحدة منهم ساحرة باستثناء قطة بيضاء صغيرة مزعجة ظلت جامحة ومتغطرسة.

«ألا تتمنى أن تأتي معي، أليس كذلك؟» كانت القطة هادئة ويبدو أنها الأفضل، لكن عندما حاول إمساكها خدشته في يده.

الغريب أن هذا جعله أكثر تصميمًا على أخذها. همس لها بهدوء، وكان انتصارًا عندما تمكن من حملها وتمليس فروها بأصابعه.

قال: «هذا سيفي بالغرض»، وشكر المزارع. وفي صباح اليوم التالي طها وجبة الإفطار الخاصة به وأطعم القطة الخبز المنقوع في الحليب. وعندما حدّق في عينيها الخضراوين، تعرف على وقاحة القطط، وابتسم. قال لها: «سأسميك على اسم مسيز بافينجتون».

ربما كان إطعامها هو السحر الضروري في حد ذاته. وفي غضون ساعات كانت تخرخر له، مستلقية في حجره عندما كان جالسًا في مقعد العربة.

وفي منتصف الصباح، وضع القطة جانبًا عندما كان يقود عربته حول منحنى في تيتينهول، وصادف رجلًا يقف بجانب امرأة في الطريق. «ما الذي يؤلمها؟» فنادى وسحب الحصان على عجل. رأى أنها كانت تتنفس؛ وعلامات الإجهاد بادية على وجهها وكان لها بطن ضخم.

قال الرجل: «حان موعد ولادتها».

وفي البستان خلفه، رأى نصف دزينة من السلال مترعة بالتفاح. كان الرجل يرتدي الأسمال البالية ولم يبدُ بمظهر الرجل الذي يمتلك ممتلكات ذات قيمة. خمّن روب أنه فلاح، يعمل بلا شك على قطعة أرض كبيرة لمالك أطيان مقابل قطعة أرض زراعية صغيرة يمكنه العمل فيها لأجل عائلته.

«كنا نقطف الفاكهة الناضجة عندما داهمها الألم. بدأت في العودة إلى المنزل ولكن سرعان ما زادت حدة الألم. لا توجد قابلة هنا، لأن المرأة القابلة وافتها المنية هذا الربيع. لقد أرسلت صبيًّا يركض لإحضار الطبيب عندما بدا جليًّا أنها في مكان صعب».

«حسنًا، إذًا»، قال روب، وأخذ زمام الأمور. كان مستعدًّا للمضي قدمًا لأنه كان بالضبط نوعًا من المواقف التي علمه الحلّاق أن يتجنبها؛ إذا كان بإمكانه مساعدة المرأة، فسوف يحصل على مبلغ ضئيل، ولكن إذا لم يستطع، فقد يلام على ما حدث.

قال الرجل بمرارة: «لقد مرّ الوقت وأكثر وأكثر الآن»

«وما زال الطبيب لا يأتي. إنه طبيب يهودي».

حتى عندما كان الرجل يتحدث، رأى روب زوجة الرجل وقد رأرأت بعينيها عندما أصيبت بنوبة من التشنجات.

من واقع ما أخبره الحلاق عن الأطباء اليهود، اعتقد روب أنه من المحتمل ألا يأتي الطبيب على الإطلاق. لقد وقع في شرك البؤس الذي لا يحتمل الذي ملأ عيني الفلاح والذكريات التي كان يود نسيانها.

تنهّد ونزل من العربة.

جثا على المرأة التي كانت متشحة بثياب رثة وممزقة وأمسك يديها. «متى كانت آخر مرة شعرت فيها بحركة الطفل؟».

«كانت تلك المرة منذ أسابيع. لمدة أسبوعين كانت تشعر بالضيق، كما لو كانت مسمومة». قال إنها مرت بأربع حالات حمل سابقة. كان هناك صبيان في المنزل لكن الطفلين الأخيرين لم يولدا بعد.

شعر روب أن هذا الطفل فارق الحياة أيضًا. وضع يده برفق على البطن المنتفخ وتمنّى بصدق أن يغادر، إلا أنه تراءى له في ذهنه وجه أمه الأبيض عندما كانت مستلقية على أرضية إسطبل قذر، وانسربت إلى عقله معرفة مزعجة بأن المرأة سوف تفارق الحياة بسرعة ما لم يتصرف.

وفي الأدوات المبعثرة في عدة الحلاق، وجد منظارًا معدنيًا مصقولًا، إلا أنه لم يستخدمه كمرآة.

وعندما توقفت نوبة التشنج، ثبّت ساقيها ووسّع عنق الرحم بالأداة كما وصف الحلاق استخدامها. الكتلة التي بداخلها انزلقت إلى الخارج بسهولة، تعفن أكثر من كونه طفلًا. وبالكاد أدرك أن زوجها كان يلتقط أنفاسه بحدة ويبتعد.

أخبرت يداه رأسه بما يجب فعله، بدلًا من العكس.

أخرج المشيمة وطهّرها وغسلها. وعندما نظر إلى الأعلى، ولدهشته رأى أن الطبيب اليهودي قد وصل.

قال: «سوف ترغب في تولي زمام الأمور». شعر بارتياح كبير، لأنه كان هناك نزيف مستمر.

قال الطبيب: «لا داعي للعجلة». إلا أنه استمع إلى تنفسها اللاهث وفحصها ببطء شديد ودقة متناهية لدرجة أن افتقاره إلى الثقة في روب كان جليًّا للعيان.

وفي النهاية اكتسى وجه اليهودي بالرضا. «ضع راحة يدك على بطنها وافرك بقوة، هكذا».

دلّك روب بطنها الفارغ، متسائلًا. وأخيرًا، من خلال البطن، استطاع أن يشعر بالرحم الإسفنجي الكبير الذي عاد إلى طبيعته في شكل كرة صلبة صغيرة، وتوقف النزيف.

قال: «سحر يستحق ميرلين وخدعة سأتذكرها».

قال الطبيب اليهودي بهدوء: «ليس ثمة سحر في ما نفعله. أنت تعرف اسمي».

«التقينا قبل بضع سنوات. في ليستر».

ألقى بنيامين ميرلين نظرة على العربة المبهرجة ثم ابتسم. «آه. كنت صبيًّا، المتدرب. كان الحلاق رجلًا سمينًا يستخرج شرائط ملونة».

«نعم».

لم يخبره روب أن الحلاق قد فارق الحياة، ولم يستفسر بشأنه ميرلين. فحصا بعضهما بعضًا. كان وجه الصقر اليهودي لا يزال محاطًا برأس كامل مغطى بالشعر الأبيض ولحيته البيضاء، لكنه لم يكن نحيفًا كما كان.

«الموظف الذي تحدثت معه، في ذلك اليوم في ليستر. هل عالجت عينيه؟».

«الموظف؟» بدا ميرلين في حيرة من أمره ثم تلاشى تحديقه. «نعم! إنه إدجار ثورب من قرية لوكتبورن في ليسترشاير».

إذا كان روب قد سمع عن إدجار ثورب، فقد نسي. أدرك أنه كان ثمة فرق بينهما؛ في كثير من الأحيان لم يعرف أسماء مرضاه.

«لقد أجريت له عملية جراحية وأزلت إعتام عدسة العين».

«واليوم؟ هل هو بخير؟».

ابتسم ميرلين بحزن. «لا يمكن استعادة صحة السيد ثورب بشكل جيد، لأنه يتقدّم في السن ويعاني من أمراض وشكاوى. لكنه يرى بعينيه».

أخفى روب الجنين الميت في قطعة قماش بالية. فكّها ميرلين وفحص الجنين الميت، ثم رشّ عليه الماء من قارورة. قال اليهودي بخفة: «أعمدك باسم الآب والابن والروح القدس»، ثم أعاد لف الصرة الصغيرة وحملها إلى الفلاح. قال: «لقد عمّدت الطفل بشكل صحيح»، ولا شك أنه سيسمح له بدخول ملكوت السموات. يجب أن تخبر الأب إستيجاند أو أي كاهن آخر في الكنيسة».

أخرج الفلاح كيس نقود متسخًا، وامتزج البؤس الذي لا يحتمل على وجهه بالجزع. «ماذا أدفع يا سيدي الطبيب؟».

قال ميرلين: «ادفع قدر استطاعتك»، وأخذ الرجل بنسًا من كيس النقود وأعطاه إياه.

«هل كان طفلًا ذكرًا؟».

قال الطبيب بلطف: «لا يستطيع المرء أن يعرف». ألقى العملة في الجيب

الكبير لمعطفه وتحسس بيده حتى عثر على نصف بنس، وهو ما أعطاه لروب. كان عليهما أن يساعدا الفلاح في حمل زوجته إلى المنزل، وهو عمل شاق يستحق المشاركة.

وعندما انتهيا أخيرًا، ذهبا إلى جدول قريب وشطفا أيديهما من الدم.

«هل شاهدت عمليات ولادة مماثلة؟».

«لا».

«كيف عرفت ماذا تفعل؟».

هزّ روب كتفيه. «لقد وصفت لي».

«يقولون إن البعض يولدون أطباء. المختارون». ابتسم اليهودي له. قال: «بالطبع، الآخرون بإيجاز محظوظون».

تدقيق الرجل جعله غير مرتاح. قال روب: «إذا كانت الأم ميتة والطفل على قيد الحياة...»، مجبرًا نفسه على التساؤل.

«عملية قيصرية».

حدّق روب.

«أنت لا تعرف ما أتحدث بشأنه؟».

«لا».

«يجب إحداث قطع في البطن وجدار الرحم وإخراج الطفل».

«فتح الأم؟».

«نعم».

«هل فعلت هذا؟».

«عدة مرات. ولمّا كنت طالبًا أدرس الطب رأيت أحد أساتذتي يفتح امرأة حية لإخراج طفلها».

كذّاب! فكّر، وهو يخجل من الاستماع بفارغ الصبر.

لقد تذكّر ما قاله الحلاق عن هذا الرجل وكل من على شاكلته. «ماذا حدث؟».

«لقد ماتت، لكنها كانت ستموت على أيّ حال. أنا لا أوافق على فتح نساء أحياء، لكن قيل لي عن رجال فعلوا ذلك مع أمهات وأطفال باقين على قيد الحياة».

استدار روب بعيدًا قبل أن يضحك عليه هذا الرجل الناطق بالفرنسية على أنه أحمق. لكنه رجع خطوتين فحسب عندما اضطر إلى العودة.

«أين تقطع؟».

وفي غبار الطريق، سحب اليهودي جذعًا وأظهر شقين، أحدهما خط طويل مستقيم على الجانب الأيسر والآخر أعلى منتصف البطن. قال: «أيّ منهما»، وألقى بالعصا بعيدًا.

أومأ روب برأسه وذهب بعيدًا، وهو عاجز عن شكره.

20

قبعات على الطاولة

لقد انتقل من تيتينهول على الفور لكن شيئًا ما كان يحدث له بالفعل.

كان الدواء السحري ينفد لديه وفي اليوم التالي اشترى برميلًا صغيرًا من الخمور من مزارع، وتوقف مؤقتًا لخلط دفعة جديدة من الدواء السحري الذي بدأ بعد ظهر ذلك اليوم في التخلص منه بنفسه في لودلو. بيع الدواء السحري كما كان يباع دائمًا، لكنه كان مشغول البال وخائفًا بعض الشيء.

لتحمل روحًا بشرية في راحة يدك مثل الحصاة. لتشعر بأن روح شخص ما تتسلل من بيننا، ورغم أفعالك لإعادتها! وحتى الملك نفسه ليس لديه مثل هذه القوة.

المختارون.

هل يمكنه تعلم المزيد؟ وما مقدار ما يمكن تعلمه؟ سأل نفسه ماذا يجب أن يكون عليه الحال ليتعلم كل ما يمكن تعليمه؟

ولأول مرة أدرك في نفسه رغبة في أن يصبح طبيبًا.

حقًا لتكون قادرًا على محاربة الموت! كانت لديه أفكار جديدة ومقلقة كانت تحدث في بعض الأحيان نشوة الطرب وفي أوقات أخرى تكاد تكون معاناة.

ففي صباح اليوم التالي انطلق إلى ورسيستر، المدينة التالية إلى الجنوب

على طول نهر سيفيرن. لم يتذكر رؤية النهر أو الطريق، أو يتذكر قيادة الحصان، أو يتذكر أي شيء آخر من الرحلة. عندما وصل إلى ورسيستر، أصابت سكان المدينة دهشة وهم يشاهدون العربة الحمراء؛ توغلت في الميدان، واستدارت دورة كاملة دون توقف، ثم غادرت المدينة وعادت في الاتجاه الذي أتت منه.

لم تكن قرية لوكتبورن في ليسيسترشاير كبيرة بما يكفي لدعم حانة، ولكن موسم القش كان على قدم وساق وعندما توقف عند أحد المروج حيث كان أربعة رجال يستخدمون المناجل، توقف القاطع في المساحة الأقرب من الطريق عن تأرجحه الإيقاعي لفترة كافية ليخبره كيف يصل إلى منزل إدجار ثورب.

وجد روب الرجل العجوز جاثيًا على يديه وركبتيه في حديقته الصغيرة وهو يحصد الكراث. لقد أدرك على الفور، بشعور غريب من الإثارة، أن ثورب كان قادرًا على رؤيته. لكنه كان يعاني بشدة من مرض الروماتويد، وعلى الرغم من أن روب ساعده على استعادة قدميه وسط الآهات وعلامات التعجب المؤلمة، فقد مرّت لحظات قليلة قبل أن يتمكنا من التحدّث بهدوء.

أحضر روب عدة زجاجات من الدواء السحري من العربة وفتح واحدة، مما أسعد مضيفه كثيرًا.

«أنا هنا للاستفسار عن العملية التي أعادت لك بصرك، يا سيد ثورب».

«حقًا؟ وما هي مصلحتك؟».

تردّد روب. «لدي قريب من أقاربي في حاجة إلى مثل هذا العلاج، واستفسر نيابة عنه».

ابتلع ثورب جرعة من المشروب الكحولي ثم تنهّد. قال: «آمل أن يكون رجلًا قويًّا يملك شجاعة كبيرة». «كنت مقيد اليدين والقدمين على كرسي». أحدثت الأربطة المؤلمة قطعًا في رأسي، وهي مثبتة في ظهري من أعلى. لقد تغذيت على الكثير من الماء المقدس وكنت على وشك أن أكون كالمغمى عليه من الشراب، ولكن بعد ذلك وضعوا خطافات صغيرة تحت جفني العين ورفعها المساعدون حتى لا أستطيع أن أطرف بصري».

أغمض عينيه وارتجف. ومن الواضح أن الحكاية قد رويت عدة مرات، لأن التفاصيل كانت ثابتة في ذاكرته ومتصلة في السرد دون تلعثم، إلا أن روب وجدها لا تقل روعة عن هذا.

«كان ذلك هو بلائي لدرجة أنني لم أتمكن إلا من رؤية ما كان أمامي مباشرة بطريقة مشوشة. لاحت أمام نواظري يد السيد ميرلين. كان يمسك بشفرة في يده، كانت تكبر مع نزولها، حتى أحدثت قطعًا في عيني.

أوه، لقد أفاقني الألم الناجم عنها على الفور! كنت على يقين من أنه استأصل عيني بدلًا من مجرد إزالة غمامة العين، وصرخت في وجهه وألححت عليه ألا يفعل لي شيئًا أكثر من ذلك. وعندما أصرّ، أمطرته بوابل من اللعنات وقلت إنني فهمت أخيرًا كيف يمكن أن يقتل قومه المنبوذون إلهنا الكريم.

عندما أحدث قطعًا في العين الثانية كان الألم شديدًا لدرجة أنني فقدت كل المعرفة. استيقظت على ظلام عينين ملفوفتين وعانيت بشدة لمدة أسبوعين تقريبًا. ولكن في نهاية المطاف تمكّنت من رؤية ما لم أستطع رؤيته لفترة طويلة. لقد تحسّن بصري تحسنًا رائعًا لدرجة أنني أمضيت عامين كاملين آخرين بصفتي موظفًا قبل أن يعوقني الروماتويد من أداء واجباتي».

لقد كان ذلك صحيحًا، فكّر روب بذهول. إذًا ربما كانت الأشياء الأخرى التي قالها له بنيامين ميرلين حقائق أيضًا.

قال إدجار ثورب: «السيد ميرلين هو أفضل طبيب رأيته على الإطلاق». «باستثناء»، أضاف بفظاظة، «بالنسبة للطبيب المختص، يبدو أنه يواجه صعوبة بالغة في تخليص عظامي ومفاصلي من الانزعاج الشديد».

ذهب إلى تيتينهول مرة أخرى وخيّم في واد صغير، حيث أقام بالقرب من المدينة لمدة ثلاثة أيام مثل العاشق الولهان الذي يفتقر إلى الشجاعة لزيارة أنثى لكنه لم يستطع إجبار نفسه لتركها وشأنها. أخبره المزارع الأول الذي اشترى منه المؤن عن المكان الذي يعيش فيه بنيامين ميرلين، وقاد حصانه عدة مرات ببطء متجاوزًا المكان، بيت ريفي منخفض به حظيرة جيدة ومبنى خارجي، وحقل، وبستان، وكروم عنب. لم تكن ثمة علامات خارجية تشير إلى أن الطبيب يعيش هنا.

وبعد ظهر اليوم الثالث، على بعد أميال من منزل ميرلين، التقى بالطبيب على الطريق.

«كيف حالك أيها الحلاق الشاب؟».

قال روب إنه بخير وسأل بعد عن صحة الطبيب. تجاذبا أطراف الحديث حول الطقس للحظة جادة ثم أومأ ميرلين برأسه ليهم بالانصراف. «قد لا أتوانى، لأنه لا يزال يتعين عليّ الذهاب إلى منازل ثلاثة مرضى قبل أن ينتهي عملي اليومي».

«هل يمكنني مرافقتك، وأراقب؟» أجبر روب نفسه على القول.

تردّد الطبيب. بدا أنه غير مسرور بالطلب. لكنه أومأ برأسه، ولكن على مضض.

قال: «أرجو أن تبقى بعيدًا عن الطريق».

كان المريض الأول يقطن على مقربة من المكان الذي التقيا فيه، في كوخ صغير بجوار بركة إوز. كان إدوين جريفيث، رجلًا عجوزًا مصابًا بسعال جاف، ورأى روب على الفور أنه يعاني من مرض متقدم في الصدر وسرعان ما سيواريه الثرى ويكون في قبره.

«كيف حالك اليوم، يا سيد جريفيث؟» سأل ميرلين.

استسلم الرجل العجوز لنوبة سعال ثم شهق وأطلق من صدره تنهدة عميقة. «حالي كما هو مع الأسف، باستثناء أنني لم أتمكن اليوم من إطعام الإوز».

ابتسم ميرلين. قال: «ربما صديقي الشاب هنا يعتني بهم»، ولم يكن بإمكان روب أن يفعل شيئًا سوى الموافقة. أخبره جريفيث العجوز بالمكان الذي يحتفظ فيه بالعلف، وسرعان ما أسرع روب إلى جانب البركة بجوال علف. لقد انزعج روب لأن هذه الزيارة كانت خسارة له، لأن ميرلين بالتأكيد لن يقضي وقتًا أكثر مما ينبغي مع رجل يحتضر. ورغم أن روب اقترب من الإوز بحذر شديد، لأنه كان يعلم مدى قسوة الإوز؛ لكن الإوز كان جائعًا وتعمد الاقتراب نحو الطعام في شجار كبير، مما سمح له بالفرار بسرعة.

ولدهشته، كان ميرلين لا يزال يتحدث مع إدوين جريفيث عندما عاد إلى المنزل الصغير. روب لم يرَ قط طبيبًا يعمل بتأنٍّ. طرح ميرلين طائفة من أسئلة لا نهاية لها حول عادات الرجل ونظامه الغذائي، وعن طفولته، وعن والديه وأجداده وعن السبب وراء موتهم. جسّ النبض عند الرسغ ومرة أخرى على رقبته، ووضع أذنه على صدره واستمع. عاد روب مرة أخرى على استحياء وهو يراقب باهتمام.

وعندما غادرا، شكره الرجل العجوز على إطعام الطيور الداجنة.

يبدو أنه كان يومًا مخصصًا لرعاية المنكوبين، فقد قاده ميرلين على بعد ميلين إلى منزل قبالة ساحة المدينة، حيثما تقطن زوجة مسؤول القصر الملكي وهي تتألم.

«كيف حالك يا ماري سوين؟».

لم تجب لكنها رمقته بنظرة ثابتة. كانت الإجابة كافية، وأومأ ميرلين برأسه. جلس وأمسك بيدها وتحدّث معها بهدوء؛ كما فعل مع الرجل العجوز، قضى وقتًا مدهشًا.

قال لروب: «يمكنك مساعدتي في إقامة السيدة سوين. بلطف. بلطف الآن». عندما رفع ميرلين رداء نومها لتتحمم بجسدها العظمي، لاحظا، على جانبها الأيسر المثير للشفقة، دملًا بارزًا جدًّا. بضعه الطبيب على الفور ليمنحها الراحة ورأى روب بشكل يرضيه أن الدمل قد بضع على أكمل وجه كما لو كان قد فعل ذلك بنفسه. ترك لها ميرلين قارورة مليئة بتسريب من دواء يخفف للألم.

قال ميرلين وهم يغلقان باب ماري سوين: «سوف أراك مرة أخرى. إنه تانكريد أوسبرين، الذي أبلغ إبنه هذا الصباح أنه تسبب في إصابة نفسه».

ربط ميرلين لجام حصانه في العربة وجلس على المقعد الأمامي بجوار روب لمرافقته.

«كيف حال عيني قريبك؟» سأل الطبيب بلطف شديد.

أخبر روب نفسه أنه ربما كان يعلم أن إدجار ثورب سيذكر استفساره، وشعر بالدم يتدفق في وجنتيه. لم أكن أنوي خداعه.

قال: «تمنيت أن أرى بنفسي نتائج علاجك للإعتام. ويبدو أنها أبسط طريقة لتفسير اهتمامي».

ابتسم ميرلين وأومأ برأسه. وأثناء ركوبهما شرح ميرلين الطريقة الجراحية التي استخدمها لإزالة إعتام عدسة العين لدى ثورب. «إنها ليست عملية أود أن أنصح أي شخص بإجرائها بمفرده»، قال بوضوح، وأومأ روب برأسه، لأنه لم يكن لديه نية للذهاب لإجراء العملية على عيني أي شخص!

وكلما وصلا إلى مفترق طرق، أشار ميرلين إلى الطريق، حتى اقتربا أخيرًا من مزرعة مزدهرة. كان لديه المظهر المتناسق الناتج عن الاهتمام المستمر، لكن في الداخل وجدا مزارعًا ضخم البنية مفتول العضلات يئن على فراش كان مضجعه.

«آه، تانكريد، ماذا فعلت لنفسك هذه المرة؟» قال ميرلين.

«تؤلم الساق المضرجة بالدماء».

رمى ميرلين الغطاء للخلف وعبس، لأن الطرف الأيمن كان ملتويًا من الفخذ ومتورم. «لا بد أنك تعاني من ألم رهيب. ومع ذلك، قلت للصبي أن يقول: «ريثما أصل». وفي المرة القادمة عليك ألا تتحلّى بالشجاعة المفرطة، حتى أتمكن من الحضور على الفور»، قال بحدة.

أغمض الرجل عينيه وأومأ.

«كيف أذيت نفسك، ومتى؟».

«في وقت الظهيرة أمس. سقطت من السقف اللعين أثناء إصلاح القش الملعون».

قال ميرلين: «لن تصلح القش لبعض الوقت». نظر إلى روب وقال:

«سأحتاج إلى المساعدة. ابحث لنا عن جبيرة أطول من ساقه إلى حد ما».

«يجب ألا تمزق المشيدات والأسيجة»، قال أوسبرين متبرمًا. ذهب روب ليرى ما يمكن أن يعثر عليه. ففي الحظيرة، كانت هناك عشرات القطع الخشبية من خشب الزان والبلوط، بالإضافة إلى قطعة من خشب الصنوبر مصقولة بالأيدي في شكل لوح. ورغم أنه كان عريضًا جدًّا، إلا أن الخشب كان ناعمًا ولم يستغرق منه سوى القليل من الوقت لشقه طوليًّا باستخدام أدوات المزارع.

حدّق أوسبرين مشدوهًا عندما تعرف على الجبيرة لكنه لم يقل شيئًا.

نظر ميرلين إلى الأسفل وتنهّد. «لديه أفخاذ مثل الثور. نؤدي عملنا على الملأ، أيها الشاب كول»، قال ميرلين. ومن خلال الإمساك بالساق المصابة من الكاحل والربلة، حاول الطبيب ممارسة ضغط ثابت، وفي نفس الوقت قام بقلب الطرف الملتوي وتقويمه. كان هناك تصدع صغير، مثل الصوت الذي يصدر عند سحق الأوراق المجففة، وأصدر أوسبرين صوت خوار عظيم.

قال ميرلين في لحظة: «لا فائدة من ذلك». عضلاته ضخمة. انقضبت العضلات على نفسها لحماية الساق وليس لدي القوة الكافية للتغلب عليهم والحد من الكسر».

قال روب: «دعني أحاول».

أومأ ميرلين برأسه، لكنه في البداية صبّ قدحًا كاملًا من الكحول في جوف المزارع، الذي كان يرتجف ويبكي من الألم الناجم عن الجهد الذي لا طائل منه.

«أعطني قدحًا آخر»، شهق أوسبرين.

عندما ابتلع الكأس الثانية، أمسك روب بالساق كما فعل ميرلين. ومن باب الحرص ألا ينتفض، مارس ضغطًا ثابتًا، وتغيّر صوت أوسبرين العميق إلى صرخة طويلة صاخبة.

أمسك ميرلين بالرجل الضخم من تحت الإبطين وكان يسحب في الاتجاه الآخر، ووجهه ملتو وعيناه كادتا أن تسقطا من محجريهما مع هذا الجهد.

صاح روب حتى يتمكن ميرلين من سماعه في غمرة الأصوات المؤلمة: «أعتقد أننا فعلناها. علينا الاستمرار!».

حتى أثناء حديثه، كانت نهايات العظم المكسور تصطك مع بعضها وثبتت في مكانها.

خيّم صمت مفاجئ على الرجل في السرير.

ألقى روب نظرة ليرى ما إذا كان قد أغمي عليه، إلا أن أوسبرين كان مستلقيًا على ظهره مسترخيًا، ووجهه مبلل بالدموع.

قال ميرلين على وجه السرعة: «حافظ على الشدّ في الساق».

لقد صنع معلاقًا من شرائط من الأسمال البالية وربطه حول قدم أوسبرين وكاحله. ربط أحد طرفي الحبل بالمعلاق والطرف الآخر بإحكام في مقبض الباب، ثم وضع الجبيرة على الطرف الممتد.

أخبر روب قائلًا: «الآن يمكنك تركه».

ومن أجل تحقيق استواء جيد، قاما بربط الساق السليمة بالأخرى المربوطة في الجبيرة.

وفي غضون دقائق، قاما بتهدئة المريض المربوط والمرهق، وتركا

التعليمات لزوجته الشاحبة، وأخذا إجازة له من شقيقه الذي سيعمل في المزرعة بدلًا منه.

توقفا في الفناء ونظرا إلى بعضهما. كان كل منهما يرتدي قميصًا مبللًا بالعرق، وكان كلا الوجهين مبللين مثل خدود أوسبرين المضمخة بالدموع.

ابتسم الطبيب وربّت على كتفه. قال: «يجب أن تعود معي إلى المنزل الآن ونتقاسم طعام المساء».

قال بنيامين ميرلين: «ديبورا».

كانت زوجة الطبيب ممتلئة الجسم تشبه الحمامة في هيئتها، ولها أنف صغير حاد، ووجنتاها مشربتان بحمرة شديدة. لقد أصابتها الدهشة عندما رأته وسلّمت بأمر إدخالهما بتصنع. حمل ميرلين وعاءً من الماء العذب إلى الفناء حتى يتمكن روب من إنعاش نفسه.

وفي حين أن روب كان يغتسل، كان يسمع المرأة داخل المنزل وهي توبّخ زوجها بلغة لم يسمعها من قبل.

تجهّم الطبيب عندما خرج ليغتسل. «يجب أن تسامحها. إنها خائفة. ينص القانون على أنه يجب ألا نستضيف مسيحيين في منازلنا خلال الأعياد المقدسة. ونادرًا ما يكون هذا عيدًا مقدسًا. إنه عشاء متواضع». نظر إلى روب في وضع الاستواء وهو يمسح نفسه حتى يجف. «ومع ذلك، يمكنني إحضار الطعام لك في الخارج، إذا اخترت عدم الجلوس على الطاولة».

«أنا ممنون للسماح لي بالانضمام إليك، يا سيدي الطبيب».

أومأ ميرلين برأسه.

عشاء غريب.

كان هناك الأبوان وأربعة أطفال صغار، ثلاثة منهم ذكور. كانت الفتاة الصغيرة تسمى ليا، وكان إخوتها جوناثان وراؤول وزكريا. كان الأولاد وآباؤهم يرتدون قبعات على الطاولة! عندما أحضرت الزوجة رغيفًا ساخنًا، أومأ ميرلين برأسه إلى زكريا، الذي قطع كسرة من الرغيف وبدأ يتحدث بصوت أجش سمعه روب سابقًا.

أوقفه والده. «الليلة، تتلى صلاة المائدة باللغة الإنجليزية من باب المجاملة لضيفنا».

قال الصبي بعذوبة: «طوبى لك، أيها الرب إلهنا، ملك الكون، الذي يخرج الخبز من الأرض». أعطى الرغيف لروب مباشرة، فوجده جيدًا وأعطاه للآخرين.

صبّ ميرلين النبيذ الأحمر من الدورق. حذا روب حذوهم ورفع كأسه عندما أومأ الأب لابنه راؤول.

«طوبى لك، أيها الرب إلهنا، ملك الكون، صانع ثمر الكرمة».

كان الطعام عبارة عن حساء سمك مصنوع من الحليب، ليس كما كان يصنعه الحلاق، بل كان ساخنًا وحارًا. وبعد ذلك أكلوا تفاحًا من بستان اليهودي. أخبر الصبي الأصغر، جوناثان، والده بامتعاض شديد أن الأرانب تزبّل الكرنب.

قال روب «إذًا عليكم أن تذبحوا الأرانب. يجب عليكم مشاركتها حتى تتمكن والدتك من تقديم حساء الكرنب».

ساد صمت طفيف وغريب ثم ابتسم ميرلين. «نحن لا نأكل الأرانب أو الأرانب البرية، لأن طعام الأرانب مخالف للشريعة اليهودية».

رأى روب أن مسيز ميرلين بدت وجلة، كما لو كانت تخشى ألا يفهم أو يتعاطف مع طقوسهم.

«إنها مجموعة قوانين غذائية قديمة قدم التاريخ». أوضح ميرلين أنه لا يسمح لليهود بأكل الحيوانات التي لا تمضغ طعامها ولديها حوافر مشقوقة. ولا يمكنهم أكل اللحم مع الحليب، لأن الكتاب المقدس يحذر من أن لحم الضأن يجب ألا يغلى ممتزجًا بضرع الأم الحلوب. ولم يسمح لهم بشرب الدم، أو أكل اللحم الذي لم ينزف دمًا أو لم يكن مملحًا جيدًا.

أصبح روب متبلّد الإحساس وأخبر نفسه أن مسيز ميرلين كانت على حق: لم يستطع فهم اليهود. لقد كان اليهود وثنيين حقًّا!

انقبضت معدته عندما شكر الطبيب الرب على طعامهم الخالي من الدم واللحم.

ومع ذلك سأل عما إذا كان سيخيم في بستانهم تلك الليلة. أصرّ بنيامين ميرلين على أن ينام روب تحت مظلة، في الحظيرة التي كانت ملحقة بالمنزل، وفي الوقت الحالي رقد روب على فراش معطر واستمع من خلال الجدار الواهن إلى الأصوات العالية والخفيضة الحادة للزوجة. ابتسم في حبور في العتمة، وهو يعرف جوهر رسالتها على الرغم من اللغة غير المفهومة.

أنت لا تعرف هذا المتوحش الشاب الضخم، حتى تحضره إلى هنا. ألا يمكنك أن ترى أنفه المنحني ووجهه المهشّم، وأسلحة مجرم باهظة الثمن؟ سوف يقتلنا عمدًا في مضاجعنا!

وفي الحال، خرج ميرلين إلى الحظيرة ومعه دورق كبير وكأسان خشبيان. سلّم كوبًا لروب يدًا بيد وتنهّد. قال: «هي بخلاف ذلك امرأة ممتازة»، وملأ الكأسين. «الأمر صعب عليها هنا، لأنها تشعر بأنها معزولة عن

كثيرين ممن تكن لهم الحب والاعتزاز».

اكتشف روب أنه كان مشروبًا قويًّا جيدًا. «من أي إقليم في فرنسا أنت؟».

«مثل هذا النبيذ الذي نشربه، نشأنا أنا وزوجتي في قرية فاليز، حيث تعيش عائلاتنا تحت الحماية الكريمة لروبرت دوق نورماندي. والدي وإخوتي هم تجار النبيذ والموردون للتجارة الإنجليزية».

قال ميرلين إنه قبل سبع سنوات، عاد إلى فاليز من الدراسة في بلاد فارس في أكاديمية للأطباء.

«بلاد فارس!» لم يكن لدى روب أي فكرة عن مكان بلاد فارس، لكنه كان يعلم أنها بعيدة جدًّا. «في أي اتجاه تقع بلاد فارس؟».

ابتسم ميرلين. «إنها في الشرق. أقصى الشرق».

«كيف أتيت إلى إنجلترا؟».

قال ميرلين إنه عندما عاد إلى نورماندي بصفته طبيبًا جديدًا، وجد أنه تحت وصاية الدوق روبرت، كان هناك عدد كبير جدًّا من الممارسين الطبيين. وبالقرب من نورماندي كان هناك صراع مستمر ومخاطر غير مؤكدة للحرب والسياسة، الدوق ضد الكونت، والنبلاء ضد الملك. «زرت لندن في شبابي مرتين مع والدي تاجر النبيذ. تذكّرت جمال الريف الإنجليزي، وكل أوروبا تعرف نعمة الاستقرار في عهد الملك كانوت. لذلك قررت أن آتي إلى هذا المكان الأخضر الهادئ».

«وهل أثبتت تيتينهول أنها الاختيار السليم؟».

أومأ ميرلين برأسه. «لكن ثمة صعوبات تواجهنا. دون أولئك الذين يشاركوننا إيماننا، لا يمكننا أن نصلي إلى الرب بشكل صحيح ومن

الصعب الحفاظ على آداب الطعام. نحن نتحدث إلى أطفالنا بلغتهم الخاصة لكنهم يفكرون بلغة إنجلترا، وعلى الرغم من جهودنا، فهم يجهلون الكثير من عادات شعوبهم. أسعى إلى جذب يهود آخرين هنا من فرنسا».

تحرك لصبّ المزيد من النبيذ، لكن روب غطّى فنجانه بيده. «لن أكتفي بأكثر من القليل من الشراب، وأنا بحاجة إلى رأسي».

«لماذا بحثت عني أيها الحلاق الشاب؟».

«أخبرني عن المدرسة في بلاد فارس».

«إنها في مدينة أصفهان، في الجزء الغربي من البلاد».

«لماذا ذهبت كل هذه المسافة؟».

«ما المكان الآخر الذي كان يتعين عليّ الذهاب إليه؟ لم تكن عائلتي ترغب في تدريبي على يد طبيب، لأنه على الرغم من أن قبول الأمر يحزنني، إلا أن مهنتي في معظم أنحاء أوروبا تضم عددًا كبيرًا من الأطباء والأوغاد. هناك مستشفى كبير في باريس، يسمى أوتيل ديو، وهو مجرد مستشفى للأمراض الوبائية للفقراء فيه يسحب الناس الذين يصرخون من الألم إلى الموت. توجد مدرسة الطب في ساليرنو، مكان مؤسف. ومن خلال الاحتكاك بالتجار اليهود الآخرين والاتصال بهم، كان والدي على علم أن العرب في بلاد الشرق قد أرسوا دعائم علم الطب. في بلاد فارس، يمتلك المسلمون مستشفى في أصفهان يعد حقًا مركزًا للشفاء. ففي هذا المستشفى وفي أكاديمية صغيرة هناك يعلم ابن سينا أطباءه».

«من؟».

«الطبيب المتميز في العالم. أفيسينا، واسمه العربي أبو عليّ الحسين بن

عبد الله بن سينا».

طلب روب من ميرلين أن يكرر النطق الأجنبي للاسم حتى حفظه عن ظهر قلب.

«هل من الصعب الوصول إلى بلاد فارس؟».

«عدة سنوات من السفر المحفوف بالمخاطر. الرحلات البحرية، ثم رحلة برية فوق الجبال الشامخات والفيافي الشاسعات».

رمق ميرلين ضيفه بنظرة ملؤها الحماس. «يجب أن تخرج من ذهنك الأكاديميات الفارسية. ما مدى معرفتك بإيمانك، أيها الحلاق الشاب؟ هل تعرف مشاكل البابا المبارك؟».

هزّ روب كتفيه. «يوحنا التاسع عشر؟» في الحقيقة، سوى اسم البابا والحقيقة أنه قاد الكنيسة المقدسة، لم يعرف روب شيئًا.

«يوحنا التاسع عشر. إنه البابا الذي قاد كنيستين كبيرتين بدلًا من واحدة، أشبه برجل يسعى ليمتطي ظهر جوادين. الكنيسة الغربية تظهر له الولاء، ولكن في الكنيسة الشرقية هناك تمتمة ونغمة مستمرة من السخط. ومنذ مئتي عام أصبح فوتيوس بطريركًا متمردًا للكاثوليك الشرقيين في القسطنطينية، ومنذ ذلك الحين، اكتسبت الحركة نحو الانقسام في الكنيسة قوة.

ربما لاحظت في تعاملاتك الخاصة مع القساوسة أنهم لا يثقون بل ويكرهون الأطباء والجراحين والحلاقين، معتقدين أنهم من خلال الصلاة هم الأوصياء الشرعيون على أجساد الناس وكذلك أرواحهم».

زمجر روب.

«إن كراهية هؤلاء القساوسة الإنجليز تجاه المشتغلين بالطب لا تقارن

بالكراهية التي يحملها القساوسة الكاثوليك الشرقيون للأطباء العرب» والمدارس والأكاديميات الإسلامية الأخرى. تعيش الكنيسة الشرقية جنبًا إلى جنب مع المسلمين، وهي منخرطة في حرب مستمرة وجادة مع الإسلام لكسب الناس تحت لواء الإيمان الحقيقي الواحد. يرى التسلسل الهرمي للكنيسة الشرقية في مراكز تلقي العلم العربية تحريضًا على الوثنية وتهديدًا خطيرًا. قبل خمسة عشر عامًا، أعلن سرجيوس الثاني، الذي كان آنذاك بطريركًا للكنيسة الشرقية، أن أي مسيحي يلتحق بمدرسة إسلامية شرق بطريركيته يعتبر التحاقه تدنيسًا للأديان ومخالفة للإيمان وإدانة بالممارسات الوثنية. لذا، مارس الضغط على الأب المقدس في روما للانضمام إليه في هذا الإعلان. رقي البنديكت الثامن حديثًا إلى كرسي بطرس، مع قلق أن يصبح البابا الذي أشرف على حل الكنيسة. ولاسترضاء العضو الشرقي الساخط، وافق بسهولة على طلب سرجيوس. إن عقوبة الوثنية هي الحرمان من الكنيسة».

زمّ روب شفتيه. «إنها عقوبة شديدة».

أومأ الطبيب برأسه. والأخطر من ذلك أنها تحمل في طياتها عقابًا رهيبًا بموجب القانون العلماني. تعتبر القواعد القانونية المعتمدة في عهد الملك إثيلريد والملك كانوت الوثنية جريمة رئيسية. وواجه أولئك الذين أدينوا بها عقوبات مروعة. وقد قيّد بعضهم بالسلاسل الثقيلة وأرسلوا للتجول بصفتهم حجاجًا لسنوات حتى تصدأ الأصفاد وتتساقط من أجسادهم. وقد احترق العديد منهم. شنق بعضهم، وزجّ بالآخرين في السجن حيث بقوا حتى يومنا هذا.

«ومن جانبهم، لا يتوق المسلمون إلى تثقيف أتباع ديانة معادية ومهددة، والطلاب المسيحيون لم يقبلوا في أكاديميات الخلافة الشرقية منذ سنوات».

قال روب بحزن: «أتفهم الأمر».

«إسبانيا قد تكون ممكنة بالنسبة لك. إنها تقع في أوروبا، الجناح الغربي المطلق للخلافة الغربية. كلا الديانتين أسهل هناك. هناك عدد قليل من الطلاب المسيحيين من فرنسا. أنشأ المسلمون جامعات عظيمة في مدن مثل قرطبة وطليطلة وإشبيلية. إذا تخرجت في واحدة من هذه الجامعات، فسوف يعترف بك بصفتك عالمًا. وعلى الرغم من صعوبة الوصول إلى إسبانيا، إلا أنها ليست صعبة مثل الرحلة إلى بلاد فارس».

«لماذا لم تذهب إلى إسبانيا؟».

«لأن اليهود مسموح لهم بالدراسة في بلاد فارس».

ابتسم ميرلين ابتسامة عريضة. «وأردت أن ألمس حاشية ثوب ابن سينا».

عبس روب. «لا أرغب في السفر عبر العالم لأصبح عالمًا. أريد أن أصبح طبيبًا كفئًا فحسب».

صبّ ميرلين المزيد من النبيذ لنفسه. «ما يثير حيرتي - أنك لا تزال أخضر العود، إلا أنك ترتدي بذلة من الأقمشة الجيدة وتحمل الأسلحة التي لا أستطيع أن أسمح لنفسي بحملها. حياة الحلاق لها مكاسبها. إذًا، لماذا ستصبح طبيبًا، تؤدي عملًا أكثر شقاءً وميزة الثراء معك تكون محل شبهة؟».

«لقد تعلمت أن أعالج العديد من الأمراض. يمكنني قطع إصبع مشوه وعمل جذع أنيق. لكن الكثير من الناس يأتون إليّ ويدفعون عملاتهم المعدنية، ولا أعرف شيئًا عن كيفية مساعدتهم. أنا جاهل. أقول لنفسي إنه قد يمكنني إنقاذ البعض إذا عرفت المزيد».

«وعلى الرغم من أنك تدرس الطب مدى الحياة، إلا أنه سيأتي إليك أناس تعتبر أمراضهم ألغازًا، لأن الألم الذي تتحدث عنه جزء لا يتجزأ من مهنة الشفاء ويجب أن تتعايش معه. ومع ذلك، إنها الحقيقة أنه كلما كان التدريب أفضل، كان عمل الطبيب أفضل. أنت تقدم أفضل سبب ممكن لطموحك». كفأ ميرلين كأسه حتى يفرغه. «إذا لم تكن المدارس العربية مناسبة لك، فعليك أن تغربل أطباء إنجلترا حتى تجد أفضل الأطباء البسطاء، وربما تقنع أحدهم بأن يأخذك متدربًا».

«هل تعرف أي طبيب من هذا القبيل؟».

إذا أدرك ميرلين التلميح، فسيغدو غير معترف به. هزّ رأسه ونهض على قدميه.

«والآن كل واحد منا يجب أن ينال قسطًا من الراحة، وغدًا سنناقش السؤال ونحن مفعمان بالحيوية والنشاط. طابت ليلتك، أيها الحلاق الشاب».

«طابت ليلتك، يا سيدي الطبيب».

وفي الصباح كان يوجد حساء البازلاء الساخنة في المطبخ والمزيد من الخيرات العبرية. جلس أفراد الأسرة وكسروا صيامهم الليلي سويًا، وكانوا يفحصونه خفية في تلك الأثناء التي كان يفحصهم هو بدوره. ظهرت مسيز ميرلين بشكل دائم في وضع القرفصاء، وفي الضوء الجديد الكاشف لاح خط باهت من الشعر الداكن على شفتها العليا. كان يرى أهدابًا تنبثق من تحت معطف بنيامين ميرلين والصبي الذي يسمى راؤول. كان الثريد لذيذ المذاق.

سأل ميرلين بأدب جم عما إذا كان قد قضى ليلة طيبة. «لقد فكرت في مناقشتنا. ولسوء الحظ، لا يمكنني التفكير في أي طبيب يمكنني أن

أوصي به باعتباره معلمًا ومثالًا يحتذى به. «أحضرت زوجته إلى المائدة سلة كبيرة من حبات التوت، وتهللت أسارير ميرلين.

«آه، يجب أن تتناول ذلك بنفسك مع طبق الثريد الخاص بك، لأنه ذو نكهة لذيذة».

قال روب: «أود أن تأخذني بصفتي متدربًا معك».

لخيبة أمله الكبيرة، هزّ ميرلين رأسه.

وبادره روب وقال إن الحلاق علّمه الكثير. «لقد قدمت المساعدة لك بالأمس. وسرعان ما يمكنني الذهاب بمفردي لزيارة مرضاك أثناء الطقس القاسي، مما يسهل عليك الأمور».

«لا».

قال بإصرار: «لقد لاحظت أن لدي حس بالعلاج. أنا قوي ويمكنني القيام بعمل شاق أيضًا، كل ما هو ضروري. تدريب لمدة سبع سنوات. أو لفترة أطول كما تشاء». وفي غمرة انفعاله نهض واقفًا على قدميه، وهو يهزّ الطاولة ويحرّك الثريد.

قال ميرلين: «إنه مستحيل».

انتابته الحيرة؛ كان على يقين من أن ميرلين يحبه.

«هل أفتقر إلى المؤهلات اللازمة؟».

«لديك مؤهلات ممتازة. مما رأيته، ستصبح طبيبًا ممتازًا».

«ماذا بعد؟».

«في معظم هذه الدول المسيحية لن أعاني باعتباري معلمك».

«من سيهتم بالأمر؟».

«القساوسة هنا سيهتمون بالأمر. لقد استاؤوا بالفعل من كوني شخصًا شكّله يهود فرنسا وأحكموا قبضتهم على أكاديمية إسلامية، حيث رأوا في هذا تعاونًا بين عناصر وثنية خطيرة. يراقبونني. أعيش في خوف من اليوم الذي يتم فيه تفسير كلامي على أنه سحر أو أنسى تعميد مولود جديد».

قال روب: «إذا لم تستعن بي، فاقترح على الأقل الطبيب الذي يجب أن أتقدم إليه بطلب تدريب».

«لقد أخبرتك، لا أوصي بأحد. لأن إنجلترا كبيرة وهناك الكثير من الأطباء الذين لا أعرفهم».

زمّ روب شفتيه واستقرت يده على مقبض سيفه. «لقد طلبت مني الليلة الماضية غربلة أفضل الأطباء البسطاء. من هو أفضل الأطباء من معارفك؟».

تنهّد ميرلين واستمر في التنمر. قال ببرود: «آرثر جايلز من سانت آيفز»، واستأنف تناول فطوره.

لم يكن لدى روب أي نية للانسحاب، لكن عيني الزوجة كانتا ترمقان سيفه ولم تكن قادرة على كبح جماح أنينها، وتأكدت من أن نبوءتها قد تحققت.

نظر إليه راؤول وجوناثان في تجهم، لكن زكريا بدأ يبكي.

لقد اشمئز من خجله بسبب الكيفية التي رد بها كرم الضيافة. حاول تقديم اعتذار لكنه لم يستطع، وفي النهاية تخلّى عن العبرية الفرنسية وهو يغرف طبقه من الثريد بملعقته وبارح منزلهم.

21

الفارس العجوز

قبل أسابيع قلائل كان يسعى للتخلص من الخجل والغضب من خلال فحصه لقاع الكوب، لكنه تعلم أن يأخذ حذره من الشرب. وقد بدا جليًا أنه كلما طالت مدة عمله دون سكر، كان العائد الذي يتلقاه من الناس أقوى عندما يأخذ بأيديهم، وكان ذلك يعطي قيمة متزايدة لقريحته. فبدلًا من معاقرة الخمر، أمضى يومًا مع امرأة في مكان مفتوح على ضفاف نهر سيفيرن، على بعد أميال قليلة من ورسيستر. نثرت الشمس أشعتها على العشب فغدا دافئًا مثل الدماء التي تجري في عروقهما. كانت الفتاة مساعدة خياطة بأصابع نحيلة مثقوبة جرّاء الإبر وجسمها صغير صلب أصبح زلقًا عندما سبحا في النهر.

«ميرا، أشعر وكأنك ثعبان الماء!» صاح وشعر بارتياح.

كانت سريعة مثل سمكة السلمون المرقط لكنه كان أخرق، مثل وحش البحر العظيم، عندما غاصا إلى الأسفل معًا في المياه الخضراء. باعدت يداها ما بين ساقيه، وسبحت من خلالهما، وارتطم بخاصرتيها المشدودتين الشاحبتين. ورغم أن الماء كان باردًا، لكنهما مارسا الحب مرتين في الدفء على الضفة وأفرغ شهوته فيها، في حين أنه على بعد أمتار قليلة كان الحصان يأكل العشب والقطة مسيز بافينجتون تراقبهما في هدوء جم. كان لدى ميرا صدر صغير مدبب وجدائل من الشعر البني الناعم جدًا. كان شعرها كثيفًا، ورأى بامتعاض؛ أنها كانت فتاة أكثر من كونها امرأة، رغم أنه كان من المؤكد أنها ضاجعت رجالًا من قبل.

«كم عمرك أيتها الحسناء؟» سأل بفتور.

«خمسة عشر عامًا، قيل لي».

أدرك أنها كانت بالضبط في عمر أخته آن ماري، وأشد ما أحزنه اعتقاده أن أخته غدت امرأة ناضجة ولكنها لا تعرفه.

طرأت فكرة بشعة فظيعة وصدمته فجأة لدرجة أنها تركته ضعيفًا وبدا وكأنها تحجب ضوء الشمس.

«هل كان اسمك دائمًا ميرا؟».

أسفر السؤال عن ابتسامة مدهشة. «لماذا، حقًّا هذا هو اسمي ميرا فيلكر. ماذا أيضًا يمكن أن يكون؟».

«وهل ولدت هنا، أيتها الحسناء؟».

قالت بمرح: «لقد ولدتني أمي في ورسيستر، وقد عشت هنا».

أومأ برأسه وربّت على يدها.

ومع ذلك، كان يفكر في اشمئزاز قاتم، بالنظر إلى هذه الحالة أنه من المستحيل يكون قد ضاجع أخته يومًا ما دون أن يدري. لقد قرر أنه في المستقبل يجب ألا يكون له أي علاقة بالشابات اللائي قد يكُنَّ في عمر آن ماري.

قضت الفكرة المحبطة على الحالة المزاجية الرائعة للإجازة، وبدأ يلملم ثيابه.

«آه، هل يجب أن نغادر، إذًا؟» قالت بأسف.

قال: «نعم، لأنني يجب أن أقطع شوطًا طويلًا للوصول إلى سانت آيفز».

تبين أن آرثر جايلز في سانت آيفز قد خيّب آماله الكبيرة، على الرغم من أن روب لم يكن لديه الحق في توقعات كبيرة، لأنه من الواضح أن بنيامين ميرلين أوصى به تحت وطأة الإكراه فحسب. كان الطبيب رجلًا عجوزًا سمينًا وقذرًا بدا أنه به مس من الجنون قليلًا. كان يربّي الماعز وكان يجب أن يبقي الماعز داخل منزله لبعض الوقت، لأن المكان كان كريه الرائحة.

«إنه النزيف الذي يشفي، أيها الشاب الغريب. يجب أن تتذكر ذلك. عندما تفشل كل الوسائل العلاجية الأخرى، يكون النزيف تنقية جيدة لتصريف الدم، ومن ثم واحدة تلو الأخرى». صرخ جايلز قائلًا: هذا ما يشفي الأوغاد. أجاب عن الأسئلة عن طيب خاطر، ولكن عندما ناقشا أي طريقة علاج أخرى غير النزيف، أصبح من الواضح أن روب قد يكون من المفيد تعليم الرجل العجوز. لم يكن لدى جايلز أي علم طبي، ولا مخزون من المعرفة يمكن أن يستغلها المتدرب. عرض الطبيب تدريبًا مهنيًا، وبدا غاضبًا عندما رفضه روب بأدب. كان روب سعيدًا بمغادرة سانت آيفز، لأنه كان من الأفضل أن يظل حلاقًا ولا أن يصبح طبيبًا مثل هذا المخلوق.

ولعدة أسابيع كان يعتقد أنه تخلى عن الحلم غير القابل للتحقق في أن يصبح طبيبًا. لقد عمل بكد واجتهاد لتقديم عروض التسلية والترفيه الخاصة به، وباع قدرًا كبيرًا من الدواء السحري، وكان سعيدًا بانتفاخ كيس نقوده. انتعشت القطة مسيز بافينجتون وازدهرت على ازدهاره كما استفاد هو من الحلاق؛ أكلت القطة بقايا الطعام الجيدة وغدت في حجمها الكامل كما كان يشاهدها حتى صارت قطة بيضاء كبيرة بعينين خضراوين وقحتين. ظنت أنها لبؤة وتشاجرت كثيرًا. وعندما كانا في بلدة روتشيستر، اختفت أثناء عرض الترفيه وعادت إلى خيمة روب عند الغسق، وقد تعرضت للعض بشدة في نصفها الأمامي من الناحية اليمنى ومع اختفاء معظم أذنها اليسرى، كان فروها الأبيض ملطخًا

ببقع قرمزية.

نظّف جروحها واعتنى بها كعاشق. «آه، يا سيدتي. يجب أن تتعلمي كيف تتجنبي الشجار، كما فعلت، لأن ذلك لن يفيدك بشيء». أطعمها لبنها وأجلسها على رجليه أمام النار.

خربشت يده بلسانها. ورغم أنه كانت هناك قطرة حليب على أصابعه، أو رائحة عشاء، إلا أنه اختار أن ينظر إليها على أنها مداعبة، وقام في المقابل بمداعبة فروها الناعم، ممنونًا لرفقتها.

أخبر القطة قائلًا: «إذا كان الطريق مفتوحًا أمامي لحضور المدرسة الإسلامية، فسوف آخذك في العربة وأوجه الحصان نحو بلاد فارس، ولن يمنع أي شيء وصولنا في نهاية المطاف إلى ذلك المكان الوثني».

ففكر في أبي عليّ الحسين بن عبد الله بن سينا بحزن. قال بصوت عال: «ثكلتك أمك، أيها العربي»، ثم نام.

كانت المقاطع تطوف في عقله، وهي عبارات مؤلمة ومثيرة للسخرية. أبو عليّ الحسين بن عبد الله بن سينا، أبو عليّ الحسين بن عبد الله بن سينا.. حتى انتصر التكرار الغامض على تبرمه الغالب على طبعه وغطّ في نوم عميق.

وفي تلك الليلة حلم أنه كان محبوسًا في معركة مع فارس عجوز بغيض، يناضل يدًا بيد بالخنجر.

الفارس العجوز أطلق ريحًا واستهزأ به. كان يرى الصدأ والزنجار على درع الآخر الأسود. كانت رؤوسهما قريبة جدًّا لدرجة أنه رأى القيح والمخاط يتدلى من الأنف الأقنى، وحدّق في عينين مخيفتين واشتمّ أنفاس الفارس ذي الرائحة الكريهة المقززة. تقاتلا بضراوة. وعلى الرغم من أن

روب كان في زهرة شبابه وريعان قوته، فقد عرف أن سكين شبح الظلام لا يرحم وأن درعه معصوم. وخلفهما يمكن أن ترى ضحايا الفارس: الأم، والأب، وصموئيل الطيب والحلاق وحتى إنكيتاتوس والدب بارترام، والغضب المتأجج في داخله استنفر قواه، على الرغم من أنه كان يشعر بالفعل بأن النصل العنيد يخترق جسده.

استيقظ ليجد الجزء الخارجي من ملابسه مبللًا بالندى والجزء الداخلي مبللًا من العرق الناجم عن الخوف في الحلم. كان مستلقيًا في شمس الصباح، مع طائر الإطرليّون يشدو في نشوة على بعد خمسة أقدام، كان يعلم أنه على الرغم من أن الحلم قد تحقق، لكنه لم يكن كذلك. لم يكن قادرًا على التخلي عن النضال.

أولئك الذين رحلوا لن يعودوا، وكان هذا هو الطريق. ولكن ما هي الطريقة المثلى لقضاء العمر أكثر من محاربة الفارس الأسود؟ كانت دراسة الطب، بطريقتها الخاصة، شيئًا يحبه عوضًا عن عائلة مفقودة. لذا اتخذ قراره، وعندما جاءت القطة وفركته بأذنها السليمة، فإنه قد يحقق الحلم.

كانت العقبة هي الإحباط. قدّم عروض الترفيه في نورثهامبتون وبيدفورد وهيرتفورد بدوره، وفي كل مكان بحث عن الأطباء وتجاذب معهم أطراف الحديث ورأى أن معرفتهم المشتركة بالعلاج والشفاء كانت أقل من معرفة الحلاق. كانت سمعة الطبيب في مدينة مالدون في القتل الوحشي سيئة للغاية لدرجة أنه عندما طلب روب جيه من الناس يدلونه على منزل الطبيب، شحبت وجوههم وانعقدت ألسنتهم.

لم يكن ليحدث وأن يتدرب على يد مثل هؤلاء.

خطر له أن طبيبًا عبريًا آخر قد يكون أكثر استعدادًا أكثر من ميرلين

ليقبله متدربًا. وفي ساحة مالدون توقف حيث كان العمال يقيمون جدارًا من الطوب.

«هل لديكم علم بأي يهود في هذا المكان؟».

سأل البنّاء المعلم.

حدّق فيه الرجل وبصق وابتعد.

سأل عدة رجال آخرين في الميدان دون جدوى. وأخيرًا كان هناك من تفرّس ملامحه بفضول شديد. «لماذا تبحث عن اليهود؟».

«أبحث عن طبيب يهودي».

أومأ الرجل برأسه تعبيرًا عن فهمه وتعاطفه. «أرجو أن يكون المسيح في عونك. هناك يهود في مدينة ماليسبري، ولديهم طبيب هناك اسمه أدولسنتولي».

كانت رحلة استغرقت خمسة أيام من مالدون إلى ماليسبري، مع التوقف في أكسفورد وألفستون لتقديم عروض الترفيه وبيع الدواء السحري. بدا أن روب يتذكّر أن الحلاق قد تحدّث عن أدولسنتولي بصفته طبيبًا ذائع الصيت، وشقّ طريقه إلى ماليسبري وهو يحدوه الأمل لأن الليل قد أرخى بسدوله على القرية الصغيرة التي لا معالم لها. ورغم أنه تناول عشاءً متواضعًا في الحانة، لكنه كان عشاء يثلج الصدر. كان الحلاق قد وجد لحم الضأن المطهو غير متبّل ولكنه كان يحتوي على الكثير من اللحم، وبعد ذلك كان قادرًا على الدفع مقابل أن يفترش حشية القش الناعم في زاوية من غرفة النوم.

وفي صباح اليوم التالي، عند الإفطار، طلب من صاحب الحانة أن يخبره عن يهود ماليسبري.

هزّ الرجل كتفيه كأنه يقول: ما الذي يمكن أن أقوله؟

«لدي فضول، لأنني حتى وقت قريب لم أكن أعرف يهوديًّا».

قال صاحب الحانة: «هذا بسبب ندرة وجودهم في أرضنا. زوج أختي، قبطان سفينة وسافر إلى كل الأماكن، يقول إنهم موجودون بكثرة في فرنسا. يقول إنهم موجودون في كل بلد، وأنه كلما سافر المرء أقصى الشرق، زاد انتشارهم بكثرة».

«هل يعيش إسحاق أدولسنتولي بينهم هنا؟ الطبيب؟».

ابتسم صاحب الحانة. «لا، بالتأكيد!» هم الذين يعيشون حول إسحاق أدولسنتولي، ينعمون بكمال سؤدده».

«إنه مشهور، إذًا؟».

«إنه طبيب عظيم». قال صاحب الحانة بفخر: «يأتي الناس من بعيد لاستشارته والبقاء في هذه الحانة. القساوسة يهاجمونه، ولكن بطبيعة الحال -هو لا يكن لهم أي احترام ولا يأبه لهم ويتقدّم إلى الأمام- أعرف على الأقل مناسبتين مذ جيء به في عتمة الليل وأرسل إلى كانتربري لرعاية رئيس الأساقفة أيثيلنوث، الذي كان يعتقد أنه يحتضر العام الماضي».

أعطى صاحب الحانة لروب الاتجاهات إلى المستعمرة اليهودية وسرعان ما ركب روب عربته عابرًا الأسوار الحجرية الرمادية في دير ماليسبري، عبر الغابات والحقول وكروم العنب المنحدرة حيث يقطف الرهبان العنب. فصلت غابة صغيرة أرض الدير عن منازل اليهود، ربما عشرة من المنازل المتلاصقة. يجب أن يكون هؤلاء هم اليهود: رجال مثل الغربان، يرتدون قفاطين سوداء فضفاضة وقبعات جلدية على شكل جرس، كانوا يستعملون المناشير والمطارق وهم يبنون مخزنًا. قاد روب

عربته إلى المبنى الذي كان أكبر من المباني الأخرى، حيث امتلأ الفناء الواسع بالخيول المقيدة والعربات.

«إسحاق أدولسنتولي؟» سأل روب واحدًا من عدة صبيان من الذين يعتنون بالحيوانات.

قال الصبي: «إنه في المستوصف»، وأمسك ببراعة بالعملة التي رمى بها روب للتأكيد على أن الحصان سوف يحظى برعاية جيدة.

انفتح الباب الأمامي على غرفة انتظار كبيرة مليئة بالمقاعد الخشبية، وكلها مكتظة بالبشر الذين يتألمون. ورغم أنه كان أشبه بالصفوف التي انتظرت وراء ستار العلاج خاصته، إلا أنه يوجد الكثير من الناس. لم تكن هناك مقاعد فارغة، لكنه وجد مكانًا مقابل الجدار.

أتى رجل مرارًا وتكرارًا وهو يتردد عبر الباب الصغير الذي يؤدي إلى بقية المنزل وأحضر المريض الذي كان يجلس في نهاية المقعد الأول. ثم يتحرك كل واحد مقدار مسافة واحدة للأمام. يبدو أن هناك خمسة أطباء. كان أربعة منهم شبابًا والآخر كان رجلًا قصيرًا وسريع الحركة، في منتصف العمر، افترض روب أن يكون هو أدولسنتولي.

لقد كان انتظارًا طويلًا جدًّا. ظلت الغرفة مزدحمة، إذ يبدو أنه في كل مرة كان الطبيب يقود شخصًا عبر باب غرفة الانتظار، يدخل الوافدون الجدد من الباب الأمامي من الخارج. قضى روب الوقت في محاولة تشخيص المرضى.

وبحلول الوقت الذي أصبح فيه الجليس الأول على المقعد الأمامي، كان منتصف العصر. دخل أحد الشبان من الباب. «يمكنك أن تأتي معي». كان يتحدث بلكنة فرنسية.

«أريد أن ألتقي إسحاق أدولسنتولي».

«أنا موسى بن إبراهيم، أحد المتدربين مع السيد أدولسنتولي. ويمكنني الاعتناء بك».

«يقيني أنك ستعالجني بمهارة إذا كنت مريضًا. يجب أن أقابل معلمك بخصوص أمر آخر».

أومأ المتدرب برأسه والتفت إلى الشخص التالي على المقعد.

خرج أدولسنتولي بعد فترة وقاد روب عبر الباب وفي الأسفل إلى ممر قصير؛ ومن خلال باب ترك مفتوحًا، لمح روب عملية جراحية على سرير العمليات، وأسطال، وأدوات. انتهى سيرهما إلى غرفة صغيرة خالية من الأثاث باستثناء طاولة صغيرة وكرسيين. «ما هي مشكلتك؟» قال أدولسنتولي. استمع في دهشة، فبدلًا من وصف الأعراض، تحدّث روب بعصبية عن رغبته في دراسة الطب.

كان للطبيب وجه داكن وسيم لا يبتسم. مما لا شك فيه أن المقابلة لم تكن لتنتهي بشكل مختلف لو كان روب أكثر حكمة لكنه لم يكن قادرًا على مقاومة سؤال يود طرحه: «هل عشت في إنجلترا لفترة طويلة، سيدي الطبيب؟».

«لماذا تسأل؟».

«أنت تتقن الحديث بلغتنا».

قال أدولسنتولي بهدوء: «لقد ولدت في هذا المنزل». وفي عام 70 بعد الميلاد، نقل تيتوس خمسة أسرى حرب يهود من أورشليم إلى روما بعد تدمير المعبد اليهودي. أطلق عليهم اسم أدولسنتولي، وهي كلمة لاتينية تعني «الشباب». أنا من نسل أحد هؤلاء، جوزيف أدولسنتولي. لقد حصل

على حريته جرّاء تجنيده في الفيلق الروماني الثاني الذي أتى معه إلى هذه الجزيرة عندما كان سكانها من رجال القوارب الداكنة الصغيرة، وهم قبائل سيلوريس السود الذين كانوا أول من أطلقوا على أنفسهم اسم بريطانيين. هل كانت عائلتك إنجليزية لفترة طويلة؟».

«لا أعرف».

«أنت نفسك تتحدث اللغة بشكل مناسب». قال أدولسنتولي بسلاسة.

أخبره روب بمقابلته مع ميرلين، مشيرًا فقط إلى أنهما تحدّثا معًا عن دراسة الطب.

«هل أنت، أيضًا، درست مع الطبيب الفارسي العظيم في أصفهان؟».

هزّ أدولسنتولي رأسه. «لقد التحقت بالجامعة في بغداد، وهي أكبر مدرسة للطب بها أكبر مكتبة ومجموعة أقسام. طبعًا، باستثناء، لم يكن لدينا أفيسينا، الذي يسمونه ابن سينا».

تجاذبا أطراف الحديث عن تلاميذه. ثمة ثلاثة من اليهود من فرنسا والآخر يهودي من ساليرنو.

قال أدولسنتولي بفخر: «لقد اختارني تلاميذي على ابن سينا أو بعض العرب الآخرين. ليس لديهم مكتبة مثل المكتبة التي يمتلكها الطلاب في بغداد، بالطبع، لكني أملك كتاب الوصفات الطبية، الذي يسرد العلاجات بعد طريقة الإسكندر طرالينوس ويخبرنا عن كيفية صنع المراهم، والكمّادات، واللصقات. وهم مطالبون بدراسته باهتمام كبير، بالإضافة إلى بعض الكتابات اللاتينية لبول إيجينا وبعض أعمال بليني. وقبل أن أنتهي من تدريبهم، يجب أن يعرف كل منهم كيفية إجراء الفصد، والكي، وبضع الشرايين، وعلاج إعتام عدسة العين».

شعر روب بتوق شديد، لا يختلف عن عاطفة رجل يحدّق في امرأة يتوق إليها على الفور. «لقد جئت لأطلب منك أن تأخذني كمتدرب».

أمال أدولسنتولي رأسه. «خمنت أن هذا هو سبب وجودك هنا. لكنني لن آخذك».

«هل يمكنني إقناعك إذاً؟».

«لا». قال أدولسنتولي، ليس بقسوة ولكن بحزم: يجب أن تبحث بنفسك عن طبيب مسيحي يأخذك كمتدرب، أو تبقى حلاقًا.

ربما كانت أسبابه هي نفس أسباب ميرلين لكن روب لم يكن يعرف ذلك، لأن الصمت أطبق على الطبيب. نهض وقاده في الطريق إلى الباب، وأومأ برأسه دون فائدة في حين أن روب غادر مستوصفه.

وعلى بعد مدينتين، في ديفايسز، قدّم عرضًا ترفيهيًّا وأسقط كرة وهو يتلاعب بالكرات لأول مرة منذ أن أتقن هذه المهارة. ورغم أن الناس ضحكوا على مزاحه واشتروا الدواء السحري، لكن أتى خلف ستاره صياد شاب من بريستول، في نفس عمره تقريبًا، كان يتبول دمًا وفقد معظم وزنه. أخبر روب أنه يعلم أنه يحتضر.

«هل هناك شيء يمكنك القيام به من أجلي؟».

«ما اسمك؟» سأله روب بهدوء.

«هامر».

«أعتقد أنك تعاني من مرض الدبل، يا هامر. بل إنني متأكد على الإطلاق. لا أعرف كيف أعالجك أو أخفف من ألمك». كان الحلاق سيبيع له أكثر من زجاجة من الدواء. قال دون أن يعرف السبب: «هذه الأشياء هي في الغالب مشروبات روحية، يمكن شراؤها بسعر أرخص في مكان

آخر». لم يخبر مريضًا بذلك من قبل.

شكره الصياد وذهب بعيدًا.

أخبر روب نفسه بمرارة أن أدولسنتولي أو ميرلين سيعرفان كيفية القيام بالمزيد من أجله. كان يعتقد أن الأوغاد الجبناء يرفضون تعليمه في حين أن الفارس الأسود الشرس كان يبتسم ابتسامة عريضة.

وفي ذلك المساء، اجتاحته عاصفة برية مفاجئة مصحوبة برياح عاتية وأمطار غزيرة. ورغم أن هذا اليوم كان هو اليوم الثاني من شهر سبتمبر وبداية هطول الأمطار، لكنه لم يتبلل أو يشعر بالبرودة. لقد شقّ طريقه إلى الملجأ الوحيد، الحانة في ديفايسز، بعدما أحكم لجام الفرس في جذع شجرة بلوط كبيرة في الفناء. وعندما اندفع إلى الداخل وجد أن كثيرين آخرين قد سبقوه.

لم تتبق أي مساحة فارغة في أرضية الحجرة.

وفي زاوية مظلمة تكوّم رجل منهك القوى جلس وذراعاه ملتفتان حول صُرة منتفخة مثل التجار الذين يستغلون بضائعهم. إذا لم يكن روب قد ذهب إلى ماليسبري، فلن يلقي نظرة ثانية على زميله، لكنه الآن رأى من القفطان الأسود والقبعة الجلدية المدببة أن هذا كان يهوديًّا.

قال روب بصوت عالٍ: «لقد كانت تلك الليلة التي قتل فيها المسيح».

تضاءلت الأحاديث في الحانة مع إسهابه في سرد حكاية ملؤها الشغف والحماس، لأن المسافرين يحبون سماع الحكايات والتسرية عن النفس. أحضر له شخص ما كأسًا. عندما أخبر كيف أنكر العوام أن يسوع المسيح كان ملكًا لليهود، بدا الرجل المرهق في الزاوية وكأنه يتقلص.

وبحلول الوقت الذي وصل فيه روب إلى الجزء المتعلق بموقع صلب

المسيح، كان اليهودي قد أخذ صرته وتسلل إلى الخارج في الظلام والعاصفة. توقّف روب عن سرد بقية الحكاية وأخذ مكانه في الزاوية الدافئة.

لكنه لم يجد متعة في إبعاد التاجر أكثر مما اكتسبه من إعطاء دفعة من الدواء السحري إلى الحلاق. كانت الغرفة العامة للحانة تعبق برائحة الملابس الصوفية الرطبة والأجساد المتسخة، وسرعان ما شعر بالغثيان. حتى قبل أن يتوقف المطر، غادر الحانة وخرج إلى عربته وحصانه وقطته.

قاد الحصان إلى مكان قريب ونظيف وأطلق سراح القطة. كانت هناك كومة جافة من الحطب في العربة وتمكّن من إشعال النار. كانت القطة مسيز بافينجتون صغيرة جدًّا على التكاثر، لكنها ربما كانت بالفعل تفوح برائحة أنثوية، لأنه وراء الظلال التي ألقتها النار كان هناك قط يموء. ألقى روب عصا لإبعاده واحتكت القطة البيضاء به.

قال: «نحن زوجان جيدان ووحيدان».

إذا كلفه الأمر حياته، فسيبحث حتى يجد طبيبًا لائقًا قد يتدرب على يديه، كما قرر.

أما بالنسبة لليهود، فقد تحدّث إلى اثنين من أطبائهم فحسب. لا شك أنه يوجد آخرون. أخبر القطة: «ربما يأخذني أحدهم متدربًا إذا تظاهرت له بأنني يهودي».

وهكذا بدأ، كأنه أقل من حلم- التَخَيّل في ثرثرة مضيّعة للوقت؛ كان يعلم أنه لا يمكن أن يكون يهوديًّا عن إقناع بما يكفي للخضوع للتدقيق اليومي لمعلّم يهودي.

لكنه جلس أمام النار وحدّق في عناقيد اللهب، فاختمرت الفكرة في

عقله.

رفعت القطة بطنها الحريري. «ألا يمكن أن أكون يهوديًّا جيدًا بما يكفي لإرضاء المسلمين؟» سأل روب نفسه، والقطة، والرب.

إن الأمر جيد بما يكفي للدراسة مع أعظم طبيب في العالم؟

دهش بفداحة الفكرة وتحيّر، فأسقط القطة ووثبت بعيدًا في العربة. وفي غضون لحظة عادت تجر ما بدا أنه فراء حيوان. ثبت أنها اللحية المستعارة التي كان يرتديها خلال ترّهاته مع الرجل العجوز. التقطها روب. إذا استطاع أن يكون رجلًا عجوزًا بالنسبة لحلاق، فقد سأل نفسه، لماذا لا يمكن أن يكون عبرانيًّا؟ يمكن محاكاة التاجر في الحانة في ديفايسز وآخرين...

صاح: «سأصبح يهوديًّا مزيفًا!».

كان من حسن الحظ أن أحدًا لم يمر، لسماعه وهو يتحدث بصوت عال ولفترة طويلة إلى قطة، لأنه كان سيعلن أنه ساحر يخاطب شياطينه.

لم ينتَبه خوف من الكنيسة. قال للقطة: «أنا أحتقر القساوسة الذين يسرقون الأطفال».

يمكنه أن يربي لحية يهودي كاملة، وبالفعل قد بَقَلَ وجهه.

وسوف يخبر الناس أنه -مثل أبناء ميرلين- نشأ منعزلًا عن قومه، يجهل لسانهم وعاداتهم.

وسوف يشقّ طريقه إلى بلاد فارس!

وسوف يلمس حاشية ثوب ابن سينا!

كان متحمسًا ومذعورًا، وكان ينتابه الخجل أن يكون رجلًا ناضجًا

ومرتعدًا. كانت مثل اللحظة التي عرف فيها أنه سيعبر خارج حدود ساوثوارك لأول مرة.

قيل إنهم في كل مكان، تبًّا لهم. وفي الرحلة سوف يستفيد منهم ويدرس عاداتهم. وبحلول الوقت الذي سيصل فيه إلى أصفهان، سيكون جاهزًا للعب دور اليهودي، وسيتعين على ابن سينا أن يحسن وفادته ويشمله برعايته ويشاركه الأسرار الثمينة للمدرسة العربية.

الجزء الثاني

الرحلة الطويلة

22

المحطة الأولى

غادرت الكثير من البواخر من ميناء لندن إلى فرنسا أكثر من أي ميناء آخر في إنجلترا، لذلك اتّخذ وجهته إلى المدينة التي ولد فيها. وطوال الطريق توقّف من أجل العمل، راغبًا في الانطلاق في مثل هذه المغامرة بأكبر قدر ممكن من الذهب. وبحلول الوقت الذي وصل فيه إلى لندن، كان قد فاته موسم البواخر. كان نهر التايمز مليئًا بصوار السفن الراسية. اعتمد الملك كانوت على أصوله الدنماركية وبنى أسطولًا كبيرًا من سفن الفايكنج التي أبحرت في المياه مثل الوحوش الجامحة. كانت السفن الحربية المهيبة محاطة بحشد من السفن المتنوعة: السفن التجارية الضخمة التي تحولت إلى قوارب صيد في أعماق البحار؛ القوارب الشراعية ثلاثية المجاذيف الخاصة للأثرياء؛ سفن الصبّ ناقلات الحبوب ذات الإبحار البطيء؛ سفن نقل البضائع التجارية ذات صاريتين مزودة بأشرعة مثلثة الشكل؛ سفن شراعية ضخمة من إيطاليا؛ والسفن الطويلة ذات الصاري الواحد، والعمال في الأساطيل التجارية لبلدان الشمال. لم تحمل أي من السفن بضائع أو ركابًا، لأنّ العواصف شديدة البرودة قد بدأت تهبّ بالفعل. وخلال الأشهر الستة التالية المشؤومة في العديد من فترات الصباح، كان رذاذ الملح يتجمّد في القناة، وكان البحارة يعلمون أن المغامرة بالخروج حيثما يلتقي بحر الشمال ويلتحم مع المحيط الأطلسي ستنتهي إلى الغرق في المياه المضطربة.

وفي غمرة الضجيج، في الواجهة البحرية، وقف روب وقرع كأسه من خمر التفاح الفوّار على سطح الطاولة. قال: «إنني أبحث عن سكن مريح

ونظيف حتى يحين الإبحار في موسم الربيع. هل يوجد أحد هنا يعرف شيئًا من هذا القبيل؟».

رمقه رجل قصير، عريض المنكبين، ممتلئ البنية، مفتول العضلات، وهو يفرغ فنجانه ثم أومأ برأسه. قال: «بلى. توفّى أخي توم في الرحلة الأخيرة. ترك أرملته، التي تسمى بيني روس، مع اثنين من الأطفال الصغار لإطعامهم. إذا كنت على استعداد لدفع الأجرة، فأنا أعلم أنها سوف ترحّب بك».

ابتاع له روب مشروبًا ثم تبعه في طريق قصير إلى منزل صغير بالقرب من السوق في إيست تشيبي. بدت بيني روس في ردائها فتاة نحيلة جدًّا، ولها عينان زرقاوان امتلأتا قلقًا وحيرة في وجه صغير ضامر شاحب. كان المكان نظيفًا بما فيه الكفاية ولكنه صغير جدًّا.

قال روب: «لدي قطة وحصان».

قالت بقلق: «أوه، سأرحب بالقطة». كان من الواضح أنها كانت بحاجة ماسة إلى المال.

قال أخو زوجها: «يمكنك أن تحتفظ بالحصان للشتاء. هناك إسطبلات إيجليستون في شارع التايمز».

أومأ روب برأسه. قال: «أنا أعرف المكان».

قالت بيني روس: «هي وصغارها»، وهي تلتقط القطة وتداعبها.

لم يستطع روب رؤية أي انتفاخ زائد في بطنها الأملس. «كيف عرفت بذلك؟» سألها معتقدًا أنها مخطئة. «إنها لا تزال صغيرة، ولدت للتو في الصيف الماضي».

هزّت المرأة كتفيها.

كانت محقة، ففي غضون أسابيع قليلة ازدهرت مسيز بافينجتون. لقد أطعم القطة لقمة سائغة وقدّم طعامًا جيدًا لبيني وابنها. كانت الابنة الصغيرة رضيعة لا تزال ترضع الحليب من ثدي أمها. كان من دواعي سرور روب أن يمشي إلى السوق ويشتري لهم طعامًا، وهو يتذكر معجزة الطعام الطيب بعد قضاء وقت طويل على بطن فارغ يقرقر.

كانت الرضيعة تدعى ألديث والصبي الصغير، الذي يقل عمره عن عامين، كان يدعى إدوين. كل ليلة كان روب يسمع بيني وهي تبكي. لقد مكث في المنزل أقل من أسبوعين لمّا جاءت إلى سريره في الظلام. لم تنبس ببنت شفة لكنها استلقت ووضعت ذراعيها النحيفتين حوله، وظلّت صامتة طوال مضاجعتها. وبكل فضول، تذوّق حليبها ووجده حلوًا.

فلمّا قضى روب منها وطرًا، همّت وعادت إلى سريرها وفي اليوم التالي لم تشر إلى ما حدث.

«كيف توفّي زوجك؟» سألها في حين أنها كانت تعد عصيدة الإفطار.

«العاصفة. قال وولف، وهو أخوه الذي أحضرك إلى هنا، إن زوجي بول قد جرفه التيار». قالت: «لم يكن يجيد السباحة».

استغلته ليلة أخرى، وكانت تطحنه باستماتة. ثم جاء شقيق زوجها المتوفى، الذي كان بلا شك يستجمع شجاعته للتحدث معها، إلى المنزل في ظهيرة أحد الأيام. وبعد ذلك كان وولف يأتي كل يوم بهدايا صغيرة؛ لقد لعب مع ابنة أخيه وابن أخيه، لكن أصبح من الواضح أنه كان يتودد إلى والدتهما، وفي أحد الأيام أخبرت بيني روب أنها وأخو زوجها الذي يسمى وولف سوف يتزوجان. لقد جعل المنزل مكانًا مريحًا يمكن لروب أن ينتظر فيه.

وخلال عاصفة ثلجية، ولّد روب مسيز بافينجتون هررًا جميلة: هرة

بيضاء صورة مصغرة منها، وهرّ أبيض، وزوج من الهرر السود والبيض اللذين من المفترض أنهما يشبهان أبيهما. اقترحت بيني إغراق القطط الأربع على سبيل الخدمة، ولكن بمجرد فطامها، قام روب بحشو سلة بالخرق وأخذها إلى الحانات العامة، واشترى عددًا من المشروبات من أجل التخلص من كل واحدة منها.

وفي مارس، عاد العبيد الذين قاموا بالعمل الشاق في الميناء إلى الواجهة البحرية، وبدأت طوابير طويلة من الرجال والعربات مرة أخرى في الازدحام في شارع التايمز، وتعبئة المستودعات والسفن بالصادرات.

سأل روب أسئلة لا حصر لها للرجال المسافرين وقرر أن رحلته كانت من الأفضل أن تبدأ من مدينة كاليه. أخبره وولف قائلًا: «هذا هو المكان الذي تقصده باخرتي»، وأخذه إلى الأسفل إلى منحدر لرؤية باخرة الملكة إيما. لم تكن باخرة كبيرة مثل اسمها، بل مجرد حوض خشبي قديم رائع به صاري واحد. كان عمال الشحن والتفريغ في الميناء يقومون بتحميلها بألواح من القصدير المستخرج من المناجم في كورنوال. أحضر وولف روب إلى الربّان، وهو رجل من ويلز عابس الوجه الذي أومأ برأسه عندما سئل عما إذا كان سيأخذ راكبًا، وحدد سعرًا يبدو أنه الأجرة.

قال روب: «لدي حصان وعربة».

عبس القبطان. «سيكلفك ذلك كثيرًا يا عزيزي لتنقلهم عن طريق البحر. يبيع بعض المسافرين حيواناتهم وعرباتهم على هذا الجانب من القناة ويشترون حيوانات وعربات جديدة على الجانب الآخر».

فكر روب في الأمر بعض الوقت، لكنه قرر أخيرًا دفع رسوم الشحن، رسوم باهظة كما هي. كانت خطته أن يعمل بصفته حلاقًا جراحًا في أسفاره ورحلاته. كان الحصان والعربة الحمراء لوازم جيدة ولم يكن

لديه اعتقاد بأنه سيجد لوازم أخرى ترضيه كثيرًا.

حلّ شهر أبريل وحلّ معه طقسًا أكثر اعتدالًا، وأخيرًا بدأت البواخر الأولى في الإبحار. رفعت باخرة الملكة إيما مراسيها من طين نهر التايمز في اليوم الحادي عشر من الشهر، وودعته بيني وهي تنتحب بشدة. هبّت رياح جديدة ولكنها لطيفة. شاهد روب وولف وسبعة بحارة آخرين وهم يسحبون على الخطوط، رافعين شراعًا مربعًا ضخمًا مملوءًا بالشقوق عندما كان بالكاد يرتفع، ثم طافوا في الموج المسافر. تحركت الباخرة الكبيرة، وهي محمّلة بحمولتها المعدنية الضئيلة، من نهر التايمز، وانزلقت بشدة عبر المضيق بين جزيرة ثانيت وبر اليابسة، وزحفت على طول ساحل كينت، ثم عبرت القناة بإصرار قبل هبوب العاصفة.

أصبح الساحل الأخضر أكثر قتامة مع انحسارها، حتى تحولت إنجلترا إلى ضباب أزرق ثم بقعة أرجوانية ابتلعها البحر. لم تسنح الفرصة لروب للتفكير في الأفكار النبيلة، لأنه كان يتقيأ بشكل مثير للغثيان.

توقف وولف، وهو يمر على ظهر السفينة، وبصق بازدراء على الجانب. «بحق الإله! نحن على مستوى منخفض من الماء لا يمكن أن ننقلب فيه أو نتدحرج، إنه ألطف طقس وأرق الأجواء والبحر هادئ. إذًا ما الذي يؤلمك؟».

لكن روب لم يستطع الإجابة، لأنه كان يجلس متكئًا حتى لا يلوث سطح السفينة. كان الرعب جزءًا من مأساته، لأنه لم يسبق له أن ركب البحر وأصبح الآن مسكونًا بحكايات حياة رجال غرقى، بدءًا من زوج إيديثا ليبتون وأبنائها مرورًا بتوم روس البائس الذي ترك بيني أرملة. بدت المياه الزيتية التي كان مريضًا وهو يبحر عليها غامضة وبلا قاع، ومن المحتمل أن تكون المأوى لكل الوحوش الشريرة، وقد ندم على تهوره الذي استحوذ عليه حتى غامر في هذه البيئة الغريبة. ومما زاد الطين بلة

تسارع الرياح وارتفاع عباب البحر واصطخابه. وسرعان ما توقع بكل ثقة أن الموت آت لا محالة وكان سيرحب بهذا المصير. بحث عنه وولف وقدّم له عشاءً من الخبز ولحم الخنزير المحمّر المملح البارد. قرر أن بيني اعترفت بزيارتها لسرير روب وكان هذا انتقام زوجها المستقبلي، والذي لم يملك الشجاعة والقوة للرد عليه.

استغرقت الرحلة سبع ساعات متواصلة عندما انقشع الضباب من الأفق المضطرب وانكشفت مدينة كاليه على مهل.

ودّعه وولف على عجل لأنه كان مشغولًا بالشراع. قاد روب الحصان والعربة إلى أسفل الممر وعلى أرض صلبة بدت وكأنها ترتفع وتنخفض مثل البحر. لقد استنتج أن الأرض في فرنسا لا يمكن أن ترتفع وتنخفض أو أنه بالتأكيد سمع عن هذه الغرائب؛ في الواقع، بعد أن سار لبضع دقائق، بدت الأرض أكثر صلابة. ولكن أين كانت وجهته؟ لم تكن لديه أي فكرة عن الوجهة أو ما هو الإجراء التالي الذي يجب أن يقوم به. كانت اللغة بمثابة صدمة. تحدث الناس من حوله بصوت عال، ولم يستطع فهم ما يقولون. توقف أخيرًا وصعد على عربته وصفق بيديه.

صاح قائلًا: «سأوظف شخصًا ما يتحدث لغتي».

تقدّم رجل عجوز ذابل الوجه. كانت لديه سيقان رفيعة وهيكل عظمي يحذر من أنه لن يكون ذا فائدة كبيرة في الرفع أو الحمل. لكنه لاحظ بشرة روب الشاحبة وعينيه المطرفتين. «هل يمكننا التحدث ونحن نحتسي كأسًا من شراب مهدئ؟» قال: «مشروبات التفاح الروحية تصنع المعجزات لتهدئة المعدة»، وكانت اللغة الإنجليزية المألوفة مباركة في أذني روب.

توقفا عند أول حانة عامة وجلسا على طاولة خشنة من خشب الصنوبر

بالقرب من الباب الأمامي.

قال الفرنسي في غمرة ضجيج الواجهة البحرية: «أنا شاربونو. لويس شاربونو».

«روب جيه كول».

وعندما جيء بشراب التفاح الفوّار، شربا نخب بعضهما بعضًا وثبت أن شاربونو كان على حق، لأن المشروبات الروحية جعلت معدة روب تدفأ وجعلته واحدًا من الأحياء مرة أخرى. قال متعجبًا: «أعتقد أنني أستطيع أن آكل».

وهو منشرح الصدر، أمر شاربونو بطلب، وفي الحال أحضرت خادمة شابة إلى طاولتهما خبزًا مقرمشًا، وطبقًا صغيرًا من الزيتون الأخضر، وجبن الماعز الذي كان سيوافق عليه حتى الحلاق.

«يمكنك أن ترى لماذا أحتاج إلى مساعدة شخص ما»، قال روب بحزن: «لأني لا أستطيع حتى أن أطلب الطعام».

ابتسم شاربونو. «طوال حياتي كنت بحارًا. كنت صبيًّا لمّا دخلت سفينتي الأولى إلى لندن، وأتذكر جيدًا لهفتي واشتياقي لسماع اللسان الفرنسي». قال إن نصف وقته على الشاطئ كان يقضى على الجانب الآخر من القناة، حيث كانت اللغة التي يسمعها هي الإنجليزية.

«أنا حلاق جراح أسافر إلى بلاد فارس لشراء الأدوية النادرة والأعشاب العلاجية التي سوف ترسل إلى إنجلترا». كان هذا ما قرر أن يقوله للناس ليتجنب مناقشة الحقيقة القائلة إن السبب الحقيقي وراء ذهابه إلى أصفهان اعتبرته الكنيسة جريمة.

رفع شاربونو حاجبيه. «طريق طويل».

أومأ روب برأسه. «أحتاج إلى مرشد، شخص يمكنه أيضًا أن يترجم لي، حتى أتمكن من تقديم عروض بهلوانية وبيع الدواء السحري ومعالجة المرضى أثناء سفرنا. سأدفع أجرًا سخيًّا».

أخذ شاربونو زيتونة من الطبق ووضعها على مائدة أدفأتها أشعة الشمس. قال: «فرنسا». أخذ زيتونة أخرى. «دوقيات ألمانيا الخمس التي حكمها الساكسون». ثم أخرى وأخرى، حتى تكوّن صف من سبع حبات من الزيتون. قال: «بوهيميا»، مشيرًا إلى الزيتونة الثالثة، «حيث يعيش السلاف والتشيك. التالي هو إقليم المجريين، وهو بلد مسيحي ولكنه مليء بالفرسان البربريين المتوحشين. ثم البلقان، موطن الجبال الشاهقة الواعرة وموطن الشعوب الشرسة طوال القامة. ثم تراقيا، التي لا أعرف عنها سوى القليل باستثناء أنها تمثل الحد النهائي لأوروبا وتضم القسطنطينية. وأخيرًا بلاد فارس، حيث تريد أن تذهب».

فكّر روب بتأمل. مدينتي الأصلية تقع على الحدود بين فرنسا وأرض الألمان، الذين تحدثت بلغاتهم الجرمانية منذ نعومة أظافري. ولذلك، إذا قمت بتوظيفي، فسوف أرافقك إلى الماضي السحيق- «والتقط أول زيتونتين ووضعهما في فمه. «يجب أن أتركك في الوقت المناسب للعودة إلى مدينة ميتز بحلول الشتاء المقبل».

قال روب بارتياح: «اتفقنا».

وفي تلك الأثناء التي ابتسم فيها شاربونو لروب وطلب كأسًا أخرى من شراب التفاح الفوّار، أكل روب بهيبة حبات الزيتون الأخرى المتبقية في الصف، وكأنه يقطع طريقه عبر البلدان الخمسة المتبقية، واحدًا تلو الآخر.

23

غريب في أرض غريبة

لم تكتس فرنسا بالمروج الخضراء مثل إنجلترا ولكنها كانت مشمسة أكثر. بدت السماء أعلى، كان لون السماء في فرنسا أزرق قاتمًا. اكتسى جزء كبير من الأرض بالغابات، كما هو الحال في وطنه. كانت فرنسا من البلدان التي تكتسي بالمزارع الأنيقة للغاية، حيث توجد هنا وهناك قلعة حجرية كئيبة شبيهة بتلك التي اعتاد روب على رؤيتها في الريف؛ لكن بعض اللوردات عاشوا في منازل خشبية كبيرة مثل تلك التي لم تكن شائعة في إنجلترا. كانت هناك ماشية ترعى في المراعي وفلاحون يزرعون القمح.

بالفعل رأى روب بعض العجائب. لاحظت أن «العديد من مباني المزارع الخاصة بكم بلا أسطح».

قال شاربونو: «المطر هنا أقل ندرة مما هو عليه في إنجلترا». «بعض فلاحينا يدرسون الحبوب في الأجران المفتوحة».

ركب شاربونو حصانًا كبيرًا هادئًا، رماديًّا فاتحًا، أبيض تقريبًا. كانت ذراعاه منتفختين ولهما مظهر جذّاب. كل ليلة كان يعتني بالخيل عناية شديدة وينظف السيف والخنجر ويصقلهما. لقد كان رفيقًا جيدًا عند الجلوس أمام نار الخيمة وعلى الطريق.

كل المزارع تزينت ببساتين متفتحة الأزهار. توقف روب في عدة أماكن سعيًا وراء شراء المشروبات الروحية؛ ولم يتمكن من العثور على

الميثيجلين، لكنه اشترى برميلًا من شراب التفاح الفوّار مشابهًا للمشروب الكحولي الذي كان يتمتع به في مدينة كاليه، ووجد أنه صنع دواءً سحريًّا فائق الجودة.

أفضل الطرق هنا، كما هو الحال في كل مكان، بنيت في أوقات سابقة من قبل الرومان لجيوشهم المسيّرة، والطرق السريعة كبيرة ويربط بعضها بعضًا ومستقيمة مثل أعمدة الرماح. أبدى شاربونو ملاحظاته على الطرق بمودة. «إنها في كل مكان، شبكة تغطي العالم. إذا كنت ترغب في ذلك، يمكنك السفر على هذا النوع من الطرق على طول الطريق إلى روما»:

ومع ذلك، عند لافتة تشير إلى قرية تسمى كودري، أوقف روب الحصان وانعطف عن الطريق الروماني. استنكر ذلك شاربونو.

«طرق وعرة، هذه طرق أدغال».

«يجب أن أسافر عبر هذه الطرق لممارسة صنعتي. إنها الطريقة الوحيدة للوصول إلى القرى الصغيرة. أنا أنفخ بوقي. هذا ما كنت أفعله دائمًا».

هزّ شاربونو كتفيه.

كانت المنازل في كودري على شكل مخروطي في الأعلى، مسقوفة بالأغصان أو القش. كانت النساء يطبخن خارج الأبواب، وكان لمعظم المنازل طاولة ومقاعد خشبية بالقرب من النار، تحت مظلة خشنة موضوعة على أربعة أعمدة متينة مقطوعة من الأشجار الصغيرة. ورغم أنه لا يمكن الخطأ أنها لقرية إنجليزية، لكن روب مارس الروتين المعتاد كما لو كان في بلده.

سلّم الطبل إلى شاربونو يدًا بيد وأخبره أن يقرع الطبل. بدا الرجل

الفرنسي مستمتعًا ثم غدا مهتمًا بانتباه شديد عندما بدأ الحصان يقفز على صوت الطبل.

«الترفيه اليوم! الترفيه!» صاح روب.

فهم شاربونو الفكرة دفعة واحدة وبعد ذلك ترجم كل شيء بمجرد أن قاله روب.

وجد روب أن الترفيه هو تجربة مثيرة في فرنسا. ضحك المتفرجون على نفس القصص ولكن في مواضع مختلفة، ربما لأنهم اضطروا إلى انتظار الترجمة. أثناء تلاعب روب بالكرات، وقف شاربونو مذهولًا، وبدا أن تعليقاته المتهدجة جرّاء الانبهار والبهجة تؤثر في الحشد الذي صفّق بشدة.

لقد باعا قدرًا كبيرًا من الدواء السحري.

وفي تلك الليلة، قرب نار الخيمة، ظل شاربونو يستحث روب على ممارسة التلاعب بالكرات، لكن روب رفض. «سوف تشبع من مشاهدتي، لا تتعجل أبدًا».

«شيء مذهل. أنت تقول إنك فعلت هذا منذ أن كنت صبيًّا؟».

«نعم»، أخبره كيف أخذه الحلاق واعتنى به بعد أن توفّي أبواه.

أومأ شاربونو. «لقد حالفك الحظ. في السنة الثانية عشرة من عمري، توفي والدي وجرى تسليمنا أنا وشقيقي إتيان لطاقم قراصنة بصفتنا صبيَي سفينة». تنهّد روب وقال: «صديقي، كانت تلك حياة صعبة».

«اعتقدت أنك قلت إن رحلتك الأولى أخذتك إلى لندن».

«رحلتي الأولى على متن سفينة تجارية، عندما كان عمري سبعة عشر

عامًا. لمدة خمس سنوات قبل ذلك، أبحرت مع القراصنة».

«ساعد والدي في الدفاع عن إنجلترا ضد ثلاثة غزاة. مرتين عندما غزا الدنماركيون لندن. ومرة عندما غزا القراصنة مدينة روتشستر»، قال روب بنبرة وئيدة.

«القراصنة لم يهاجموا لندن. ذات مرة هبطنا في رومني وأحرقنا منزلين وأخذنا بقرة وذبحناها من أجل أن نطعم لحمها».

حدّقا في بعضهما بعضًا.

«كانوا رجالًا سيئين. كان هذا ما فعلته للبقاء على قيد الحياة».

أومأ روب برأسه. «وماذا عن أخيك إتيان؟ ماذا حدث لإتيان؟».

«عندما كبر وبلغ أشده، هرب منهم، عائدًا إلى بلدتنا، حيث تدرّب مع الخبّاز. واليوم هو أيضًا بلغ من العمر أرذله، ويصنع خبزًا استثنائيًّا».

ابتسم روب ابتسامة عريضة وتمنى له ليلة سعيدة.

كل بضعة أيام كانا يقودان العربة في ساحة قرية مختلفة، حيث كان العمل يسير كالمعتاد - الأغاني الهابطة، وصور الإغراء، والعلاجات الكحولية. ففي البداية، ترجم شاربونو العبارات المغرية للحلاق الجراح روب، ولكن سرعان ما اعتاد الفرنسي عليها لدرجة أنه استطاع أن يجمع حشدًا بمفرده. عمل روب بكد واجتهاد، مدفوعًا برغبة لملء كيس نقوده لأنه كان يعلم أن المال هو مصدر الحماية في الأماكن الغريبة.

كان طقس يونيو دافئًا وجافًّا. لقد قضما قطعًا صغيرة من الزيتونة التي تسمى فرنسا، وهما يتجاوزان حافتها الشمالية، وبحلول أوائل الصيف كانا تقريبًا على الحدود الألمانية.

قال له شاربونو ذات صباح: «نحن نقترب من ستراسبورج».

«دعنا نذهب إلى هناك، حتى تتمكن من رؤية أهلك».

قال شاربونو بدقة وصرامة: «إذا فعلنا ذلك، فسنخسر وقت يومين»، لكن روب ابتسم وهزّ كتفيه، لأنه أعرب عن حبه للفرنسي المسن.

تبين أن المدينة جميلة ومزدحمة بالحرفيين الذين كانوا يبنون كاتدرائية عظيمة التي بالفعل أظهرت علامات تبشّر بالبهاء والجمال والتناسق الفائق لشوارع ستراسبورج الواسعة ومنازلها الجميلة. ركبا مباشرة إلى المخبز، حيث اشتبك إتيان ذلق اللسان مع شقيقه شاربونو في عناق حار.

نشر خبر وصولهما على منظومة الاستخبارات الأسرية وفي ذلك المساء جاء ابنا إتيان الوسيمان وثلاث من بناته ذوات العيون الداكنة، الجميع من أطفال وزوجات، للاحتفال؛ والفتاة الأصغر، شارلوت، كانت غير متزوجة وما زالت تعيش في المنزل مع أبيها. أعدت شارلوت عشاءً فخمًا من ثلاث أوزات مطهية بالجزر والإجاص المجفف. كان هناك نوعان من الخبز الطازج. كانت الحشوة المستديرة التي أطلق عليها إتيان «خبز الكلب» لذيذة على الرغم من اسمها، حيث تتكون من طبقات بديلة من القمح والشعير. قال إتيان «إنه غير مكلف، فهو خبز الفقراء»، واستحثّ روب على تجربة رغيف طويل أكثر تكلفة مخبوزًا من الميسلين، دقيق مخلوط من العديد من الحبوب المطحونة جيدًا. أحب روب «خبز الكلب» أكثر من غيره.

كانت أمسية سعيدة، حيث ترجم كل من لويس وإتيان أجواء المرح العام لروب. رقص الأطفال، وصدحت النساء بالغناء، وتلاعب روب بالكرات على العشاء، وعزف إتيان على المزمار وهو يطهو الخبزَ. عندما غادرت الأسرة أخيرًا، قبّل الجميع بعضهم بعضًا تقبيل وداع المسافرين. اختلج

بطن شارلوت وأبرزت ثديها الناضج مؤخرًا، ودعت عيناها الدافئتان النجلاوان روب بسفور. وفي ذلك المساء، في حين أن روب كان مستلقيًا على سريره، تساءل كيف ستكون الحياة إذا كان سيستقر في كنف عائلة مثل هذه العائلة، وفي مثل هذه البيئة الممتعة.

وفي منتصف الليل نهض من سريره.

«هل ثمة شيء ما؟» سأل إتيان بهدوء. كان الخباز جالسًا في الظلام ليس بعيدًا عن المكان الذي تنام فيه ابنته.

«لديّ حاجة إلى التبول».

قال إتيان: «سوف أرافقك»، وخرج الاثنان معًا وأفرغا مثانتهما برفق على جانب الحظيرة. عندما عاد روب إلى سريره المصنوع من القش، استقر إتيان على الكرسي وجلس يراقب شارلوت.

وفي الصباح، أراهما الخباز أفرانه الدائرية الرائعة وأعطاهما كيسًا مليئًا بخبز الكلب المحمص، لذا كان صلبًا وغير قابل للتلف، مثل خبز السفينة.

كان على سكان ستراسبورج انتظار أرغفتهم في ذلك اليوم؛ أغلق إتيان المخبز وركب معهما قليلًا من الطريق. أخذهما الطريق الروماني إلى نهر الراين على بعد مسافة قصيرة من منزل إتيان ثم انعطفا في اتجاه مجرى النهر لبضعة أميال إلى فورد. انحنى الأخوان عن سرجيهما وقبّل بعضهما بعضًا. قال إتيان لروب: «فليكن معك الرب»، وأدار حصانه نحو المنزل أثناء تبول الخيول. كانت المياه الدوامة باردة ولا تزال بنية باهتة من آثار الطين الذي انجرف إلى النهر مع فيضانات الربيع في أقصى المنبع. كان المسار أعلى الضفة المقابلة شديد الانحدار، وكان على الحصان أن يؤدي عملًا شاقًا لسحب العربة إلى أرض التوتونيون.

وسرعان ما أصبحا في الجبال، وهما يتنقلان بين الغابات الكثيفة من أشجار الصنوبر الباسقات. أصبح شاربونو أكثر صمتًا من أي وقت مضى، وهو ما عزاه روب في البداية إلى حقيقة أنه لم يكن يريد مغادرة عائلته ومنزله، ولكن أخيرًا فار الدَّم في عروقه. «أنا لا أحب الألمان، ولا أحب أن تطأ قدماي أرضهم».

«ومع ذلك فقد ولدت بالقرب منهم كما يمكن أن يكون الفرنسي».

عبس شاربونو. قال: «يمكن للمرء أن يعيش حياة قاسية قرب البحر ولا يزال يمقت سمك القرش».

بدا لروب أنها أرض ممتعة. كان الهواء باردًا ولطيفًا. لقد نزلا من جبل طويل وشاهدا في الأسفل رجالًا ونساءً يقطعون ويقلبون قش الوادي ويحصلون على الكلأ الجاف، تمامًا كما كان يفعل المزارعون في إنجلترا. وصعدا جبلًا آخر قادهما إلى مراع صغيرة عالية حيث يرعى الأطفال الأبقار والماعز التي جيء بها للرعي الصيفي في المزارع التي شاهداها أسفل الجبل. كان الطريق ممرًّا مرتفعًا، وفي الوقت الحالي نظرا إلى الأسفل على قلعة كبيرة من الحجر الرمادي الداكن. رجال يمتطون الخيول وهم يتبارزون برماح واقية في ميدان القتال.

هاج وماج شاربونو مرة أخرى. «إنها مقاطعة لرجل ذي شأن عظيم، أحد نبلاء هذا المكان. الكونت سيجدورف العادل».

«العادل؟ لا يبدو أنه اسم لرجل ذي شأن عظيم».

قال شاربونو: «إنه عجوز الآن. حاز على هذا اللقب في ريعان شبابه، وهو يقاوم ضد بامبرج ويأسر منها مئتي سجين. أمر بقطع اليد اليمنى من مئة واليد اليسرى من المئة الأخرى».

هرولت خيولهما وانطلقت حتى توارت القلعة عن أنظارهما.

وقبل الظهيرة أتيا إلى لافتة تشير إلى الطريق الروماني المؤدي إلى قرية إنتبروج وقررا الذهاب إلى هناك وتقديم عرض بهلواني. كانا على بعد بضع دقائق فقط على طول المنعطف عندما أتيا إلى عطفة ورأيا رجلًا يسد منتصف الطريق، وهو يمتطي صهوة جواد بني هزيل وعيناه تذرفان دمعًا. كان الصلع قد غزا رأسه وتراكمت في عنقه القصير طيات من الدهون. كان يرتدي ثيابًا بسيطة خشنة وقد تربّل جسمه وكان فظًّا غليظًا، كما كان الحلاق عندما عرفه روب لأول مرة.

لم يكن هناك متسع لقيادة العربة والمرور من جانبه، ورغم أن أسلحته كانت في غمدها، لكن روب قد كبح جماح حصانه في حين أنهما كانا يتفرسان في ملامح بعضهما بعضًا.

قال الرجل الأصلع شيئًا ما.

قال شاربونو: «إنه يريد أن يعرف ما إذا كان لديك أي خمر».

«قل له لا».

قال شاربونو: «الحثالة ليس وحده»، دون أن يغيّر نبرته، ورأى روب أن رجلين آخرين قد خرجا بركوبهما من خلف الأشجار.

كان أحدهما شابًّا يركب على بغل. ولمّا صعد إلى الرجل السمين، رأى روب تشابهًا في ملامحهما وخمّن أنهما أب وابنه.

الرجل الثالث كان رجلًا ضخمًا وسمجًا يشبه الكادحين. اتخذ موقعًا خلف العربة مباشرة، ومنع أي محاولة للهروب إلى الخلف. ربما كان يبلغ من العمر ثلاثين عامًا. كان صغيرًا وتعسًا وكان يفتقد أذنه اليسرى، مثل مسيز بافينجتون.

كان كل من الرجلين القادمين الجدد يحملان سيوفًا. تحدث الرجل الأصلع بصوت عال إلى شاربونو.

«يقول إنك يجب أن تنزل من العربة وتخلع ثيابك. قال شاربونو: اعلم أنه عندما تفعل ذلك، فإنهم سيقتلونك. «الثياب باهظة الثمن ولا يريدون أن تتلطخ بالدماء».

لم يلاحظ روب المكان الذي أخذ منه شاربونو السكين. رمى الرجل العجوز السكين مع زئير وانتفاضة أرسلت السكين بقوة وبسرعة البرق، واخترقت صدر الشاب الذي يحمل السيف.

ورغم أن الرجل السمين قد صعق، إلا أن الابتسامة لم تتلاش تمامًا من شفتيه عندما غادر روب مقعد العربة.

تقدّم خطوة واحدة على ظهر الحصان العريض ورمى بنفسه، وسحب الرجل من السرج. لقد اصطدما بالأرض وهما يتدحرجان ويتخبطان، كل منهما حاول يائسًا تسديد قبضة معيقة. وأخيرًا، تمكن روب من ضغط ذراعه اليسرى تحت الذقن من الخلف. بدأت قبضة قوية في تحطيم أربية فخذه لكنه استدار وتمكن من توجيه ضربات كالمطرقة على الفخذ. كانت لكمات مروعة خدّرت ساقه.

ودائمًا كان قبل أن يتعارك مع السكارى وأنصاف المجانين، يتعارك معهم وهو تحت وطأة نوبة عارمة من الغضب. وسرعان ما أصبح عازمًا، ثابتًا على فكرة واحدة واضحة وسليمة.

اقتله.

شهق، وأمسك معصمه الأيسر بيده الحرة وسحب للخلف في محاولة لخنق الرجل أو سحق قصبته الهوائية.

ثم امتدت يداه إلى جبهة الرجل وحاول سحب الرأس للخلف بدرجة كافية لكسر العمود الفقري.

اكسره! توسّل.

إلا أن عنقه كان قصيرًا وسميكًا، تراكمت عليه الدهون وبرزت فيه العضلات.

رفع يده ذات الأظافر السوداء الطويلة إلى وجهه. ورغم أن روب أبقى رأسه بعيدًا، إلا أن يده خدشت خده، وهي تستخرج الدم.

كانا يشهقان، ويعتصران ويرتجان مع بعضهما بعضًا مثل عاشقين فاحشين.

عادت اليد. كان الرجل قادرًا على الوصول إلى مستوى أعلى قليلًا هذه المرة في محاولة للوصول إلى العينين.

خمشت أظافره الحادة عينيه، مما جعل روب يصيح.

وبعد ذلك كان شاربونو واقفًا فوقهما. وضع سن سيفه عمدًا، فوجد مكانًا بين الضلوع. دفع السيف بعمق.

تنهد الرجل الأصلع وكأنه راض. توقف عن الشهيق والتحرك، واستلقى ثقيلًا. شمّه روب لأول مرة.

وفي لحظة تمكن من الابتعاد عن الجسد. جلس روب وهو يضمّد وجهه المخموش.

والشاب الذي كان يتدلى على ردف البغل، كانت قدماه العاريتان القذرتان مقيدتين بشدة. حرر شاربونو السكين ومسحه. وأرخى الأقدام الميتة من ركاب السرج وأنزل الجسد إلى الأرض.

«الوغد الثالث؟» شهق روب. لم يستطع أن يوقف تهدج صوته.

بصق شاربونو وقال: «ركض مع أول إشارة قررنا فيها أننا لن نستسلم إلى الموت بهدوء».

«ربما للعادل، من أجل التعزيزات؟».

هزّ شاربونو رأسه. «هؤلاء سفاحون حقراء، وليسوا رجالًا لأحد النبلاء». فتش الجثث، وبدا وكأنه فعل ذلك من قبل. تدلى من عنق الرجل حقيبة صغيرة تحتوي على عملات معدنية. لم يحمل الشاب أي نقود بل كان يرتدي صليبًا ملطخًا. ورغم أن أسلحتهم كانت رديئة، إلا أن شاربونو ألقى بهم في العربة.

تركا قطّاع الطرق حيثما يرقدان في الوحل، وجثة الرجل الأصلع مقلوبة ووجهه للأرض مضرّجًا في دمائه.

ربط شاربونو البغل بمؤخرة العربة وقاد الحصان الهزيل المأسور، وعادا إلى الطريق الروماني.

24

لغات أجنبية

لمّا سأل روب شاربونو أين تعلم رمي السكين، قال الفرنسي العجوز إنه تعلم رمي السكين في شبابه على أيدي القراصنة. «لقد كانت مهارة مفيدة يجب إتقانها أثناء مقاومة الدنماركيين الملعونين والاستيلاء على سفنهم». قال مترددًا. «وأثناء مقاومة الإنجليز الملعونين والاستيلاء على سفنهم»، قال ماكرًا. وبحلول ذلك الوقت، لم يتبرما من الخصومات الوطنية القديمة ولم يساوره أي شك بشأن احترام رفيقه. تبادلا الابتسامات العريضة.

«هل تريني؟».

قال شاربونو: «إذا ما علمتني التلاعب بالكرات»، ووافق روب على ذلك بشغف. كانت الصفقة أحادية الجانب، لأن الأوان قد فات في حياة شاربونو لإتقان مهارة جديدة وصعبة، وفي الوقت القليل الذي قضياه مع بعضهما بعضًا تعلم شاربونو أن يدفع كرتين لأعلى فحسب، على الرغم من أنه كان يستمد الكثير من المتعة من دفع الكرات والإمساك بهم.

كان لدى روب ميزة الشباب، وقد منحته السنوات التي كان يتلاعب فيها بالكرات معصمين قويين يتسمان بالمرونة والخفة، بالإضافة إلى عينين حادتين والقدرة على التوازن وضبط التوقيت.

«يتطلب الأمر سكينًا خاصًا. يحتوي خنجرك على نصل رفيع سوف يتعضض قريبًا إذا بدأت في رميه، أو سيتلف المقبض، لأن المقبض هو مركز وزن الخنجر العادي وتوازنه. يوزع ثقل السكين الذي يرمى في النصل، بحيث تؤدي سرعة المعصم وخفته إلى إرساله بسهولة عند نقطة

الهدف أولًا».

تعلم روب سريعًا كيفية رمي سكين شاربونو طالما كان نصل السكين حادًّا أولًا. كان من الصعب أن يصبح ماهرًا في إصابة الأهداف حيثما يصوب، لكنه اعتاد على الممارسة المنضبطة وكان يرمي السكين على علامة على شجرة كبيرة كلما سنحت له الفرصة.

بقيا يسيران في الطرق الرومانية التي كانت تعج بمزيج من الناس الذين يتحدثون بمزيج من اللغات. ومرة واحدة أجبرتهم جماعة الكاردينال الفرنسي على الخروج من الطريق. سار الأسقف محاطًا بمئتي من الفرسان ومئة وخمسين من الخدم، وكان يرتدي حذاءً قرمزيًّا وقبعة وعباءة رمادية فوق حلة القدّاس التي كانت من قبل بيضاء وأصبحت أغمق من العباءة بسبب غبار الطريق. تحرك الحجاج في الاتجاه العام للقدس فرادى أو في جماعات صغيرة أو كبيرة؛ وفي بعض الأحيان كانوا يقادون أو تلقى عليهم محاضرات من قبل الحجاج المسعّفين، والمؤمنين المتدينين الذين أشاروا إلى أنهم قد أتموا السفر المقدس من خلال ارتداء سعيفتي نخيل متقاطعتين التقطتا في الأرض المقدسة. كانت مجموعات من الفرسان المدرعة تجري بالخيول عدوًا وهم يتدافعون في صياح وصراخ أشبه بصيحات الحرب، وغالبًا ما تكون هذه الفرسان في حالة سكر، وعادة ما تكون مولعة بالقتال ومتعطشة دائمًا للمجد والنهب والأعمال الشيطانية. ارتدى بعض المتعصبين المتدينين القمصان المصنوعة من شعر الحيوانات وزحفوا باتجاه فلسطين على يدين وركبتين ملطختين بالدماء للوفاء بالوعود التي قطعوها إلى الرب أو لأحد القديسين. كانوا منهكين وعزلًا، كانوا فريسة سهلة. عجّت الطرق السريعة بالمجرمين، وكان تطبيق القانون من قبل المسؤولين روتينيًّا في أحسن الأحوال؛ وعندما يلقى القبض على لص أو قاطع طريق وهو متلبس، يعدم على الفور بمعرفة المسافرين أنفسهم، دون محاكمة.

أبقى روب أسلحته طليقة وجاهزة، وكان النصف يتوقع من الرجل الذي فقد أذنه أن يتقدم مجموعة من الركبان للانتقام منهم. حجمه وأنفه المكسور وجروح وجهه المخموش اجتمعت لتجعله يبدو مرعبًا، لكنه أدرك مع تقديم عرض بهلواني أن أفضل حماية له هو الرجل العجوز الذي يبدو ضعيفًا في مظهره وقد استأجره بسبب معرفته باللغة الإنجليزية.

لقد اشتريا المؤن في مدينة أوجسبورج، وهي مركز تجاري مزدحم أسسه الإمبراطور الروماني أغسطس في عام 12 قبل الميلاد، وكانت أوجسبورج مركزًا للصفقات بين ألمانيا وإيطاليا، وكانت مزدحمة بالناس وثمة شواغل؛ ألا وهي التجارة. وأشار شاربونو إلى التجار الإيطاليين الذين كانوا يرتدون الأحذية ذات الأقمشة باهظة الثمن التي ظهرت بحواف مدببة عند أصابع القدم. ولبعض الوقت، رأى روب عددًا متزايدًا من اليهود، ولكن في أسواق أوجسبورج، لاحظ عددًا أكبر منهم من أي وقت مضى، ويمكن التعرف عليهم على الفور في قفاطينهم السوداء والقبعات الجلدية ضيقة الحواف على شكل جرس.

قدم روب عرضًا ترفيهيًّا في أوجسبورج لكنه لم يبع نفس القدر من الدواء السحري كما كان يفعل سابقًا، ربما يكون السبب وراء ترجمة شاربونو بحماس أقل عندما أجبر على استخدام اللغة الحلقية الإفرنجية.

لم يأبه لذلك الأمر، لأن كيس نقوده كان ممتلئًا؛ وعلى أي حال، بعد عشرة أيام لمّا وطأت أقدامهما مدينة سالزبورج، أخبره شاربونو أن عرض الترفيه والتسلية في تلك المدينة سيكون العرض الأخير لهما معًا.

«في غضون ثلاثة أيام سوف نصل إلى نهر الدانوب، وهناك أتركك وأعود إلى فرنسا».

أومأ روب.

«أنا لست ذا فائدة لك بعد الآن. وراء نهر الدانوب توجد بوهيميا، حيث يتحدث الناس لغة غريبة بالنسبة لي».

«مجيئك معي على الرحب والسعة، سواء كنت تترجم أم لا».

لكن شاربونو ابتسم وهزّ رأسه. «حان الوقت للعودة إلى الوطن، هذه المرة سأبقى في موطني».

وفي حانة في تلك الليلة، اشتريا طعامًا للوداع: لحم مدخن مطهو بشحم الخنزير، ومخلل الملفوف، وخبز. لم يعجبهما ذلك الطعام وشربا قليلًا من النبيذ الأحمر الثقيل. دفع للرجل العجوز بسخاء.

كان لدى شاربونو نصيحة أخيرة واقعية. «هناك ريف خطير أمامك. يقال إنه في بوهيميا لا يمكن للمرء أن يميز أو يعرف الفرق بين قطّاع الطرق البرية والمرتزقة المأجورين لدى الأمراء المحليين. لتمر عبر هذه الأرض دون أن تصاب بأذى، يجب أن تكون بصحبة آخرين».

وعد روب أنه سيسعى للانضمام إلى جماعة قوية. عندما رأيا نهر الدانوب، كان نهرًا ضيقًا أكثر مما كان متوقعًا، سريع التدفق وذا سطح زيتي خطير يعرف أنه يشير إلى مياه عميقة وخطيرة. بقي شاربونو يومًا أطول مما وعد به، وأصر على الركوب معه في اتجاه مجرى النهر إلى قرية لينز المقفرة نصف المأهولة بالسكان، حيث تنقل عبّارة كبيرة ذات طوف خشبي الركاب والبضائع عبر امتداد هادئ من الممر المائي الواسع.

قال الفرنسي: «حسنًا».

«ربما في يوم من الأيام سنرى بعضنا بعضًا مرة أخرى».

ردّ شاربونو: «لا أعتقد ذلك».

تعانقا.

«تحيا للأبد، روب جيه كول».

«تحيا للأبد، لويس شاربونو».

نزل من العربة وذهب لترتيب عبوره في حين أن الرجل العجوز انطلق بعيدًا وهو يقود الحصان البني الهزيل. كان النّوتيّ ضخم البنية متجهمًا مصابًا بنزلة برد شديدة، واستمر في إزالة المخاط من شفته العليا بلسانه. كانت مسألة الاتفاق على الأجرة صعبة لأن روب لم يكن يعرف اللغة البوهيمية، وفي النهاية شعر أن الأجرة كان مبالغًا فيها. وعندما عاد إلى العربة بعد مساومة صعبة بلغة الإشارة، كان شاربونو قد غاب عن الأنظار بالفعل.

وفي يومه الثالث من الانتقال إلى بوهيميا، التقى بخمسة من الألمان السمان متوردي الوجنتين وحاول إعطاء فكرة أنه يريد مصاحبتهم في السفر. ورغم أن طريقته كانت مهذبة؛ عرض الذهب وأشار إلى أنه على استعداد للطهي والقيام بالأعمال المنزلية الأخرى في الخيمة، إلا أنه لم يلق أي ابتسامة من أي منهم، رأى الأيادي على مقابض خمسة سيوف فحسب.

قال في نهاية المطاف: «الملاعين»، ثم ابتعد. لكنه لا يمكن أن يلقي باللائمة عليهم، لأن جماعتهم كانت قوية بالفعل وهو غير معروف، قد يمثل لهم خطرًا.

سحبه الحصان من الجبال إلى هضبة كبيرة على شكل صحن تحيط بها التلال الخضراء. كانت هناك حقول مزروعة من التربة الرمادية

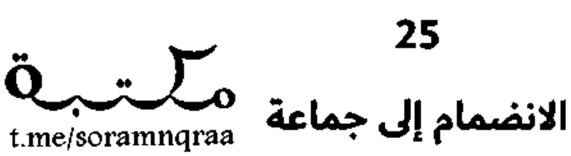
حيث كان الرجال والنساء يكدحون فوق القمح والشعير والبنجر، لكن معظمها كان عبارة عن غابة مختلطة. وفي الليل، ليس بمكان بعيد، سمع عواء الذئاب. لقد أبقى النار مشتعلة على الرغم من أن الجو لم يكن باردًا، وكانت مسيز بافينجتون تموء على أصوات الحيوانات البرية، وتنام على سلسلة ظهرها الشوكية متحجرة قبالته.

ورغم أنه اعتمد على شاربونو في أشياء كثيرة، إلا أنه وجد أن أهم هذه الأشياء هي الرفقة. والآن قاد عربته في الطريق الروماني وعرف معنى الكلمة وحده، لأنه لا يستطيع التحدث إلى أي من الأشخاص الذين التقى بهم.

وبعد أسبوع من انفصاله عن شاربونو، رأى صدفة ذات صباح جثة مشوهة ومتعرية لرجل يتدلى من شجرة على جانب الطريق. كان الرجل المشنوق نحيلًا ومخنوقًا ويفتقد أذنه اليسرى.

انتابه الندم لأنه لم يكن قادرًا على إبلاغ شاربونو بأن آخرين قد لحقوا بقاطع طريق ثالث ونالوا منه.

25



الانضمام إلى جماعة

عبر روب الهضبة الواسعة ودخل مجددًا إلى الجبال. لم تكن الجبال شاهقة الارتفاع مثل تلك التي عبرها بالفعل لكنها كانت جبالًا وعرة بما يكفي لإبطاء تقدمه. اقترب مرتين أخريين من جماعات من المسافرين على الطريق وحاول الانضمام إليهم، لكن في كل مرة كان يرفض السماح له بذلك. وفي صباح أحد الأيام، مرت جماعة من الفرسان يرتدون أسمالًا بالية من أمامه وصاحوا عليه بشيء بلغتهم الغريبة، لكنه أومأ لهم بالتحية وشاح بنظره بعيدًا، لأنه رأى أنهم متوحشون ويائسون. شعر أنه إذا سافر معهم فسوف يلقى حتفه قريبًا.

وعند وصوله إلى مدينة كبيرة، ذهب إلى الحانة وكان مغتبطًا جدًّا ليجد أن صاحب الحانة يعرف بضع كلمات من اللغة الإنجليزية. ومن هذا الرجل عرف أن المدينة كانت تسمى برنو. كان الأشخاص الذين سافر عبر أراضيهم في الغالب أفراد في قبيلة تسمى التشيك. لم يكن بإمكانه أن يعرف أي شيء آخر، حتى من حيث حصل الرجل على حصيلته الضئيلة من الكلمات الإنجليزية، لأن التبادل البسيط قد أضعف القدرة اللغوية لصاحب الحانة. عندما غادر روب الحانة، وجد رجلًا في مؤخرة عربته، يفتش في متاعه.

قال بهدوء: «اخرج». سحب سيفه لكن الرجل قفز من العربة ونزل قبل أن يتمكن من إيقافه. كان كيس نقوده لا يزال مسمرًا بأمان أسفل أرضية العربة، والشيء الوحيد المفقود هو حقيبة من القماش ملأى

بالأدوات المستخدمة في الخدع والألعاب السحرية. لم يمنحه ذلك راحة كبيرة للتفكير في وجه السارق عندما فتح الحقيبة.

وبعد ذلك كان يصقل أسلحته يوميًّا، مع الاحتفاظ بطبقة رقيقة من الشحوم على نصال سيفه وخنجره حتى ينزلقا من الغمد عند أقل عملية سحب. وفي الليل، كان ينام قليلًا أو لا ينام على الإطلاق، مستمعًا إلى أي صوت يشير إلى أن شخصًا ما يتسلل إليه. كان يعلم أنه لا يحدوه سوى أمل طفيف إذا هاجمه قطيع مثل الفرسان الذين يرتدون الأسمال البالية. ظل وحيدًا ومعرضًا للخطر لمدة تسعة أيام أخرى، حتى لاح ذات صباح الطريق في الأدغال، ولدهشته وفرحته وأمله المتزايد، رأى أمامه قرية صغيرة كانت قد اجتاحتها قافلة كبيرة.

أحاطت القافلة منازل القرية الستة عشر بعدة مئات من الحيوانات. رأى روب الخيول والبغال من كل الأحجام والأوصاف، سواء التي تحمل على ظهورها السروج للركبان أو المربوط لجامها في العربات والعربات التي تجرها الخيول والشاحنات المتنوعة الكبيرة. ربط الحصان بشجرة. كان الناس في كل مكان، وفي حين أنه كان يتدافع بينهم، اخترقت أذنيه ثرثرة من لغات غير مفهومة.

قال لرجل اضطلع بمهمة شاقة لتغيير عجلة، «أرجوك. أين قائد القافلة؟» لقد ساعد في رفع العجلة إلى المحور لكنه لم يربح سوى ابتسامة ممتنة وإيماءة رأس لا تنبئ بشيء.

«قائد القافلة؟» سأل المسافر التالي، الذي كان بصدد إطعام زوج من الثيران الكبيرة بكرات خشبية مثبتة في طرفي قرونهما الطويلة.

«آه، القائد»، قالها بالألمانية. «كيرل فريتا»، قال الرجل، وأشار إلى نهاية الصف.

بعد ذلك كان الأمر سهلًا، إذ بدا أن اسم كيرل فريتا معروف للجميع. وكلما نطق روب ذلك الاسم، تلقى إيماءة وإصبعًا للتوجيه، حتى وصل أخيرًا إلى مكان نصبت فيه طاولة في حقل بجوار عربة كبيرة مربوطة بستة من أكبر خيول الجر الكستنائية المتماثلة التي رآها على الإطلاق. كان على الطاولة سيف خارج غمده وخلفه جلس شخص مهيب الجانب يسدل شعره البني الطويل في ضفيرتين كثيفتين وكان منغمسًا في حديث مع أول الصف الطويل من المسافرين الذين ينتظرون التحدث معه.

وقف روب في نهاية الصف. «هذا هو كيرل فريتا؟» سأل.

أجاب أحد الرجال: «نعم، إنه هو».

حدّقا في بعضهما بعضًا في فرح.

«أنت إنجليزي!».

قال الرجل بخيبة أمل طفيفة: «اسكتلندي. لقاء طيب! لقاء طيب!» غمغم بكلام غير مفهوم، وأمسك كلتا يدي روب. كان طويل القامة ونحيلًا، وشعره أشيب طويل، وحليق الذقن على غرار البريطانيين. كان يرتدي بذلة سفر من قماش أسود خشن لكنه كان قماشًا جيدًا حيك بطريقة جيدة.

قال: «جيمس جيكي كولين. مربي أغنام وتاجر أصواف، مسافر إلى الأناضول مع ابنتي بحثًا عن سلالات أنقى وأفضل من الكباش والنعاج».

«روب جيه كول، حلاق جراح. ذاهب إلى بلاد فارس لشراء الأدوية الثمينة».

حدّق كولين في وجهه بإعجاب تقريبًا. تحرك الصف، لكن كانا لديهما ما يكفي من الوقت لتبادل المعلومات، ولم تكن الكلمات الإنجليزية أكثر

سلاسة وتناغمًا من قبل.

كان برفقة كولين رجل يرتدي سروالًا بني اللون ومعطفًا رماديًا رثًا؛ قال إن هذا سيريدي، الذي استأجره بصفته خادمًا ومترجمًا فوريًا.

ولدهشة روب، عرف أنه لم يعد في بوهيميا ولكن دون علمه عبر إلى بلاد المجر قبل يومين. القرية التي عبروها كانت تسمى فاك. وعلى الرغم من توفر الخبز والجبن من السكان، لكن المؤن والإمدادات الأخرى كانت باهظة الثمن.

أقامت القافلة في مدينة «أولم»، في دوقية شوابيا.

أخبره كولين سرًّا: «فريتا ألماني. لا يبدو أنه يتكلف ليكون لطيفًا ولكن ينصح بالتودد له، حيث توجد تقارير موثوقة تفيد بأن قطاع الطرق المجريين يفترسون المسافرين الفرديين والجماعات الصغيرة، وليست هناك قافلة كبيرة أخرى في هذا الجوار».

بدا أن أخبار قطاع الطرق كانت معلومة عامة، ومع تقدمهم نحو الطاولة انضم متقدمون آخرون إلى الصف. وخلف روب مباشرة، حسب اهتمامه، كان هناك ثلاثة يهود.

قال كولين بصوت عال: «في مثل هذه القافلة، يجب على المرء أن يسافر مع كل من الناس دماث الخلق والوضعاء». كان روب يراقب الرجال الثلاثة في قفاطينهم الداكنة وقبعاتهم الجلدية. كانوا يتحدثون مع بعضهم بعضًا بلغة غريبة أخرى، لكن بدا أن عيني الرجل الأقرب إليه تطرف لمّا تحدث كولين، كما لو كان يفهم ما قيل. أشاح روب بنظره بعيدًا.

ولّما وصلوا إلى طاولة فريتا، اعتنى كولين بأعماله الخاصة، ثم كان

لطيفًا بما يكفي لتقديم سيريدي بصفته مترجمًا لروب.

قائد القافلة، من ذوي الخبرة والسرعة في إجراء مثل هذه المقابلات، عرف بكفاءة اسمه وعمله ووجهته.

قال سريدي: «يريدك أن تفهم أن القافلة لا تذهب إلى بلاد فارس. بعد الوصول إلى القسطنطينية يجب أن تقوم بترتيب آخر».

أومأ روب برأسه، ثم أسهب الألماني في الحديث. «الرسوم التي يجب أن تدفعها إلى السيد فريتا تساوي اثنين وعشرين بنسًا فضيًّا إنجليزيًّا، لكنه لا يرغب في المزيد من هذه البنسات، لأن سيدي كولين سيدفعها بالبنسات الإنجليزية ويقول السيد فريتا إنه لا يستطيع التخلص بسهولة من الكثير منها. يسأل هل أنت قادر على الدفع بالدينار».

«أنا».

قال سريدي بسلاسة: «سيأخذ سبعة وعشرين دينارًا».

تردّد روب. كان لديه الدينار لأنه باع الدواء السحري في فرنسا وألمانيا، لكنه كان يجهل سعر الصرف العادل.

سمع صوتًا من خلفه مباشرة يقول: «ثلاثة وعشرون»، كان صوتًا خفيضًا جدًّا لدرجة أنه اعتقد أنه خيّل له.

قال بحزم: «ثلاثة وعشرون دينارًا». قبل قائد القافلة العرض بهدوء جم ونظر في عينيه مباشرة.

«يجب عليك توفير المؤن والإمدادات الخاصة بك». قال المترجم: «إذا تباطأت أو أجبرت على التخلف عن الركب، فسوف نتركك». يقول إن القافلة ستغادر هنا مؤلفة من تسعين جماعة منفصلة يبلغ مجموعها أكثر من مئة وعشرين رجلًا. يتطلب حارسًا واحدًا لكل عشر جماعات،

لذلك كل اثني عشر يومًا عليك أن تقف في نوبة حراسة طوال الليل».

«موافق».

يجب أن يأخذ القادمون الجدد مكانًا في نهاية صف المسيرة، حيث يكون الغبار في أسوأ حالاته ويكون المسافر أكثر عرضة للخطر. ستتبع السيد كولين وابنته. في كل مرة يتخلف فيها شخص ما أمامك، يمكنك التحرك مسافة مكان واحد. كل جماعة ستنضم إلى القافلة من الآن وصاعدًا ستسافر خلفك».

«موافق».

«وإذا مارست صنعتك بصفتك حلاق جراح لأعضاء القافلة، يجب أن تشارك جميع الأرباح بالتساوي مع السيد فريتا».

قال على الفور: «لا»، لأنه كان من الإجحاف أن يضطر إلى إعطاء نصف أرباحه لهذا الألماني.

تنحنح كولين. رمق روب الاسكتلندي بنظرة، ورأى الرعب مرسومًا على وجهه وتذكر ما قاله عن قطّاع الطرق المجريين.

قال صاحب الصوت الخفيض من خلفه: «اعرض عشرة، وخذ ثلاثين».

قال روب: «سأوافق على التنازل عن عشرة بالمئة من أرباحي».

نطق فريتا بكلمة مقتضبة اعتبرها روب المعادل الألماني لكلمة «الهراء». ثم أصدر صوتًا قصيرًا آخر.

«أربعون، كما يقول».

«قل له عشرين».

اتفقا على ثلاثين في المئة. عندما شكر كولين على استخدام المترجم الفوري وذهب بعيدًا، نظر روب سريعًا إلى اليهود الثلاثة. كانوا رجالًا متوسطي القامة، وجوههم سمراء داكنة. الرجل الذي وقف خلفه مباشرة كان له أنف كبير وشفاه غليظة على لحية بنية كاملة خطّها الشيب. لم ينظر إلى روب ولكنه تقدّم خطوة نحو الطاولة بالتركيز الكلي لشخص اختبر خصمًا بالفعل.

تلقى القادمون الجدد أمرًا بأخذ مواقعهم في صف المسيرة خلال فترة ما بعد الظهيرة والتخييم في مكان تلك الليلة، لأن القافلة ستنطلق بعد الفجر مباشرة. وجد روب موقعه بين كولين واليهود، على حصان غير مقيد، وقاده إلى العشب على بعد بضعة أوتاد. كان سكان قرية فاك ينتهزون آخر فرصة لهم للاستفادة من المكاسب المفاجئة عن طريق بيع المؤن، وقد جاء مزارع وحمل بيضًا وجبنًا أصفر يريد من أجله أربعة دنانير، وهو سعر صادم. بدلًا من الدفع، قام روب بمقايضة ثلاث زجاجات من الدواء السحري وحصل على العشاء.

وفي حين أنه كان يأكل، كان يشاهد جيرانه يراقبونه. وفي الخيمة أمام خيمته، أحضر سيريدي الماء لكن ابنة كولين كانت تطهو الطعام. كانت طويلة القامة جدًّا ولها شعر أحمر. كان هناك خمسة رجال في الخيمة خلف خيمته. عندما انتهى من تنظيف مكانه بعد تناول طعامه، سار إلى المكان الذي كان يفرك فيه اليهود حيواناتهم. كان لديهم خيول جيدة بالإضافة إلى بغلين من البغال التي تجر الأحمال، من المفترض أن أحدهما كان يحمل الخيمة التي أقاموها. شاهدوا روب في صمت وهو يسير إلى الرجل الذي وقف وراءه أثناء تعامله مع فريتا.

«أنا روب جيه كول. أتمنى أن أشكرك».

«من أجل لا شيء، من أجل لا شيء». رفع الفرشاة عن ظهر الحصان.

«أنا مئير بن آشر». قدّم رفاقه. كان اثنان معه عندما رآهما روب لأول مرة في الصف: جيرشوم بن شموئيل، الذي كان لديه ثؤلول على أنفه وكان قصيرًا وبدا قاسيًا مثل قطعة من الخشب، ويهوذا هكوهين، أقنى الأنف وصغير الفم، وله شعر كثيف أسود لامع ونفس اللحية. الاثنان الآخران كانا أصغر سنًّا. كان سيمون بن هاليفي رفيعًا وصارمًا، كان تقريبًا نحيفًا وطويلًا جدًّا بلحية ناعمة. وكان توفيه بن مئير صبيًّا في الثانية عشرة من عمره، وكان كبيرًا بالنسبة لعمره مثل روب.

قال مئير: «ابني».

ران الصمت عليهم جميعًا. كانوا يراقبونه بحرص شديد. «هل أنتم تجار؟».

أومأ مئير برأسه. «في السابق عاشت عائلتنا في مدينة هاملن في ألمانيا. قبل عشر سنوات، انتقلنا جميعًا إلى أنجورة، في بيزنطة، والتي نسافر منها شرقًا وغربًا، نشتري ونبيع».

«ماذا تشتري وتبيع؟».

هزّ مئير كتفيه. «القليل من هذا، القليل من ذاك».

كان روب مسرورًا بالإجابة. لقد أمضى ساعات في التفكير في تفاصيل زائفة ليخبرها عن نفسه، والآن يرى أنها غير ضرورية؛ رجال الأعمال لم يفصحوا عن معلومات كثيرة.

«إلى أين تسافر؟» قال الشاب الذي يدعى سيمون، وهو يصدم روب، الذي قرر أن مئير فقط يعرف اللغة الإنجليزية.

«بلاد فارس».

«بلاد فارس. ممتاز! ألديك عائلة هناك؟».

«لا، أنا مسافر إلى هناك للشراء، واحد أو اثنين من الأعشاب، وربما بعض الأدوية».

قال مئير: «آه». نظر اليهود بعضهم إلى بعض وفهموا على الفور. حانت لحظة المغادرة، وودعهم وقال لهم: طابت ليلتكم.

كان كولين يحدّق بهم في حين أنه كان يتحدث إلى اليهود، وعندما اقترب روب من خيمته، بدا أن الاسكتلندي قد فقد معظم ألفته ومودته الأولى.

قدّم ابنته مارجريت دون حماس، على الرغم من أن الفتاة ألقت التحية على روب بأدب جم.

وعن قرب، كان شعرها الأحمر شيئًا سيكون مصدر متعة عند لمسه. كانت عيناها جذّابة وحزينة. بدت عظام وجنتيها المستديرة العالية كبيرة مثل قبضة الرجل وأنفها وفكها كانا مليحين لكنهما ليسا رقيقين. كان النمش يغزو وجهها وذراعيها على غير العادة ولم يكن روب معتادًا على أن يرى امرأة طويلة جدًّا.

وفي حين أنه كان يحاول حسم ما إذا كانت جميلة، جاء فريتا وتحدث لفترة وجيزة إلى سيريدي.

قال المترجم الفوري: «إنه يتمنى أن يكون السيد كول حارسًا هذه الليلة».

ولذلك، عندما حلّ الغسق، بدأ روب في السير في موقعه، الذي بدأ بموقع كولين وامتد عبر ثماني خيمات بعد خيمته.

ولأنه كان يمشي ويتجول، رأى المزيج الغريب الذي جمعته القافلة. وبجانب عربة مغطاة، كانت امرأة ذات بشرة زيتونية بشعرها الأصفر ترضع طفلًا في حين أن زوجها كان جالسًا القرفصاء بالقرب من النار

وقام بصقل أسلحته. جلس رجلان وكانا يصقلان الأسلحة. صبي أطعم الحبوب لثلاث دجاجات سمان في قفص خشبي تقليدي. كان رجل مهزول وامرأته السمينة يحدقان في بعضهما بعضًا ويتشاجران فيما اعتقد روب أنهما فرنسيان.

وفي جولته الثالثة في المنطقة، ولأنه كان يمر بخيمة اليهود، رأى أنهم وقفوا معًا وتمايلوا، وهم يرددون ما أدرك أنه صلاتهم المسائية.

بدأ يبزغ قمر أبيض كبير من الغابة وراء القرية وشعر بأنه دون كلل وملل وبكل ثقة، لأنه فجأة أصبح جزءًا من جيش يضم ما يربو عن مئة وعشرين رجلًا، ولم يكن ذلك مثل السفر بمفرده عبر أرض غريبة تزخر بالأعداء.

أربع مرات خلال الليل احتج على شخص ما ووجد أنه كان أحد الرجال الذين ذهبوا خارج الخيمة لتلبية نداء الطبيعة.

وبحلول الصباح، عندما كان يشعر بالنعاس بشكل لا يحتمل، خرجت ابنة كولين من خيمة أبيها. مرت بالقرب منه دون الاعتراف بحضوره. رآها بوضوح في ضوء القمر الساطع. بدا رداؤها شديد السواد وبدت سيقانها الطويلة، التي لا بد أنها كانت مبللة بالندى، ناصعة البياض.

أحدث عن عمد أكبر قدر ممكن من الضجيج أثناء سيره في الاتجاه المعاكس للاتجاه الذي أخذته، إلا أنه راقبها من بعيد حتى رآها تعود بأمان، ثم بدأ يمشي مرة أخرى.

ولما هتك الصبح ستار الليل، ترك موقعه وأعد فطورًا سريعًا من الخبز والجبن. وإبان تناوله الطعام، تجمع اليهود خارج خيمتهم لأداء صلاة الشروق. ربما سيكونون مصدر إزعاج، لأنهم بدوا أناسًا متعبدين للغاية. قاموا بربط الأغطية السوداء الصغيرة على جباههم ولفوا شرائط جلدية

رفيعة حول سواعدهم حتى تشبه أطرافهم أعمدة الحلاق في عربة روب، ثم فقدوا ذاتهم بصورة تنذر بالخطر في أحلام اليقظة، وغطوا رؤوسهم بشالات الصلاة. شعر بالارتياح لّما انتهوا.

كان قد ألجم الحصان في وقت مبكر جدًا، وكان عليه الانتظار. وعلى الرغم من أن من كانوا على رأس القافلة انطلقوا بعد الفجر بقليل، فإن الشمس كانت قد أشرقت قبل أن يحين دوره. قاد كولين حصانًا أبيض هزيلًا، تبعه خادمه سيريدي يمتطي مهرة رمادية قذرة ويقود قطيع من ثلاثة من خيول الجر. لماذا يحتاج شخصان إلى قطيع من ثلاثة حيوانات؟ جلست الابنة في ردائها الأسود فخورة بنفسها. اعتقد روب أن عجز المرأة وعجز الحصان كانا رائعين، وتبعهما بكل سرور.

26

اللغة الفارسية

انتظموا على الفور في روتين الرحلة. وخلال الأيام الثلاثة الأولى، كان الاسكتلنديون واليهود ينظرون إليه بأدب وتركوه وشأنه، ربما كان منزعجًا من وجهه المخموش والعلامات الغريبة المرسومة على العربة. لم يمتعض من الخصوصية أبدًا، وكان راضيًا عن تركه وحده لأفكاره.

سارت الفتاة في ركبها أمامه باستمرار، وحتمًا كان يراقبها حتى بعد أن قاموا بالتخييم. بدت وكأنها تتشح ثوبين أسودين، تغسل أحدهما كلما سنحت الفرصة. ومن الواضح أنها كانت مسافرة مخضرمة بدرجة كافية بحيث لا تقلق بشأن المضايقات ولكن ثمة شيء ألمّ بها وألّم بكولين، ثمة مسحة من الكآبة الغامضة؛ افترض من ثيابهما أنهما في حالة حداد.

وفي بعض الأحيان كانت تصدح بالغناء في هدوء.

وفي صباح اليوم الرابع، عندما تباطأت القافلة في التحرك، ترجلت عن حصانها وقادته، ومدّت ساقيها. نظر إليها روب وهي تسير بالقرب من عربته وابتسم لها. كانت عيناها نجلاوين، زرقاوين مثل الزنابق. كان لوجهها ذي العظام العالية صفحتان طويلتان ورقيقتان. كان فمها كبيرًا وناضجًا مثل كل شيء فيها، بيد أن كلامها سريع ومعبر بشكل يثير الفضول. «ما هي لغة أغانيك؟».

»اللغة الغيلية. ما نطلق عليها الغيلية الأيرلندية».

«كنت أعتقد ذلك».

«أوه. كيف يمكن من خلال الغيلية الإنجليزية التعرف على الغيلية الأيرلندية؟».

«ما هي الغيلية الإنجليزية؟».

«إنه اسمنا لأولئك الذين يعيشون جنوب اسكتلندا».

«أشعر أن الكلمة ليست مجاملة».

اعترفت قائلة: «آه، إنها ليست كذلك»، وملأت الابتسامة وجهها هذه المرة.

«ماري مارجريت!» نادى والدها بحدة. تحركت نحوه في التو والحال، وهي ابنة اعتادت على الطاعة. ماري مارجريت؟

أدرك أنه لا بد أن عمرها قريب من العمر الذي ستكون عليه آن ماري الآن. ورغم أن شعر أخته كان بنيًّا عندما كانت طفلة صغيرة، إلا أنه كان به مسحات من خضاب أحمر...

لم تكن الفتاة آن ماري، فقد ذكّر نفسه بحزم. كان يعلم أنه يجب أن يتوقف عن رؤية أخته في كل امرأة لم تكن كبيرة في السن، لأن هذا النوع من السلوى قد يصبح ضربًا من ضروب الجنون.

لم تكن هناك حاجة للخوض في الأمر، لأنه لم يكن لديه اهتمام حقيقي بابنة جيمس كولين. كان هناك ما يكفي من الأشياء الناعمة في العالم، وقرر أنه سيبقى بعيدًا عن هذه الفتاة.

ومن الواضح أن والدها مصمم على منحه فرصة ثانية للتحدث، ربما لأنه لم يرَه يتحدث مرة أخرى مع اليهود. وفي الليلة الخامسة على الطريق، جاء جيمس كولين لزيارته حاملًا إبريقًا من خمور الشعير، وحيّاه روب ووافق على أن يرشف رشفة ودية من الزجاجة.

«هل تعرف الخراف، يا سيد كول؟».

ابتسم كولين في حبور عندما قال إنه لم يعرف، وأنه مستعد لتثقيفه.

«هناك خراف وخراف. في كيلمارنوك، موقع ممتلكات كولين، غالبًا ما تكون النعاج صغيرة بوزن يصل إلى اثني عشر حجرًا. وقد قيل لي إنه في الشرق سنجد النعاج ضعف هذا الحجم، بصوف طويل بدلًا من الصوف القصير الأكثر كثافة كما في نعاج اسكتلندا، لذلك ستكون مصدرًا للثراء لدرجة أنه عندما يغزل الصوف ويحوّل إلى سلع، فإنه سوف يدر ربحًا طائلًا».

قال كولين إنه يعتزم شراء سلالة بغرض التربية عندما يجد الأفضل، وإعادتها معه إلى كيلمارنوك.

قال روب لنفسه إن ذلك سيتطلب رأس مال جاهزًا، ومقدارًا لا بأس به من أموال التجارة، وأدرك سبب احتياج كولين لقطيع من خيول الجر. ورأى أنه قد يكون من الأفضل لو كان لدى الاسكتلندي حرّاس شخصيون.

«إنها رحلة بعيدة أنت فيها. ستكون بعيدًا لوقت طويل عن حيازة أغنامك».

«لقد تركتها في رعاية موثوقة من الأقارب الموثوق بهم. لقد كان قرارًا صعبًا، لكن... وقبل ستة أشهر من مغادرتي اسكتلندا، دفنت زوجتي البالغة من العمر 22 عامًا». تجّهم كولين ووضع الإبريق في فمه ليبتلع رشفة طويلة.

اعتقد روب أن هذا من شأنه أن يفسر حزنهما. وبحكم صنعته فالحلاق الجراح بداخله جعله يسأل عن سبب وفاتها.

سعل كولين. «كانت هناك أورام في ثدييها، كتل صلبة. لقد أدرك الشحوب وجهها وأصاب الهزال جسمها، وفقدت شهيتها للطعام وفقدت إرادتها. وأخيرًا استبدّ بها ألم لا يحتمل. لقد استغرقت وقتًا لتلفظ أنفاسها لكن روحها فارقت جسدها قبل أن أعتقد أنه يمكن أن يكون قد حدث. كان اسمها جورا. حسنًا... ورغم أنني عاقرت الخمر لمدة ستة أسابيع، إلا أنني لم أجد سلواي. ولسنوات، كنت أنخرط في الكلام الفارغ عن شراء سلالة جيدة في الأناضول، ولم أفكر مطلقًا في أن ذلك سيحدث. أنا قررت الذهاب فحسب».

قدّم الإبريق إلى روب ولم يبد أنه تبرّم عندما هزّ روب رأسه. قال وابتسم بلطف: «وقت التبول». لقد احتسى بالفعل كمية كبيرة من محتوى الإبريق وعندما حاول النهوض على قدميه ليهم بالمغادرة، اضطر روب إلى مساعدته.

«طابت ليلتك، يا سيد كولين. أرجوك عد مجددًا».

«طابت ليلتك، يا سيد كول».

وبمشاهدته وهو يبتعد مترنحًا، رأى روب أنه لم يذكر ابنته ولو مرة واحدة.

وبعد ظهر اليوم التالي، طرح عامل فرنسي يدعى فيليكس رو، في الثامنة والثلاثين في خط المسيرة، أرضًا عندما تعثر جواده بحيوان الغرَيْر. اصطدم بالأرض بشدة بوزن جسده كاملًا على ساعده الأيسر، فتكسر عظمه حتى تدلى طرفه مائلًا. استدعى كيرل فريتا الحلاق الجراح، الذي قام بتثبيت العظام وتجبير الذراع بشدة، وهو إجراء مؤلم. جاهد روب لإبلاغ رو أنه على الرغم من أن ذراعه ستتسبب له ألمًا مبرحًا عندما يمتطي ظهر دابة، فإنه لا يزال قادرًا على السفر مع القافلة. وأخيرًا كان عليه أن

يستدعي سيريدي ليخبر المريض بكيفية التعامل مع الجبيرة.

استغرق في التفكير في طريق عودته إلى عربته الخاصة. كان قد وافق على علاج المسافرين المرضى عدة مرات في الأسبوع. وعلى الرغم من أنه كان يدفع إلى سيريدي بسخاء، لكنه كان يعلم أنه لا يستطيع الاستمرار في استخدام خادم جيمس كولين بصفته مترجمًا فوريًّا.

وعند عودته إلى عربته، رأى سيمون بن هاليفي وهو يقتعد الأرض في مكان قريب، يصلح حزام السرج، وسار نحو الشاب اليهودي النحيف.

«هل تعرف الفرنسية والألمانية؟».

أومأ الشاب برأسه وهو يمسك حزام السرج بالقرب من فمه ويقضم الخيط الشمعي.

تحدث روب واستمع هاليفي. وفي النهاية، نظرًا لأن الشروط كانت سخية والوقت المطلوب لم يكن كبيرًا، وافق على القيام بمهمة الترجمة الفورية للحلاق الجراح.

كان روب مسرورًا. «كيف تتقن الكثير من اللغات؟».

«نحن تجار بين الدول. نسافر باستمرار مع الأقارب إلى أسواق العديد من البلدان. اللغات جزء من عملنا. فعلى سبيل المثال، يدرس توفيه الشاب لغة الماندرين، لأنه في غضون ثلاث سنوات سوف يسافر عبر طريق الحرير ويذهب للعمل لدى شركة عمي». قال إن عمه، يساكر بن ناحوم، كان يتزعم فرعًا كبيرًا من عائلته في كاي فينج فو، والتي كان يرسل منها كل ثلاث سنوات قافلة من الحرير والفلفل وأنواع شرقية أخرى إلى مدينة مشهد في بلاد فارس. وكل ثلاث سنوات منذ أن كان صبيًّا صغيرًا، كان سيمون وغيره من الذكور من عائلته يسافرون من

موطنهم في أنجورا إلى مشهد، حيث عادوا بقافلة من البضائع الغنية إلى مملكة الفرنجة الشرقية.

شعر روب جيه بأن قلبه ينبض. «هل تعرف اللغة الفارسية؟».

«بالتاكيد. بارسي».

نظر إليه روب بهدوء.

«إنها تسمى بارسي».

«هل ستعلمني إياها؟».

تردد سيمون بن هاليفي، لأن هذا شأن آخر. قد يستغرق هذا قدرًا كبيرًا من وقته.

«سأدفع كثيرًا».

«لماذا تريد تعلم لغة بارسي؟».

«سأحتاج إلى اللغة عندما أصل إلى بلاد فارس».

«هل تريد القيام بأعمال تجارية على أساس منتظم؟ هل ستعود إلى بلاد فارس مرارًا وتكرارًا لشراء الأعشاب والمستحضرات الصيدلانية، بالطريقة التي نتبعها في شراء الحرير والتوابل؟».

«ربما». هزّ روب جيه كتفيه مع إيماءة محاكيًا مئير بن آشر. «القليل من هذا، القليل من ذاك».

ابتسم سيمون ابتسامة عريضة. بدأ في نقش أول درس في التراب بعصا، لكنه كان غير مرض وذهب روب إلى العربة وأحضر أدوات الرسم خاصته ولوحًا مدورًا نظيفًا من خشب الزان. بدأ سيمون تعليمه اللغة الفارسية

تمامًا كما علمته أمه قراءة اللغة الإنجليزية منذ عدة سنوات، من خلال تعليمه الأبجدية. تتكون الحروف الفارسية من نقاط وخطوط متعرجة. بحق المسيح! كانت اللغة المكتوبة تشبه نقش الحمام، ومسارات الطيور، ونشارة الخشب المتجعد، والديدان التي تحاول مضاجعة بعضها بعضًا.

قال بحرقة: «لن أتعلم هذا أبدًا».

قال سيمون بهدوء: «سوف تتعلم».

أعاد روب جيه قطعة الخشب إلى العربة. أكل عشاءه على مهل، وكسب بعض الوقت للسيطرة على حماسته، ثم جلس على مقعد العربة وبدأ على الفور في تدريب نفسه.

27

الحارس الأمين

خرجوا من الجبال إلى أرض مستوية يقسمها الطريق الروماني باستقامة مطلقة بقدر ما تراه الأعين. وعلى جانبي الطريق كانت هناك حقول ذات تربة سمراء. بدأ الناس في حصاد الغلال وجمع الخضروات المتأخرة؛ انتهى الصيف. ولقد جاؤوا إلى بحيرة ضخمة وتبعوا خطها الساحلي لمدة ثلاثة أيام، وتوقفوا طوال الليل لشراء المؤن في مدينة ساحلية تسمى سيوفوك. لا فائدة من مدينة، ومبانٍ آيلة للسقوط وفلاحين ملاوعين وغشاشين، ولكن البحيرة -التي سميت بالاتون- كانت حلمًا خياليًّا، فالمياه كانت داكنة وصعبة المنظر كجوهرة، ينبعث منها ضبابًا أبيض في حين أنه كان ينتظر في الصباح الباكر من أجل اليهود لأداء صلواتهم.

كانت مشاهدة اليهود مثيرة للضحك. كائنات غريبة، كانوا يتمايلون أثناء الصلاة وبدا أن الرب كان يتقاذف برؤوسهم، والتي كانت ترتفع وتنخفض في أوقات مختلفة ولكن يبدو أنها كانت تتحرك بإيقاع غامض. ولما انفتل اليهود من صلواتهم، اقترح عليهم أن يسبحوا معه، إلا أنهم امتعضوا بسبب البرد، لكنهم فجأة بدؤوا يغمغمون بكلام غير مفهوم مع بعضهم بعضًا بلغتهم الخاصة. قال مئير شيئًا ما وأومأ سيمون برأسه وابتعد؛ كان حارس الخيمة. ركض الآخرون وروب إلى الشاطئ ونزعوا ثيابهم، ورشّوا بعضهم بعضًا بالماء في المياه الضحلة مثل الأطفال التي تصرخ. لم يكن توفيه سباحًا جيدًا ومتمكنًا من القيام بحركات في الماء. كان يهوذا هكوهين يجدف على استحياء وكان جيرشوم بن شموئيل، الذي كان بطنه مدورًا أبيض اللون على الرغم من وجهه الذي لفحته الشمس،

يطفو على ظهره ويصدح بأغان غير مفهومة. فجّر مئير مفاجأة. «أفضل من حوض الميكفاه!» صاح، وهو يلهث.

«ما هو حوض الميكفاه؟» سأل روب، لكن الرجل الممتلئ الجسم غطس تحت سطح الماء ثم بدأ في الخروج إلى الشاطئ بضربات قوية ومنتظمة. سبح روب خلفه، معتقدًا أنه يفضل أن يكون بصحبة أنثى. حاول أن يتذكر النساء اللواتي سبح معهن. ربما كان هناك نصف دزينة منهن وقد مارس الحب مع كل واحدة منهن، سواء قبل السباحة أو بعدها. فعل هذا الأمر عدة مرات في الماء الذي يحيط بأجسامهم ويغطيها من كل جانب...

لم يلمس امرأة قط لمدة خمسة أشهر، وهي أطول فترة امتناع له منذ أن قادته إيديثا ليبتون إلى عالم الجنس. قاوم وأخفق في الماء، الذي كان شديد البرودة، وهو يحاول تحرير نفسه من مكابدة ألم الرغبة الجنسية.

وعندما باغت مئير، رشّه بكمية كبيرة من الماء على وجهه.

بصق مئير وسعل. «مسيحي!» صاح في تشاؤم.

رشّه روب مرة أخرى واقترب مئير منه. كان روب الأطول لكن مئير كان الأقوى! دفع روب لأسفل، لكن روب شبّك أصابعه في لحيته الكثة وجذب اليهودي معه إلى أسفل وأسفل. وعندما غطسا، بدا الأمر كما لو أنهما صارا بقعًا صغيرة من الجليد الذي هجر المياه البنية والتصق به، اللحم على اللحم، حتى شعر أن جسمه اكتسى برداء من الجلد ذي اللون الفضي المتجمد.

وفي الأسفل.

حتى، في نفس اللحظة، أصيب كل منهما بالذعر وأجزم أنه سيغرق من

أجل المرح. لقد تباعدا عن بعضهما بعضًا لينهضا، واخترقا سطح الماء وهما يلهثان بحثًا عن الهواء. لا مهزومان ولا منتصران، وسبحا عائدين إلى الشاطئ معًا. وعندما غادرا الماء، ارتجفا من الشعور بقشعريرة برد الخريف في حين أنهما جاهدا لإجبار أجسادهما المبللة على الدخول في ثيابهما. لاحظ مئير قضيبه المختون ونظر إليه.

قال روب: «عض الحصان طرف عضوه».

قال مئير بجدية: «بل مهرة، بلا شك»؛ وتمتم شيئًا للآخرين بلغتهم، مما جعلهم يبتسمون في وجه روب. كان اليهود يرتدون ثيابًا تحتانية مزينة بأهداب بشكل يثير الفضول. وهم عراة كانوا مثل الرجال الآخرين؛ وهم مرتدين ثيابهم، كانوا يظهرون غرابتهم وكانوا مخلوقات غريبة مرة أخرى. لقد لمحوا روب وهو يتفرسهم لكنه لم يطلب منهم تفسيرًا عن الثياب التحتانية الغريبة، ولم يتطوع أحد لتفسير ذلك.

بعد أن تركوا البحيرة خلفهم، تبدد جمال المشهد. استمروا في السفر جنوبًا في طريق مستقيم لا نهاية له، وهم يقطعون أميالًا بعد أميال من الغابة التي لا تتغير أو حقل يشبه جميع الحقول الأخرى، وسرعان ما أصبح المشهد لا يطاق تقريبًا في رتابته. لجأ روب جيه إلى مخيلته، متصورًا الطريق كما كان بعد وقت قصير من بنائه، واحدًا ضمن شبكة واسعة من آلاف الطرق التي سمحت لروما بغزو العالم. أولًا، كان سيأتي الكشافة، وسلاح الفرسان المتقدم. ثم يأتي الجنرال في عربة تجرها الخيول يقودها عبد، محاطًا بعازفي الأبواق بغرض الأبهة والتأثير. ثم على ظهر الجواد، يأتي الأطربون والليغاتوس، ضباط الأركان. يتبعهم الفيلق، حشد من الرماة المدججين بالرماح - عشرة أفواج من أكفأ المقاتلين في التاريخ، وستمئة رجل في كل فوج، وكل مئة من الفيلق تحت إمرة السنتوريون قائد المئة. وأخيرًا، يقوم آلاف العبيد بما لم يستطع

القيام به غيرهم من الأعمال المضنية الشاقة، وهم يسحبون المعدات الثقيلة، آلات الحرب العملاقة التي كانت السبب الحقيقي لبناء الطرق: والمدقّات الضخمة لتسوية الجدران والمتاريس والتحصينات، والمنجنيق الملعون الذي يجعل السماء تمطر سهامًا على العدو، والمدافع العملاقة، وقاذفات الآلهة، لإرسال الصخور الضخمة في الهواء أو إطلاق روافد معدنية كبيرة كما لو كانت سهامًا. وأخيرًا، سوف تحتشد العربات المحملة بالمتاريس، والأمتعة، والزوجات والأطفال، والعاهرات، والتجار، والمراسيل، والمسؤولين الحكوميين، ونمل التاريخ، الذين يعيشون على غنائم العيد الروماني.

وبما أن هذا الجيش كان أسطورة وحلمًا، أولئك أتباع المعسكر القديم الذي واراه الثرى، تلك الحكومة قد اختفت وولت منذ أمد بعيد، لكن الطرق ظلت طرقًا سريعة غير قابلة للتدمير وأحيانًا كانت مستقيمة لدرجة تهدئة العقل.

كانت ابنة كولين تسير بالقرب من عربته مرة أخرى، وحصانها مربوط بأحد حيوانات القطيع.

«هل ستنضمين إليّ، يا سيدتي؟ ستكون العربة بمثابة تغيير بالنسبة لك».

ترددت، ولكن عندما مدّ يده أمسكتها وسمحت له برفعها.

«لقد شفي خدك بشكل جيد»، لاحظت. خضّبته لكنها بدت غير قادرة على التوقف عن الكلام. «ثمة خط فضي طفيف من آخر الخدوش فحسب. إذا حالفك الحظ، سوف يتلاشى، لذلك لن تكون هناك ندبة».

صعد الدم إلى وجنتيه وتمنى ألا تتفرّس في ملامحه.

«كيف تعرضت لهذه الإصابة؟».

«اشتباك مع أحد قطّاع الطرق».

أخذت ماري كولين نفسًا عميقًا. «أدعو الرب أن يحفظنا من مثل هولاء». رمقته بتمعن. «يقول البعض إن كيرل فريتا نفسه هو من أطلق شائعات حول قطّاع الطرق المجريين، من أجل بث الخوف في المسافرين وجعلهم يتدفقون للانضمام إلى قافلته».

هزّ روب كتفيه. «ليس بعيدًا عن السيد فريتا أن يفعل ذلك، على ما أعتقد. المجريون لا يبدو أنهم يشكلون تهديدًا». فعلى جانبي الطريق، كان الرجال والنساء يحصدون الكرنب.

ساد بيهما صمت وازداد ثقلًا. وكل رجّة في الطريق كانت تحركّهما صعودًا وهبوطًا، لذلك كان يدرك باستمرار إمكانية وجود ورك ناعم وفخذ ثابت، وكانت رائحة جسم الفتاة أشبه برائحة عطر دافئ خفيف مستخلص من شجيرات التوت التي لفحتها الشمس.

فهو الذي غرر بالفتيات بطول إنجلترا وعرضها يسمع حشرجة صوته عندما حاول التحدث. «هل كان دائمًا اسمك الأوسط مارجريت، يا مسيز كولين؟».

نظرت إليه في دهشة وقالت: «دائمًا».

«لا يمكنني تذكر اسم آخر؟».

«عندما كنت طفلة، اعتاد أبي أن يناديني بالسلحفاة، لأنني كنت أزحف أحيانًا». طرفت كلتا عينيها ببطء.

كان يشعر بالقلق من الرغبة في لمس شعرها. وتحت عظام وجنتها العريضة في الجانب الأيسر من وجهها كانت هناك ندبة صغيرة غير مرئية

إلا إذا تفرّس الناظر ملامحها ولم تعِب مظهرها. أشاح بنظره بعيدًا.

وقبل ذلك، استدار والدها في السرج ورأى ابنته تركب في العربة. شهد كولين روب عدة مرات بصحبة اليهود، وكان استياؤه جليًا في صوته عندما نادى اسم ماري مارجريت. همت بالمغادرة. «ما هو اسمك الأوسط، يا سيد كول؟». «جيريمي». كانت إيماءتها جادة لكن عينيها سخرتا منه. «هل كان دائمًا جيريمي، إذًا؟ ألا يمكنك تذكر أي اسم آخر؟».

جمعت تنورتها بيد واحدة وقفزت على الأرض برفق كما يقفز الحيوان. ألقى نظرة على سيقانها البيضاء وصفع اللجام على ظهر الحصان، وشعر بالحنق عندما أدرك أنه كان هدفًا للتسلية بالنسبة لها.

وفي ذلك المساء بعد العشاء، بحث عن سيمون ليأخذ درسه الثاني واكتشف أن بحوزة اليهود كتبًا. امتلكت مدرسة سانت بوتولف، التي كان قد التحق بها في طفولته، ثلاثة كتب، شريعة الكتاب المقدس والعهد الجديد، باللغتين اللاتينية والإنجليزية، وقائمة بأيام الأعياد المقدسة المقررة للاحتفال العام من قبل ملك إنجلترا. كل صفحة كانت من رق، مصنوع بمعالجة جلود الحملان أو العجول أو الأطفال. تم نسخ كل حرف يدويًا، وهي مهمة ضخمة جعلت الكتب باهظة الثمن ونادرة.

ظهر أن اليهود لديهم عدد كبير من الكتب فيما بعد وجد أن هناك سبعة في صندوق صغير من الجلد المشغول.

اختار سيمون واحدًا من الكتب التي كانت مكتوبة باللغة الفارسية وأمضيا الدرس في فحص الكتاب، وقام روب بالبحث عن أحرف معينة في النص كما نطقها سيمون. لقد تعلم الأبجدية الفارسية جيدًا وبسرعة. امتدحه سيمون وقرأ مقطعًا من الكتاب حتى يتمكن روب من سماع موسيقى اللغة. توقف بعد نطق كل كلمة وطلب من روب أن يكررها.

«ما يسمى هذا الكتاب؟».

قال سيمون: «إنه القرآن، كتابهم المقدس»، وترجم:

«سبحان الله العظيم كثير النعم والرحمة؛

خلق الجميع بما فيهم الإنسان.

أعطى للإنسان مكانة خاصة في خلقه.

كرّم الإنسان ليكون خليفته،

ولهذه الغاية، أشبعه بالفهم،

طهّر عواطفه وأعطاه بصيرة روحية».

قال سيمون: «سأعطيك قائمة كل يوم، عشر كلمات وتعابير فارسية. يجب أن تحفظها عن ظهر قلب لدرس اليوم التالي».

قال روب: «أعطني خمسًا وعشرين كلمة كل يوم»، لأنه كان يعلم أنه سوف يكون في صحبة معلمه فقط حتى القسطنطينية.

ابتسم سيمون. «خمس وعشرون، إذًا».

وفي اليوم التالي، تعلم روب الكلمات بسهولة، لأن الطريق كان لا يزال مستقيمًا وسلسًا وكان الحصان قادرًا على السير بتثاقل بلجام فضفاض في حين أن سيده كان جالسًا في مقعد السائق ويذاكر درسه. لكن روب رأى فرصة ضائعة، وبعد أن تلقى درس ذلك اليوم طلب الإذن من مئير بن آشر لنقل الكتاب الفارسي إلى عربته الخاصة، حتى يتمكن من دراسته بالكامل خلال يوم السفر الفارغ.

رفض مئير بشدة. «يجب ألا يغيب الكتاب عن أعيننا أبدًا. يمكنك قراءته

فقط وأنت في رفقتنا عن قرب».

«ألا يجوز لسيمون أن يركب معي العربة؟».

شعر وكله يقين من أن مئير على وشك الرفض مرة أخرى، لكن سيمون تكلم. قال: «يمكنني استغلال الوقت لتدقيق دفاتر الحسابات».

فكر مئير.

قال سيمون بهدوء: «هذا سيكون عالمًا نهمًا. لديه بالفعل شهية جامحة للدراسة».

كان اليهود يرون روب بطريقة كانت مختلفة إلى حد ما عما كانت عليه في السابق. أومأ مئير أخيرًا برأسه. قال: «يمكنك أن تأخذ الكتاب إلى عربتك».

نام في تلك الليلة متمنيًا أن يكون ذلك في اليوم التالي، وفي الصباح استيقظ مبكرًا يملؤه الحماس وشعور الترقب الذي كان مؤلمًا تقريبًا. كان الانتظار أكثر صعوبة لأنه كان يرى استعدادات اليهود البطيئة لليوم: ذهب سيمون إلى الغابة لإفراغ مثانته وأمعائه، وتثاءب مئير وتوفيه وهما يسيران على مهل إلى غدير ليغتسلا، وكانوا جميعًا يتمايلون ويتمتمون في صلاة الصبح، وجيرشوم ويهوذا يقدمان الخبز والعصيدة في الأطباق.

لم ينتظر عاشق فتاة قبل أي وقت مضى بمزيد من الشوق والحنين بفارغ الصبر. «تعال، تعال، أيها البطيء، أيها العبراني المتَلكّئ»، تمتم، مستعرضًا درس يومه عن المفردات اللغوية الفارسية مرة أخيرة.

عندما جاء سيمون أخيرًا كان يحمل الكتاب الفارسي، ودفتر حسابات ثقيلًا، وإطارًا خشبيًّا غريبًا يحتوي على أعمدة من الخرز معلقة على قضبان خشبية ضيقة.

«ما هذا؟».

«معداد الحساب. قال سيمون: «جهاز عد مفيد عند جمع المبالغ».

بعد أن أخذت القافلة مجراها في الطريق، كان من الواضح أن الترتيب الجديد قابل للتطبيق. وعلى الرغم من السلاسة النسبية للطريق، تدحرجت عجلات العربات فوق الحصي والحجارة وكانت الكتابة غير عملية؛ لكنه كان من السهل أن يقرأ، وانهمك كل منهما في عمله أثناء تحركهما ميلًا بعد ميل من الريف.

الكتاب الفارسي لم يكن له أي معنى على الإطلاق، لكن سيمون أخبره أن يقرأ الحروف والكلمات الفارسية حتى يشعر بسهولة النطق. وبمجرد وصوله إلى عبارة قالها له سيمون في القائمة، كوج هوميدي، «أتيت بنية طيبة»، وشعر بالانتصار، كما لو أنه حقق انتصارًا طفيفًا.

وأحيانًا كان ينظر لأعلى ويراقب ظهر ماري مارجريت كولين. ركبت الآن بالقرب من جانب والدها، بلا شك في إصراره، لأن روب قد لاحظ كولين وهو يحدق في سيمون عندما صعد إلى العربة. ركبت مستقيمة الظهر ومنتصبة الرأس، كما لو كانت مستقرة متزنة على سرج طوال حياتها.

تعلم قائمة الكلمات والعبارات بحلول الظهر. «خمس وعشرون لا تكفي. يجب أن تعطيني المزيد».

ابتسم سيمون وأعطاه خمس عشرة كلمة أخرى ليتعلمها. تحدث اليهودي قليلًا، وأصبح روب معتادًا على صوت تكتكات الخرز الذي تطاير تحت أصابع سيمون في معداد الحساب.

وفي منتصف فترة ما بعد الظهيرة، تذمّر سيمون وعلم روب أنه اكتشف

خطأ في أحد الحسابات. ومن الواضح أن دفتر الأستاذ يحتوي على سجل لعدد كبير من المعاملات؛ واتضح لروب أن هؤلاء الرجال كانوا يجلبون إلى عائلاتهم أرباح القافلة التجارية التي أخذوها من بلاد فارس إلى ألمانيا، وهو ما فسّر سبب عدم مغادرتهم لخيمتهم مطلقًا دون حراسة. كان كولين في صف المسيرة أمامه، أخذ مبلغًا كبيرًا من المال إلى الأناضول من أجل شراء الأغنام. وخلفه كان هؤلاء اليهود، وهم يحملون على الأرجح مبلغًا أكبر. وإذا علم اللصوص بأمر المبالغ الكبيرة مثل هذه، فقد اعتقد أنه ليس من السهل عليهم تكوين جيش من المجرمين، وحتى القافلة الكبيرة جدًّا لن تكون في مأمن من الهجوم. لكنه لم يفكر مليًّا في ترك القافلة، لأن السفر وحده كان طلبًا للموت. ولذلك طرد كل هذه المخاوف من عقله وجلس يومًا بعد يوم على مقعد العربة ثابت العينين وفي يديه لجام فضفاض، ولو إلى الأبد، على كتاب الإسلام المقدس.

تلى ذلك وقت خاص. تحسّن الطقس، مع سماء خريفية للغاية لدرجة أن عمقها الأزرق جعله يفكر في عيني ماري كولين، التي لم يرها كثيرًا لأنها حافظت على مسافة بينها. مما لا شك فيه أنها خضعت لأوامر أبيها.

ورغم أن سيمون انتهى من فحص دفتر الحسابات ولم يكن لديه أي عذر للمجيء للجلوس على مقعد عربته كل يوم، إلا أن روتينهم قد انتظم وأصبح مثير مرتاحًا بشأن تخليه عن الكتاب الفارسي.

واظب سيمون على تدريبه ليصبح أميرًا تاجرًا.

«ما هي وحدة الوزن الفارسية الأساسية؟».

«إنها وحدة المن، يا سيمون، نحو نصف حجر أوروبي».

«أخبرني عن الأوزان الأخرى».

«هناك الرطل، الجزء السادس من المن. الدرهم، الجزء الخمسون من الرطل. المثقال، نصف درهم. الدانق، الجزء السادس من المثقال. والبارليكورن، وهو ربع الدانق».

«رائع جدًّا. رائع، حقًّا!».

ولأنه لم يخضع لاختبار في الدروس التي تلقاها، لم يستطع روب الامتناع عن طرح الأسئلة الأبدية.

«يا سيمون، رجاءً. ما هي الكلمة التي تقابل كلمة المال؟».

«راس».

«سيمون، ماذا لو تكرمت عليّ... ماذا يعني هذا المصطلح في الكتاب، سوناب أكاريت؟».

«فضل الحياة الآخرة، وأعني بذلك، في الجنة».

«سيمون-».

تأوه سيمون وعرف روب أنه أصبح مصدر إزعاج، ومن ثم توقف عن طرح الأسئلة حتى ظهرت الحاجة إلى طرح سؤال آخر في رأسه.

كانا يزوران المرضى مرتين في الأسبوع، وسيمون يترجم له ويراقب ويستمع. وعندما فحص روب وعالج المرضى كان هو الخبير وأصبح سيمون هو السائل الذي يطرح الأسئلة.

جاء سائق ماشية إفرنجي مبتسم بحماقة لرؤية الحلاق الجراح واشتكى من ألم ومضض خلف ركبتيه، حيث كانت ثمة كتل صلبة. أعطاه روب مرهمًا من الأعشاب المهدئة من شحوم الأغنام وأخبره أن يعود مرة أخرى في غضون أسبوعين، ولكن في غضون أسبوع عاد سائق

الماشية إلى صف المرضى. وهذه المرة أبلغ عن نفس النوع من الكتل في كلا الإبطين. أعطاه روب زجاجتين من الدواء السحري وأرسله بعيدًا. ولما غادر الجميع التفت إليه سيمون. «ما الخطب مع هذا الإفرنجي الضخم؟».

«ربما ستختفي الكتل. لكنني أعتقد أنها لن تختفي، أعتقد أنه سيصاب بمزيد من الكتل لأنه مصاب بالدبل. إذا كان الأمر كذلك، فسوف يموت قريبًا».

رمش سيمون. «ألا يوجد شيء يمكنك القيام به؟».

هزّ رأسه. «أنا حلاق جراح جاهل. ربما يوجد في مكان ما طبيب عظيم يمكنه مساعدته».

قال سيمون بنبرة وئيدة: «لن أفعل ما تفعله ما لم أتمكن من تعلم كل ما يمكنني معرفته».

رمقه روب بنظرة ولم ينبس ببنت شفة. لقد صدمه أن اليهودي كان بمقدوره أن يرى في الحال وبوضوح ما استغرقه كل هذا الوقت ليدركه.

وفي تلك الليلة أيقظه كولين بقسوة. قال الاسكتلندي: «أسرع، يا رجل، بحق السيد المسيح». كانت امرأة تصرخ.

«ماري؟».

«لا، لا. تعال معي».

كانت ليلة ظلماء، غاب فيها القمر. ومباشرة خلف خيمة اليهود، كان شخص ما قد أضاء مشاعل القطران وفي الضوء المرتعش رأى روب رجلًا يرقد وهو يحتضر.

كان رايبو، الفرنسي المهزول الذي احتل المركز الثالث خلف روب في صف المسيرة. ثمة شق مفتوح في حلقه وهي حالة مرضية وبجانبه على الأرض كانت هناك بركة مظلمة ولامعة، حياته الهاربة.

قال سيمون: «لقد كان حارسنا الليلة».

كانت ماري كولين مع المرأة النائحة، زوجة رايبو البائسة التي كان يتشاجر معها باستمرار. كان حلق زوجها المشقوق زلقًا تحت أصابع روب المبللة. ثمة سائل يتغرغر في حلقة وقد تشنج رايبو للحظة تجاه نياحها البائس قبل أن يتلوى ويلفظ أنفاسه الأخيرة.

وبعد لحظة بدؤوا في الركض. قال مئير بهدوء وهو في الظل: «إنها فقط مجموعة من الحراس الركبان الذين أرسلهم فريتا».

ورغم أن القافلة كانت بأكملها متأهبة ومسلّحة، لكنه سرعان ما عاد الركبان الذين أرسلهم فريتا بالخبر أن القافلة لم تتعرض للهجوم من قبل جماعة كبيرة. وربما كان القاتل لصًا منفردًا أو كشافًا لقطاع الطرق؛ في كلتا الحالتين، اختفى القاتل.

أما بقية الليل فقد كانوا قليلًا من الليل ما يهجعون. وفي الصباح، دفن جاسبار رايبو بصعوبة على جانب طريق روماني. رتّل كيرل فريتا صلاة الجنازة في رتابة باللغة الألمانية على عجل، ثم غادر الناس القبر واستعدوا بتوتر لاستئناف رحلتهم. قام اليهود بتعبئة رحال البغال الخاصة بهم حتى لا تتمزق وتتفكك حمولتهم إذا اضطرت الحيوانات إلى الركض. رأى روب أنه من بين الأشياء المعبأة في كل رحل على كل بغل من البغال التي تجر الأحمال كانت زكيبة جلدية ضيقة بدت ثقيلة؛ واعتقد أنه يستطيع تخمين محتويات الزكائب. لم يأت سيمون إلى العربة ولكنه ركب حصانه بجوار مئير، مستعدًا للقتال أو الفرار إذا كان أي منهما ضروريًا.

وفي اليوم التالي، وصلوا إلى مدينة نوفي ساد، وهي مدينة تفيض بالحياة على نهر الدانوب حيث علموا أن مجموعة من سبعة رهبان من الفرنجة كانوا يسافرون إلى الأرض المقدسة قد تعرضوا للاعتداء من قبل قطّاع طرق قبل ثلاثة أيام وتعرضوا للسرقة واللواط والقتل.

وخلال الأيام الثلاثة التالية، سافروا كما لو كان الهجوم وشيكًا، لكنهم اتبعوا النهر الواسع المتلألئ إلى مدينة بلغراد دون وقوع حوادث وحصلوا على المؤن من سوق المزارعين هناك، بما في ذلك الخوخ الأحمر الحامض ذو النكهة الاستثنائية والزيتون الأخضر الصغير الذي أكله روب متلذذًا. تناول عشاءه في حانة لكنه وجد ذلك لا يرضيه، لأن الطعام كان خليطًا من العديد من اللحوم الدهنية المقطعة معًا وله مذاق الدهون الفاسدة.

كان عدد من الأشخاص قد غادروا القافلة في مدينة نوفي ساد وأكثر في مدينة بلغراد، وانضم إليها آخرون، حتى تقدّم كولين وابنته وروب وجماعة اليهود للأمام في خط المسيرة ولم يعدوا جزءًا من المؤخرة الضعيفة.

وبعد فترة وجيزة من مغادرتهم مدينة بلغراد، دخلوا إلى سفوح التلال التي سرعان ما أصبحت جبال أكثر شراسة من أي جبال كانوا قد عبروها حتى الآن، والمنحدرات شديدة الانحدار مرصعة بالصخور مثل الأسنان المكشوفة. وفي المرتفعات العالية، أعاد الهواء الأكثر حدة الشتاء فجأة إلى أذهانهم. ستكون هذه الجبال جحيمًا وسط الثلوج.

الآن هو لا يستطيع القيادة بلجام فضفاض. وعند صعود المنحدرات، كان عليه أن يحث الحصان بضربات صغيرة لطيفة بالسوط الجلدي وعند نزول المنحدرات قدّم روب يد المساعدة من خلال إمساك ظهر الحصان. وعندما آلمته ذراعاه وانخفضت معنوياته، ذكّر نفسه أن الرومان قد حرّكوا المعدات الثقيلة على هذه المجموعة من القمم الباعثة

على الكآبة، لكن كان لدى الرومان جحافل من العبيد القابلين للاستهلاك وكان لدى روب جيه فرس متعب يتطلب القيادة الأكثر مهارة. وفي الليل، وهو تحت وطأة الفتور والسأم، كان يجرّ نفسه إلى خيمة اليهود، وفي بعض الأحيان كان هناك درس من نوع ما. لكن سيمون لم يركب العربة مرة أخرى وفي بعض الأيام لم ينجح روب في تعلم عشر كلمات فارسية.

28

البلقان

نجح كيرل فريتا في حماية القافلة ولأول مرة ينظر إليه روب بإعجاب شديد، حيث بدا أن قائد القافلة موجود في كل مكان، يساعد في حل مشكلة تعطل العربات، ويحث الناس ويحضهم على أن يسلكوا الطريق الذي يشجع به سائقو الماشية الحيوانات الخرساء. كان الطريق صخريًّا. وفي الأول من أكتوبر، خسروا نصف يوم في حين أنه تأثر رجال القافلة بإزالة الصخور التي سقطت عبر الطريق. وسرعان ما وقعت الحوادث بشكل متكرر وقام روب بتجبير ذراعين مكسورتين في غضون أسبوع. انفلت حصان تاجر نورماندي من العربة وانقلبت عربته عليه، مما أدى إلى تحطيم ساقه. كان لا بد من حمله على محفّة معلقة بين حصانين حتى وصلوا إلى بيت ريفي وافق سكانه على تمريضه. تركوا الرجل المصاب هناك، وكان روب يحدوه أمل كبير ألا يقتله المزارع بغية الاستيلاء على متاعه بمجرد أن تغيب القافلة عن الأنظار.

قال له مثير ذات صباح: «لقد تجاوزنا أرض المجريين ونحن الآن في بلغاريا».

لم يكن الأمر مهمًّا، لأن الطبيعة العدائية للصخور لم تتغير واستمرت الرياح في الإطاحة بهم على المرتفعات. ومع ازدياد الطقس سوءًا، بدأ الناس في القافلة في ارتداء مجموعة متنوعة من الثياب الخارجية، معظمها أكثر دفئًا من الثياب التي كانو يرتدونها، حتى صاروا جماعات غريبة المظهر في ملامحهم وأسمالهم الرثة.

وفي صباح غير مشمس، تعثر بغل كان يقوده جيرشوم بن شموئيل خلف حصانه وسقط الرحل، وانفرجت أطراف البغل الأمامية بشكل مؤلم حتى طقطق الطرف الأيسر بصوت مسموع تحت الوزن الكبير للرحل على ظهر الحيوان. شحج البغل المنكوب في ألم شديد مثل إنسان يتأوه.

«أنقذه». نادى روب، وسحب مئير بن آشر سكينًا طويلًا وساعده بالطريقة الوحيدة الممكنة، عن طريق قطع حلقه المرتعش.

بدؤوا على الفور في فك الزكيبة التي كانت على البغل الميت. وعندما وصلوا إلى الحقيبة الجلدية الصغيرة، كان على جيرشوم ويهوذا أن يخلعاها معًا، وتبع ذلك جدال بلغتهم الخاصة. وكان الرحل المتبقي على البغل الآخر يحمل بالفعل إحدى الحقائب الجلدية الثقيلة، وكان روب قادرًا على ملاحظة اعتراض جيرشوم بحجّة أن الحقيبة الثانية سوف ترهق الحيوان بسرعة.

وفي القافلة المتوقفة في المؤخرة كانت هناك صيحات محتدمة من أولئك الذين لم يروا الوقوع وراء الجسد الرئيسي.

ركض روب عائدًا إلى اليهود. «ارمِ الحقيبة في عربتي». تردّد مئير ثم هزّ رأسه. «لا».

قال روب بفظاظة، «إذًا فلتذهب إلى الجحيم»، وصار غاضبًا من انعدام الثقة المفهوم دون تصريح.

قال مئير شيئًا وركض سيمون وراءه. «سيربطون الرحل على حصاني. هل يمكنني الركوب في العربة؟ فقط حتى نتمكن من شراء بغل آخر».

أشار إليه روب على المقعد وصعد بنفسه. قاد عربته لفترة طويلة في

صمت مطبق، لأنه لم يكن في حالة مزاجية لتلقي دروس اللغة الفارسية.

قال سيمون: «أنت لا تفهم. يجب أن يحتفظ مثير بالحقائب معه. ليس ماله الخاص. بعض المال ينتمي إلى العائلة ومعظمه ديون مستحقة للمستثمرين. المال مسؤوليته».

الكلمات أثلجت صدره. ولكنه ظل يومًا سيئًا. كان الطريق صعبًا ووجود شخص آخر في العربة زاد من جهد المهرة حتى إنها كانت منهكة بشكل واضح عندما حلّ وقت الغسق على قمة جبل وكان يتحتم عليهم التخييم.

قبل أن يتمكن هو أو سيمون من تناول العشاء كان عليهما الذهاب لرؤية المرضى. كانت الرياح قوية جدًّا لدرجة أنها أجبرتهما على السير خلف عربة كيرل فريتا. لم يكن هناك سوى قلة من الناس لرؤيته، ولدهشته هو وسيمون، كان جيرشوم بن شموئيل من بينهم. رفع اليهودي القوي القصير المكتنز قفطانه وأسقط سرواله ورأى روب دملًا أرجوانيًّا قبيحًا على الجانب الأيمن من مؤخرته.

«قل له أن ينحني».

كان جيرشوم يتذمر عندما فتح روب الدمل بالمشرط، مما تسبب في تدفق صديد أصفر، وهو يتأوه ويمطره بوابل من اللعنات بلغته الخاصة في حين أن روب كان يضغط على الدمل حتى اختفى كل الدم الفاسد ولم يظهر سوى الدم الفاتح.

«لن يكون قادرًا على الجلوس على سرج. ليس لعدة أيام».

قال سيمون: «يجب أن يجلس. لا يمكننا ترك جيرشوم».

تنهّد روب. كان اليهود يرون أنها كارثة اليوم.

«يمكنك أن تأخذ حصانه وسوف يركب في الجزء الخلفي من عربتي».

أومأ سيمون برأسه.

كان سائق الماشية الإفرنجي المبتسم هو المريض التالي. هذه المرة غطى الدبل الصغير الجديد الفخذ. كانت الأورام في الإبط وخلف ركبتيه أكبر وأقل صلابة مما كانت عليه، وعندما سأله روب، قال الإفرنجي الكبير إنها بدأت تؤلمه.

أمسك روب يد الرجل في يده. «أخبره أنه سوف ينتهي أجله».

حدّق سيمون. قال: «عليك اللعنة».

«أخبره أنني أقول إنه سوف ينقضي أجله».

ابتلع سيمون ريقه وبدأ يتحدث بهدوء باللغة الألمانية. شاهد روب الابتسامة تتلاشى من الوجه الكبير الفاقد الحس، ثم سحب الإفرنجي يده من قبضة روب ورفع يده اليمنى، محوّلًا إياها إلى قبضة بحجم قطعة صغيرة من لحم الخنزير. تحدث متذمرًا.

قال سيمون: «يقول إنك كذّاب أحمق».

وقف روب وانتظر وعيناه تلتقيان بعيني سائق الماشية، وفي النهاية بصق الرجل عند قدميه ومشى متثاقلًا. باع روب الدواء السحري لرجلين مصابين بسعال جاف، ثم عالج مجريًّا يئن من إبهام مكسور علق في طوق السرج وتحرك حصانه.

ثم ترك سيمون راغبًا في الهروب من هذا المكان والفرار من هؤلاء الناس. انتشرت القافلة؛ حيث سعى الجميع للبحث عن صخرة كبيرة للتخييم خلفها ليحتموا من الرياح. مشى وراء العربة الأخيرة ورأى ماري كولين واقفة على صخرة فوق الطريق.

كانت غريبة. وقفت متشحة بمعطفها الثقيل المصنوع من جلد الخراف مفتوحًا مع إبقاء ذراعيها مبسوطتين عن آخرهما، ورأسها إلى الوراء وعيناها مغمضتان كما لو كانت تتطهر بالغسل الكامل للرياح التي اجتاحتها بكل قوة الماء في تدفقه الكامل. انتفخ المعطف وخفق. التصقت عباءتها السوداء بجسدها الطويل، محدّدة نهديها الكبيرين وحلمتيها النافرتين، ووبطنها المستدير الناعم وسرتها العريضة، وشق آخّاذ يضم فخذين قويين. لقد شعر بحنان دافئ غريب كان بالتأكيد جزءًا من تعويذة، لأنها بدت وكأنها ساحرة. وشعرها الطويل المرسل على ظهرها، يتطاير مثل ألسنة اللهب الحمراء الملتوية.

لم يستطع تحمل فكرة أنها تفتح عينيها وتراه يرمقها بنظراته، لذا استدار ومشى بعيدًا.

وفي عربته الخاصة، تأمل في جو من الكآبة حقيقة أن الجزء الداخلي من السيارة كان ممتلئًا بالكامل بحيث كان يحمل جيرشوم مستلقيًا على بطنه. كانت الطريقة الوحيدة لتوفير المساحة المطلوبة هي التخلي عن الدكة. فحص الأجزاء الثلاثة وحدّق فيها، متذكرًا المرات التي لا تعد ولا تحصى التي وقف فيها مع الحلاق على الدكة الصغيرة وقدّما عرض الترفيه والتسلية لجمهورهما. ثم هزّ كتفيه، والتقط حجرًا كبيرًا، وكسّر الدكة إلى قطع صغيرة في حجم حطب المدفأة. ثمة جمر في قدر النار، لذا داعب النار ليبث فيها الحياة حتى تلظت جانب العربة. وفي غمرة الظلام المتزايد جلس وأطعم ألسنة اللهب بقطع من الدكة.

كان من غير المحتمل أن يتبدل اسم آن ماري إلى ماري مارجريت. وشعر الطفلة البني، على الرغم من احتوائه على صبغات حمراء، لم يكن لينمو ليصبح كستنائيًا بهذا الجمال، وفي تلك الأثناء التي أخبر فيها نفسه بذلك جاءت مسيز بافينجتون وظلت تموء واستلقت بجانبه بالقرب من

النار في مأمن من الرياح.

******

وفي منتصف صباح الثاني والعشرين من أكتوبر، امتلأ الجو بحبات الصقيع الصلبة، التي تتطاير أمام الرياح وتلسع عندما تصطدم بالبشرة العارية.

«في وقت مبكر من هذه المحنة»، قال روب لسيمون، الذي عاد في مقعد العربة، بعد أن استجمع جيرشوم قواه وعاد إلى حصانه.

قال سيمون: «ليس من أجل البلقان».

كانوا في المنحدرات العلوية والأكثر وعورة، ومعظمها مليء بالغابات من أشجار الزان والبلوط والصنوبر، ولكن مع منحدرات كاملة صخرية جرداء كما لو أن إلهًا غاضبًا قد طمس جزءًا من الجبل. ثمة بحيرات صغيرة تكونت بفعل الشلالات العالية التي تصب مياهها في الوديان العميقة.

وأمامه، كان كولين وابنته أشبه بهيئتين متماثلتين يرتديان معاطف وقبعات طويلة من جلد الخراف، لا يمكن تمييزهما إلا أنه كان قادرًا على مشاهدة الهيئة الضخمة على الحصان الأسود وعرف أنها ماري.

لم يتراكم الثلج وجاهد المسافرون ضده وحققوا تقدمًا، لكن ليس بالسرعة الكافية لكيرل فريتا، الذي هاج غاضبًا على أول خط المسيرة وآخره، وحثّهم على أن يسرعوا الخطى.

قال روب: «شيء ما جعل فريتا يخاف من المسيح».

رمقه سيمون بنظرة خاطفة وحذرة لاحظها روب بين اليهود كلما ذكر عيسى المسيح. «يجب أن يأخذنا إلى مدينة غابروفو قبل تساقط الثلوج

الكثيفة. الطريق عبر هذه الجبال هو الممر العظيم المسمى بوابة البلقان، لكنه مغلق بالفعل. سوف تقضي القافلة الشتاء في غابروفو، بالقرب من مدخل البوابة. يوجد في تلك المدينة حانات ونزل تستقبل المسافرين. لا توجد مدينة أخرى كبيرة بالقرب من الممر العظيم بما يكفي لإيواء قافلة كبيرة مثل هذه».

أومأ روب برأسه، قادرًا على رؤية المزايا. «يمكنني دراسة اللغة الفارسية طوال الشتاء».

قال سيمون: «لن يكون لديك الكتاب. لن نمكث في غابروفو مع القافلة. سوف نذهب إلى مدينة تريافنا، على بعد مسافة قصيرة، حيث يوجد فيها يهود».

«لكن يجب أن يكون لدي الكتاب. وأنا بحاجة إلى دروسك!» هزّ سيمون كتفيه.

وفي ذلك المساء، بعد أن اعتنى بالحصان، ذهب روب إلى خيمة اليهود ووجدهم يفحصون بعض حدوات الخيول المثبّتة. سلّم مئير واحدة من حدوات الخيول إلى روب يدًا بيد. «يجب أن يكون لديك مجموعة من حدوات الخيول مصممة لمهرتك. إنها تمنع الحيوان من الانزلاق على الثلج والجليد».

«ألا يمكنني القدوم إلى مدينة تريافنا؟».

تبادل مئير وسيمون نظرة ما؛ كان من الواضح أنهما ناقشاه في الأمر. «ليس بمقدوري أن أمنحك الضيافة في مدينة تريافنا».

«من لديه هذه السلطة؟».

«اليهود هناك يرأسهم ويقودهم حكيم عظيم، الحاخام شلومو بن

إلياهو».

«ما معنى الحاخام؟».

«عالم. في لغتنا، تعني كلمة حاخام «معلمنا» وهو مصطلح لأعلى درجات الشرف».

«هذا شلومو، هذا الحكيم. هل هو رجل متغطرس لا يرحب بالغرباء؟ رجل صارم ويستحيل الوصول إليه؟».

ابتسم مئير وهزّ رأسه.

«إذًا ألا يجوز لي أن أذهب إليه وأطلب السماح لي بالبقاء بالقرب من كتابك وتلقي الدروس من سيمون؟».

نظر مئير إلى روب ولم يتظاهر أنه مسرور بالسؤال. ظل صامتًا لبرهة طويلة، ولكن عندما اتضح أن روب مستعد للانتظار بعناد للحصول على جواب لسؤاله، تنهّد وهزّ رأسه. قال: «سنأخذك إلى الحاخام».

29

تريافنا

كانت غابروفو مدينة بائسة مؤلفة من مبانٍ مؤقتة مصنوعة من الخيزران. ولعدة أشهر، كان روب يتوق إلى تناول وجبة لم يطبخها بنفسه، وجبة رائعة تقدّم له على طاولة في حانة عامة. توقف اليهود في غابروفو لزيارة تاجر، وكانت هذه المدة كافية لروب لزيارة إحدى الحانات الثلاث. كانت الوجبة مخيبة للآمال بدرجة رهيبة، فاللحم كان مملحًا بشدة في محاولة عبثية لإخفاء حقيقة أنه كان لحمًا فاسدًا، والخبز كان جافًّا قديمًا غير طازج، مع وجود ثقوب، مما لا شك فيه، التقط منها السوس. كانت أماكن الإقامة غير مرضية مثلما كانت الأجرة. إذا لم تكن الحانتان المتبقيتان أفضل حالًا، فقد يواجه الأفراد الآخرون في القافلة شتاءً قاسيًا، حيث كانت كل غرفة متاحة ممتلئة بحَشيَّات قش للنوم وسوف ينام النزلاء متلاصقين.

استغرقت جماعة مئير أقل من ساعة للسفر إلى تريافنا، والتي ثبت أنها مدينة أصغر بكثير من غابروفو. الحي اليهودي -وهو عبارة عن مجموعة من المباني ذات الأسطح المصنوعة من القش ذات الألواح المطلية بالفضة لمقاومة التقلبات الجوية، والتي تحتشد معًا كما لو كانت من أجل الراحة المتبادلة- كان مفصولًا عن بقية المدينة بمزارع الكروم التي تخلو من عناقيدها والحقول البنية الذابلة التي تحصد فيها الأبقار أعقاب العشب الذابل البارد. دخلوا في فناء ترابي، حيث تولى الصبية مسؤولية حيواناتهم. قال مئير لروب: «من الأفضل أن تنتظر هنا».

لم يكن الانتظار طويلًا. وسرعان ما أتى سيمون من أجله وقاده إلى أحد المنازل، إلى الأسفل في ممر مظلم تفوح منه رائحة التفاح، وإلى غرفة مؤثثة فقط بكرسي وطاولة مكدسة بالكتب والمخطوطات. وعلى الكرسي كان يجلس رجل عجوز غزا الشعر الأبيض رأسه ولحيته. كان ذا أكتاف مستديرة وكان بدينًا، له ألغاد متدلية وعينان بنيتان كبيرتان كانتا مغرورقتين مع تقدم العمر إلا أنه تفرّس روب عن كثب. لم تكن هناك مقدمات؛ كان الأمر أشبه بالوقوف أمام الرب.

قال سيمون: «قيل للحاخام إنك تسافر إلى بلاد فارس وتحتاج إلى تعلم لغة ذلك البلد بغرض العمل». «يسأل عما إذا كانت متعة التعلم ليست سببًا كافيًا للدراسة».

قال روب وهو يتحدث مباشرة إلى الرجل العجوز: «في بعض الأحيان تكون هناك متعة في الدراسة». «بالنسبة لي، هناك عمل شاق في الغالب. أنا أتعلم لغة الفرس لأنه يحدوني الأمل أن تعلم اللغة الفارسية سوف يحقق لي مرادي».

سيمون والحاخام يرطنان معًا.

«سأل عما إذا كنت صادقًا جدًّا بوجه عام. أخبرته أنك صادق بما يكفي لتخبر رجلًا يحتضر أنه يحتضر، وقال، هذا صادق بما فيه الكفاية».

«قل له إن لديّ نقودًا وسأدفع مقابل الطعام والمأوى».

هزّ الحكيم رأسه. «هذه ليست حانة. قال شلومو بن إلياهو من خلال سيمون: «أولئك الذين يقطنون هنا يجب أن يعملوا. إذا كان الرب الذي علا وصفه رحيم بنا، فلن نحتاج إلى حلاق جراح هذا الشتاء».

«لست مضطرًّا للعمل كحلاق جراح. أنا على استعداد لفعل أي شيء

مفيد». تمددت أصابع الحاخام الطويلة وتخللت لحيته في حين أنه كان يفكر. وأخيرًا أعلن قراره.

قال سيمون: «عندما يعلن أن اللحم البقري المذبوح ليس «كوشير» (الطعام المباح شرعًا)، ستأخذ اللحم وتبيعه إلى القصّاب المسيحي في غابروفو. وفي أيام السبت، يوم الراحة عند اليهود، سوف تعتني بالنار في المنازل».

تردّد روب. نظر إليه اليهودي المسن بقلق شديد، وقد أسره بريق عينيه.

«هل ثمة شيء ما؟» غمغم سيمون بكلام غير مفهوم.

«إذا كان اليهود لا يعملون في أيام السبت، ألا يلعن الرب روحي من خلال تهيئتي لفعل ذلك؟».

ابتسم الحاخام لما سمع الترجمة.

«يقول إنه يثق في أنك لا تتوق إلى أن تصبح يهوديًّا، يا سيد كول؟» هزّ روب رأسه.

«ثم إنه على يقين من أنك قد تعمل دون خوف في يوم سبت اليهود، ويخبرك أنه يرحب بك في تريافنا».

قادهم الحاخام إلى المكان الذي سينام فيه روب في مؤخرة حظيرة أبقار كبيرة. «ثمة شموع في دار الدراسة. ولكن لا يجوز أن تضاء شموع للقراءة هنا في الحظيرة بسبب وجود الكلأ الجاف»، قال الحاخام بصرامة من خلال سيمون، وسمح له بالعمل على الفور في إزالة الروث من الحظائر.

وفي تلك الليلة استلقى على القش مع قطته وهو على أهبة الاستعداد جاثيًا على قدميه مثل الأسد. هجرته مسيز بافينجتون بين الفينة والأخرى لترويع فأر لكنها كانت دائمًا تعود إليه. كانت الحظيرة مكانًا متسعًا

مظلمًا رطبًا، دفأته أجساد الأبقار الكبيرة للراحة، وبمجرد أن اعتاد على خوار الأبقار الأبدي والرائحة الكريهة لروث الأبقار، نام ملء جفنيه.

* * *

حلّ الشتاء على مدينة تريافنا بعد ثلاثة أيام من قدوم روب. بدأ الثلج يتساقط خلال الليل وعلى مدار اليومين التاليين، تناوبت الثلوج بين صقيع قارس مدفوع بالرياح وندف متراكمة كانت تطفو على الأرض كبيرة لدرجة أنها بدت وكأنها أشياء حلوة تؤكل. عندما انتهى تساقط الثلوج، أعطى روب مجرفة ثلج خشبية كبيرة وساعد في إزالة أكوام الثلج من أمام جميع الأبواب، مرتديًا قبعة يهودي مصنوعة من الجلد وجدها على مشجب في الحظيرة. وفوقه كانت الجبال التي ارتفعت تلوح في الأفق تتلألأ باللون الأبيض في الشمس، كما أن الجهد المبذول في الهواء البارد جعله متفائلًا. عندما انتهى من تجريف الثلج، لم يكن هناك أي عمل آخر وكان له مطلق الحرية في الذهاب إلى دار الدراسة، وهو مبنى له إطار كان يتسلل إليه البرد الذي يستدفئ منه بشكل مثير للشفقة بنيران خافتة غير كافية لدرجة أنه لم يكن من غير المعتاد أن ينسى الناس تغذية النار. جلس اليهود حول طاولات خشنة ودرسوا ساعة بعد ساعة، وكانوا يتشاجرون بصوت عال وفي بعض الأحيان بشدة.

أطلقوا على لغتهم اللسان العبري. أخبره سيمون أنه مزيج من العبرية واللاتينية، بالإضافة إلى بعض المصطلحات القليلة المأخوذة من البلدان التي سافروا إليها أو عاشوا فيها. كانت لغة مخصصة للمتحاجّين؛ كلما درسوا معًا، تراشقوا بالكلمات بعضهم مع بعض.

«ما الذي يتحاجّون حوله؟» سأل مثير، والدهشة تعلو وجهه.

«المسائل الشرعية».

«أين كتبهم؟».

«إنهم لا يستخدمون الكتب. أولئك الذين يعرفون الشرائع قد حفظوها عن ظهر قلب فور سماعها من أفواه معلميهم. وأولئك الذين لم يحفظوا الشرائع عن ظهر قلب بعد يتعلمونها من خلال الاستماع. كان الأمر دائمًا هكذا. هناك شريعة مكتوبة، بالطبع، لكنها موجودة للاستشارة والرجوع إليها فحسب. كل رجل يعرف الشريعة الشفوية هو مدرس للتفاسير الشرعية كما علّمه معلمه، وتتعدد التفاسير بتعدد المعلمين المختلفين. لهذا السبب يتحاجّون. ففي كل مرة يتحاجّون فيها، يعرفون أكثر قليلًا عن الشريعة.

ومنذ البداية في تريافنا أطلقوا عليه اسم مار روفين، ويعني باللغة العبرية السيد روبرت. مار روفين الحلاق الجراح. إن كونه يدعى مار يعد تمييزًا عنهم بقدر ما هو تمييز عن أي شيء آخر، لأنهم كانوا يطلقون بعضهم على بعض راباي، وهو لقب فخري يشير إلى العلم الجدير بالثناء ولكنه يحتل مرتبة أقل من تلك التي يحصل عليها شخص معين مثل الحاخام. في تريافنا كان هناك حاخام ولكن حاخام واحد فحسب.

كانوا أناسًا غريبين، يختلفون عنه في المظهر كما يختلفون عنه في العادات والطباع. «ما الخطب بشعره؟» طرح رجل يدعى راباي جويل ليفسكي الراعي سؤاله على مئير. كان روب هو الوحيد في دار الدراسة الذي لم يكن لديه ضفيرتان، خصلات الشعر الاحتفالية التي تتدلى جانب كل أذن.

«إنه لا يعرف أفضل من ذلك». وأوضح مئير، «إنه من «الجوييم»، أحد الأغيار».

«لكن سيمون أخبرني أن هذا «الغيَر» مختون. كيف يكون هذا؟» قال

راباي بنحاس بن سيمون اللّبان.

هزّ مئير كتفيه. قال: «حادثة. لقد ناقشت الأمر معه. لا علاقة له بعهد إبراهيم».

ولعدة أيام كانوا يحدقون في مار روفين (السيد روبرت). وبدوره حدّق في نفسه بعض الشيء، لأنهم بدوا أكثر من مجرد غرباء جدًّا بالنسبة له بأغطية الرأس وخصلات الشعر على جانبي الأذن واللحى الكثيفة والثياب الداكنة والعادات الوثنية. لقد كان مفتونًا بعاداتهم أثناء الصلاة. لقد كانوا متفردين للغاية. ارتدى مئير شال الصلاة بتواضع واحتشام. فتح راباي بنحاس «الطاليت» (شال الصلاة) وهزّه بغطرسة تقريبًا، وأمسكه أمامه من زاويتين، وبحركة لأعلى من ذراعيه وبضربة من معصميه أرسل الشال وهو يتموج فوق رأسه، ليستقر على كتفيه برقة كعطية من العطايا.

عندما صلى راباي بنحاس، كان يتمايل ذهابًا وإيابًا برغبة ملحة في إرسال دعواه وتضرعه إلى الرب جل جلاله. تأرجح مئير برفق عندما تلى صلواته. اهتزّ سيمون بوتيرة إيقاع في مكان ما بينهما، وأنهى كل حركة للأمام بقليل من الارتعاش واهتزاز طفيف بالرأس.

قرأ روب كتابه وراقب اليهود، وكان يتصرف مثل البقية كثيرًا ليبقى متجددًا. ولمدة ست ساعات كل يوم -ثلاث ساعات بعد صلاة الصبح، التي أطلقوا عليها اسم «شهاريت»، وثلاث ساعات بعد صلاة المساء، «معاريف»- كانت دار الدراسة مكتظة، لأن معظم الرجال كانوا يدرسون قبل وبعد الانتهاء من عمل يوم بموجبه كسبوا أرزاقهم. وبين هاتين الفترتين، كان المكان هادئًا نسبيًّا، حيث شغل علماء بدوام كامل طاولة واحدة أو اثنتين فقط. وسرعان ما جلس بينهم براحته ودون أن يلاحظه أحد، غافلًا عن الثرثرة اليهودية أثناء دراسته للقرآن باللغة الفارسية،

وبدأ في إحراز تقدم حقيقي أخيرًا.

ولما حلّ يوم السبت، كان يعتني بالنار. كان يوم السبت هذا هو أثقل يوم عمل منذ تجريف الثلج، لكنه لا يزال سهلًا للغاية لدرجة أنه تمكن من الدراسة لبعض الوقت في فترة ما بعد الظهر. وبعد يومين ساعد راباي إيليا النجار في وضع حلقات جديدة في الكراسي الخشبية. وبخلاف ذلك لم يكن هناك عمل سوى دراسة اللغة الفارسية حتى نهاية أسبوعه الثاني في تريافنا، علمته روهيل حفيدة الحاخام حلب الماشية. كانت بشرتها بيضاء وشعرها أسود طويل أسدلته في جدائل حول وجهها على شكل قلب، وكان فمها صغيرًا وشفتها السفلى منتفخة بشكل أنثوي، ولها وحمة صغيرة على حلقها، ولها عينان بنيتان كبيرتان بدت أنها أبقتهما دائمًا على روب.

وإبان وجودهما في حجرة الحلب، قامت إحدى الأبقار، وهو أمر أحمق اعتقدت أنها عجل ذكر، بركوب بقرة أخرى وبدأت تتحرك وتحتك كما لو كانت تمتلك قضيبًا وأدخلته في البهيمة الأخرى.

صعد الدم إلى وجنتيها، وأشرقت الابتسامة على محيّاها وضحكت قليلًا. انحنت إلى الأمام على كرسيها ووضعت رأسها على الخاصرة الدافئة لبقرة حلوب، وعيناها مغمضتان. شدّت تنورتها، وقاربت بين ركبتيها الممتدتين، وأمسكت الحلمات السميكة المنبثقة من الضرع المنتفخ. تموجت أصابعها، وضغطت ضغطًا حثيثًا بدورها. ولما تدفق الحليب كنقرات تقرع على طبل في الدلو، التقطت روهيل أنفاسها وتنهدت. تسلل لسانها الوردي ليبلل شفتيها وفتحت عينيها ورمقت روب بنظرة.

وقف روب وحيدًا في العتمة الشديدة لحظيرة الأبقار، ممسكًا بقطعة من غطاء يلتحف به. كان الغطاء يفوح برائحة حصان بشدة وكان أكبر بقليل من شال الصلاة. وبحركة سريعة، أرسل الغطاء فوق رأسه ليستقر

على كتفيه برفق كما لو كان طاليت (شال الصلاة) لراباي بنحاس. كان التكرار يمنحه الثقة في ارتداء شال الصلاة. كانت الماشية تخور كلما وقف وتتدرّب على أداء الصلاة متمايلًا، وقورًا ولكن قوي الإرادة. لقد فضّل محاكاة مئير في الصلاة بدلًا من المصلين الأكثر نشاطًا مثل راباي بنحاس.

كان هذا هو الجزء السهل. سيستغرق إتقان لغتهم، التي تبدو غريبة ومعقدة، وقتًا طويلًا، خاصةً عندما كان يبذل مثل هذا الجهد لتعلم اللغة الفارسية.

كانوا قومًا يعشقون التعاويذ. يثبّت في الثلث العلوي من عضادة الباب في الجانب الأيمن لكل باب في كل منزل رق خشبي صغير مستطيل الشكل يسمى المزوزاه. قال سيمون إن كل رق يحتوي على رقية صغيرة ملفوفة؛ منقوش على الوجه بأحرف آشورية مربعة اثنان وعشرون سطرًا مأخوذة من سفر التثنية: الآيات: 6: 4-9 و11: 13-21، وعلى الظهر منقوش كلمة شاداي «الخالق».

كما لاحظ روب أثناء الرحلة، كل صباح، باستثناء يوم السبت، يربط صندوقين صغيرين من الجلد على كل ذكر بالغ بذراعه ورأسه. كانت تسمى هذه الصناديق التيفيلين وتحتوي على أجزاء من كتابهم المقدس، التوراة، الصندوق المربوط بالجبهة مقابل المخ، والصندوق الآخر مربوط على الذراع مقابل القلب.

قال سيمون: «نحن نفعل ذلك طاعة للتعاليم الواردة في سفر التثنية. ولتكن هذه الكلمات التي أنا أوصيك بها اليوم على قلبك... واربطها علامة على يدك ولتكن عصائب بين عينيك».

كانت المشكلة التي لم يستطع روب أن يخبر عنها، بإيجاز من خلال

مشاهدته، كيف يرتدي اليهود التيفيلين. ولا يمكنه أن يطلب من سيمون أن يريه، لأنه كان من الغرابة أن يرغب مسيحي في أن يتعلم طقسًا من طقوس العبادة الخاصة باليهود. كان قادرًا على إحصاء أنهم لفوا عشر لفات من الجلد حول أذرعهم، لكن ما فعلوه باليد كان معقدًا، لأن الشريط الجلدي كان ملفوفًا بين الأصابع بطرق خاصة لم يستطع تمييزها.

وقف في الحظيرة الباردة التي فاحت رائحتها، ولفّ ذراعه اليسرى بقطعة من حبل قديم بدلًا من شريط التيفيلين المصنوع من الجلد، لكن ما فعله بيده وأصابعه بالحبل لم يكن له أي معنى.

ومع ذلك، كان اليهود معلمين بالفطرة وتعلم شيئًا جديدًا كل يوم. علّمه القساوسة في مدرسة كنيسة القديس بوتولف أن الرب في الكتاب المقدس بالعهد القديم هو يهوه. ولكن كلما أشار إلى يهوه، هزّ مئير رأسه.

«اعلم أن للرب إلهنا، تبارك اسمه، سبعة أسماء. هذا هو الاسم الأعظم». وبقطعة من الفحم من المدفأة رسم على السطح الخشبي، وهو يكتب الكلمة باللغة الفارسية وباللسان العبري: يهوه. «لا يلفظ أبدًا، لأن الذات الإلهية للعَليّ المتَعَالي لا يمكن وصفها. لقد أخطأ المسيحيون في نطقها، كما فعلت أنت. لكن الاسم ليس يهْوفَ، هل تفهم؟».

أومأ روب برأسه.

وفي الليل على فراشه من حشية القش كان يراجع الكلمات الجديدة والعادات الجديدة، وقبل أن يجتاحه النوم تذكّر عبارة، أو جزءًا من نعمة، أو إيماءة، أو نطق، أو تعبير عن نشوة على وجه أثناء الصلاة، وقام بتخزين هذه الأشياء في ذهنه استعدادًا لليوم عندما تكون هناك حاجة إليها.

قال له مئير عابسًا: «عليك الابتعاد عن حفيدة الحاخام».

«ليس لدي اهتمام بها». مرت الأيام منذ أن تجاذبا أطراف الحديث في حجرة الحلب، ولم يقترب منها منذ ذلك الحين.

في الحقيقة، لقد كان يحلم بماري كولين في الليلة السابقة واستيقظ عند الفجر ليرقد مذهولًا بعينين محمرتين، وهو يحاول أن يستعيد تفاصيل الحلم.

أومأ مئير برأسه، ووجهه صاف. «جيد. لاحظتها إحدى النساء وهي ترمقك باهتمام كبير، وأخبرت الحاخام. وقد طلب الحاخام مني التحدث معك». وضع مئير سبابته قبالة أنفه. «كلمة واحدة مهذّبة لرجل حكيم خير من سنة من جدال مع جاهل أحمق».

أعرب روب عن جزعه وانزعاجه إزاء هذا الأمر، لأنه اضطر إلى البقاء في تريافنا لمراقبة عادات اليهود ودراسة اللغة الفارسية. «لا أريد متاعب بسبب امرأة».

«بالطبع لا». تنهّد مئير. تكمن المشكلة في الفتاة التي يجب أن تتزوج. لقد كانت مخطوبة منذ الطفولة لراباي مشولوم بن موسى، حفيد راباي باروخ بن داود. هل تعرف راباي باروخ؟ رجل طويل، رفيع؟ وله وجه طويل؟ وله أنف رفيع، مدبب؟ صحيح يجلس وراء النار في دار الدراسة؟»

«آه، إنه هو. رجل عجوز له عينان متقدتان».

«عينان متقدتان لأنه من فطاحل العلماء. إذا لم يكن الحاخام هو الحاخام، لكان راباي باروخ هو الحاخام. كانا دائمًا عالمين متنافسين وصديقين حميمين. عندما كانا حفيديهما لا يزالان أطفالًا، رتّبا الزواج بكل سرور لتوحيد عائلاتيهما وجمع شمليهما. وما لبث أن نشب بيهما خلاف كبير أنهى صداقتهما».

«لماذا اختصما؟» سأل روب، الذي بدأ يشعر بما فيه الكفاية في منزل في تريافنا للاستمتاع بقليل من القيل والقال.

«لقد ذبحا عجلًا صغيرًا في شراكة. والآن، يجب أن تفهم أن قوانين «الكشروت» لدينا قديمة ومعقدة، بالإضافة إلى قواعد وتفاسير حول كيف يجب أن تكون الأشياء وكيف لا يجب أن تكون. اكتشف عيب صغير في رئة الحيوان. اقتبس الحاخام سوابق تفيد إن العيب كان ضئيلًا ولم يفسد اللحم بأي حال من الأحوال. واستشهد راباي باروخ بسوابق أخرى تشير إلى أن اللحم فسد بسبب العيب ولا يمكن تناوله. أصرّ على أنه كان محقًا واستاء من الحاخام لتشكيكه في علمه.

لقد تجادلا حتى استنفد الحاخام صبره أخيرًا. قال: «شقّ الحيوان إلى نصفين». سوف آخذ نصيبي، وأدع باروخ يفعل ما يحلو له بنصيبه.

«عندما أحضر نصف العجل إلى المنزل، كان ينوي أكله. ولكنه بعد المداولة اشتكى: كيف آكل من لحم هذا الحيوان؟ نصفه يقع على كومة قمامة باروخ، وعليّ أن آكل النصف الآخر؟ لذا تخلّص من نصف اللحم البقري أيضًا.

وفيما بعد تجافى الرجلان وبدا أنهما يعارضان بعضهما بعضًا طوال الوقت. إذا قال راباي باروخ أبيض، قال الحاخام أسود، إذا قال الحاخام اللحم، قال راباي باروخ الحليب. عندما كانت روهيل تبلغ من العمر اثني عشر عامًا ونصف، وهو العمر الذي كان ينبغي أن يبدأ فيه كبراؤها الحديث بجدية عن تزويجها، لم تفعل العائلاتان شيئًا لأنهما كانتا تعرفان أن أي اجتماعات ستنتهي بالخصام بين الرجلين المسنين. ثم ذهب الشاب راباي مشولوم، العريس المرتقب، في أول رحلة عمل خارجية له مع والده ورجال آخرين من عائلته. سافروا إلى مرسيليا ببضاعة من غلّايات النحاس ومكثوا طوال العام، يتاجرون ويحققون ربحًا جيدًا.

وبإحصاء وقت السفر، فقد ذهبوا قبل عامين من عودتهم الصيف الماضي، وقد جلبوا معهم قافلة محملة بالثياب الفرنسية جيدة الصنع. وما زالت العائلتان اللتان تفرقهما الأجداد لا يرتّبان لإتمام الزواج!

قال مئير: «في الوقت الحالي، من المعروف أن روهيل البائسة يمكن اعتبارها أيضًا «آغوناه»، زوجة مهجورة. لديها ثدي لكنها لا ترضع أطفالًا، إنها امرأة نضجت وكبرت ولكن ليس لها زوج، وقد أصبحت هذه فضيحة كبرى».

واتفقا على أنه من الأفضل لروب تجنب حجرة الحلب خلال ساعات الحلب.

* * *

كان من الجيد أن مئير تحدّث معه، فمن كان يدري ما كان يمكن أن يحدث لو لم يجبر على أن يرى بوضوح أن ضيافتهم الشتوية لم تشمل استخدام نسائهم. وفي الليل، قد كابد عذاب حلم جنسي رأى فيه فخذين طويلين مكتنزين، وشعرًا أحمر، ونهدين صغيرين ضامرين بحلمات مثل حبات التوت. شعر يقينًا أن اليهود سيكون لديهم صلاة يؤدونها يطلبون المغفرة للبذور المنسكبة -كان لديهم صلاة لكل شيء- لكنه لم يكن لديه شيء وأخفى دليل أحلامه تحت حشية القش الرطب وحاول أن يجهد نفسه في عمله.

كان الأمر صعبًا. كل ما كان حوله باعثًا على الرغبات الجنسية الجامحة يشجعه دينهم - فقد اعتقدوا أنها نعمة خاصة لممارسة الحب عشية السبت، على سبيل المثال، ربما يفسر ذلك السبب وراء حبهم الشديد لنهاية الأسبوع! كان الشباب يتحدثون بحرية في مثل هذه الأمور، ويمتعضون بعضهم لبعض إذا كانت الزوجة لا يمكن المساس بها؛ منع الأزواج اليهود

من الجماع لمدة اثني عشر يومًا بعد بدء الحيض، أو بعد سبعة أيام من توقفه، أيهما كان أطول. لم ينته امتناعهم عن ممارسة الجنس إلا بعد أن تضع الزوجة نهاية لهذا الامتناع بتطهير نفسها من خلال الانغماس في بركة الطقوس، التي تسمى «الميكفاه».

والميكفاه هذه خزان مبطن بالطوب في حمام مبني فوق نبع. أخبر سيمون روب أنه لكي يكون لائقًا عقائديًّا، يجب أن تأتي مياه الميكفاه من نبع طبيعي أو نهر. كانت الميكفاه للتطهير الرمزي وليس للنظافة. كان اليهود يغتسلون في المنزل، ولكن كل أسبوع قبل يوم السبت، كان ينضم روب إلى الذكور في الحمام، الذي كان يحتوي فقط على مسبح ونيران مستعرة كبيرة في موقد دائري معلق فوقه مراجل من الماء المغلي.

يتحممون وهم عراة في المياه الدافئة المشبعة بالبخار، ويتنافسون على امتياز صب الماء على الحاخام أثناء طرح الأسئلة عليه بإسهاب.

«طاب يومك، أيها الحاخام، طاب يومك!» سؤال، سؤال! كانت إجابة شلومو بن إلياهو على كل مسألة إجابة مدروسة ومتأنية، مدعومة بالسوابق العلمية والاستشهادات، والتي ترجمت أحيانًا لروب بتفاصيل كثيرة جدًّا بمعرفة سيمون أو مئير.

«الحاخام، هل مكتوب حقًا في كتاب الإرشاد أن على كل رجل أن ينذر ابنه الأكبر لسبع سنوات من الدراسة المتقدمة؟».

يستكشف الحاخام العاري سرته بإمعان، يسحب إحدى أذنيه، ويداعب لحيته البيضاء الكثة بأصابعه الطويلة الشاحبة. «إنها ليست مكتوبة على هذا النحو، يا أولادي. من ناحية» ودفع سبابته اليمنى إلى الأعلى، وقال: «كان هذا رأي راباي حنانيل بن آشي من مدينة لايبزيغ. ومن ناحية أخرى..». رفع سبابته اليسرى إلى الأعلى: «بحسب الحاخام يوسف بن

الياكيم من يافا، هذا ينطبق فقط على أبناء القساوسة واللاويين الأوائل. ولكن «دفع الهواء نحوهما بكلتا راحتَيْه» كلا الحكيمين عاشا منذ مئات السنين. اليوم نحن أناس محدثون ومعاصرون. نحن نفهم أن التعلم لا يقتصر على الابن البكر فقط، بل يجب أن يعامل الأبناء الآخرون كما لو كانوا نساء نقيات. لقد اعتدنا اليوم على أن يقضي كل شاب سنته الرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة في الدراسة المتقدمة للتلمود، من اثنتي عشرة إلى خمس عشرة ساعة في اليوم. وبعد ذلك، قد يكرّس هؤلاء القلائل الذين يجري استدعاؤهم حياتهم للعلم، بينما قد ينخرط الآخرون في العمل والتجارة ويدرسون ست ساعات فقط في اليوم بعد ذلك».

حسنًا. لم تكن معظم الأسئلة التي ترجمت للأغيار الزائرين من النوع الذي يجعل قلبه يدق أو حتى، في الحقيقة، يحافظ على اهتمامه المتواصل. ومع ذلك، استمتع روب بعد ظهر يوم الجمعة في الحمام؛ لم يشعر أبدًا أنه في المنزل بصحبة رجال عراة. ربما كان له علاقة بقضيبه منزوع الغرلة. إذا كان بين أبناء جلدته، فقد كان يمكن أن يصبح عضوه الآن موضوع تحديق فظ، وضحك، وأسئلة، وتكهنات بذيئة. الزهرة الغريبة التي تنمو بمفردها شيء، لكنها شيء آخر تمامًا عندما تكون محاطة بحقل كامل من الزهور الأخرى ذات التكوين المماثل.

في الحمام، كان اليهود يسرفون في إطعام النار بالحطب، وكان روب يحب الرائحة التي تجمع مزيجًا من دخان الخشب والبلل المشبع بالبخار، ولسعة الصابون الأصفر القوي الذي أشرفت على تصنيعه ابنة الحاخام، والخلط الدقيق للماء المغلي مع ماء النبع البارد لخلق دفء جميل للاستحمام.

لم يدخل في حوض الميكفاه أبدًا، لأنه يدرك أن ذلك أمر محظور. كان

راضيًا بالاسترخاء في الحمام المليء بالبخار، وهو يشاهد اليهود وهم يتأهبون للدخول إلى الخزان. تمتموا بالنعمة المصاحبة للتطهر أو تغنّوا بها بصوت عال، وفقًا لشخصياتهم، ساروا على الدرجات الحجرية الست الباردة في الماء الذي كان عميقًا. عندما غطت المياه وجوههم، كانوا ينفخون بقوة أو يحبسون أنفاسهم، لأن عملية التطهر جعلت من الضروري الانغماس بأنفسهم تمامًا لدرجة أن كل شعرة من شعر الجسم صارت مبللة.

حتى ولو تلقى دعوة، فلا شيء يمكن أن يقنع روب بالدخول لكشف أسرار الماء البارد المظلم، لموقع دينهم.

إذا كان الإله المسمى يهوه موجودًا حقًّا، فربما كان يدرك أن روب كول كان يخطط لتصوير نفسه كأحد أبنائه.

لقد شعر أنه إذا دخل المياه الغامضة، فإن شيئًا ما سيجذبه إلى عالم أبعد من ذلك، حيث عرفت كل خطايا خطته الشائنة وستقضم الثعابين العبرية جسده، وربما يوبخه يسوع المسيح شخصيًّا.

30

الشتاء في دار الدراسة

ذلك عيد الميلاد كان هو الأغرب في سنوات عمره البالغة واحدًا وعشرين عامًا. لم ينشئه الحلاق على الإيمان الحقيقي، إلا أنه أنشأه على لحم الإوز والحلوى، وقضم لحم الرأس المحشو بالجبن المسمى براون، والصدح بالغناء، وتحميص الخبز، والاستلقاء على الظهر في تكاسل ودعة أيام الأعياد - كانت هذه الأشياء جزءًا منه، وانتابه هذا العام شعور بالعزلة الشديدة. لم يتجاهله اليهود في ذلك اليوم تجاهل حطة وضعة؛ بل وبإيجاز لم يكن يسوع المسيح في عالمهم. كان بإمكان روب بلا شك أن يجد طريقه إلى الكنيسة، لكنه لم يفعل. والغريب في الأمر، حقيقة أن لا أحد هنأه بعيد المسيح المبهج جعلته في ذهنه مسيحيًّا أكثر من أي وقت مضى.

وبعد أسبوع، في فجر العام الجديد للرب عام 1032، استلقى على فراشه من حشية القش وتساءل عما أصبح عليه، وإلى أين سيأخذه. وعندما جال في الجزيرة البريطانية، كان يعتقد أنه شيطان المسافر ذاته، لكنه سافر بالفعل لمسافة أكبر بكثير مما كانت تحيط به جزيرته الأصلية، ولا يزال أمامه عالم مجهول لا نهاية له.

احتفل اليهود بذلك اليوم، ولكن لأنه كان بداية القمر الجديد، وليس لأنه كان رأس السنة! وعلم في حيرة من أمره أنه حسب تقويمهم الوثني كان منتصف عام 4792.

كانت بلدة الثلوج. لقد رحّب بكل مرة تتساقط فيها الثلوج وسرعان

ما أصبح من المسلم به أنه بعد كل عاصفة، سيؤدي المسيحي الضخم بمجرفته الخشبية الكبيرة عمل العديد من الجرافين العاديين. كان نشاطه البدني الوحيد؛ عندما لم يكن يجرف الثلج هو أن يتعلم اللغة الفارسية. لقد كان متقدمًا بدرجة كافية حتى تمكّن من التفكير على مهل باللغة الفارسية الآن. ذهب عدد من يهود تريافنا إلى بلاد فارس وتحدث باللغة الفارسية مع أي شخص كان بوسعه التحدث معه. «اللهجة، يا سيمون. كيف هي لهجتي؟» سأل وهو يثير حفيظة معلّمه.

قال سيمون غاضبًا: «أي فارسي يرغب في الضحك سيفعل ذلك، لأنك ستبدو للفرس أجنبيًّا. هل تتوقع حدوث معجزات؟» تبادل اليهود في دار الدراسة ابتساماتهم على حماقة الشاب الضخم «الجوييم» (أحد الأغيار).

دعهم يبتسمون، كما أعتقد؛ أوجد لهم دراسة أكثر إثارة للاهتمام مما وجدوه. على سبيل المثال، سرعان ما علم أن مئير وجماعته لم يكونوا الغرباء الوحيدين في تريافنا. كان العديد من الذكور الآخرين في دار الدراسة مسافرين ينتظرون قسوة شتاء البلقان. ولدهشة روب، أخبره مئير أن أيًّا منهم لم يدفع قطعة نقدية واحدة مقابل أكثر من ثلاثة أشهر من الطعام والمأوى.

وأوضح مئير. هذا هو النظام الذي يسمح لشعبي بالتجارة بين الأمم. لقد رأيت مدى صعوبة السفر حول العالم وخطورته، ومع ذلك فإن كل مجتمع يهودي يرسل التجار إلى الخارج. وفي أي قرية يهودية في أي أرض، مسيحية أو مسلمة، يستضيف اليهود المسافر اليهودي ويعطونه طعامًا ونبيذًا، ومكانًا في المعبد اليهودي، وإسطبلًا لخيله. كل مجتمع له رجال في أماكن غريبة يرعاهم شخص آخر. وفي العام المقبل، ستتبدل الأدوار وسيكون المضيف هو الضيف».

يندمج الغرباء بسرعة في حياة المجتمع اليهودي، حتى للاستمتاع

بالثرثرة المحلية. وهكذا كان ذلك بعد ظهر أحد الأيام في دار الدراسة، في حين أن روب كان منخرطًا في القيل والقال باللغة الفارسية مع يهودي من الأناضول يدعى عزرا البيطار! - علم أن مواجهة حادة ستحدث في اليوم التالي. حيث تولّى الحاخام مسؤولية القيام بدور «الشوحيط» (الذبح الشرعي)، فهو قصّاب المجتمع اليهودي الذي يذبح الحيوانات التي تؤكل لحومها. وفي صباح اليوم التالي، كان يذبح اثنين من ذكور البقر بمحض إرادته، من الأبقار الصغيرة. وكان أفراد مجموعة صغيرة من الحكماء المرموقين في المجتمع بوصفهم «مشجيوت» مفتشي الطقوس الذين حرصوا على مراعاة القانون المعقد، وصولًا إلى أدق التفاصيل، أثناء عملية الذبح. ومن المقرر أن يترأس «المشجيا» (المشرف) عملية الذبح أثناء قيام الحاخام بالذبح، وكان صديقه الحميم في السابق وخصمه اللدود في اليوم اللاحق، إنه راباي باروخ بن دافيد.

وفي ذلك المساء، أعطى مئير لروب درسًا من سفر اللاويين. كانت هذه هي الحيوانات التي سمح لليهود بأكلها من بين الحيوانات التي توجد على وجه الأرض: أي مخلوق يمضغ طعامه وله حافر مشقوق، بما في ذلك الأغنام والماشية والماعز والغزلان. شملت الحيوانات التي لم تكن «كوشير» (مباحة شرعًا) بل كانت تيرايفا (ممزقة ومحظورة) الخيول والحمير والإبل والخنازير.

ومن الطيور المسموح لهم بأكلها الحمام والدجاج والحمام الأليف والبط الأليف والإوز الأليف. المخلوقات المجنحة التي كانت رجسًا شملت النسور، النعام، الصقور، الحدْآن، الوقواقيات، البجع الأبيض، اللقالق، البوم، البجع الأسود، الزقزاق الشامي، والخفافيش.

«لم يسبق لي أن تذوقت في حياتي لحمًا لذيذ المذاق مثل لحم البجعة البيضاء الذي يدهن بشحم الخنزير ويطهى بوضعه في لحم الخنزير

الملح، ثم يشوى على مهل فوق النار».

شعر مئير بدغدغة طفيفة. قال: «لن تجده هنا».

بزغ فجر صباح اليوم التالي صافيًا وباردًا. كانت دار الدراسة فارغة تقريبًا بعد صلاة «الشهاريت» (صلاة الصبح)، وقد تجول كثيرون في فناء الحاخام لمشاهدة «الشوحيط»، الذبح الشرعي. صنعت أنفاسهم سحائب صغيرة معلقة في الهواء البارد الفاتر.

وقف روب مع سيمون. صارت ضجة صغيرة عندما وصل راباي باروخ بن دافيد مع «المشجيا» الآخر، رجل عجوز محني الأكتاف يدعى راباي شمشون بن زانفيل، كان وجهه ثابتًا وعابسًا.

همس سيمون: «إنه أكبر من راباي باروخ أو الحاخام ولكنه ليس متعلمًا. والآن يخشى أن يقع بين الاثنين إذا نشأ خلاف».

قاد أبناء الحاخام الأربعة أول حيوان من الحظيرة، وهو عجل أسود ذو ظهر عميق وفخذين ممتلئين. كان العجل يخور، ثم هزّ رأسه وضرب الأرض بحافره، واضطروا إلى طلب المساعدة من المتفرجين في السيطرة على الحيوان بالحبال في حين أنه كان المفتشون يتفقدون كل شبر في جسده.

قال سيمون: «إن أصغر جرح أو شق في الجلد سيجعل لحم الحيوان غير مباح للأكل».

«لماذا؟».

نظر سيمون إلى روب بانزعاج. قال: «لأنها الشريعة».

وفي نهاية المطاف والرضا يملأ الوجوه، قادوا العجل إلى مزود مليء بالكلأ الحلو. التقط الحاخام سكينًا طويلًا. قال سيمون: «انظر إلى

النهاية الثلمة المربعة للسكين. إنها مصنوعة من دون سنّ، لذلك ثمة احتمال طفيف أن تخدش جلد الحيوان. لكن السكين شحيذ للغاية».

وقفوا جميعًا في البرد في حين أنه لم يحدث شيء. «ماذا ينتظرون؟» همس روب.

قال سيمون: «اللحظة الحاسمة تمامًا، يجب أن يكون الحيوان ساكنًا في لحظة موته، أو أنه ليس «كوشر»».

حتى وهو يتكلم، أومض السكين. قطعت ضربة واحدة ماضية المريء والقصبة الهوائية والشرايين السباتية في الرقبة. تفجّر تيار من الدم الأحمر القاني على إثرها، وذهب وعي العجل حيث انقطع تدفق الدم عن الدماغ في الحال. خفقت عينا الحيوان وتمددت ركبتاه وفي لمح البصر لفظ أنفاسه.

صارت همهمة من الفرح من أولئك الذين راقبوا الذبح ولكن سرعان ما هدأت، لأن راباي باروخ أخذ السكين وكان يفحصها.

وبالمشاهدة، استطاع روب أن يرى صراعًا أدى إلى تبرم بدا جليًّا على قسمات وجه الرجل العجوز. استدار باروخ إلى منافسه المسن.

«هل ثمة شيء ما؟» قال الحاخام ببرود.

قال راباي باروخ: «أخشى». شرع في إظهار العيوب، في منتصف السكين أسفل حافة القطع للنصل، عيب، أصغر ثلمة في النصل الفولاذي المصقول بدقة والمشحوذ بشدة.

بدا على وجهه العجوز المتغضن الفزع، تراجع راباي شمشون بن زانفيل إلى الوراء، واثقًا من أنه سيتم استدعاؤه باعتباره «المشجيا» الثاني ليصدر حكمًا لا يريده.

بدأ راباي دانيال، والد روهيل والابن الأكبر للحاخام، جدالًا حادًّا. «ما هذا الهراء؟ الجميع يعرف مدى العناية التي يتم بها شحذ سكاكين طقوس الحاخام»، قال، لكن والده رفع يده إشارة للصمت.

رفع الحاخام السكين تحت الضوء ووضع إصبعًا تحت الحافة الحادة تمامًا. تنهّد، لأن الثلمة كانت هناك، خطأ بشري جعل اللحم غير لائق شعائريًّا.

قال بهدوء: «إنها نعمة أن تكون عيناك أكثر حدة من هذا النصل وتستمر في حمايتنا، يا صديقي القديم»، وصار استرخاء عام، أشبه بإطلاق أنفاس مكبوتة.

ابتسم راباي باروخ. مد يده وربّت على يد الحاخام، وحدج الرجلان بعضهما بعضًا لبرهة طويلة.

ثم أدار الحاخام ظهره واستدعى مار روفين الحلّاق الجرّاح.

تقدّم روب وسيمون إلى الأمام خطوة وأنصتا باهتمام بالغ. قال سيمون: «يطلب الحاخام منك تسليم هذه الطريفه «الذبيحة» إلى قصّاب غابروفو المسيحي».

لقد أخذ المهرة، لأنها كانت في حاجة ماسة إلى التمرين، وربطها بزلاجة مسطحة عليها عدد من الأيدي الراغبة في تحميل العجل المذبوح. استخدم الحاخام سكينًا معتمدًا للحيوان الثاني، والذي اعتبر «كوشير» (حلال)، وكان اليهود قد ذبحوه بالفعل عندما هزّ روب لجام الفرس ووجه الحصان بعيدًا عن ترياقنا.

سافر إلى غابروفو في تثاقل وفي متعة كبيرة. ثبت أن محل الجزارة هو المكان الذي وصف فيه بالضبط، ثلاثة منازل أسفل المبنى الأبرز في

المدينة، والذي كان نزلًا. كان القصّاب ضخمًا وثقيلًا، تعلن ملامحه عن حجم تجارته. لم تثبت اللغة أنها تشكل عائقًا.

قال روب وهو يشير إلى العجل المذبوح: «تريافنا».

أصبح الوجه الأحمر الممتلئ مكللًا بالابتسامات. «آه». قال القصّاب، «الحاخام»، وأومأ برأسه بقوة. ثبت أن انتشال الذبيحة صعبًا إلا أن القصّاب عرّج على حانة وعاد مع زوج من المساعدين، وبحبل وجهد شاق أنزلوا العجل المذبوح.

أخبره سيمون أن السعر ثابت ولن تكون هناك مساومة. عندما سلم القصّاب لروب القطع النقدية القليلة الزهيدة، اتضح لماذا ابتسم الرجل بفرح، لأنه سرق عمليًا لحمًا بقريًا ممتازًا، لمجرد أنه كان هناك ثلمة في نصل الذبح! لن يتمكن روب أبدًا من فهم الأشخاص الذين، دون سبب وجيه، يمكنهم التعامل مع لحم البقر الجيد كما لو كان رجسًا. أغضبه الغباء في ذلك الأمر وملأه بنوع من الخزي؛ أراد أن يشرح للقصّاب أنه مسيحي وليس من أولئك الذين يتصرفون بحماقة. إلا أنه لم يستطع قبول العملات المعدنية إلا باسم العبرانيين ودسها في كيس نقوده لحفظها.

انتهى عمله، وتوجه مباشرة إلى حانة أقرب نزل. كانت الحانة العامة مبنى طويلًا وضيقًا، يشبه النفق أكثر من كونه غرفة، وسقفه المتدلي غدا أسود فاحمًا جرّاء سحائب الدخان المتصاعد من النار التي يتحلق حولها تسعة أو عشرة رجال يتسكعون ويسكرون. جلست ثلاث نساء على طاولة صغيرة قريبة وانتظرن بترقب. تفرّس روب وجوههن وهو يحتسي مشروبًا - ويسكي بني اللون خام لم يكن يرضيه على الإطلاق. من الواضح أنهن كن عاهرات الحانة. كانت اثنتان قد تجاوزتا فترة ريعانهما، إلا أن الثالثة كانت شقراء شابة ذات وجه بريء شرير. فهمت الغرض من نظرته وابتسمت له.

أنهى روب شرابه وذهب إلى طاولتهن. «لا أعتقد أنكن تجدن الحديث بالإنجليزية»، تمتم، وكان تخمينًا صحيحًا. قالت إحدى النساء الأكبر سنًا شيئًا وضحكتا الأخريان. لكنه أخرج عملة معدنية وأعطاها للمرأة الشابة. كان هذا كل الحديث الذي يحتاجونه. دسّت العملة في جيبها، وغادرت الطاولة دون أن تلفظ كلمة أخرى لرفيقتيها، وذهبت إلى المكان الذي تعلّق فيه عباءتها على المشجب.

تبعها في الخارج وفي الشارع الثلجي التقى ماري كولين.

«مرحبًا! هل تنعمين أنت ووالدك بشتاء جيد؟».

قالت: «إننا نعيش شتاء بائسًا»، ولاحظ أنها رمقت العاهرة بنظرة. امتقع أنفها إلى اللون الاحمر وكان ثمة قرحة برد على شفتها العليا المكتنزة الناعمة. «النزل يتجمد دائمًا والطعام سيئ للغاية. هل تعيش حقًّا مع اليهود؟».

«نعم».

«كيف ذلك؟» قالت بضعف.

لقد نسي لون عينيها وكان تأثيرهما عليه يتلاشى، كما لو كان قد صادف الطيور الزرقاء في الثلج. «أنام في حظيرة دافئة. قال لها بارتياح كبير: «الطعام ممتاز».

«أخبرني والدي أن هناك رائحة يهودية خاصة تسمى رائحة الكراهية. لأنهم فركوا جسد المسيح بالثوم بعد موته».

«أحيانًا كلنا نشم. إلا أن تغطيس أنفسهم من الرأس إلى القدم كل يوم جمعة هو عادة فريدة من نوعها. أنا على ثقة من أنهم يتحممون أكثر من غيرهم».

خضبت العاهرة وجهها، وكان يعلم أنه من الصعب والنادر الحصول على ماء الاستحمام في نزل مثل الموجود في غابروفو.

رمقت ماري كولين المرأة التي انتظرته بصبر على بعد مسافة قصيرة. «أبي يقول إن أي شخص يوافق على العيش مع اليهود يفتقد إلى المروءة».

«بدا والدك رجلًا لطيفًا». قال بتمعن، ربما «إنه أحمق». سارا بعيدًا عن بعضهما بعضًا في نفس اللحظة.

تبع المرأة الشقراء إلى غرفة قريبة. كانت الغرفة غير مرتبة ومكتظة بأسمال بالية رثة تخص النساء وساوره شك في أنها تشارك الغرفة مع الاثنتين الأخريين. كان يراقبها وهي تنزع ثيابها. قال: «من القسوة أن أنظر إليك بعد رؤية ماري كولين»، وهو يعلم أنها لا تعرف أي كلمة مما قاله. «قد يكون لديها لسان سليط دائمًا، ولكن ... ليس هذا هو الجمال، بالضبط، ومع ذلك يمكن مقارنة القلائل من النساء بماري كولين في المظهر».

ابتسمت له المرأة.

قال لها: «أنت عاهرة شابة إلا أنك تبدين عجوزًا بالفعل». كان الهواء باردًا، وتجردت من ثيابها وتسللت بسرعة بين أغطية الفراء الرثة هربًا من البرد، ولكن ليس قبل أن يرى أكثر مما يحبه. لقد كان رجلًا يقدر رائحة الإغواء لدى النساء ولكن ما تشممه منها كان رائحة كريهة، وكان شعر جسدها خشنًا ومتلزجًا كما لو كانت العصائر انسكبت عليه فجفّ وجفّ مرات لا حصر لها دون الارتواء برطوبة الماء الصافي. كان الامتناع عن ممارسة الجنس سببًا في جوعه لدرجة أنه كان سينقض عليها، إلا أن الطيف العابر لزرقة جسد ماري لاح له فأبصر اللحم المتكتل المستهلك الذي عافت نفسه أن يلمسه.

قال متجهمًا: «لعنة الرب على تلك الساحرة ذات الشعر الأحمر».
حدجته المرأة في حيرة.

قال لها وهو يمد يده إلى كيس نقوده: «هذا ليس خطأك يا حلوتي». أعطاها أكثر مما كانت تستحق كما ولو كان قضى منها وطرًا، وسحبت العملات المعدنية تحت الفراء وأمسكتها بجانب جسدها. لم يكن قد بدأ في خلع أي شيء من ثيابه، وَسَوّى ثيابه وأومأ إليها وخرج في الهواء النقي.

مع تراجع شهر فبراير، أمضى وقتًا أكثر من أي وقت مضى في دار الدراسة، وهو يدرس القرآن باللغة الفارسية. وجد نفسه مدهوشًا باستمرار من العداء المستمر للقرآن تجاه المسيحيين والبغض المرير لليهود.

شرح ذلك سيمون. كان معلمو محمد الأوائل من اليهود والرهبان المسيحيين السريان. عندما ذكر لأول مرة أن الملاك جبريل قد زاره، وأن الله قد جعله نبيًّا وأمره بتأسيس دين جديد متسم بالكمال، كان يتوقع من هؤلاء الأصدقاء القدامى أن يتزاحموا وراءه بصرخات حماسية ملؤها السعادة. إلا أن المسيحيين فضّلوا دينهم واليهود، بعد أن روّعوا وهددوا، وانضموا بنشاط إلى أولئك الذين رفضوا مواعظ محمد. طيلة حياته لم يسامحهم، بل تكلم وكتب عنهم وهو يقدح فيهم».

جعلت رؤى سيمون القرآن ينبض بالحياة لروب. لقد كان في منتصف الكتاب تقريبًا وقد جاهد في دراسة الكتاب، مدركًا أنهم سرعان ما سيسافرون مرة أخرى. وعندما تطأ أقدامهم القسطنطينية، سوف يسلك هو وجماعة مئير طرقًا مختلفة، ليس فقط بفصله عن معلّمه سيمون، ولكن الأدهي من ذلك، حرمانه من الكتاب. أعطاه القرآن تلميحات عن ثقافة بعيدة عن ثقافته، وأعطاه يهود تريافنا لمحة عن دروب حياة ثالثة. عندما كان طفلًا كان يعتقد أن إنجلترا هي العالم بأسره، إلا أنه الآن

رأى أن هناك شعوبًا أخرى؛ كانوا متشابهين في بعض الصفات، لكنهم اختلفوا بعضهم عن بعض في نواح مهمة.

كان لقاء الذبح سببًا في الصلح بين الحاخام وراباي باروخ بن دافيد، وبدأت العائلتان على الفور في التخطيط لحفل زفاف روهيل إلى الشاب راباي مشولوم بن ناثان. كان الحي اليهودي ينبض بالنشاط الحماسي. كان الرجلان العجوزان يحلقان بروحمها المعنوية العالية، في الغالب معًا.

أهدى الحاخام روب هدية من قبعة جلدية قديمة وأعاره جزءًا صغيرًا من التلمود للدراسة. ترجم كتاب الشرائع العبري إلى اللغة الفارسية. وعلى الرغم من أن روب رحّب بفرصة مطالعة اللغة الفارسية في وثيقة أخرى، لكن معنى المقطع كان يصعب عليه فهمه. تناول المقطع أمرًا شرائعيًّا يدعى «شعاتنيز»: على الرغم من السماح لليهود بارتداء الكتان وارتداء الصوف، لم يسمح لهم بارتداء مزيج من الكتان والصوف، ولم يستطع روب فهم السبب وراء ذلك.

أي شخص يسأله إما أنه لا يعرف أو يتجاهل ويقول إن هذه هي الشريعة.

وفي تلك الجمعة، وهو عار في الحمام المشبع بالبخار، تجاسر روب فيما تجمع الرجال حول حكيمهم.

«طاب يومك، أيها الحاخام، طاب يومك!» صاح. سؤال، سؤال!

توقف الحاخام لبرهة وهو يدعك بطنه الكبير المتهدل بالصابون وابتسم للشاب الغريب، ثم تكلم.

قال سيمون: «يقول: اسأل سؤالك يا بني».

«يحظر عليكم أكل اللحم مع اللبن. ويحظر عليكم ارتداء الكتان

مع الصوف. ويحظر عليكم أن تمسّوا زوجاتكم نصف الوقت. لماذا المحظورات كثيرة؟».

قال الحاخام: «هذا من ضروريات الإيمان». «لماذا يطلب الرب مثل هذه المطالب الغريبة من اليهود؟» قال الحاخام: «لإبقائنا منفصلين عنكم»، إلا أن عينيه كانتا تلمعان ولم تكن الكلمات تحمل ثمة ضغينة، ولهث روب في حين أن سيمون كان يصبّ الماء على رأسه.

* * *

شارك الجميع عندما تزوجت روهيل، حفيدة الحاخام، من مشولوم، حفيد راباي باروخ، في ثاني جمعة من شهر أذار العبري (مارس).

وفي الصباح الباكر اجتمع الجميع خارج بيت دانيال بن شلومو، والد العروس. وفي الداخل، دفع مشولوم لعروسه مقابل خمس عشرة قطعة ذهبية. جرى التوقيع على «الكتوبة» أو عقد الزواج، وقدّم راباي دانيال مهرًا رائعًا، وأعاد مهر العروس للزوجين وأضاف خمس عشرة قطعة ذهبية إضافية، وعربة، وقطيعًا من الجياد. أعطى ناثان، والد العريس، الزوجين المحظوظين زوجًا من الأبقار الحلوب. عندما غادرا المنزل، سارت روهيل في تألق أمام روب كما لو كان مختفيًا.

اصطحب المجتمع اليهودي بأكمله الزوجين إلى المعبد اليهودي، حيث تليت سبع آيات تحت مظلة. ختم مشولوم على قدح زجاجي هش ليوضح أن السعادة عابرة ويجب على اليهود ألا ينسوا تدمير الهيكل. وبعد ذلك أصبحا زوجًا وزوجة، وجرى الاحتفال ليوم كامل. عزف كل من عازف المزمار، وعازف النايّ، وقارع الطبل الموسيقا وصدح اليهود بالغناء في مجون، نزل حبيبي إلى حديقته، إلى مساكب التوابل، ليأكل في الحدائق ويجمع الزنابق، كما أخبر سيمون روب أن مقطوعة الأغنية هذه مقتبسة

من الكتاب المقدس. باعدا الجدان بين ذراعيهما بفرح وسرور، وفرقعا أصابعهما، وأغمضا أعينهما، وتمايلا برؤوسهما إلى الوراء ورقصا. استمر حفل الزفاف حتى الساعات الأولى من الصباح وأكل روب من اللحوم والحلويات الدسمة بشهية حتى التخمة واحتسى الكثير من الشراب.

وفي تلك الليلة، تأمل وهو يرقد على فراشه من حشية القش في عتمة ظلام الحظيرة الدافئة، وقطته عند قدميه. لقد تذكر المرأة الشقراء في غابروفو بقدر أقل من الاشمئزاز وأراد ألا يفكر في ماري كولين. لقد فكر باستياء في الشاب النحيل مشولوم، الذي كان مستلقيًا في تلك اللحظة مع روهيل، وكان يأمل في أن يمكّن العلم الاستثنائي الصبي من تقدير حظه السعيد.

استيقظ قبل الفجر بفترة طويلة وشعر بالتغيرات في عالمه بدلًا من سماعها. وبحلول الوقت الذي نام فيه مرة أخرى واستيقظ ونهض من فراشه، تناهت الأصوات إلى مسامعه بوضوح: في هيئة قطرات، وطنين، واندفاع، وزئير علا خفاقًا مع تلاشي المزيد والمزيد من الجليد والثلج وهو ينسرب إلى مياه الأرض الرحبة، وهي تجتاح سفوح الجبال وتنذر بقدوم الربيع.

31

حقل القمح

عندما أدركت أمها المنية، أخبرها والدها أنه سوف يلبس الحداد على جورا كولين لبقية حياته. كانت قد انضمت إلى أبيها طواعية في ارتداء الأسود وتجنب الملذات العامة، ولكن عندما انتهى عام كامل من الحداد في الثامن عشر من مارس، أخبرت أبيها أن الوقت قد حان لعودتهما إلى روتين الحياة العادية.

قال جيمس كولين: «سوف أستمر في ارتداء الأسود».

قالت: «لن أفعل»، وأومأ برأسه.

لقد حملت طوال الطريق من المنزل لفافة من أقمشة صوفية خفيفة منسوجة من صوف الخراف التي يمتلكها أبوها، واستفسرت بعناية حتى وجدت خيّاطة جيدة في غابروفو. أومأت المرأة عندما أنبأت عما تريد، لكنها أشارت إلى أنه من الأفضل صبغ القماش، ذي اللون الطبيعي الذي لا وصف له، قبل القص. يمكن أن تعطي جذور نبات الفوّة الصبغي ظلالًا حمراء، ولكن بشعرها هذا سوف يجعلها تقف كمنارة تشع ضوءًا. سوف يعطي لحاء خشب البلوط المأخوذ من المنتصف اللون الرمادي، ولكن بعد ارتدائها الأسود الدائم، كان اللون الرمادي خافتًا للغاية. سوف يعطي لحاء الجميز أو السماق ألوانًا صفراء أو برتقالية خافتة. يجب أن يكون لونه بنيًّا.

«لقد أمضيت طيلة حياتي وأنا أرتدي أقمشة بلون قشر الجوز البني»، تذمّرت على والدها.

وفي اليوم التالي أحضر لها قدرًا صغيرًا من صمغ أصفر اللون، مثل الزبدة المخفوقة قليلًا. «إنه صبغة، إنها باهظة الثمن».

قالت بحذر: «إنه ليس اللون الذي يروق لي».

ابتسم جيمس كولين. «إنه يسمى اللون الهندي الأزرق. يذوب في الماء ويجب أن تحرصي على عدم ملامسته يديك. عندما تؤخذ قطعة القماش المبللة من الماء الأصفر يتغير لونها في الهواء وبعد ذلك تصبح الصبغة سريعة».

حصلت على قطعة قماش لونها أزرق غامق لم ترها من قبل، وقصّت الخياطة القماش وخاطت لها ثوبًا وعباءة. تهللت أساريرها بالثياب لكنها طوت الثياب ووضعتها جانبًا حتى صباح العاشر من أبريل، عندما نقل الصيادون الأخبار إلى غابروفو أن الطريق عبر الجبال قد انفتح أخيرًا.

وبحلول وقت مبكر بعد الظهيرة، بدأ الناس الذين كانوا ينتظرون ذوبان الجليد في جميع أنحاء الريف يسارعون إلى غابروفو، مدينة الانطلاق إلى المعبر العظيم المعروف باسم بوابة البلقان. رصّ القائمون على توفير المؤن بضاعتهم، وبدأت الحشود المتصارعة في الصياح من أجل الأسبقية في شراء الإمدادات.

اضطرت ماري أن تمنح زوجة صاحب الحانة مبلغًا من المال لإقناعها بتسخين الماء فوق النار في مثل هذا الوقت المحموم وحمله إلى الطابق العلوي إلى غرف نوم النساء. جثت ماري على ركبتيها في البداية فوق الحوض الخشبي وغسلت شعرها، الذي أصبح الآن طويلًا وكثيفًا مثل فرو الشتاء، ثم جلست القرفصاء في حوض الاستحمام ودلّكت جسمها حتى تألق وتوهج.

ارتدت الثياب التي حيكت مؤخرًا وذهبت للجلوس في الخارج. وإبان تمشيط شعرها بمشط خشبي وهي تجلس تحت الشمس حتى يجف شعرها، رأت أن الشارع الرئيسي في غابروفو كان مكتظًا بالخيول والعربات. والآن، كانت مجموعة كبيرة من الرجال، السكارى حتى الثمالة، يجرون بخيولهم عدوًّا صوب المدينة، غير آبهين بالفوضى التي أثارتها حوافر الخيول التي تدق الأرض دقًّا. انقلبت عربة بسبب تقافز الخيول وتدافعها، وامتعضت خوفًا. وفي تلك الأثناء التي صب فيها الرجال لعناتهم وناضلوا من أجل الإمساك بلجام الخيول وكبح جماحها، وارتفع صهيل الخيول مدويًا، ركضت ماري إلى الداخل قبل أن يجف شعرها المبتل تمامًا.

حزمت أمتعتهم وتأهبت في الوقت الذي ظهر فيه والدها مع خادمه الشخصي، سيريدي.

«من هم الرجال الذين اقتحموا المدينة؟» سألت.

قال والدها ببرود: «يسمون أنفسهم الفرسان المسيحيين. هناك ما يقرب من ثمانين فرنسيًّا من نورماندي يحجون إلى فلسطين».

قال سيريدي: «إنهم خطرون للغاية، يا سيدتي». ورغم أنهم يرتدون سترات مدرعة إلا أنهم يسافرون بعربات محملة بالدروع الكاملة. يبقون سكارى و...» أشاح بنظره بعيدًا وقال: «إنهم يسيئون معاملة النساء من شتى الأنواع. يجب أن تبقي بالقرب منا، يا سيدتي».

شكرته بشدة، لكن فكرة وجوب الاعتماد على سيريدي ووالدها لحمايتها من ثمانين فارسًا من السكارى والهمجيين يمكن أن تكون أمرًا مضحكًا وإن لم تكن أمرًا مروعًا.

كانت الحماية المتبادلة هي أفضل سبب للسفر في قافلة كبيرة، ولم

يضيعوا وقتًا في تحميل المطايا وسياقتها إلى حقل كبير على الحافة الشرقية للمدينة، حيثما كانت القافلة تتجمع. عندما مروا عبر عربة كيرل فريتا، رأت ماري أنه قد أعدّ طاولة بالفعل وكان يقوم بعمل خاطف باختيار المسافرين.

لقد كان شيئًا أشبه بالعودة إلى الديار، فقد استقبلهم عدد من الأشخاص الذين كانوا يعرفونهم في الجزء السابق من الرحلة. وجدت عائلة كولين مكانها جيدًا في منتصف خط المسيرة لأنه انضم العديد من المسافرين الجدد الذين قد اصطفوا خلفهم.

كانت تراقب عن كثب، لكن حلّ الظلام تقريبًا قبل أن ترى الجماعة التي كانت تنتظرها. وعاد نفس اليهود الخمسة الذين تركوا معهم القافلة على ظهور الخيل. ومن خلفهم رأت المهرة البنية الصغيرة؛ قاد روب جيه كول العربة المزخرفة نحوها وفجأة شعرت بقلبها ينبض في صدرها.

لقد بدا جيدًا كما كان دائمًا وبدا سعيدًا بالعودة، وألقى التحية على عائلة كولين بمرح كما لو أنهما لم يبتعدا غاضبين بعضهما عن بعض في المرة الأخيرة التي التقيا فيها.

عندما اعتنى بحصانه ودخل خيمتهم، كان من حق الجار على الجار أن تشير فحسب إلى أن التجار المحليين نادرًا ما يتركون أي شيء للبيع، خشية أن يفتقر إلى المؤن.

شكرها بلطف لكنه قال إنه اشترى مؤنًا في تريافنا دون صعوبة. «هل لديك ما يكفي لنفسك؟».

«نعم، لأن أبي اشترى مبكرًا». تكدّر وجهها لأنه لم يشر إلى ردائها الجديد والعباءة، رغم أنه أطال النظر إليها لبرهة أطول.

وقال في نهاية المطاف: «إنهما نفس لون عينيك».

لم تكن مطمئنة لكنها اعتبرتها مجاملة. قالت بجدية: «شكرًا لك»، وعندما اقترب والدها، أجبرت نفسها على الابتعاد لتراقب سيريدي وهو ينصب الخيمة.

انصرم يوم آخر دون رحيل القافلة، وكان ثمة ضجر واستياء في الصفوف من أولها إلى آخرها. ذهب والدها لرؤية فريتا وعاد ليخبرها أن سيد القافلة كان ينتظر مغادرة الفرسان النورمانديين. قال: «لقد تسببوا في إلحاق أذى كبير وفريتا يفضل بحكمة أن يكونوا أمامنا بدلًا من مداهمة مؤخرتنا».

إلا أنه في صباح اليوم التالي، لم يغادر الفرسان وقرر فريتا أنه انتظر طويلًا. أعطى الإشارة التي بدأت القافلة في آخر محطة طويلة نحو القسطنطينية، وأخيرًا وصلت موجة الحركة أمام كولين. وفي الخريف الماضي، كانوا قد تبعوا إفرنجيًا شابًا وزوجته وطفلين صغيرين. وقد قضت العائلة الإفرنجية الشتاء بعيدًا عن مدينة غابروفو؛ كانت نيتهم المعلنة استئناف الرحلة مع القافلة، لكنهم لم يظهروا. عرفت ماري أن شيئًا مروعًا لا بد أنه قد حدث، وتضرعت إلى المسيح ليحرسهم. ركبت الآن خلف شقيقين فرنسيين بدينين أخبرا والدها أنهما يأملان في جني ثرواتهما من خلال شراء السجاجيد التركية والكنوز الأخرى. كانوا يمضغون الثوم من أجل الصحة، وغالبًا ما يستديرون في السروج للتحديق بغباء في جسدها. وخطر ببالها أن الحلاق الجراح الشاب، الذي يقود عربته خلفها، ربما كان يراقبها أيضًا، وفي بعض الأحيان كانت ماكرة بما يكفي لتحريك وركها أكثر مما تتطلبه حركة الحصان.

وسرعان ما جرح الثعبان العملاق المسافرين في المعبر الذي يمر عبر الجبال العالية. تلاشى ميلان سفح الجبل أسفل الدرب الملتوي، نزولًا إلى

النهر المتلألئ، الممتلئ بذوبان الثلوج التي حبستهم طوال فصل الشتاء.

وعلى الجانب الآخر من الشعب الجبلي الكبير كانت هناك سفوح تحولت تدريجيًا إلى أرض بطحاء. لقد ناموا تلك الليلة في سهل واسع مترع بالشجيرات النامية. وفي اليوم التالي سافروا جنوبًا وأصبح من الواضح أن بوابة البلقان تفصل بين مناخين فريدين، لأن الهواء كان أكثر اعتدالًا في هذا الجانب من المعبر ومع كل ساعة يسافرون فيها يصبح الجو أكثر دفئًا.

وفي تلك الليلة توقفوا بالقرب من قرية جورنيا، ونصبوا خيامهم في بساتين البرقوق بإذن من المزارعين، الذين باعوا لبعض الرجال خمور البرقوق الحارة بالإضافة إلى البصل الأخضر ومشروب الحليب المخمر الذي كان كثيفًا لدرجة أنه كان لا بد من تناوله بالملعقة. وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي، بينما كانوا لا يزالون في خيامهم، سمعت ماري دوي من الرعد البعيد. ولكن سرعان ما ارتفع هذا الدويّ وسرعان ما أصبحت صيحات الرجال الجامحة جزءًا من الضجيج.

وعندما خرجت من الخيمة رأت أن القطة البيضاء تركت عربة الحلاق الجراح ووقفت مشدوهة في الطريق. جرى الفرسان الفرنسيون أمامها بالخيول عدوًا مثل الشياطين في كابوس وضاعت القطة في سحابة من الغبار، ولكن ليس قبل أن ترى ماري ما فعلته الحوافر الأولى. لم تكن واعية بالصراخ لكنها عرفت أنها كانت تجري نحو الطريق قبل أن يهدأ الغبار. لم تعد مسيز بافينجتون بيضاء. دهست القطة في الغبار ورفعت ماري جثمانها الصغير المكسور الهزيل وللمرة الأولى أدرك أنه خرج من عربته ووقف فوقها.

قال بقسوة: «ستفسدي ثوبك الجديد بالدماء»، لكن وجهه الشاحب كان مصابًا.

أخذ القطة والمجرفة وذهب بعيدًا عن المخيم. عندما عاد لم تقترب منه، لكنها لاحظت من بعيد أن عينيه كانتا محمرتين. لم يكن دفن حيوان ميت في باطن الأرض مثل دفن شخص ما، لكن لم يكن غريبًا بالنسبة لها أنه كان قادرًا على البكاء على قطة. وعلى الرغم من حجمه وقوته، كانت الوداعة هي الصفة التي جذبتها.

ففي الأيام العديدة التالية سمحت له بذلك. توقفت القافلة عن التوجه جنوبًا واتجهت شرقًا مرة أخرى، إلا أن الشمس استمرت في توهجها أكثر كل يوم. وبدا جليًا بالفعل لماري أن الثياب الجديدة التي حيكت لها في غابروفو كانت بلا طائل إلى حد كبير، لأن الطقس كان حارًّا للغاية بما لا يتناسب مع ارتداء الثياب الصوفية. فتشت في الثياب الصيفية في حقيبتها ووجدت بعض الثياب الخفيفة إلا أنها كانت خفيفة جدًّا بحيث لا يمكن السفر بها وسرعان ما تتلف. ارتدت ثيابًا تحتانية من القطن ورداءً خشنًا يشبه الكيس، أعطته شكلًا مختلفًا عن شكل الكيس من خلال ربط حبل حول خصرها. وضعت قبعة جلدية واسعة الأطراف على رأسها، على الرغم من أن خديها وأنفها كان يغزوهم النمش بالفعل.

وفي ذلك الصباح، عندما ترجّلت عن حصانها وبدأت في المشي لممارسة الرياضة كما اعتادت، انفرجت أساريره. قال لها: «تعالي اركبي معي في عربتي».

لقد جاءت دون اعتراض. هذه المرة لم يكن ثمة حرج، شعرت فحسب بفرحة عميقة بالجلوس على المقعد بجواره.

نقّب بيده خلف المقعد وأخرج قبعة جلدية خاصة به، لكنها كانت غطاء رأس مثل الذي كان يرتديه اليهود.

«من أين حصلت عليها؟».

«أعطاني إياها الرجل المقدس خاصتهم في تريافنا».

وفي الوقت الحاضر رَأَيَا والدها يرمقها بنظرة غاضبة وبدأ كلاهما في الضحك.

قال: «أنا مدهوش لأنه سمح لك بالزيارة».

«لقد أقنعته أنك غير مؤذٍ».

نظرا إلى بعضهما بارتياح. كان وجهه وسيمًا على الرغم من الحقيقة البشعة لأنفه المكسور. لقد أدركت أنه رغم قسمات وجهه الجامدة، إلا أن السبيل إلى مشاعره كان عينيه الجريحتين، عميقتين وثابتين وأكبر من سنواته إلى حد ما. شعرت فيهما بوحدة كبيرة تضاهي وحدتها. كم كان عمره؟ واحد وعشرون عامًا؟ اثنان وعشرون؟

أدركت في البداية أنه كان يتحدث عن التلّة الزراعية التي كانوا يمرون فوقها.

«... معظمها مزروع بالفاكهة والقمح. يجب أن يكون الشتاء هنا قصيرًا ومعتدلًا، لأن المحاصيل كانت على وشك الحصاد»، كما قال، لكنها ليس من المفترض أن تسلب من الألفة والحميمية التي حظيا بها في اللحظات الأخيرة.

«كرهتك ذلك اليوم في غابروفو».

ربما رجل آخر قد يحتج أو يبتسم، لكنه لم يرد.

«بسبب المرأة السلافية. كيف تجرأت على الذهاب معها؟ وأنا أيضًا كرهتها».

«لا تنثري كراهيتك على أيّ منّا، لأنها كانت مثيرة للشفقة ولم أتغشّها.

قال بإيجاز: «أراك تسيئين لي».

لم يخامرها شك أبدًا في أنه سيقول لها الحقيقة، وبدأ شيء ما دافئ وباعث على السرور ينمو فيها مثل الزهرة.

يمكنهما الآن التحدث عن الترهات وتوافه الأمور - طريقهما، والطريقة التي يجب بها سياقة الماشية حتى تصمد وتتحمل، وصعوبة العثور على خشب الطهي. جلسا معًا طوال فترة ما بعد الظهيرة وتحدثا بهدوء عن كل شيء باستثناء القطة البيضاء ونفسيهما، وكانت عيناه تقول لها أشياء أخرى دون كلمات.

لقد عرفت تلك الأشياء. كانت خائفة لعدة أسباب ولكن لم يكن هناك مكان على وجه الأرض تفضله على أن تجلس بجانبه على عربة غير مريحة تتأرجح تحت أشعة الشمس الحارقة، وذهبت بعيدًا وهي مطيعة لكنها كانت مترددة عندما استدعاها والدها في النهاية بشكل قاطع.

لقد مرّوا مرارًا وتكرارًا على قطيع صغير من الأغنام، كان معظمه من الأغنام البائسة، على الرغم من أن والدها توقف باستمرار لفحص الأغنام وذهب مع سيريدي للاستفسار عنها من أصحابها. نصح الرعاة دائمًا أنه من أجل الوصول إلى الخراف الرائعة حقًّا، يجب أن يذهب إلى ما وراء الأناضول.

وبحلول أوائل شهر مايو، كانوا قد سافروا لمدة أسبوع من تركيا، ولم يقم جيمس كولين بأي محاولة لإخفاء حماسه. كانت ابنته تتعامل مع حماسه بطريقتها الخاصة، لكنها كانت تبذل قصارى جهدها لإخفائها عنه. وعلى الرغم من وجود فرصة دائمًا لإلقاء ابتسامة أو إلقاء نظرة باتجاه الحلاق الجراح، لكنها أجبرت نفسها في بعض الأحيان على الابتعاد عنه يومين على التوالي، لأنها كانت تخشى إذا لمس والدها مشاعرها تجاه

روب أن يأمرها بالابتعاد عنه.

وذات ليلة بينما كانت تنظف بعد العشاء، ظهر روب في مخيمهم. أومأ لها بأدب جم وذهب مباشرة إلى والدها، حاملًا قارورة من شراب التفاح الفوّار كعرض سلام.

قال والدها على مضض: «اقتعد الأرض». ولكن بعد أن تقاسم الرجلان الشراب، أصبح والدها أكثر ودية، ولا شك أنه كان من الجيد الجلوس في ألفة ومودة والتحدث باللغة الإنجليزية، وأيضًا لأنه كان من الصعب ألا يتحمس لروب جيه كول. قبل مضي وقت طويل، كان جيمس كولين يخبر زائرهم بما ينتظرهم.

«لقد أخبروني عن سلالة من الأغنام الشرقية العجاف التي تتسم بضيق في الظهر، إلا أنها لها ذيول وسيقان خلفية ممتلئة بالشحوم لدرجة أن الحيوان قد يعيش على احتياطيات الشحوم المخزنة عندما يندر الكلأ. وحملانها لها صوف حريري ذو لمعان وبريق نادر واستثنائي. انتظر لحظة يا رجل، دعني أريك!». اختفى في الخيمة وخرج بقبعة مصنوعة من جلد الخراف. كان الصوف رماديًا ومجدولًا بإحكام.

قال بلهفة: «أفضل جودة». «يظل الصوف على هذا النحو مجدولًا فقط حتى اليوم الخامس من حياة الحمل، ولكن بعد ذلك يظل الفراء متموجًا حتى يبلغ عمر الحيوان الصغير شهرين».

تفقد روب القبعة وأكد لوالدها أنها ذات جلد ناعم.

قال كولين: «أوه، إنه كذلك»، ووضع القبعة على رأسه، مما جعلهم يضحكون لأنها كانت ليلة دافئة وكانت قبعة الفراء للطقس المثلج. أعادها إلى الخيمة ثم جلس الثلاثة أمام النار وأعطاها والدها رشفة أو اثنتين من كأسه. كان من الصعب ابتلاع شراب التفاح الفوّار ولكنه

منحها الشعور بالأمان.

دوى هزيم الرعد وهزّ السماء الأرجوانية وأضاءتهم ومضات البرق لثوان طويلة استطاعت خلالها رؤية السحجات الصلبة في وجه روب، لكن العينين الجريحتين اللتين جعلتاه جميلًا كانتا محجوبتين عنها.

قال والدها: «أرض غريبة، ذات رعد وبرق منتظمين ولا تسقط قطرة مطر قط». «أميّز الصباح الذي ولدت فيه، يا ماري مارجريت. ثمة رعد وبرق في ذلك الوقت أيضًا، ولكن كان هناك مطر اسكتلندي غزير انهمر كما لو أن السماء قد انفتحت أبوابها ولم تنغلق أبدًا».

انحنى روب إلى الأمام. «أكان ذلك في كيلمارنوك، حيث تكون عائلتك؟».

«لا، لم يكن كذلك»، كان في سولت كوتس. كانت والدتها من عائلة تيدير في سولت كوتس. كنت قد اصطحبت جورا إلى منزل عائلة تيدير القديم لأنها كانت في أيامها الأخيرة في الحمل تتوق بشدة إلى والدتها، وقد احتفلنا بها ودللناها لأسابيع ومكثنا ضعف الوقت. لقد أجاءها المخاض، ولذا فقد ولدت ماري مارجريت في منزل جدها لأمها تيدير المطل على مصب نهر كلايد بدلًا من أن تولد في كيلمارنوك في منزل كولين».

قالت بلطف: «أبي. لا يمكن للسيد كول أن يهتم بيوم ميلادي».

قال روب: «على العكس»، وسأل والدها سؤالًا بعد سؤال واستمع بإسهاب.

جلست وتضرعت حتى لا يعود البرق، لأنها لم تكن ترغب في أن يرى والدها يد الحلاق الجراح مستقرة على ذراعها العارية. ورغم أن لمسته كانت مثل الشوك، إلا أن جسمها هاجت مشاعره وثار نهداها وكأن المستقبل قد هزّها أو أصابتها قشعريرة الليل.

ففي الحادي عشر من مايو، وصلت القافلة إلى الضفة الغربية لنهر «أردا» وقرر كيرل فريتا التخييم هناك يومًا إضافيًا للسماح بإصلاح العربات وشراء الإمدادات من المزارعين القريبين. أخذ والدها سيريدي واستأجر مرشدًا للذهاب معهما عبر النهر إلى تركيا، ونفد صبره مثل الصبية عندما بدأ بحثه عن الأغنام ذات الذيول الملأى بالشحوم.

وبعد ساعة، امتطت هي وروب حصانها الأسود الذي من دون سرج وركبا بعيدًا عن الضجيج والبلبلة. وفي حين أنهما كانا يجتازان خيمة اليهود، رأت الشاب النحيف يختلس إليها النظر ويرمقها بنظرة غرامية. كان سيمون هو ذاك الشاب، الشاب الذي كان يعلم روب؛ وابتسم ابتسامة عريضة وزغد أحد الآخرين في ضلوعه لمشاهدتهما وهم يركبان معًا.

لم تأبه بالأمر. شعرت بالدوار، ربما بسبب القيظ الشديد، لأن شمس الصباح كانت لافحة. وضعت ذراعيها حول صدره حتى لا تسقط من على الحصان وأغمضت عينيها وأسندت رأسها على ظهره العريض.

وعلى بعد مسافة من القافلة مرّا باثنين من الفلاحين المتجهمين اللذان يقودان حمارًا محملًا بحطب التدفئة. حدّق الرجلان فيهما ولم يردا عليهما التحية. ربما قدما من بعيد، لأنه لم تكن هناك أشجار في ذلك المكان، فقط حقول واسعة خالية من العمال لأن الزراعة كانت قد انتهت منذ فترة طويلة ولم تنضج المحاصيل بعد بما يكفي لجنيها.

وعندما وصلا إلى جدول صغير، ربط روب الحصان بشجيرة وتركا أحذيتهما وسارا في المياه الضحلة الصافية المتلألئة. وعلى جانبي المياه المتراقصة، نما حقل قمح وأظهر لها كيف أن السيقان الطويلة أضفت بظلالها على الأرض وجعلتها مظلمة وباردة بشكل جذاب.

قال: «تعالي، إنه مثل كهف»، وانسرب إلى الداخل كما لو كان طفلًا

كبيرًا.

تتبعته في تثاقل. وبالقرب من كائن حي صغير يخشخش الحبوب الطويلة الناضجة، ارتعبت.

قال: «مجرد فأر صغير، خائف بالفعل». وعندما اقترب منها في مكان رطب يتخلله الضوء والظلام، تأملا بعضهما بعضًا.

«أنا لا أريد ذلك يا روب».

قال: «حسنًا، إذًا لن تفعلي يا ماري»، رغم أنها كانت ترى في عينيه الشعور بالإحباط.

«رجاءً، هل يمكنك تقبيلي فحسب؟» سألت بتواضع.

لذلك أصبحت علاقتهما الحميمة السافرة الأولى قبلة خرقاء متقلبة المزاج محكومًا عليها بتخوفها.

«أنا لا أحب الشيء الآخر. لقد فعلت ذلك، كما ترى»، قالت كل شيء على عجل، وقد اكتملت اللحظة التي أجفلت فيها.

«هل لديك تجربة، إذًا؟».

«مرة واحدة فقط، مع ابن عمي في كيلمارنوك. لقد آذاني بشدة».

قبّل ما بين عينيها وأنفها ولثم فمها بلطف وهي تقاوم شكوكها. بعد كل شيء، من كان هذا الشخص؟ كان إستيفن تيدير شخصًا عرفته طوال حياتها، ابن عمها وصديقها، وقد تسبب لها في معاناتها الحقيقية.

وبعد ذلك قهقها ضاحكين على انزعاجها، كما لو كان من المضحك لها أن تسمح له بفعل شيء من هذا القبيل لها، مثل السماح له بدفعها على مؤخرتها في الطين الموحل. وفي حين أنه استولت عليها هذه الأفكار

البغيضة، غيّر هذا الإنجليزي طبيعة قبلاته، ولسانه يداعب شفتيها من الداخل. لم يكن الأمر مزعجًا وعندما حاولت محاكاته، مصّ لسانها! إلا أنها بدأت ترتجف مرة أخرى عندما فكّ صدريتها.

قال على عجل: «أريد تقبيلهما فحسب»، وكان لديها دهاء غريب يتمثل في النظر إلى وجهه وهو يتحرك نحو حلمتيها، والتي كان عليها أن تعترف برضا على مضض أنهما نافرتان ولكنهما منتصبتان ومكتنزتان، ومتوهجتان باللون الوردي.

لحس لسانه الحواف الوردية بلطف حتى انتفخت حلمتها. تحرك لسانه في حركات دائرية ضيقة حتى قرص حلمة ثديها المتصلبة ذات اللون الوردي، والتي كان يرسمها كما لو كان طفلًا عندما لقمها بين شفتيه، في حين أنه كان يداعبها خلف ركبتيها وداخل ساقيها. ولكن عندما تحركت يده إلى فرجها، تجمدت. كانت تشعر بتقلص العضلات في فخذيها واختلج بطنها، كانت متشنجة وخائفة حتى أبعد يده..

تحسّس ثيابه ثم وجد يدها ومنحها هدية. كانت قد بصرت رجالًا من قبل عن طريق الصدفة، وألفيت أباها أو أحد العمال الذين يبولون خلف الأجمة. وشاهدت في تلك المرات أكثر مما كانت عليه مع إستيفن تيدير؛ لذلك لم تره من قبل، والآن لا يمكنها الامتناع عن تفحصه. لم تكن تتوقع أن يكون كذلك... ثخينًا جدًّا، وظنت متهمة إياه، كما لو كان ذلك يعيبه. وتجاسرت، وقرعت خصيتيه، وضحكت في خفوت عندما انتفض. كان أجمل شيء!

لذلك هدأ روعها عندما داعبا بعضهما بعضًا، حتى كانت تحاول من جانبها أن تلتهم فمه. وسرعان ما تحوّل جسداهما إلى ثمار دافئة ولم يكن الأمر فظيعًا عندما استقرت يده على ردفيها تستشعر كم أنهما مكتنزان ومستديران وعادت يده إلى ما بين ساقيها حتى تبللت بغزارة.

كانت في حيرة من أمرها بشأن ما يجب أن تفعله بيديها. وضعت إصبعًا بين شفتيه وشعرت بلعابه وأسنانه ولسانه، لكنه انسحب لامتصاص نهديها مرة أخرى وتقبيل بطنها وفخذيها. وجد طريقه إليها أولًا بإصبع واحد ثم بإصبعين، وهو يداعب حشفة البظر الصغيرة في حركات دائرية سريعة.

قالت بصوت خافت: «أوه»، وهي ترفع ركبتيها.

ولكن بدلًا من الاستشهاد الذي كان عقلها مهيأ له، اندهشت عندما شعرت بدفء أنفاسه عليها. وسبح طرف لسانه في بللها بين ثنايا الشعر التي كانت تخجل من لمسها! كيف سأواجه هذا الرجل مرة أخرى؟ سألت نفسها، لكن السؤال سرعان ما اختفى، وتلاشى على نحو يوحي بالغرابة والتعجب، لأنه بالفعل أخذتها رجفة شديدة، وعيناها مغمضتان وفمها الصامت نصف مفتوح.

وقبل أن تعود إلى رشدها، كان قد أولجه في حرّها. لقد كانا ملتحمين معًا، وكان هو امتدادًا لدفء حميمي ورقيق في عمق صميمها. لم يكن هناك أي ألم سوى شعور معين بالضيق الذي خفّ في الحال مع حركاته البطيئة.

ومرة واحدة، توقف. كل شيء على ما يرام؟

قالت: «نعم»، واستأنف.

وجدت نفسها مباشرة تحرّك جسدها لتلتقي به. وسرعان ما أصبح من المستحيل عليه ممارسة ضبط النفس وتحرك بإيقاع أسرع ومن مسافة أكبر وهما يرتجان. أرادت طمأنته، لكن ولأنها كانت تتفحصه من خلال عينيها الدقيقتين رأته يعيد رأسه إلى الوراء ويتقوس داخلها.

كم هو فريد أن تشعر بارتجافه الشديد، وتسمع زمجرة لما بدا أنه ارتياح كبير عندما أفرغ شهوته فيها!

ولفترة طويلة ثم في وسط عتمة نبات القمح الذي يبلغ طول الإنسان تحركا بشق الأنفس. كانا هادئين معًا، وطرحت أحد طرفيها الطويلين نحوه والعرق والسوائل تجف.

قال في النهاية: «قد تعتادين عليه وتحبينه. مثل خمر الشعير».

ضغطت على ذراعه بأقصى ما تستطيع. ولكنها استغرقت في التفكير. «لماذا نحب هذا؟» سألت. «لقد شاهدت الخيول. لماذا تحبه الحيوانات؟».

بدا مشدوهًا. بعد سنوات، سوف تدرك أن السؤال يفصلها عن أي امرأة كان يعرفها، ولكن الآن كل ما تعرفه هو أنه كان يتفحصها.

لم تستطع أن تحمل نفسها على قول ذلك، لكنها انفصلت بالفعل عن الذكور الآخرين في ذهنها. لقد شعرت أنه كان لطيفًا معها بشكل ملحوظ بطريقة لم تستوعبها تمامًا، باستثناء أنها كانت تعاني من قسوة سابقة عند المقارنة.

قالت: «لقد فكرت بي أكثر من تفكيرك بنفسك. لم أجرب ذلك».

ملّست وجهه ورفعت يدها هناك حتى لثم راحة يدها. «معظم الرجال... معظم الناس ليسوا كذلك. أنا أعلم ذلك».

قال لها: «يجب أن تنسي ابن العم اللعين في كيلمارنوك».

32

العرض

ظفر روب ببعض المرضى من بين الوافدين الجدد وقد قرّ عينًا عندما قيل له إنه عندما اختارهم كيرل فريتا، تفاخر بأن قافلته تحظى بالعلاج على أيدي حلاق جراح بارع.

لقد ارتفعت معنوياته لرؤية أولئك الذين عالجهم خلال الجزء الأول من الرحلة، لأنه لم يسبق له في أي وقت مضى أنه اهتم بتلبية الاحتياجات الصحية لأي شخص لفترة طويلة.

أخبره الناس أن سائق الماشية الإفرنجي الكبير المبتسم الذي كان يعالج من الدبل قد أدركته المنية بسبب المرض في غابروفو في منتصف الشتاء. كان يعلم أن ذلك كان سيحدث وأخبر الرجل بمصيره القادم، إلا أنه استولت عليه الكآبة بسبب هذه الأخبار.

أخبر ماري قائلًا: «ما يثلج الصدر هو إصابة أعرف كيف أعالجها. عظم مكسور، جرح منفغر، عندما يتوجع شخص ما وأكون متأكدًا فيما يجب القيام به لعلاجه. إنها الألغاز التي أكرهها. أمراض لا أعرف عنها شيئًا على الإطلاق، وربما معرفة المصابين بها تفوق معرفتي. الأمراض التي تنتقل من الجو وتتحدى كل تفسير معقول أو خطة علاج. آه، يا ماري، أنا أعرف القليل جدًا. لا أعرف شيئًا على الإطلاق، ومع ذلك فأنا أمثّل لهم كل شيء».

ودون أن تفهم كل ما قاله، شاطرته الأسى. ومن جانبها، لم يشاطرها الأسى؛ وذات ليلة جاءت إليه وهي تنزف وتتلوى ألمًا من التشنج، وتحدثت

عن أمها. بدأت جورا كولين دورتها الشهرية في يوم صيفي جميل وتحول نزول الدم إلى تدفق غزير ثم إلى نزيف. عندما وافت أمها المنية، كادت ماري أن تتمزق من الحزن الشديد لدرجة أن الحزن حال بينها وبين البكاء، والآن كل شهر عندما تأتيها دورتها الشهرية، تتوقع أنها سوف تقضي عليها.

«صمت ثقيل! لم يكن نزيفًا شهريًّا عاديًّا، بل كان شيئًا أكثر من ذلك. أنت تعلمين أن هذا صحيح»، قال وهو يرفع راحة يده الدافئة الرقيقة إلى بطنها ويواسيها بالقبلات.

وبعد أيام قلائل، وهو يركب معها في العربة، وجد نفسه يتحدث عن أشياء لم يخبر بها أحدًا قط: وفاة والديه، وافتراق الأطفال وفقدانهم. انتحبت وكأنها لا تستطيع التوقف أبدًا، واستدارت في المقعد حتى لا يرمقها أبوها.

«كم أحبك!» همست.

قال بنبرة وئيدة ولدهشته: «أنا أحبك» لم يسبق له أن قال هذه الكلمات لأي فتاة على الإطلاق.

قالت: «لا أريد أن أتركك أبدًا».

وبعد ذلك، عندما كانا على الطريق، غالبًا ما كانت تستدير في السرج على حصانها المخصيّ الأسود وترمقه بنظرة. كانت إشارتهما السرية هي لمس أصابع اليد اليمنى للشفاه، كما لو كانت الإشارة لإبعاد حشرة أو إزالة نثار الغبار.

ظلّ جيمس كولين يجد سلواه في الخمر وأحيانًا كانت تأتي إلى روب بعد أن يحتسي أبوها الخمر ويغط في نوم عميق. حاول أن يثنيها عن القيام

بذلك لأن الحراس عادة ما يكونون متوترين وكان من الخطر التحرك في المخيم ليلًا. إلا أنها كانت امرأة عنيدة وكانت تجيء على أي حال، وكان يسعد دائمًا بمجيئها.

كانت حادّة الذكاء وقّادة الذهن. وسرعان ما عرفا مزايا وعيوب بعضهما بعضًا مثل الأصدقاء القدامى. كانت ضخامة جسميهما جزءًا من السحر، وفي بعض الأحيان عندما يتحركان معًا كان يخطر بباله الوحوش العملاقة التي تقترن بالرعد. كان الأمر جديدًا بالنسبة له كما كان جديدًا بالنسبة لها بطريقة ما؛ عرف الكثير من الفتيات لكنه لم يقع في حب إحداهن من قبل. الآن يريد أن يمنحها السعادة فحسب.

حار في الأمر وانعقد لسانه، وعجز عن فهم ما حلّ به في وقت قصير جدًّا.

لقد توغلوا بشكل أعمق في تركيا الأوروبية، وهي جزء من الدولة المعروفة باسم تراقيا. أصبحت حقول القمح سهولًا ممتدة من الأراضي المعشوشبة الخصيبة وبدؤوا في رؤية قطعان الأغنام.

قالت له ماري: «ستدب الحياة في أبي».

كلما جاؤوا إلى الأغنام، رأى روب كل من جيمس كولين وسيريدي الذي لا يستغنى عنه يركضان للتحدث مع الرعاة. كان الرجال ذوو البشرة السمراء يرتدون ثيابًا طويلة ويرتدون قمصانًا بأكمام طويلة وسراويل فضفاضة مشدودة عند الركبتين.

وفي إحدى الأمسيات، جاء كولين بمفرده لاستدعاء روب. اقتعد قرب النار وتنحنح في ضيق.

«لن أجعلك تعتقد أنني أعمى».

قال روب: «لم أفترض أنك كذلك»، لكن باحترام.

«دعني أخبرك عن ابنتي. تلقت حظًّا من التعليم. فهي تعرف اللاتينية».

«أمي كانت تعرف اللاتينية. لقد علمتني بعض اللاتينية».

«ماري تتقن اللاتينية. إنه لأمر رائع أن يعرف المرء اللاتينية في بلاد أجنبية، لأنه يمكن للمرء أن يتحدث مع المسؤولين ورجال الكنيسة. أرسلتها إلى الراهبات في والكيرك للتفقّه. أخذنها لأنهن اعتقدن أنهن سوف يستدرجنها في جماعتهن، إلا أنني كنت أفهم ذلك. إنها لا تحب اللغات، إلا أنني فيما بعد أخبرتها أنه يجب أن تتعلم اللغة اللاتينية، لذا تعلمتها. حتى ذلك الحين كان يراودني حلم السفر إلى الشرق بحثًا عن الخراف من السلالات النقية».

«هل يمكنك إعادة الخراف إلى موطنك حية؟» ارتاب روب في ذلك.

«أستطيع أن أفعل ذلك». قال كولين بفخر: «أنا رجل يجيد التعامل مع الخراف. لقد كان دائمًا مجرد حلم، لكن عندما أدركت المنية زوجتي قررت أن نذهب. قال أقاربي إنني كنت أهرب لأنه جنّ جنوني بسبب الحزن الذي أترع قلبي، إلا أن الأمر كان أكبر من ذلك».

جلسا في صمت ثقيل.

«هل ذهبت إلى اسكتلندا، يا فتى؟» سأل كولين أخيرًا.

هزّ رأسه. «أقرب جزء وطأته قدماي هو الشمال الإنجليزي وتلال شفيوت.

تنشّق كولين. ربما بالقرب من الحدود، ولكن ليس بالقرب من اسكتلندا الحقيقية. اسكتلندا أعلى، كما ترى، والصخور أصغر. الجبال تزخر بالجداول الجيدة المترعة بالأسماك ووفرة من المياه المتبقية للعشب.

ممتلكاتنا في تلال وعرة، ممتلكات كبيرة جدًّا. قطعان كبيرة». توقف وكأنه ينتقي كلماته بعناية فائقة.

قال أخيرًا: «الرجل الذي سيتزوج ماري سوف يستحوذ على هذه الممتلكات، شريطة أن يكون الرجل المناسب».

انحنى نحو روب. «وفي غضون أربعة أيام سنصل إلى مدينة بابيسكي. هناك أنا وابنتي سوف نغادر ونترك القافلة. سوف نتّجه جنوبًا إلى مدينة مالكارا، حيث يوجد سوق كبير للماشية أتوقع فيه شراء الأغنام. ثم نسافر إلى هضبة الأناضول، حيث تحدوني الأمال العريضة. سأكون مسرورًا إذا كنت في رفقتنا». تنهّد وألقى نظرة صادقة على روب. «أنت قوي ومفعم بالصحة والعافية. ولديك الشجاعة، وإلا فلن تغامر حتى الآن بالقيام بأعمال تجارية وتحسين مكانتك في العالم. أنت لست ما كنت سأختاره لها، لكنها تريدك. أنا أحبها وأتمنى لها السعادة. هي كل ما لديّ».

قال: «يا سيد كولين»، إلا أن مربّي الأغنام قاطعه.

وبادر روب قائلًا: «الأمر ليس شيئًا يتم عرضه أو التعامل معه باستخفاف. يقتضي أن تفكر في الأمر، يا رجل، كما فعلت».

شكره روب بأدب جم، كما لو أنه عرض عليه تفاحة أو قطعة حلوى صغيرة، وعاد كولين إلى خيمته.

أمضى روب ليلة جافى فيها النوم مضجعه وهو يحدّق في السماء. لم يكن أحمق لدرجة أنه لم يدرك أنها كانت نادرة. وبأعجوبة، كانت تحبه. لن يقابل مثل هذه المرأة مرة أخرى.

والأرض. يا إلهي، الأرض.

عرض عليه حياة لم يحلم بها والده قط، ولا أي من أسلافه. سيكون

هناك عمل ودخل مضمونين، والاحترام والمسؤوليات. ويتعين انتقال الممتلكات إلى الأبناء بالتتابع. عيشة غضراء مختلفة أكثر مما كان يعرفه في أي وقت مضى - أنثى مغْرَمة به سلبته عقله وهائم في حبها، ومستقبل مضمون باعتباره واحدًا من القلائل في العالم، الذين يمتلكون الأرض.

انطرح أرضًا واستدار.

وفي اليوم التالي جاءت ومعها شفرة حلاقة الشعر الخاصة بأبيها وشرعت في تهذيب شعره.

«ليس بالقرب من الأذنين».

«ولا سيّما أن الشعر هناك أصبح منفلتًا وفوضويًّا. ولماذا لا تحلق الشعر؟ اللحية الخفيفة تجعلك تبدو متوحشًا».

«سأقوم بتهذيبها عندما تكون أطول». سحب القماش من عنقه. «هل تعلمين أن أباك تحدّث معي؟».

«تحدّث إليّ أولًا بالطبع».

«لن أذهب إلى مالكارا معك يا ماري».

عبّر فمها عما كانت تشعر به ويداها فحسب. ظهرت يداها وكأنهما مرتخيتان مقابل تنورتها، إلا أنها أمسكت بشفرة الحلاقة بقوة وإحكام حتى ظهرت براجمها بيضاء من خلال بشرتها الشفافة.

«هل ستنضم إلينا في مكان آخر؟».

قال: «لا». كان الأمر صعبًا. لم يكن معتادًا على التحدث بصدق مع النساء. «أنا ذاهب إلى بلاد فارس، يا ماري».

«أنت لا تريدني».

الكآبة المفاجئة التي استولت على صوتها جعلته يدرك مدى عدم استعدادها لمثل هذا الاحتمال.

«أريدك، لكني قلبت الأمر مرارًا وتكرارًا في ذهني وهذا غير ممكن».

«لماذا، هل هذا مستحيل؟ هل لديك بالفعل زوجة؟».

«لا، لا. لكنني ذاهب إلى أصفهان في بلاد فارس. ليس للبحث عن فرصة في التجارة، كما أخبرتك، ولكن لدراسة الطب».

ملأت الحيرة وجهها، وهي تسأل ما هو الطب، مقارنة بممتلكات كولين.

«يجب أن أكون طبيبًا». يبدو أنه عذر قبيح. انتابه شعور غريب بالخجل، كما لو كان يعترف بوجود رذيلة أو نقيصة أخرى. لم يقم بأي محاولة للشرح والتوضيح، لأن الأمر كان معقدًا ولم يفهمه هو نفسه.

«عملك يجلب لك الشقاء. أنت تعلم أن هذه حقيقة. لقد أتيتني وأخبرتني بذلك، وتشكو من أن ذلك يعذبك».

«ما يعذبني هو جهلي وعجزي. ففي أصفهان، يمكنني أن أتعلم مساعدة أولئك الذين لا أفعل شيئًا الآن من أجلهم».

«ألا يمكنني أن أكون معك؟ يمكن أن يأتي أبي معنا ويشتري الأغنام هناك». نبرة التوسل في صوتها وبريق الأمل في عينيها جعلاه يتجهز استعدادًا لمواساتها.

وشرح حظر الكنيسة بحقّ الالتحاق بالمدارس الإسلامية، وأخبرها بما ينوي القيام به.

شحب وجهها عندما تعمّق فهمها لما قال. «أنت تجازف بالوقوع في الخطيئة الأبدية».

«لا يمكن أن أصدق أن أخسر روحي».

«يهودي!» نظّفت الشفرة بالقماش بحركات تنم على أنها مشغولة البال وأعادتها إلى حقيبتها الجلدية الصغيرة «نعم. لذا كما ترين، هذا شيء يجب أن أفعله بمفردي».

«ما أراه هو رجل أصابه مس من الجنون. لقد أغمضت عيني على حقيقة أنني لا أعرف شيئًا عنك. أعتقد أنك قد قلت وداعًا لكثير من النساء. هذا صحيح، أليس كذلك؟».

«الأمر مختلف». أراد أن يشرح الفرق لكنها لم تسمح بذلك. لقد أصغت جيدًا ورأى الآن عمق الجرح الذي أحدثه.

«ألا تخشى أن أقول لأبي إنك قمت باستغلالي، فيجوز له أن يدفع مقابل رؤية موتك؟ أم أنني سوف أهرول إلى الكاهن الأول الذي ألتقي به وأهمس له عن وجهة المسيحي الذي يجعل كنيسة الأم المقدسة محط سخرية واستهزاء؟».

«لقد منحتك الحقيقة. لا يمكنني أن أكون سببًا يؤدي إلى حتفك وهلاكك ولا أتورط في الوشاية بك، وكلي يقين أنك يجب أن تعاملني بنفس الطريقة».

قالت: «لن أنتظر أي طبيب».

أومأ برأسه، مشمئزًا من نفسه لأنها وضعت الوشاح الثقيل على عينيها وهي تبتعد.

كان يرمقها بنظراته طوال اليوم وهي تركب منتصبة للغاية على السرج. لم تستدر لتنظر إليه. وفي ذلك المساء لاحظ ماري والسيد كولين يتحدثان بجدية واستفاضة. ومن الواضح أنها أخبرت أباها فقط أنها

قررت عدم الزواج، لفترة لاحقة، أطلق كولين ابتسامة على روب ملأى بالارتياح والانتصار. تشاور كولين مع سيريدي، وقبل هبوط الظلام مباشرة أحضر الخادم رجلين إلى المخيم، خمّن روب أنهما أتراك من ثيابهما ومظهريهما.

وفي وقت لاحق خمّن أنهما كانا مرشدين، لأنه عندما استيقظ في صباح اليوم التالي، اختفت عائلة كولين.

وكما هو معتاد في القافلة، كل من سافر خلفهم ارتقى مكانًا واحدًا. وفي ذلك اليوم، بدلًا من اتباع حصانها المخصي الأسود، يقود عربته الآن خلف الشقيقين الفرنسيين البدينين.

انتابه شعور بالذنب والحزن، إلا أنه شعر أيضًا بالراحة، لأنه لم يفكر أبدًا في الزواج ولم يكن مستعدًّا. تساءل عما إذا كان قراره قد اتخذ من منطلق التزام حقيقي بدراسة الطب أو إذا كان قد فرّ من الزواج في حالة ذعر واهية، كما كان سيفعل الحلاق.

ربما كان كلاهما، إلا أنه اتخذ قراره. حالم مسكين غبي، قال لنفسه في اشمئزاز. سوف تتعب يومًا ما، وتكبر في السن وتكون أكثر احتياجًا للحب، ولا شك أنك سوف ترضى ببعض الخنزيرات الخسيسات سليطات اللسان.

وإدراكًا منه للعزلة الكبيرة، كان يتوق إلى أن تكون مسيز بافينجتون على قيد الحياة مرة أخرى. حاول ألا يفكر في ما أفسده، وهو ينحني فوق اللّجام ويحدق في نفور في المؤخرات القبيحة للإخوة الفرنسيين.

هكذا ولمدة أسبوع انتابه نفس الشعور الذي استولى عليه بعد حدوث كل حالة وفاة. وعندما وصلت القافلة إلى بابيسكي، استبدّ به شعور عميق بالذنب، مدركًا أنهما كانا سيتوقفان معًا لمرافقة أبيها وبدء حياة

جديدة. ولكن عندما فكر في جيمس كولين، شعر بتحسن في كونه وحيدًا، لأنه كان يعلم أن الاسكتلندي سيكون والد زوجته اللجوج.

ومع ذلك، لم يتوقف عن التفكير في ماري.

بدأ يتخلص من النكد الذي ألمّ به بعد يومين. وأثناء سفره عبر ريف التلال المعشوشبة، تناهى إلى مسمعه ضجيج مميز قادم نحو القافلة من بعيد. لقد كان صوتًا ملائكيًا، وفي النهاية اقترب ورأى أول قافلة من قوافل الإبل.

وفي كل جمل من الجمال تدلت الأجراس التي رنّت مع كل خطوة غريبة ومترنحة تخطوها الماشية.

كانت الجمال أكبر مما كان يتوقع، وأطول من الإنسان وأطول من الخيول. بدت وجوهها الكوميدية هادئة وشريرة، مع فتحات الأنف الكبيرة والشفاه المترهلة والعيون الدامعة المغطاة بشدة ونصف مخبأة وراء أهداب طويلة أعطتها مظهرًا أنثويًا غريبًا. ربطت الإبل ببعضها وحمّلت بصرر هائلة من قش الشعير احتشدت بين سنامها.

وكان يمتطي أعلى صرة القش لقطيع من كل سبعة أو ثمانية من الإبل سائق ماشية نحيل ذو بشرة داكنة يرتدي فقط عمامة وإزارًا رثًّا من قماش. ومن حين لآخر كان أحد هؤلاء الرجال يستحث الماشية على التقدم قائلًا «هوت! هوت! هوت!» وبدا أنها تتجاهل توجيهاته الوئيدة.

استحوذت الجمال على المناظر الطبيعية الممتدة. أحصى روب ما يقرب من ثلاثمئة حيوان قبل أن يتضاءل آخرهم إلى شذرات في المسافة وتلاشى الهمس الرنان الرائع لأجراسهم.

استحثت علامة الشرق التي لا يمكن إنكارها المسافرين على طول

طريقهم عندما بدؤوا في اتباع برزخ ضيق. وعلى الرغم من أن روب لم يستطع رؤية الماء، فقد أخبره سيمون أنه يقع في الجنوب بحر مرمرة وفي الشمال ناحية البحر الأسود العظيم، وقد حمل الهواء رائحة ملح منعشة تذكره بموطنه وأترعته الإحساس بالإصرار.

وبعد ظهر اليوم التالي، تحركت القافلة وسارت بخطى حثيثة وظهرت القسطنطينية أمامه كمدينة أحلامه.

33

المدينة المسيحية الأخيرة

كان الخندق المائي عريضًا، ولأنهم تبعثروا فوق الجسر المتحرك، تمكن روب من رؤية سمك الشبوط كبير الحجم مثل الخنازير في الأعماق الخضراء. وعلى الضفة الداخلية حيث توجد متاريس ترابية وعلى بعد خمسة وعشرين قدمًا وراءها، كان يوجد جدار ضخم من الحجر الداكن، ربما يبلغ ارتفاعه مئة قدم. وعلى القمة بين الأبراج المحصّنة سار الحراس ذهابًا وإيابًا.

وعلى بعد خمسين قدمًا كان هناك جدار ثان مطابق للجدار الأول! كانت هذه القسطنطينية حصنًا منيعًا تحيطها أربعة خطوط دفاع.

مروا من خلال مجموعتين من البوابات الكبيرة. كانت البوابة الضخمة للجدار الداخلي ثلاثية الأقواس ومزينة بتمثال مهيب لرجل، كان بلا شك حاكمًا من الحكام الأوائل، وبعض الحيوانات الغريبة من البرونز. كانت الحيوانات ضخمة وعملاقة، لها آذان كبيرة مترهلة مرفوعة في حالة من الغضب، وأذيال قصيرة في المؤخرة، والتي بدت أنها أذيال طويلة تنبثق جامحة من وجوهها.

سحب روب لجام الحصان للتوقف حتى يتمكن من فحصها، وخلفه كان جيرشوم ينعق وتوفيه يتذمر. صاح مئير قائلًا: «يجب أن تتحرك للأمام أيها الإنجليزي».

وما هذه الحيوانات؟

«الأفيال. لم ترَ أفيالًا من قبل، أيها الأجنبي الفقير؟».

هزّ رأسه، وهو يستدير على مقعد العربة لأنه ابتعد حتى يتمكن من فحص هذه المخلوقات. لذلك كانت الأفيال الأولى التي رآها بحجم الكلاب مجمدة في المعدن الذي يحمل الزنجار لخمسة قرون.

قادهم كيرل فريتا إلى الكرفان سراي (خان القوافل)، وهو ساحة نقل ضخمة يدخل من خلالها المسافرون وعربات الشحن إلى المدينة ويغادرون منها. كان عبارة عن فضاء شاسع مستو يحتوي على مستودعات لتخزين البضائع المتنوعة، وحظائر للحيوانات واستراحات للبشر. كان فريتا مرشدًا محنّكًا، وبتجاوز الحشد الصاخب في الكرفان سراي (خان القوافل)، دفع رسومًا لقاء مجموعة من الخانات، الكهوف التي من صنع البشر المحفورة في سفوح التلال المجاورة بغية توفير الهدوء والمأوى للقوافل. كان معظم المسافرين يقضون يومًا أو يومين فقط في الكرفان سراي (خان القوافل) للاستجمام، أو إجراء إصلاحات للعربات أو استبدال الإبل بالخيول، ثم يأخذون طريقًا رومانيًّا باتجاه الجنوب إلى أورشليم.

قال مئير لروب: «سنرحل من هنا في غضون ساعات، لأننا في غضون عشرة أيام سفر سنكون في موطننا في أنجورة ونتوق إلى التخفف من مسؤوليتنا والتحرر منها».

«سأبقى بعض الوقت، على ما أعتقد».

«عندما تقرر المغادرة، اذهب لرؤية «الكيرافانباشي»، رئيس القوافل هنا. يدعى زيفي. عندما كان شابًّا، كان سائقًا للماشية ثم قائدًا للقافلة، حيث كان يسوق قوافل الإبل عبر جميع الطرق». قال سيمون بفخر: «إنه يعرف المسافرين، وهو يهودي ورجل طيب. وسوف يتيقن أنك تسافر

بأمان».

أمسك روب بمعصمي كل منهما بدوره.

وداعًا جيرشوم، القصير المكتنز، الذي بضعت مؤخرته الصلبة.

وداعًا يهوذا، أقنى الأنف، ذو اللحية السوداء.

وداعًا أيها الشاب توفيه الودود.

شكرًا لك مئير.

شكرًا لك، شكرًا لك، يا سيمون!

ودعهم والحسرة تعتصر قلبه لأنهم كانوا كرامًا معه. كان الفراق أكثر صعوبة لأن الفراق اقتلعه من الكتاب الذي قاده إلى اللغة الفارسية.

والآن يقود عربته بمفرده عبر القسطنطينية، المدينة الضخمة، التي هي ربما أكبر من لندن. عندما شوهدت من بعيد، بدت وكأنها تطفو في الهواء الدافئ الصافي، محاطة بالحجر الأزرق الداكن للجدران ولون السماء الأزرق بدرجاته المختلفة وبحر مرمرة في الجنوب. ومن الداخل، كانت القسطنطينية مدينة ملأى بالكنائس الحجرية التي تلوح في الأفق في الشوارع الضيقة المزدحمة بالركبان على ظهور الحمير والخيول والإبل، وكذلك الكراسي النقّالة والعربات وعربات النقل من كل نوع. كان الحمّالون ذوو البنية القوية يرتدون أزياء فضفاضة من أقمشة بنية خشنة يحملون أعباءً ثقيلة على ظهورهم أو في القفاف التي كانوا يحملونها على رؤوسهم مثل القبعات.

وفي ساحة عامة، توقف روب ليفحص تمثالًا وحيدًا يقف على قمة عمود طويل من حجر السماق، يطل على المدينة. ومن النقش اللاتيني استطاع أن يعرف أن هذا هو قسطنطين الأكبر. كان الإخوة المعلمون والكهنة في

مدرسة سانت بوتولف في لندن قد عرفوه الأسس الشاملة حول موضوع هذا التمثال: حاز قسطنطين إعجاب الكهنة كثيرًا، لأنه كان أول إمبراطور روماني يتحول إلى المسيحية. في الواقع، كان تحوله إلى المسيحية من صنع الكنيسة المسيحية، وعندما استولى على العاصمة التي تسمى بيزنطة من الإغريق بقوة السلاح وجعلها مدينة القسطنطينية الخاصة به، مدينة قسطنطين، أصبحت جوهرة المسيحية في الشرق، وموطن الكاتدرائيات.

غادر روب منطقة التجارة والكنائس ودخل الأحياء المكونة من المنازل الخشبية الضيقة المتلاصقة، المكونة من طابقين، والتي ربما نقلت من أي عدد من المدن الإنجليزية. كانت مدينة متعددة الجنسيات، تليق بمكان يمثل نهاية قارة وبداية أخرى. قاد عربته في حي إغريقي، وسوق أرميني، وحي يهودي، وفجأة، بدلًا من الاستماع إلى الثرثرة التي لا يمكن اختراقها، تناهت كلمات باللغة الفارسية إلى سمعه.

سأل على الفور وعثر على إسطبل يديره رجل يدعى غيز. كان إسطبلًا لا بأس به واعتنى روب براحة المهرة قبل مغادرتها، لأنها خدمته جيدًا وتستحق راحة يسيرة والكثير من الحبوب. أشار غيز إلى روب باتجاه منزله على رأس طريق من ثلاثمئة وتسع وعشرين درجة، حيث كانت توجد غرفة للإيجار.

أثبتت الغرفة أنها تستحق التسلق، لأنها كانت مضيئة ونظيفة وكان النسيم العليل المالح يهب عبر النافذة.

ومنها نظر إلى الأسفل فوق مضيق البوسفور، وفيه كانت الأشرعة تشبه الأزهار المتحركة. وبعد الشاطئ البعيد، ربما على بعد نصف ميل، استطاع أن يرى قبابًا ومآذن تلوح في الأفق متحمسة كرماح، وأدرك أنها كانت السبب وراء المتاريس الترابية، والخندق المائي، والجدارين المحيطين بالقسطنطينية. وعلى بعد أقدام قليلة من نافذته، انتهى نفوذ

الصليب وتأهلت الخطوط للدفاع عن المسيحية من الإسلام. وعبر المضيق، بدأ نفوذ الهلال.

مكث عند النافذة وحدّق في آسيا، التي سوف يتعمق فيها وقريبًا.

في تلك الليلة رأى ماري في منامه. استيقظ مبتئسًا وهرب من الغرفة. وفي ميدان يسمى ساحة أغسطس، وجد الحمامات العامة، حيث تحمّم بالمياه الباردة لفترة وجيزة ثم جلس مسترخيًا في التيبيداريوم «غرفة الماء الدافئ» مثل القيصر، يدلك نفسه بالصابون ويستنشق البخار.

وعندما خرج، وجفف نفسه بالمنشفة وهو يتألق من الغطس البارد الأخير، كان أكثر جوعًا وأكثر تفاؤلًا. اشترى في السوق اليهودي أسماكًا صغيرة مقلية بنية اللون وعنقودًا من العنب الأسود الذي أكله في الوقت الذي كان يبحث فيه عما يحتاج إليه.

رأى في العديد من الأكشاك الثياب التحتانية القصيرة المصنوعة من الكتان التي كان يرتديها كل يهودي في تريافنا. كانت القمصان التحتانية الصغيرة ذات الزينة والأهداب المسماة «التسيتسيت»، والتي، كما أوضح سيمون، تسمح لليهود بتنفيذ النصح التوراتي بأن عليهم طوال حياتهم ارتداء أهداب في زوايا الثياب.

وجد تاجرًا يهوديًا يتحدث الفارسية. لقد كان رجلًا مراوغًا وفمه مائل إلى الأسفل وكان قفطانه مضمخًا ببقع الطعام، إلا أنه في عيني روب كان أول تهديد بافتضاح أمره.

«إنها هدية لصديق، إنه مقاسي»، تمتم روب. لم يعره الرجل العجوز سوى القليل من الاهتمام، عازمًا على البيع. وأخيرًا، جاء بثوب تحتاني مهدّب كان كبيرًا بدرجة كافية.

لم يجرؤ روب على شراء كل شيء دفعة واحدة. وبدلًا من ذلك، ذهب إلى الإسطبلات وتأكد أن المهرة بخير.

قال غيز: «عربتك رائعة».

«نعم».

«أنا على استعداد للشراء».

«ليست للبيع».

هزّ غيز كتفيه. «عربة مناسبة، على الرغم من أنني سأضطر إلى طلائها. باستثناء المهرة المسكينة، وأأسَفاه. بلا روح. بدون نظرة الفخر في عينيها. سيكون من حسن حظك أن تتخلى عن حيازة هذا الحيوان».

لقد رأى على الفور أن اهتمام غيز بالعربة كان تمويهًا للاهتمام المباشر النابع من الحقيقة التي مفاداها أنه كان منبهرًا بالمهرة.

«كلتاهما ليستا للبيع».

ومع ذلك، كان عليه أن يقاوم ابتسامة إزاء فكرة محاولة التمويه السمج جدًّا على إحداهما بالنسبة له كان تمويهًا على بضاعة. كانت العربة قريبة جدًّا وقد آنسته، وقتما كان سائس الخيول مشغولًا في كشك من الأكشاك، للقيام ببعض الترتيبات الخفية.

وفي التو والحال سحب عملة فضية من عين غيز اليسرى.

«يا الله!».

أقنع كرة خشبية بأن تختفي عند تغطيتها بمنديل، ثم غيّر لون المنديل مرة أخرى، من الأخضر إلى الأزرق إلى البني.

«باسم النبي..».

سحب روب شريطًا أحمر من بين أسنانه وقدّمه في زهو وتباه كما لو كان سائس الخيول فتاة خجولة. وبين الدهشة والخوف من هذا الجنيّ الكافر، استسلم غيز للبهجة. وهكذا قضى جزءًا من اليوم بسرور في الألعاب السحرية والتلاعب بالكرات، وقبل أن ينتهي، كان بإمكانه بيع أي شيء إلى غيز اليهودي.

مع وجبته المسائية، قدم له قارورة من مشروب بني حار، كثيف القوام، حلو لاذع، غزير جدًّا. كان على الطاولة المجاورة كاهن، وقدم له روب بعضًا من الشراب.

كان الكهنة هنا يرتدون عباءات سوداء طويلة فضفاضة وقبعات طويلة أسطوانية من القماش ذات حواف صغيرة صلبة. كانت العباءة التي يرتديها هذا الشخص نظيفة إلى حد ما، لكن قبعته كانت تحمل طبقة دهنية لمسيرة مهنية طويلة. لقد كان رجلًا أحمر الوجه وله عينان جاحظتان في منتصف العمر، حريصًا على التحدث مع أوروبي وتحسين معرفته باللغات الغربية. لم يكن يعرف اللغة الإنجليزية ولكنه حاول مع روب باللغتين النورماندية والإفرنجية واستقر أخيرًا على التحدث بالفارسية، وهو أمر تافه.

كان اسمه الأب تاماس وكان كاهنًا إغريقيًّا.

صار مزاجه رائعًا مع الخمور التي كان يحتسيها في رشفات كبيرة.

«هل ستستقر في القسطنطينية، يا سيد كول؟».

«لا، في غضون أيام قليلة سأسافر شرقًا على أمل الحصول على الأعشاب الطبية لإعادتها إلى إنجلترا».

أومأ الكاهن برأسه. قال إنه سيكون من الأفضل المغامرة بالشرق دون تأخير، لأن الرب قد أمر أنه في يوم من الأيام ستكون هناك حرب مصيرية بين الكنيسة الحقيقية الواحدة والهمجية الإسلامية. «هل زرت كاتدرائية القديسة آيا صوفيا؟» سأل، وأصابته الدهشة عندما ابتسم روب وهزّ رأسه. «لكن يا صديقي الجديد، يجب عليك أن تزورها قبل أن تغادر! يجب عليك! لأنها معجزة كنائسية في العالم. لقد شيّدت بأمر من قسطنطين نفسه، وعندما دخل ذلك الإمبراطور النبيل لأول مرة إلى الكاتدرائية، جثا على ركبتيه وصاح: «لقد شيدت بناءً أفضل من سليمان».

قال الأب تاماس: «إنه شرف لا يدانيه شرف أن يكون مقر إقامة رئيس الكنيسة في قلب كاتدرائية القديسة آيا صوفيا».

نظر إليه روب مدهوشًا. «هل انتقل البابا يوحنا من روما إلى القسطنطينية إذًا؟».

حدّق فيه الأب تاماس. عندما بدا مقتنعًا بأن روب لم يكن يضحك على حسابه، ابتسم القس اليوناني في فتور. قال: «يظل يوحنا التاسع عشر بطريرك الكنيسة المسيحية في روما. لكن ألكسيوس الرابع هو بطريرك الكنيسة المسيحية في القسطنطينية، وها هو راعينا الوحيد».

اجتمعت الخمر وهواء المحيط ليمنحاه نومًا عميقًا بلا أحلام. وفي صباح اليوم التالي سمح لنفسه بتكرار رفاهية حمامات أوغسطين، واشترى في الشارع فطورًا من الخبز والخوخ الطازج حين ذهب إلى بازار اليهود. وفي السوق اختار بعناية، لأنه فكّر في كل شيء من الأشياء التي ابتاعها.

كان قد لاحظ بعض شالات الصلاة المصنوعة من الكتان في تريافنا ولكن الرجال الذين كان يكن لهم الاحترام أكثر من غيرهم كانوا يرتدون الصوف؛ الآن هو يشتري الصوف لنفسه، شال رباعي الأطراف مزين

بأهداب شبيهة بتلك الموجودة على الثياب التحتانية التي وجدها في اليوم السابق.

شعر بغرابة شديدة، اشترى مجموعة من التمائم، والشرائط الجلدية التي وضعوها على جباههم ولفّوها حول ذراع واحدة أثناء صلاة الصبح.

لقد ابتاع كل صنف من المشتريات من تاجر مختلف. كان أحد التجار وهو شاب شاحب الوجه لديه فجوات في فمه بسبب أسنان مفقودة يعرض على وجه التحديد مجموعة كبيرة من القفاطين. لم يكن الرجل يعرف الفارسية ولكن الرجلين تواصلا عن طريق الإيماءات جيدًا. لم يكن أي من القفاطين كبيرًا بما يكفي، لكن التاجر أشار إلى أن روب يجب أن ينتظر، ثم سارع إلى كشك الرجل العجوز الذي باع إلى روب «التسيتسيت». وها هي قفاطين أكبر، وفي غضون لحظات قلائل، اشترى روب اثنين منهما.

ترك البازار وقد وضع أغراضه في صرة من القماش، واتخذ شارعًا لم يكن قد سار فيه من قبل وسرعان ما رأى كنيسة رائعة للغاية بحيث لا يمكن أن تكون سوى كاتدرائية القديسة آيا صوفيا. ولج الأبواب النحاسية العملاقة ووجد نفسه في بهو كبير بنسب رائعة، مع امتداد العمود إلى قوس، من قوس إلى قبو، من قبو إلى قبة عالية جدًّا جعلته أصغر من الحياة. أضيئت المساحة الشاسعة للصحن بآلاف الفتائل التي انعكس لهيبها الساطع الراقص في أكواب من الزيت ببريق أكثر مما اعتاد عليه في الكنيسة، صور مؤطرة بالذهب، وجدران من الرخام الثمين، الكثير من البريق واللمعان بنكهة إنجليزية. لم يكن هناك أي أثر للبطريرك، لكنه نظر إلى صحن الكنيسة ورأى كهنة عند المذبح في حلل القداس المزركشة. كان أحد الأشخاص يتمايل حاملًا مبخرة وكانوا ينشدون ترانيم القداس إلا أنهم كانوا بعيدًا جدًّا لدرجة أن روب لم يستطع شم رائحة البخور أو

فهم اللاتينية.

كان الجزء الأكبر من صحن الكنيسة مهجورًا وجلس في المؤخرة محاطًا بالأرائك المنحوتة الفارغة، تحت صورة لشخص محني يتدلى من صليب يلوح في العتمة التي يضيئها المصباح. شعر أن العيون المحدّقة توغلت في أعماقه وعرفت محتويات الصرّة. لم يكن قد نشأ تقيًّا ورعًا إلا أنه في هذا التمرد المحسوب، تحركت مشاعره الدينية على نحو غريب. كان يعلم أنه دخل الكاتدرائية بالضبط لهذه اللحظة، ونهض واقفًا على قدميه ووقف في صمت لبعض الوقت وواجه تحدي تلك العيون.

وأخيرًا تحدث بصوت عال. وقال: «يجب القيام به. لكنني لا أتخلى عنك».

وكان أقل تيقنًا بعد وقت قصير، بعد أن صعد تلة الدرجات الحجرية وعاد إلى غرفته مرة أخرى.

وعلى المنضدة، أسند مربعًا صغيرًا من الفولاذ الذي اعتاد حلق الشعر على سطحه المصقول، ثم أخذ شفرته إلى الشعر الذي تدلى طويلًا ومتشابكًا على أذنيه، وقص باستثناء ما تبقى من خصلات شعر تتدلى على جانبي الرأس أطلق عليها «بيوث».

خلع عباءته واتشّح بالثوب المهدب «التسيتسيت» وهو وجل القلب، وكان شبه متيقن أنهم سوف ينهالون عليه بالضرب. بدا له أن الأهداب زحفت على لحمه.

كان القفطان الأسود الطويل أقل رهبة. كان مجرد لباس خارجي لا علاقة له بإلهم. كانت اللحية لا تزال غير كثّاء بلا شك. صفف الضفيرتين المسدلتين على جانبي أذنيه بحيث تتدليان بشكل فضفاض تحت قبعة اليهودي على شكل جرس. كانت القبعة الجلدية تجربة موفقة لأنه كان

من الواضح أنها قديمة ومستخدمة.

ومع ذلك، عندما غادر الغرفة مرة أخرى ودخل الشارع كان يعلم أن الأمر ضرب من الجنون ولن ينجح؛ كان يتوقع من كل من ينظر إليه أن ينفجر ضاحكًا.

أعتقد أنني سأحتاج إلى اسم غير اسمي.

لن يكون من المناسب أن ينادي روفين الحلاق الجراح كما كان معروفًا في ترياقنا؛ لينجح في تغيير المظهر، احتاج إلى أكثر من نسخة عبرية ضعيفة من هويته الغيرية «جوييم».

يسي...

اسم تذكّره من قراءة أمه للكتاب المقدس بصوت عال. اسم قوي يمكن أن يعيش به، إنه اسم والد الملك داود.

وبالنسبة لاسم العائلة، اختار اسم «بنيامين»، تكريمًا لبنيامين ميرلين، الذي أظهر له، وإن كان على مضض، ما الذي يمكن أن يكون عليه الطبيب.

كان سيقول إنه جاء من ليدز، كما قرر، لأنه يتذكر شكل المنازل المملوكة لليهود هناك ويمكنه التحدث بالتفصيل عن المكان إذا دعت الحاجة إلى ذلك.

قاوم رغبة ملحة للالتفاف والهرب، لأن القادمين نحوه كانوا ثلاثة كهنة وبسبب ما يشبه الذعر أدرك أن أحدهم كان الأب تاماس، رفيقه في العشاء في الليلة السابقة.

الثلاثة شرعوا على مهل مثل الغربان التي تسير جيئة وذهابًا في عمق الحديث.

أجبر نفسه على السير نحوهم. قال لما أصبحوا متقاربين متجاورين: السلام عليكم.

رمقه القس اليوناني بنظرة ساخرة ثم التفّ إلى الوراء إلى رفاقه دون أن يرد التحية.

وعندما مرّوا بجواره، ارتسمت ابتسامة على شفتي يسي بن بنيامين من ليدز. والآن في هدوء وبمزيد من الثقة، واصل السير في طريقه، وهو يمشي بخطوات واسعة وهو يضغط كفه على خده الأيمن، كما اعتاد حاخام تريافنا على المشي عندما كان يستغرق في التفكير العميق.

الجزء الثالث

أصفهان

34

المحطة الأخيرة

على الرغم من التغيير الذي طرأ على مظهره، فإنه ما زال يشعر وكأنه روب جيه كول لمّا ذهب إلى الكرفان سراي (خان القوافل) في منتصف النهار. ثمة قافلة كبيرة إلى أورشليم في طور التنظيم، وكانت المساحة المفتوحة الكبيرة عبارة عن دوّامة مربكة من سائقي الماشية الذين يسوقون الإبل والحمير المحمَّلة، والرجال الذين يحاولون إرجاع العربات في الصف، والركبان على ظهور الخيول يتزاحمون بصورة تنذر بالخطر، في حين أن الحيوانات زمجرت استهجانًا وارتفعت أصوات البشر الغاضبين في إدانة الدواب وبعضهم بعضًا. استولت جماعة من الفرسان النورمانديين على المكان الظليل الوحيد، على الجانب الشمالي من المستودعات، حيث استرخوا على الأرض وزحفت شتائمهم إلى المارة وهم سكارى. لم يعرف روب جيه ما إذا كانوا هم الرجال الذين قتلوا مسيز بافينجتون، بل من المحتمل أن يكونوا هم من فعلوا ذلك، وتجنبهم في نفور.

جلس على صرة من أسمال الصلاة وراقب قائد القوافل. كان الكيرفانباشي (قائد القافلة) يهوديًا تركيًا قوي البنية ضخم الجسم يرتدي عمامة سوداء فوق شعر أشيب لا يزال يحتوي على آثار من خضابه الأحمر السابق. أخبره سيمون أن هذا الرجل، الذي يدعى زيفي، يمكن أن يكون ذا قيمة لا تقدّر بثمن في المساعدة في ترتيب سفر آمن. وبالتأكيد، كلهم تخونهم شجاعتهم أمامه.

«وَيْلٌ لَك!» صاح زيفي بما يشبه الزئير في وجه سائق ماشية بائس.

«ارحل من هذا المكان، أيها الأحمق. سقْ حيواناتك بعيدًا، لأنهم لن يتبعوا ماشية تجار البحر الأسود؟ ألم أخبرك مرتين؟

ألا يمكنك أن تتذكر مكانك الحقيقي في صف المسيرة، أيها الوضيع؟».

بدا لروب أن زيفي كان في كل مكان، يعمل على تسوية الخلافات بين التجار والحمّالين، ويتشاور مع ربان القافلة بخصوص الطريق، ويتحقق من سندات الشحن.

ولأن روب كان جالسًا يراقب المشهد حوله، انسلّ رجل فارسي ناحيته، رجل قصير، نحيف للغاية وقد امتلأت وجنتاه بأخاديد محفورة. ومن لحيته التي علق بها بقايا الطعام، كان جليًّا أنه أكل عصيدة الدخن في ذلك الصباح، وكان يرتدي عمامة برتقالية متسخة، صغيرة جدًّا على رأسه.

«إلى أين تسافر أيها العبرانيّ؟».

«آمل أن أغادر قريبًا إلى أصفهان».

«آه، بلاد فارس! هل تريد مرشدًا، يا أفندي؟ لأنني ولدت في مدينة قم، صائد أيائل من أصفهان، وأنا أعرف كل حجر وشجر على طول الطريق».

تردّد روب.

«أي شخص آخر سيأخذك في طريق طويل وعر على طول الساحل. ثم، يأخذك عبر الجبال الفارسية. هذا ولأنهم يتجنبون أقصر طريق عبر صحراء الملح الكبرى خوفًا منها. ولكن يمكنني أن آخذك مباشرة عبر الصحراء إلى البحر، متجنبًا كل اللصوص».

كان يميل بشدة إلى الموافقة والمغادرة على الفور، متذكرًا كيف كان شاربونو يخدمه جيدًا. إلا أنه ثمة غموض يكتنف حديث الرجل وفي

النهاية هزّ رأسه.

هزّ الفارسي كتفيه استهجانًا. «إذا غيّرت رأيك، يا سيدي، فأنا بصفتي مرشدًا صفقة زهيدة جدًّا».

وبعد لحظة، مرّ أحد الحجاج الفرنسيين وهو رجل أَشَمّ حيث كان روب جالسًا، ترنّح وتهاوى عليه.

«عليك اللعنة»، بصق وقال: «أنت يهودي».

وقف روب، والدم يصعد إلى وجنتيه ولون وجهه يتغير. لقد رأى أن النورماندي كان يمد يده بالفعل إلى سيفه.

وعلى حين غرة جاء زيفي مقبلًا عليهما. «المعذرة ألف مرة، يا سيدي، المعذرة عشرة آلاف مرة! سوف أتعامل مع هذا الرجل»، قال، وأزجى روب الذي أخذته الدهشة بعيدًا أمامه.

ولمّا أصبحا مسموعين، استمع روب إلى زيفي وهو يرطن في كلامه وهزّ رأسه.

«أنا لا أتحدث العبرية جيدًا. لست مضطرًّا لمساعدتك وأنت تشتبك مع الرجل الفرنسي»، قال، وهو يبحث عن الكلمات باللغة الفارسية.

«حقًّا؟ كان من الممكن أن تقتل، أيها الثور الصغير».

«هذا الأمر يخصني وحدي».

«لا، لا! في مكان يعجّ بالمسلمين والمسيحيين السكارى، يكون قتل يهودي واحد مثل أكل تمرة واحدة. كانوا سيقتلون الكثير منا، وبالتالي فإن الأمر كان يخصني إلى حد كبير»، حدّق فيه زيفي بغيظ. «أي نوع من اليهود ذلك الذي يتحدث الفارسية مثل الجمل، ولا يتحدث بلسان

قومه، ويسعى إلى الشجار؟ ما اسمك ومن أين أنت؟».

«أنا يسي بن بنيامين. يهودي من ليدز».

«أين تقع ليدز بحق الجحيم؟».

«إنجلترا».

«إنجليزي!» قال زيفي. «لم يسبق لي أن قابلت يهوديًّا إنجليزيًّا».

«نحن قلة ومشتتون. لا يوجد مجتمع لليهود هناك. لا حاخام، ولا شوحيط، ولا مشجيا. لا دار دراسة أو معبد يهودي، لذلك نادرًا ما نسمع اللغة. هذا هو السبب في أنني لا أجيد اللغة جيدًا».

«أمر سيئ، أن تنشئ أطفالك في مكان لا يؤمنون فيه بإلههم أو يسمعون لسان قومهم»، تنهّد زيفي. «غالبًا ما يكون من الصعب أن تكون يهوديًّا».

لّما سأله روب عما إذا كان يعرف بقافلة كبيرة محمية متجهة إلى أصفهان، هزّ رأسه.

قال روب: «لقد فاتحني في الأمر أحد المرشدين».

«الفارسي الذي لا في العير ولا في النّفير المتشح بعمامة صغيرة وله لحية باهتة؟» تنشّق زيفي. «هذا سيأخذك مباشرة إلى أيدي رجال أشرار. سوف تترك مستلقيًا في الصحراء مقطوع الرأس منهوب المتاع». قال: «لا، ستكون أفضل حالًا إن انضممت إلى قافلة من قومنا». لقد فكر للحظة طويلة. قال أخيرًا: «راباي لونزانو».

«راباي لونزانو؟».

أومأ زيفي برأسه. «نعم، قد تكون الإجابة هي راباي لونزانو». وفي

مكان ليس ببعيد، اندلعت مشادة بين سائقي الماشية ولفظ أحدهم اسمه. تجهّم. «هؤلاء أبناء الجمال، هؤلاء بنات آوى الموبوء! ليس لدي وقت الآن، يجب أن تعود بعد أن ترحل هذه القافلة. تعال إلى مكتبي في وقت متأخر بعد الظهيرة، في الكوخ الكائن وراء الخان الرئيس. كل الأشياء قد تحسم بعد ذلك».

ولّما عاد بعد ساعات قلائل، وجد زيفي في الكوخ الذي كان بمثابة مأوى له في الكرفان سراي (خان القوافل). كان معه ثلاثة يهود. قال لروب: «هذا هو لونزانو بن عزرا».

بدا جليًّا أن راباي لونزانو الذي كان في منتصف العمر وكان هو الأكبر أنه هو القائد. حيث كان شعره بنيًّا وله لحية بنية لم يخطّها الشيب بعد، إلا أن حداثة السن التي كان يحظى بها كانت وليدة وجهه الممتلئ بالأخاديد وعينيه الحادتين.

ربما كان لوب بن كوهين وآريه عسكري أصغر بعشر سنوات من لونزانو. كان لوب طويل القامة ونحيفًا وكان آريه قصيرًا عريض المنكبين وذا أكتاف مربعة. كان لكلاهما الوجوه السمراء للتجار المسافرين الذين لفحهم الطقس بقسوة، إلا أنهما ظلّا محايدين بحذر، في انتظار قرار لونزانو بشأنه.

قال زيفي: «إنهم تجار متجهون إلى موطنهم في مسقط، عبر الخليج الفارسي»، ثم التفت إلى لونزانو. قال بصرامة: «الآن، هذا الشخص المثير للشفقة حظي بعناية بوصفه أحد الأغيار، كل ذلك وهو غير واع أنه في أرض مسيحية بعيدة، ويحتاج إلى إثبات أن اليهود يمكن أن يكونوا كرماء مع اليهود».

«ما هي صنعتك في أصفهان، يا يسي بن بنيامين؟» سأل راباي لونزانو.

«أذهب إلى هناك للدراسة، لأصبح طبيبًا».

أومأ لونزانو برأسه. «المدرسة في أصفهان. ابن عم راباي آريه، راباي ميردين عسكري، طالب في مدرسة الطب هناك».

انحنى روب إلى الأمام بفارغ الصبر وكان سيطرح الأسئلة، ولكن راباي لونزانو لن يسمح بأي نوع من الإلهاء. «هل أنت موسر وقادر على دفع جزء معقول من نفقات السفر؟».

«أنا».

«هل أنت مستعد لمشاركة العمل والمسؤوليات على طول الطريق؟».

«على استعداد تام. وما هي تجارتك يا راباي لونزانو؟» رمقه لونزانو بوجه قاتم. من الواضح أنه شعر أن المقابلة الشخصية يجب أن تدار بمعرفته ويوجهها ولا توجه عليه. قال على مضض: «اللؤلؤ».

«ما هو حجم القافلة التي تسافر فيها؟» انفرجت شفتا لونزانو عن ثناياه مبتسمًا لتهتز زوايا فمه. «نحن القافلة التي نسافر بها».

كان روب مرتبكًا. والتفت إلى زيفي. «كيف يمكن لثلاثة رجال أن يوفروا لي الحماية من قطّاع الطرق والحماية من المخاطر الأخرى؟».

قال زيفي: «انصت إليّ. هؤلاء يهود رحّالة. يعرفون متى يغامرون ومتى لا يغامرون. ومتى يكونون في أمان. وأين يسعون إلى الحماية أو المساعدة، في أي مكان على طول الطريق». التفت إلى لونزانو. «ما رأيك يا صديقي؟ هل ستصطحبه معك أم لا؟».

نظر راباي لونزانو إلى رفيقيه. كانا صامتين ولم تتغير تعابير وجهيهما الرقيقة، إلا أنها لا بد أن نقلت شيئًا ما، لأنه لّما التفت إلى الوراء ونظر إلى روب، أومأ برأسه.

«حسنًا، انضمامك إلينا على الرحب والسعة. سوف نغادر فجر الغد من مضيق البوسفور».

«سأكون هناك ومعي حصاني وعربتي».

تنشق آريه وتنهّد لوب.

قال لونزانو: «لا حصان، لا عربة. سوف نبحر في البحر الأسود في قوارب صغيرة لنتحاشى رحلة برية طويلة وخطيرة».

ربّت زيفي بيده الضخمة على ركبته. «إذا كانوا على استعداد لاصطحابك، فهذه فرصة ممتازة. بع الحصان والعربة».

اتّخذ روب قراره وأومأ.

«ماظل! (حسنًا)» قال زيفي بارتياح هادئ، وصبّ النبيذ التركي الأحمر لإتمام الصفقة.

ومن خان القوافل سار مباشرة إلى الإسطبل، ولهث غيز أنفاسه لمّا رآه. «هل أنت يهودي؟».

«أنا يهودي».

أومأ غيز برأسه خائفًا، كما لو كان مقتنعًا بأن هذا الساحر هو الجنيّ الذي يمكنه تغيير هويته متى شاء.

«لقد غيرت رأيي، سأبيع لك العربة». قدم له الفارسي عرضًا زهيدًا، وهو جزء بسيط من قيمة العربة.

«لا، يجب أن تدفع ثمنًا عادلًا».

«يمكنك الاحتفاظ بعربتك الهشة. الآن، هل ترغب في بيع المهرة ...».

«أنا سوف أهديك المهرة».

«يجب أن تدفع ثمنًا عادلًا للعربة، أما المهرة هدية لك».

ذهب إلى المهرة وفرك أنفها للمرة الأخيرة، وشكرها في صمت على تفانيها وإخلاصها في خدمته. «ضع هذا نصب عينيك دائمًا. هذا المهرة تعمل طواعية ولكن يجب إطعامها جيدًا وبانتظام وإبقاؤها نظيفة حتى لا تصاب بالقرح أبدًا. إذا كانت في صحة جيدة لّما أعود إلى هنا، فسيكون كل شيء على ما يرام معك. ولكن إذا تعرضت للإيذاء..».

حدج غيز بنظرة، وشحب وجه سائس الخيول وأشاح بنظره بعيدًا. «سأعاملها معاملة حسنة، أيها العبراني. سأعاملها جيدًا!».

كانت العربة موطنه الوحيد طوال هذه السنوات العديدة. وكان الأمر أشبه بتوديع آخر ما تبقى من الحلّاق.

كان من الضروري ترك معظم محتوياتها، وهي صفقة لصالح غيز. أخذ أدواته الجراحية وتشكيلة من الأعشاب الطبية. وصندوق الجراد المصنوع من خشب الصنوبر الصغير ذي الغطاء المثقوب. وأسلحته. وقليل من الأشياء الأخرى.

كان يعتقد أنه مارس الانضباط، إلا أنه كان أقل يقينًا في صباح اليوم التالي لّما حمل صرة كبيرة من القماش وهو يسير في الشوارع التي لا تزال مظلمة. وصل إلى مضيق البوسفور في غبش الليل حيث كان الضوء لا يزال رمادي اللون، ونظر راباي لونزانو بحزن إلى الحزمة التي أحنت ظهره.

نقلوا عبر مضيق البوسفور في زورق طويل وصغير وخفيف حيث كان أصغر بقليل من جذع شجرة مجوف مزخرف ومجهّز بزوج واحد

من المجاديف التي يديرها شاب ناعس. هبطوا على الشاطئ البعيد في أوسكودار، وهي مدينة من الأكواخ المحتشدة على طول الواجهة البحرية، وتواجه مضائق مراسيها مزدحمة بالقوارب من جميع الأحجام والأوصاف. ما أثار استياء روب أنه علم أنهم سوف يجابهون السير لمدة ساعة إلى الخليج الصغير حيث يرسو القارب الذي سيأخذهم عبر مضيق البوسفور وعلى طول ساحل البحر الأسود. حمل صرَّته الثقيلة على عاتقيه وتتبع الرجال الثلاثة الآخرين.

وفي هذا الوقت، وجد نفسه يسير متجاورًا مع لونزانو.

«لقد سمعت من زيفي ما حدث بينك وبين النورماندي في الكرفان سراي (خان القوافل). يجب أن تلتزم ضبط النفس والسيطرة على أعصابك، لئلا تعرّض بقيتنا للخطر».

«نعم، راباي لونزانو».

وأخيرًا تنفس الصعداء وهو ينقل حقيبته.

«هل من خطب، أيها الإنجليزي؟».

هزّ روب رأسه. كان يحمل صرَته على كتفه المنهك لأن حبات العرق المالحة تسللت إلى عينيه، فكر في زيفي وملأت الابتسامة وجهه.

قال: «من الصعب أن تكون يهوديًا».

وفي نهاية المطاف، وصلوا إلى ثغر بحري مهجور ورأى روب، وهو يترنّح فوق الأمواج، سفينة شحن واسعة جاثمة مزودة بصاري وثلاثة أشرعة، واحد كبير واثنان صغيران.

«أي نوع من السفن هذه؟» سأل راباي آريه.

«سفينة تسمى كيسبوي. سفينة جيدة».

«تعال!» نادى على القبطان. كان إلياس، وهو يوناني أشقر بسيط ذو وجه أسمر لفحته أشعة الشمس الحارقة، مفلوج الأسنان التي التمعت ناصعة البياض في ابتسامة عريضة. اعتقد روب أنه رجل أعمال عشوائي جدًّا، لأنه من كان ينتظرهم بالفعل للصعود على متن السفينة كانوا تسعة أشخاص حمقى ذوي رؤوس حليقة ومن دون حواجب أو رموش.

تأوه لونزانو. «الدراويش، المسلمون الرهبان المتسولون».

كانت الغترات التي يرتدونها أسمالًا قذرة. وقد تدلى كوب وحمّالة من زنّار مصنوع من الحبال مربوط حول الخاصرة. وفي منتصف كل جبهة كانت هناك علامة داكنة مستديرة مثل ثفنة جرباء. أخبر راباي لونزانو روب لاحقًا أنها «الزبيبة»، وهي شائعة لدى المسلمين الأتقياء الأوراع الذين يحكّون رؤوسهم على الأرض أثناء الصلاة خمس مرات في اليوم. أحدهم، لعله القائد، وضع يديه على صدره وانحنى لليهود. قال: «سلام».

انحنى لونزانو بدوره. ورد التحية قائلًا: «السلام عليكم».

«تعال! تعال!» نادى اليوناني، وغاصوا في البرودة المحتملة للأمواج حيث انتظر طاقم القارب، وهما شابان يرتديان مآزر، لمساعدتهم على صعود السلم من الحبال إلى حوض السحب الضحل لسفينة كيسبوي. لم يكن هناك سطح للسفينة أو هيكل، بإيجاز كانت مساحة مفتوحة تشغلها حمولة الخشب والقار والملح. ونظرًا لأن إلياس أصرّ على ترك ممر رئيسي للسماح للطاقم بالإمساك بالأشرعة، بقيت مساحة صغيرة للركّاب المسافرين، وبعد تخزين صرَرهم، حشر اليهود والمسلمون معًا مثل العديد من أسماك الرنجة المملحة.

ولأنه رفع اثنين من المراسي، بدأ الدراويش يجأرون بأصواتهم. قائدهم،

واسمه ديده - له وجه متغضن، بالإضافة إلى الزبيبة، وثلاث علامات داكنة على جبينه بدت وكأنها ناتجة عن حرق رأسه، أرجع رأسه إلى الوراء وصاح وهو ينظر إلى السماء، «الله أكبر»، وبدا الصوت الطويل وكأنه يحوم فوق البحر.

«لا إله إلا الله»، ردد جمع الأتباع في صوت واحد.

«الله أكبر».

انسربت السفينة «كيسبوي» بعيدًا عن الشاطئ، ووجد أن الريح ترفرف كثيرًا بأشرعتها، ثم تحركت بثبات باتجاه الشرق.

* * *

كان روب محشورًا بين راباي لونزانو وأحد الدراويش الشباب نحيف الجسم الذي ارتسمت على جبهته علامة حرق واحدة. ابتسم الشاب المسلم له في الحال، وأصابعه تتوغل في جعبته، وأخرج أربع كسرات من الخبز المكسور، ووزعها على اليهود.

قال روب: «اشكره بالنيابة عني، لا أريد أي شيء».

قال لونزانو: «يجب أن نأكله، وإلا فإنهم سوف يعتبرون ذلك إثمًا عظيمًا وذنبًا كبيرًا».

قال الدرويش بسهولة باللغة الفارسية: «إنه مصنوع من دقيق فاخر، حقًا إنه خبز ممتاز».

حدّق لونزانو في روب، واشتدّ حنقه بلا شك لأنه لم يتكلم باللسان العبري. راقبهم الدرويش الشاب وهم يأكلون الخبز الذي كان مذاقه مثل العرق المتجمد.

قال الدرويش: «أنا مالك أبو إسحاق».

«أنا يسي بن بنيامين».

أومأ الدرويش برأسه وأغمض عينيه. وسرعان ما غطّ في نوم أشبه بالشخير، وهو ما رآه روب علامة على حكمته، لأن السفر في سفينة كيسبوي كان مملًّا للغاية. لا يبدو أن المناظر البحرية ولا الأرض المجاورة قد تغيرت بأي تفاصيل.

ومع ذلك، كانت هناك أشياء يجب التفكير فيها. لمّا سأل إلياس لماذا لزموا الشاطئ، ابتسم اليوناني. وأوضح «لا يمكنهم القدوم وإيصالنا في المياه الضحلة». تتبع روب إصبعه الذي يؤشر به ورأى، بعيدًا، نفثات بيضاء صغيرة كانت بمثابة أشرعة كبيرة لسفينة.

قال اليوناني: «القراصنة. لربما يراودهم الأمل أن تنفخنا الريح في البحر. ثم يقتلوننا ويأخذون حمولتي ويسلبون أموالك».

وكلما أخذت الشمس في الارتفاع، بدأت رائحة الأجساد غير المغتسلة تفوح في الأجواء على القارب. كان نسيم البحر يبعثر هذه الرائحة في كثير من الأحيان ولكن لمّا لم تتبدد، صارت كريهة وبغيضة على نحو ملحوظ. جزم أنها انبثقت من الدراويش وحاول الابتعاد عن مالك أبو إسحاق، إلا أنه لم يكن هناك مكان يذهب إليه. ومع ذلك، كانت هناك مزايا للسفر مع المسلمين، حيث كان إلياس يقترب بالسفينة كيسبوي لترسو إلى الشاطئ خمس مرات في اليوم للسماح لهم بالسجود في اتجاه مكة. كانت هذه الفواصل الزمنية فرصًا لليهود لتناول وجبات سريعة على الشاطئ أو الركض للاختباء وراء الشجيرات والكثبان الرملية لتفريغ المثانة والأمعاء.

ورغم أن سمرة اللون الناجمة عن الشمس بدت جلية على بشرته الإنجليزية منذ فترة طويلة إبان وجوده في القافلة، إلا أنه شعر بأن

الشمس والملح علاج وشفاء للجلد. ومع حلول الليل، كان غياب الشمس نعمة، إلا أن السبات سرعان ما طوّح الجالسين منَ مواقعهم العمودية وأصبح محصورًا وعالقًا بين وطأة الأوزان الميتة للنائم الصاخب مالك عن يمينه والغافل لونزانو عن يساره. ولمّا لم يستطع تحمل المزيد في النهاية، استخدم مرفقيه وتلقى إهانات شديدة من كلا الجانبين.

صلّى اليهود في القارب. ارتدى روب التيفيلين خاصته كل صباح كلما ارتداه الآخرون، ولفّ الشريط الجلدي حول ذراعه اليسرى بالطريقة التي تدرّب بها على الحبل في الحظيرة في تريافنا. لفّ الجلد حول الأصابع الأخرى، وهو يثني رأسه على حجره على أمل ألا يلاحظ أحد أنه لا يعرف ما الذي كان يفعله.

وبين مرات النزول إلى اليابسة، أمّ ديده الدراويش في الصلاة وهم في البحر:

«الله أكبر! الله أكبر! الله أكبر!»

«أشهد أن لا إله إلا الله! أشهد أن لا إله إلا الله!».

«أشهد أن محمدًا رسول الله! أشهد أن محمدًا رسول الله!».

وقال مالك لروب إنهم كانوا دراويش من جماعة سلمان، حلاق النبي، الذي أقسم على حياة الزهد والتقوى. الأسمال التي كانوا يرتدونها تدل على التخلّي عن رفاهيات العالم. واغتسالهم سوف يشير إلى زهد إيمانهم مما فسّر انتشار الرائحة الكريهة. وحلق شعر الجسم كله يرمز إلى إزالة الحجاب بين الله وعباده. كانت الكؤوس المربوطة في الزنانير المصنوعة من الحبال الملفوفة حول الخواصر علامة على التأمل العميق، والحمالات كانت لطرد الشيطان. والحروق المرسومة على الجباه ساعدت على التوبة، وأنهم أعطوا كسرات الخبز للغرباء لأن جبريل جلب الخبز لآدم

في الفردوس.

وكانوا في «زيارة»، رحلة حج إلى قبور الأتقياء في مكة.

«لماذا تلف الجلد حول ذراعيك في الصباح؟» سأله مالك.

قال: «إنه أمر رباني»، وأخبر مالك عن كيفية ورود الأمر في سفر التثنية.

«لماذا تغطي كتفيك بالشال أثناء الصلاة، أحيانًا ولكن ليس دائمًا؟».

كان يعرف القليل من الإجابات؛ لقد اكتسب هذه المعرفة السطحية فقط من خلال مراقبة يهود تريافنا. جاهد لإخفاء عذابه لمّا تطرح عليه الأسئلة. «لأن الذي علا عن الوصف، تبارك الله، أمرنا بفعل هذه الأشياء»، قال بجدية، وأومأ مالك برأسه وابتسم.

ولمّا استدار بعيدًا عن الدرويش، رأى أن راباي لونزانو كان يرمقه بعينين شبه مغمضتين.

35

الملح

كان اليومان الأولان هادئين وسهلين، إلا أنه في اليوم الثالث لّما اشتدّت الريح تكوّن بحر متلاطم الأمواج. أبقى إلياس السفينة «كيسبوي» بمهارة بين أخطار سفينة القراصنة والأمواج المتلاطمة. وعند غروب الشمس، انبثقت أشكال داكنة أنيقة من المياه المخضبة بلون الشفق الأحمر وتقوست واندفعت بجانب القارب وأسفله. ارتجف روب وشعر بخوف شديد، إلا أن إلياس ضحك وقال إنها خنازير البحر، مخلوقات مسالمة ومرحة.

وبحلول الفجر، كانت الأمواج تعلو وتنخفض في تلال منحدرة وعاد دوار البحر إلى روب كصديق قديم. كان تهوُّعه معديًا حتى للبحارة المتمرسين، وسرعان ما امتلأ القارب برجال مرضى ورجال يتهوعون ويتضرعون إلى الله بعدة لغات لعل الله ينهي مأساتهم.

وفي غمرة المأساة، توسّل روب أن يتركوه على الشاطئ، إلا أن راباي لونزانو هزّ رأسه.

وقال: «إلياس لن يتوقف بعد الآن للسماح للمسلمين بالصلاة على اليابسة، لأنه هنا توجد قبائل التركمان». «أي غرباء لا يقتلونهم يصبحون عبيدًا لهم، وفي كل خيمة من خيامهم يوجد واحد أو اثنان من التعساء الذين تساء معاملتهم ويكبلون في الأغلال مدى الحياة».

روى لونزانو قصة ابن عمه الذي حاول، مع نجليه ضخام البنية مفتولي

العضلات، قيادة قافلة من القمح إلى بلاد فارس. «لقد تعرضوا للخطف. قيدوهم ودفنوهم حتى أعناقهم في القمح وتركوهم حتى تضوروا جوعًا، وهذه ليست ميتة مستحبة. وأخيرًا باع التركمان الجثث لعائلتنا لدفنها وفق طقوس الدفن اليهودية».

لذلك مكث روب في القارب ولم يبرح مكانه، وهكذا، مرت أربعة أيام طوال كأنهن عدة سنوات ثقال.

وبعد سبعة أيام من مغادرتهم القسطنطينية، أبحر إلياس بالسفينة كيسبوي إلى ميناء صغير احتشد حوله نحو أربعين منزلًا، بعضها مبني من هياكل خشبية متهالكة ولكن معظمها مبني من كتل من طين لازب. لقد كان ميناءً غير مضياف المظهر، ولكن ليس لروب، الذي سيتذكر مدينة ريزا بامتنان إلى الأبد.

«ما شاء الله! ما شاء الله!» صاح الدراويش لمّا لمست السفينة كيسبوي رصيف المرفأ. تلا راباي لونزانو صلاة من الصلوات. وببشرة داكنة، وجسم أنحف، وبطن مقعر، قفز روب من القارب ومشى بحذر فوق الأرض المتحركة بعيدًا عن البحر الكريه.

انحنى ديده لراباي لونزانو، وغمز مالك بعينه إلى روب وابتسم، وسار الدراويش بعيدًا.

قال لونزانو: «تعال». تهادى اليهود في السير وكأنهم يعرفون إلى أين هم ذاهبون. كانت مدينة ريزا مكانًا مؤسفًا. ركضت الكلاب الصفراء ونبحت عليهم. مروا بأطفال يقهقهون انتشرت القروح في أعينهم، وامرأة قذرة تطبخ شيئًا على نار في الهواء الطلق، ورجلان نائمان في الظل كأنهما عاشقان. ورجل عجوز بصق أثناء مرورهم.

قال لونزانو: «عملهم الرئيس هو بيع الدواب والمطايا للأشخاص الذين

يصلون بالقوارب ويواصلون رحلاتهم عبر الجبال. لوب لديه معرفة جيدة بالماشية وسوف يشتري للجميع».

لذا أعطى روب المال إلى لوب، وعلى الفور أتوا إلى كوخ صغير بجوار حظيرة كبيرة ملأى بالحمير والبغال. كان البائع رجلًا أحول العينين. ورغم أن الإصبعين الثالث والرابع في يده اليسرى كانتا مبتورين، وبعد بترهما قام شخص ما بعمل شيء بدائي، إلا أنه كان لديه جذوع ذات نفع له لأنه سحب أرسان الدواب وفصل الحيوانات حتى يتسنى معاينتها بمعرفة لوب.

لم يساوم لوب أو يحتج. ففي كثير من الأحيان نادرًا ما بدا وكأنه يلقي نظرة خاطفة على حيوان. كان يتوقَّف أحيانًا لفحص العينين والأسنان وقائمتي الحيوان الأماميتين وقائمتي الحيوان الخلفيتين.

اقترح أن يبتاع واحدًا فقط من البغال وتلهف البائع على عرضه. «غير كاف!» قال وقد اشتد غضبه، ولكن لمّا هزّ لوب كتفيه استهجانًا وسار بعيدًا، أوقفه الرجل المتجهم وقبل نقوده.

ابتاعوا ثلاثة حيوانات من تاجر آخر. أطال التاجر الثالث الذي زاروه النظر في الدواب التي ساقوها وأومأ برأسه على مهل. وفصل الحيوانات عن قطيعه لهم.

قال آريه: «إنهم يعرفون دوابّ بعضهم بعضًا ويرى أن لوب سيأخذ الأفضل فحسب». وسرعان ما كان لدى جميع أفراد جماعة اليهود الأربعة حمار صغير قوي ومتين لركوبه وبغل قوي لرحلهم.

قال لونزانو إنهم سوف يكونون على مسيرة شهر واحد فقط من أصفهان إذا سارت الأمور على ما يرام، وأن المعرفة منحت روب قوة جديدة. أمضوا يومًا يطوون السهول الساحلية وثلاثة أيام على سفوح

التلال. ثم أصبحوا في التلال المرتفعة. أحب روب الجبال، رغم أن هذه الجبال كانت مقفرة وذات قمم صخرية حيثما تضاءلت أوراق الشجر المبعثرة. قال لونزانو: «هذا بسبب عدم وجود مياه في معظم أيام العام. في الربيع تحدث فيضانات جامحة وخطيرة ثم يعم الجفاف بقية الوقت. ولّما تكون هناك بحيرة، فمن المحتمل أن تكون مياهها مالحة، لكننا نعرف أين نجد المياه العذبة».

وفي الصباح صلوا، وبعد ذلك بصق آريه ورمق روب بنظرة ازدراء. «أنت لا تعرف شيئًا. أنت أحد الجوييم الأغبياء».

قال لونزانو لآريه: «أنت الغبي وتتحدث وكأنك ترمي بحجارة من فمك».

«إنه لا يعرف حتى كيف يضع التيفيلين!» قال آريه متجهمًا. «لقد نشأ بين الغرباء وإذا كان لا يعرف، فهذه هي فرصتنا لتعليمه. أنا، راباي لونزانو بن عزرا من سبط اللاويين في مسقط، سأعلمه بعض عادات قومه».

أظهر لونزانو لروب كيفية وضع التمائم بشكل صحيح. يلف الجلد ثلاث مرات حول العضد، حيث يتشكل حرف الشين العبري، ثم يلف سبع مرات أسفل الساعد وعبر راحة اليد وحول الأصابع بهذه الطريقة لإنتاج حرفين آخرين، حرف الدال العبري وحرف الياء العبري حتى تتشكل كلمة شاداي، أحد الأسماء السبعة التي تجل عن الوصف.

وأثناء لف التمائم هناك صلوات عجماء تتلى، من بينها مقطع من سفر يوشع ٢: ٢١-٢٢: وَأَخْطبك لنَفْسي إلَى الأَبَد. وَأَخْطبك لنَفْسي بالْعَدْل وَالْحَقّ وَالإحْسَان وَالْمَرَاحم. أَخْطبك لنَفْسي بالأَمَانَة فَتَعْرف الرَّبَّ.

وبتكرار هذه الكلمات، بدأ روب يرتجف، لأنه وعد يسوع أنه على الرغم

من ارتدائه المظهر الخارجي لليهودي، فإنه سيبقى مؤمنًا. ثم ذكر أن المسيح كان يهوديًّا وبلا شك خلال حياته قد وضع التمائم آلاف المرات أثناء تلاوة هذه الصلوات نفسها. ولما اشتدّ الثقل والألم في قلبه، اشتدّ خوفه، وكرر الكلمات وراء لونزانو في حين أن الأربطة حول ذراعه زرّقت يده بطريقة أكثر إثارة للاهتمام، لأنها تشير إلى أن الدم احتبس في الأصابع بسبب الربط بإحكام، ووجد نفسه يتساءل من أين انتقل الدم وأين سيذهب من اليد عند نزع الأربطة.

«ثمة شيء آخر»، قال لونزانو وهم يفكّون التمائم. «لا يجب أن تهمل في طلب الهداية الربانية لأنك لا تملك ناصية اللغة العبرية. ومكتوب أنه إذا كان الإنسان لا يستطيع أن يقول دعاءً مفروضًا، فعليه على الأقل أن يفكر في العلي القدير. هذه هي الصلاة أيضًا».

كان منظره يفتقد إلى الأناقة وهو على الحمار، لأنه إذا لم يكن الرجل قصيرًا، فهناك نقص معين في التناسب لمّا يمتطي صهوة الحمار. ورغم أن قدمي روب لامستا الأرض، إلا أن الحمار كان قادرًا بسهولة على تحمل وزنه لمسافات طويلة وكان دابة نشيطة ومناسبة تمامًا لصعود الجبال والنزول منها.

لم يعجبه وتيرة السير التي كان يسير بها لونزانو، لأن القائد كان يمسك في يده سوطًا من شجيرة شائكة وظل يقرع بها على جنبي حماره، ويستحثه على السير.

«لماذا هذه العجلة؟» وأخيرًا زمجر لونزانو، إلا أنه لم يكلف نفسه عناء الاستدارة.

كان لوب هو من أجاب. «يعيش الأشرار بالقرب من هنا. سوف يقتلون أي مسافر وخاصة أنهم يضمرون الكراهية لليهود».

كانوا يحفظون معالم الطريق كله عن ظهر قلب باستثناء روب الذي لم يعرف شيئًا عن معالم الطريق، وإذا حدث أي حادث مؤسف للثلاثة الآخرين، فمن المشكوك فيه أنه سينجو من هذه البيئة القاسية والعدوانية. ارتفع الطريق وانخفض انخفاضًا حادًّا، متلويًا بين القمم المظلمة والقمم الكئيبة في شرق تركيا. وفي وقت متأخر من بعد ظهر اليوم الخامس، وصلوا إلى جدول صغير يتحرك بكآبة بين ضفاف مليئة بالصخور.

قال آريه: «نهر كوروه».

كاد أن ينفد الماء في قربة روب، لكن آريه هزّ رأسه لمّا اقتربوا من النهر.

«ماؤه مالح»، قال وهو يكزّ على أسنانه، كما لو كان يجب أن يعرف روب، وركبوا دوابهم.

وعند منعطف في وقت الغسق، صادفوا صبيًّا يرعى الماعز. قفز بعيدًا لمّا رآهم.

«هل يمكننا أن نتتبعه؟» قال روب. «ربما يركض ليخبر قطّاع الطرق أننا هنا».

وسرعان ما رمقه لونزانو بنظرة وابتسم، ورأى روب أن القلق ينزاح من وجهه. «كان ذلك فتى يهوديًّا. نحن على وشك الوصول إلى بايبورت».

كان عدد سكان القرية أقل من مئة نسمة، ثلثهم من اليهود. كانوا يعيشون خلف سور مرتفع منيع مبني على سفح الجبل. وبحلول الوقت الذي وصلوا فيه إلى البوابة المثبتة في السور، انفتحت البوابة. وانغلقت وراءهم على الفور وأغلقت بالأقفال، ولمّا ترجّلوا عن مَطاياهم وحطّوا خطام رحالهم، حظوا بالأمن وكرم الضيافة داخل أسوار الحي اليهودي.

قال حاخام بلدة بايبورت دون استغراب: «سلام». لقد كان رجلًا

قصيرًا يبدو طبيعيًّا تمامًا وهو جالس منفرج الساقين على ظهر حمار. كان له لحية كثة وقد ارتسمت تعابير حزينة حول فمه.

قال لونزانو: «سلام عليكم».

قيل لروب عن نظام السفر اليهودي في ترياقنا، إلا أنه الآن يراه بوصفه مشاركًا. ساق الصبية حيواناتهم بعيدًا للاعتناء بها، وجمع الصبية الآخرون قرب الماء لغسلها وتعبئتها بالمياه العذبة من بئر البلدة. جلبت النسوة الثياب المبللة التي قد يغسلنها، وسيق الضيوف إلى الخبز الطازج والحساء والنبيذ قبل أن يجتمعوا في المعبد اليهودي مع رجال المدينة من أجل تأدية صلاة المعاريف (صلاة المساء). وبعد الصلاة جلسوا مع الحاخام وبعض زعماء البلدة.

«وجهك مألوف، أليس كذلك؟» قال الحاخام إلى لونزانو.

«لقد حظيت بكرم ضيافتك من قبل. كنت هنا قبل ست سنوات مع أخي أبراهام وأبينا صاحب الذكر الطيب، إرميا بن لابيل. أدركت المنية أبي قبل أربع سنوات لّما أصابه خدش صغير في ذراعه أماته وسمّمه. إنها إرادة العلي المتعالي».

أومأ الحاخام برأسه وتنهّد. «طيّب الله ثراه وأكرم مثواه».

حكّ يهودي أشيب ذقنه وقاطعه في لهفة. «هل تتذكرني، ربما؟ يوسل بن صموئيل من بايبورت؟ مكثت مع عائلتك في مسقط منذ عشر سنوات في ربيع هذا العام. جلبت النحاس الأصفر على قافلة من ثلاثة وأربعين جملًا وعمك... ياساكر؟ ... ساعدني في بيع النحاس الأصفر إلى صهّار النحاس والحصول على حمولة من الإسفنج البحري لأخذها معي مقابل ربح جيد».

ابتسم لونزانو. «عمي يحيئيل. يحيئيل بن ياساكر». «يحيئيل، بالضبط! إنه يحيئيل. هل هو في صحة جيدة؟».

قال لونزانو: «كان ينعم بصحة جيدة لمّا غادرت مسقط».

قال الحاخام: «حسنًا، الطريق إلى أرضروم محاصر بآفة قطاع الطرق الأتراك، لعل الطاعون يقضي عليهم وتلاحقهم شتى أنواع الكوارث. إنهم يقتلون، ويطلبون فدية، أيًّا كانت كما يحلو لهم. يجب أن تبتعدوا عن طريقهم، بالسير على طريق صغير عبر أعالي الجبال. لن تفقدوا طريقكم، لأن أحد شبابنا سيرشدكم».

لذلك، في وقت مبكر من اليوم التالي، انعطفت حيواناتهم عن طريق السفر بعد فترة وجيزة من مغادرة بايبورت وشقّوا طريقهم عبر طريق صخري كان عرضه في بعض الأماكن بضعة أقدام فقط، مع انخفاض شديد وانحدار أسفل سفح الجبل. ظل المرشد معهم حتى عادوا بأمان على الطريق الرئيس.

وفي الليلة التالية كانوا في كاراكوز، حيث لم يكن هناك سوى عشرات العائلات اليهودية والتجار المؤسرين الذين كانوا تحت حماية أمير الحرب القوي علي الحميد. بنيت قلعة حميد على شكل سباعي الأضلاع على جبل عال يطل على المدينة. كانت تبدو وكأنها سفينة شراعية حربية، مفككة ودون صاري. كانت المياه تجلب إلى القلعة من البلدة على ظهور الحمير، وكانت الفناطيس تبقى ممتلئة في حالة الحصار. وفي مقابل حماية حميد، تعهد يهود كاراكوز بإبقاء مستودعات القلعة مليئة بالدخن والأرز. لم يلمح روب واليهود الثلاثة حميد، لكنهم غادروا كاراكوز بكل سرور، غير راغبين في البقاء حيث الأمن يخضع لأهواء رجل واحد قوي.

ورغم أنهم كانوا يمرون عبر إقليم وعر وخطير للغاية، لكنهم حظوا

بالدعم والمساعدة على طول الطريق. ففي كل ليلة كانوا يحظون بإمدادات متجددة من المياه العذبة والطعام الجيد والمأوى، والنصائح حول الريف في المستقبل. اختفت علامات القلق من وجه لونزانو تمامًا.

وصلوا بعد ظهر يوم الجمعة إلى قرية أغدير الصغيرة الواقعة على سفح الجبل ومكثوا يومًا إضافيًّا في منازل اليهود الحجرية الصغيرة هناك حتى لا يضطروا إلى السفر يوم السبت. كانت الفاكهة ناضجة في أغدير وأكلوا الكرز الأسود ومربى السفرجل حتى التخمة. وسرعان ما استرخى أريه وكان لوب كريمًا مع روب، وشرح له لغة إشارة سرية أجرى بها التجار اليهود في الشرق مفاوضاتهم دون التحدث. قال لوب: «تستخدم هذه اللغة باليدين. الإصبع المستقيم يعني عشرة، والإصبع المنحني يعني خمسة. الإصبع الممسوك بحيث يظهر طرفه فقط يعني واحد، واليد كلها تعني مئة، والقبضة تعني الألف».

ركب هو ولوب متجاورين في الصباح الذي غادرا فيه قرية أغدير، يتفاوضان بصمت بأيديهما، ويعقدان صفقات لشحنات غير موجودة، ويشتريان ويبيعان التوابل والذهب والممتلكات لتزجية الوقت. كان الطريق صخريًّا وعرًا.

قال آريه: «لسنا بعيدين عن جبل أرارات». فكر روب في القمم الشاهقة غير المرحب بها والتضاريس الوعرة. «ما الذي كان يجب أن يفكر فيه نوح عند مغادرة الفلك؟» قال ذلك، وهزّ آريه كتفيه استهجانًا.

وفي نازك، البلدة التالية، تأخروا. بني الحي السكني على طول تل صخري كبير، حيث يعيش هناك أربعة وثمانون يهوديًّا وربما ثلاثون ضعفًا من سكان الأناضول. قال لهم الحاخام، وهو رجل عجوز هزيل الجسم محني الأكتاف وحاد العينين: «سيكون هناك عرس تركي في هذه المدينة». لقد بدؤوا بالفعل في الاحتفال وهم مفعمون بالإثارة بطريقة

وضيعة. نحن لا نجرؤ على ترك الحي».

أبقاهم مضيفوهم مؤمّنين داخل الحي اليهودي لمدة أربعة أيام. كان هناك الكثير من الطعام في الحي، وبئر ماء جيد. كان يهود بلدة نازك دماث الخلق ومهذبين، وعلى الرغم من أن الشمس كانت لافحة، فإن المسافرين ناموا في حظيرة حجرية باردة على حشيات القش النظيف. من البلدة تناهى إلى مسمع روب أصوات شجار وعربدة سكارى وتحطيم أثاث، وذات مرة انهمر وابل من الحجارة على اليهود من الجانب الآخر من السور، لكن لم يصَب أحد بأذى.

وفي نهاية الأيام الأربعة، ساد الهدوء كل شيء، وغامر أحد أبناء الحاخام بالخروج ليجد أن الأتراك مرهقون وسهلو الانصياع بعد الاحتفال الهمجي، وفي صباح اليوم التالي غادر روب بلدة نازك بكل سرور برفقة رفاقه الثلاثة المسافرين.

وتبع ذلك رحلة عبر بلدة خالية من المستعمرات اليهودية أو الحماية على طول الطريق. وبعد ثلاثة أيام من مغادرتهم بلدة نازك، وصلوا إلى هضبة تحتوي على كيان مائي عظيم محاطًا بحدود عريضة من الطين الأبيض المتشقق. ترجّلوا عن مطاياهم وحطّوا خطام رحالهم.

قال لونزانو لروب: «هذه أورميا، بحيرة مالحة ضحلة. في الربيع، تحمل الجداول هنا الأملاح المعدنية من سفوح الجبال. لكن لا يوجد جدول يفرغ البحيرة، ولذا فإن شمس الصيف تبخر الماء وتترك الملح حول الحواف. خذ رشة ملح وضعها على لسانك». أخذ بالفعل، بحذر شديد، وصنع وجهًا. ابتسم لونزانو ابتسامة عريضة. «أنت تتذوق بلاد فارس». استغرق الأمر منه لحظة لفهم فحوى الكلام. «نحن في بلاد فارس؟».

«نعم. هذه هي الحدود».

أصيب بخيبة أمل. بدا أنه طريق طويل للسفر من أجل... هذا. كان لونزانو ألمعيًّا وقد فطن لما قاله روب. «لا تقلق، سوف تكون مفتونًا بأصفهان، أنا أضمن لك ذلك. كان لدينا أفضل دواب بديلة، لا تزال لدينا أيام طويلة لركوبها».

لكن روب أولًا بال في بحيرة أورميا، مضيفًا دفعته الإنجليزية الخاصة إلى ملوحة بلاد فارس.

36

الصيّاد

كانت كراهية آريه واضحة للعيان. ورغم أنه كان حريصًا على مراعاة كلماته أمام لونزانو ولوب، إلا أنه لّما كان الاثنان الآخران بمنأى عن سماع ما يلفظ به، كانت تعقيباته على روب على الأرجح تتسم بالسخرية اللاذعة. حتى لّما كان يتحدث إلى رفيقيه الآخرين من اليهود، في الغالب كان حديثه يفتقد إلى دماثة الخلق.

كان روب أكبر وأقوى. ففي بعض الأحيان، كان الأمر يتطلب إرادة لينأى بنفسه عن ضرب آريه.

كان لونزانو ألمعيًّا. قال لروب: «يجب أن تتجاهله».

«آريه ابن...». لم يكن يعرف الكلمة الفارسية التي تعني ابن سفاح.

«حتى في موطنه، لم يكن آريه أكثر الرجال دماثة، ورغم ذلك لا يملك روح المسافر. لّما غادرنا مسقط، كان قد تزوج قبل أقل من عام وأنجب ابنًا جديدًا لم يرغب في مغادرته. لقد كان متجهمًا منذ ذلك الحين». تنهّد وقال: «حسنًا، لدينا جميعًا عائلات، وغالبًا ما يكون من الصعب أن تسافر بعيدًا عن موطنك، خاصة في يوم السبت أو في يوم مقدس».

«منذ متى وأنتم غادرتم من مسقط؟» سأل روب.

«هذه المرة منذ سبعة وعشرين شهرًا».

«إذا كانت حياة التاجر تتسم بالقسوة والعزلة، فما الذي يجبركم

عليها؟».

رمقه لونزانو بنظرة. قال: «إنها الطريقة التي ينجو بها اليهودي».

لقد تحلّقوا حول الزاوية الشمالية الشرقية لبحيرة أورميا وسرعان ما عادوا إلى الجبال العالية الجرداء مرة أخرى. مكثوا ليلة وضحاها مع اليهود في تبريز وتكستان. لم يلاحظ روب اختلافًا كبيرًا بين معظم هذه الأماكن والقرى التي رآها في تركيا. كانت مدنًا جبلية قاتمة مبنية على الركام الصخري، حيث ينام الناس تحت الظلال وترعى الماعز الضالة بالقرب من بئر الحي. كانت مدينة كاشان هكذا أيضًا، باستثناء وجود أسد على بوابة المدينة.

أسد حقيقي ضخم.

قال لونزانو بفخر، كما لو كان يمتلك الأسد: «هذا حيوان مشهور، يبلغ قياسه خمسة وأربعين شبرًا من الأنف إلى الذيل. لقد صيد قبل عشرين عامًا على يد عبد الله شاه والد الحاكم الحالي. لقد هاجم الماشية في هذا الريف يفتك بها لمدة سبع سنوات وفي نهاية المطاف تعقّبه عبد الله وقتله. وكل عام في كاشان يقام احتفال بذكرى صيد الأسد».

والآن توجد ثمرتان من المشمش المجفف بدلًا من العينين وقطعة من الخيش أحمر اللون بدلًا من لسانه، وأشار آريه بازدراء إلى أنه كان محشوًّا بالخرق والحشائش الجافة. التهمت أجيال من العث الفروة شديدة الخشونة التي تصلبت بفعل الشمس لتتحول إلى جلد مكشوف مليء بالبقع، لكن أرجله تشبه الأعمدة وكانت أسنانه لا تزال أسنانًا حقيقية، كبيرة وحادة مثل رؤوس الرماح، لذلك لمّا لمسها روب سرت قشعريرة في جسده.

«لا أريد مقابلته».

ابتسم آريه ابتسامته المترفعة. «يمضي معظم الرجال حياتهم دون أن يروا أسدًا».

كان حاخام مدينة كاشان رجلًا ممتلئ الجسم بشعر رملي اللون ولحية. كان اسمه دافيد بن سولي المعلم، وقال لونزانو إنه اشتهر بالفعل بأنه باحث على الرغم من حقيقة أنه كان لا يزال شابًّا. كان أول حاخام يراه روب يرتدي عمامة بدلًا من قبعة يهودي جلدية. ولمّا تحدث إليهم، ارتسمت علامات القلق على وجه لونزانو.

قال لهم الحاخام: «ليس من الآمن اتباع الطريق جنوبًا عبر الجبال. قوة قوية من السلاجقة تهدد طريقكم».

«من هم السلاجقة؟» قال روب.

قال لونزانو: «إنهم قوم من الرعاة يعيشون في الخيام بدلًا من العيش في المدن. إنهم قتلة ومقاتلون شرسون. يعتدون على الأراضي الواقعة على جانبي الحدود بين بلاد فارس وتركيا».

قال الحاخام بحزن: «لا يمكنكم الذهاب عبر الجبال. الجنود السلاجقة أكثر جنونًا من قطاع الطرق».

نظر لونزانو إلى روب ولوب وآريه. إذًا، لدينا خياران فحسب. يمكننا أن نبقى هنا في كاشان وننتظر حتى اجتياز المتاعب ومرور المشكلات مع السلاجقة، والتي قد تستغرق عدة أشهر، وربما سنة. أو يمكننا أن نتجنب المرور عبر الجبال والسلاجقة ونسلك طريقًا من خلاله نقترب من أصفهان عبر الصحراء ثم الغابة. لم أسافر في تلك الصحراء، دشت-كوير (صحراء الملح الكبرى)، لكنني عبرت صحاري أخرى وأعلم أنها صحراء مخيفة». التفت إلى الحاخام. «هل يمكن عبورها وتجاوزها؟».

«لن تضطروا إلى عبور دشت-كوير (صحراء الملح الكبرى) بالكامل». قال الحاخام بنبرة وئيدة: «معاذ الله». «ما عليكم سوى عبور زاوية، رحلة لمدة ثلاثة أيام، أي الذهاب شرقًا ثم جنوبًا. نعم، يحدث ذلك في بعض الأحيان. يمكنني إخباركم كيف تذهبون».

الأربعة يحدقون بعضهم في بعض. وفي نهاية المطاف، بدّد لوب، الألثغ، الصمت الثقيل. قال متحدثًا باسمهم جميعًا: «لا أريد البقاء هنا لمدة عام».

ابتاع كل منهم قربة ماء كبيرة من جلد الماعز وأترعها بالماء قبل مغادرة مدينة كاشان. ثقلت القربة لمّا امتلأت. «هل نحتاج إلى هذا القدر من الماء لمدة ثلاثة أيام؟» سأل روب. الحوادث دائمًا ما تقع. قال لونزانو: «يمكن أن نمكث في الصحراء لفترة أطول. ويجب عليك أن تتقاسم الماء مع حيواناتك، لأننا سنأخذ الحمير والبغال إلى دشت-كوير (صحراء الملح الكبرى)، وليس البعير».

رافقهم مرشد من مدينة كاشان وقد امتطى صهوة جواده الأبيض العجوز حتى النقطة التي يتفرع منها مسار غير مرئي تقريبًا عن الطريق. بدأت دشت-كوير (صحراء الملح الكبرى) كأخدود من الصلصال كان من السهل السفر فوقه مقارنة بالجبال. ففي البداية قضوا وقتًا ممتعًا، ولفترة وجيزة ارتفعت معنوياتهم. تغيرت طبيعة الأرض تدريجيًا لدرجة أنها حازت إعجابهم، ولكن بحلول منتصف النهار، لمّا لفحتهم الشمس مثل النحاس الأصفر، كانوا يصارعون الرمال العميقة الناعمة لدرجة أن حوافر الحيوانات غاصت فيها. ترجّل الركبان عن مطاياهم، وتعثّر الرجال والدواب وهم يتقدّمون إلى الأمام في بؤس وشقاء على حد سواء.

كان الأمر أشبه بالحلم بالنسبة لروب، ثمة محيط من الرمال يمتد في كل اتجاه مد بصره. وفي بعض الأحيان كانت الرمال تتشكل في تلال

مثل أمواج البحر العاتية التي يخافها، وفي أماكن أخرى كانت مثل المياه الضحلة الهادئة لبحيرة راكدة، موّجتها رياح الغرب فقط. لم تكن هناك حياة يمكن أن يكتشفها، ولا طائر في الهواء، ولا خنفساء أو دودة على الأرض، لكن في فترة ما بعد الظهيرة مروا بعظام ناصعة البياض تكومت مثل كومة مهملة من رماد حريق متأجج خلف كوخ إنجليزي، وأخبر لونزانو روب أنها بقايا الحيوانات والرجال التي جمعتها القبائل البدوية وكدّستها هناك كنقطة مرجعية. هذه علامة على وجود أناس عساهم أن يكونوا في منازلهم في مكان كهذا تبعث الخوف في النفوس وحاولوا إبقاء حيواناتهم هادئة، وهم يعرفون إلى أي مدى يمكن أن يستمر نهيق الحمير في الهواء.

كانت صحراء الملح. وفي بعض الأحيان كانت الرمال التي يسيرون عليها تتسلل بين مستنقعات من الملح اللازب مثل شواطئ بحيرة أورميا. ست ساعات من السير أرهقتهم تمامًا ولّما وصلوا إلى تل صغير من الرمال ألقى بظلاله أمام الشمس الدانية، احتشد الرجال والمطايا معًا لينعموا بنبع البرودة الموازية. وبعد ساعة من الجلوس تحت الظل تمكنوا من استئناف السير حتى غروب الشمس.

اقترح روب قائلًا: «ربما كان من الأفضل لنا السفر ليلًا والنوم في حرارة النهار».

بادره لونزانو قائلًا: «لا. لّما كنت صغيرًا، عبرت ذات مرة دشت-لوط (صحراء لوط) مع والدي واثنين من أعمامي وأربعة من أبناء عمومتي. طيّب الله ثرى الأموات. دشت-لوط (صحراء لوط) هي صحراء ملحية، مثل هذه الصحراء. قررنا السفر ليلًا وسرعان ما واجهتنا مشكلة. خلال موسم الصيف، تجف بحيرات الملح ومستنقعات موسم الأمطار بسرعة، في الأماكن وتترك قشرة صلبة على السطح. وجدنا أن الرجال والحيوانات

قد اخترقوا القشرة. وفي بعض الأحيان يوجد تحتها ماء أجاج أو رمال متحركة. إنه لأمر خطير للغاية أن تسير ليلًا».

لم يجب عن أسئلة حول تجربته الشبابية في دشت-لوط (صحراء لوط)، ولم يلح عليه روب، مستشعرًا أنه من الأفضل تركه بمفرده.

ولّما هبط الظلام، افترشوا الرمال المالحة أو استلقوا عليها. صارت الصحراء التي لفحتهم في النهار باردة في الليل. لم يكن هناك وقود، ولن يشعلوا النار لئلا تراها أعينًا خسيسة. كان روب متعبًا جدًّا لدرجة أنه على الرغم من عدم ارتياحه، فقد غطّ في نوم عميق استمر حتى أول شعاع ضوء شقّ طريقه إلى جفونه.

لقد أذهله حقيقة أن ما بدا وكأنه ماء غزير في كاشان قد تضاءل في الصحراء الجافة. اكتفى وهو يرتشف رشفات صغيرة في حين أنه كان يأكل فطوره من الخبز، وأعطي أكثر بكثير لحماره وبغله. صبّ نصيب الحيوانات من الماء في قبعة اليهودي المصنوعة من الجلد وأمسكها أثناء الشرب، مستمتعًا بإحساس تسلل إليه جرّاء وضع القبعة المبللة على رأسه الساخن لّما انتهت الحيوانات من الشرب.

لقد كان يومًا من السير المتثاقل العنيد. ولّما بلغت الشمس كبد السماء، بدأ لونزانو ينشد عبارة من الكتاب المقدس: قم، اسْتَنر لأَنَّه قَدْ جَاءَ نورك، وَمَجْد الرَّب أَشْرَقَ عَلَيْك. تفاعل الآخرون واحدًا تلو الآخر مع الأنشودة، وحمدوا الله لفترة من الوقت بحلاقيم جافة.

وسرعان ما توقفوا فجأة. «الفرسان قادمون!» صاح لوب.

وبعيدًا باتجاه الجنوب رأوا حشدًا مثل الذي قد يحرّكه جيش جرار وكان روب يخشى أن يكون هؤلاء هم سكان الصحراء الذين تركوا علامة السفر من أكوام العظام. ولكن مع اقتراب المشهد، رأوا أنه ليس سوى

سحابة.

ولمّا أدركتهم رياح الصحراء الساخنة، أدارت الحمير والبغال ظهورها لها بحكمة الغريزة. ربض روب بأقصى ما في وسعه خلف المطايا ولفحتهم الرياح. كانت الحمى هي آثارها الأولى. حملت الرياح الرمل والملح الذي أحرق جلده مثل رقائق الرماد الساخن. أصبح الهواء خطيرًا ثقيل الوطأة أكثر من ذي قبل، وانتظر الرجال والحيوانات بإصرار لأن العاصفة جعلتهم جزءًا من الأرض، وغطتهم بطبقة من الرمال والملح سمك إصبعين.

وفي تلك الليلة رأى ماري كولين في منامه. جلس معها وشعر بالطمأنينة. وقد ملأت السعادة وجهها وكان يعلم أن وفاءها نابع منه مما أسعده. بدأت في نسج المشغولات المطرزة، ودون أن يفهم كيف ولماذا، واتضح أنها الأم، وقد ذاق نشوة الدفء والأمان التي افتقدها منذ أن كان في التاسعة من عمره.

ثم استيقظ، وكان يتنخع ويبصق وحلقه جاف. ملأ الرمل والملح فمه وأذنيه، ولمّا نهض ومشى كان يفرك بشدة بين ردفيه.

كان ذلك في صباح اليوم الثالث. كان الحاخام دافيد بن سولي قد أصدر تعليماته إلى لونزانو بالسير شرقًا مسيرة يومين ثم جنوبًا مسيرة يوم واحد. لقد ذهبوا في الاتجاه الذي اعتقد لونزانو أنه اتجاه الشرق، والآن انعطفوا في الاتجاه الذي اعتقد لونزانو أنه اتجاه الجنوب.

لم يكن روب قادرًا ألبتة على التمييز بين الشرق والجنوب والشمال والغرب. سأل نفسه ما الذي سيحدث لهم إذا لم يكن لونزانو يعرف حقًا الجنوب أو يعرف الشرق حقًا، أو إذا كانت توجيهات حاخام كاشان غير دقيقة.

كان الجزء الذي شرعوا في عبوره في دشت-كوير (صحراء الملح الكبرى) أشبه بخليج صغير في محيط عظيم. كانت الصحراء الكبرى مترامية الأطراف وغير قابلة للعبور بالنسبة لهم.

لنفترض أنهم، بدلًا من عبور الخليج، كانوا يتجهون مباشرة نحو وسط دشت-كوير (صحراء الملح الكبرى)؟

إذا كان هذا هو الحال، فسوف يهلكون.

وتبادر إلى ذهنه أن يتساءل عما إذا كان إله اليهود يقضي عليه بسبب تنكره. لكن آريه، على الرغم من أنه ليس محبوبًا، لم يكن شريرًا، وكان كل من لونزانو ولوب جديرين بالثناء؛ لذا لم يكن منطقيًّا أن يهلكهم إلههم لمعاقبة آثم واحد من الأغيار.

لم يكن الشخص الوحيد الذي يتلهي بأفكار اليأس. ومراعاة لحالتهم المزاجية، حاول لونزانو أن يبدأ في الغناء مرة أخرى. لكن لونزانو كان صاحب الصوت الوحيد الذي صدح بالأنشودة، وفي النهاية توقف عن الغناء أيضًا.

صبّ روب آخر كمية مدخرة من الماء لحيواناته وتركهم يشربون من قبعته.

ما بقي في القربة الجلدية كان نحو ست رشفات من الماء. لقد استنتج أنهم إذا كانوا يقتربون من نهاية دشت-كوير (صحراء الملح الكبرى)، فلن يكون ذلك مهمًّا، أما إذا كانوا يسافرون في الاتجاه الخاطئ، فإن هذه الكمية الصغيرة من الماء لن تكون كافية لإنقاذ حياته.

لذلك ارتشفها. ورغم أنه أجبر نفسه على ارتشاف الماء في رشفات صغيرة، إلا أنه شعر بالعطش بعد وقت قصير جدًّا.

وحالما أصبحت القربة من جلد الماعز فارغة، بدأ يعاني من العطش أكثر من أي وقت مضى. بدا أن الماء المبتلع أصابه بحرقة في بطنه، وتبعه صداع رهيب.

عزم على المشي لكن تعثرت خطاه. لا أستطيع، أدرك ذلك في رعب شديد.

بدأ لونزانو في التصفيق بقوة. «إيه، دي، دي، دي، دي، دي، دي، إيه، دي، دي، دي، دي!» غنّى وبدأ يرقص، وهزّ رأسه، ودار حول نفسه، ورفع ذراعيه وركبتيه على إيقاع الأنشودة.

التمعت عينا لوب بدموع الغضب. «توقف، أيها الأحمق!» صاح. ولكن في لحظة تجهّم وانضم إلى الغناء والتصفيق، وهو يتقافز مرحًا خلف لونزانو.

ثم روب. وحتى آريه البغيض.

«إيه، دي، دي، دي، دي، دي، إيه، دي، دي، دي!».

لقد غنوا بشفاه جافة ورقصوا على أقدام فاقدة الحس. وفي النهاية صمتوا وتوقفوا عن القفز الجنوني، لكنهم استمروا في التثاقل، وهم يحركون ساقًا فاقدة الحس تلو الأخرى، ولم يجرؤوا على مواجهة احتمال ضياعهم بالفعل.

وفي وقت مبكر بعد الظهيرة بدؤوا يسمعون الرعد. دوى هزيم الرعد في تفاوت لفترة طويلة قبل أن تنذر ببضع قطرات من المطر، وبعد ذلك بقليل رأوا غزالًا ثم زوجًا من الحمير البرية.

وفجأة حثت حيواناتهم خطاها على السير. حرّكت المطايا أرجلها بشكل أسرع ثم بدأت في الهرولة بمحض إرادتها، مستشعرة ما يخبئه المستقبل، وامتطى الرجال صهوة الحمير وركبوا المطايا مرة أخرى لمّا تركوا الحدود

القصوى للرمال التي شقّوا طريقهم عليها بجهد لمدة ثلاثة أيام.

تحولت الأرض إلى سهول، أولًا بدأت بنبت ضئيل ثم أكثر خضرة. وقبل الغسق جاؤوا إلى بركة ماء نما فيها عيدان البوص وغطست فيها طيور السنونو التي تحلق في دوائر.

تذوق آريه الماء وأومأ برأسه. «إنه ماء جيد».

وحذر لوب قائلًا: «يجب ألا ندع الدواب تشرب كثيرًا مرة واحدة وإلا ستثقل في السير».

لقد سقوا الحيوانات بعناية وربطوها في الأشجار، ثم شربوا ونزعوا ثيابهم واستلقوا في الماء، وهم يغطّسون أنفسهم بين عيدان البوص.

«لمّا كنت في دشت-لوط (صحراء لوط)، هل فقدتم الرجال؟» قال روب.

قال لونزانو: «لقد فقدنا ابن عمي كالمان. رجل في الثانية والعشرين».

«هل انزلق من خلال قشرة الملح الصلبة؟».

«لا. لم يلتزم بضبط النفس وشرب ماءه دفعة واحدة. ثم أدركته المنية بسبب العطش».

قال لوب: «طيّب الله ثراه».

«ما هي أعراض رجل يموت من العطش؟».

من الواضح أن لونزانو كان مستاءً. «لا أرغب في التفكير في الأمر».

قال روب: «أسأل لأنني سأصبح طبيبًا، وليس بدافع الفضول»، ورأى أن آريه كان يحدّق به في نفور شديد.

انتظر لونزانو لحظة طويلة ثم أومأ برأسه. «ارتبك ابن عمي كالمان

بسبب الحر وشرب بإفراط حتى نفد ماءه. لقد ضللنا الطريق وكل رجل يحافظ على ما لديه من ماء. لم يكن مسموحًا لنا بمشاركة الماء. وبعد فترة، بدأ يتهوع بوهن ولكن لم يكن هناك سائل لإحضاره. تحول لسانه إلى اللون الأسود تمامًا وكان سقف فمه رماديًا أبيض اللون. شرد عقله، وتوّهم أنه كان في منزل أمه. ذبلت شفتاه، وافترّت جذور أسنانه، وتدلى فمه مفتوحًا مرسومًا عليه ابتسامة مستذئبة. لهث وترددت أنفاسه في خياشيمه مرة بعد مرة. وفي تلك الليلة تحت جنح الظلام، خالفت العرف وقطّرت القليل من الماء على قطعة قماش وعصرتها في فمه، إلا أنه قد فات الأوان. وبعد اليوم الثاني من دون ماء، أدركته المنية».

ظلوا صامتين في المياه البنية.

«إيه، دي، دي، دي، دي، دي، إيه، دي، دي، دي، دي!» صدح روب أخيرًا بالغناء.

نظر في عيني لونزانو وتبادلا الابتسامات.

استقرت بعوضة على خده سميك الجلد وصفع نفسه. قال: «إن المطايا جاهزة لشرب مزيد من الماء، على ما أعتقد»، وغادروا البحيرة وانتهوا من رعاية حيواناتهم.

وفي اليوم التالي، عادوا على ظهور حميرهم عند الفجر، ولمتعة روب الشديدة، سرعان ما وجدوا أنفسهم يمرون ببحيرات صغيرة لا حصر لها محاطة بأكاليل من المروج. أبهجته البحيرات. كان العشب بارتفاع ركبة الرجل الطويل وكانت رائحته ذكية. كانت البحيرات مترعة بالجنادب والصراصير، وكذلك البعوض الصغير الذي أصابه بحروق لمّا لدغه وأصابه على الفور بحكة. وقبل أيام قلائل، كان قد ابتهج برؤية أي حشرة، لكنه الآن تجاهل الفراشات الكبيرة الزاهية في المروج في حين أنه

كان يصفع مكان اللدغات ويرفع أكفه إلى السماء تضرعًا أن تهبط لعنة السماء على البعوض.

«يا إلهي، ما هذا؟» بكى آريه.

تبع روب إصبعه الذي يؤشر به، وفي ضوء الشمس الساطع، لاحظ سحابة هائلة تتصاعد إلى الشرق. شاهدها بقلق متزايد وهي تقترب، لأنها بدت مثل سحابة الغبار التي رأوها لمّا عصفت بهم الريح الساخنة في الصحراء.

إلا أنه انبثق صوت الحوافر الذي لا لبس فيه من هذه السحابة، كجيش عظيم يكتسحهم.

«السلاجقة؟» همس ولم يجبه أحد.

بوجوه شاحبة ومترقبة، انتظروا وراقبوا السحابة التي اقتربت والصوت الذي يصم الآذان.

وعلى مسافة نحو خمسين خطوة، صارت جلبة مسموعة كما لو أن ألف فارس محنك قد كبحوا جماح مطاياهم فور سماع الأوامر.

ففي البداية لم يكن في إمكانه رؤية أي شيء. ثم خفّ الغبار ورأى الحمير البرية، بعدد لا يحصى وفي حالة جيدة، وانتظمت في صف جيد التكوين. كانت الحمير تحدّق بفضول شديد في الرجال والرجال يحدّقون بهم.

«يا للهول!» صاح لونزانو، اندفع القطيع مثل كيان واحد وجدد فراره، متجهًا شمالًا تاركًا وراءه رسالة عن تعددية الحياة.

لقد مروا بقطعان أصغر من الحمير وقطعان ضخمة من الغزلان، وأحيانًا ترعى معًا ومن الواضح أنه نادرًا ما تصاد، لأنها لم تلق بالًا

بالرجال كثيرًا. والأكثر شؤمًا كانت الخنازير البرية التي كثر عددها. ومن حين لآخر رمق روب أنثى خنزير مشعرة أو ذكر خنزير له أنياب حادة، ومن جميع الجهات سمع صوت الحيوانات وهي تحف العشب الطويل وتستأصله من جذوره.

والآن صدحوا جميعًا بالغناء لمّا اقترح لونزانو كي يبعثوا برسالة إلى الخنازير تحذر من اقترابها وتحول دون ترويعها لهم وعدم استفزازها حتى لا تنقض عليهم. خَدرَ جلد روب وهو يجرّ قدميه الطويلتين المتدليتين على جانبي الحمار الصغير عبر العشب المتوغل، وشعر أنه عار ومعرض للخطر، إلا أن الخنازير تراجعت أمام الأصوات الصادحة بالغناء ولم تسبب لهم أي مشكلة.

لقد وصلوا إلى جدول مائي سريع الحركة يشبه خندقًا عظيمًا، وجوانبه عمودية تقريبًا ومليئة بالشمر، وعلى الرغم من تحركهم ضد التيار وفي اتجاه التيار، لم يكن هناك مكان سهل للعبور؛ وأخيرًا ساقوا حيواناتهم في الماء. كان الأمر صعبًا للغاية، حيث حاولت الحمير والبغال تسلق الضفة البعيدة المكسوة بالعشب وتزحلقت إلى الوراء. امتلأ الجو بالشتائم والرائحة النفاذة للشمر المسحوق، واستغرق الأمر بعض الوقت لإتمام العبور. ووراء النهر دخلوا في دغل من الأدغال، متبعين مسارًا أشبه بالمسارات التي كان روب يعرفها في موطنه: تجلّت الحياة البرية في الأرض أكثر من الغابات الإنجليزية؛ تشابكت تعاريش الأشجار العالية في قممها وحجبت أشعة الشمس، ومع ذلك كانت الشجيرات التحتية تصطف مخضرة وتعج بالحيوانات البرية. تعرّف على الغزلان والأرانب والشياهم، وفي الأشجار كانت هناك حمامات وما يعتقد أنه نوع من طائر الدراج.

كان يعتقد أن هذا هو نوع الطرق التي كان الحلاق يرغب في السير

فيها، وتساءل كيف سيكون رد فعل اليهود إذا نفخ في القرن السكسوني.

لقد استداروا عند منحى من المنحنيات في الطريق وكان روب يأخذ دوره في سياقة الحيوانات لّما تعثّر حماره. وفوقهم، ثمة قط بري جاثم على فرع كبير.

تراجع الحمار إلى الوراء وخلفهم اشتمّ البغل الرائحة وشحج شحيجًا مدويًا. ربما استشعر القط البري الكبير الخوف الشديد. وفي حين أن روب كانت يده تتحسس شيء ما بحثًا عن سلاح، قفز الحيوان، الذي بدا له بشعًا مخيفًا.

ورمى سهمًا طويلًا وثقيلًا بقوة هائلة، فأصاب العين اليمنى للحيوان.

فخدشت المخالب الحادة الحمار المسكين في حين أن القط ارتطم بروب وأطاح به. وفي لحظة تمدد على الأرض مستلقيًا وهو يختنق برائحة القط. استلقى الحيوان عليه بالعرض بحيث كان يواجه عجيزة الحيوان، وهو يلاحظ الفراء الأسود اللامع، والإست الأشعث، والمخلب الخلفي الأيمن الحاد الذي استقر على بعد بوصات من وجهه، مع مَنسم قدم منتفخة المنظر كبيرة الحجم بشكل باعث على القذارة. تمزّق المخلب بطريقة ما من جديد من الإصبع الثاني من بين الأصابع الأربع، الذي كان عاريًا وداميًا، واتضح له أنه في الطرف الآخر من القط كانت هناك عينان ليستا من ثمرات المشمش المجفف ولسان لم يكن قطعة من الخيش أحمر اللون.

خرج الناس من الغابة. وفي مكان قريب وقف سيدهم، وهو لا يزال ممسكًا بقوسه الطويل.

كان الرجل متشحًا بمعطف ناعم من فراء القطط أحمر اللون مبطن بالقطن، وبنطال خشن، وحذاء جلدي غليظ خشن، وعمامة ملفوفة بإهمال. ربما كان يبلغ من العمر أربعين عامًا، ويتمتع ببنية قوية،

ويمشي منتصب القامة مرفوع الهامة، وله لحية داكنة قصيرة، وأنف أقنى، وطَلَّة قاتل لا تزال في عينيه وهو يشاهد القنَّاصة خاصته يخلعون النمر الميت من الشاب الضخم.

تدافع روب إلى قدميه مرتجفًا، راغبًا أن يتحكم في أمعائه. صاح قائلًا: «أمسك الحمار اللعين»، لم يطلب من أحد على وجه الخصوص. لم يفهمه لا الفرس ولا اليهود لأنه تحدّث بالإنجليزية. وعلى أيّ حال، رجع الحمار بسبب غرابة الغابة، والتي ربما تكمن فيها مخاطر أخرى، وعاد الآن ليقف ويرتعد مثل مالكه.

جاء لونزانو إلى جانبه وغمغم إقرارًا بما حدث. ثم جثا الجميع على ركبهم في طقوس السجود التي وصفت لاحقًا لروب باسم «روي زمين، الوجه على الأرض»، وسحبه لونزانو إلى أسفل دون رقة ورفق وتأكد، ويده على مؤخرة عنقه، أن رأسه تدلّى كما ينبغي.

جذب مشهد إعطاء هذه التعليمات انتباه الصياد؛ سمع روب صوت خطواته ثم لمح حذاءه الجلدي الغليظ الخشن، وتوقف على بعد بضع بوصات من رأسه المطأطأ.

قيل بصوت ضعيف: «إنه نمر كبير ميت وذمي كبير جاهل»، ثم ابتعد الصيّاد.

غادر الصياد وخدّامه الذين يحملون طريدته وما نبسوا ببنت شفة، وبعد فترة نهض الرجال الجاثون على ركبهم.

«أنت بخير؟» قال لونزانو.

«نعم، نعم». تمزق قفطانه لكنه لم يصب بأذى. «من هذا؟».

«هو علاء الدولة، شاهانشاه. ملك الملوك».

حدّق روب في الطريق الذي غادروا منه. «ما معنى كلمة الذمي؟».

قال لونزانو: «تعني أهل الكتاب».

37

مدينة راباي يسي

افترق هو واليهود الثلاثة بعد يومين في قرية كوه بايه، وهي قرية مفترق طرق تضم عشرة منازل مبنية من حجر القرميد آيلة للسقوط. أخذهم المنعطف عبر دشت-كوير (صحراء الملح الكبرى) إلى الشرق قليلًا، إلا أنه لم يكن لديه سوى رحلة أقل من يوم غربًا إلى أصفهان، في حين أنهم ما زالوا يواجهون وعثاء السفر مسيرة ثلاثة أسابيع جنوبًا ويجابهون عبور مضيق هرمز قبل وصولهم إلى موطنهم.

كان يعلم أنه لولا هؤلاء الرجال والقرى اليهودية التي منحته المأوى لما وصل إلى بلاد فارس.

تعانقا روب ولوب. «توكل على الله، راباي يسي بن بنيامين!».

«توكل على الله، يا صديقي».

حتى آريه البغيض اصطنع ابتسامة خادعة حيث تمنّى كل منهما للآخر رحلة آمنة، ولا شك أنه كان سعيدًا ليقول وداعًا كما قال روب.

قال لونزانو: «لمّا تلتحق بمدرسة الأطباء، يجب أن تخبر راباي ميردين عسكري، قريب آريه، بمدى حبنا له».

«نعم». أخذ بيد لونزانو. «شكرًا لك، راباي لونزانو بن عزرا».

ابتسم لونزانو. «باستثناء الشخص الذي بدا تقريبًا مختلفًا، إلا أنك كنت رفيقًا ممتازًا ورجلًا جديرًا بالاحترام. اذهب بسلام، أيها الإنجليزي».

«اذهبوا بسلام».

وبعد عاصفة من التمنيات الطيبة ذهبوا في اتجاهات مختلفة.

امتطى روب صهوة البغل، لأنه بعد هجوم النمر نقل صرته على ظهر الحمار المسكين المرتعد وساق البغل على الفور. ورغم أنه قضى وقتًا أبطأ مع هذا الترتيب، لكنه كان مفعمًا بالإثارة وكان يرغب في السفر في الجزء الأخير في أناة حتى يستمتع به.

الأمر يستحق ألا يتعجّل، لأنه كان طريقًا مزدحمًا. سمع الصوت الذي كان يسعده كثيرًا، وسرعان ما تخطّى قافلة من الإبل التي تتدلى منها الأجراس، كل منها محمل بقفتي أرز كبيرتين. تحرك وراء الجمل الموجود في أقصى المؤخرة، ينتشي بقرع الأجراس الموسيقية.

امتدت الغابة إلى هضبة مفتوحة؛ وحيثما كان هناك ما يكفي من المياه كانت هناك حقول من الأرز الناضج وخشخاش الأفيون، تفصل بينها مساحات من الصخور الجافة المنبسطة. صارت الهضبة بالمقابل تلالًا من الحجر الجيري الأبيض، بعثرت ضروبًا مختلفة من الألوان المتغيرة جراء الشمس والظل. وفي عدة أماكن استخرج الحجر الجيري من عمق بعيد.

وفي وقت متأخر بعد الظهيرة، بلغ البغل قمة تل ونظر روب لأسفل إلى وادي نهر صغير وبعد عشرين شهرًا من مغادرته لندن! - رأى أصفهان.

كان انطباعه الأول السائد هو البياض البَرّاق مع لمسات من اللون الأزرق الغامق. كان مكانًا مبهجًا للحواس يزخر بالأماكن والمنحنيات، بالإضافة إلى مبان مقببة كبيرة تتألق في ضوء الشمس، ومساجد بها مآذن مثل الرماح الشاهقة، ومساحات خضراء مفتوحة، وأشجار صنوبر ناضجة وأشجار الدلب. ظهر الحي الجنوبي للمدينة بلونه الوردي الدافئ حيث انعكست أشعة الشمس من التلال الرملية بدلًا من الحجر الجيري.

الآن لا يقوى على الانتظار. «يا للهول!» صاح، وضرب بعقبيه جنبي البغل. ومع الحمار الذي يدبدب وراءه، خرج عن الصف وتجاوز الإبل وهو يهرول على مطيته.

وعلى بعد ربع ميل من المدينة، تحولت القافلة إلى طريق رائع مرصوف بالحصى، وهو أول طريق مرصوف رآه منذ مغادرة القسطنطينية. كان الطريق واسعًا للغاية، به أربعة حارات واسعة مفصولة عن بعضها بعضًا بصفوف من أشجار الدلب الطويلة المتماثلة. والطريق الذي يعبر النهر فوق الجسر الذي كان حقًّا سدًّا مقنطرًا ترك وراءه هويسًا. وبالقرب من لافتة تعلن أن النهر الصغير هو نهر زاينده، نهر الحياة، ثمة شباب عراة من ذوي البشرة البنية يرشون أنفسهم بالماء ويسبحون.

أتى به الطريق إلى السور الحجري العظيم وبوابة المدينة المتقوسة الفريدة.

وداخل السور بنيت منازل الأثرياء الكبيرة ذات الأروقة والبساتين وكروم العنب. انتشرت الأقواس المدببة في كل مكان، فكانت في الأبواب المقوسة والنوافذ المقوسة وبوابات الحدائق المقوسة. وبالقرب من حي الأثرياء كانت توجد مساجد وبنايات أكبر ذات قباب محدبة، بيضاء ومستديرة مع رؤوس صغيرة في قمتها، كما لو أن مهندسيها قد وقعوا في حب أثداء النساء بجنون. وكان من السهل أن ترى أين ذهبت الصخور المحفورة؛ كان كل شيء من الحجر الأبيض مزركشًا بالبلاط الأزرق الداكن لتشكيل تصاميم هندسية أو اقتباسات من القرآن:

لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هوَ الرَّحْمَٰن.

وَجَاهدوا فِي اللَّه حَقَّ جهَاده.

فَوَيْلٌ لِلْمصَلِينَ. الَّذينَ همْ عَن صَلاتهمْ سَاهونَ.

كانت الشوارع تعج برجال يرتدون عمامات، لكنها كانت تخلو من النساء. مرّ بميدان مفتوح ضخم؛ وبعد ذلك، ربما بعد نصف ميل، مرّ بميدان آخر. كان تطرب أذنيه بالأصوات وينتشي بالروائح. كانت بما لا يدع مجالًا للشك بلدية، متاهة الإنسانية الكبيرة مثل التي كان يعرفها بوصفه ابنًا من أبناء لندن، ولسبب ما شعر أنه من الصواب والملائم أن يسافر على مهل عبر هذه المدينة على الضفة الشمالية لنهر الحياة.

ومن المآذن، بدأت أصوات الرجال، بعضها بعيد وضعيف، والبعض الآخر قريب وجهور، تؤذن لدعوة المؤمنين إلى الصلاة. توقفت كل حركة المرور وتوجه الرجال بأجسامهم إلى اتجاه بدا جليًّا أنه جنوب غرب، الاتجاه إلى مكة. جثا جميع الرجال في المدينة على ركبهم، وراحوا يبسطون أكفهم على الأرض ويميلون إلى الأمام حتى لامست جباههم الحصى.

أوقف روب البغل وترجّل عنه من باب الاحترام.

ولّما انتهت الصلاة، اقترب من رجل في منتصف العمر كان يلف بخفة ورشاقة سجادة صلاة صغيرة كان قد أخذها من عربته القريبة التي تجرها الثيران. سأل روب كيف يذهب إلى الحي اليهودي.

«آه. إنه يسمى «يهودية». يجب أن تستمر في طريق «يزدجيرد»، حتى تصل إلى سوق اليهود. وفي أقصى الطرف الآخر من السوق توجد بوابة مقوسة، وعلى الجانب الآخر سوف تجد الحي اليهودي. لا يمكن أن يفوتك، أيها الذمي».

كان المكان يعج بالأكشاك التي تبيع الأثاث والمصابيح والزيت والخبز والمعجنات التي تنبعث منها رائحة العسل والتوابل والملابس والأواني من كل نوع والخضروات والفواكه واللحوم والأسماك والدجاج المنتوف ريشه المحشو أو الحي والزعيق والصياح على كل ما هو ضروري للحياة

المادية. رأى معروضات من شالات الصلاة، والثياب المهدبة، والتمائم. وفي كشك لكاتب رسائل رأى رجلًا عجوزًا متغضن الوجه قد انكفأ على محبرة وأقلام من ريش، وعرّافة تقرأ الطالع تحت خيمة مفتوحة. عرف روب أنه كان في الحي اليهودي لأنه كانت هناك نساء يبعن في الأكشاك ويتسوقن في السوق المزدحم وهن يحملن سلال في أذرعهن. كانت النساء متشحات بثياب سوداء فضفاضة وكان شعرهن مسجّى بأغطية الرأس. قلة منهن كن يرتدين الحجاب، مثل النساء المسلمات، إلا أن معظمهن لم يكن يرتدين الحجاب. كان الرجال يرتدون ثياب مثل الثياب التي يرتديها روب، ولهم لحًى كثيفة وكثة.

كان يتجول على مهل مستمتعًا برؤية المناظر وسماع الأصوات. مرّ برجلين يتجادلان جدالًا مريرًا وكأنهما أعداء حول سعر زوج من الأحذية. في حين أنه راح آخرون يمزحون ويصيحون على بعضهم. وكان لزامًا عليه التحدث بصوت عال حتى يسمع.

وعلى الجانب الآخر من السوق، مرّ عبر البوابة المقوسة وتوغل في الشوارع الفرعية الضيقة القريبة متجولًا، ثم نزل منحدرًا متعرجًا شديد الوعورة إلى منطقة كبيرة من المنازل البائسة، المبنية دون تناسق، ومقسمة بشوارع صغيرة دون أي محاولة لإظهار التناسق. كانت العديد من المنازل ملاصقة لبعضها، ولكن هنا وهناك ثمة منزل منفصل بحديقة صغيرة؛ وعلى الرغم من أنها كانت منازل متواضعة وفقًا للمعايير الإنجليزية، فإنها تميزت عن البنايات المجاورة كما لو كانت قلاعًا.

كانت أصفهان مدينة قديمة، لكن يبدو أن حي «يهودية» هو الأقدم. كانت الشوارع ملتوية ومن بينها تفرعت أزقة. كانت المنازل والمعابد اليهودية من الحجر أو القرميد القديم الذي تلاشى لونه إلى اللون الوردي الباهت. ساق بعض الأطفال الماعز أمامه. وقف الناس في جماعات

يضحكون ويتحدثون. وسرعان ما حان وقت تناول وجبة العشاء، ورائحة الطهي المنبعثة من المنازل أسالت لعابه.

تجول في الحي حتى وجد إسطبلًا، حيث رتّب لرعاية الحيوانات. وقبل أن يتركهما، قام بتنظيف خدوش المخالب على جنبي الحمار، والتي كانت تلتئم بشكل جيد.

وفي مكان ليس بعيدًا عن الإسطبل، وجد نزلًا يديره رجل عجوز طويل القامة امتلأ وجهه بابتسامة جميلة وظهره مقوس، يدعى سلمان الأصغر.

«لماذا الأصغر؟» لم يستطع روب الامتناع عن طرح السؤال.

«في قريتي رزان مسقط رأسي كان عمي يدعى سلمان الأكبر. عالم مشهور ذائع الصّيت»، أوضح الرجل العجوز. استأجر روب سرير في زاوية غرفة النوم الكبيرة.

«هل ترغب في تناول الطعام؟»

طعام يثير الشهية، قطع لحم صغيرة مشوية على أسياخ، أرز دبق أسماه سلمان «بيلاه»، حبات بصل صغيرة اسودت من النار.

«هل هو طعام «كوشير» (مباح)؟» سأل بذكاء.

«بالطبع إنه كوشير، لا داعي للخوف من أكله!».

بعد اللحم قدّم سلمان كعك العسل وشرابًا لذيذًا أطلق عليه «شربات». قال: «أنت جئت من بعيد».

«أوروبا».

«أوروبا! آه».

«كيف عرفت بذلك؟».

ابتسم الرجل العجوز ابتسامة عريضة. «الطريقة التي تتحدث بها اللغة». تطلّع في وجه روب. «سوف تتعلم التحدث بشكل أفضل، أنا متأكد. كيف هو الحال لّما تكون يهوديًا في أوروبا؟».

لم يعرف روب كيف يجيب، ثم فكّر فيما قاله زيفي. «من الصعب أن تكون يهوديًّا».

أومأ سلمان برأسه بجدية.

«كيف هو الحال لّما تكون يهوديًا في أصفهان؟».

«أوه، الأمر ليس سيئًا هنا. أمر الناس في القرآن أن يسبّوننا، ولذلك يتنابزون بالألقاب علينا. إلا أنهم اعتادوا علينا ونحن تعودنا عليهم». قال سلمان: «كان هناك دائمًا يهود في أصفهان. بدأت المدينة بواسطة نبوخذ نصر، الذي -حسب الأسطورة- وطّن اليهود هنا بعد أسرهم لّما غزا مملكة يهوذا ودمّر أورشليم. وبعد ذلك، بعد تسعمئة عام، افتتنَ شاه يدعى يزدجيرد بجمال امرأة يهودية كانت تعيش هنا، تدعى شوشان-دخت، وجعلها ملكته. لقد سهّلت الأمور على شعبها، واستوطن المزيد من اليهود في هذا المكان».

أخبر روب نفسه أنه لم يكن بإمكانه اختيار قناع أفضل؛ بل يمكن أن يندمج بينهم مثل نملة في عش النمل، بمجرد أن يعرف عاداتهم.

حتى أنه بعد العشاء، رافق صاحب الحانة إلى بيت السلام، واحد من عشرات المعابد اليهودية. كان مبنى مربعًا من الحجر القديم امتلأت شقوقه بطحالب بنية ناعمة، على الرغم من عدم وجود رطوبة في المكان. كان المبنى يحتوي على كوات ضيقة فقط بدلًا من النوافذ، وباب منخفض

للغاية لدرجة أن روب اضطرّ إلى الانحناء للدخول. ثمة ممر مظلم يؤدي إلى الداخل، حيث أظهرت المصابيح أعمدة تدعم سقفًا مرتفعًا ومظلمًا للغاية بحيث لا تستطيع عيناه رؤيته. جلس الرجال في الجزء الرئيس، في حين أن النساء كن يجلسن خلف جدار في مكان صغير على جانب المبنى. وجد روب أنه من الأسهل أداء صلاة المعاريف في المعبد اليهودي مقارنة برفقة عدد قليل من اليهود الموجودين في القافلة. وها يوجد هناك مرتل القدّاس لإمامة الصلاة وجمع من المصلين بأكمله يتمتمون أو ينشدون حسبما يختار كل فرد على حدة، لذلك انضم إلى المصلين الذين يتأرجحون مع وعي أقل بذاته حول لغته العبرية الركيكة وحقيقة أنه في كثير من الأحيان لا يستطيع الاستمرار في الصلوات.

في طريق العودة إلى النزل، ابتسم سلمان له بدهاء. «ربما يرغب في بعض المتعة، شاب مثلك، أليس كذلك؟ في الليل هنا تنبض الميادين، الساحات العامة في الأحياء الإسلامية من المدينة، بالحياة. توجد نساء وخمور وموسيقا ووسائل ترفيه مثل التي لا يمكنك تخيلها، يا راباي يسي».

إلا أن روب هزّ رأسه. قال: «قد أرغب في ذلك، مرة أخرى. الليلة أبقي ذهني صافيًا، لأنني غدًا أجري صفقة ذات أهمية قصوى».

في تلك الليلة لم ينم بل تقلّب واستدار متسائلًا عما إذا كان ابن سينا رجلًا يمكن للمرء أن يتحدث معه بسهولة.

وفي الصباح، وجد حمامًا عامًّا، وهو بناية من حجر القرميد مبنية على نبع طبيعي دافئ. وبقطعة من الصابون الصلب والأقمشة النظيفة، فرك جسمه حتى يتخلص من أوساخ السفر المتراكمة، ولمّا جفّ شعره، أخذ شفرة جراحية وشذّب لحيته، وهو يحدق في انعكاس صورته في مربعه الفولاذي المصقول. صارت لحيته كثيفة، واعتقد أنه بدا يهوديًّا حقيقيًّا.

ارتدى القفطان الأفضل من بين القفطانين خاصته. وضع قبعته الجلدية مباشرة على رأسه، ونزل إلى الشارع وطلب من رجل ذي أطراف ضعيفة أن يوجهه إلى مدرسة الأطباء.

«تقصد المدرسة، مكان التدريس؟» قال المتسول: «المدرسة بجوار المستشفى. في شارع يسمى شارع «علي» قرب مسجد الجمعة وسط المدينة». في مقابل قطعة نقدية، دعى له الرجل الأعرج أن يحظى ببركة الإنجاب حتى الجيل العاشر.

لقد كانت مسافة مشي طويلة. أتيحت له الفرصة لملاحظة أن أصفهان كانت مكانًا للعمل، حيث لمح رجالًا يكدحون على حرفهم اليدوية، وصانعي الأحذية، والحدَّادين، والخزافين، وصنّاع العجلات، ونافخي الزجاج، والخياطين. مرّ بالعديد من البازارات التي بيعت فيها البضائع من شتى الأنواع. وفي النهاية وصل إلى مسجد الجمعة، وهو مبنى ضخم مربع الشكل به مئذنة رائعة ترفرف عليها الطيور. وخلف المسجد ثمة سوق يغلب عليه أكشاك الكتب وأماكن صغيرة لتناول الطعام، وعلى الفور رأى المدرسة.

وعلى الحدود الخارجية للمدرسة، التي تقع بين الكثير من المكتبات القائمة لتلبية احتياجات العلماء، كانت هناك بنايات طويلة ومنخفضة تحتوي على أماكن للمعيشة. وحول هذه البنايات كان الأطفال يركضون ويلعبون. انتشر الشباب في كل مكان، ومعظمهم يرتدون عمائم خضراء. شيّدت مباني المدرسة من كتل من الحجر الجيري الأبيض على غرار معظم المساجد. كانت المباني متباعدة على نطاق واسع تفصلها الحدائق. وتحت شجرة كستناء أو ما يعرف بـ«أبو فروة» ملأى بحبات الفاكهة الشائكة غير المفتوحة، جلس ستة شبان القرفصاء وراعوا انتباههم إلى رجل ذي لحية بيضاء يرتدي عمامة زرقاء.

تحرك روب على مهل بالقرب منهم. كان المحاضر يقول: «... القياس المنطقي عند سقراط. الافتراض يستدل على صحته منطقيًا انطلاقًا من حقيقة أن افتراضين آخرين صحيحان. على سبيل المثال، من حقيقة أن، واحدًا، كل الرجال فانون، وأن سقراط رجل، اثنان، يمكن الاستنتاج منطقيًّا أن سقراط، ثلاثة، فان».

تجهّم روب ومضى قدمًا، متأثرًا بالشك؛ كان هناك الكثير الذي لا يعرفه، والكثير الذي لم يفهمه.

توقف أمام مبنى عتيق جدًّا به مسجد متصل به ومئذنة جميلة ليسأل طالبًا يرتدي عمامة خضراء عن المبنى الذي يدرّس فيه الطب.

«المبنى الثالث. هنا يقومون بتدريس علم أصول الدين. المبنى المجاور، الشريعة الإسلامية. هناك حيث يقومون بتدريس الطب»، كما قال، وهو يشير إلى مبنى مقَبَّب من الحجر الأبيض. لقد كان مشابهًا إلى حد كبير للهندسة المعمارية السائدة في أصفهان لدرجة أن روب كان يفكر فيها على أنها الحلمة الكبيرة. وبجانبه كان مبنى ضخمًا من طابق واحد تعلن لافتته أنه البيمارستان، «المستشفى». وبدلًا من دخول المدرسة، صعد وهو مأسور درج الرخام الثلاث للبيمارستان وعبر بوابته المصنوعة من الحديد المطاوع.

كان هناك فناء في المنتصف يحتوي على مسبح تسبح فيه الأسماك الملونة، ومقاعد تحت أشجار الفاكهة. كانت الردهات تشع من الفناء مثل أشعة الشمس، مع غرف كبيرة قبالة كل ردهة. معظم الغرف كانت ممتلئة. لم ير قط هذا العدد الكبير من المرضى والجرحى يجتمعون في مكان واحد، وتجوّل في دهشة.

جمع المرضى حسب الإصابة بالمرض: هنا غرفة طويلة مليئة بالرجال

المصابين بكسور في العظام؛ هنا ضحايا الحمى؛ هنا - تنشق بأنفه، لأنه من الواضح أن هذه كانت غرفة مخصصة لمرضى الإسهال وأمراض أخرى ذات صلة بالجهاز الهضمي.

ومع ذلك، حتى في هذه الغرفة لم يكن الجو خانقًا كما كان متوقعًا، لأنه كانت هناك نوافذ كبيرة، فضلًا عن تدفق الهواء الذي يعترض سبيله فقط الأقمشة الخفيفة التي تمددت فوق النوافذ لإبعاد الحشرات. لاحظ روب وجود فتحات أعلى وأسفل إطار الأبواب بحيث يمكن تثبيت المصاريع في مكانها خلال فصل الشتاء.

كانت الجدران مطلية باللون الأبيض والأرضيات كانت من الحجر، مما سهّل التنظيف وجعل المبنى باردًا مقارنة بالحرارة اللافحة بالخارج.

وفي كل غرفة، ثمة نافورة صغيرة يتدفق منها الماء!

توقف روب لبرهة أمام باب مغلق، مثبتًا عليه لافتة: دار المارافطان، «عنبر أولئك الذين يتطلب تقييدهم بالسلاسل». ولمّا فتح الباب رأى ثلاثة رجال عراة، حليقة رؤوسهم ومقيدة أذرعهم، مكبلين بالسلاسل في نافذة من أطواق حديدية مثبتة حول أعناقهم. تدلت رؤوس اثنين منهم نائمين أو فاقدي الوعي، في حين أن الرجل الثالث حدّق به وبدأ يعوي مثل الحيوان، والدموع تبلل وجنتيه المرتخيتين.

«أنا آسف»، قال روب بلطف، وترك المجانين. جاء إلى قاعة المرضى الذين خضعوا للعمليات الجراحية واضطرّ لمقاومة الإغراء بالتوقف عند كل سرير ورفع الضمادات لفحص جذوع مبتوري الأطراف وجروح المصابين.

أن تتعرض لهذا العدد الكبير من المرضى المثيرين للاهتمام كل يوم، وأن تتعلم على أيدي رجال عظماء! كان يعتقد أن الأمر يشبه قضاء حياة المرء

المبكرة في دشت-كوير (صحراء الملح الكبرى)، ثم تكتشف أنك تمتلك واحة.

كانت اللافتة الموجودة على مدخل القاعة التالية تفوق فارسيته المحدودة، إلا أنه لّما دخلها كان من السهل ملاحظة أنها مخصصة لأمراض العيون وإصاباتها.

وفي مكان قريب، ممرض قوي البنية خانته شجاعته أمام طبيب سليط اللسان.

قال الممرض: «لقد كان خطأ، يا سيد كريم هارون. ظننت أنك طلبت مني إزالة ضمادات إسويد عمر».

قال الرجل الآخر باشمئزاز: «يا لك من أحمق». كان شابًّا نحيفًا رياضيًّا، ورأى روب بدهشة أنه كان يرتدي العمامة الخضراء لطالب، لأن أسلوبه أكد أنه أسلوب طبيب امتلك أرضية المستشفى التي داسها بأقدامه. لم يكن أنثويًّا بأي شكل من الأشكال، إلا أنه كان وسيمًا بشكل أرستقراطي، أجمل رجل رآه روب على الإطلاق، كان شعره أسود لامعًا وعيناه بنيتان غائرتان تبرقان بغضب. «لقد كان خطأك، يا رومي. قلت لك أن تغير ضمادات كورو يزيدي، لا ضمادات إسويد عمر. عالج الأستاذ الجوزجاني عيني إسويد عمر بنفسه وأمرني أن أرى أن ضماداته لم تفسد لمدة خمسة أيام. لقد أسندت الأمر لك وفشلت في إطاعته، أيها القذر. لذلك، إذا عجز إسويد عمر عن الرؤية بأقصى درجات الوضوح، وإذا صبّ الجوزجاني غضبه عليَّ، فسوف أقطع مؤخرتك الكبيرة مثل لحم الضأن المشوي».

لاحظ روب، وهو يقف هناك مدهوشًا ومتجهم الوجه. «ما الذي تريده؟».

«التحدث مع ابن سينا بخصوص الالتحاق بمدرسة الأطباء».

«لا ريب أنك سوف تتحدث معه. لكن شيخ الأطباء لا ينتظرك؟».

«لا».

إذًا يجب أن تذهب إلى الطابق الثاني من المبنى المجاور وترى الحاج دافوت حسين، نائب مدير المدرسة. المدير هو روتون بن نصر، ابن عم الشاه من بعيد ولواء في الجيش، الذي يقبل هذا الشرف ولا يحضر إلى المدرسة أبدًا. الحاج دافوت حسين هو الذي يتولى الإدارة، هو من يجب أن تراه». ثم عاد الطالب المسمى كريم هارون إلى المرمض وهو متجهم الوجه. «والآن، هل تعتقد أنه يمكنك تغيير ضمادات كورو يزيدي، يا عديم الفائدة؟».

كان بعض طلاب الطب على الأقل يعيشون في الضرع الأكبر، لأن ردهة الطابق الأول المظلمة كانت مليئة بحجيرات صغيرة. ومن خلال باب مفتوح بالقرب من درج النزول، رأى روب رجلين بدا أنهما يبضعان كلبًا أصفر ملقى على الطاولة، من المحتمل أنه كلب نافق.

وفي الطابق الثاني، طلب من رجل يرتدي عمامة خضراء أن يوجهه إلى الحاج ودلّه، في النهاية، إلى غرفة مكتب دافوت حسين.

كان نائب الرئيس رجلًا قصيرًا ونحيفًا، وليس عجوزًا، وكانت تكتنفه مسحة من الأهمية الذاتية، وكان يرتدي سترة من ثياب رمادية جيدة، وعمامة بيضاء لمن شقّ طريقه إلى مكة. كانت عيناه قاتمتين قليلًا وعلى جبهته زبيبة مميزة للغاية تشهد على حماسة تقواه وورعه.

وبعد أن تبادلا السلام، استمع إلى طلب روب وفحصه بدقة. «هل أتيت من إنجلترا، تقول؟ من أوروبا؟ ... آه، أي جزء من أوروبا هذا؟».

«الشمال».

«شمال أوروبا. كم من الوقت استغرقت للوصول إلينا؟».

«ليس أقل من سنتين، يا حاج».

«سنتان! رائع. هل أباك طبيب، خريج مدرستنا؟».

«أبي؟ لا، يا حاج».

«ممم؟ عم أو خال، ربما؟».

«لا. سأكون الطبيب الأول في عائلتي».

قطّب حسين جبينه. هنا لدينا علماء من نسل عائلات عريقة من الأطباء. هل لديك خطابات تعريف، أيها الذمي؟»

«لا، يا سيدي حسين». تصاعدت وتيرة الرعب داخله. «أنا حلاق جراح، لقد تلقيت بالفعل بعض التدريب...».

«لا توجد توصيات من بعض خريجينا المتميزين؟» سأل حسين مندهشًا.

«لا».

«نحن لا نقبل أي شخص من أجل التعليم لمجرد أنه يظهر بمظهر ما».

«هذه ليست نزوة عابرة. لقد قطعت مسافة رهيبة بسبب إصراري على أن أتدرب في الطب. لقد تعلمت لغتكم».

«ليس جيدًا، إن جاز القول». تنشّق الحاج. «بإيجاز، نحن لا ندرب في الطب. نحن لا نخرّج حرفيين، بل نصنع رجالًا متعلمين. يتعلم طلابنا علم أصول الدين والفلسفة والرياضيات والفيزياء وعلم الفلك وفقه القانون

بالإضافة إلى الطب، وفور تخرجهم كعلماء ومفكرين ذوي خبرات جمة، قد يختارون وظائفهم في التدريس أو الطب أو القانون».

انتظر روب وقد استولى عليه شعور بالانحطاط.

«بالتأكيد يجب أن تفهم؟ مستحيل».

لقد فهم منذ ما يقرب من عامين.

وهو يدير ظهره لماري كولين.

يتصبب عرقًا تحت أشعة الشمس الحارقة، يرتجف في الثلوج الجليدية، تضربه العواصف والأمطار. عبر صحراء الملح والغابات الغادرة. يكدح مثل نملة دامية فوق جبل بعد جبل.

قال بحزم: «لن أغادر دون أن أتحدث مع ابن سينا».

أفغر الحاج دافوت حسين فاهًا، إلا أن رأى شيئًا في عيني روب جعله يغلقه. شحب وجهه وأومأ برأسه بسرعة. قال: «من فضلك انتظر هنا»، وغادر الغرفة.

جلس روب هناك بمفرده.

وبعد فترة زمنية، جاء أربعة جنود. لم يكن أي منهم ضخمًا مثله، إلا أنهم كانوا مفتولي العضلات. كانوا يحملون هراوات خشبية قصيرة وثقيلة. كان أحد الجنود بوَجْهه بَثْرٌ واستمر يضرب هراوته براحة يده اليسرى اللحمية.

«ما اسمك، أيها اليهودي؟» سأل الرجل الذي بوَجْهه بَثْرٌ، بطريقة تفتقد إلى الأدب.

«أنا يسي بن بنيامين».

«أجنبي، أوروبي، كما قال الحاج؟».

«نعم، من إنجلترا. مكان على بعد مسافة كبيرة من هنا». أومأ الجندي برأسه. «ألم ترفض المغادرة بناء على طلب الحاج؟»

«هذا صحيح، ولكن».

«حان وقت الرحيل الآن، أيها اليهودي. معنا».

«لن أغادر دون أن أتحدث مع ابن سينا».

لوّح المتحدث بهراوته.

ليس أنفي، فكر في حسرة.

لكن الدماء بدأت تتدفق على الفور، وكان الأربعة جميعًا يعرفون أين وكيف يستخدمون الهراوات بكفاءة اقتصادية. حاصروه حتى لا يتمكن من التلويح بذراعيه.

«إلى الجحيم!» قال باللغة الإنجليزية. لم يكن بإمكانهم الفهم ولكن الأسلوب كان واضحًا جليًّا، وكانوا يضربون بقوة. مزّقت إحدى الضربات صدْغه وأصيب فجأة بالدوار والغثيان. حاول على أقل تقدير أن ينجح في التقيؤ في غرفة مكتب الحاج، إلا أن الألم كان شديدًا.

كانوا يعرفون مهامهم جيدًا. ولمّا لم يعد يمثل تهديدًا، توقفوا عن استخدام الهراوات كي يشبعوه ضربًا بمهارة شديدة بقبضاتهم.

أجبروه على الخروج من المدرسة، وكان أحدهم يحمله من تحت ذراعيه. كان لديهم أربعة خيول بنية كبيرة مقيدة بالخارج وامتطوا صهوة خيولهم في حين أنه كان يترنح بين اثنين من المطايا. وكلما سقط وهو ما حدث ثلاث مرات ترجّل أحدهم عن مطيته وركله بقوة في ضلوعه حتى

نهض واقفًا على قدميه. لقد بدت مسافة طويلة، إلا أنهم تجاوزوا أراضي المدرسة إلى مبنى صغير من حجر القرميد، متهالك وغير جذّاب، وهو جزء من أقل فرع في نظام المحاكم الإسلامية، كما سيعرف. وفي الداخل، لم يكن هناك سوى طاولة خشبية، خلفها رجل يجلس القرفصاء، ذو شعر كثيف، ولحية كثة، ويرتدي عباءة رجل الدين سوداء اللون لا تختلف عن قفطان روب. كان بصدد فتح ثمرة بطيخ.

قاد الجنود الأربعة روب إلى الطاولة ووقفوا باحترام جم في حين أن القاضي استخدم ظفرًا متسخًا لكشط البذور من البطيخ في وعاء فخاري. ثم قطّع البطيخ وأكله ببطء. ولمّا انتهى، مسح يديه أولًا ثم السكين على عباءته واستدار نحو مكة وشكر الله على الطعام.

وبعد أن انفتل من دعواته، تنهّد ونظر إلى الجنود.

قال الجندي الذي بوَجْهه بَثْرٌ: «يهودي أوروبي مجنون عكّر صفو الهدوء العام، يا مفتي. أخذناه بناء على شكوى الحاج دافوت حسين، الذي هدده بارتكاب أعمال عنف».

أومأ المفتي برأسه وأزال ما علق من البطيخ من بين أسنانه بظفر. نظر إلى روب وقال: «أنت لست مسلمًا، والتهمة موجهة لك من مسلم. لا تقبل كلمة الكافر على أحد المؤمنين. هل من مسلم لديك يتكلم دفاعًا عنك؟».

حاول روب التحدث بصوت أجش، إلا أنه لم يصدر أي صوت، على الرغم من التواء ساقيه مع هذا الجهد. شدّه الجنود منتصبًا.

«لماذا تتصرف مثل الكلب؟ آه، حسنًا. كافر، بعد كل شيء، غير معتاد على عاداتنا. لذلك، الأمر يتطلب الرحمة. قال المفتي للجنود: «يجب عليكم تسليمه ليبقى في «الكاركان» حسب تقدير «كيلونتر».

أضاف هذا الموقف كلمتين إلى مفردات روب الفارسية، واللتين فكرا فيهما لّما قام الجنود بشبه سحبه من المحكمة ثم اقتادوه مرة أخرى بين مَطاياهم. لقد خمّن بشكل صحيح على أحد التعريفات؛ على الرغم من أنه لم يكن يعرف ذلك آنذاك، «كيلونتر»، الذي افترض أن يكون سجّانًا من نوع ما، كان قائد الشرطة العسكرية في المدينة. لّما وصلوا إلى سجن كبير وكئيب، اعتقد روب أن «الكاركان» تعني السجن بالتأكيد. وفي الداخل، سلمه الجندي الذي بوَجْهه بَثْرٌ إلى اثنين من الحراس الذين دفعوه بقوة أمام الزنازين الحصينة التي تفوح منها رائحة الرطوبة الكريهه، إلا أنهم خرجوا في النهاية من عتمة الظلام الذي خيّم على المكان الذي يخلو من النوافذ إلى فناء داخلي مفتوح مضاء بنور النهار الساطع حيثما يوجد صفان طويلان من قضبان آلات التعذيب التي يقبع في أغلالها أولئك الذين يتأوهون أو يغيبون عن الوعي في أقسى درجات البؤس الإنساني. سار به الحراس على طول الصف حتى وصلوا إلى آلة فارغة، فتح أحدهم قفلها.

«أولج رأسك وذراعك الأيمن في «الكاركان»»، أمر أحد الحرّاس.

كانت الغريزة والخوف هما سبب تراجع روب للوراء، إلا أنهم كانوا على صواب لّما فسّروا ذلك تلقائيًّا على أنه مقاومة.

ضربوه حتى سقط ثم بدؤوا بركله كما فعل الجنود. لم يكن بإمكان روب أن يفعل شيئًا سوى أن يطوي نفسه في شكل كرة لإخفاء ما بين فخذيه ويطوّق ذراعيه لحماية رأسه.

ولّما انتهوا من ضربه بضراوة، زجّوه وتقاذفوه بينهم مثل جوال من الطعام حتى ثبت عنقه وذراعه اليمنى في موضعهما، ثم أغلقوا النصف العلوي الثقيل من «الكاركان» وأقفلوه بالمسمار قبل أن يتركوه، فاقدًا للوعي أكثر من عدمه، ليتدلى يائسًا وعاجزًا تحت الشمس اللاهبة.

38

الخلْعة

لقد كانت قضبان آلات تعذيب غريبة بالفعل، مصنوعة من مستطيل ومربعين من الخشب مثبتين في مثلث، استحوذ مركزه على رأس روب بحيث كان جسده الجاثم نصف معلق. كانت يده اليمنى، اليد التي يأكل بها الطعام، مثبتة على نهاية أطول قطعة ومربوط سوار خشبي بمسمار على معصمه، لأنه أثناء التواجد في الكاركان لا يطعم السجين. كانت اليد اليسرى، يد النظافة، غير مقيدة، لأن الكيلونتر كان متحضرًا.

كان يتحرك على فترات فاصلة بكامل وعيه ليحدق في الصف المزدوج الطويل من قضبان آلات التعذيب، حيث كل قضيب يقبع داخله شخص بائس. وعلى مرمى بصره في صفه في النهاية الأخرى للفناء كان هناك كتلة خشبية كبيرة.

وذات مرة رأى في منامه الناس والشياطين وهم يرتدون عباءات سوداء. جثا رجل على ركبتيه ووضع يده اليمنى على الكتلة؛ وتمايل أحد الشياطين بسيف كان أكبر وأثقل من السيف الإنجليزي المقوس وخلعت اليد عند الرسغ في حين أن الآخرين الذين كانوا يرتدون العباءات كانوا يصلون.

تكرر نفس الحلم مرارًا وتكرارًا في الشمس الحارقة. مع ثمة اختلافات. جثا رجل على ركبتيه حتى أصبح ظهر عنقه على الكتلة وعيناه منتفختان تحدقان في السماء. كان روب يخشى أن يقطعوا رأسه، إلا أنهم سحبوا لسانه.

ولمّا فتح روب عينيه بعد ذلك، لم يرَ أشخاصًا ولا شياطين، ولكن على الأرض وعلى الكتلة كانت هناك بقع طازجة مثل التي تتركها الأحلام.

كان يؤلمه الكاركان وهو يتنفس. لقد تعرض لأكبر قدر من الضربات في حياته ولم يستطع معرفة ما إذا كانت هناك كسور في العظام أم لا.

تدلى في الكاركان وبكى بضعف، محاولًا أن يصمت على أمل ألا يرمقه أحد.

وفي النهاية حاول تخفيف محنته من خلال التحدث إلى المجاورين له، الذين كان بإمكانه فقط رؤيتهم من خلال استدارة رأسه. لقد كان جهدًا مؤلمًا وتعلم عدم القيام به دون قصد، لأن جلد رقبته سرعان ما يفرك بالخشب الذي يقيده. وعلى يساره كان هناك رجل ضرب حتى صار فاقدًا للوعي ولم يتحرك؛ فحصه الشاب الذي عن يمينه بفضول لكنه كان إما أصم أبكم، أو غبيًّا بشكل لا يصدق، أو غير قادر على فهم فارسيته الركيكة. وبعد عدة ساعات لاحظ أحد الحراس أن الرجل الذي عن يساره قد فاضت روحه. سحبوه بعيدًا ووضعوا آخر مكانه.

وبحلول منتصف النهار، ارتخى لسان روب وبدا وكأنه يملأ فمه. لم يشعر بحاجة إلى التبول أو التغوط، لأن الشمس قد امتصت كل الإفرازات منذ فترة طويلة. وفي بعض الأحيان كان يعتقد نفسه عاد مرة أخرى إلى الصحراء وفي لحظات الاستفاقة تذكر بوضوح شديد وصف لونزانو لكيفية وفاة الإنسان من العطش، واللسان المتورم، واللثة السوداء، والاعتقاد بأنه كان في مكان آخر.

أدار روب رأسه في الحال والتقت عيناه بعيني السجين الجديد. تفحصا بعضهما بعضًا ورأى وجهًا منتفخًا وتشمم فمًا كريه الرائحة.

«ألا يوجد من نطلب منه الرحمة؟» همس.

انتظر الآخر، وربما تحيّر بسبب لهجة روب. قال أخيرًا: «الله موجود». لم يكن من السهل فهمه بسبب شفاه المتشققة.

«لكن لا أحد هنا؟».

«أنت أجنبي، أيها الذمي؟».

«نعم».

وجّه الرجل كراهيته لروب. «هل رأيت الملا، أيها الأجنبي. الرجل المقدس الذي أصدر الحكم عليك». بدا أنه فقد الاهتمام وأدار وجهه بعيدًا.

كان انحسار الشمس نعمة. كان المساء يحمل نسمات هواء عليلة تبعث البهجة في النفس. كان جسده مخدرًا ولم يعد يشعر بألم عضلي؛ ربما كان يحتضر.

وفي الليل تحدث الرجل المجاور له مرة أخرى. قال الرجل: «هناك شاه، أيها اليهودي الأجنبي».

انتظر روب.

«الأمس، يوم تعذيبنا، كان يوم الأربعاء، چهار شنبه. اليوم هو پَنج شنبه. وفي كل أسبوع في صباح پنج شنبه، من أجل محاولة تطهير الروح بشكل كامل قبل الجمعة، ٱلسَّبْت عند اليهود، يجتمع علاء الدولة شاه مع الجمهور ويتحدث معهم ويمكن لأي شخص أن يتقدم خلال هذا الاجتماع من عرشه في قاعة الأعمدة ليشتكي من مظلمة وقعت عليه».

لم يستطع روب كبح ثورة الأمل المتردد. «أي واحد؟».

«أي واحد. حتى السجين قد يطلب إحضاره لعرض قضيته أمام الشاه».

«لا، لا يجب عليك!» صاح صوت في الظلام. لم يستطع روب معرفة أي كاركان يأتي منه الصوت.

قال صاحب الصوت المجهول: «يجب أن تخرج ذلك من عقلك. لأن الشاه لا ينقض حكم المفتي أو يسقط الحكم. والملالي ينتظرون بفارغ الصبر عودة أولئك الذين يبددون وقت الشاه بالألسنة الثرثارة. عندها تقطع الألسنة وتشق البطون، كما يعلم هذا الشيطان بالتأكيد، ابن العاهرة الشرير هذا الذي يعطيك نصائح كاذبة. يجب أن تضع إيمانك في الله وليس في علاء شاه».

كان الرجل الذي عن يمينه يضحك بمكر، وكان يضحك كما لو كان مأسورًا بمزحة حقيقية.

قال صاحب الصوت المنبعث من الظلام: «لا أمل». تحولت نشوة جاره إلى نوبة من السعال والأزيز. فلمّا التقط أنفاسه قال الرجل بشراسة: «نعم، قد نبحث عن الأمل والرجاء في الجنة». لم ينبس أحد ببنت شفة مرة أخرى.

وبعد أربع وعشرين ساعة قضاها روب في الكاركان، أطلق الحراس سراحه. حاول الوقوف لكنه سقط واستلقى متألمًا لأن الدماء عادت إلى عضلاته.

قال أحد الحراس أخيرًا: «اذهب»، وركله.

جاهد حتى وقف على قدميه وخرج من السجن وهو يعرج مسرعًا من ذلك المكان. مشى إلى ميدان كبير يعج بأشجار الدلب ونافورة يتدفق منها الماء ظل يشرب منها ويشرب، مستسلمًا للعطش الذي لا ينتهي. ثم غطّس رأسه في الماء حتى سمع طنين أذنيه وشعر أنه اغتسل من رائحة السجن.

كانت شوارع أصفهان مزدحمة ورمقه الناس بنظراتهم لمّا مرّوا به.

ثمة بائع قصير بدين يرتدي سترة رثة ومهترئة يهوّي الذباب من قدر يطهو فيه الطعام على مجمرة في عربته التي يجرها حمار. سببت الرائحة المنبعثة من القدر مثل هذا الضعف الذي أصاب روب بالخوف. إلا أنه لمّا فتح كيس نقوده، بدلًا من احتوائه على الأموال الكافية التي تكفيه لبضعة أشهر، كان يحتوي على عملة برونزية صغيرة.

لقد سرقت نقوده وهو فاقد الوعي. سبّ بشدة، ولم يعرف ما إذا كان اللص هو الجندي الذي بوجهه بثر أم حارس السجن. كانت العملة البرونزية ضربًا من التهكم والسخرية، مزحة ساخرة من جانب اللص، أو ربما تركت بدافع الحس الديني الملتوي للصدقة. أعطاها للبائع، الذي اغترف جزءًا صغيرًا من أرز بيلاه الدبق. كان الأرز حارًا ويحتوي على حبات من الفاصوليا وقد ابتلعه على عجل، أو ربما كان جسده قد أرهقه الحرمان والشمس والكاركان. وفي الحال تقريبًا أفرغ ما في معدته في الشارع المترب. كانت رقبته تنزف حيثما خضع للتعذيب من خلال قضبان آلة التعذيب وكان هناك آثار ضرب خلف عينيه. انتقل إلى الظل تحت شجرة من أشجار الدلب ووقف هناك يفكر في إنجلترا الخضراء، وحصانه الخاص وعربته التي احتفظ فيها بنقوده تحت ألواح الأرضية، ومسيز بافينجتون بجانبه ترافقه.

بلغ الازدحام أشده الآن، وتدفق طوفان من الناس عبر الشارع، وكلهم يتجهون في نفس الاتجاه.

«إلى أين هم ذاهبون؟» سأل بائع الطعام.

«إلى لقاء الشاه»، قال الرجل وهو يحدق بارتياب في اليهودي الذي تعرض للضرب حتى ابتعد روب.

لمَ لا؟ سأل نفسه. هل كان لديه خيار آخر؟

انضم إلى المد الذي اجتاح شارع «علي وفاطمة»، وعبر طريق «الألف حديقة» المكون من أربع حارات، ثم تحول إلى الطريق المشجر النظيف الذي يميّز بوابات الفردوس. كان السائرون صغارًا وكبارًا وبين هؤلاء وأولئك، ومن بينهم الحجيج الذين يرتدون عمائم بيضاء، والطلاب الذين يرتدون عمائم خضراء، والملالي، والشحاذون الذين يرتدون أسمالًا بالية وعمائم مهلهلة من شتى الألوان، وآباء في ريعان الشباب يحملون أطفالًا، وحمالون يحملون كراسي نقّالة، ورجال يمتطون ظهور الخيول والحمير. وجد روب نفسه يسير خلف جماعة من اليهود يرتدون قفاطين سوداء وكان يعرج خلفهم مباشرةً، مثل إوزة شاردة.

لقد مروا عبر الرطوبة الطفيفة للغابات الاصطناعية، لأن الأشجار لم تكن وفيرة في أصفهان، وبعد ذلك، على الرغم من أن الأشجار كانت لا تزال جيدة داخل أسوار المدينة، وتجاوزا العديد من الحقول التي ترعى فيها الأغنام والماعز، مما يفصل الملوك عن مدينتهم. والآن اقتربوا من عشب أخضر كبير فيه عمودان حجريان في كلا الطرفين مثل البوابات. لمّا ظهر المنزل الأول في الديوان الملكي للعيان، اعتقد روب أنه القصر، لأنه كان أكبر من منزل الملك في لندن. ولكن كان هناك منزل بعد منزل بنفس الحجم، معظم هذه المنازل مبنية من القرميد والحجر، والعديد منها يتضمن أبراج وأروقة ولكل منها شرفات وحدائق واسعة. مروا بكروم العنب وإسطبلات ومضمارين للسباق وبساتين ومقصورات داخل الحدائق فيها لمسة من هذا الجمال وأراد أن يترك الحشود ويتجول في هذا الجمال المعطر، إلا أنه كان يعلم أنه ممنوع بلا شك.

ثم مبنى هائل للغاية، وفي الوقت نفسه أنيق للغاية لدرجة أنه لم يصدق، كل الأسقف على شكل أثداء والأسوار المنيعة التي يخطوا عليها الحراس

ذوو الخوذ والدروع المتلألئة تحت رايات ملونة طويلة ترفرف في النسيم.

أمسك أكمام الرجل الذي أمامه، وهو يهودي ممتلئ الجسم لاح ثوبه التحتاني المهدب من قميصه. «ما هي الخلعة؟».

«لماذا الفردوس هو موطن الشاه!» حدّق الرجل في وجهه بقلق. «أنت ملطخ بالدماء، يا صديقي».

«لا شيء، حادث صغير». تدفقوا على طريق قريب طويل، ولمّا اقتربوا من هناك رأى أن الجناح الرئيس من القصر محمي بخندق عريض. رفع الجسر المتحرك، ولكن على الجانب القريب من الخندق، بجوار ساحة كانت بمثابة بوابة القصر العظيمة، كانت هناك قاعة دخل من خلالها الحشد.

كان في الداخل مساحة تبلغ نصف مساحة كاتدرائية القديسة آيا صوفيا في القسطنطينية. كانت الأرضية من الرخام؛ كانت الجدران والأسقف العالية من الحجر، المثقوب بمهارة حتى تسمح لضوء النهار يتسلل إلى الداخل على مهل. كانت هذه قاعة الأعمدة، حيث كانت توجد بجانب الجدران الأربعة أعمدة حجرية، مزخرفة بأناقة ومخددة. حيث التصق كل عمود بالأرض، نحتت قاعدته في شكل أرجل ومخالب مجموعة متنوعة من الحيوانات.

امتلأ نصف القاعة لمّا وصل روب، وعلى الفور دخل الناس من ورائه، وضغطوا عليه بين جماعة اليهود. صنعت الفواصل من الحبال المشدودة ممرات مفتوحة على طول القاعة. وقف روب وراقب، وهو يلاحظ كل شيء بحماس جديد، لأن الوقت الذي قضاه في الكاركان قد أثار إعجابه بأنه أجنبي؛ الأفعال التي كان يعتقد أنها طبيعية قد يعتبرها الفرس غريبة ومهددة، وكان يدرك أن حياته قد تعتمد على الفهم الصحيح

للكيفية التي يتصرفون بها والطريقة التي يفكرون بها.

ولاحظ أن رجالًا من الطبقة العليا يرتدون سراويل مطرزة وسترات وعمامات حريرية وأحذية مزركشة، دخلوا القاعة على ظهور الخيل عبر مدخل منفصل. جرى توقيف كل منهم مسافة ما يقرب من مئة وخمسين خطوة من العرش من قبل الحاضرين الذين أخذوا خيولهم مقابل عملة معدنية، ومن نقطة الامتياز هذه ساروا سيرًا على الأقدام بين الفقراء.

والآن يمر موظفون بسطاء يرتدون ملابس رمادية وعمامات بين الناس ويطلبون الحصول على هويات أولئك الذين لديهم عرائض التماس، وشقّ روب طريقه إلى الممر وتهجى اسمه بمشقة لأحد هؤلاء المساعدين، الذي سجله في رق رفيع وصغير وغريب المنظر.

دخل رجل طويل القامة إلى الجزء المرتفع في مقدمة القاعة، وفيه جلس على عرش كبير. كان روب بعيدًا جدًّا لرؤية التفاصيل، لكن الرجل لم يكن الشاه، لأنه جلس على عرش أصغر في الأسفل وعن يمين الكرسي الملكي.

«من هذا؟» سأل روب اليهودي الذي تحدث إليه من قبل.

«إنه الصدر الأعظم، الإمام ميرزا أبو قندراسه». نظر اليهودي إلى روب بانزعاج، لأنه لم يغب عن ملاحظته أنه مقدم التماس.

خطى علاء الدولة شاه خطواته على المنصة، وفك حزام السيف، ووضع الغمد على الأرض أثناء جلوسه على العرش. سجد كل من كان في قاعة الأعمدة سجود «روي زمين» (الوجه على الأرض) في حين أن الإمام قندراسه كان يستحضر نعمة الله على أولئك الذين يسعون إلى العدالة عند أسد بلاد فارس.

وفي الحال بدأ الاجتماع. لم يستطع روب أن يسمع بوضوح لا المتوسلين ولا الجالسين على العرش، على الرغم من الصمت الذي هبط فجأة. ولكن كلمّا تحدث رئيس المجلس، تكررت كلماته بأصوات عالية من قبل الآخرين المتمركزين في مواقع استراتيجية في القاعة، وبهذه الطريقة نقلت كلمات المشاركين بأمانة إلى الجميع.

وتتعلق الحالة الأولى باثنين من الرعاة الذين لفحهما الطقس من سكان قرية أردستان، وكانا قد سارا لمدة يومين للوصول إلى أصفهان لتسوية نزاعهما أمام الشاه. كانا في خلاف حاد حول ملكية عنزة جديدة. كان أحد الرجال يمتلك الأنثى، وهي ظبية كانت عاقرًا منذ فترة طويلة. قال الآخر إنه قد جهز الظبية من أجل الارتقاء الناجح بواسطة الماعز الذكر، وبالتالي ادعى الآن نصف ملكية العنزة.

«هل استخدمت أعمال سحرية؟» سأل الإمام.

قال الرجل: «فخامتك، لقد تمكنت من الوصول إلى الريشة وجعلتها ساخنة». وزأر الحشد وضربوا الأرض بأقدامهم. في لحظة أشار الإمام إلى أن الشاه الذي رأى أنها من حق صاحب الريشة.

لقد كانت ضربًا من التسلية والترفيه لمعظم الحاضرين. الشاه لم يتكلم قط. لعله نقل تمنياته إلى قندراسه بالإشارة، لكن بدا أن جميع الأسئلة والقرارات صادرة عن الإمام الذي لم يشتك من الحمقى.

قدم مدرس صارم، قد صفّف شعره ولحيته الصغيرة حليقة بطريقة مثالية، ويرتدي سترة مطرزة مزخرفة تبدو وكأنها ثياب مهملة لرجل ثري، التماسًا لإنشاء مدرسة جديدة في مدينة نائين.

«أليست هناك مدرستان بالفعل في مدينة نائين؟» سأل قندراسه بحدة.

أجاب المعلم بسلاسة: «إنها مدارس متواضعة يدرس فيها رجال غير جديرين بالاحترام، فخامتك». اندلعت همهمة طفيفة من الرفض بين الحشود.

استمر المعلم في قراءة الالتماس، الذي نصح فيه بتعيين مدير للمدرسة المقترحة، مع متطلبات مفصلة ومحددة وغير ذات صلة للوظيفة التي أثارت الضحك، لأنه كان من الواضح أن الوصف لن يناسب سوى القارئ نفسه .

قال قندراسه: «كفى». هذا الالتماس باطنه الخبث ومحاباة للذات، وبالتالي فهو إهانة للشاه. فليضرب هذا الرجل بالعصا عشرين مرة بمعرفة الكيلونتر (قائد الشرطة في المدينة)، إرضاءً لله.

ظهر الجنود وهم يلوحون بالهراوات، ورؤية هذا المشهد جعل كدمات روب تنبض، واقتيد المعلم بعيدًا، وهو يحتج بصوت عال.

ثمة متعة في القضية التالية - مسنان من البنلاء يرتديان ملابس حريرية باهظة الثمن وقد اختلفا في الرأي فيما يتعلق بحقوق الرعي. وقد أدى ذلك إلى ما بدا نقاشًا هادئًا مطولًا حول الاتفاقات القديمة التي أبرمها رجال ماتوا منذ زمن بعيد، في حين أنه تثاءب الجمهور الغفير وتهامسوا بشكاوى حول التهوية في القاعة المزدحمة والألم في أرجلهم المتعبة. لم يظهروا أي مشاعر لمّا صدر الحكم.

قال أحدهم: «دع يسي بن بنيامين، وهو يهودي من إنجلترا، يتقدم».

علق اسمه في الهواء ثم ارتد صدى الاسم من خلال القاعة كما تكرر مرارًا وتكرارًا. سار وهو يعرج على الممر الطويل المغطى بالسجاد، مدركًا قفطانه القذر الممزق وقبعة اليهودي المصنوعة من الجلد المتهالك والتي تتناسب مع وجهه الذي سيئت معاملته.

وأخيرًا، اقترب من العرش وأدى سجود «روي زمين» (الوجه على الأرض) ثلاث مرات، لأنه لاحظ أنه مناسب.

ولّما اعتدل من سجوده رأى الإمام يرتدي زي الملا الأسود، وكان أنفه حادًّا رفيعًا مثل بلطة مغروسة في وجه متصلب محاط بلحية خطّها الشيب.

كان الشاه يرتدي العمامة البيضاء لرجل متدين عاد من مكة، ولكن في ثناياها انزلق تاج ذهبي رفيع. كانت سترته البيضاء الطويلة من أقمشة ناعمة وخفيفة المظهر مزودة بخيوط زرقاء وذهبية. كانت الحواشي الزرقاء الداكنة تغطي أسفل ساقيه، وكان حذاؤه المدبب أزرق اللون مزركشًا باللون الأحمر القاني. بدا أبله وغافلًا، صورة رجل كان غافلًا لأنه كان يشعر بالملل.

قال الإمام: «إنجليزي. أنت في الوقت الراهن الإنجليزي الوحيد لدينا، الأوروبي الوحيد لدينا. لماذا أتيت إلى بلاد فارس؟».

«بصفتك باحثًا عن الحقيقة».

«هل ترغب في اعتناق الدين الصحيح؟» سأل قندراسه، بأدب جم.

«لا، لأننا متفقون بالفعل على أنه لا إله إلا هو الرحمن الرحيم»، قال روب، مباركًا الساعات الطويلة التي قضاها تحت رعاية التاجر الأكاديمي سيمون بن هاليفي. «إنه مكتوب في القرآن: وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتمْ، وَلَا أَنْتمْ عَابِدونَ مَا أَعْبد... لَكمْ دينكمْ وَلِيَ دين». ذكّر نفسه أنه يجب أن يكون مختصرًا.

وبطريقة منطقية وبالإقتصاد في كلامه، روى كيف كان في دغل من الأدغال غرب بلاد فارس لّما قفز عليه حيوان ضخم.

بدا أن الشاه بدأ في الإنصات له.

«في مسقط رأسي، لا وجود للفهود. لم يكن لدي أي سلاح، ولم أكن أعرف كيف أقاوم مثل هذا المخلوق».

حكى كيف أن علاء الدولة شاه أنقذ حياته، وهو صائد للقطط البرية مثل والده عبد الله شاه الذي ذبح أسد كاشان. بدأ أقرب الناس إلى العرش يصفقون لحاكمهم مع صيحات طفيفة حادة من الاستحسان. انتشرت الهممات في القاعة في حين أنه نقلت أجهزة إعادة الإرسال القصة إلى الحشود التي كانت بعيدة جدًّا عن العرش لتسمعها.

جلس قندراسه بلا حراك، لكن روب رأى في عينيه أن الإمام لم يكن مسرورًا بالقصة ولم يكن مسرورًا برد الفعل الذي أثارته في الجمهور.

قال بهدوء: «الآن أسرع، أيها الإنجليزي، وأعلن ما الذي تطلبه عند قدمي الشاه الشريف». أخذ روب نفسًا عميقًا. «بما أنه مكتوب أيضًا أن الشخص الذي ينقذ حياة إنسان فهو المسؤول عنها، أطلب مساعدة الشاه لجعل حياتي لها قيمة قدر الإمكان». وروى محاولته الفاشلة للقبول كطالب في مدرسة ابن سينا للأطباء.

انتشرت قصة الفهد الآن إلى زوايا القاعة البعيدة، واهتزت القاعة الكبيرة تحت الصوت المدوي للأقدام التي تضرب الأرض.

مما لا شك فيه أن علاء شاه كان معتادًا على الخوف والطاعة، لكن ربما كان قد مضى وقت طويل منذ هتفت الحشود له بشكل عفوي. من سيماء وجهه جاءه الصوت مثل أحلى موسيقا.

«هيهات!» انحنى الشاه الشريف إلى الأمام، وعيناه تلتمعان، وعلم روب أنه تذكره في حادثة مقتل النمر.

أبقى عينيه على روب للحظة ثم التفت إلى الإمام وتحدث لأول مرة منذ بداية الحضور.



قال: «أعطوا العبري خلعة».

لسبب ما، ضحك الناس.

قال الضابط الأشهب: «تعال معي». كان سيصبح رجلًا عجوزًا قبل عدة سنوات، إلا أنه لا يزال قويًا مفتول العضلات في الوقت الحالي. كان يرتدي خوذة قصيرة من المعدن المصقول، وسترة من الجلد على سترة عسكرية بنية، وصندل بسيور جلدية. كانت جروحه تتحدث عنه: كانت نتوءات جروح السيف الملتئمة بارزة تمامًا على ذراعيه البنيتين الضخمتين، وأذنه اليسرى مفلطحة، وفمه ملتوٍ بشكل دائم بسبب جرح مثقوب قديم أسفل عظام وجنته اليمنى.

قال: «أنا الخووف. قائد الحرس. أنا أضطلع بالأعمال اليومية الرتيبة مثلك». ذهبت عيناه إلى عنق روب المسحوج وابتسم. «الكاركان؟».

«نعم».

قال الخووف بإعجاب: «الكاركان اللعين».

غادرا قاعة الأعمدة وسارا نحو الإسطبلات. الآن في الحقل الأخضر الطويل، كان الرجال يركضون بخيولهم عدوًا مع بعضهم، وهم يجرون في حركات دائرية ويلوحون بأعمدة طويلة مثل عصي الراعي المعقوفة، لكن لم يسقط أحد.

«هل يسعون إلى ضرب بعضهم بعضًا؟».

«إنهم يسعون لضرب الكرة. إنها لعبة الكرة والعصا، مباراة فروسية رجالية». فحصه الخووف. «هناك الكثير لا تعرفه. هل تفهم ما معنى

الخلْعة؟».

هزّ روب رأسه.

«في العصور القديمة، لمّا يجد شخص ما حظوة في نظر ملك فارسي، كان الملك يزيل الخلعة، قطعة من ملابسه الخاصة، ويمنحها علامة على الرضا. لقد اندثرت هذه العادة عبر العصور كعلامة على الحظوة الملكية. الآن «الثوب الملكي يتكون من حياة، وطقمًا من الملابس، ومنزل، وحصان».

تحجّر شعور روب. «إذًا هل أنا غني؟».

ابتسم له الخووف لأنه اعتقد أنه أحمق.

«الخلْعة هي شرف فريد ولكنها تتنوع في فخامتها بشكل كبير. لو كنت سفير دولة كانت حليفًا وثيقًا لبلاد فارس في الحرب، كنت ستمنح أثمن الملابس، وقصرًا أقرب في روعته إلى الفردوس، وفرسًا رائعًا مرصعًا سرجه ولجامه بأحجار كريمة. لكنك لست سفيرًا».

خلف الإسطبلات كان يوجد حظيرة ضخمة تحيط بدوّامة من الخيول. لطالما قال الحلاق إنه عند اختيار الحصان، يجب على المرء أن يبحث عن حيوان برأس مثل الأميرة وظهر مثل ظهر عاهرة سمينة. رأى روب حصانًا رماديًّا يناسب الوصف تمامًا وله طابع ملكي إضافي في العينين.

«هل يمكنني الحصول على هذه المهرة؟» سأل وهو يشير إليها. لم يكلف الخووف نفسه عناء الإجابة على أنه حصان مملوك لأحد الأمراء، إلا أن ابتسامة ساخرة أحدثت أشياء غريبة في فمه الملتوي. أطلق قائد الحرس سراح حصان مسرج وامتطى صهوته. ركب روب على الظهر المصقول وانفصل بمهارة عن القطيع بحصان بني مخصي مناسب ولكن

بائس بسيقان قصيرة متينة وأكتاف قوية.

أظهر له الخووف نوعًا كبيرًا من زهور التوليب على فخذ الحصان القريب. «علاء شاه هو مربي الخيول الوحيد في بلاد فارس، وهذه هي شهرته. يمكن مقايضة هذا الحصان بآخر يحمل التوليب ولكن يجب عدم بيعه أبدًا. إذا مات، اقطع الجلد الذي يحمل العلامة وسأبادله بحصان آخر».

أعطاه الخووف محفظة تحتوي على عملات أقل مما قد يكسبه روب من خلال بيع الدواء السحري في عرض ترفيه واحد. وفي مستودع قريب، فتش قائد الحرس حتى وجد سرجًا صالحًا للخدمة من مخازن الجيش. كانت الملابس التي صرفت له جيدة على حد سواء ولكنها ملابس مدنية، وكانت تتألف من سراويل فضفاضة تربط بإحكام حول كل ساق خارج البنطال، مثل الضمادات التي ترتدى من الكاحل إلى الركبة؛ قميص فضفاض يسمى خميسة يتدلى من فوق البنطال بطول الركبة؛ وسترة تسمى الدرة؛ معطفان لفصول مختلفة، أحدهما قصير وخفيف والآخر طويل ومبطن بجلد الخراف؛ ودعامة عمامة مخروطية الشكل تسمى قلنسوة؛ وعمامة بنية.

«هل لديك عمامة من اللون الأخضر؟».

«هذا أفضل. العمامة الخضراء من الأقمشة الرخيصة والثقيلة يرتديها الطلاب، بل أفقر الفقراء».

«ومع ذلك أريد واحدة»، أصرّ روب وأعطاه الخووف العمامة الخضراء الرخيصة ورمقه بنظرة ساخرة شديدة.

قفز الخادم بعينين يقظتين لتنفيذ أمر القائد لمّا طلب حصانه الشخصي، والذي تبين أنه فحل عربي يشبه المهرة الرمادية التي كان روب يتوق إليها

بشدة. امتطى صهوة الحصان البني المخصي الهادئ وهو يحمل صرة من القماش ملأى بملابسه الجديدة، وركب خلف الخووف مثل ملاك الضياع، على طول الطريق إلى الحي اليهودي. لقد مضيا في طريقهما لفترة طويلة في الشوارع الضيقة في الحي اليهودي، حتى تمكن الخووف أخيرًا من كبح جماح الخيل أمام منزل صغير قديم من القرميد ذي اللون الأحمر الداكن. كان هناك إسطبل صغير، مجرد مظلة على أربعة أعمدة، وحديقة صغيرة فيها سحلية رمقت روب ثم اختفت في صدع في الجدار الحجري. وثمة أربعة أشجار مشمش ناضجة الثمار تلقي بظلالها على شجيرات شوكية يجب اجتثاثها. كان المنزل مكون من ثلاث غرف، واحدة بأرضية ترابية واثنتان بأرضيات من نفس القرميد الأحمر مثل الجدران، حتى تشكلت حفرات ضحلة بفعل أقدام عدة أجيال. كانت مومياء فأر جافة ملقاة في زاوية الغرفة ذات الأرضية الترابية والرائحة الكريهة المنبعثة من تحللها تفوح في الهواء.

قال الخووف: «هذا منزلك». هزّ رأسه مرة واحدة ثم ذهب بعيدًا.

حتى قبل أن يخبو صهيل حصانه، اصطكت ركبتا روب. غاص في الأرضية الترابية، ثم سمح لنفسه بالاستلقاء على ظهره ولم يبصر أكثر من الفأر الميت.

نام لمدة ثماني عشرة ساعة. لمّا استيقظ كان متشنجًا ومتألمًا، مثل رجل عجوز متجمد المفاصل. جلس في المنزل الذي خيّم عليه الصمت وشاهد ذرات الغبار في ضوء الشمس الذي يتألق من خلال فتحة الدخان في السقف. كان المنزل في حالة سيئة قليلًا -كانت هناك شقوق في الجص الطيني للجدران وكانت إحدى عتبات النوافذ آيلة للسقوط- لكنه كان أول مسكن يمتلكه حقًا منذ وفاة والديه.

في الحظيرة الصغيرة، وقف حصانه الجديد بلا ماء، وبلا طعام، ولا

يزال مثقلًا بالسرج. بعد أن أزال السرج وحمل الماء في قبعته من بئر عام قريب، أسرع إلى الإسطبل حيثما يمكثا بغله وحماره. اشترى دلوًا خشبيًّا، وتبن الدخن، وسلة من الشوفان وحملهم على الحمار إلى المنزل.

ولّما اعتنى بالحيوانات، أخذ الثياب الجديدة وسار باتجاه الحمامات العامة، وتوقف أولًا في نزل سلمان الأصغر.

قال لصاحب النزل القديم: «لقد جئت لأخذ أمتعتي».

«لقد ظلت أمتعتك ومتعلقاتك في أمان، على الرغم من أنني حزنت جدًّا على حياتك لّما مرت ليلتان ولم تعد». ذمي أجنبي، يهودي أوروبي، ذهب أمام الجمهور وفاز بخلعة من شاه بلاد فارس.

أومأ روب برأسه.

«هل كنت حقًّا؟» همس سلمان.

جلس روب متثاقلًا. «لم آكل منذ أن أطعمتني آخر مرة».

لم يضيع سلمان الوقت في وضع الطعام أمامه. حاول تناول الطعام بحذر شديد وبدأ بالخبز وحليب الماعز، وبعد ذلك، لم يشعر سوى أنه تضور جوعًا، وبالتدريج تناول أربع بيضات مسلوقة، وكمية أكبر من الخبز، وقطعة صغيرة من الجبن الصلب، وطبق من البيلاه. بدأت القوة تدب مرة أخرى في أطرافه.

وفي الحمامات نقع جسمه مدة طويلة، مما خفف من كدماته. ولّما ارتدى ثيابه الجديدة شعر وكأنه غريب، ولم يشعر أنه غريب كثيرًا كما شعر في المرة الأولى التي ارتدى فيها القفطان. كان يتعامل مع ربطات الساق بصعوبة، لكن لفّ العمامة يتطلب تعليمات، وفي الوقت الحالي احتفظ بقبعة اليهودي الجلدية.

ولمّا عاد إلى المنزل، تخلص من الفأر الميت وقيّم وضعه. كان ينعم بالرفاه والرخاء المتواضعين ولكن لم يكن هذا ما طلبه من الشاه، وشعر بتخوف غامض تبدد حاليًا بوصول الخووف، الذي لا يزال عابسًا، الذي فتح رقًا رفيعًا وشرع في قراءته بصوت عال.

الله

فرمان ملك العالم، صاحب الجلالة العظيم، صاحب السمو والشرف فوق الجميع؛ عظيم الألقاب، وأساس المملكة التي لا تتزعزع، الشريف، النبيل، الهمام؛ أسد بلاد فارس وأقوى سيد في الكون. موجه إلى حاكم، أصفهان، مقر الملكية ومسرح العلوم والطب. يجب أن يعرفوا أن يسي بن بنيامين، اليهودي والحلاق الجراح من بلدة ليدز في أوروبا، قد جاء إلى ممالكنا، التي تتمتع بأفضل نظام للحكم على وجه الأرض وملجأ معروف للمضطهدين، وكان له الحظوة والمجد للمثول أمام أعين الجلالة، ومن خلال التماس متواضع، يلتمس مساعدة القائم الحقيقي مقام النبي الصادق في الجنة، إلى الشاهد، سمو جلالتنا. يجب أن يعرفوا أن يسي بن بنيامين من بلدة ليدز مكفول له الحظوة الملكية وحسن النية، ومنح بموجب هذا لباسًا ملكيًّا مع مرتبة الشرف والإحسان وأن الجميع يجب أن يعاملوه وفقًا لذلك. يجب أن تعلموا أيضًا أن هذا الفرمان صدر على أساس أحكام عقابية صارمة وأن انتهاكه يعرّض لعقوبة الإعدام. حرر في اليوم الثالث من شهر رجب باسم جلالة الملك من قبل حاج الأماكن المقدسة الشريفة، ورئيس قصر نساء جلالته، الإمام ميرزا أبو قندراسه، الصدر الأعظم. من الضروري أن يتسلح المرء بنفسه فضلًا عن مساعدة الله العلي المتعالي في جميع الشؤون الدنيوية.

«لكن من المدرسة؟» لم يستطع روب مقاومة السؤال بصوت أجش.

قال قائد الحرس: «أنا لا أتعامل مع المدرسة» وغادر بسرعة كما جاء.

وبعد وقت قصير قام اثنان من الحمالين القويين بتوصيل كرسي نقال يحمل الحاج دافوت حسين وكمية من التين كعلامة على الحظ الجميل في المنزل الجديد إلى باب منزل روب.

جلسوا بين النمل والنحل على الأرضية في أنقاض حديقة المشمش الصغيرة وأكلوا التين.

قال الحاج: «إنها لا تزال أشجار مشمش ممتازة»، وفحصها بحكمة. وشرح بإسهاب كيف يمكن استعادة الأشجار الأربعة من خلال التقليم الجاد والري ووضع روث الحصان.

وأخيرًا صمت حسين.

«هل ثمة شيء ما؟» تمتم روب بكلام غير مفهوم.

«يشرفني أن أنقل تحيات وتهاني المكرّم أبو علي الحسين بن عبد الله بن سينا». كان الحاج يتصبب عرقًا ووجه يزداد شحوبًا لدرجة أن الزبيبة على جبينه كانت واضحة جلية. أشفق روب عليه، لكن ليس لدرجة أنه قلل من متعة اللحظة الرائعة، أحلى وأغنى من الرائحة المذهلة للمشمش الصغير الذي تناثر على الأرض تحت أشجاره، كما وجه حسين دعوة إلى يسي بن بنيامين. للالتحاق بالمدرسة ودراسة الطب في البيمارستان، حيث قد يطمح في النهاية إلى أن يصبح طبيبًا.

الجزء الرابع

البيمارستان

39

ابن سينا

ومع بزوغ فجر اليوم الأول لروب جيه بصفته طالبًا كان الصباح حارًا وكئيبًا. ورغم أنه ارتدى الثياب الجديدة بعناية، لكنه رأى أن الثياب دافئة للغاية وخاصة أغطية الساقين. لقد كافح دون جدوى لمعرفة سر لف العمامة الخضراء، وأخيرًا منح أحد المارة من الشباب في الشارع قطعة نقدية وأراه كيفية ربط القماش المطوي بإحكام حول القلنسوة ثم ثنيه بدقة. كان الخووف محقًّا في رأيه حول ثقل الثياب الرخيصة؛ حيث كانت العمامة الخضراء تزن حجرًا تقريبًا، وفي النهاية أزال العبء غير المألوف الواقع على رأسه وارتدى قبعة اليهودي الجلدية، وشعر معها بارتياح.

وهذا جعل من السهل التعرف عليه على الفور وهو يقترب من مبنى على شكل الحلمة الكبرى، حيثما كان يقف مجموعة من الشباب يرتدون عمامات خضراء يتجاذبون أطراف الحديث.

صاح أحدهم: «ها هو يهودي جاء الآن، يا كريم».

نهض رجل كان جالسًا على الدرج واقترب منه، وتعرف على الطالب الوسيم النحيل الذي لاحظه وهو ينتقد ممرضه أثناء زيارته الأولى للمستشفى.

«أنا كريم هارون. وأنت يسي بن بنيامين».

«نعم».

«الحاج أسند إليّ مهمة اصطحابك في جولة حول المدرسة والمستشفى وأن أجيب عن أسئلتك التي تراودك».

«سوف تتمنى لو عدت مرة أخرى في الكاركان، أيها العبري!».

صاح شخص ما، وضحك الطلاب.

ابتسم روب. قال: «لا أعتقد ذلك». كان من الواضح أن المدرسة بأكملها قد سمعت عن اليهودي الأوروبي الذي ذهب إلى السجن ثم حصل على قبول في مدرسة الطب بتدخل من الشاه.

لقد بدؤوا الجولة بالبيمارستان، لكن كريم كان يسير بخطى سريعة، وهو مرشد غريب الأطوار وروتيني ومن الواضح أنه رغب في إكمال مهمة غير مرحب بها في أسرع وقت ممكن. إلا أن روب كان قادرًا على معرفة أن المستشفى مقسّم إلى قسمين؛ قسم للرجال وقسم للنساء. كان يعمل في قسم الذكور ممرضون ذكور، وكان للنساء ممرضات وحمّالات من النساء. كان الأطباء وأزواج المريضات هم الرجال الوحيدون المسموح لهم بالاقتراب من النساء.

كانت هناك غرفتان مخصصتان للجراحة، وغرفة طويلة منخفضة السقف مليئة بأرفف من الجرار والقوارير المصنفة بدقة. قال كريم: «هذه هي خزانة الشرف، مخزن العقاقير». يتولى الأطباء أيام الإثنين والخميس إدارة العيادة في المدرسة. وبعد فحص المرضى وعلاجهم، يقوم الصيادلة بتركيب الدواء الذي يصفه الأطباء. صيادلة البيمارستان يلتزمون بالدقة والأمانة في صناعة أصغر الحبوب. معظم الصيادلة في المدينة عاهرات سيبعن زجاجة من البول ويقسمن أنها ماء الورد».

وفي المبنى المجاور للمدرسة، أراه كريم غرف فحص وقاعات محاضرات ومختبرات ومطبخ وقاعة طعام ومرحاضًا كبيرًا لاستخدام أعضاء هيئة

التدريس والطلاب. يوجد ثمانية وأربعون طبيبًا وجراحًا، لكن ليس كلهم محاضرين. وبما فيهم أنت، يوجد سبعة وعشرون طالبًا يدرسون الطب. يتدرب كل طالب امتياز على أيدي مجموعة من الأطباء المختلفين. تختلف مدة التلمذة باختلاف الأفراد، وكذلك التدريب المهني بأكمله. تصبح مرشحًا للاختبار الشفوي لّما تقرر هيئة التدريس اللقيطة أنك جاهز. إذا اجتزت الامتحان، فإنهم يمنحوك لقب حكيم. وإذا رسبت، تظل طالبًا ويجب أن تجتهد حتى تقتنص فرصة أخرى».

«منذ متى وأنت هنا؟».

حدّق فيه كريم ساخطًا، وأدرك روب أنه طرح السؤال الخطأ.

«سبع سنوات. لقد أديت الامتحانات مرتين. في العام الماضي، رسبت في القسم الخاص بالفلسفة. كانت محاولتي الثانية قبل ثلاثة أسابيع، لّما قدمت إجابات ركيكة لأسئلة في الفقه القانوني. ما الذي يجب أن أهتم به بشأن تاريخ المنطق أو السوابق القانونية؟ أنا بالفعل طبيب جيد». تنهّد بمرارة. بالإضافة إلى محاضرات الطب، يجب أن تحضر محاضرات في القانون وعلم أصول الدين والفلسفة. يمكنك اختيار المحاضرات الخاصة بك. قال على مضض، «من الأفضل أن تعود إلى نفس المحاضرين في كثير من الأحيان، فبعضهم يكون رحيمًا أثناء الامتحانات الشفوية إذا صرت مألوفًا لهم».

«يجب على كل فرد في المدرسة حضور المحاضرات الصباحية في كل تخصص. ولكن في فترة ما بعد الظهيرة، يعدّ طلاب القانون المرافعات أو يحضرون إلى المحاكم، ويسرع علماء الدين المحتملين إلى المساجد، والفلاسفة المستقبليون يقرؤون أو يكتبون، ويعمل طلاب الطب كمتدربين في المستشفى. يزور الأطباء المستشفى في فترة ما بعد الظهيرة ويلتصق الطلاب بهؤلاء الرجال الذين يسمحون لهم بفحص المرضى

واقتراح العلاج. يطرح الأطباء أسئلة مفيدة حافلة بالمعلومات لا حصر لها. إنها فرصة رائعة للتعلم أو -ابتسم بحدة- لتجعلك أحمق».

فحص روب الوجه الوسيم العبوس. سبع سنوات، فكر بكل تواضع، ولا شيء سوى الفرص المحتملة في المستقبل. وهذا الرجل، بلا شك، قد التحق بدراسة الطب بإعداد أفضل بكثير من معلوماته الضئيلة!

إلا أن المخاوف والمشاعر السلبية تلاشت لمّا دخلا المكتبة التي كانت تسمى بيت الحكمة. لم يتخيل روب مطلقًا هذا العدد الهائل من الكتب في مكان واحد. كانت بعض المخطوطات مكتوبة على رق مصنوع من جلد الحيوانات، لكن معظمها كان مصنوعًا من نفس المادة الأخف وزنًا التي كتب عليها خطاب التوصية الخاص به. لاحظ أن «بلاد فارس تفتقر إلى رق الكتابة».

تنشّق كريم. «ليس رق على الإطلاق. يطلق عليه ورق، اختراع أصحاب العيون الضيقة في الشرق، الذين هم زنادقة أذكياء للغاية. أليس لديكم ورق في أوروبا؟».

«لم أره هناك من قبل».

«الورق ليس سوى خرق بالية تسحق ويتغير حجمها بغراء الحيوانات ثم الضغط عليها. إنه غير مكلف، حتى الطلاب يستطيعون توفيره».

انبهر روب برؤية بيت الحكمة لأنه لم يسبق له أن رآه من قبل. كان يتجول بهدوء في الغرفة ويلمس الكتب، وهو يشير إلى المؤلفين، ولم يكن يعرف سوى عدد قليل منهم.

أبقراط، دياسقوريدوس، أرساجانيس، روفاس الأفسسي، جالينوس الخالد... أوريباسيوس، فيلغريوس، الإسكندر تراليس، بولوس أيغينيتا...

«كم عدد الكتب الموجودة هنا؟».

«تمتلك المدرسة تقريبًا مئة ألف كتاب»، قال كريم بفخر. ابتسم على ما رأى من ذهول في عيني روب. «ترجمت معظمها إلى اللغة الفارسية في بغداد. توجد في جامعة بغداد مدرسة للمترجمين، حيث هناك تنسخ الكتب على الورق بجميع لغات الخلافة الشرقية. يوجد في بغداد جامعة ضخمة بها ستمئة ألف كتاب في مكتبتها، وأكثر من ستة آلاف طالب ومعلم مشهور. ولكن ثمة شيء واحد تتميز به مدرستنا الصغيرة وتفتقر إليه بغداد».

«ما هذا الشيء؟» سأله روب، وقاده الطالب الراشد إلى جدار في بيت الحكمة مكرس بالكامل لأعمال مؤلف واحد.

قال كريم: «هو».

بعد ظهر ذلك اليوم في البيمارستان رأى روب الرجل الذي لقّبه الفرس بشيخ الأطباء. وللوهلة الأولى، كانت رؤية ابن سينا مخيبة للآمال. حيث كانت عمامة الطبيب الحمراء التي يرتديها باهتة ولفّت بلا مبالاة وكانت «درته» رثة وبسيطة. كان قصيرًا وأصلعًا، وكان له أنف منتفخ ومعروق وبداية لغد تحت لحيته البيضاء. لقد بدا مثل أي عربي مسن حتى لاحظ روب عينيه البنيتين اللتين تشعان حماسًا، كان حزينًا وشديد الملاحظة، كان صارمًا وينبض بالحياة بشكل يثير الفضول، وشعر في الحال أن ابن سينا رأى أشياء عجز الرجال العاديون عن رؤيتها.

كان روب واحدًا من سبعة طلاب، مع أربعة أطباء، يحتشدون خلف ابن سينا وهو يشق طريقه عبر المستشفى. وفي ذلك اليوم توقف شيخ الأطباء مؤقتًا على مقربة من سرير لرجل هرم ذي أطراف نحيفة. «من هو طالب الامتياز في هذا القسم؟».

«أنا، يا سيدي. ميردين عسكري».

أخبر روب نفسه أن هذا كان ابن عم آريه. نظر باهتمام بالغ إلى الشاب اليهودي ذي البشرة الداكنة الذي منحه شدقه الطويل وأسنانه البيضاء المربعة وجهًا مألوفًا محبوبًا، مثل وجه حصان ذكي.

أومأ ابن سينا نحو المريض. «أخبرنا عن ذلك المريض، يا عسكري».

«إنه أماهل راهين، سائق جمال جاء إلى المستشفى منذ ثلاثة أسابيع يعاني من آلام شديدة في أسفل الظهر. ففي البداية اشتبهنا في أنه أصيب في عموده الفقري وهو مخمور لكن الألم سرعان ما امتد إلى خصيته اليمنى وفخذه الأيمن».

«وماذا عن البول؟» سأل ابن سينا.

«حتى اليوم الثالث كان بوله صافيًا. لونه أصفر فاتح. وفي صباح اليوم الثالث ظهر دم في بوله، وبعد ظهر ذلك اليوم أخرج ست حصوات بولية، أربع منها مثل حبات الرمل واثنتان منها بحجم حبات البازلاء الصغيرة. ومنذ ذلك الحين لم يعد يعاني من أي ألم وأصبح لون بوله صافيًا، لكنه لم يأكل».

قطّب ابن سينا عن جبينه. «ماذا قدمت له من طعام؟».

بدا الطالب في حيرة من أمره. «الطعام المعتاد. بيلاه مع عدة أنواع من الطعام. بيض الدجاج. لحم ضأن، بصل، خبز... لم يقرب أي شيء. توقفت أمعائه عن العمل، وخف نبضه، وأصبح ضعيفًا بشكل تدريجي».

أومأ ابن سينا ورمقهم بنظرة. «ما الذي يؤلمه إذًا؟».

استجمع طالب امتياز آخر شجاعته. قال: «أعتقد، يا سيدي، أن أمعاءه أصبحت ملتوية، وتمنع مرور الطعام عبر جسده. استشعر هذا، فلن

يسمح لأي طعام بالدخول إلى فمه».

قال ابن سينا بلطف: «شكرًا لك، يا فاضل بن برفيز. ولكن في مثل هذه الإصابة، سيأكل المريض، فقط لينظّم طعامه». انتظر. ولمّا لم تقدم أي ملاحظات أخرى، اقترب من الرجل النائم على السرير.

قال: «أماهل: أنا حسين الطبيب ابن عبد الله بن الحسن بن عليّ بن سينا. هؤلاء هم أصدقائي وسيكونون أصدقائك أيضًا. من أين أنت؟».

همس الرجل: «قرية شايني يا سيدي».

«آه، رجل من فارس! لقد أمضيت أيامًا سعيدة في فارس. تمور الواحة في شايني كبيرة وحلوة، أليس كذلك؟».

اغرورقت عينا أماهل بالدموع وأومأ برأسه.

«يا عسكري، اذهب الآن وأحضر لصديقنا التمر ووعاء من الحليب الدافئ».

وفي وقت قصير جيء بالطعام، وراقب الأطباء والطلاب الرجل لأن الرجل بدأ يأكل الفاكهة بنهم.

«ببطء يا أماهل. ببطء يا صديقي، حذّر ابن سينا. «يا عسكري، سوف ترى التغيير في النظام الغذائي لصديقنا».

«نعم يا سيدي»، قال اليهودي وهم يغادرون.

«يجب أن نتذكر هذا عن المرضى الذين هم في رعايتنا. يأتون إلينا لكنهم لا يصبحون مثلنا، وفي كثير من الأحيان لا يأكلون ما نأكله. لا تستمتع الأسود بالكلأ الجاف لأنها تزور الماشية.

يقتات سكان الصحراء بشكل رئيس على اللبن الرائب الحامض

ومشتقات الحليب المماثلة. وسكان دار المراز يأكلون الأرز والأطعمة الجافة. يأكل الخراسانيون فقط حساءً ثخينًا بالدقيق. يأكل الهنود البازلاء والبقول والدهن والتوابل الحارة. يتناول سكان بلاد ما وراء النهر النبيذ واللحوم، وخاصة لحم الخيل. يأكل سكان فارس وعربستان بشكل رئيس التمور. ويعتاد البدو على اللحوم وحليب الإبل والجراد. الناس في جرجان والجورجيون والأرمن والأوروبيون معتادون على تعاطي المشروبات الروحية مع الوجبات وأكل لحم الأبقار والخنازير».

نظر ابن سينا بصرامة إلى الرجال المجتمعين حوله. «نحن نخيفهم، أيها السادة الشباب. وفي كثير من الأحيان لا يمكننا إنقاذهم بل وأحيانًا تقتلهم معاملتنا. دعونا ألّا نتركهم يتضورون جوعًا أيضًا».

وابتعد عنهم شيخ الأطباء ويداه وراء ظهره.

وفي صباح اليوم التالي، في مدرج صغير به طبقات مرتفعة من المقاعد الحجرية، حضر روب محاضرته الأولى في المدرسة. بدافع التوتر، جاء مبكرًا، وجلس وحيدًا في الصف الرابع لمّا دخل نصف دزينة من طلاب الامتياز معًا.

في البداية لم ينتبهوا لوجوده. اتضح من محادثتهم مما لا يدع مجالًا للشك أن أحدهم، وهو فاضل بن برفيز، قد أخطر بأنه سيخضع لامتحان للتأكد من مدى ملاءمته ليصبح طبيبًا، وكان زملاؤه من طلاب الامتياز يتفاعلون من منطلق سخرية الحسود.

«متبقٍّ فقط أسبوع واحد قبل انعقاد الامتحان، يا فاضل؟» قال طالب امتياز قصير ممتلئ الجسم. «سوف تتبول الأخضر من الخوف، على ما أعتقد!».

«أغلق فمك أيها السمين، يا عباس صيفي، يا أيها اليهودي أجدع الأنف،

يا أيها المسيحي الأحمق!» قال فاضل وضحك الجميع «لا داعي للخوف من الامتحان، لأنك سوف تكون متدربًا لفترة أطول من الفترة التي يقضيها كريم هارون».

«سلام، ماذا لدينا هنا؟» قال فاضل وهو يلاحظ روب لأول مرة. «ما اسمك، أيها الذمي؟».

«أنا يسي بن بنيامين».

«آه، من شهرة السجن! اليهودي الحلاق الجراح الحائز على خلعة الشاه. ستجد أن الأمر يتطلب أكثر من مجرد مرسوم ملكي لتكون طبيبًا».

امتلأت القاعة بالحاضرين. كان ميردين عسكري يشقّ طريقه صعودًا فوق الطبقات الحجرية إلى مكان شاغر، ونادى عليه فاضل.

«يا عسكري! ها هو عبري آخر وصل ليتحول إلى طفيلي. سوف يفوق عددكم عددنا قريبًا».

نظر عسكري إليهم بهدوء، متجاهلًا فاضل كما يتجاهل المرء حشرة مزعجة.

توقفت التعليقات بوصول المحاضر، وهو مدرس فلسفة قلق المظهر يدعى سيد سعدي.

تلقى روب فكرة عما افترضه من خلال الكفاح ليصبح طالب امتياز في الطب، ولأن سيد سعدي نظر في الغرفة مجيلًا ببصره لاحظ وجهًا غريبًا بالنسبة له.

«أنت، أيها الذمي، ما اسمك؟».

«أنا يسي بن بنيامين، يا سيدي».

«يسي بن بنيامين، أخبرنا كيف وصف أرسطو العلاقة بين الجسد والروح».

هزّ روب رأسه.

قال المحاضر بفارغ الصبر «في أطروحته عن النفس».

«أنا لا أعرف أطروحة النفس. لم أقرأ كتب أرسطو أبدًا».

حدّق فيه السيد سعدي بقلق. قال: «يجب أن تبدأ في قراءة كتب أرسطو على الفور».

لم يفهم روب سوى القليل الذي تحدث عنه السيد سعدي في محاضرته.

ولّما انتهت المحاضرة وفرغ المدرج، شقّ طريقه إلى ميردين عسكري. «أحمل لك أطيب تمنيات ثلاثة رجال من مسقط، راباي لونزانو بن عزرا، وراباي لوب بن كوهين، وابن عمك، راباي آريه عسكري».

«آه. هل كانت رحلتهم موفقة؟».

«أعتقد أنها كانت».

أومأ ميردين برأسه. «جيد. سمعت أنك يهودي جئت من أوروبا. حسنًا، ستبدو أصفهان غريبة بالنسبة لك، لكن معظمنا من أماكن أخرى». وقال إن زملاءهم طلاب الامتياز في الطب من بينهم 14 مسلمًا من دول الخلافة الشرقية، وسبعة مسلمين من الخلافة الغربية، وخمسة يهود شرقيين.

«أنا طالب الامتياز اليهودي السادس فقط، إذًا؟ كنت أعتقد أننا أكثر عددًا، وفق ما قاله فاضل بن برفيز».

«أوه، فاضل! حتى طالب امتياز طبي يهودي واحد سيكون أكثر من أن يرضي فاضل. إنه أصفهاني. يعتبر الأصفهانيون بلاد فارس الأمة

المتحضرة الوحيدة والإسلام هو الدين الوحيد. ولّما يتبادل المسلمون الإهانات، فإنهم ينادون بعضهم بعضًا «يهودي» أو «مسيحي». ولّما يكونون في حالة مزاجية جيدة، فإنهم يعتبرون أن من روح الفطنة أن نطلق على غير المحمديين اسم آخر، ألا وهو «الذمي»».

أومأ روب برأسه، متذكرًا أنه لّما ناداه الشاه «عبري» ضحك الناس. «أهذا يثير حفيظتك؟».

«يجعلني أعمل عقلي ومؤخرتي بجد. لذلك يمكنني أن أبتسم لّما أترك طلاب الامتياز المسلمين ورائي في المدرسة». نظر إلى روب بفضول. «يقولون إنك حلاق جراح. هل هذا صحيح؟».

«نعم».

قال ميردين بحذر: «لن أتحدث عن ذلك. يعتقد الأطباء الفارسيون أن الحلاقين الجراحين..».

«أقل من أن يكونون جديرين بالاحترام؟».

«لا يتعاطفون معهم».

«لا يهمني التعاطف. أنا لا أعتذر عما أنا عليه الآن».

كان يعتقد أنه رأى وميض الاستحسان في عيني ميردين، ولكن إذا كان الأمر كذلك، فقد تلاشى في لحظة.

قال ميردين: «ولا يجب عليك فعل ذلك». أومأ برأسه وشقّ طريقه للخروج من المدرج.

محاضرات علم أصول الدين الإسلامي على يد الملا السمين الذي يدعى أبو بكر كانت أفضل قليلًا من محاضرات الفلسفة. يتكوّن القرآن من مئة

وأربعة عشر فصلًا تسمى الفصول سور. تباينت السور في الطول من بضعة أسطر إلى عدة مئات من الآيات، مما أثار استياء روب أنه علم أنه لا يمكن أن يتخرج في المدرسة حتى يحفظ السور المهمة عن ظهر قلب.

وخلال المحاضرة التالية، التي ألقاها أستاذ الجراحين الذي يدعى أبو عبيد الجوزجاني، أمر روب ليقرأ كتاب «الأطروحات العشر للعين» لمؤلفه إسحاق بن حنين. كان الجوزجاني صغيرًا وداكن البشرة ومخيفًا، لا تطرف عيناه ويتصرف مثل دب استيقظ حديثًا. ورغم أن التراكم السريع للعمل الأكاديمي أصاب روب بالفتور، إلا أنه كان مهتمًّا بمحاضرة الجوزجاني حول إعتام العين، المرض الذي حجب أعين الكثير من الناس وسلبهم الرؤية. قال الجوزجاني: «يعتقد أن هذا العمى ناجم عن تدفق بخار فاسد في العين. لهذا السبب أطلق الأطباء الفارسيون الأوائل على المرض «نزول-ى-آب»، أو «نزول الماء»، والذي تحول إلى مرض تدفق الماء أو إعتام عدسة العين».

قال الجراح إن معظم حالات إعتام عدسة العين بدأت على شكل بقعة صغيرة في العدسة نادرًا ما تتداخل مع الرؤية، لكنها تنتشر تدريجيًا حتى تصبح العدسة بأكملها بيضاء كالحليب، مما يسبب العمى.

شاهد روب الجوزجاني وهو يعالج عيني قطة ميتة. وبعد ذلك بوقت قصير، مرّ مساعدوه بين طلاب الامتياز ووزعوا جثث الحيوانات حتى يتمكنوا من تجربة الإجراء على الكلاب والقطط وحتى الدجاج. أعطي روب كلب هجين رمادي بخطوط داكنة وعينين محدقتين بثبات، وأسنان بائنة، وليس له مخالب أمامية. كانت يداه غير مستقرتين ولم يكن لديه فكرة حقيقية عما يجب أن يفعله. إلا أنه تحلّى بالشجاعة لّما تذكّر كيف عالج ميرلين العمى الذي أصاب إدجار ثورب لأنه درس وتعلم هذه العملية في هذه المدرسة، وربما حتى في هذه الغرفة بالذات.

وفجأة كان الجوزجاني يتكئ عليه ويحدّق في عين كلبه الميت. قال بحدة: «ضع إبرة الجراحة على البقعة التي تنوي أن تعالجها وضع علامة هناك. ثم حرّك طرف الإبرة باتجاه الزاوية الخارجية للعين، بحيث يكون مستويًا مع بؤبؤ العين وفوقها قليلًا. وهذا من شأنه أن يجعل إعتام عدسة العين يغوص تحته. إذا كنت تجري العملية على العين اليمنى، فيجب أن تمسك الإبرة بيدك اليسرى، والعكس صحيح».

اتبع روب التعليمات، وهو يفكر في الرجال والنساء الذين جاؤوا خلف ستار الحلاق الجراح على مر السنين بعيون معتمة، والذين لم يكن قادرًا على فعل أي شيء من أجلهم.

فليذهب إلى الجحيم أرسطو والقرآن! هذا هو السبب في أنه شقّ طريقه إلى بلاد فارس، قال لنفسه مبتهجًا.

وبعد ظهر ذلك اليوم، كان من بين مجموعة من طلاب الامتياز الذين يتبعون الجوزجاني عبر البيمارستان مثل مساعدي الكاهن الذين يتبعون أسقفًا. وزار الجوزجاني المرضى وألقى المحاضرات والدروس وقدّم التعليقات وطرح الأسئلة على الطلاب أثناء قيامه بتغيير الضمادات وإزالة الغرز. رأى روب أنه كان جراحًا يتمتع بالمهارة والتنوع؛ كان مرضاه في المستشفى في ذلك اليوم يتماثلون للشفاء من جراحة إعتام عدسة العين، وذراع محطمة ومبتورة، واستئصال الدبل، وعمليات ختان، وإغلاق جرح في وجه طفل كان خده مثقوبًا بعصا حادة.

ولمّا كان الجوزجاني يمر، قام روب بجولة عبر المستشفى مرة أخرى، هذه المرة خلف حكيم يسمى جلال الدين، مجَبّر العظام الذي كان مرضاه مزودين بأنظمة معقدة من الكامشات، والمقرنات، والحبال، والبكرات التي نظر إليها روب بذهول.

لقد انتظر بتوتر أن يجري استدعاؤه أو يوجه إليه سؤال، ولكن لم يعترف أي من الأطباء بوجوده. ولّما انتهى جلال الدين، ساعد روب الحمالين في إطعام المرضى وتنظيف فضلات الطعام.

ذهب بحثًا عن الكتب لّما انتهى من العمل في المستشفى. يمكن العثور على نسخ من القرآن بأعداد كبيرة في مكتبة المدرسة، وقد عثر على كتاب النفس. إلا أنه علم أن النسخة الوحيدة من كتاب «الأطروحات العشر للعين» لمؤلفه إسحاق بن حنين قد أخذها شخص آخر، وتقدم نصف دزينة من الطلاب قبله لدراسة الكتاب.

كان حارس بيت الحكمة رجلًا طيبًا يدعى يوسف الجمل، وهو خطاط يقضي أوقات فراغه بالريشة والحبر، ويصنع نسخًا إضافية من الكتب المشتراة من بغداد. وقال: «لقد انتظرت كثيرًا. الآن سوف تمر أسابيع عديدة قبل أن يتاح لك كتاب «الأطروحات العشر للعين» لمؤلفه إسحاق بن حنين. لّما ينصح أحد المحاضرين بكتاب ما، يجب أن تسرع إليّ في الحال وإلا سيصل الآخرون إلى هنا أولًا».

أومأ روب برأسه ضجرًا. حمل الكتابين إلى المنزل، وتوقف على طول الطريق في السوق اليهودي لشراء مصباح وزيت من امرأة هزيلة ذات شدق قوي وعينين رماديتين.

«أأنت الأوروبي؟».

«نعم».

ابتسمت. «نحن جيران. أنا هندا زوجة تال إسحاق، منزلنا على بعد ثلاثة منازل من شمالك. يجب عليك زيارتنا».

شكرها وابتسم وهو يبتهج.

«لك، بأقل سعر. أفضل سعر لليهودي الذي حظى بخلعة من ذلك الملك!».

وفي نزل سلمان الأصغر، توقف لتناول وجبة من البيلاه، لكنه شعر بالفزع لمّا أحضر سلمان جيران آخرين لمقابلة اليهودي الذي فاز بالخلعة. كانا شابين قويين البنية، قاطعي الحجارة على طريق التجارة - شوفني وشموئيل بناي تشيفي، أبناء الأرملة نيتكا القابلة، التي كانت تعيش في نهاية شارعه. ربت الأخوة على ظهره، وبالغا في الترحيب به، وحاولا شراء نبيذ له. «أخبرنا عن الخلعة، أخبرنا عن أوروبا!» بكى شوفني بحرارة.

كانت صحبتهما مغرية، لكنه هرب إلى عزلة منزله. ولمّا كان يعتني بالحيوانات، قرأ أرسطو في الحديقة ووجد صعوبة، لأن المعنى استعصى عليه وكان مغرمًا بجهله.

ومع حلول الظلام، انتقل إلى الداخل وأضاء المصباح، ثم تحوّل إلى القرآن. بدت السور مرتبة حسب الطول، مع وجود الفصول الأطول أولًا. ولكن ما هي السور المهمة التي يجب حفظها؟ لم تكن لديه فكرة. وكان هناك الكثير من الفقرات التمهيدية؛ هل كانت مهمة؟

كان يائسًا وشعر أنه يجب أن يبدأ من مكان ما. سبحان الله العلي الرحيم؛ خلق الجميع بما فيهم الإنسان...

قرأ الفقرات مرارًا وتكرارًا، ولكن قبل حفظ أكثر من بضع آيات في الذاكرة، أغلق جفنيه الثقيلين. كان يرتدي ملابس كاملة، وغطّ في نوم عميق على الأرضية المضاءة بضوء المصباح، مثل رجل يسعى للهروب من يقظة مؤلمة ومزعجة.

40

الدعوة

كان روب يستيقظ كل صباح على ضوء الشمس المشرقة التي كانت تتلألأ عبر النافذة الضيقة لغرفته، والتي انعكست باللون الذهبي على الأسطح القرميدية لمنازل الحي اليهودي المائلة بشدة. انبثق الناس في الشوارع عند الفجر، وكان الرجال يذهبون لتأدية الصلوات الصباحية في المعابد اليهودية، والنساء يسرعن للعناية بالأكشاك في السوق أو للتسوق مبكرًا للحصول على أفضل منتجات اليوم.

وفي المنزل المجاور في الشمال كان يعيش صانع أحذية يدعى يعقوب بن راشي وزوجته نعومة وابنتهما ليا. والمنزل الواقع في الجنوب كان يشغله خبازًا اسمه ميخا هاليفي وزوجته يوديت وثلاثة أطفال صغار، جميعهم من الإناث. كان روب قد عاش في الحي اليهودي قبل أيام قليلة فقط من إرسال ميخا لزوجته يوديت إلى منزل روب لتقدم له رغيفًا مستديرًا مرحرَحًا لوجبة فطوره، وهو لا يزال دافئًا ومقرمشًا من الفرن. وفي كل مكان ذهب إليه في الحي اليهودي، سمع من الناس كلمة طيبة لليهودي الأجنبي الذي فاز بالخلعة.

كان أقل شعبية في المدرسة، حيث لم ينادِه الطلاب المسلمون أبدًا بالاسم وكانوا يسعدون بمخاطبته على أنه الذمي، في حين أن الطلاب اليهود أطلقوا عليه لقب «أوروبي».

إذا لم تكن خبرته بصفته حلاقًا جراحًا محل إعجاب بشكل عام، فقد كانت لا تزال مفيدة في البيمارستان، حيث كان من الواضح في غضون

ثلاثة أيام أنه يمكنه عمل الضمادات، ووقف النزيف، وعلاج الكسور البسيطة بمهارة تساوي مهارة خريج المدرسة. لقد حظي على إعفاء من الأعمال الروتينية المتمثلة في جمع فضلات الطعام وأسندت له واجبات تنطوي بشكل مباشر على رعاية المرضى، مما جعل حياته أكثر احتمالًا.

ولمّا سأل أبو بكر أي سورة من سور القرآن الكريم البالغ عددها مئة وأربعة عشر سورة هي السورة المهمة، لم يستطع الحصول على إجابة. قال الملا السمين: «كل السور مهمة. بعضها أكثر أهمية في نظر عالم واحد، والبعض الآخر أكثر أهمية لعالم آخر».

«لكن لا يمكنني أن أتخرّج في هذا المكان إلا إذا حفظت السور المهمة! إذا لم تخبرني عنهم، كيف لي أن أعرف؟».

قال محاضر علم أصول الدين: «آه. عليك أن تدرس القرآن، والله (عز وجل!) سوف يكشفها لك».

كان يشعر بثقل محمد على ظهره، وعين الله عليه دائمًا. وفي كل مكان انتقل إليه في المدرسة، كانت مظاهر الإسلام جلية لا مفر منها. كان الملا يجلس في كل محاضرة ليتأكد من أن الله (العظيم الجبار!!) لم تنتهك محارمه.

كانت المحاضرة الأولى لروب مع ابن سينا في علم التشريح حيث قاموا فيها بتشريح خنزير كبير، وهو محرّم على المسلمين كغذاء ولكن مسموح به في الدراسة.

قال ابن سينا، وهو يقطع الجلد بمهارة: «الخنزير هو مادّة جيدة للتشريح على وجه التحديد، لأن أعضائه الداخلية متطابقة مع أعضاء الإنسان».

وهذا الخنزير كان مليئًا بالأورام.

«من المحتمل ألا تسبب هذه الزيادات ذات السطح الأملس أي ضرر. إلا أن البعض نما بسرعة كبيرة. . . انظروا، مثل هذه -قال ابن سينا، وهو يقلب الجثة الثقيلة حتى يتمكنوا من الملاحظة بشكل أفضل- أن كتل اللحم قد احتشدت ضد بعضها بعضًا مثل الأجزاء الموجودة في رأس القرنبيط. الأورام التي تشبه القرنبيط قاتلة».

«هل تصيب البشر؟» سأل روب.

«نحن لا نعلم».

«ألا يمكننا البحث عنها؟».

الآن ساد الصمت في الغرفة، والطلاب الآخرون يزدردون الشيطان الغريب والكافر، والمعلمون المساعدون يقظون. رفع الملا الذي ذبح الخنزير رأسه عن كتاب صلاته.

قال ابن سينا بتمعن: «مكتوب أن الميت يقوم فيسلم عليه النبي (صلى الله عليه وسلم) كي يحيا مرة أخرى. وفي ذلك اليوم، يجب أن تكون أجسادهم غير مشوهة».

وفي لحظة أومأ روب برأسه. عاد الملا إلى صلاته، واستأنف ابن سينا درس التشريح.

في عصر ذلك اليوم كان الحكيم فاضل بن برفيز في البيمارستان يرتدي عمامة طبيب حمراء ويتلقى تهنئة المتدربين الطبيين على اجتياز الامتحان. لم يكن لدى روب سبب للإعجاب بفاضل، إلا أنه رغم ذلك كان متحمسًا وسعيدًا، لأن نجاح أي طالب قد يكون يومًا ما نجاحه.

كان فاضل والجوزجاني الطبيبين اللذين قاما بجولات على المرضى في

ذلك اليوم، وتبعهما روب مع أربعة متدربين طبيين آخرين: عباس صيفي، عمر نيفاهند، سليمان الجمل، وثابت بن قرة. وفي اللحظة الأخيرة، انضم ابن سينا إلى الجوزجاني وفاضل، وشعر روب باشتداد وتيرة العصبية، الإثارة الطفيفة التي كانت تحدث دائمًا مع وجود شيخ الأطباء.

وسرعان ما وصلوا إلى جناح مرضى الأورام. وعلى السرير الأقرب إلى المدخل كان يرقد شخص بلا حراك وهو غائر العينين، وتوقفوا بعيدًا عنه. قال الجوزجاني: «يسي بن بنيامين. أخبرنا عن هذا الرجل».

«إنه إسماعيل غزالي. لا يعرف عمره لكنه يقول إنه ولد في قرية خور أثناء الفيضانات الشديدة التي حدثت في فصل الربيع هناك. لقد قيل لي أن ذلك كان قبل أربعة وثلاثين عامًا».

أومأ الجوزجاني موافقًا.

«لديه أورام في رقبته وتحت ذراعيه وفخذه تسبب له ألمًا شديدًا. توفي والده بمرض مماثل لّما كان إسماعيل غزالي صبيًا صغيرًا. ويؤلمه التبول. ولّما يتبول، يكون ماؤه أصفر داكنًا مصحوبًا بأسطوانات مثل الخيوط الحمراء الصغيرة. لا يستطيع أن يأكل أكثر من بضع ملاعق قليلة من العصيدة دون أن يتقيأ، لذلك أطعم بشكل خفيف وبالقدر الذي يجعله يقبل الطعام».

«هل فصدته هذا اليوم؟» سأل الجوزجاني.

«لا، أيها الحكيم».

«لماذا لم تفعل؟».

«ليس من الضروري أن نسبب له المزيد من الألم». ربما لو لم يكن روب يفكر في الخنزير ويتساءل عما إذا كان جسد إسماعيل غزالي قد تآكل

بسبب الأورام التي تشبه القرنبيط، لما كان ليحصر نفسه. «بحلول الليل سوف يموت».

حدّق الجوزجاني.

«لما تظن ذلك؟» سأل ابن سينا.

كانت كل العيون على روب، لكنه عجز عن تقديم تفسير. قال في نهاية المطاف: «أعرف ذلك»، ونسي فاضل مكانته الجديدة وقهقه.

احمرّ وجه الجوزجاني بغضب، لكن ابن سينا رفع يده للطبيب الآخر وأشار إلى ضرورة الاستمرار.

استنزف الحادث إثارة روب المتفائلة. وفي ذلك المساء وجد أن الدراسة مستحيلة. وقال لنفسه إن المدرسة كانت مخطئة. لم يكن هناك شيء يمكن أن يجعله على ما هو عليه، وربما حان الوقت للاعتراف بأنه لم يكن من المفترض أن يكون طبيبًا.

ومع ذلك، ذهب في صباح اليوم التالي إلى المدرسة وحضر ثلاث محاضرات، وفي فترة ما بعد الظهر أجبر نفسه على متابعة الجوزجاني في فحصه للمرضى. وأثناء انطلاقهم، انضم إليهم ابن سينا كما فعل في اليوم السابق بسبب الغم الذي أصاب روب.

ولّما وصلوا إلى قسم الأورام، استلقى شاب مراهق على السرير الأقرب إلى الباب.

«أين إسماعيل غزالي؟» وسأل الجوزجاني الممرض.

«توفي أثناء الليل يا حكيم».

ولم يعلق الجوزجاني على ذلك. ومع استمرارهم في طريقهم، تعامل

مع روب بالازدراء الشديد بسبب ذمي أجنبي قام بتخمين موفق.

ولكن لمّا أكملوا زياراتهم وتباعدوا، شعر روب بيد على ذراعه واستدار لينظر في عيني الرجل العجوز الحائرتين.

قال ابن سينا: «سوف تأتي لتتقاسم معي عشائي».

كان روب متوترًا ومترقبًا في ذلك المساء وهو يتبع توجيهات شيخ الأطباء، وهو يمتطي صهوة الجواد البني على طول شارع الألف حديقة إلى الممر المؤدي إلى منزل ابن سينا. لقد ثبت أنه مسكن ضخم مزدوج البرج مبني من الحجر بين البساتين المدرّجة وكروم العنب. ابن سينا، أيضًا، منح «ثوبًا ملكيًّا» من الشاه، لكن خلعته جاءت لمّا كان مشهورًا ومبجلًا، وكانت المنحة أميرية.

استقبل روب في الضيعة المسورة من قبل الحارس الذي انتظره وأخذ حصانه. كان الطريق إلى المنزل من الحجر المسحوق جيدًا لدرجة أن خطاه بدت وكأنها تهمس. ولمّا اقترب من المنزل، فُتح باب جانبي وخرجت امرأة. كانت شابة ورشيقة، وكانت ترتدي معطفًا مخمليًّا أحمر ممتلئًا عند الخصر وبحواف مزخرفة، فوق ثوب قطني فضفاض مطبوع عليه زهور باللون الأصفر، وعلى الرغم من ضآلة جسمها، لكنها كانت تسير مثل الملكة. كانت الأساور المزيّنة بالخرز تلتف حول كاحليها حيث كان البنطال القرمزي يربط بإحكام وينتهي بأطراف من الصوف المتدلي فوق الكعبين العاريين الجميلين. ابنة ابن سينا -إذا كانت هذه هي بالفعل- فحصت بعينين سوداوين كبيرين بفضول كما قام بتقييمها، قبل أن يتحاشى وجهها المحجوب عن الذكور، حسب تعاليم الإسلام.

وخلفها جاء شخص يرتدي عمامة، ضخم كالحلم السيئ. كانت يد الرجل المجبوب على مقبض الخنجر المرصع بالجواهر في حزامه، ولم

يحول بصره عنها ولكنه راقب روب ببغض حتى رأى شحنته بأمان من خلال باب في جدار الحديقة.

كان روب لا يزال يحدّق خلفهم لمّا انفتح الباب الأمامي، وهو لوح حجري كبير واحد، على مفصلات مزيتة وأدخله خادم في رباطة جأش شديدة.

«مرحبًا، يا صديقي الشاب. أهلا وسهلًا بك في منزلي».

قاد ابن سينا الطريق من خلال مجموعة من الغرف الكبيرة التي زينت جدرانها بستائر منسوجة قيّمة تعج بألوان الأرض والسماء. كان السجاد على الأرضيات الحجرية ثخينًا مثل العشب. وفي حديقة الردهة في قلب المنزل، نصبت طاولة بالقرب من نافورة يتدفق منها الماء.

شعر روب بالحرج، لأن الخادم لم يساعده من قبل على الجلوس. وأحضر خادم آخر صينية فخارية من الخبز المرحرح وقد أدّى ابن سينا صلاته الإسلامية بسهولة بصوت غير مسموع. «هل تتمنى الأشياء الجيدة في حياتك؟» سأل بأدب جم.

كسر روب أحد الأرغفة المرحرحة وفعل ذلك بسهولة، فقد اعتاد الشكر العبري: «طوبى لك، أيها الرب إلهنا، ملك الكون، الذي يخرج الخبز من الأرض».

قال ابن سينا: «آمين».

كانت الوجبة بسيطة وممتازة، ومكونة من خيار مقطّع بالنعناع وحليب حامض ثقيل، وبيلاه خفيفة محضرة بقطع من لحم الضأن والدجاج المخلي، والكرز المطهي والمشمش، وشربات عصائر الفاكهة المنعشة.

ولّما أكلا، أحضر الرجل الذي تميّز بقرط في أنفه أقمشة مبللة لتنظيف أيديهما ووجهيهما، في حين أن قام خدم آخرون بتنظيف الطاولة وإضاءة

مشاعل مدخنة لإبعاد الحشرات.

وجيء بوعاء من الفستق الممتلئ وجلسا وكسرا المكسرات بأسنانهما ومضغا برفق.

«الآن». انحنى ابن سينا إلى الأمام وعيناه الرائعتان اللتان يمكن أن تقولا أشياء كثيرة، تألقتا في ضوء الشعلة. دعنا نتحدث عن سبب معرفتك بموت إسماعيل الغزالي.

أخبره روب كيف أنه لمّا كان في التاسعة من عمره، وهو يمسك بيد والدته أدرك أنها سوف تنتقل إلى الرفيق الأعلى. وكيف علم، بنفس الطريقة، بوفاة والده الوشيك.

ووصف الآخرين منذ ذلك الحين، ومن وقت لآخر التصقت يده بيد شخص جلب ليده الرهبة الثاقبة والوحي الفظيع.

استجوبه ابن سينا بصبر وهو يبلغ عن كل حالة، ويسبر ذاكرته ويتأكد من عدم إغفال أي تفاصيل. وببطء، تلاشى التحفظ في وجه الرجل العجوز.

«أرني ما تفعله».

أخذ روب يدي ابن سينا ونظر في عينيه، وبعد قليل ابتسم. «في الوقت الحالي، لا داعي للخوف من الموت».

قال الطبيب بهدوء: «ولا أنت».

ومرت لحظة وعندها، بحق السيد المسيح! فكّر روب. «هل هو حقًا شيء يمكنك أن تشعر به أيضًا، يا شيخ الأطباء؟».

هزّ ابن سينا رأسه. «ليس كما تشعر به. في داخلي، يتجلى ذلك على أنه يقين في مكان ما في عمق الغريزة القوية بأن المريض سيموت أو

لن يموت. لقد تحدثت على مر السنين مع أطباء آخرين يشاركونني هذا الحدس، ويربطنا ميثاق أخوة أكبر مما قد تتخيل. لكنني لم ألتق مطلقًا بأحد لديه هذه القريحة أقوى منك. إنها مسؤولية، ولتكون على قدم المساواة معها يجب أن تكون طبيبًا ممتازًا».

جلبت القريحة حقيقة مزعجة، وتنهد روب بحزن. «قد ينتهي بي الأمر دون أن أصبح طبيبًا، لأنني لست عالمًا. لقد تغذى طلابك المسلمون بالقوة على التعلم الكلاسيكي طوال حياتهم، في حين أن... الطلاب اليهود الآخرين تربوا على الدراسة الراسخة وطلب العلم في دور الدراسة الخاصة بهم. وهنا في الجامعة يعتمدون على هذه الأسس، في حين أنني أعتمد على عامين زهيدين من التعليم وجهل كبير».

قال ابن سينا دون تعاطف: «إذًا عليك أن تبني أقوى وأسرع من الآخرين».

أثار اليأس في نفس روب الجرأة. «مطلوب الكثير في المدرسة. وبعضه لا أريده ولا أحتاجه. الفلسفة، والقرآن».

قاطعه الرجل العجوز بازدراء. «أنت ترتكب خطأ شائعًا. إذا لم تكن قد درست الفلسفة، فكيف ترفضها؟ العلم والطب يكسباك المعرفة والعلم حول الجسد، والفلسفة تنير العقل والروح، والطبيب يحتاج كل ذلك كما يحتاج للطعام والهواء. وفيما يتعلق بعلم أصول الدين، فقد كنت قد حفظت القرآن في سن العاشرة. إنه من إيماني وليس إيمانك ولكنه لن يضر بك، وحفظ عشر سور سيكون ثمنًا زهيدًا إذا كان سيكسبك المعرفة الطبية.

لديك العقل، لأننا نراك تفهم لغة جديدة، ونحقق وعدك بعشرات الطرق الأخرى. لكن يجب ألا تخشى السماح للتعلم أن يصبح جزءًا منك، بحيث يكون أمرًا طبيعيًّا مثل التنفس. يجب أن تفتح عقلك، على نطاق واسع بما يكفي لاستيعاب كل ما يمكننا تقديمه لك».

كان روب صامتًا ويقظًا.

«لدي قريحة خاصة بي، قوية مثل قريحتك، يا يسي بن بنيامين. يمكنني اكتشاف رجل قد أرى فيه طبيبًا، وفيك أشعر بالحاجة إلى الشفاء، حاجة قوية جدًّا لدرجة أنها تحترق. ولكن لا يكفي وجود مثل هذه الحاجة. لن تكون طبيبًا بموجب الخلعة، وهو أمر ميمون لأن هناك بالفعل الكثير من الأطباء الجهلة. لهذا السبب لدينا المدرسة لنغربل القشر من القمح ونميز بين الغث والسمين. ولمّا نرى طالبًا كفؤًا، نجعل اختباره صعبًا على وجه التحديد. إذا كانت تجاربنا تفوق قدراتك، فعليك أن تنسينا وتعود لعملك بصفتك حلاق جراح وتبيع المراهم الرديئة».

قال روب صارخًا: «الدواء السحري».

«دواؤك الوهمي، إذًا. كي تكون حكيمًا يجب أن تدفع الثمن. إذا كنت ترغب في ذلك، يجب أن تعاقب نفسك من أجل التعلم، والبحث عن كل ميزة في مواكبة الطلاب الآخرين وفي التفوق عليهم. يجب أن تدرس بحماسة المباركين أو الملعونين».

سحب روب نفسًا عميقًا، وعيناه ما زالتا مقفلتين بشدة مع ابن سينا، وأخبر نفسه أنه لم يكافح في جميع أنحاء العالم ليفشل.

همّ ليغادر وذهلته فكرة. «هل تملك كتاب «الأطروحات العشر للعين» لمؤلفه إسحاق بن حنين، يا شيخ الأطباء؟».

الآن ابتسم ابن سينا. قال: «نعم لدي الكتاب» وسارع بإحضار الكتاب وإعطائه لتلميذه.

41

الميدان

في وقت مبكر من صباح أحد الأيام العجلى نادى عليه ثلاثة جنود. أصابه التوتر وتجهّز لأي شيء، إلا أنهم هذه المرة كانوا جميعًا مهذبين وجديرين بالاحترام وبقيت هراواتهم في أغمادها. انحنى قائدهم، الذي كشفت أنفاسه أنه تناول في فطوره البصل الأخضر، بشدة.

«أرسلنا لإبلاغك، يا سيدي، أنه ستكون هناك جلسة رسمية في البلاط غدًا بعد الصلاة الثانية (صلاة الظهر). ومن المتوقع حضور الفائزين بخلعة».

ولهذا، في صباح اليوم التالي، وجد روب نفسه مرة أخرى تحت الأسقف المقوسة والمطلية بماء الذهب لقاعة الأعمدة.

وهذه المرة غابت الجماهير عن الحضور، الأمر الذي اعتقد روب أنه مؤسف، لأن شاهانشاه (ملك الملوك) كان متألقًا. كان علاء الدولة يرتدي عمامة، وسترة منسدلة، وحذاء مدببًا من اللون الأرجواني، وبنطالًا وأغطية الساقين من اللون القرمزي، وتاجًا ثقيلًا من الذهب المشغول. جلس الوزير، الإمام ميرزا أبو قندراسه، على عرش أصغر في الجوار، مرتديًا زي الملا الأسود كالعادة.

وقف المستفيدون من الفوز بالخلعة بعيدًا عن العروش مثل المراقبين. لم يستطع روب رؤية ابن سينا ولم يتعرف على أحد في الجوار باستثناء الخووف، قائد الحرس.

كانت الأرضية المحيطة بعلاء الدولة مغطاة بالسجاد اللامع بخيوط مصنوعة من الحرير والذهب. جلس لفيف من الرجال الأثرياء على وسائد على جانبي العرش في مواجهة العرش.

ذهب روب إلى الخووف ولمس ذراعه. «من هؤلاء؟» همس.

رمق الخووف العبراني الأجنبي بنظرة ساخرة، لكنه أجاب بصبر كما تدرّب على ذلك. «الإمبراطورية مقسمة إلى أربع عشرة مقاطعة، فيها خمسمئة وأربعة وأربعون مكانًا مهمًّا - المدن والبلدات المحاطة بأسوار والقلاع. هؤلاء هم الميرزا (الأمراء) والشاون والسلاطين والبكوات الذين يحكمون الإمارات التي علاء الدولة شاه يحكم عليها قبضته».

ربما كانت المراسم ستبدأ قريبًا، لأن الخووف أسرع بعيدًا وتمركز في منتصف الباب.

كان السفير الأرميني أول من دخل القاعة من بين المبعوثين. ورغم أنه كان رجلًا لا يزال في ريعان الشباب وشعره أسود ولحيته سوداء، إلا أنه كان يخطها الشيب، وكان يمتطي صهوة مهرة رمادية اللون ويرتدي ذيول الثعالب الفضية على سترة رمادية مصنوعة من الحرير. أوقفه الخووف على بعد مئة وخمسين خطوة من العرش، وساعده على النزول وقاده إلى العرش لتقبيل قدمي علاء الدولة.

وبهذا الإنجاز، أهدى السفير الشاه هدايا فخمة من ممتلكاته الخاصة، بما في ذلك فانوس بلوري كبير، وتسعة أكواب صغيرة من الكريستال ذي إطارات ذهبية، ومئة وعشرين ياردة من القماش الأرجواني، وعشرين زجاجة من العطر الجميل، وخمسين فروة.

وبالكاد كان مهتمًّا بذلك، رحّب علاء الدولة بالأرميني في البلاط وأخبره أن يشكر سيده جزيل الشكر على الهدايا.

وبعد ذلك، كان السفير من الخزر الذي التقى به الخووف، وتكرر نفس المشهد برمته مرة أخرى، إلا أن هدية ملك الخزر كانت ثلاثة خيول عربية أصيلة وأسد صغير مقيد بالسلاسل لم يتم ترويضه، ولذلك من شدة خوف الحيوان، تغوط على سجادة مزخرفة بالذهب والحرير.

كانت القاعة لا تزال تنتظر رد فعل الشاه. لم يتجهّم علاء الدولة أو يبتسم، بل انتظر حتى سارع العبيد والخدم لإزالة روث الحيوان والهدايا والخزر. جلس رجال البلاط عند قدمي الشاه على وسائدهم مثل التماثيل الجامدة، وعيونهم على ملك الملوك. وثمة ظلال جاهزة لتحريك جسد علاء الدولة. وأخيرًا، كانت هناك إشارة غير محسوسة واسترخاء عام حيث جرى الإعلان عن المبعوث التالي، من أمير القرامطة الذي كان يمتطي صهوة حصان بني مائل إلى الحمرة وهو يدخل إلى القاعة.

استمر روب في الوقوف وتحديق النظر باحترام جم، لكن في داخله نسي البلاط وبدأ في مذاكرة دروسه، كان يراجع بصمت. العناصر الأربعة: الأرض والماء والنار والهواء؛ الخواص التي يتعرف عليها باللمس: البرودة والحرارة والجفاف والرطوبة؛ المزاجات: مزاجٌ دموي، مزاجٌ بلغمي، مزاجٌ صفراوي، مزاجٌ رَصاصيّ؛ الملكات: طبيعية وحيوانية وحيوية.

صوّر الأجزاء المنفصلة من العين كما ذكرها حنين، وذكر أسماء سبعة أعشاب وأدوية موصى بها للبرداء وثمانية عشر للحمى، حتى إنه تلا عدة مرات أول تسعة مقاطع من السورة الثالثة في القرآن، بعنوان «آل عمران».

شعر بالسرور من هذا الانشغال لمّا انقطع، ورأى أن الخووف كان منهمكًا في تبادل محكم للحديث مع رجل عجوز متغطرس ذي شعر أبيض كان يمتطي صهوة حصان كستنائي شرس.

«جرى تقديمي أخيرًا لأنني من الأتراك السلاجقة، وهذه إهانة متعمدة لشعبي!».

قال قائد الحرس بهدوء: «شخص ما يجب أن يكون هو الأخير، حداد خان، وهذا اليوم هو فخامتك».

وفي حالة من الغضب الشديد، حاول السلاجقة تحريك الحصان الكبير بعيدًا عن الخووف واتجهوا ناحية العرش. اختار الجندي العجوز الأشهب أن يتظاهر بأن الفرس هو المخطئ وليس الفارس. «أفّ!» صاح الخووف. أمسك باللجام وضرب الحصان بشدة وبشكل متكرر ضرب أنفه بهراوته، مما تسبب في صهيل الحصان وتراجعه للوراء.

كان الجنود يسيطرون على الحصان الكستنائي في حين أن الخووف ساعد حداد خان على النزول بيديه اللتين لم تكونا شديدتي اللطف، وسار السفير على الأرض إلى العرش.

أدّى السلاجقة سجود «روي زمين» (الوجه على الأرض) بشكل روتيني وبصوت مرتجف قدموا تحيات قائدهم، طغرل بك، دون تقديم أي هدايا.

لم يقل له علاء شاه كلمة، لكنه صرفه ببرود بحركة من يده، وانتهت الإجراءات.

وباستثناء سفير السلاجقة والأسد القذر، اعتقد روب أن البلاط كان مملًا للغاية.

وكان من دواعي سروره أنه جعل المنزل الصغير في الحي اليهودي أفضل مما كان عليه لّما منحه علاء شاه إياه. وكان من الممكن أن يستغرق العمل بضعة أيام على الأكثر، لكن ساعة واحدة أصبحت سلعة ثمينة، وبالتالي لم تصلح عتبات النوافذ، وظلت الجدران المتصدعة غير مغطاة

بالجبس، ولم تقلّم أشجار المشمش، وامتلأت الحديقة بالحشائش.

اشترى من «هندا»، المرأة التاجرة في السوق اليهودي، ثلاثة قطع «ميزوزة» (عضادة الباب)، والأنابيب الخشبية الصغيرة التي تحتوي على رقوق صغيرة ملفوفة من الكتاب المقدس. كانوا جزءًا من تنكره. قام بتثبيتهم على العمود الأيمن لكل باب من أبوابه، ما لا يقل عن عرض يد واحدة من الأعلى، كما تذكر كيفما توضع الميزوزة في منازل اليهود في تريافنا.

وصف ما أراده لنجار هندي ورسم رسومات تخطيطية في الأرض، ودون صعوبة صنع له طاولة من خشب الزيتون المنحوت غير المصقول وكرسي من خشب الصنوبر على الطراز الأوروبي. واشترى بعض أواني الطبخ المصنوعة من نحاس. وبخلاف ذلك، انزعج قليلًا بشأن المنزل الذي ربما كان يعيش فيه كما يعيش في كهف.

كان الشتاء على الأبواب. كانت فترات بعد الظهر لا تزال ساخنة، لكن نسيم الليل الذي كان يتدفق عبر النوافذ صار قاسيًا، معلنًا تغير الموسم. وجد العديد من جلود الغنم الرخيصة في السوق الأرمينية وصنع منها سريرًا بكل امتنان.

وفي مساء يوم الجمعة، أقنعه جاره يعقوب بن راشي صانع الأحذية ليأتي إلى منزله لتناول وجبة السبت. كان منزلًا متواضعًا ولكنه مريح، وفي البداية استمتع روب بكرم الضيافة. غطت نعومة، زوجة يعقوب، وجهها وتلت الصلاة على الطارق. وقدمت ليا الابنة الممتلئة الجسم، ناهدة الثديين، وجبة جيدة من أسماك النهر والطيور المطهية والبيلاه والنبيذ. أسبلت ليا عينيها بتواضع إلى الأسفل، لكنها ابتسمت لروب عدة مرات. كانت في سن الزواج، وأثناء العشاء أعطى والدها تلميحات دقيقة حول المهر الكبير مرتين. بدا أن هناك خيبة أمل عامة لمّا شكرهم روب وغادر

مبكرًا للعودة إلى كتبه.

اعتاد على بعض العادات في حياته. كانت الشعائر الدينية اليومية إلزامية لطلاب المدرسة، ولكن سمح لليهود بحضور شعائرهم الخاصة، لذلك كان يذهب كل صباح إلى المعبد اليهودي «دار السلام». لقد أصبحت صلوات الشهاريت العبرية مألوفة، لكن الكثير منها لا يزال غير قابل للترجمة مثل المقاطع التي لا معنى لها؛ ورغم ذلك، كان التمايل أثناء الصلاة والترديد وسائل مريحة لبدء يومه.

كانت أوقات الصباح تقضى في حضور محاضرات في الفلسفة والدين، كان يحضرها بعزيمة شديدة، ومجموعة من الدورات الطبية.

كان يتحسن في اللغة الفارسية، ولكن ثمة أوقات خلال محاضرة ما يجبر فيها على السؤال عن معنى كلمة أو مصطلح. وفي بعض الأحيان يشرح الطلاب الآخرون ولكن في كثير من الأحيان لم يفعلوا ذلك.

وفي صباح أحد الأيام، ذكر سيد سعدي، أستاذ الفلسفة، مصطلح قشتاج -دفتران (نسّاخ علم الفلك).

انحنى روب نحو عباس صيفي الذي جلس بجانبه. «ما معنى قشتاج -دفتران؟».

إلا أن طالب الامتياز الطبي الممتلئ الجسم فقط رمقه بنظرة مستاءة وهزّ رأسه.

شعر روب بوخزة في ظهره. ولمّا استدار رأى كريم هارون يجلس على الطبقة الحجرية خلفه في الأعلى. ابتسم كريم ابتسامة عريضة. وهمس قائلًا: «مجموعة من النسّاخ القدامى. لقد سجّلوا تاريخ علم الفلك والعلوم الفارسية المبكرة». كان المقعد المجاور له فارغًا وأشار إليه.

انتقل روب إليه. ومنذ ذلك الحين، لّما يحضر محاضرة ما يبحث عنه؛ ولو كان كريم حاضرًا، جلسا سويًا.

كان أفضل جزء من يومه هو فترة ما بعد الظهيرة، لّما كان يعمل في البيمارستان. أصبح هذا أفضل في شهره الثالث في المدرسة، لّما جاء دوره لفحص المرضى الجدد. عملية إدخال المرضى في المستشفى أذهلته بتعقيداتها. أظهر له الجوزجاني كيف تمّ ذلك.

«استمع جيدًا، فهذه مسؤولية مهمة».

«نعم، أيها الحكيم». لقد تعلم دائمًا الانصات جيدًا للجوزجاني، لأنه كان يعلم في الوقت ذاته أن الجوزجاني تقريبًا هو أفضل طبيب في البيمارستان بجانب ابن سينا. أخبره نصف دزينة من الأشخاص أن الجوزجاني كان مساعدًا لابن سينا وملازمًا له معظم حياتهما، إلا أن الجوزجاني أصبح من أهل الثقة بسبب معرفته وخبرته.

«يجب عليك تدوين تاريخ المريض بالكامل، وفي أول فرصة تراجعه بالتفصيل مع الطبيب المشرف».

حيث كل مريض كان يسأل عن مهنته وعاداته وتعرضه للأمراض المعدية وآلام الصدر والمعدة والمشكلات البولية. وتنزع جميع الثياب ويجرى فحصًا جسديًا، بما في ذلك الفحص المناسب للبلغم والقيء والبول والبراز وتقييم النبض ومحاولة الكشف عن الحمى من خلال دفء الجلد.

أوضح له الجوزجاني كيفية تمرير يديه على ذراعي المريض في الوقت نفسه، ثم كلا الساقين، ثم كل جانب من جانبي الجسم معًا، بحيث يتم الكشف عن أي خلل أو تورم أو أي خلل آخر لأنه يبدو مختلفًا عن الطرف الطبيعي أو الجانب. وكيفية النقر على جسم المريض بضربات

حادة وقصيرة بأطراف الأصابع في محاولة لاكتشاف المرض من خلال سماع صوت غير طبيعي. كان الكثير من الأمور جديدًا وغريبًا على روب، لكنه سرعان ما أصبح معتادًا على الروتين ووجده سهلًا لأنه عمل مع المرضى لسنوات.

بدأ وقته الصعب في وقت مبكر من المساء، بعد عودته إلى منزله في الحي اليهودي، حيث بدأت المعركة بين الحاجة إلى الدراسة والحاجة إلى النوم. أثبت أرسطو أنه حكيم يوناني قديم وتعلم روب أنه إذا كان الموضوع أخّاذًا، فإن الدراسة تتغير من عمل روتيني إلى متعة. لقد كان اكتشافًا بالغ الأهمية، ربما الشيء الوحيد الذي سمح له بالعمل بإصرار حسب الضرورة، لأن سيد سعدي سارع إلى تكليفه بقراءات من أفلاطون وهرقليطس؛ والجوزجاني، كما لو كان يطلب حطبًا آخر على النار، طلب منه أن يقرأ الاثني عشر كتابًا التي تتناول الطب في كتاب التاريخ الطبيعي لمؤلفه بلينيوس- «كتحضير لقراءة كل كتاب جالينوس العام المقبل»!

كان هناك القرآن الكريم باستمرار للحفظ عن ظهر قلب. وكلما حفظ في ذاكرته، زاد استياؤه. كان القرآن هو الجمع الرسمي لمواعظ النبي، وكانت رسالة محمد هي نفسها بشكل أساسي لسنوات متتالية. كان الكتاب مكررًا عند التكرار، ومليئًا بالافتراء ضد اليهود والنصارى.

إلا أنه كان مثابرًا. باع الحمار والبغل حتى لا يضطر إلى قضاء الوقت في رعايتهما وإطعامهما. كان يأكل وجباته على عجل ودون لذة، ولم يكن للطيش والتلهّي مكان في حياته. كان يقرأ كل ليلة حتى لم يعد قادرًا على القراءة، وتعلم وضع كميات ضئيلة من الزيت في مصابيحه، حتى تنطفئ من تلقاء نفسها بعد أن يسقط رأسه بين ذراعيه وينام فوق كتبه على الطاولة. لقد عرف الآن لماذا منحه الله جسدًا قويًّا وعظيمًا وعينين

جيدتين، لأنه كان يجهد نفسه إلى أقصى حد يفوق قدرته على التحمل لأنه كان يسعى ليصنع من نفسه عالمًا.

* * *

وفي إحدى الأمسيات، أدرك أنه لم يعد بإمكانه المذاكرة وأن عليه الهروب، فرّ من المنزل الصغير في الحي اليهودي وانغمس في الحياة الليلية للميادين.

لقد اعتاد على الساحات البلدية الكبيرة كما كانت خلال النهار، والمساحات المفتوحة المشمسة التي يوجد فيها عدد قليل من الناس يتجولون أو ينامون في رقعة من الظل. إلا أنه وجد أنه بحلول الليل، تمتلئ الساحات بالفجور والحيوية، وتزدحم الاحتفالات الصاخبة بالذكور من الطبقة العامة في بلاد فارس.

بدا الجميع وكأنهم يتحدثون ويضحكون في وقت واحد، مما أدى إلى حدوث ضجة تفوق الضجة التي تغمر مهرجانات جلاستونبوري. تلاعبت مجموعة من المهرجين الذين يصدحون بالغناء بخمس كرات وكانوا يتسمون بالمرح والبراعة، مما أثار في نفسه رغبة في الانضمام إليهم. يتقاتل المصارعون ذوو العضلات، وأجسادهم الثقيلة تلمع بشحوم الحيوانات التي تجعل من الصعب على الخصوم تحقيق النصر، في حين أن المتفرجين يصيحون عليهم ويراهنون. قام محرّكو الدمى بعرض مسرحية تتسم بالبذاءة والخلاعة، وقفز البهلوانيون وتشقلبوا، وباعوا مجموعة متنوعة من الأطعمة والبضائع التي تنافس التجارة العابرة.

توقف روب في أحد أكشاك الكتب المضاءة بالشعلة، حيث كان المجلد الأول الذي فحصه عبارة عن مجموعة من الرسومات. أظهر كل رسم نفس الرجل والمرأة، جرى تصويرهما بذكاء في مجموعة متنوعة من

أوضاع ممارسة الحب التي لم يصادفها حتى في خياله.

قال بائع الكتاب: «الأربعة وستون كاملة بالصور، يا سيدي».

لم يكن لدى روب أدنى فكرة عما كان عليه الأربعة وستون. كان يعلم أنه من المخالف للشريعة الإسلامية بيع أو امتلاك صور للجسم البشري لأن القرآن قال إن الله (عز وجل) هو الخالق الوحيد للحياة. لكنه سار مفتونًا بالكتاب واشتراه.

ذهب بجوار مكان مرطبات حيث كان الهواء خفيفًا مليئًا بالثرثرة وطلب نبيذًا.

«لا يوجد نبيذ». قال النادل المخنث: «هذا تشاي خانا، مقهى شاي. يمكنك احتساء شاي أو شربات، أو ماء ورد مغلي بالحبهان».

«ما هو الشاي؟».

«مشروب ممتاز. إنه يأتي من الهند، على ما أعتقد. أو ربما يصل إلينا عبر طريق الحرير».

طلب روب الشاي وطبقًا من الحلوى.

«لدينا مكان خاص. تريد غلامًا؟».

«لا».

ولّما جاءت المرطبات، كان المشروب ساخنًا جدًّا، وهو سائل بلون العنبر بلا طعم ومثير للاشمئزاز؛ لم يستطع روب أن يقرر ما إذا كان قد أحب المشروب، إلا أن الحلوى كانت رائعة جدًّا. وانبثقت الأغاني من الأروقة العلوية للصالات بالقرب من الميدان، ولّما مرّ عبر الميدان رأى أن الموسيقى كانت تعزف على أبواق نحاسية مصقولة يبلغ طولها ثمانية أقدام. جلس

في تشاي-خانا (مقهى الشاي) المضاء بأضواء خافتة، يحدق في الحشد ويحتسي الشاي بعد الشاي، حتى بدأ الحكواتي يمتّع الزبائن بقصة جمشيد، الرابع من الملوك الأبطال. جذبت الأساطير روب ليس أكثر من اللواط، ودفع للنادل وشقّ طريقه بين الحشد حتى بلغ آخر الميدان. وقف لفترة من الوقت يشاهد العربات التي تجرها البغال والتي كانت تسير ببطء في جميع أنحاء الميدان، لأنه سمع بها من الطلاب الآخرين.

وأخيرًا، نادى على عربة بأربع عجلات مرسوم زنبق على بابها.

وفي الداخل، كان الظلام كثيفًا. انتظرت المرأة حتى بدأت البغال في سحب العربة قبل أن تتحرك.

وسرعان ما تمكن من رؤيتها جيدًا بما يكفي ليعرف أن الجسد الممتلئ كان كبيرًا بما يكفي لتمارس الأمومة بحق معه. وأثناء الممارسة أحبها لأنها كانت عاهرة صادقة؛ لم تقم بأي محاكاة للعاطفة أو التظاهر بالتمتع، لكنها اهتمت به بلطف ومهارة.

وبعد ذلك، سحبت المرأة الحبل، كإشارة إلى الانتهاء، وسحب القوّاد الجالس في مقصورة القيادة البغال حتى تتوقف.

صاح روب: «خذني إلى الحي اليهودي. سأدفع مقابل وقتها».

كانوا مستلقين في حميمية في العربة المتأرجحة. «ما اسمك؟» سأل.

«لورنا». مدرّبة جيدًا، لم تسأل عن اسمه.

«أنا يسي بن بنيامين».

قالت بخجل: «سرّني لقاؤك، أيها الذمي»، ولمست عضلات كتفيه المشدودتين. «لماذا هذه العضلات مثل أناشيط الحبال؟ ما الذي يخيف شابًّا عظيمًا مثلك؟».

قال مبتسمًا في الظلام: «أخشى أن أكون ثورًا في الوقت الذي يجب أن أكون فيه ثعلبًا».

«أنت لست ثورًا، كما عرفت»، قالت بحدة. «ما هي صنعتك؟».

«أنا أدرس في البيمارستان، لأكون طبيبًا».

«آه. مثل شيخ الأطباء. كان ابن عمي طباخًا لزوجته الأولى لمّا كان ابن سينا في أصفهان».

«هل تعرفين اسم ابنته؟» قال بعد لحظة.

«لا توجد ابنة، ابن سينا ليس لديه أطفال. وله امرأتان، رضا الورعة، وهي كبيرة في السن ومريضة، وديسبينا السمجة، وهي شابة وجميلة، ولكن الله (عز وجل) لم يرزق أي من المرأتين بالذرية».

قال روب: «فهمت».

وغشيها مرة أخرى بطريقة مريحة قبل وصول العربة إلى الحي اليهودي. ثم وجّه السائق إلى باب منزله ودفع لهم الكثير من المال لأنه أتاح له الدخول وإضاءة مصابيحه ومواجهة أفضل أصدقائه وألد أعدائه، الكتب.

42

تسلية الشاه

ورغم أنه كان في مدينة ومحاطًا بالناس، لكن كان ينتابه شعور بالعزلة. وكل صباح كان يحتك بطلاب الامتياز الآخرين، وكان يتركهم كل مساء. كان يعلم أن كريم وعباس وبعض الآخرين كانوا يعيشون في حجرات في المدرسة، وافترض أن ميردين والطلاب اليهود الآخرين يعيشون في مكان ما في الحي اليهودي، لكنه لم يكن لديه أي فكرة عما كانت عليه حياتهم بعيدًا عن المدرسة والمستشفى. كان يفترض أن حيواتهم تشبه إلى حد كبير حياته؛ حياة مليئة بالقراءة والدراسة. كان مشغولًا جدًّا ليكون وحيدًا.

أمضى اثني عشر أسبوعًا فقط في إدخال المرضى الجدد إلى المستشفى، ثم كلّف بشيء تعافه نفسه، لأن الأطباء المتدربين يتناوبون على خدمة المحكمة الإسلامية في الأيام التي ينفذ فيها الكيلونتر (قائد الشرطة العسكرية في المدينة) الأحكام.

تهيجت معدته في المرة الأولى التي عاد فيها إلى السجن وسار أمام الكاركان.

قاده أحد الحراس إلى زنزانة حيثما يرقد فيها رجل يتقلّب ويتأوه. حيث كان يجب أن تكون اليد اليمنى للسجين، في شاش من التيل المربوط بخرقَة زرقاء خشنة بجذع، وكان فوقها الساعد منتفخًا بشكل مخيف.

«أيمكنك سماعي؟ أنا يسي».

«نعم يا سيدي»، تمتم الرجل.

«ما اسمك؟».

«أنا دجاهيل».

«دجاهيل، منذ متى وأنت محتجز هنا؟».

هزّ الرجل رأسه في حيرة ودهشة.

قال الحارس: «منذ أسبوعين».

وإبان إزالة الخرقة، وجد كومة من روث الحصان. وبصفته حلاقًا جراحًا، غالبًا ما كان يرى الروث يستخدم بهذه الطريقة وكان يعلم أنه نادرًا ما يكون مفيدًا وربما يكون ضارًّا. نفض الكومة.

ربط الجزء العلوي من الساعد بجانب البتر بقطعة أخرى من التيل. وبسبب التورم، غرق الشّاش في النسيج وبدأت الذراع تتحول إلى اللون الأسود. قطع روب الشاش وغسل الجذع ببطء وحذر. ودهنها بمرهم من خليط من خشب الصندل وماء الورد وحشاها بالكافور مكان الروث، تاركًا دجاهيل يئن لكنه مرتاح.

كان هذا أفضل جزء من يومه، لأنه اقتيد خارج الزنازين إلى فناء السجن حيث يبدأ تنفيذ العقوبات.

لقد كانوا على قدر ما رآهم أثناء احتجازه، باستثناء أنه كان قادرًا على النكوص إلى فقدان الوعي أثناء وجوده في الكاركان. الآن يقف متصلبًا متخشبًا بين الملالي الذين يتلون الصلاة في حين يرفع حارس قوي سيفًا منحنيًا كبيرًا. أجبر السجين، وهو رجل أشهب الوجه مدان بتهمة التحريض على الخيانة والفتنة، على الركوع ووضع خده على الحاجز.

«أنا أحب الشاه! أقبّل قدميه المقدّستين!» صاح الرجل الراكع في محاولة يائسة ليدرأ الحكم عنه، إلا أنه لم يجبه أحد ودوى صليل السيف بالفعل. كانت الضربة ماضية وتدحرج الرأس ليستقر قبالة الكاركان، ولا تزال العيون جاحظة في خوف مؤلم.

أزيل الرفات ثم فتح بطن شاب قبض عليه مع زوجة رجل آخر. وهذه المرة مسك نفس الجلاد خنجرًا طويلًا ورفيعًا، وبدأ يمزّق البطن من اليسار إلى اليمين حتى انبثقت أمعاء الزاني بكفاءة.

ولحسن الحظ، لم يكن هناك قتلة، كان من الممكن أن يسحبوا ويقطّعوا إلى أربعة أجزاء، ثم تقدّم أشلاؤهم تلتهمها الكلاب والطيور التي تقتات بالجيف.

بدأت خدمات روب تطلب بعد تنفيذ العقوبات الطفيفة.

اللص الذي لم يكن حتى رجلًا بلّل نفسه في خوفه وألمه لأن يده قطعت. كانت هناك جرة بها قار دافئ لكن روب لم يكن بحاجة إليها، لأن قوة البتر أغلقت الجذع الذي كان عليه فقط أن يغسله ويضمده.

قضى وقتًا أكثر فوضوية مع امرأة سمينة تبكي أدينت بالاستهزاء بالقرآن للمرة الثانية وبالتالي حرمت من لسانها. انسكب اللون الأحمر من خلال صراخها المبحوح الصامت حتى نجح في تضييق الأوعية الدموية.

ازدهرت موجة الكراهية في داخله ازدهارًا خصبًا تجاه العدالة الإسلامية ومحكمة قندراسه.

قال ابن سينا لطلاب الطب بجدية: «هذه واحدة من أهم أدواتكم». رفع كوب البول، الذي أخبرهم أنه يسمى على النحو الصحيح ماتيولا. كان على شكل جرس، بشفة عريضة منحنية مصمم لجمع البول. قام ابن

سينا بتدريب نافخ زجاج لصنع ماتيولا للأطباء والطلاب.

كان روب يعلم أنه إذا كان البول يحتوي على دم أو صديد، فهناك خلل ما. إلا أن ابن سينا ألقى محاضرات بالفعل لمدة أسبوعين عن البول وحده!

هل كان شَفّافًا أم لزجًا؟ قيّمت التفاصيل الدقيقة لرائحة البول ونوقشت. هل كان هناك ذرات خفيفة من السكر؟ رائحة الجير التي تدل على وجود الحصوات؟ الحموضة التي تشير إلى مرض الهزال؟ أم درجة اخضرار تفيد أن الشخص أكل الهليَون؟

هل كان تدفق البول غزيرًا، مما يعني أن الجسم كان يتخلص من المرض، أو يحتفظ به، مما قد يشير إلى أن الحمى الداخلية تجفف السوائل في أجهزة الجسم؟

أما فيما يتعلق بلون البول، فقد علمهم ابن سينا أن ينظروا إلى البول بعين الرسام الذي يرى لوحة ألوانه، التي تضم إحدى وعشرين درجة من اللون، من الصافي إلى الأصفر، والأصفر المائل إلى البني الداكن، والأحمر والبني، إلى الأسود، مع إظهار التوليفات المختلفة للمحتوى، أو المكونات غير المنحلة.

لماذا كل هذه الجلبة حول البول؟ سأل روب نفسه متبرمًا. «لماذا البول مهم جدًّا؟» سأل.

ابتسم ابن سينا. «إنه يأتي من الداخل، حيث تحدث أشياء مهمة». قرأ لهم الطبيب الشيخ الرئيس مجموعة مختارة من جالينوس تشير إلى أن الكلى هي الأعضاء اللازمة لتصفية البول وتنقيته:

يعرف أي قَصّاب هذا انطلاقًا من حقيقة أنه يرى كل يوم موقع الكلى

والقناة (تسمى الحالب) التي تمتد من كل كلية إلى المثانة، ومن خلال دراسة هذا التشريح فإنه يفسر ماهية استخدامها وطبيعة وظائفها.

انتهت المحاضرة وروب منفعل وغضبان. لا ينبغي للأطباء أن يتشاوروا مع الجزّارين، أو أن يتعلموا من الأغنام والخنازير الميتة كيف نشأ البشر. إذا كان من المهم للغاية معرفة ما يحدث داخل أجسام الرجال والنساء، فلماذا لا يشرّحون أجساد الرجال وأجساد النساء؟ إذا كان من الممكن الإفلات دون مبالاة من ملالي قندراسه من أجل التزاوج أو الإسراف في الشراب، فلماذا لم يجرؤ الأطباء على تجاهل الرجال المقدسين لاكتساب المعرفة؟ لم يتحدث أحد عن التشويه الأبدي أو إحياء الموتى لمّا أصدرت محكمة دينية حكمًا بقطع رأس السجين أو يده أو لسانه أو شقّ بطنه.

وفي وقت مبكر من صباح اليوم التالي، توقف اثنان من حراس قصر الخووف، يقودان عربة يجرها بغل محمّلة بالإمدادات الغذائية، وتوقفت في الحي اليهودي لإحضار روب.

قال أحد الجنود: «جلالته سيذهب في زيارة اليوم، يا سيدي، ويحظى بمرافقتك».

فما العمل الآن؟ سأل روب نفسه.

«قائد الحرس يستحثك على الإسراع». تنحنح الجندي بتحفظ. «ربما يكون من الأفضل أن يرتدي سيدي أجمل ثيابه». قال روب: «أنا أرتدي أفضل ثيابي»، وأجلسوه في مؤخرة العربة فوق بعض جوالات الأرز وأسرعوا به بعيدًا.

لقد سافروا خارج المدينة في خط مروري يتألف من رجال الحاشية الذين يمتطون ظهور الخيل ويجلسون في الكراسي الحمّالة، وامتزجوا بجميع أنواع العربات التي تنقل المعدات والإمدادات. وعلى الرغم من

مكانته المألوفة، انتابه شعور بالعظمة والملكية، لأنه لم يسافر من قبل على الطرق المرصوفة بالحصى والمرشوشة بالمياه حديثًا. كان أحد جوانب الطريق، حيث قال الجنود إن الشاه وحده هو الذي سيسافر عليه، منثورًا بالورود.

وانتهت الرحلة في منزل روتون بن نصر، القائد العام للجيش، وأحد أبناء عمومة علاء شاه من بعيد، والمدير الفخري للمدرسة. قال أحد الجنود لروب: «هذا هو»، وهو يشير إلى رجل سمين، منبسط الأسارير، طلق اللسان، جذّاب الانتباه.

كانت العزبة الجميلة تضم مساحات شاسعة من الأراضي. سوف يبدأ الحفل في حديقة منسقة، تتوسطها نافورة رخامية كبيرة يتفجر منها الماء. وفي جميع أنحاء المسبح، انتشرت المنسوجات المشغولة بالحرير والذهب، وتناثرت الوسائد المطرزة الفاخرة. سارع الخدم في كل مكان، حاملين صوانًا من الحلوى والمعجنات والنبيذ العطري والمياه المعطّرة. وبالقرب من بوابة على جانب واحد من الحديقة، ثمة رجل مجبوب يحمل سيفًا مسلولًا يحرس البوابة الثالثة المؤدية إلى الحرم. وبموجب الشريعة الإسلامية، يسمح فقط لرب البيت بدخول مسكن النساء وأي ذكر آخر معتد يمكن تمزيق بطنه، لذلك كان روب سعيدًا بالابتعاد عن البوابة الثالثة. أوضح الجنود أنه لا يتوقع منه تفريغ العربة أو أداء عمل ما بخلاف ذلك، وسار خارج الحديقة إلى منطقة مفتوحة مجاورة مزدحمة بالحيوانات والنبلاء والعبيد والخدم وحشد من المهرجين الذين ظهروا جميعًا وهم يقدمون العروض في الوقت نفسه.

تجمعت مجموعة من المخلوقات ذات القوائم الأربع. ربطت عشرات من أفضل الفحول العربية البيضاء التي لم يسبق له أن رآها على بعد عشرين خطوة، بإحكام وفخر، بعيون داكنة شجاعة. كانت زخارفها تستحق

الفحص الدقيق، حيث كان أربعة من الألجمة مزينًا بالزمرد، واثنان بالياقوت، وثلاثة بالماس، وثلاثة بمزيج من الأحجار الملونة لم يستطع التعرف عليها. كانت الخيول متّشحة بثياب متدلية قصيرة تشبه الدثر من الاستبرق من الذهب والمرصعة باللآلئ، ومربوطة بخيوط من الحرير والذهب لحلقات فوق مسامير ذهبية سميكة دفعت إلى الأرض.

ثمة حيوانات برية على بعد ثلاثين خطوة من الخيول: أسدان، ونمر، وفهد، كلها أنواع رائعة، كل منها على قطعة كبيرة من نسيج قرمزي، مربوطة بنفس طريقة الخيول وبوعاء ماء من الذهب.

وفي حظيرة ما وراءه، وقفت نصف دزينة من الظباء البيضاء ذات القرون الطويلة المستقيمة التي أشبه بالسهام -على عكس أي غزال في إنجلترا!- سويًّا وراقبوا القطط بعصبية، التي رمشت في وجوههم بأعين يغلب عليها النعاس. إلا أن روب أمضى القليل من الوقت مع هذه الحيوانات ولم يكن ينظر إلى المصارعين والملاكمين ورماة السهام وما شابه، واندفع أمامهم نحو شيء ضخم جذب انتباهه على الفور، حتى وقف أخيرًا على مسافة قريبة من أول فيل نشيط.

لقد كان أضخم مما كان يتوقع، وأكبر بكثير من تماثيل الأفيال النحاسية التي رآها في القسطنطينية. وقف الحيوان بمقدار النصف مرة أخرى أعلى من رجل طويل القامة. كانت كل واحدة من أرجله الأربع عمودًا قويًّا ينتهي بقدم مستديرة تمامًا. بدا جلده المتجعد كبيرًا جدًّا على جسمه وكان رماديًّا، وعليه بقع وردية كبيرة مثل كتل الطحالب على الصخور. كان ظهره المقوس أعلى من الكتف أو الردف، الذي يتدلى منه حبل سميك من الذيل بنهاية مهترئة. تسبب الرأس الضخم في جعل العينين الورديتين تبدوان صغيرتان بالمقارنة، على الرغم من أنهما لم تكونا أصغر من عيني الحصان. وعلى الجبهة المنحدرة كان يوجد سنامان صغيران، كما لو أن

القرنان كانا يحاولان جاهدين اختراقهما. كانت كل أذن تلوح برفق تقريبًا بحجم درع المحارب، إلا أن الميزة الأكثر استثنائية لهذا المخلوق الاستثنائي كانت أنفه، التي كانت أطول وأثخن بكثير من ذيله.

كان الفيل تحت رعاية رجل هندي صغير العظام يرتدي سترة رمادية اللون وعمامة بيضاء ووشاحًا وسروالًا، وقد أخبر روب لمّا سأله أنه كان «هارشا»، فَيّال أو مرَوّض أفيال. كان الفيل هو المنصة القتالية الشخصية لعلاء شاه، وكان يطلق عليه اسم «ذي»، وهو اختصار لـ«ذي القرنين»، تكريمًا للنتوءات العظمية الكبيرة، المنحنية ولأن روب كان طويل القامة، استطاع أن يرى هذه النتوءات التي تمددت من الفك العلوي للحيوان.

قال الهندي بفخر: «لمّا ندخل المعركة، يرتدي «ذي» درعه الخاص ويثبّت سيوفه الطويلة الحادة على أنيابه. لقد تدرّب على الهجوم والمباغتة، بحيث تكون مهمة جلالته على فيل الحرب الصاخب هي الرؤية والصوت لتجميد دماء أي عدو».

أبقى الفيّال الخدم مشغولين في حمل أسطال الماء. ثم أفرغت هذه الأسطال في إناء ذهبي كبير يمتص الحيوان منه الماء في أنفه ثم يرشه من فمه!

مكث روب بالقرب من الفيل حتى أعلن دوي الطبول والصّنوج وصول الشاه، ثم عاد إلى الحديقة مع الضيوف الآخرين.

ارتدى علاء شاه ثياب بيضاء بسيطة، على عكس الضيوف، الذين ربما ارتدوا ثياب خاصة بشؤون الدولة. أدّى سجود «روي زمين» (الوجه على الأرض) بإيماءة وأخذ مكانه على كرسي فخم فوق الوسائد الوثيرة بالقرب من المسبح.

بدأ الترفيه بعرض المبارزين الذين يلوّحون بالسيوف المحدبة بقوة

ورشاقة لدرجة أن الحاضرين هدؤوا وانتبهوا لصدام الفولاذ على الفولاذ، وهو الدوران المنمق لممارسة قتالية مثل طقوس الرقص. وأشار روب إلى أن السيف الأحدب الذي كان أخف من السيف الإنجليزي وأثقل من السيف الفرنسي؛ لقد تطلّب مهارة المبارز في الدفع والطعن ومعصمي وذراعي القراصنة القويين. لقد انتابته الحسرة لمّا انتهى العرض.

قدّم الساحر البهلوان عرضًا رائعًا حافلًا بزرع بذرة في الأرض وسقيها وتغطيتها بقطعة قماش. وخلف ستار من الأجسام المتشقلبة، في ذروة حركاتهم البهلوانية، أزال أحدهم قطعة القماش، وغرز غصنًا مورقًا في الأرض، وغطّاه مرة أخرى. كان كل من التحويل والخداع واضحين للعيان لروب، الذي كان يراقبهما، وكان العرض مسليًا لمّا أزيل القماش أخيرًا وصفق الحشد لظهور «الشجرة السحرية النامية».

بدا جليًا أن علاء شاه كان جزعًا لمّا بدأت المصارعة. صاح قائلًا: «قوسي الطويل».

ولمّا وصل ربطه وفكه، مبينًا لحاشيته مدى سهولة ثنيه للسلاح الثقيل. تمتم المقربون منه بإعجابهم بقوته، بينما استغل الآخرون حالة الاسترخاء لتجاذب أطراف الحديث، والآن عرف روب السبب وراء دعوته؛ بصفته أوروبيًا، كان يبدو غريبًا مثل أي من الحيوانات أو المهرجين، وكان الفرس يمتّعونه بالأسئلة.

«هل لديك شاه في بلدك، ذلك المكان الذي يسمى ...؟».

«إنجلترا. نعم، لدينا ملك. اسمه الملك كانوت».

«هل الرجال في بلدك محاربون وفرسان؟» سأل رجل عجوز بعيني حكيم بفضول شديد.

«نعم، نعم، محاربون عظماء، وفرسان رائعون».

«ماذا عن الطقس والمناخ؟».

قال لهم إن الطقس أكثر برودة ورطوبة من هنا.

«ماذا عن الطعام؟».

«إنه مختلف عن طعامكم، لا يحتوي على الكثير من التوابل. ليس لدينا طعام البيلاه».

صدمهم الرد. قال الرجل العجوز بازدراء: «ليس لديكم طعام البيلاه».

لقد أحاطوا به، ولكن بدافع الفضول وليس بدافع الصداقة، وانتابه شعور بالعزلة في وسطهم.

قام ونهض علاء شاه من كرسيه. «دعونا نمتطي صهوة الجياد!» صاح بفارغ الصبر، وتدفقت الحشود وراءه إلى ميدان قريب، تاركين المصارعين يزأرون ويجرّون بعضهم بعضًا.

«الكرة والعصا، الكرة والعصا!» صاح أحدهم، ودوى تصفيق فوري.

وافق الشاه على ذلك قائلًا: «دعونا نلعب»، واختار ثلاثة رجال ليكونوا زملاءه في الفريق وأربعة رجال لمواجهتهم.

كانت الخيول التي قادها مروضو الخيول إلى الميدان أمْهَارًا صغيرة شرسة بكفوف أصغر من الفحول البيضاء المدللة. ولّما امتطى الجميع صهوة الخيول، منح كل لاعب عصا طويلة ليّنة معقوفة في نهايتها.

وفي كل طرف من نهاية الميدان الطويل كان هناك عمودان حجريان، يفصل بينهما نحو ثماني خطوات. تقدّم كل فريق بخيوله نحو هذه الأهداف واصطفوا أمامها، حيث يواجه الفرسان بعضهم بعضًا مثل

الجيوش المتصارعة. وقف ضابط بالجيش بصفته حكمًا جانبًا ودحرج كرة خشبية، بحجم تفاحة إكسماوث، في وسط الميدان.

بدأت الحشود في الصياح. اندفعت الخيول بعنف بعضها نحو بعض تركض بسرعة شديدة مميتة، وكان الفرسان يصيحون ويلوّحون بعصيهم.

يا إلهي، ارتاع روب جيه. احترس، احترس! تجمعت ثلاثة من الخيول بصوت مقزز وسقط أحدهم وتدحرج، مما أدى إلى طيران فارسه. أحضر الشاه عصاه وضرب الكرة الخشبية بصوت عال، وسقطت الخيول خلفها فجأة مع العشب المتطاير وقرع الحوافر.

كان الحصان الساقط يصهل بصوت عال وهو يكافح للوقوف على عرقوب مكسور. جاءت عشرات الفرسان وقطعوا عنقه وجرّوه من الميدان قبل أن يقفز فارسه ليمتطي صهوته. كان يمسك بذراعه اليسرى ويبتسم ابتسامة عريضة كشفت عن أسنانه المطبقة.

اعتقد روب أن ذراعه قد كسرت، واقترب من الرجل المصاب. «هل يمكنني المساعدة؟».

«هل أنت طبيب؟».

«حلاق جراح وطالب في البيمارستان».

تجهّم النبيل في وجهه دهشًا في اشمئزاز. «لا، لا. يجب أن نستدعي الجوزجاني»، ثم اقتادوه بعيدًا.

انضم حصان ورجل آخر إلى اللعبة في الحال. يبدو أن الفرسان الثمانية نسوا أنهم كانوا يلعبون ولا يخوضون معركة. ضربوا خيولهم بعضهم ضد بعض، وفي محاولاتهم للقذف بالكرة ودفعها بين عوارض المرمى،

ضربوا بشكل خطير بالقرب من خصومهم والخيول. حتى خيولهم لم تكن في مأمن من عصيهم، لأن الشاه غالبًا ما كان يضرب الكرة عن قرب خلف حوافر حصانه الطائر وأسفل بطن الحيوان.

لم يؤخذ بالشاه رأفة. يبدو أن الرجال الذين كانوا سيقتلون بلا شك إذا ألقوا نظرة غاضبة على سيدهم الحاكم الآن كانوا سيبذلون قصارى جهدهم لتشويهه، ومن همهمات المتفرجين وهمساتهم، ارتأى روب جيه أنهم لن يشعروا بالاستياء إذا ضرب علاء شاه أو أصيب برمية.

هو لم يكن كذلك. مثل الآخرين، امتطى الشاه جواده متهورًا، ولكن بمهارة أفقده الحس ليرى، ووجه فرسه القزم دون استخدام يديه، التي تمسك بالعصا، مع القليل من ساقيه المتدليتين. وبدلًا من ذلك، حافظ علاء الدولة على جلسة تتسم بالقوة والثقة وركب كما لو كان امتدادًا لحصانه. لقد كان ذلك معيارًا لركوب الخيل لم يصادفه روب مطلقًا، وكان يفكر بإحراج شديد في الرجل العجوز الذي سأل عن الفروسية الإنجليزية وكان روب مطمئنًا إلى تميزها.

كانت الخيول مصدر إعجاب، لأنها تتبع الكرة دون إبطاء السرعة، إلا أنه كان بإمكانها القيادة على الفور والركض في الاتجاه المعاكس، ومرة أخرى، منع هذا التحكم الدقيق الخيول والفرسان من الإمالة نحو عوارض المرمى الحجرية.

امتلأ الهواء بالغبار وصاح المتفرجون بصوت أجش. قرعت الطبول وصدرت أصوات الصنوج في نشوة لمّا أحرز شخص ما هدفًا، وفي الحال دفع فريق الشاه الكرة بين العوارض خمس مرات إلى خصومهم الثلاثة، وانتهت المباراة. التمعت عينا علاء الدولة بارتياح لأنه ترجّل عن جواده، ولأنه أحرز هدفين بنفسه. وفي الاحتفال، لمّا اقتيدت الأمهار بعيدًا، وضع ثوران صغيران في وسط الميدان وأطلق سراح أسدين عليهما. كانت

المنافسة غير عادلة بشكل محير، لأنه لم يكد يتم إطلاق سراح القطط العظيمة حتى سحب الثوران بمعرفة مدربيهم وهشمت رؤوسهما بالفؤوس، ثم سمح للقطط بتمزيق الأجساد التي لا تزال ترتعش.

أدرك روب أن هذه المساعدة البشرية قدمت لأن علاء شاه كان أسد بلاد فارس. كانت ستكون دلائل غير لائقة وأكثر شرًّا أن ينتصر مجرد ثور على رمز القوة والمنعة لملك الملوك، عن طريق سوء الحظ أثناء الترفيه الخاص به.

ففي الحديقة، تمايلت أربع فتيات محجبات ورقصن على أنغام المزامير في حين أن شاعرة حورية صدحت بالغناء، نساء الجنة العذراوات الناضرات.

لم يكن للإمام قندراسه أي اعتراض؛ على الرغم من أنه في بعض الأحيان يمكن رؤية انحناءة الأرداف أو بروز الأثداء في الثياب الفضفاضة لفساتينهم السوداء الضخمة، لكن ظهرت الأيادي التي تؤشر فقط، والأقدام التي فركت بخضاب اللون الأحمر من الحناء حيث كان النبلاء المجتمعون يحدّقون في نهم؛ وتذكروا المفاتن الأخرى المخضبة بالحناء المخبأة تحت القماش الأسود.

نهض علاء شاه من كرسيه وابتعد عن المحيطين المتحلقين حول المسبح، وتجاوز الحارس المجبوب الذي يحمل سيفه العاري، ودخل منطقة الحرم.

بدا أن روب هو الوحيد الذي كان يحدّق بعد الملك لمّا جاء الخووف، قائد الحرس، وبدأ في حراسة البوابة الثالثة مع الحارس المجبوب. ارتقى مستوى الحديث الواضح؛ في الجوار، ضحك الجنرال روتون بن نصر، الذي استضاف حفل تسلية الملك ورب البيت، بصوت عال جدًّا على

مزحته، كما لو أن علاء شاه لم يذهب إلى زوجاته على مرأى من نصف البلاط. هل هذا إذًا ما يمكن توقعه من أقوى سيد في الكون؟ سأل روب نفسه.

وفي غضون ساعة، عاد الشاه وبدا لطيفًا. انزلق الخووف بعيدًا عن البوابة الثالثة وأعطى إشارة غير محسوسة، وبدأت الوليمة.

أفضل طبق أبيض وضع على إستبرق من أقمشة مدينة قم. أحضرت أربعة أنواع من الخبز، وأحد عشر نوعًا من البيلاه في أحواض فضية كبيرة جدًّا كان من الممكن تقديمها في طبق واحد. كان الأرز في كل حوض ذي لون ونكهة مختلفة، حيث أعد مسبقًا بالزعفران أو السكر أو الفلفل أو القرفة أو القرنفل أو الراوند أو عصير الرمان أو عصير الليمون الحامض. أربع من الصواني الضخمة كانت تحتوي كل منها على اثني عشر طائرًا من الطيور الداجنة، اثنان منها يحتويان على أوراك الغزال المطهو، وواحدة تحتوي على أكوام عالية من لحم الضأن المشوي، وأربع تحتوي على حملان كاملة جرى طهيها على الأسياخ حتى تصبح طرية ومليئة بالعصارة.

أيها الحلاق، أيها الحلاق، من المؤسف أنك لست هنا!

بالنسبة لمن تعلم تقدير الطعام اللذيذ من قبل مثل هذا المعلم، في الأشهر الأخيرة، حصل روب على أكثر من نصيبه من الوجبات السريعة والمتقشفة بهدف تكريس نفسه لحياة الباحث. الآن تنهد وذاق كل شيء بإصرار.

ولّما تحولت الظلال الكثيفة إلى الغسق، قام العبيد بتثبيت الشموع الضخمة في الدروع القرنية للسلاحف الحية وأضاؤوها. حملت أربع قصاع كبيرة الحجم، ثم سحب كل منها من المطبخ على أعمدة؛ كانت

إحداهما مليئة بحلوى الكريمة المصنوعة من بيض الدجاج، والأخرى تحتوي على الحساء الصافي الغني بالأعشاب، والأخرى مليئة باللحم المفروم الحامض اللاذع مع التوابل، والأخيرة مليئة بكتل من السمك المقلي من نوع غير مألوف لروب، اللحم أبيض ومقشر مثل سمك الموسي ولكن مع نعومة سمك السلمون المرقط.

تحولت الظلال إلى الظلام. ناحت طيور الليل؛ وإلا كانت الأصوات الوحيدة هي أصوات التمتمات الناعمة، والتجشؤ، وتقطيع الطعام وسحقه. ومن حين لآخر تتنهد سلحفاة وتتحرك، والضوء المنسكب من شمعتها يرتحل ويرتجف، مثل ضوء القمر الذي يتراقص على صفحة الماء.

وما زالوا يأكلون.

كان هناك طبق من السلاطة الشتوية، وأعشاب الجذر تقدم مسبقًا في ماء مالح. وصحن من السلاطة الصيفية الي تحتوي على الخس الروماني وخضار الفلفل المرة التي لم يسبق له أن تذوقها من قبل.

وضعت قصعة عميقة أمام كل شخص وملأت بشربات حلو ومر. وحمل الخدم في الحال قوارير من الخمر مصنوعة من جلود الماعز وأكواب، وأطباق من المعجنات والمكّسرات المحلاة بالعسل والبذور المملحة.

جلس روب بمفرده واحتسى الخمر الجيد، دون أن يتحدث أو يوجه إليه حديث، وهو يراقب ويشاهد ويستمع إلى كل شيء بنفس الفضول الذي تذوق به الطعام.

أفرغت قوارير الخمر المصنوعة من جلود الماعز وجلبت غيرها مملوءة بالكامل، وهي كمية لا تنضب من مستودعات الشاه. نهض الحاضرون وخرجوا لقضاء الحاجة أو للتقيؤ. كان البعض مخمورًا وخاملًا من

الشراب.

تحرّكت السلاحف معًا، ربما بدافع التوتر، حيث تجمعت الأضواء في زاوية وتركت بقية الحديقة في ظلام دامس. وصدح صبي مجبوب بالغناء على قيثارة بصوت عال وعذب وأنشد أغنية المحاربين والحب، متجاهلًا حقيقة أن رجلين كانا يتقاتلان بالقرب منه.

«شق عاهرة»، أحدهم يزمجر حتى الثمالة.

«وجه يهودي!» بصق الآخر.

تصارعوا وتدحرجوا حتى انفصلوا وجرجروهم.

وفي النهاية أصيب الشاه بالغثيان ثم أصبح مغشيّ عليه، ونقل إلى عربته.

وبعد ذلك، انزلق روب بعيدًا. غاب القمر وصار الطريق بدءًا من ضيعة روتون بن نصر طريقًا يصعب اتباعه.

وبدافع الحاجة الملحة العميقة والمريرة، سار على جانب طريق الشاه وذات مرة توقف ليفرغ مثانته لبرهة طويلة وبطريقة مرضية على الزهور المتناثرة.

مرّ عليه الفرسان والمركبات التي يقودها السائقون، إلا أنه لم يعرض عليه أحد توصيله، واستغرق الأمر ساعات للعودة إلى أصفهان. لقد اعتاد الحارس على الشاردين المتلكئين العائدين من حفل تسلية الشاه، ولوّح له الجندي بضجر عبر البوابة.

وفي منتصف الطريق في أصفهان توقف روب وجلس على جدار منخفض وظل يتأمل في أغرب المدن، حيث كل شيء حظره القرآن وحرّمه ارتكبه الناس. سمح للرجل بأربع زوجات ولكن يبدو أن معظم الرجال

كانوا على استعداد للمخاطرة بالموت لمضاجعة نساء أخريات، في حين أن علاء شاه كان يفترش من النساء من يشاء علانية. نهى النبي عن شرب الخمر باعتباره خطيئة، ورغم ذلك كان هناك شغف وطني للخمر وشربت نسبة كبيرة من السكان بإفراط، وكان الشاه يمتلك مستودعًا كبيرًا من النبيذ الفاخر.

وفي تلك الأثناء التي كان يتأمل فيها اللغز الذي يسمى بلاد فارس، عاد إلى منزله على أرجل غير ثابتة تحت سماء متلألئة وعلى صوت المؤذن الجميل الذي يتدفق من مئذنة مسجد الجمعة.

43

الفريق الطبي

اعتاد ابن سينا على التشاؤم الزائف للإمام قندراسه، الذي لم يستطع السيطرة على الشاه، لكنه كان يحذر مستشاريه بصرامة متزايدة من أن شرب الخمر والفجور يجلبان الانتقام من قوة تعلو قوة العرش. ولهذه الغاية، كان الوزير يجمع المعلومات الاستخباراتية من الخارج ويقدم نموذجًا من الأدلة على أن الله (العلي القدير) كان غاضبًا من المذنبين في جميع أنحاء الأرض.

جلب المسافرون على طول طريق الحرير أخبارًا عن الزلازل الكارثية والضباب المهلك في جزء من الصين التي أغرقها نهرا اليانغتسي وهواي. وفي الهند، بعد عام من الجفاف هطلت أمطار غزيرة في الربيع، إلا أن المحاصيل اليانعة التهمتها آفَة الجراد. كانت العواصف العاتية قد ضربت ساحل بحر العرب، مما تسبب في فيضانات أسفرت عن غرق الكثيرين، في حين أنه في مصر حدثت مجاعة بسبب انخفاض منسوب مياه النيل إلى المستوى المطلوب. وفي بلوشستان، انفلق جبل يتصاعد منه الدخان وتفجّر منه نهرًا من الصخور المنصهرة. وذكر اثنان من الملالي في ناين أن الشياطين ظهرت لهما أثناء نومهما. وبالضبط قبل صيام شهر رمضان بشهر واحد حدث كسوف جزئي للشمس، ثم ظهرت السماء تحترق، وشوهدت حرائق سماوية غريبة.

جاء أسوأ نذير شؤم على سخط الله من المنجمين الملكيين، الذين أبلغوا في هلع شديد أنه في غضون شهرين سيكون هناك اقتران كبير بين

الكواكب الثلاثة الكبرى: زحل، والمشتري، والمريخ، في برج الدلو. كانت هناك خلافات حول التاريخ المحدد لحدوث ذلك، ولكن لم يكن هناك خلاف حول خطورته. حتى ابن سينا سمع الخبر بجدية؛ لأنه كان يعلم أن أرسطو قد كتب عن الخطر الكامن في اقتران المريخ والمشتري.

لذلك بدا الأمر قدرًا محتومًا لمّا استدعى الإمام قندراسه ابن سينا ذات صباح مشرق ومخيف، وأخبره أن الطاعون قد تفشى في مدينة شيراز، أكبر مدينة في إقليم آنشان.

«أي طاعون؟»

قال الإمام: «الموت».

امتقع وجه ابن سينا وتمنّى أن يكون الإمام مخطئًا؛ لأن الموت كان غائبًا عن بلاد فارس ثلاثمئة عام، لكن عقله ذهب مباشرة إلى المشكلة. «يجب أن تصدر الأوامر إلى الجنود ليسيروا على طريق التوابل في الحال، لإعادة جميع القوافل والمسافرين القادمين من الجنوب، ويجب أن نرسل فريقًا طبيًّا إلى آنشان».

قال الإمام: «نحن لا نكسب كثيرًا من حصيلة الضرائب في آنشان»، إلا أن ابن سينا هزّ رأسه.

«من مصلحتنا الذاتية احتواء المرض؛ لأن الموت ينتقل بسهولة من مكان إلى آخر».

وبحلول الوقت الذي عاد فيه إلى منزله، قرر ابن سينا أنه لا يمكنه إرسال مجموعة من زملائه في العمل؛ لأنه إذا وصل الطاعون إلى أصفهان، فستكون هناك حاجة إلى الأطباء في أراضيهم، وبدلًا من ذلك سوف يختار طبيبًا واحدًا وفريقًا من المتدربين.

وقرر أنه يجب استغلال حالة الطوارئ لاختيار الأفضل والأقوى، وبعد تفكير وتروٍ أخذ ابن سينا الريشة والحبر والورق وكتب:

حكيم فاضل بن برفيز، القائد

سليمان الجمل، طالب السنة الثالثة

ويسي بن بنيامين، طالب السنة الأولى

وميردين عسكري، طالب السنة الثانية

يجب أن يحتوي الفريق أيضًا على بعض الطلاب من أضعف المرشحين في المدرسة، من أجل منحهم فرصة واحدة أرسلها الله لهم لتحسين سجلاتهم الدراسية غير المواتية والاستمرار في أن يصبحوا أطباء، ولهذه الغاية أضاف إلى القائمة الأسماء التالية:

عمر نيفاهند، طالب السنة الثالثة

عباس صيفي، طالب السنة الثالثة

علي راشد، طالب السنة الأولى

كريم هارون، طالب في السنة السابعة.

ولمّا تجمّع الشبان الثمانية وأخبرهم شيخ الأطباء أنه سيرسلهم إلى آنشان لمحاربة الموت، لم يتمكنوا من النظر إليه أو النظر إلى بعضهم بعضًا؛ كان الأمر مخجلًا.

قال ابن سينا: «يجب أن يرتدي كل واحد منكم السلاح؛ لأنه من المستحيل تحديد الكيفية التي سيتصرف بها الناس لمّا يتفشّى الوباء».

ثمة تنهيدة طويلة مرتجفة أطلقها عليّ راشد، كان يبلغ من العمر

ستة عشر عامًا، وهو صبي مستدير الوجنتين بعينين رقيقتين، حنّان إلى عائلته في مدينة همذان لدرجة أنه كان يبكي ليل نهار ولا يستطع أن يجتهد في دراسته.

أجبر روب نفسه على التركيز على ما قاله ابن سينا.

«... لا يمكننا أن نخبركم كيف تحاربونه؛ لأننا لم نعاصره في حياتنا، إلا أن لدينا كتابًا ألفه قبل ثلاثة قرون أطباء نجوا من الأوبئة في أماكن مختلفة، سنعطيكم هذا الكتاب، لا شك أنه يحتوي على العديد من النظريات والعلاجات ذات القيمة القليلة، ولكن قد يكون من بينها معلومات ستكون ذا نفع». داعب ابن سينا لحيته. «في مقابل احتمال أن يكون سبب الوفاة هو تلوث الغلاف الجوي الناجم عن الروائح السائلة الآسنة، أعتقد أنه يجب عليكم أن تضرموا النيران الضخمة من الأخشاب العطرية بالقرب من المرضى والأصحاء. يجب على الأصحاء أن يغتسلوا بالنبيذ أو الخل ويرشوا منازلهم بالخل، ويجب أن يتشمموا رائحة الكافور والمواد المتطايرة الأخرى.

«أنتم الذين ستعتنون بالمرضى يجب أن تفعلوا هذه الأشياء أيضًا، ويحسن بكم أن تضعوا على أنوفكم إسفنجات مبللة بالخل عندما تقتربون من المصابين، وأن تغلوا كل الماء قبل الشرب لتنقيته وفصل الشوائب. ويجب أن تعتنوا بأياديكم يوميًا؛ لأن القرآن يقول أن الشيطان يختبئ تحت الأظافر».

تنحنح ابن سينا من حلقه. «أولئك الذين ينجون من هذا الطاعون يجب ألا يعودوا على الفور إلى أصفهان، لئلا تأتوا به إلى هنا. ستذهبون إلى منزل يستقر على صخرة إبراهيم، على بعد مسيرة يوم واحد من شرق بلدة نابن، ومسيرة ثلاثة أيام ناحية الشرق من هنا. هناك سوف تنعمون بالراحة لمدة شهر قبل العودة إلى الوطن. هل هذا مفهوم؟»

أومأوا جميعًا بالموافقة. قال حكيم فاضل بن برفيز بصوت مرتجف: «نعم يا سيدي»، متحدّثًا باسم الجميع في منصبه الجديد. كان الشاب عليّ يبكي بصمت. اسودّ وجه كريم هارون الوسيم وهو يتوجس شرًّا.

أخيرًا تحدث ميردين عسكري. «زوجتي وأولادي ... يجب أن أتخذ الترتيبات اللازمة للتأكد من أنهم سيكونون على ما يرام إذا ...».

أومأ ابن سينا برأسه. «من منكم لديه مسؤوليات أمامه ساعات وجيزة فقط للقيام بهذه الترتيبات».

لم يعرف روب أن ميردين كان زوجًا وأبًا، كان الطالب اليهودي ذاتي الاعتماد والخصوصية، واثقًا من نفسه في قاعة الدرس وكذلك في البيمارستان، إلا أن شفتيه كانتا شاحبتين، وتتحركان في صلاة صامتة.

كان روب جيه خائفًا مثل أي شخص آخر من إرساله في هذه المهمة التي قد لا يعود منها، إلا أنه جاهد من أجل الشجاعة. قال لنفسه على الأقل أنه لم يعد مضطرًّا للعمل جراحًا في السجن.

قال ابن سينا وهو يحدّق بهم بعيني الأب: «شيء آخر». «يجب أن تحتفظوا بالملاحظات الدقيقة التي سوف تسجلونها لأولئك الذين سيحاربون الطاعون القادم، ويجب أن تتركوا هذه الملاحظات في مكان يسهل العثور عليها فيه إذا أصابكم مكروه».

* * *

وفي صباح اليوم التالي، لمّا غمرت الشمس قمم الأشجار، تناثروا فوق الجسر على نهر الحياة، وكان كل رجل منه يمتطي صهوة جواد عظيم ويسوق إما حصانًا أو بغلًا.

وبعد مرور فترة من الوقت، اقترح روب على فاضل إرسال رجل إلى

الأمام بصفته كشّافًا، وراكب آخر بعيدًا كحارس لمؤخرة المسيرة. تظاهر الحكيم الشاب بالتفكير ثم صاح معلنًا هذه الأوامر.

وفي تلك الليلة وافق فاضل على الفور لمّا اقترح روب نفس نظام الحراس المتناوبين الذي استخدمته قافلة كيرل فريتا.

تحلّقوا حول النار التي تتغذى على أجمة الأشواك، وتبادلوا بالتناوب المزاح والتجهم.

قال سليمان الجمل بقسوة: «أعتقد أن جالينوس لم يكن حكيمًا قطّ حينما اعتبر أن اختيار الطبيب هو الإجراء الأنسب أثناء تفشي الطاعون». «قال جالينوس إن الطبيب يجب أن يهرب من الطاعون، ليعيش ويقدم العلاج في يوم آخر، وهذا بالضبط ما فعله بنفسه».

قال كريم: «أعتقد أن الطبيب العظيم أبا بكر الرازي قال ذلك بشكل أفضل».

«ثلاث كلمات قصيرات تبدو جلية مع الطاعون:

السرعة، والبعد، والتأخر في المكان الذي تقطن فيه.

ابدأ سريعًا، واذهب بعيدًا وعلى الفور، وعد متأخرًا».

كانت ضحكاتهم عالية جدًّا.

كان سليمان أول من بدأ نوبة الحراسة لهم. ما كان يفترض أن تكون مفاجأة كبيرة في صباح اليوم التالي لمّا استيقظوا ليكتشفوا أنه قد لاذ بالفرار أثناء الليل، وأخذ خيوله معه.

ارتاعوا لهذا الأمر وخيّم عليهم الوجوم، ولمّا نصبوا الخيمة في المساء التالي، عيّن فاضل ميردين عسكري ليكون حارسًا، وهو اختيار جيد؛

وكان ميردين عسكري يحرسهم جيدًا.

إلا أن الحارس في مخيمهم الثالث كان عمر نيفاهند، الذي قلّد سليمان وهرب بخيوله أثناء الليل.

دعا فاضل إلى اجتماع بمجرد اكتشاف الهروب الثاني.

قال: «لا خطيئة أن تخاف من الموت، وإلا فإن كل واحد منا سيظل ملعونًا إلى الأبد». «ولا إثم أن تلوذ بالفرار، إذا كنت تتفق مع جالينوس والرازي، رغم أنني أنحاز إلى ابن سينا في التفكير في أن الطبيب يجب أن يقاوم الوباء بدلًا من يولّي مدبرًا ولم يعقّب.

«الإثم هو أن تترك رفاقك بلا حراسة. ومن الأسوأ أن تسرق حيوانًا برحله يحمل الإمدادات اللازمة للمرضى والأشخاص الذين يحتضرون». حدّق فيهم بشكل متساوٍ. «لذلك أقول إنه إذا رغب أي شخص آخر في تركنا، فليرحل الآن، وأعدكم بشرفي أنه سيسمح له بالقيام بذلك دون خجل أو تحيز».

كانوا يسمعون أنفاس بعضهم بعضًا، لم يتقدّم أحد.

تحدّث روب: «نعم، يجب السماح لأي شخص بالذهاب، ولكن إذا تركنا المسيرة بلا حماية وبدون حراسة، أو إذا أخذ الهارب معه الإمدادات التي يحتاج إليها المرضى الذين نسافر إليهم، أقول إننا يجب أن نتعقّب هذا الهارب ونقتله».

ومرة أخرى ساد الصمت.

عضّ ميردين شفتيه، قال: «أنا موافق».

قال فاضل: «نعم».

قال عباس صيفي: «أنا موافق أيضًا».

همس عليّ: «وأنا».

«وأنا!»، قال كريم.

علم كل واحد منهم أنه ليس وعدًا أجوف، بل تعهدًا رسميًّا.

وبعد مرور ليلتين، جاء دور روب جيه في مناوبة الحراسة، لقد نصبوا خيمتهم في شعب صخري حيث جعل ضوء القمر الصخور تبدو وحوشًا تلوح في الأفق، لقد كانت ليلة طويلة وحيدة أتاحت له الفرصة للتفكير في أشياء حزينة تمكّن من إخراجها من عقله بطريقة ما، وأسهب في التفكير في إخوته وأخته والتفكير في أولئك الذين انقضى أجلهم، كانت لديه أفكار مستمرة حول المرأة التي سمح لها بالتسلل بين أصابعه.

وفي الصباح كان يقف في ظل صخرة عظيمة، ليس بمنأى عن الرجال النائمين، لمّا أدرك أن أحدهم كان مستيقظًا وبدا وكأنه يستعد للمغادرة.

انسلّ كريم هارون من الخيمة، مع الحرص على عدم إزعاج النائمين، ولمّا افتضح أمره بدأ يركض برفق على الدرب، وسرعان ما أصبح بعيدًا عن الأنظار.

لم يأخذ هارون الإمدادات ولم يترك الفريق بدون حراسة، ولم يقم روب بأي محاولة لإيقافه، إلا أنه شعر بخيبة أمل مريرة؛ لأنه بدأ يحب الطالب الوسيم والساخر الذي كان طالبًا في الطب لسنوات عديدة.

وربما بعد مرور ساعة، استلّ سيفه، ونبهه صوت وقع خطوات قادمة نحوه في الضوء الرمادي. وقف وواجه كريم الذي توقّف أمامه وفغر في النصل المستل، وصدره يتنهد ووجهه وثوبه مبتلان بالعرق.

«رأيتك تغادر، اعتقدت أنك هربت».

«فعلت». كان كريم يلهث أنفاسه. «هربت ... وعدت. قال: «أنا عدّاء»، وابتسم لأن روب جيه وضع سيفه جانبًا.

كان كريم يركض كل صباح، ويعود إليهم غارقًا في العرق. كان عباس صيفي يروي قصصًا كوميدية ويغني أغاني قذرة وكان مقلدًا قاسيًا. كان حكيم فاضل مصارعًا، وفي خيمتهم ليلًا طرحهم الزعيم جميعًا أرضًا، ولم يواجه سوى مشكلة مع روب ومع كريم. كان ميردين أفضل طاهٍ بينهم وقبل بفرح شديد مهمة إعداد وجبات العشاء. الشاب عليّ، الذي كان من أصول بدوية، كان فارسًا رائعًا ولم يحب شيئًا أفضل من العمل بصفته كشّافًا، وهو يتقدم بعيدًا عن الفريق؛ سرعان ما التمعت عيناه بالحماس بدلًا من البكاء وأظهر طاقة الشباب التي بها كسب مودة الجميع.

كانت رفقتهم المتنامية ممتعة، وربما كانت الرحلة الطويلة ممتعة، إلا أنه في الخيمة وأثناء فترات الراحة قرأ لهم حكيم فاضل من كتاب الطاعون الذي عهد إليه من ابن سينا. قدّم الكتاب مئات الاقتراحات بمعرفة مختلف أساطين العلم، ادّعى جميعهم أنهم يعرفون كيفية محاربة الطاعون. أصرّ رجل يدعى لمنى من القاهرة على أن الطريقة الناجعة هي إعطاء المريض بوله ليشربه، وفي الوقت نفسه يقرأ تعويذات محددة يتوجه بها إلى الله (سبحانه وتعالى).

واقترح الحجر البغدادي امتصاص حبة رمان أو برقوق لاذع في وقت تفشي الوباء، وأوصى ابن مطلة المقدسي بشدة بتناول العدس والبازلاء الهندية وبذور اليقطين والصلصال الأحمر. كانت هناك العديد من الاقتراحات التي طرح كل منها بلا قيمة للفريق الطبي الحائر. كتب ابن سينا ملحقًا للكتاب، ذكر فيه ممارسات بدت منطقية بالنسبة لهم: إشعال الحرائق لإحداث دخان كثيف، وغسل الجدران بماء الجير، ورش

الخل، وإعطاء الضحايا عصير الفاكهة ليشربوه. وفي النهاية، وافقوا على اتباع النظام الذي اقترحه معلمهم وتجاهل كل النصائح الأخرى.

خلال استراحة في منتصف اليوم الثامن، قرأ فاضل من الكتاب أنه من بين كل خمسة أطباء عالجوا الموت أثناء وباء القاهرة، توفي أربعة منهم بسبب المرض. سيطر عليهم حزن هادئ لمّا استأنفوا الركوب، كما لو كانوا قد أبلغوا بمصيرهم المحتوم.

وفي صباح اليوم التالي جاءوا إلى قرية صغيرة وعلموا أنها قرية ناردِيز وأنهم دخلوا إقليم آنشان.

عاملهم أهل القرية باحترام جمّ لمّا أعلن حكيم فاضل أنهم أطباء جاءوا من أصفهان، أرسلهم علاء شاه لمساعدة المصابين بالطاعون.

قال شيخ القرية الحمد لله: «ليس لدينا وباء، يا حكيم». «رغم أن الشائعات وصلت إلينا عن الموت والمعاناة في شيراز».

والآن سافروا بترقب، لكنهم مروا بقرية بعد قرية ورأوا أشخاصًا أصحاء. وفي واد جبلي في نقش رستم، وصلوا إلى مقابر كبيرة محفورة في الصخر، وهي أماكن دفن أربعة أجيال من الملوك الفارسيين. هنا، بإطلالتهم على الوادي الذي تجتاحه الرياح، عاش داريوس العظيم، وزركسيس، وأتزركسيس، وداريوس الثاني، ألف وخمسمئة عام اندلعت خلالها الحروب وتفشت الأوبئة وجاء الغزاة وتلاشت إلى العدم. في حين أن المسلمين الأربعة توقفوا لأداء الصلاة الثانية (صلاة الظهر)، وقف روب وميردين أمام أحد القبور في دهشة وهما يقرآن النقش:

أنا زركسيس الملك العظيم،

ملك الملوك،

ملك البلدان من العديد من الأعراق،

ملك الكون العظيم،

ابن داريوس الملك،

الأخميني.

لقد مروا عبر مكان خرب كبير مليء بالأعمدة المخددة المكسورة والحجارة المتناثرة. أخبر كريم روب أن هذا المكان يخص برسيبوليس الذي دمره الإسكندر الأكبر قبل تسعمئة عام قبل ميلاد النبي (صلى الله عليه وسلم).

وعلى بعد مسافة قصيرة من الآثار القديمة للمدينة جاؤوا إلى مزرعة، كان المكان هادئًا باستثناء ثغاء بعض الأغنام التي ترعى بالقرب من المنزل، وهو صوت لطيف تسلل بهدوء عبر الفضاء المضاء بنور الشمس، بدا وكأن راعيًا جالسًا تحت شجرة يراقبهم، ولمّا تقدموا إليه رأوا أنه جثة هامدة.

لقد جلس الحكيم على حصانه مثل البقية، وهو يحدّق في الجثة. ولمّا فشل فاضل في أخذ زمام المبادرة، ترجّل روب عن مطيّته وفحص الرجل الذي كان لحمه أزرق اللون ومتصلب بالفعل. لقد كان ميتًا لفترة طويلة بحيث لا يمكن إغلاق عينيه المحدقتين، وحيوان كان قد قضم ساقيه وأكل يده اليمنى. كان الجزء الأمامي من سترته أسود اللون مضمخًا بالدم. ولمّا أخذ روب مبضعه الجراحي وفتح الثوب، لم يجد أي علامة على الطاعون ولكن كان هناك طعنة في القلب، كبيرة بما يكفي لصنعها بالسيف.

قال روب: «البحث».

ثبت أن المنزل مهجور. وفي الحقل وراء المنزل، وجدوا بقايا عدة مئات

من الأغنام المذبوحة، والكثير من العظام التي انتشلتها الذئاب بالفعل. وفي كل مكان، تعرض الحقل للدهس الشديد، وكان من الواضح أن الجيش قد توقف هناك لفترة كافية لقتل الراعي وأخذ اللحوم.

فاضل، ذو العينين الغائرتين، لم يعط توجيهًا أو أمرًا.

وضع روب الجسد على جانبه وقاموا بتثبيته بالحجارة والصخور الكبيرة للحفاظ على بقاياه التي تركتها الوحوش، ثم كانوا سعداء بالركوب من ذلك المكان.

وفي النهاية وصلوا إلى مزرعة جميلة، بها منزل فخم محاط بالحقول المزروعة. بدت أيضًا مهجورة، لكنهم ترجّلوا عن مطاياهم.

وبعد أن طرق كريم الباب طرقًا عاليًا ولمدة طويلة، انفتح ثقب في وسط الباب وحدّقت عين فيهم.

«انصرفوا».

قال كريم: «نحن فريق طبي من أصفهان، متجهون إلى شيراز».

«أنا إسماعيل التاجر، أستطيع أن أقول لكم أن القليل منهم ما زال على قيد الحياة في شيراز. قبل سبعة أسابيع، جاء جيش من التركمان السلاجقة إلى آنشان. فرّ معظمنا أمام السلاجقة، وسبوا النساء وأخذوا الأطفال والحيوانات داخل أسوار شيراز. حوصرنا من السلاجقة. تفشى الموت بينهم وتخلوا عن الحصار في غضون أيام قلائل. ولكن قبل مغادرتهم، أرسلوا جثث اثنين من جنودهم الذين ماتوا بسبب الطاعون على الجدران بواسطة المنجنيق، إلى المدينة المزدحمة. وحالما رحلوا، سارعنا إلى إخراج الجثتين خارج الأسوار وحرقناهما، لكن الوقت كان قد فات، وظهر الموت وتفشّى بيننا».

وفي التو انْحَلَّتْ عقْدَة لسان حكيم فاضل. «هل هو وباء مخيف؟»

قال صاحب الصوت وراء الباب: «لا يمكن تخيل ما هو أسوأ». «يبدو أن بعض الناس محصنون من المرض كما كنت أنا والحمد لله (الذي فاضت رحمته علينا!). لكن معظم الذين كانوا داخل الأسوار ماتوا أو يموتون».

«وماذا عن أطباء شيراز؟» سأل روب.

«كان هناك في البلدة حلاقان جراحان وأربعة أطباء، وقد لاذ بالفرار جميع الأطباء الآخرين فور رحيل السلاجقة. عمل الحلاقان واثنان من الأطباء بين الناس حتى أصبحوا في عداد الموتى وبسرعة. وأصيب أحد الأطباء بالمرض، ولم يبق سوى طبيب واحد لرعاية المصابين لمّا تركت المدينة بنفسي، قبل أن يمضي يومان على ذلك».

قال كريم: «ثم يبدو أن هناك حاجة ماسة إلينا في شيراز».

قال الرجل: «لديّ منزل نظيف كبير، مليء بإمدادات وفيرة من الطعام والنبيذ والخل والجير، ومخزن وفير من نبات القنب للتخلص من المشاكل. أود أن أفتح لكم هذا المنزل؛ لأن السماح بدخول المعالجين يعني حمايتي. وبعد فترة وجيزة، لمّا يأخذ الوباء مجراه، يمكننا دخول شيراز لتحقيق مكاسبنا المشتركة. من سينضم إلى سلامتي؟»

زاد الصمت ثقلًا.

قال فاضل بصوت أجش: «أنا».

قال روب: «لا تفعل هذا يا حكيم».

قال كريم: «أنت قائدنا وطبيبنا الوحيد».

لم يبدُ أن فاضلًا سمع ما قالوه. «سأنضم إلى التاجر».

قال عباس صيفي: «سأنضم أنا أيضًا».

ترجّل الرجلان عن خيولهما، كان هناك صوت قضيب ثقيل حرّك ببطء، لمحوا وجهًا شاحبًا ملتحيًا، في حين أن الباب انفتح بما يكفي للسماح للرجلين بالانزلاق إلى الداخل، ثم رجع الباب بقوة مرة أخرى وأغلق بالمزلاج.

أولئك الذين كانوا في الخارج وقفوا مثل رجال انجرفوا في عرض البحر. نظر كريم إلى روب، تمتم قائلًا: «ربما هم على حق». لم ينطق ميردين كلمة واحدة، ووجهه مضطرب يشوبه الشك. كان الشاب عليّ على وشك البكاء مرة أخرى.

قال روب: «كتاب الطاعون»، متذكرًا أن فاضلًا حمله في حقيبة كبيرة كان يرتديها على رباط حول رقبته، ذهب إلى الباب ودقّ عليه.

قال فاضل: «ارحلوا». بدا مرعوبًا؛ ولا شك أنه خاف أن يفتح الباب لئلا ينقضوا عليه.

قال روب، بعد أن تناهبه الغضب: «اسمعني، أيها الأحمق». «إذا لم نأخذ كتاب الطاعون لابن سينا، فسوف يجمع الحطب والأجمة ويكدّسان عاليين على جدران هذا المنزل، وسأبتهج بإشعال النيران فيه، أيها الطبيب الكاذب».

وفي لحظة سمع صوت سحب القضيب مرة أخرى، انفتح الباب وطرح الكتاب في الهواء إلى الخارج ليسقط في التراب عند أقدامهم.

التقطه روب وامتطى صهوة جواده، لم يدم غضبه لأنه سار بعيدًا، إذ كان جزء منه يتوق إلى الوجود مع فاضل وعباس صيفي في مكان التاجر الآمن.

لقد سافر وقتًا طويلًا قبل أن يتمكن من ضبط نفسه في السرج. كان ميردين عسكري وكريم هارون في طريق عودتهما بعيدين، لكنهما جاءا بعده. قام الشاب عليّ راشد بحماية المؤخرة، وقاد رحل فاضل وبغل عباس صيفي.

44

الموت

الطريق الذي عبروه كان في أرض المستنقعات في خط مستقيم تقريبًا، ثم أصبح متعرجًا في سلسلة صخرية من الجبال الجرداء التي عبروها لمدة يومين. وأخيرًا نزلوا نحو شيراز في صباح اليوم الثالث، ورأوا سحبًا من الدخان من بعيد، ولمّا اقتربوا صادفوا رجالًا يحرقون الجثث خارج أسوار المدينة. ووراء شيراز كان في مكنتهم رؤية منحدرات واديها الشهير تنج آي-الله أكبر، أو طريق الله أكبر. لاحظ روب عشرات الطيور السوداء الكبيرة تحلق فوق الطريق وعرف أنها وجدت الوباء أخيرًا.

لم يكن هناك حرّاس عند البوابة لمّا دخلوا المدينة.

«هل كان السلاجقة داخل أسوار المدينة، إذًا؟» قال كريم، لأن شيراز لأول وهلة تبدو وكأنها تعرضت للاغتصاب. لقد كانت مدينة مبنية بشكل مبهج من الحجر الوردي، وتعج بالكثير من الحدائق، ولكن في كل مكان كانت جذوع الأشجار الفجة أشبه بعلامات مميزة؛ حيث نثرت الأشجار الكبيرة الظلال الوارفة وبهاء اللون الأخضر، وحتى شجيرات الورد في الحدائق نقلت لإطعام المحارق الجنائزية. أشبه بالحلم، ساروا في شوارع فارغة.

وأخيرًا، لمحوا بأعينهم رجلًا متعثر الخطى، لكن ولمّا هتفوا به وتحرّكوا للاقتراب منه، فرّ هاربًا وراء بعض المنازل.

وسرعان ما عثروا على أحد المشاة الآخرين، وهذه المرة حاصروه بخيولهم لمّا حاول الهرب، وسحب روب جيه سيفه.

«أجب ولن نَمسّك بأذى، أين الأطباء؟»

كان الرجل خائفًا. وضع على فمه وأنفه حزمة صغيرة ربما من الأعشاب العطرية. قال وهو يلهث مشيرًا إلى الشارع: «الكيلونتير».

وفي الطريق مرّوا بعربة المدافن. توقف سائقوها ذوو البنية القوية، ووجوههم محجبة أكثر مما لو كانوا نساءً؛ لالتقاط جثة طفل صغير من المكان الذي تركت فيه على جانب الشارع. كانت هناك ثلاث جثث لأشخاص بالغين، ذكر وامرأتين، في العربة.

وفي مكاتب البلدية، قدّموا أنفسهم على أنهم الفريق الطبي الذي جاء من أصفهان، وكان يحدّق بهم رجل صلب ذو مظهر عسكري ورجل عجوز ضعيف في دهشة؛ وكلا الرجلين كان لهما وجوه متراخية وعينان محدقتان بسبب الأرق الطويل.

أخبرهم الشاب قائلًا: «أنا ذيبيد حافظ، الكيلونتير (قائد الشرطة العسكرية) في شيراز». «وهذا هو حكيم أصفاري سنجر آخر طبيب لدينا».

«لماذا شوارعكم فارغة؟» قال كريم.

قال حافظ: «كنا أربعة عشر ألف نسمة». «مع قدوم السلاجقة، اندفع أربعة آلاف آخرين وراء أسوارنا بغية الحماية. وبعد تفشي الموت، هرب ثلث سكان شيراز من المدينة، بما في ذلك..»، قال بمرارة، «كل رجل ثري والحكومة بأكملها، وهم راضون عن ترك الكيلونتير وجنوده لحراسة ممتلكاتهم. مات ما يقرب من ستة آلاف. وأولئك الذين لم يعصف بهم الموت بعدُ داخل منازلهم يتضرعون إلى الله (الرحمن الرحيم) أن يبقوا كذلك».

«كيف تعالجهم يا حكيم؟» سأل كريم.

قال الطبيب العجوز: «لا شيء يجدي نفعًا مع الموت». «قد يأمل الطبيب فحسب أن يوفر بعض الراحة البسيطة للمحتضرين».

قال روب: «لسنا أطباء بعد، لكن المتدربين الطبيين أرسلهم إليكم معلمنا وشيخنا ابن سينا، وسوف ننفذ أوامرك وتعليماتك».

قال حكيم أصفاري سنجر بقسوة: «أنا لا أعطي لكم أي أوامر وتعليمات، عليكم أن تفعلوا ما تريدون». لوّح بيده.

«أنا أسدي لكم النصيحة فحسب، إذا كنتم ترغبون في البقاء على قيد الحياة كما فعلت، فكل صباح مع وجبة الإفطار، يجب أن تأكلوا قطعة من الخبز المحمص مغموسة في خل النبيذ، وفي كل مرة تتحدثون فيها مع أي شخص، يجب عليكم أولاً احتساء مشروب من النبيذ»، قال، وأدرك روب جيه أن ما ظنه خطأ بأنه ضعف الشيخوخة كان بدلًا من ذلك حالة متقدمة من السكر.

سجلات فريق أصفهان الطبي.

إذا عثر على هذا المختصر بعد وفاتنا، فكأنما عثر على مكافأة سخية فور تسليمها لأبي عليّ الحسين بن عبد الله بن سينا، شيخ أطباء البيمارستان، أصفهان. حرر في اليوم التاسع عشر من شهر ربيع الأول، في العام 413 هجريًا.

كنا في شيراز ومرّ على وجودنا فيها أربعة أيام توفي خلالها 243 شخصًا. يبدأ الوباء على شكل حمى خفيفة يتبعها صداع شديد أحيانًا. تصبح الحمى شديدة للغاية قبل ظهور الآفة في الفخذ أو الإبط أو خلف الأذن، والتي تسمى عادةً دبل. وقد ورد في كتاب الطاعون ذكر مثل هذه

الدبلات التي قال حكيم بن الخطيب الأندلسي إنها مستوحاة من إبليس، ودائمًا تظهر على شكل أفعى. وتلك التي لوحظت هنا ليست على شكل الأفعى ولكنها مستديرة وممتلئة، مثل آفة الورم. قد تكون كبيرة مثل البرقوق، ولكن معظمها بحجم حبة العدس. غالبًا ما يكون هناك قيء من الدم، مما يعني دائمًا أن الموت وشيك لا محالة. يموت معظم الضحايا في غضون يومين من ظهور الدبل. قلة محظوظة من المصابين الذين يتقيّح الدبل لديهم. ولمّا يحدث هذا يبدو الأمر كما لو أن دعابة شريرة تمر من المريض، الذي قد يتعافى بعد ذلك.

(التوقيع)
يسي بن بنيامين
الطالب

وجدوا مستشفى الأمراض الوبائية مؤسسة في السجن، وأطلق سراح السجناء. كانت تعجّ بالموتى والمحتضرين والمصابين مؤخرًا، وكان من المستحيل توفير الراحة لأي منهم. كان الهواء ممزوجًا بالأنين والآهات، وكان مثقلًا برائحة القيء الدموي والأجساد غير المغتسلة والفضلات البشرية.

وبعد التشاور مع الطلاب الثلاثة الآخرين، ذهب روب إلى الكيلونتير وطلب استخدام القلعة، حيثما يكون إيواء الجنود. ومنح هذا الطلب، وانتقل من مريض إلى مريض في السجن، وهو يقيّمهم، ويمسك بأياديهم.

كانت الرسالة التي تدفقت بين يديه مروعة بشكل عامّ: تحول فنجان الحياة إلى غربَال. ونقل أولئك الذين هم على وشك الموت إلى القلعة؛ نظرًا لأن هذه كانت نسبة كبيرة من الضحايا، حيث يمكن رعاية أولئك الذين لم يحتضروا بعد في مكان أنظف وأقل ازدحامًا.

حلّ الشتاء الفارسي، حيث البرودة في الليل، والدفء في فترات ما بعد الظهيرة. كانت قمم الجبال تتلألأ بالثلج، وفي أوقات الصباح كان الطلاب بحاجة إلى معاطف من جلد الخراف. وفوق الوادي، حلّقت النسور السوداء بأعداد متزايدة.

أخبر روب جيه الكيلونتير قائلًا: «رجالك يرمون الجثث في الوادي بدلًا من حرقها».

أومأ حافظ برأسه. «لقد نهيت عن فعل ذلك، لكنني أعتقد أنك على حق، الحطب نادر».

يجب حرق كل جثة. قال له روب بحزم: «دون استثناء»، لأنه كان أمرًا أصرّ عليه ابن سينا. «يجب أن تفعلوا ما هو ضروري للتأكد من صحة الإجراءات».

وبعد ظهر ذلك اليوم، قطعت رؤوس ثلاثة رجال لإلقائهم جثثًا في الوادي، مما زاد من عدد القتلى من حولهم. لم يكن هذا ما كان روب يرمي إليه، لكن حافظ كان مستاءً.

«أين رجالي ليحضروا الحطب؟ نفدت كل أشجارنا».

قال روب: «أرسل الجنود إلى الجبال ليقطعوا الأشجار».

«لن يعودوا».

لذلك كلّف روب الشاب عليًّا بأخذ الجنود إلى المنازل التي كانت مهجورة. كانت معظم المنازل مبنية من الحجارة، ولكن كانت بها أبواب خشبية ومصاريع خشبية وعوارض سقف قوية متينة. قاد عليّ الرجال إلى الجحيم، ودوّى صوت المحارق خارج سور المدينة.

حاولوا اتباع تعليمات ابن سينا بشأن التنفس من خلال الإسفنج

المنقوع في الخل، لكن الإسفنج أعاق عملهم وسرعان ما تخلصوا منه. واقتداءً بالحكيم أصفاري سنجر، كانوا يزدردون الخبز المحمص المنقوع بالخل كل يوم ويشربون كمية كبيرة من النبيذ، وفي بعض الأحيان بحلول الليل يكونون سكارى مثل الحكيم العجوز.

أخبرهم ميردين وهو يحتسي النبيذ عن زوجته التي تدعى فارا وابنيه الصغيرين داود ويساكر الذين كانوا ينتظرون عودته سالمًا إلى أصفهان. تحدّث بحنين إلى منزل والده الواقع على بحر العرب، حيث سافرت عائلته إلى الساحل لشراء اللآلئ الصغيرة في حجم حبات البذور. قال لروب: «أنا معجب بك». «كيف كنت صديقًا لابن عمي البغيض آريه؟»

أدرك روب الآن رباطة جأش ميردين الأصلية. «صديق آريه؟ أنا لست صديق آريه. آريه أحمق!»

«هو، هو حقير، بالضبط!» بكى ميردين وهم يقهقهون من الضحك.

روى كريم الوسيم متشدقًا بقصص الفتوحات الجنسية، ووعد بأنه سيعثر على أجمل زوج من الحلمات للشاب عليّ في الخلافة الشرقية لّما يعودوا إلى أصفهان. كان كريم يركض كل يوم في مدينة الموت. وفي بعض الأحيان كان يسخر منهم حتى يركضوا معه، ويقذفون بأنفسهم في الشوارع الفارغة أمام المنازل الشاغرة، وبجانب المنازل التي يتكدس فيها المضطربون غير المصابين المتكومين، وأمام المنازل التي وضعت فيها الجثث التي تنتظر عربة المدافن التي تفر من المشهد المخيف للواقع. ولأنهم كانوا مصابين بمسّ يفوق الخمر. كانوا محاطين بالموت، وكانوا في ريعان الشباب والحيوية، وحاولوا دفن مخاوفهم وما ألمّ بهم من رعب من خلال التظاهر بأنهم خالدون ولا يمكن المساس بهم.

سجلات فريق أصفهان الطبي.

حرر في اليوم الثامن والعشرين من شهر ربيع الأول، في العام 413 هجريًّا.

يبدو أن تصريف الدم والحجامة والتطهير ليس لها تأثير يذكر. إن علاقة الدبل بالموت من هذا الطاعون علاقة مثيرة للاهتمام؛ لأنها تستمر في التأكيد على أنه في حالة انفجار الدبل أو تفريغ القيح مخضر اللون كريه الرائحة بانتظام، فمن المرجح أن يبقى المريض على قيد الحياة.

قد يكون السبب هو أن الكثيرين يموتون بسبب الحمى شديدة الوطأة التي تلتهم الدهون من أجسادهم، ولكن لمّا يتقيح الدبل، تنخفض الحمى بدرجة كبيرة ويبدأ التماثل للشفاء.

بعد أن لاحظنا هذا، فقد عملنا على إنضاج الدبلات التي قد تنفتح، من خلال وضع كمادات من الخردل وبصلات الزنبق؛ كمادات من التين والبصل المسلوق، مطحون ومخلوط بالزبدة، ومجموعة متنوعة من لاصقات سحب القيح. وفي بعض الأحيان، قمنا بشق الدبلات وعالجناها مثل القرحة، ولكن حققنا نجاحًا ضئيلًا. وغالبًا ما تصبح هذه التورمات، التي تتأثر جزئيًّا بمرض سل الكلاب الفيروسي (ديستمبر) وتتأثر جزئيًّا من خلال سحبها بعنف شديد، وتصير صلبة للغاية بحيث لا يمكن لأي أداة قطعها. لقد حاولنا حرقها بالمواد الكاوية، وكانت النتائج سيئة. مات كثيرون وهم في حالة من الهذيان والجنون المصحوب بالعذاب وبعضهم أثناء العملية ذاتها، حتى قيل إننا قد عذبنا هذه المخلوقات العاجزة حتى الموت. ومع ذلك فقد نجا البعض. وربما عاش هؤلاء دون وجودنا في هذا المكان، ولكن من دواعي شعورنا بالراحة أن نعتقد أننا قدمنا المساعدة لعدد قليل.

(التوقيع)
يسي بن بنيامين
الطالب

«أيها الخدم!» صاح الرجل. طرحه اثنان من الخدم بطريقة مهينة تفتقد إلى الاحترام على أرضية مستشفى الأمراض الوبائية ولاذا بالفرار، بلا شكّ لسرقة متاعه، وهي سرقة مألوفة في وقت تفشي الوباء الذي بدا أنه يفسد الضمائر والأرواح بسرعة مثلما يفسد الأجساد. هجر الأباء الذين استبدّ بهم هوس الرعب أطفالهم المصابين بالدبل دون تردد. قطعت رؤوس ثلاثة رجال وامرأة في ذلك الصباح بتهمة السلب والنهب، وسلخ جندي لمضاجعة أنثى تحتضر. قال كريم، الذي قاد جنودًا مسلحين بدلاء من مياه الجير لتطهير المنازل التي كانت فيها وباء، إن كل رذيلة كانت معروضة للبيع وأفادت الشواهد كثرة الهياج الجنسي والشبق لدرجة أنه كان من الواضح أن الكثيرين كانوا يتشبثون بالحياة من خلال وحشية الجسد.

وقبل منتصف النهار بقليل، أرسل الكيلونتير -الذي لم يدخل مستشفى الأمراض الوبائية قطّ بنفسه- جنديًا أبيض البشرة يرتجف من الرعب لإحضار روب وميردين إلى الشارع، حيثما وجدوا حافظًا يتشمم تفاحة محشية بالتوابل لدرء المرض. «كونا على علم بأن عدد الذين ماتوا بالأمس انخفض إلى سبعة وثلاثين»، قال لهم بكل فخر: لقد كان تحسنًا كبيرًا، ففي أكثر الأيام ضراوة، في الأسبوع الثالث بعد تفشي المرض، هلك 268 شخصًا.

أخبرهم حافظ أن شيراز قد فقدت بحساباته 801 رجلًا، و502 امرأة، و3193 طفلًا، و566 عبدًا، و1417 أمة، و2 من المسيحيين السوريين، و32 يهوديًا.

تبادلا روب وميردين نظرة مدروسة، ولم يفوّت أي منهما قائمة الكيلونتير للضحايا حسب ترتيب الأهمية.

جاء الشاب عليّ يسير في الشارع. شيء غريب؛ لأن الصبي كان

سيتجاوزهم بدون إشارة ما لم يُنادِ عليه روب باسمه.

ذهب إليه روب ورأى أن عينيه كانتا غريبتين، ولّما لمس روب رأس عليّ، سرت حرقة مألوفة مريعة إلى قلبه.

آه، يا إلهي.

قال بلطف: «يا عليّ». «يجب أن تأتي معي إلى الداخل الآن».

لقد رأوا بالفعل كثيرين يموتون، لكنهم شاهدوا السرعة التي أصاب بها المرض عليّ راشد، بدا الأمر كما لو أن روب وكريم وميردين عانوا لمعاناة الشاب من الألم.

ومن وقت لآخر كان عليّ يترنح في تشنجات مفاجئة، كما لو أن شيئًا ما قد عضّه في بطنه. الألم جعله يرتجف مع التشنج وتقوّس جسده في أوضاع ملتوية. لقد صبّوا عليه الخل، وفي وقت مبكر بعد الظهر كان يحدوهم الأمل؛ لأنه كان باردًا تقريبًا عند لمسه، ولكن كان الأمر كما لو أن الحمى قد تجمعت، ولّما عادت سطوة الحمى الجديدة، أصبح عليّ أكثر سخونة من ذي قبل، وشفتاه متشققتان، وعيناه مرفوعتان لأعلى باتجاه رأسه.

ومن بين كل صرخاته وآهاته التي كادت أن تتلاشى، لكن الطلاب الثلاثة الآخرين سمعوا الأصوات الرهيبة بوضوح لأن الظروف جعلت منهم عائلته.

ولّما هبط الليل، تناوبوا على الجلوس بجانب سريره. كان الصبيّ مستلقيًا والألم يعتصره على سرير متهالك لّما جاء روب ليعفي ميردين من الجلوس بجوار عليّ قبيل الفجر. كانت عيناه جامدتين وخاملتين والحمى قد أفنت جسده وغيّرت وجهه المراهق المستدير الذي برزت منه عظام

وجنتيه المرتفعتين وأنفه المعقوف الذي يشبه منقار الصقور لإعطاء لمحة عن الرجل البدوي الذي قد أصبح عليه.

أمسك روب يدي عليّ وشعر بمدى تضاؤل جسده. وبين الفينة والأخرى، هربًا من العجز في عدم القيام بأي شيء، حرّك أصابعه إلى معصميْ عليّ وشعر بنبضه، ضعيفًا وغير واضح مثل ضربات طائر مهيض الجناح وهو يناضل.

وبحلول الوقت الذي جاء فيه كريم ليعفي روب من الجلوس بجوار عليّ، كان عليّ قد فاضت روحه. ولم يعد بإمكانهم التظاهر بالبقاء. كان من الواضح أن أحدهم سيكون التالي قريبًا وبدأوا في معرفة المعنى الحقيقي للخوف.

رافقوا جثمان عليّ إلى المحرقة، وكان كل منهم يصلي على طريقته؛ لأن الجثمان احترق.

وفي ذلك الصباح بدأوا يشهدون تحول الأمور؛ كان من الواضح أنه أُحضر عدد أقل إلى مستشفى الأمراض الوبائية مصابين بالمرض. وبعد ثلاثة أيام أبلغ الكيلونتير الذي بالكاد كان قادرًا على قمع الرغبة في صوته أنه في اليوم السابق مات أحد عشر شخصًا فقط.

وأثناء سيره بالقرب من مستشفى الأمراض الوبائية، لاحظ روب وجود مجموعة كبيرة من الفئران الميتة والمحتضرة ورأى شيئًا فريدًا لّما فحصهم: القوارض كانت مصابة بالطاعون، حيث ظهر في جميع القوارض تقريبًا أورام صغيرة، ولكنها كانت الدبل الذي لا جدال فيه.

حدد مكان أحد الفئران الذي مات مؤخرًا ووجد أن الجسد الدافئ المغطى بالفرو لا يزال يزحف بالبراغيث، ووضعه على صخرة مستوية كبيرة وشقّ الفأر بمشرطه بدقة كما لو أن الجوزجاني أو أستاذ تشريح

آخر كان يحدّق به من فوق كتفيه.

سجلات فريق أصفهان الطبي.

حرر في اليوم الخامس من شهر ربيع الثاني، عام 413 هجريًا.

لقد نفقت حيوانات مختلفة مثلها مثل البشر، ووردت إلينا أنباء عن أن الخيول والأبقار والأغنام والإبل والكلاب والقطط والطيور قد هلكت من الوباء في آنشان.

وكان تشريح ستة جرذان أهلكها الطاعون موضع اهتمام؛ حيث كانت العلامات الخارجية مماثلة لتلك العلامات الموجودة في الضحايا من البشر؛ عينين محدقتين، وعضلات ملتوية، وشفاه فاغرة، ولسان جاحظ ذي لون أسود، ودبل في منطقة الفخذ أو خلف الأذن.

وفور تشريح هذه الفئران، يتضح سبب عدم نجاح الاستئصال الجراحي للدبل في أغلب الأحيان. ومن المحتمل أن يكون للآفة جذور عميقة شبيهة بالجزر، والتي -بعد إزالة الكتلة الرئيسية للدبل- تظل مغروسة في الضحية لتعيث فيها فسادًا.

وفور فتح بطون الفئران الستة، وجدت أن الفتحات السفلية للأمعاء الدقيقة والأمعاء الغليظة قد تغير لونها تمامًا بسبب المرارة الخضراء. كانت الأمعاء الدقيقة مبقعة. وكانت أكباد القوارض الستة متغضنة والقلوب منكمشة في أربعة من الفئران.

وفي أحد الفئران كانت المعدة، إذا جاز التعبير، مقشرة من الداخل.

هل هذه الآثار تحدث لأعضاء الجسم في الضحايا من البشر بسبب هذا الطاعون؟

يقول الطالب كريم هارون إن جالينوس ذكر أن التشريح الداخلي

للإنسان مطابق تمامًا للخنازير والقردة، ولكنه يختلف عن تشريح الجرذان.

ولهذا، في حين أننا لا نعرف الأحداث السببية لموت الطاعون في البشر، فقد نكون متأكدين بمرارة من حدوثها داخليًّا، وبالتالي يحظر علينا فحصها.

(التوقيع)
يسي بن بنيامين
الطالب

وبعد يومين من العمل في مستشفى الأمراض الوبائية، شعر روب بعدم الارتياح، وثقل وضعف في الركبتين، وصعوبة في التنفس، وحرقان في معدته كما لو كان يأكل التوابل بشراهة، على الرغم من أنه لم يأكل التوابل.

لازمته هذه الأحاسيس وتفاقمت؛ لأنه كان يعمل طوال فترة ما بعد الظهر. جاهد لتجاهل هذه الأحاسيس حتى من خلال النظر في وجوه الضحايا - الملتهبة والمشوهة، والعيون اللامعة التي بدأت تنبثق من رؤوس الرجال - كان يرى نفسه.

ذهب إلى ميردين وكريم.

ورأى الجواب في عيونهما.

وقبل أن يسمح لهم باقتياده إلى السرير، أصرّ على إحضار كتاب الطاعون ودفتر ملاحظاته وإعطائهما إلى ميردين. «إذا لم ينجُ أي منكما، فيجب أن يتركا الكتاب والملاحظات مع آخر رجل حيث يمكن العثور عليهما وإرسالهما إلى ابن سينا».

قال كريم: «نعم، يا يسي».

شعر روب بالطمأنينة، انزاح جبل عن كتفيه وحدث الأسوأ، ولهذا تحرّر من حالة الفزع المخيف.

قال ميردين الحزين: «سوف يمكث أحدنا معك».

«لا، هناك الكثير هنا ممن يحتاجون إليكما».

لكنه يمكن أن يشعر بهما وهما يحومان حوله ويراقبانه.

لقد عقد العزم على ملاحظة كل مرحلة منفصلة من مراحل المرض، وتمييزها جيدًا في ذهنه، لكنه بلغ فحسب بداية الارتفاع الشديد لدرجة حرارة الجسم والصداع لدرجة جعلت جلد جسمه بالكامل حساسًا. أصبحت الأغطية ثقيلة ومزعجة وطرحها من على جسده، وغلبه النعاس.

ورأى فيما يرى النائم أنه جلس وتحدث مع بوكيريل الأحمق طويل القامة النحيف، رئيس النجارين في نقابة والده الذي مات منذ فترة طويلة، ولمّا استيقظ شعر أن الحرارة أصبحت أشد وطأة، واستبدّ به الجنون.

وخلال ليلة حزينة، كان منزعجًا من أحلام أكثر عنفًا؛ حيث صارع دبًّا صار تدريجيًّا أنحف وأطول حتى أصبح الفارس الأسود، في حين أن الجميع ممن أهلكهم الطاعون وقفوا وشاهدوا الصراع المستميت الذي لم يستطع أن يهزم فيه أي منهما الآخر.

وفي الصباح أيقظه جنود يسحبون حمولتهم البائسة من مستشفى الأمراض الوبائية إلى عربة المدافن. كان مشهدًا مألوفًا له بصفته طالب يدرس الطب، لكن رؤيته للمشهد بصفته واحدًا من المصابين كانت مختلفة. كان خفقان قلبه مسموعًا، وكان هناك طنين طفيف في أذنيه.

كان الثقل في جميع أطرافه أسوأ مما كان عليه قبل ذهابه إلى الفراش، وشبّ حريق بداخله.

«ماء».

سارع ميردين لإحضار بعض الماء، لكن لمّا اعتدل روب ليشرب، التقط أنفاسه متألمًا. تردّد قبل أن ينظر إلى الموضع الذي شعر فيه بالألم. أخيرًا اكتشفه وتبادل هو وميردين نظرات خائفة. وتحت ذراعه اليسرى ثمة دَبل بشع المنظر من صبغة أرجوانية مزرقة اللون.

أمسك بمعصم ميردين. «يجب ألا تفتحه! ويجب ألا تحرقه بالمواد الكاوية، هل تعد بذلك؟»

رفع ميردين يده ودفع روب جيه إلى الوراء لأسفل على السرير، قال بلطف: «أعدك يا يسي»، وهرع لإحضار كريم.

سحب ميردين وكريم يده خلف رأسه وربطاها في عمود، تاركين الدبل مكشوفًا. سخّنا ماء الورد ونقعا الخرق لعمل الكمادات، وغيّرا الكمادات بأمانة لمّا بردت.

ازدادت درجة حرارته مع الحمى أكثر من أي وقت مضى، رجلًا أو طفلًا، وتركز كل الألم في جسده في موضع الدبل، حتى زاغ عقله عن التركيز على الألم المستمر وهام في الخيال.

سعى إلى البرودة في ظل حقل قمح وقبّلها، ولمس فمها، وقبّل وجهها، وتساقط الشعر الأحمر فوقه كضباب أسود.

سمع كريم وهو يصلي بالفارسية وميردين وهو يصلي بالعبرية. ولمّا دخل ميردين في الصلاة «شيماع يسرائيل»، تتبعه روب. «اسمع يا إسرائيل، إن الله إلهنا إله واحد». وتحب الرب إلهك من كل قلبك ...

كان يخشى الموت وهو يتلو النص المقدس اليهودي وسعى جاهدًا ليؤدي الصلاة المسيحية، الصلاة التي خطرت بباله كانت ترنيمة لكهنة طفولته.

يا يسوع المسيح يا من ولدت لتموت.

يا يسوع المسيح يا من صلبت.

يا يسوع المسيح يا من دفنت.

آمين.

جلس أخوه صموئيل على الأرض بالقرب من السرير، ولا شك أن المرشد أتى ليأخذه. ظهر صموئيل على ما هو عليه، بسبب التعبيرات الساخرة والغريبة على وجهه. لم يكن يعرف ماذا يقول لصموئيل؛ صار روب رجلًا لكن صموئيل كان لا يزال الصبيّ الذي كان عليه لمّا مات.

كان الألم أكثر حدة، كان الألم لا يحتمل.

فصرخ: «تعال، يا صموئيل». «دعنا نذهب!»

لكن صموئيل جلس فحسب وحدّق فيه.

وفي الوقت الحالي، كان هناك تخفيف رائع ومفاجئ للألم في ذراعه لدرجة أن الراحة كانت حادة مثل الألم الجديد، لم يستطع أن يسمح لنفسه بأمل كاذب، وأجبر نفسه على الانتظار بصبر حتى يأتي أحد.

بعد ما بدا أنه مرّ وقت طويل جدًّا، كان يعي أن كريم يميل عليه.

«ميردين! ميردين! الحمد لله، انفتح الدبل!»

كان يرفرف فوقه وجهان مبتسمان، أحدهما وسيم بشكل قاتم والآخر مألوف وبه مسحة من صلاح القديسين.

قال ميردين: «سأضع فيه فتيلًا»، ولفترة من الوقت انهمكوا في صلوات الشكر.

كان الأمر كما لو أنه قد ركب أشد البحار عصفًا وهو الآن ينجرف إلى أهدأ المناطق النائية وأكثرها سلامًا.

كان التعافي والتماثل للشفاء سريعًا وهادئًا كما رآه في الناجين الآخرين. ثمة ضعف وارتجاف طبيعي بعد الحمى الشديدة؛ لكنه عاد إلى صوابه ولم يكن هناك تشويش شديد بين أحداث الماضي والحاضر.

لقد كان قلقًا، راغبًا في الاستفادة من نفسه قليلًا، لكن القائمين على رعايته لم يكن لديهما أي شيء وأبقياه مستلقيًا على ظهره على السرير.

«هذا يعني لك كل شيء، هذه الممارسة الطبية»، لاحظ كريم باهتمام ذات صباح. «كنت أعرف ذلك، وبالتالي لم أعترض لمّا توليت زمام الأمور لفريقنا الصغير».

فتح روب فمه للاحتجاج لكنه أغلقه بسرعة؛ لأنه كان على صواب.

قال كريم: «اجتاحتني موجة من الغضب لمّا صار فاضل بن برفيز قائدنا». «إنه يؤدي جيدًا في الامتحانات ويحظى بتقدير كبير لدى أعضاء هيئة التدريس، ولكن بصفته طبيبًا عاملًا فهو كارثة بكل المقاييس. وعلاوة على ذلك، بدأ تدريبه بعد عامين من بدء تدريبي وهو حكيم في حين أنني ما زلت طالبًا».

«إذًا كيف يمكنك أن تقبلني بصفتي قائدًا لم يتدرب بعد لمدة عام كامل؟»

«أنت مختلف، أنت خارج المنافسة بسبب نزعتك للتعافي والشفاء».

ابتسم روب. «لقد رأيتك وعرفتك، هذه الأسابيع الصعبة. ألست مملوكًا

لنفس السيد؟

قال كريم بهدوء: «لا». «أوه، لا تسيئا الفهم، أرغب في أن أكون أفضل الأطباء، لكن على الأقل بنفس القوة، يجب أن أصبح ثريًا. الثروة ليست أقصى طموحاتك، أليس كذلك يا يسي؟»

هزّ روب رأسه.

لمّا كنت طفلاً في قرية كرش التابعة لمقاطعة همذان، قاد عبد الله شاه والد علاء شاه جيشًا عظيمًا عبر ريفنا للتحرك ضد عصابات السلاجقة الأتراك. وحيثما توقف جيش عبد الله، حل البؤس، وطاعون الجنود. لقد أخذوا المحاصيل والحيوانات، والطعام الذي يعني لهم البقاء على قيد الحياة أو يعني كارثة لشعبهم، ولمّا تقدّم الجيش تضورنا جوعًا.

«كنت في الخامسة عشرة من عمري. أمسكت والدتي بابنتها المولودة حديثًا من قدميها وهشّمت رأسها بالحجارة، يقولون إن الكثيرين لجأوا إلى أكل لحوم البشر، وأنا أصدق ذلك.

«أولاً مات أبي ثم أمي، عشت لمدة عام في الشوارع مع المتسولين وكنت صبيًّا متسولًا، وأخيرًا شملني زكي عمر برعايته، وهو رجل كان صديقًا لوالدي، كان رياضيًّا مشهورًا، أحسن تربيتي وعلمني الركض، ولمدة تسع سنوات كان يضاجعني».

صمت كريم للحظة، ولم يبدد سكونه إلا أنين مريض انسرب صوته من الغرفة.

«ولمّا وافته المنية، كنت في الخامسة عشرة من عمري. طردتني عائلته، لكنه رتّب دخولي إلى المدرسة وأتيت إلى أصفهان حرًّا طليقًا لأول مرة. لقد عزمت أمري أنه عندما يكون لدي أبناء سيكونون في أمان، وهذا النوع

من الأمان لا يتحقق إلا بالثروة».

اعتقد روب أنه تعرّض كطفل لكارثة مماثلة في نصف الكرة الآخر، وماذا لو كان أسوأ حظًّا بعض الشيء، أو كان الحلاق رجلًا مختلفًا ...

انقطع الحديث بوصول ميردين الذي اقتعد الأرض على الجانب الآخر من السرير بجانب كريم. «لم يمت أحد في شيراز أمس».

قال كريم: «الله».

«لم يمت أحد!»

أمسك روب بأيديهما.

وما لبث كريم وميردين أن شبّكا أيديهما أيضًا. تجاوزوا الضحك والدموع، مثل كبار السن الذين تقاسموا حياتهم، وجلسوا مترابطين ونظر بعضهم إلى بعض، مستمتعين بالبقاء على قيد الحياة.

لقد مرت عشرة أيام أخرى قبل أن يعلنوا أن روب قوي بما يكفي للسفر. ذيع خبر نهاية الطاعون. مرت سنوات قبل ظهور الأشجار مرة أخرى في شيراز، لكن الناس بدأوا في العودة، وجلب البعض الخشب. مروا بمنزل كان النجارون يعلقون مصاريع على نوافذه، وفي عدة منازل أخرى كان الرجال يثبتون الأبواب.

كان من الجيد ترك المدينة وراءهم والتوجه شمالًا. سافروا على مهل، ولمّا وصلوا إلى منزل إسماعيل التاجر، حطوا خطام رحالهم وطرقوا الباب، لكن لم يجبهم أحد.

كرمش ميردين صفحة أنفه، قال بهدوء: «ثمة قتلى في الجوار».

وفور دخولهم المنزل، وجدوا جثتَي التاجر وحكيم فاضل المتحللتين. لم

يكن هناك ما يشير إلى عباس صيفي، الذي شمّر عن ساعديه بلا شكّ من «الملجأ الآمن» لّما رأى إصابة الاثنين الآخرين.

ولذلك كانت لديهم مسؤولية أخيرة قبل مغادرتهم أرض الطاعون، وتلوا الصلوات وأحرقوا الجثتين، وأوقدوا نارًا متأججة بأثاث التاجر الباهظ الثمن.

فقد غادروا ثمانية من أصفهان في الفريق الطبي، وعادوا ثلاثة من شيراز.



45

عظام رجل مقتول

لّما عاد، ثمة زيف في أصفهان، فكانت مليئة بالأشخاص الأصحاء الذين يضحكون أو يتشاجرون. ولفترة من الوقت كان من الغريب أن يمشي روب بينهم، كما لو أن العالم قد أوشك على النهاية.

انتاب ابن سينا شعور بالحزن، لكنه لم يتفاجأ لّما علم بشأن فرار الطلاب والوفيات لّما وصلوا إلى المنزل. حصل على دفتر الملاحظات من روب بلهفة. وخلال الشهر الذي انتظر فيه الطلاب الثلاثة في المنزل الواقع في صخرة إبراهيم للتأكد من عدم نقل الطاعون إلى أرض الوطن، كتب روب مطولًا، مما أسفر عن سرد تفصيلي لمهمتهم في شيراز.

لقد أوضح في تقاريره أن الطالبين الآخرين قد أنقذا حياته، وكتب عنهما وأشاد بصنيع فعلهما.

«كريم أيضًا؟» سأله ابن سينا بصراحة لّما كانا بمفرديهما.

تردّد روب؛ لأنه بدا من قبيل الصلف أن يقيّم طالبًا زميلًا، لكنه سحب نفَسًا عميقًا وأجاب عن السؤال. «قد يواجه صعوبة في أداء الامتحانات لكنه بالفعل طبيب رائع، هادئ وحازم أثناء وقوع الكوارث وحنون مع أولئك الذين يعانون من عذاب المرض».

اكتسى وجه ابن سينا بالرضا، وقال: «والآن عليك أن تذهب إلى الفردوس وتخبر علاء شاه، فالملك حريص على مناقشة الأمر فيما يخص وجود جيش السلاجقة في شيراز».

كان الشتاء يحتضر ولكنه لم يولِّ الأدبار بعد، والقصر كان باردًا. دقّ حذاء الخووف الصلب ذو العنق الطويل على الأرضيات الحجرية، في حين أن روب تبعه في الممرات المظلمة.

جلس علاء شاه بمفرده على خوان كبير.

«أنا يسي بن بنيامين، سموك». انسحب قائد الحرس كما أدى روب سجود «روي زمين» (الوجه على الأرض).

«يمكنك الجلوس معي، أيها الذمي. أمر الملك قائلًا: «يجب أن تسحب مفرش الخوان على حجرك». ولّما فعل روب ذلك، كانت مفاجأة سارة؛ حيث إن الخوان كان موضوع فوق مدفئة في الأرضية، وتدفقت الحرارة بسلاسة من التنانير الموجودة بالأسفل.

كان يعلم أنه يجب ألا يرمق الملك بنظراته لفترة طويلة أو ينظر إليه بشكل مباشر للغاية، لكنه لاحظ بالفعل أدلة تؤكد انتشار الشائعات في الأسواق حول سَفَاهَة الشاه المستمرة. احمرت عينا علاء شاه مثل عيني الذئب وبدت المستويات الجامدة للوجه النحيل الصارم متراخية، بلا شكّ نتيجة تعاطي الكثير من النبيذ باستمرار.

وأمام الشاه، استقرّت رقعة مقسّمة إلى مربعات فاتحة وداكنة بالتناوب، مرصّعة بأشكال عظمية منحوتة بإتقان، وبجانبه أكواب وإبريق من النبيذ. كان علاء شاه يصبّ النبيذ ويبتلع كأسه بسرعة.

«اشربه، اشربه، سأجعل منك يهوديًّا مرحًا». كانت العينان الحمراوان تأمرانه:

«فلتأذن لي بألا أشربه، إنه لا يجعلني مرحًا، جلالتك، إنه يجعلني عابسًا متجهمًا وهمجيًّا؛ لذلك لا يمكنني الاستمتاع بالنبيذ مثل الرجال

الأكثر حظًّا».

انجذب انتباه الشاه. «إنه يجعلني أستيقظ كل صباح وأنا أشعر بألم شديد خلف عيني ورجفة في اليدين. أنت الطبيب، ما العلاج؟»

ابتّسم روب. «نبيذ أقل، سموك، والتريض الكثير في الهواء الفارسي النقي».

فتشت العينان الحادتان في وجهه بحثًا عن إهانة ولم تعثرا على شيء. «إذًا عليك أن تتريض معي، أيها الذمي».

«أنا في خدمتك، جلالة الملك».

لوّح علاء شاه بيده ليظهر أن الأمر مفهوم، والآن دعنا نتحدث عن السلاجقة في شيراز، يجب أن تخبرني بكل ما تعرفه».

استمع علاء شاه باهتمام جمّ في حين أن روب سرد حديثًا طويلًا حول ما يعرفه عن القوة التي غزت مقاطعة آنشان.

وأخيرًا أومأ برأسه. «حاصرَنا أعداؤنا في الشمال الغربي وسعوا إلى تثبيت وجودهم في الجنوب الشرقي. لو أنهم غزوا كل مقاطعة آنشان واحتلّوها، لكانت أصفهان لقمة سائغة بين شدقي السلاجقة». صفع علاء شاه الخوان بيده. «الحمد لله على إصابتهم بالطاعون. عندما يأتون مرة أخرى، سنكون على أهبة الاستعداد».

سحب الرقعة الكبيرة حيث استقرّت بينهما. «هل تعرف هذه اللعبة؟»

«لا، يا سيدي».

«إنها هوايتنا القديمة، لّما تخسر، تسمى الهزيمة (موت الملك). لكنها تعرف في الغالب باسم لعبة الشطرنج؛ لأنها تدور حول الحرب». ابتّسم

منتشيًا. «سأعلمك لعبة الشطرنج أيها الذمي».

سلّم أحد مجسمات الفيل لروب وتركه يستشعر بنعومة ملمسه. «منحوت من ناب الفيل، كما ترى، كلانا لديه مجموعة متساوية. الملك يقف في المنتصف حاضرًا مع رفيقه الأمين الوزير، ويوجد على كل جانب فيل يلقي بظلاله المريحة التي تشبه الأزرق النيلي في قتامتها حول العرش، وبجانب الأفيال يوجد اثنان من الإبل يركب على ظهورهما رجلان شديدا التركيز، ثم يأتي حصانان يمتطي صهوتهما فارسان على أهبة الاستعداد للقتال في يوم القتال، وفي كل جانب من خطوط المعركة يرفع الرخ أو المحارب يديه المضمومتين على شكل كأس إلى شفتيه وهو يتجرع دماء أعدائه. وفي المقدمة يتحرك جنود المشاة الذين من واجبهم أن يأتوا لمساعدة الآخرين في القتال، وإذا اخترق جندي مشاة الجانب الآخر من ميدان المعركة، فيوضع هذا البطل بجانب الملك مثل الوزير.

«الوزير الشجاع لا يتحرك في المعركة أكثر من مربع واحد بعيدًا عن الملك. تتحرك الأفيال العظيمة عبر ثلاثة مربعات وتراقب ساحة المعركة بأكملها بعرض ميلين. يركض الجمل وهو يرغو ويدق الأرض في ثلاثة مربعات وهكذا دواليك. تتحرك الأحصنة أيضًا على ثلاثة مربعات، وعند القفز على المربعات يظل أحد المربعات كما هو دون لمسه. وفي كل الجوانب يستبد الغضب بالمحاربين الثائرين وهم يعبرون ساحة المعركة بأكملها.

«كل قطعة تتحرك في مساحتها الخاصة، ولا تقل ولا تزيد عن حركتها المحددة. إذا اقترب أي شخص من الملك في المعركة يصيح بصوت عال: «مات الملك، يا شاه! يجب على الملك أن ينسحب من مربعه. إذا قام الملك المعارض، والحصان، والرخ، والوزير، والفيل، والجيش بإغلاق الطريق أمامه، يجب أن ينظر حوله من جميع الجوانب الأربعة وهو معقود الحاجبين. إذا رأى أن جيشه قد أطيح به، وطريقه مسدود بالماء

والخندق، والعدو عن يساره وعن يمينه، أمامه وخلفه، سيموت من التعب والعطش، ويلقى المصير المحتوم الذي فرضته القبة الزرقاء الدائرية لخاسر في الحرب..». صبّ لنفسه المزيد من النبيذ، وابتلعه، وحدّق في روب. «هل فهمت؟»

قال روب بحذر: «أعتقد ذلك، يا سيدي».

«فلنبدأ إذًا».

ارتكب روب أخطاء وهو يحرّك بعض القطع بشكل صحيح، وفي كل مرة كان علاء شاه يصحح له في تبرم. لم تدم المباراة طويلًا، إذ سرعان ما قتلت قواته وسلب ملكه.

قال علاء شاه بارتياح: «فلنلعب مرة أخرى».

انتهت المباراة الثانية بسرعة مثل الأولى، لكن روب بدأ يرى أن الشاه توقّع تحركاته لأنه نصب كمائن وجذبه إلى الفخاخ، تمامًا كما لو كانا يخوضان حربًا حقيقية.

لّما انتهت الجولة الثانية، لوّح علاء شاه بيده معلنًا الانصراف.

وقال: «يمكن للاعب ماهر أن يتجنب الهزيمة لأيام». «من يفز في لعبة الشطرنج، يصلح لحكم العالم. لكنك أبليت بلاءً حسنًا، إنها المرة الأولى لك. ليس من المخزي أن تعاني من الهزيمة؛ لأنك في النهاية مجرد يهودي».

* * *

كم أنا راض أن أكون في المنزل الصغير في الحي اليهودي مرة أخرى، وأن أعود مرة أخرى إلى الروتين الشاق للبيمارستان وقاعات المحاضرات!

ومن دواعي سرور روب أنه لم يرجع للعمل بوصفه جراحًا في السجن، ولكن بدلًا من ذلك انتظم في التدريب في قسم العظام لبعض الوقت، للعمل مع ميردين مثل الطلاب في ظل رعاية الحكيم جلال الدين. بدا جلال الدين ممشوق القوام وصارمًا ومتجهمًا بوصفه قائدًا نمطيًّا لمجتمع أصفهان الطبي الذي يتسم بالاحترام ويتمتع بالثراء، لكنه اختلف عن معظم أطباء أصفهان في عدة جوانب مهمة.

«إذًا أنت يسي الحلاق الجراح الذي سمعت عنه؟» قال لمّا أخبره روب.

«نعم، يا سيدي الطبيب».

«لا يمكنني التعميم ومشاركة السخرية والتهكم على الحلاقين الجراحين، فكثير منهم لصوص وحمقى، وهذا صحيح بما فيه الكفاية، ولكن من بينهم أيضًا عدد لا بأس به ممن يتصفون بالصدق والذكاء. قبل أن أصبح طبيبًا، كنت أعمل في مهنة أخرى يحتقرها الأطباء الفارسيون، مجَبّر عظام متجول، وبعد أن أصبحت حكيمًا، أصبحت نفس الرجل الذي كنت عليه من قبل. ولكن على الرغم من أنني لا أدينك بصفتك حلاقًا، فلا يزال يتعين عليك بذل قصارى جهدك في تخصصي. فإن لم تجتهد، فسوف أطردك من القسم خاصتي، أيها الأوروبي».

كان روب وميردين سعداء بالعمل الجاد. اشتهر جلال الدين بصفته اختصاصي عظام وقام بتطوير مجموعة متنوعة من الجبائر المبطنة وأجهزة السحب التثبيتي. لقد علّمهم استخدام أطراف الأصابع كما لو كانت عيونًا يمكن أن تحدّق تحت اللحم المرضوض والمكدوم، وتصور الإصابة حتى يتضح أفضل مسار للعلاج. كان جلال الدين ماهرًا على وجه الخصوص في علاج الشرائح والشظايا حتى تعود إلى أماكنها الصحيحة؛ حيث يمكن للطبيعة أن تجعلها جزءًا من العظام مرة أخرى.

«يبدو أن لديه اهتمامًا فضوليًّا بالجريمة»، تذمر ميردين بعد أيامهما القلائل الأولى بصفتيهما مساعدين للحكيم جلال الدين. وكان هذا صحيحًا، فقد لاحظ روب أن الطبيب تحدث طويلًا بإفراط عن سَفَّاح اعترف بجريمته في ذلك الأسبوع في محكمة الإمام قندراسه.

اعترف راعي غنم أنه قبل ذلك بعامين مارس اللواط ثم قتل راعيا آخر يدعى قفطي الله، ودفن ضحيته في قبر ضحل بالقرب من أسوار المدينة. أدانت المحكمة القاتل وأعدم على الفور وجرى تهجيره.

وبعد أيام قلائل، لمّا أبلغا روب وميردين جلال الدين، أخبرهما أن جثة القتيل سوف تخرج من قبرها البدائي وسوف يعاد دفنها في مقبرة إسلامية مع إمكانية أداء الصلاة الإسلامية لضمان دخول روحه الجنة.

قال جلال الدين: «تعال». «إنها فرصة فريدة. اليوم سنكون من حافري القبور.

لم يفصح عن الراشي، لكن سرعان ما رافق الطالبان والطبيب، الذي يسوق بغلًا محملًا، الملا وأحد جنود الكيلونتير (قائد الشرطة) إلى جانب التل الوحيد الذي أشار إليه راعي الغنم الراحل للسلطات.

قال جلال الدين وهم يستخدمان مجرافيهما: «خذا حذركما».

وفي الحال رأيا عظام يد، وبعد ذلك بقليل أزالا الهيكل العظمي بأكمله، ووضعا عظام قفطي الله على بَطّانيّة.

قال جلال الدين: «حان وقت تناول الطعام»، وساق الحمار إلى ظل شجرة على مسافة من القبر. انفتح سرج الحيوان لإخراج الدجاج المشوي، وأرز البيلاه الفاخر، والتمور الصحراوية الكبيرة، وكعك العسل، وإبريق الشربات. هبط الجندي والملا ليأكلا بشهية مفتوحة، وتركهم جلال

وطلابه للوجبة الدسمة والقيلولة التي ستتبعها بالتأكيد.

سارع الثلاثة عائدين إلى الهيكل العظمي. كانت الأرض قد أنجزت مهمتها وكانت العظام نظيفة إلا من بقعة صدئة حول الموضع الذي اخترق فيه خنجر الراعي عظم القص. جثوا فوق العظام، وهم يتمتمون بكلام غير مفهوم، ولم يدركوا أن البقايا كانت لرجل يدعى قفطي الله.

قال جلال الدين: «يجب أن تلاحظا عظم الفخذ، أكبر وأقوى عظمة في الجسم. أليس من الواضح لماذا يصعب وضع جبيرة على كسر يحدث في الفخذ؟

«يجب أن تحصيا اثني عشر زوجًا من الضلوع. هل تلاحظان كيف تشكل الضلوع قفصًا؟ القفص الصدري يحمي القلب والرئتين، أليس هذا عجيبًا؟!»

يعتقد روب أن دراسة العظام البشرية بدلًا من عظام شاة كانت مختلفة بشكل ملحوظ، لكنها كانت مجرد جزء صغير من القصة. «قلب الإنسان ورئتاه، هل رأيتهما؟» سأل جلال الدين.

«لا، لكن جالينوس يقول إنهم يشبهون إلى حدّ كبير قلب الخنزير ورئتيه، لقد رأينا جميعًا قلب الخنزير ورئتيه».

«ماذا لو لم تكن متشابهة؟»

قال جلال الدين بقلق: «إنها متماثلة». «دعونا لا نضيّع هذه الفرصة الذهبية للدراسة، فهل سيعود هذان الشخصان قريبًا. هل شاهدتما كيف أن الأزواج السبعة العلوية من الضلوع متصلة بصفيحة الصدر بواسطة مادة ضامة مرنة؟ الضلوع الثلاثة التالية متحدة من خلال نسيج مشترك، والزوجان الأخيران ليس بينهما أي ارتباط بالمقدمة على

الإطلاق. أليس الله (عز وجل!) هو المصمم الأذكى، أيها الذمي؟ أليس هذا إطارًا عجيبًا بنى عليه شعبه؟»

جلسوا القرفصاء في الشمس الحارقة على وليمتهم العلمية، وهم يتلقون درسًا في علم التشريح عن الرجل المقتول.

وبعد ذلك، قضى روب وميردين بعض الوقت في مراحيض الأكاديمية، ليغسلا الشعور الجنائزي ويريحا العضلات غير المعتادة على الحفر. وهنا وجدهما كريم، وفي الحال رأى روب من وجه صديقه أن هناك شيئًا ما خطأ.

«أنا بحاجة إلى إعادة الامتحان».

«لكن بالتأكيد هذا ما تريده!»

وبنظرة رمق كريم اثنين من أعضاء هيئة التدريس وهما يتحدثان في الجانب الآخر من الغرفة وخفض صوته. «أنا خائف، كدت أفقد الأمل في اجتياز امتحان آخر، سيكون هذا هو الامتحان الثالث لي، إذا أخفقت هذه المرة سينتهي كل شيء». رمقهما بنظرة حزينة. «على الأقل الآن أستطيع أن أصبح طالب امتياز».

قال ميردين: «سوف تجتاز الامتحان مهرولًا مثل العدّاء».

ولوّح بيده ليوقف أي محاولة للمزاح. «لست قلقًا بإزاء الجزء الطبي، بل قلق بشأن جزئي الفلسفة والقانون».

«متى الامتحان؟» سأل روب.

«في غضون ستة أسابيع».

«لدينا وقت، إذًا».

قال ميردين بهدوء: «نعم، سأستذكر دروس الفلسفة معك». «يسي وأنت ستعملان على دروس القانون».

أطلق روب تنهيدة لأنه نادرًا ما يعتبر نفسه فقيهًا قانونيًّا. لكنهما مرّا بالطاعون معًا وارتبطا بكوارث طفولية مماثلة، كان يعلم أنه يجب عليهما المحاولة. قال: «نبدأ الليلة»، وهو يتناول بيده قطعة قماش لتجفيف جسده.

قال كريم: «ما سمعت أبدًا عن أي شخص مكث متدربًا لمدة سبع سنوات ثم أصبح طبيبًا»، ولم يقم بأي محاولة لإخفاء رعبه عنهما، مستوى جديد من الصداقة الحميمة.

قال ميردين: «سوف تجتاز الامتحان»، وأومأ روب.

قال كريم: «يجب أن أجتازه».

46

اللغز

دعا ابن سينا روب لتناول العشاء معه لمدة أسبوعين على التوالي.

«أوه، الشيخ لديه طالب مفضل»، قال ميردين مستهزئًا، لكن ابتسامته كانت فخرًا وليس غيرة.

قال كريم بجدية: «من الجيد أن يكون لديه مصلحة». «الجوزجاني كان تحت رعاية ابن سينا منذ أن كانا شابين، وأصبح الجوزاني طبيبًا عظيمًا».

عبس روب غير راغب في مشاركة التجربة حتى معهما. لم يستطع وصف ما كان عليه قضاء أمسية كاملة بصفته المستفيد الوحيد من عقلية ابن سينا. وفي إحدى الأمسيات تحدّثا عن الأجرام السماوية، أو على وجه التحديد، تحدّث ابن سينا واستمع روب. وفي أمسية أخرى كان ابن سينا قد صمد يتحدث لساعات في نظريات الفلاسفة اليونانيين. كان يعرف الكثير والكثير ويمكنه تدريس ما يعرفه دون عناء!

وعلى النقيض، قبل أن يتمكن روب من استذكار الدروس مع كريم، كان عليه أن يتعلم. وقرر أنه سيتوقف لمدة ستة أسابيع عن حضور جميع المحاضرات باستثناء المحاضرات المختارة حول القانون، واستعار كتبًا في القانون والفقه القانوني من بيت الحكمة. إن استذكار الدروس مع كريم في القانون لن يكون مجرد صداقة نكران الذات، لأنه كان مجالًا أهمله روب. وبمساعدة كريم، كان يعدّ نفسه لليوم الذي ستبدأ فيه

محنته الخاصة بالاختبار.

ففي الإسلام ثمة قسمان للشريعة: الفقه، أو العلم الشرعي، والشريعة، الشريعة كما أنزلها الله تعالى. ولمّا أضيف إلى هذه السنن، الحق والعدل كما كشفتهما الحياة المثالية وأقوال النبي محمد، كانت النتيجة نص علمي معقد قد يحيّر العلماء.

كان كريم يحاول، لكن كان من الواضح أنه خضع لاختبار صعب. قال: «إنه كثير». كان الإجهاد واضحًا. ولأول مرة منذ سبع سنوات، باستثناء الفترة التي حاربوا فيها الطاعون في مقاطعة شيراز، لم يكن يذهب إلى البيمارستان يوميًّا، واعترف لروب أنه شعر بالغرابة وأنه ممزق من الداخل باستثناء روتينه اليومي في رعاية المرضى.

وكل صباح، قبل أن يجتمع مع روب لاستذكار دروس الشريعة ثم مع ميردين لدراسة الفلاسفة وتعاليمهم، كان كريم يركض مع أول شعاع ضوء رمادي. وذات مرة حاول روب أن يركض معه لكنه سرعان ما تخلف عنه؛ ركض كريم وكأنه يحاول تجاوز مخاوفه. ولعدة مرات، امتطى روب صهوة الحصان البني وسبق العدّاء. انطلق كريم عبر المدينة النابضة بالحياة، متجاوزًا الحراس المبتسمين عند البوابة الرئيسية للسور، عبر نهر الحياة وإلى الريف. لم يعتقد روب أنه يعرف أو يأبه بالمكان الذي يركض فيه. ارتفعت قدماه وسقطتا وتحركتا بإيقاع ثابت طائش بدا أنه يهدئه ويريحه كما لو كان تسريبًا من القنّب، وهي بذور القنّب القوية التي أعطوها للأشخاص الذين يعانون من ألم ميؤوس منه. انزعج روب من الجهد المهدور يوميًّا.

واشتكى لميردين قائلًا: «الأمر يتطلب قوة كريم وطاقته». «يجب أن يدّخر كل طاقته للدراسة».

لكن ميردين الحكيم سحب أنفه ومسّد شدقه الطويل الذي يشبه شدق الخيل وهزّ رأسه. قال: «لا، بدون الجري أعتقد أنه لن يكون قادرًا على تجاوز هذا الوقت العصيب»، وكان روب حكيمًا بما يكفي للتأجيل؛ لأنه كان لديه إيمان كبير بأن حكمة ميردين اليومية كانت عظيمة مثل علمه وسعة اطلاعه.

وفي صباح أحد الأيام تلقى دعوة، وامتطى الحصان البني واتجه إلى طريق «الألف حديقة» حتى وصل إلى طريق ترابي يؤدي إلى منزل ابن سينا الجميل. أخذ الحارس حصانه، وبحلول الوقت الذي سار فيه إلى الباب الحجري كان ابن سينا هناك ليلقي عليه التحية.

«إنها زوجتي، سأكون ممنونًا لو تفضلت بفحصها».

انحنى روب، واستولى عليه الارتباك، لم يكن ابن سينا يواجه مشكلة في نقص عدد الزملاء المتميزين الذين يسعدهم ويشرفهم فحص المرأة، لكنه تبعه إلى باب يؤدي إلى درج حجري يشبه قوقعة الحلزون من الداخل، وصعدا البرج الشمالي للمنزل.

استلقت المرأة العجوز على فراشها، وحدّقت بهما بعينين غائمتين وغير مبصرتين. جثا ابن سينا بجانبها.

«رضا».

كانت شفتاها الجافتان متشققتين. بلّل مربعًا من القماش بماء الورد ومسح فمها ووجهها بحنان بالغ. كان لابن سينا خبرة طوال حياته في كيفية جعل غرفة المرضى مريحة، ولكن حتى البيئة المحيطة النظيفة والثياب التي غيّرت حديثًا ورائحة الدخان المتصاعدة من أطباق البخور لا يمكن أن تخفي رائحة مرضها.

بدت العظام وكأنها تخترق جلدها الشفاف. كان وجهها أملس ناعمًا، وكان شعرها خفيفًا وأشيب. ربما كان زوجها أعظم طبيب في العالم لكنها كانت امرأة عجوز في المراحل الأخيرة من مرض العظام. كانت الدبلات الكبيرة مرئية على ذراعيها النحيفتين وأسفل ساقيها. تورّم كاحلاها وقدماها بسبب تجمع السوائل. تدهور وركها الأيمن إلى حدّ كبير وعلم روب أنه إذا رفع عباءة النوم فسوف يجد أن المزيد من الأورام المتقدمة قد غزت أجزاء خارجية أخرى من جسدها تمامًا كما كان متأكدًا من الرائحة، كان متأكدًا أن الأورام المتقدمة قد انتشرت إلى الأمعاء.

لم يكن تأكيد التشخيص الرهيب السبب وراء استدعاء ابن سينا له. الآن هو يعرف ما هو مطلوب منه وأخذ كلتا يديها الضعيفتين في يده، وتحدّث معها بهدوء. استغرق وقتًا أطول من اللازم، وهو يحدّق في عينيها، والتي بدت صافية للحظة. هل أنت داود؟ همست، وقوت قبضتها على يديه.

نظر روب إلى ابن سينا وهو يتساءل.

«شقيقها، انتقل إلى الرفيق الأعلى منذ سنوات عدة».

عاد الفراغ إلى عينيها، وأخذت الأصابع الممسكة به تتراخى رويدًا رويدًا. أعاد روب يديها إلى فراشها وانسحب من البرج.

«كم متبقٍّ من الوقت؟»

ليس الوقت طويلًا، يا حكيم باشا. أعتقد أنها مسألة أيام». شعر روب بأنه سمج؛ كان الرجل الآخر أكبر منه بكثير من أن يتلقى التعازي المعتادة. «ألا يوجد شيء، إذًا يمكن القيام به من أجلها؟»

التوى فم ابن سينا. «لقد مكثت جوارها لأمنحها جرعات أقوى وأقوى من الحب». اصطحب تلميذه إلى الباب الأمامي وشكره، ثم عاد إلى زوجته

المنكوبة.

«يا سيدي»، قال أحدهم لروب.

ولما استدار رأى الرجل المجبوب الضخم الذي كان يحرس الزوجة الثانية. «فضلًا، سوف تتبعني؟»

مرّا عبر مدخل في سور الحديقة، الفتحة كانت صغيرة جدًّا لدرجة أرغمت كليهما على الانحناء، إلى حديقة أخرى خارج البرج الجنوبي.

«ما هذا؟» سأل العبد باقتضاب.

لم يرد العبد المجبوب. لفت شيء ما انتباه روب ونظر إلى المكان الذي يحدّق فيه وجه محجب من خلال نافذة صغيرة.

التقت أعينهما لبرهة ثم اختفت عيناها في دوامة من الحجاب وصارت النافذة فارغة.

التفت روب إلى العبد وابتسم العبد المجبوب على استحياء وهزّ كتفيه استهجانًا.

«لقد طلبت مني أن أحضرك إلى هنا. قال: «ترغب في أن تتطلّع إليك، يا سيدي».

ربما رآها روب في منامه تلك الليلة ولكن لم يكن هناك وقت. درس قوانين حيازة الممتلكات، ولما كان الزيت في مصباحه يحترق على مهل، سمع وقع صوت حوافر تهبط شارعه وبدا وكأنها تتوقف خارج بابه.

ثمة طرق على الباب.

مدّ يده إلى سيفه وهو يفكر في اللصوص. لقد فات الأوان لمن ينادون عليه. «من هناك؟»

«أنا واصف، يا سيدي».

لم يكن روب يعرف واصف لكنه اعتقد أنه تعرف على الصوت. حمل السلاح جاهزًا، وفتح الباب ورأى أنه جانبه الصواب. كان العبد المجبوب ممسكًا بلجام حمار.

«هل أرسلك الحكيم؟»

«لا، يا سيدي، هي من أرسلتني، التي تتمنى أن تأتي إليها».

لم يرد، كان العبد المجبوب لا يعرف أكثر من أنه يبتسم، ولكن ثمة بريق خلف العينين الغائرتين التي استحوذت على دهشة الذمي.

قال روب بوقاحة: «انتظر»، وأغلق الباب.

خرج بعد أن اغتسل سريعًا، وامتطى صهوة الحصان البني دون سرج، وتجوّل في الشوارع المظلمة خلف العبد الضخم، الذي كانت قدماه المتدليتان تكسحان الأخاديد التي تثير الغبار وهو يركب على ظهر الحمار المسكين. اجتازا المنازل الصامتة التي كان الناس ينامون فيها في تثاقل، وتحوّلا إلى ممر كان غباره الأعمق يكبح حوافر الحيوانات، ثم إلى حقل يمتد خلف سور منزل ابن سينا.

وأخذتهما بوابة في السور بالقرب من باب البرج الجنوبي. فتح العبد المجبوب بوابة البرج، وانحنى، وأشار إلى روب أن يمضي بمفرده.

كانت مثل الأحلام التي راودته مئات الليالي لمّا كان مستلقيًا وحيدًا ومستثارًا. كان هذا الممر الحجري الداكن مطابقًا للدرج الكائن في البرج الشمالي، ملتوي مثل جدلات قوقعة نوتيّ، ولمّا ظهر في الأعلى وجد نفسه في حرم فسيح.

وعلى ضوء المصباح، رأى أنها تنتظر على فراش كبير مبطن وثير، كانت

امرأة فارسية أعدت نفسها لممارسة الحب، وقد خضبت يديها وقدميها وفرجها بالحناء الحمراء ودلكتهم بالزيت. كان ثديها مخيبًا للآمال، بالكاد أكبر من ثدي الصبيّ.

أزال روب حجابها.

كان شعرها أسود فاحمًا، ومصقولًا أيضًا بالزيت ومسدولًا بإحكام إلى الوراء على رأسها المستدير. لقد تخيل الملامح المحظورة لملكة سبأ بلقيس، أو كليوباترا، وذهل ليجد بدلًا من ذلك فتاة شابّة لعوب تطارده بفم جائع مرتجف تلعقه الآن بشراهة بحركات سريعة وخفيفة بلسانها الوردي. كان وجهًا جميلًا على شكل قلب، وذقنها مدببًا وأنفها قصيرًا مستقيمًا. ومن فتحة الأنف اليمنى الرفيعة تتدلى حلقة معدنية صغيرة كبيرة بما يكفي للسماح بدخولها في خنصره.

لقد مكث في هذا البلد لفترة طويلة: كانت ملامح وجهها المكشوفة أكثر إثارة بالنسبة له من جسدها الحليق.

«لماذا تسمين ديسبينا القبيحة؟»

«ابن سينا هو من قرر ذلك. قالت وهو يغوص في الفراش بجانبها: «ليبطل العين الحاسدة».

وفي صباح اليوم التالي استذكر مع كريم دروس الفقه وقوانين الزواج والطلاق.

«من الذي بيده عقدة النكاح؟»

«يبرم الزوج عقد النكاح ويعرضه على الزوجة، ويكتب في العقد «المهر»، مبلغ الصداق».

«كم عدد الشهود المطلوب؟»

«لا أعرف، اثنان؟»

«نعم، اثنان. من لها حقوق أكثر من الزوجات»، الزوجة الثانية، أم الزوجة الرابعة؟»

«جميع الزوجات لهن حقوق متساوية».

انتقلوا إلى قوانين الطلاق، وأسسه: العقم، والسلوك الشائن؛ الزنا.

وبموجب الشريعة الإسلامية، كانت عقوبة الزنا هي الرجم، ولكن هذا قد تلاشى قبل قرنين من الزمان. لا يزال من الممكن إعدام امرأة زانية لرجل غني وقوي في سجن الكيلونتير (قائد الشرطة) بقطع الرأس، لكن الزوجات الزانيات للرجال الفقراء غالبًا ما يجردن من ثيابهن ويضربن ضربًا مبرحًا بالعصي ثم يطلقن أو لا يطلقن، بناءً على رغبة الزوج.

لم يكن لدى كريم أي صعوبات تذكر مع الشريعة، فقد نشأ في عائلة عرفت بالورع وعرف مبادئ التقوى. إنه الفقه الإسلامي الذي يطارده. كان هناك الكثير من التشريعات، حول أمور كثيرة، لدرجة أنه كان يعلم أنه لا يستطيع تذكرها جميعًا.

فكّر روب في ذلك، إذا لم تستطع تذكر النصوص الفقهية بدقة، فعليك اللجوء إلى الشريعة أو السنّة. كل الشريعة مبنية على عظات وعبر النبي محمد؛ لذلك إذا كنت لا تستطيع تذكر الشريعة، فأعطهم إجابة من الدين أو من حياة الرسول ومن المحتمل أن تحوز هذه الإجابة رضاهم». تنهّد وقال: «الأمر يستحق المحاولة. وفي غضون ذلك سوف نصلي، ونحفظ أكبر عدد ممكن من مبادئ الفقه قدر استطاعتنا».

وبعد ظهر اليوم التالي في المستشفى تتبع الجوزجاني عبر الأروقة وتوقف مع الآخرين عند سرير لصبي صغير نحيف الجسم، ورث الثياب

يسمى بلال. وعن قرب جلس فلاح بعينين باهتتين راضيتين.

قال الجوزجاني: «سل الكلاب الفيروسي (ديستمبر)». «مثال عن كيف يمكن للمغص أن يسلب الروح. كم عمره؟»

ارتاع الأب خوفًا وهلعًا، لكنه شعر بالإطراء عند مخاطبته، بخفض رأسه. «إنه في عامه التاسع، يا سيدي».

«منذ متى وهو مريض؟»

«أسبوعان، إنه مرض الزائدة الدودية وقد أودى بحياة اثنين من أعمامه وأبي. ألم رهيب، يجئ ويذهب، يجئ ويذهب، لكن قبل ثلاثة أيام جاء الألم ولم يذهب».

المرض، الذي خاطب الجوزجاني بودّ وتمنى بلا شك أن ينتهي الأمر مع الطفل والمضي قدمًا، قال إنه لم يتغذَّ إلا على شربات من العصائر المحلاة فحسب. «كل طعام يبتلعه، يتقيؤه أو يتغوطه».

أومأ الجوزجاني برأسه. «افحصه، يا يسي».

سحب روب البطانية. كان لدى الصبي ندبة تحت ذقنه لكنها شفيت بالكامل ولم تكن جزءًا من مرضه. وضع راحة يده على خده الرقيق وحاول بلال التحرك لكنه كان خائر القوى وظلّ ساكنًا بلا حراك. ربّت روب على كتفه.

«ساخن!»

مرر أصابعه ببطء على جسده. ولمّا وصل إلى المعدة، صرخ الصبي.

«البطن رخوة من الجانب الأيسر وصلبة من الجانب الأيمن».

قال الجوزجاني: «كان ابتلاء الله في حماية موضع مرض السل

الفيروسي (ديستمبر)».

استخدم روب برفق قدر الإمكان أطراف أصابعه لتحديد منطقة الألم من السرّة عبر النصف الأيمن من البطن، معربًا عن أسفه للتعذيب الذي كان يمارسه في كل مرة يضغط فيها على البطن. قلب الصبيّ بلال على بطنه ورأى هو والجوزجاني احمرار المستقيم وضعفه.

ولّما استبدل البطانية، أخذ يديه الصغيرتين وسمع الفارس الأسود العجوز يضحك عليه مرة أخرى.

«هل سيموت، يا سيدي؟» سأل الأب وهو يخفي مشاعره.

قال روب: «نعم»، وأومأ الرجل برأسه.

لم يسخر أحد من هذا الرأي. ومنذ عودتهما من شيراز، روى ميردين وكريم بعض القصص التي تكررت. لاحظ روب أنه لم ينعق أحد الآن لّما تجرأ على القول بأن أحدهم سيموت.

قال الحكيم الجوزجاني: «لقد وصف الطبيب الروماني آولوس كورنيليوس سيلسوس مرض الزائدة الدودية في كتاباته ويجب قراءتها»، ثم التفت إلى السرير التالي.

ولّما زيرَ آخر مريض، ذهب روب إلى بيت الحكمة وطلب من يوسف الجمل، أمين المكتبة، مساعدته في العثور على ما كتبه الروماني عن مرض الزائدة الدودية. كان مفتونًا بمعرفة أن سيلسوس قد شرّح جثث الموتى لتعزيز معرفته، ومع ذلك لم يكن هناك الكثير من المعلومات بشأن هذا المرض بالذات، والذي وصفه سيلسوس بأنه مرض السل الفيروسي (ديستمبر) في الأمعاء الغليظة بالقرب من المصران الأعور، مصحوب بالتهاب وألم شديدين في الجانب الأيمن من البطن.

ولمّا كان يقرأ، ذهب مرة أخرى إلى المكان الذي يرقد فيه بلال. رحل الأب. جلس الملا الصارم فوق الصبي مثل غراب عظيم، يدندن بآي من القرآن في حين كان الطفل يحدّق في ردائه الأسود، وعيناه تتألمان.

سحب روب السرير لدرجة أن الطفل الصغير كان يشيح بنظره بعيدًا عن الملا. وعلى طاولة منخفضة ترك المرض ثلاث حبات رمان فارسية مستديرة أشبه بالكرات، لتؤكل مع وجبة العشاء، وأخذ روب الآن الثمرات الثلاث ودفعها لأعلى واحدة تلو الأخرى حتى جعلها تتدفق على رأس الصبيّ من يد إلى يد. مثلما كنت أفعل في الأيام الخوالي، يا بلال. لقد كان بهلوانًا غير متمرس للغاية الآن ولكن بمساعدة الثمرات الثلاث فحسب تخطى العقبة وجعل ثمار الفاكهة تتراقص وهي تصنع الحيل.

كانت عينا الصبيّ تدور مثل الثمار الطائرة. «ما نحتاجه هو اللحن!»

لم يكن يعرف أي أغانٍ فارسية وكان الأمر يتطلب شيئًا حيويًّا. تحركت شفتاه بأغنية قديمة من أغاني الحلاق الصاخبة.

«لقد داعبتني عيناك مرة،

وذراعاك تعانقانني الآن ...

سوف نتدحرج معًا قريبًا

لذلك، لا تقطعن وعدًا غير ذي جدوى».

ليست أغنية مناسبة لطفل ليموت وهو يسمعها، لكن الملا الذي كان يسخط من سلوكه الغريب الذي يتسم بالكفر، كان يضفي طابع الوقار ويتضرع بالدعاء في حين كان روب يقدم بعض من بهجة الحياة. لم يفهما الكلمات بأي شكل من الأشكال؛ لذلك لم يكن هناك أي ازدراء. أصدر بلال عدة أصوات ثم رأى روب الطفل وهو يقفز مختلجًا للمرة

الأخيرة التي قوّست جسده الصغير. لا يزال روب يصدح بالغناء، وشعر بالنبض الأخير يرفرف في العدم في حلق بلال.

أغمض عيني الصبيّ، وأزال مخَاط الأنْف، وقوّم الجسد ليجعله مستقيمًا وغسّله. مشّط شعر بلال وربط شدقيه ليغلق فمه بقطعة قماش.

كان الملا لا يزال جالسًا القرفصاء، وهو يدندن بآي من القرآن، كانت عيناه تلتمعان: استطاع أن يتضرع بالدعاء ويكره في الوقت نفسه. لا شك في أنه سيقدم شكوى من أن الذمي قد ارتكب تدنيسًا للمقدسات، لكن روب أخبر نفسه أن التقرير لن يظهر أن ما حدث قد حدث قبل وفاة الصبيّ بقليل، ابتسم بلال.

على مدار أربع ليال من أصل سبع ليال أتى إليه العبد المجبوب الذي يسمى واصفًا ومكث في الحرم حتى الساعات الأولى من الصباح.

تلقّى دروسا في اللغة.

«القضيب».

ضحكت. «لا، يسمى لينغام (القضيب). وهذا، «يوني» (الفرج)». قالت إنهما متوافقان بدرجة كافية. «الرجل إما أرنب أو ثور أو حصان. أنت مثل الثور. والمرأة إما غزال أو مهرة أو فيل، وأنا مثل الغزال. يا له من أمر رائع. قالت بجدية: «سيكون من الصعب على أرنب أن يجلب السعادة لفيل».

كانت المعلم، وهو الطالب، كما لو كان صبيًّا مرة أخرى وكأنما لم يفترش امرأة قطّ. لقد فعلت أشياء تعرّف عليها من الصور المرسومة في الكتاب الذي اشتراه من الميدان وأشياء لم يرد تصويرها في الكتاب. أرته الـ «كشيرانيراكا»، انسيابية الجماع مثل مزج الحليب والماء. وضعية

الجماع لزوجة إندرا. عن طريق الأوباريشتاكا، الجماع عن طريق الفم.

ففي البداية كان مفتونًا وسعيدًا وهم يتقدمان في الجماع من خلال عكس الأدوار، وضرب رأس القضيب على بظرها حتى تنفتح شفرتاها، والجماع الاحترافي. استولت عليه البلاهة لّما حاولت تعليمه الأصوات المناسبة التي يجب أن يصدرها عند الإقدام عليها لمضاجعتها، اختيار القضيب أو الفرج بديلًا للأنين والتأوه.

«ألا تسترخي وتضاجع فحسب؟ فالأمر أسوأ من حفظ الفقه عن ظهر قلب.

قالت مستاءة: «إن الجماع أكثر إمتاعًا بعد تعلمه».

لم يتأثر بنغمة التوبيخ في صوتها، كما أنه قرر أنه يجب على النساء ألّا يحلقن شعرهن.

«أليس الرجل العجوز كافيًا؟»

«لقد كان أكثر من كاف، في الماضي كان شديد الفحولة، كان يحب الخمر والنساء، وعندما يكون في حالة مزاجية جيدة يكون شديد الفحولة. قالت وهي تبتسم وعيناها تلتمعان بالدموع. «لكنه لم يطأني لمدة عامين. ولّما أصابها المرض، توقف عن مضاجعتي».

قالت ديسبينا إنها كانت تخص ابن سينا طوال حياتها، لقد ولدت لاثنين من عبيده، امرأة هندية ورجل فارسي كان خادمه المؤتمن. ماتت أمها لّما كانت في السادسة من عمرها. وتزوجها الرجل العجوز عقب وفاة أبيها، لّما كانت في الثانية عشرة من عمرها، ولم يعتقها قطّ.

وضع روب إصبعه في الحلقة المعدنية التي تتدلى من فتحة أنفها، رمز العبودية. «لماذا لم يعتقك؟»

«بصفتي واحدة من ممتلكاته وكذلك زوجته الثانية، فأنا محمية مرتين».

«ماذا لو أتى إلى هنا الآن؟» فكر روب في الدرج الوحيد.

يقف واصف المجبوب في الأسفل وسوف يثنيه عن المجيء هنا. فضلًا عن ذلك، يجلس زوجي بجوار فراش زوجته رضا المريضة ولا تفارق يده يدها».

نظر روب إلى ديسبينا وأومأ برأسه وانتابه شعور بالذنب الذي كان يتزايد داخله دون علمه. كان يحب الفتاة الصغيرة والجميلة ذات البشرة الزيتونية، ذات النهدين الصغيرين والبطن الصغير الممتلئ والفم الجائع. كان ينتابه شعور بالأسى على الحياة التي عاشتها، وهي سجينة في هذا السجن المريح. كان يعلم أن التقاليد الإسلامية كانت تحبسها معظم الوقت داخل المنزل والحدائق ولم يلمها على أي شيء، لكنه أصبح يحب الرجل العجوز سيئ الهندام بعقله الرائع وأنفه الكبير.

نهض وبدأ في ارتداء ثيابه. «سوف أكون صديقك».

لم تكن غبية. لقد راقبته باهتمام. «لقد كنت هنا كل ليلة تقريبًا وشعرت بالملل. إذا أرسلت واصف في غضون أسبوعين، ستأتي».

قبّلها على أنفها مباشرة فوق الحلقة المعدنية.

امتطى صهوة الحصان البني على مهل يقصد منزله وهو يسير تحت ضوء القمر، وتساءل عما إذا كان أحمق كبيرًا.

وبعد مرور إحدى عشرة ليلة، طرق واصف بابه.

كانت ديسبينا على حقّ تقريبًا، فقد كان يشعر بالإغراء الجارف وأراد أن يهزّ رأسه بالموافقة. كان من الممكن أن يسارع روب جيه إلى تعزيز

قصة كان من الممكن أن يسرد تفاصيلها بقية حياته كلما اجتمع مع الرجال يرتشف الخمر ويتفاخر بمغامراته الجنسية وكيف زار الزوجة الشابة مرارًا وتكرارًا في حين كان الزوج العجوز يجلس في مكان آخر من المنزل.

هزّ روب رأسه. «قل لها إنني لا أستطيع أن آتي إليها بعد الآن».

التمعت عينا واصف تحت جفنيه الكبيرين المضمخين بالسواد، وابتسم بازدراء لليهودي المرتاع وركب حماره وسار بعيدًا.

انتقلت رضا الورعة إلى الرفيق الأعلى بعد ذلك بثلاثة أيام، وقتما ردد مؤذنو المدينة الصلاة الأولى (صلاة الفجر)، وهو الوقت المناسب لإنهاء حياة دينية.

تحدّث الناس في المدرسة والبيمارستان عن الكيفية التي جهّز بها ابن سينا جسد المرأة بيديه، وعن مراسم الدفن المتواضعة؛ حيث إنه لم يسمح سوى لعدد قليل من الملالي بالحضور.

لم يأتِ ابن سينا إلى المدرسة أو المستشفى، لا أحد يعرف مكانه.

وبعد أسبوع من وفاة رضا، في إحدى الأمسيات، رأى روب الجوزجاني وهو يحسو الخمر في الميدان الأوسط.

قال الجوزجاني: «اجلس أيها الذمي»، وأشار لإحضار المزيد من النبيذ.

«يا حكيم، كيف حال شيخ الأطباء؟»

كان الأمر أشبه لو أن السؤال لم يسأل. «يعتقد أنك شخص مختلف. قال الجوزجاني باستياء: «طالب متميز».

لو لم يكن طالب يدرس الطب، ولو لم يكن الجوزجاني هو الطبيب

العظيم، لظنّ روب أن الرجل الآخر يغار منه.

«لو لم تكن طالبًا متميزًا أيها الذمي، لما انتبهت لوجودي». رمقه الجوزجاني بنظرة برّاقة، وأدرك روب أن الجرّاح كان مخمورًا تمامًا. صمتا أثناء تقديم الخمر.

كنت في السابعة عشرة من عمري لمّا التقينا في مدينة جرجان. كان ابن سينا يكبرني بسنوات قلائل، ولكنها إرادة الله! كان الأمر أشبه بالتحديق مباشرة إلى الشمس. أبرم أبي معه صفقة. كان على ابن سينا أن يدربني في الطب، وكان عليّ أن أكون خادمه».

يرشف الجوزجاني الخمر وهو يفكر متأملًا. «رافقته وخدمته، علّمني الرياضيات باستخدام كتاب المجسطي بوصفه نصًّا لمؤلفه العالم الإغريقي بطليموس. وقد أملى عليّ عدة كتب، بما في ذلك الجزء الأول من كتاب القانون في الطب، خمسون صفحة كل يوم تطلع فيه الشمس.

«لمّا غادر مدينة جرجان، رافقته إلى نصف دزينة من الأماكن. ففي مدينة همذان، جعله الأمير وزيرًا لكن الجيش تمرد وزجّ بابن سينا في السجن. وفي البداية قالوا إنهم سيقتلونه، لكن أطلق سراحه ابن المحظوظة! وفيما بعد أصيب الأمير بالمغص الذي عذّبه، وعالجه ابن سينا، وأسندت له حقيبة وزارية مرة ثانية!

مكثت معه سواء كان طبيبًا أو سجينًا أو وزيرًا. لقد أصبح صديقي ورئيسي على قدم وساق. كان التلاميذ يجتمعون كل ليلة في منزله، في حين كنت أقرأ بصوت عال من كتابه المسمى كتَاب الشفَاء وشخص آخر يقرأ من كتاب القانون في الطب بالتناوب. كانت رضا تحرص حرصًا شديدًا على تقديم طعام حلو المذاق لنا دائمًا. وعندما ننتهي من طعامنا، نحتسي الكثير من الجعة ونخرج بحثًا عن نساء عاهرات. كان أروع الرفاق

وكان يلهو بنفس القدر الذي يعمل به. كان لديه العشرات من العاهرات الحسناوات، ربما ضاجعهن على نحو ملحوظ؛ لأنه فعل كل شيء أفضل من معظم الرجال. رضا كانت دائمًا تعرف لكنها أحبّته على أيّ حال».

سكت برهة. «الآن هي واراها الثرى وهو أفناه الفراق، حتى إنه يفرّ من أصدقائه القدامى، وكل يوم يتجوّل في المدينة بمفرده، ويقدّم العطايا للفقراء».

قال روب بلطف: «يا حكيم».

حدّق الجوزجاني.

«يا حكيم، هل لي أن أزورك في منزلك؟»

«أيها الأجنبي، أود أن تتركني الآن وحدي».

فأومأ روب وشكره على الجعة، ثم ذهب بعيدًا.

انتظر روب لمدة أسبوع ثم امتطى صهوة جواده قاصدًا المنزل في وضح النهار وترك حصانه مع الرجل عند البوابة.

كان ابن سينا وحده، كانت عيناه هادئتان. جلس هو وروب معًا في ارتياح، وتحدّثا حينًا وصمتا حينًا آخر.

«هل كنت بالفعل طبيبًا عندما تزوجتها يا سيدي؟»

«أصبحت حكيمًا في السادسة عشرة من عمري. لقد تزوجنا لّما كنت في العاشرة من عمري، وهو العام الذي حفظت فيه القرآن عن ظهر قلب، وهو العام الذي بدأت فيه دراسة الأعشاب الطبية».

كان روب منبهرًا ومذهولًا. «في ذلك العمر كنت أكافح لأصبح مهرّجًا وحلاقًا جرّاحًا». روى لابن سينا كيف درّبه الحلاق كصبيّ يتيم.

«ما صنعة أبيك؟»

«كان أبي نجارًا».

«أعرف النقابات الأوروبية. قال ابن سينا في تثاقل: «لقد سمعت أنه يوجد عدد قليل جدًّا من اليهود في أوروبا ولا يسمح لهم بالانضمام إلى النقابات».

هو يعرف، فكر روب متألمًا. وتمتم قائلًا: «يسمح لقلة منهم».

بدا أن عيني ابن سينا تخترقه برفق. لم يستطع روب التخلص من اليقين بأنه متعثر. «أنت تتوق بشدة لتعلم فن العلاج والشفاء ودراسة العلم».

«نعم، يا سيدي».

تنهّد ابن سينا، وأومأ، وجال ببصره بعيدًا.

لا شك في أن روب لاحظ بارتياح أن خوفه كان خطأ؛ وسرعان ما تحدّثا عن أمور أخرى.

تذكّر ابن سينا المرة الأولى التي رأى فيها رضا لمّا كان صبيًّا. «كانت رضا من بخارى، وهي فتاة تكبرني بأربع سنوات. كان أبوانا جباة ضرائب، وقد جرى ترتيب الزواج وديًّا باستثناء صعوبة دامت لفترة وجيزة لأن جدّها احتجّ لأن والدي كان إسماعيليّ المذهب وكان يدخّن الحشيش أثناء العبادة المقدسة. لكن عمّا قريب كنا متزوجين. ظلت صامدة طوال حياتي».

أدار الرجل العجوز عينيه على روب. «ألا يزال الحماس يملؤك، ماذا تريد؟»

«أن أكون طبيبًا ماهرًا». وأشار في صمت، الطبيب الذي تصنعه أنت فحسب، لكنه اعتقد أن ابن سينا فهم ما قاله.

«أنت طبيب معالج بالفعل، أما عن الأهلية والكفاءة. . . «هزّ ابن سينا كتفيه. «كي تكون طبيبًا ماهرًا يجب أن تكون قادرًا على الإجابة عن لغز لا يمكن الإجابة عنه».

«ما السؤال؟» سأل روب جيه، والعبارة تأسر لبّه.

لكن الرجل العجوز ابتسم في حزنه. «ربما تكتشفه يومًا ما. وقال: «هذا جزء من اللغز».

47

الامتحان

في فترة ما بعد الظهيرة من امتحان كريم، انخرط روب في أنشطته المعتادة بقوة خاصة واهتمام شديد، وهو يحاول قدر استطاعته تشتيت ذهنه عن المشهد الذي كان يعلم أنه سيحدث قريبًا في غرفة الاجتماعات بالقرب من بيت الحكمة.

لقد جنّد هو وميردين يوسف الجمل، أمين المكتبة اللطيف، كشريك لهما وجاسوس. وأثناء قيامه بواجباته في المكتبة، تمكّن يوسف من التعرف على هوية الممتحنين. انتظر ميردين بالخارج للحصول على الأخبار، التي أحضرها على الفور إلى روب.

كان يوسف قد أخبر ميردين قبل أن يسارع بالعودة إلى الداخل للمزيد من الأخبار: «إنه سيد سعدي من يجري امتحان الفلسفة». لم يكن ذلك سيئًا؛ كان الفيلسوف صعبًا لكنه لن يخرج عن طريقه ليكون سببًا في رسوب مرشح لينال الدرجة.

ولكن منذ ذلك الحين، كانت الأخبار مروّعة.

نادر بوخ القانوني الأوتوقراطي أمرد اللحية الذي كان سببًا في رسوب كريم في امتحانه الأول، سيختبر الطالب في القانون! كان الملا أبو بكر يطرح أسئلته على الطالب في مسائل علم أصول الدين، وكان شيخ الأطباء نفسه يمتحنه في الطب.

كان روب يأمل في أن يجلس جلال الدين في لجنة المتحنين ليمتحن

الطلاب في الجراحة، لكن روب تمكن من رؤية جلال الدين وهو يؤدي واجباته المعتادة، وقيامه برعاية المرضى؛ وحاليًا جاء ميردين مسرعًا وهمس أن آخر عضو قد وصل وهو ابن النطلي الذي لم يكن أحد منهم يعرفه جيدًا.

ركّز روب على عمله، حيث ساعد جلال الدين في سحب الكتف المخلوع وشدّه، باستخدام أداة ذكية مصنوعة من الحبال من تصميم جلال الدين. المريض حارس القصر الذي سقط من على فرس قزم أثناء لعبة الكرة والعصا، استلقى أخيرًا مثل حيوان بري في قيود الحبال، وجحظت عيناه حتى كادتا أن تسقطا من محجريهما مع التخلص المفاجئ من الألم.

قال جلال الدين بمرح: «الآن سوف ترقد لعدة أسابيع مرتاحًا في حين أن الآخرين يكافحون مع واجبات الجندية الشاقة». أصدر تعليماته لروب لإعطاء الأدوية القابضة وطلب نظام غذائي حامض حتى يتأكدا من أن الحارس لم يصب بالتهاب أو ورم دموي.

كان ربط الكتف بقطعة قماش، ليس محكمًا جدًّا ولكنه كاف لتقييد الحركة، هو آخر عمل روتيني قام به روب. وعندما انتهى ذهب إلى بيت الحكمة وجلس وقرأ في كتاب سيلسوس، محاولًا سماع ما يقال في غرفة الامتحان والتقاط همهمات غير مفهومة من الأصوات فحسب. وأخيرًا تخلى عن هذا الجهد وانتظر على درج مدرسة الطب، حيث انضم إليه ميردين في الحال.

«ما زالوا في الداخل».

قال ميردين: «يراودني أمل ألا يطول الامتحان». «كريم ليس من النوع الذي يمكنه التعامل مع اختبار طويل جدًّا».

«لست متأكدًا من قدرته على التعامل مع أي اختبار. ظلّ يتقيأ لمدة

ساعة هذا الصباح».

جلس ميردين بجوار روب على الدرج. تحدثا عن عدة مرضى ثم انغمسا في صمت رهيب، روب يقطّب عن جبينه، وميردين يتنهّد.

وبعد وقت أطول مما كانا يعتقدان أنه ممكن، وقف روب. قال: «ها هو».

شقّ كريم طريقه نحوهما من خلال اختراقه مجموعات من الطلاب.

«هل يمكنك أن تعرف من وجهه؟» قال ميردين.

لم يستطع روب، لكن قبل أن يصل كريم إليهما بفترة طويلة، هتف بالأخبار. «يجب أن تخاطباني بالحكيم، أيها الطلاب!»

لقد اتجهوا إلى أسفل الدرج.

تعانقوا ورقصوا وصاحوا بأعلى أصواتهم وهم يلكزون بعضهم بعضًا ويصنعون صفًّا لَمّا اخترقه الحاج دافوت حسين عند مروره، أظهر لهم وجهًا شاحبًا مع الاستياء من أن طلاب أكاديميته يتصرفون بهذه الطريقة.

أصبحت الأوقات المتبقية نهارًا وليلًا أوقاتًا يتذكرونها لبقية حياتهم.

قال ميردين: «يجب أن تأتوا إلى منزلي لتناول المرطبات».

كانت هذه هي المرة الأولى التي يطلب فيها زيارة منزله، وهي المرة الأولى التي فتحوا فيها عوالمهم الخاصة لبعضهم بعضًا.

كان المسكن الذي يقطن فيه ميردين مكونًا من غرفتين مستأجرتين في منزل ملاصق جدًّا لمعبد صهيون، على الجانب الآخر من الحي اليهودي الذي يقطن فيه روب.

كانت عائلته مفاجأة لطيفة. زوجة خجولة تسمى فارا: قصيرة القامة، داكنة البشرة، صغيرة العجيزة، ثابتة العينين. ولدان أحدهما يسمى داود والآخر يسمى يساكر كانا مستديري الوجه، وهما متشبثان برداء أمهما. قدّمت فارا الكعك المحلى والنبيذ، من الواضح استعدادًا للاحتفال، وبعد شرب الأنخاب ذهب الأصدقاء الثلاثة مرة أخرى ووجدوا خياطًا أخذ قياسات الحكيم الجديد ليحيك له عباءة الطبيب السوداء.

«هذه ليلة تقضى في الميادين!» أعلن روب أنهم كانوا في مكان لتناول الطعام يطل على الميدان المركزي الكبير بالمدينة، وهم يأكلون وجبة فارسية فاخرة ويطلبون المزيد من النبيذ بنكهة المستكة الذي نادرًا ما يحتاجه كريم، حيث كان يشرب أثناء فترة التدريب الطبي.

لقد أسهبوا في كل سؤال من أسئلة الامتحان، وركزوا على كل جواب.

ظل ابن سينا يطرح عليّ أسئلة في الطب. ما العلامات والمؤشرات المختلفة التي يستدل عليها من العرق، أيها المرشح؟ ... جيد جدًّا، يا سيد كريم، جواب شاف وواف ... وما العلامات والمؤشرات العامة التي نستخدمها في التشخيص؟ هل يمكنك أن تتحدّث الآن عن النظافة الشخصية المناسبة للمسافر على البر ثم في البحر؟ كان الأمر كما لو كان يدرك أن الطب هو مصدر قوتي والمجالات الأخرى نقطة ضعفي.

«سيد سعدي طلب منّي أن أتحدّث عن مفهوم أفلاطون بأن كل الرجال يرغبون في السعادة، وأنا ممنون لك يا ميردين لأننا استذكرناه بالكامل. أجبت بإسهاب مع ذكر العديد من المراجع التي تؤكد مفهوم النبي محمد أن السعادة أجر الله على الطاعة والصلاة الخالصة لوجه الله. وكان هذا أحد المزالق التي تصديت لها».

«وماذا عن نادر بوخ؟» سأل روب.

«رجل القانون». أخذت كريم رجفة. طلب مني التحدّث عن الفقه فيما يتعلق بعقاب المجرمين. لم أتمكن من التفكير؛ لذلك قلت إن كل عقاب يستند إلى عظات النبي محمد (صلى الله عليه وسلم!)، التي تعلن أننا جميعًا في هذا العالم يعتمد بعضنا على بعض تقريبًا، على الرغم من اعتمادنا النهائي دائمًا على الله الآن وإلى الأبد. يفصل البرزخ الأخيار والأطهار عن الآثمين والعصاة. كل من يَضلّ يعاقب وكل من يطيع ينسجم تمامًا مع إرادة الله الكونية التي يستند عليها الفقه. وهكذا فإن أمر الروح يقع على عاتق الله بكامله، الذي يعاقب جميع المذنبين».

كان روب يحدّق به. «ما معنى هذا؟»

«لا أعرف الآن. ولم أكن أعرف قبل ذلك. رأيت نادر بوخ ينتقد الجواب ليرى ما إذا كان الجواب يحتوي على مغزى لم يتعرف عليه. بدا وكأنه على وشك أن يفغر فمه ليطلب توضيحًا أو يطرح المزيد من الأسئلة، وفي هذه الحالة كان سيحتم مصيري، لكن بعد ذلك طلب مني ابن سينا أن أشرح الأمزجة الأربعة في الجسم، وعندها سردت كلماته الخاصة من كتابيه اللذين ألّفهما حول هذا الموضوع، وانتهى الامتحان!»

قهقهوا حتى التمعت أعينهم بالدموع، ثم شربوا وشربوا مرة بعد مرة.

ولمّا لم يتمكنوا أخيرًا من الشرب، اندفعوا إلى الشارع خلف الميدان وهتفوا ينادون على عربة يجرها حمار مرسوم على بابها علامة الزنبق. جلس روب في مقعد السائق مع القوّاد. نام ميردين ورأسه على ركبتي العاهرة الممتلئتين لورنا، وألقى كريم رأسه على صدرها وأنشد الأغاني الهادئة.

كانت عينا فارا الهادئة مستديرتين بقلق لمّا رأت روب وميردين يحملان زوجها إلى منزله.

«هل أصابه أذى؟»

«هو ثمل، نحن جميعًا سكارى أيضًا حتى الثمالة»، أوضح روب، وعادا هو وكريم إلى العربة. حملتهما العربة إلى المنزل الصغير في الحي اليهودي، حيث سقط هو وكريم على الأرض فور دخولهما من الباب وران عليهما النعاس في ثيابهما.

وإبان الليل استيقظ على صوت خافت مزعج وعرف أن كريم كان ينتحب.

وعند الفجر استيقظ من جديد، على استيقاظ زائره.

تأوه روب. فكر في كآبة أنه لا ينبغي أن يسكر على الإطلاق.

«اعتذر عن الازعاج، يجب أن أذهب وأركض».

«تركض؟ لماذا، في كل صباح؟ بعد الليلة الماضية؟»

«للاستعداد «للشاطر».

«ما هو «الشاطر»؟»

«سباق الجري». انسلّ كريم من المنزل. ثمة وقع أقدام لّما بدأ كريم يركض، وانحسر الصوت رويدًا رويدًا، وسرعان ما تلاشى.

استلقى روب على الأرض واستمع إلى نباح الكلاب الشرسة التي كانت علامة على تقدم أحدث طبيب في العالم، وهو يتجول مثل الجن في شوارع الحي اليهودي الضيقة.

48

نزهة في الريف

قال كريم لروب: «إن الشاطر هو سباق الجري الوطني خاصتنا، وهو حدث سنوي قديم قدم بلاد فارس». يقام هذا الحدث للاحتفال بنهاية شهر رمضان، شهر الصيام الديني. وفي الأصل -منذ زمن بعيد في الزمن الغابر حيث إننا نسينا اسم الملك الذي رعى السباق الأول- هو مسابقة لاختيار «شاطر» الشاه أو الخادم، ولكن عبر القرون، اجتذبت أصفهان أفضل العدّائين من بلاد فارس وأماكن أخرى وتنافسوا على مختلف أنواع الترفيه الرائع».

تبدأ الدورة عند بوابات الفردوس وتمتد في شوارع أصفهان لمسافة عشرة أميال ونصف ميل روماني، وتنتهي عند سلسلة من الأعمدة في فناء القصر. تعلّق حاملة السهام على الأعمدة، كل منها يحتوي على اثني عشر سهمًا ومخصصة لعدّاء معين. وفي كل مرة يصل فيها العدّاء إلى الأعمدة، يأخذ سهمًا واحدًا من حمالته ويضعه في جعبة على ظهره، ثم يعود أدراجه لإكمال جولة أخرى. ومن الناحية التقليدية يبدأ السباق مع الأذان إلى الصلاة الأولى (صلاة الصبح). لقد كان اختبارًا شاقًّا للقدرة على التحمل. إذا كان اليوم حارًّا قائظًا ومجهدًا، فإن آخر عدّاء يبقي في السباق يعلن هو الفائز. وفي السباقات التي تعقد أثناء الطقس البارد، ينهي الرجال أحيانًا الاثنتي عشرة جولة بأكملها، 126 ميلًا رومانيًّا، وعادة ما يجمعون السهم الأخير في وقت ما بعد الصلاة الخامسة (صلاة العشاء). وعلى الرغم من الشائعات بأن العدّائين القدامى قد حققوا مواسم أفضل، فقد جرى معظمهم في الدورة حوالي 14 ساعة.

قال كريم: «لا يمكن لأحد على قيد الحياة الآن أن يتذكر عدّاءً أنهي السباق في أقل من ثلاث عشرة ساعة». أعلن علاء شاه أنه إذا انتهى العدّاء في اثنتي عشرة ساعة أو أقل، فسيمنح خلعة فخمة. وبالإضافة إلى ذلك، سيحصل على مكافأة قدرها خمسمئة قطعة ذهبية ووظيفة فخرية بصفته زعيم العدّائين، والتي تجلب معها راتبًا سنويًّا رائعًا».

«هذا هو السبب في أنك عملت بجدّ، ركضت لمسافة طويلة كل يوم؟ هل تعتقد أنه يمكنك الفوز بهذا السباق؟»

ابتّسم كريم وهزّ كتفيه. «كل عدّاء يحلم بالفوز بالسباق. حقًّا فبالطبع، أريد أن أفوز بالسباق والخلعة. شيء واحد فقط يمكن أن يكون أفضل من أن تكون طبيبًا - وهو أن تكون طبيبًا ثريًّا في أصفهان!»

تغيّر الهواء، وأصبح رطبًا ومعتدلًا تمامًا لدرجة أنه بدا وكأنه يداعب بشرة روب بالقبلات لمّا غادر المنزل. بدا العالم كله في ريعان الشباب، وقد ارتفع عجيج نهر الحياة ليل نهار مع ذوبان الجليد. كان شهر أبريل ضبابيًّا في لندن، لكن في أصفهان كان شهر شعبان، أخف وأحلى من شهر مايو الإنجليزي. أزهرت أشجار المشمش المهملة في الفناء الصغير ناصعة البياض بجمال خلّاب، وذات صباح صعد الخووف إلى باب روب وأحضره، وقال له إن علاء شاه يتمنى مرافقته في جولة في ذلك اليوم.

كان روب متخوفًا من قضاء الوقت مع الملك متقلّب المزاج، ودهش بأن الشاه قد تذكّر وعده بأن يتجولا معًا.

وفي إسطبلات الفردوس قيل له أن ينتظر. انتظر وقتًا طويلًا، وفي نهاية المطاف جاء علاء شاه تتبعه مثل هذه الحاشية التي بالكاد روب يولي لها إتمامًا.

«حسنًا، أيها الذمي!»

«جلالة الملك».

لوّح علاء شاه بسجود «روي زمين» (الوجه على الأرض) بفارغ الصبر وسرعان ما سرجا جواديهما واعتليا ظهريهما.

طويا التلال طيًّا، الشاه على حصان عربي أبيض ينطلق إلى حدّ ما بجمال خلّاب، وروب يمتطي مهرة خلفه، وما لبث أن استوى الشاه على جواده بسرعة معتدلة ولوّح لروب على طول الطريق.

«أنت طبيب ممتاز لوصف ركوب الخيل، يا يسّي. لقد كنت غارقًا في تفاهة البلاط الملكي. أليس من دواعي السرور الابتعاد عن كل الناس؟»

«حقيقي، جلالتك».

اختلس روب نظرة إلى الوراء بعد لحظات قليلة. في الوراء جاءت الحاشية بأكملها: الخووف وحراسه، وهم يراقبون الملك بحذر، يتجولون بخيول احتياطية وحيوانات تحمل الرحال، وعربات تتدحرج وتحدث قعقعات؛ لأنها تجر فوق الأرض الوعرة المفتوحة.

«هل ترغب في ركوب حيوان مفعم بالحيوية؟»

ابتّسم روب. «سيكون مضيعة لكرم جلالتك، هذا الحصان مناسب لقدرتي في ركوب الخيل، يا صاحب السعادة». وفي الواقع، كان قد أصبح مغرمًا بالحصان المخصي البني.

تنشّق علاء شاه. «من الواضح أنك لست فارسيًّا؛ لأن أي فارسي ينتهز فرصة الحصول على مطية أفضل. ركوب الخيل في بلاد فارس هو كل شيء، حيث يولد الصغار من بطون أمهاتهم في سروجهم الصغيرة بين أرجلهم». حكّ عقبيه بشدة في جنبيّ الحصان العربي. قفز الحصان متجاوزًا شجرة ميتة واستدار الشاه في السّرج وأطلق قوسه الطويل

الضخم على كتفه الأيسر، وهو ينفجر ضاحكًا لمّا أخطأ السهم القصير هدفه.

«هل تعرف القصة وراء هذا التمرين؟»

«لا، يا سيدي». رأيت الفرسان يفعلون ذلك في عروض الترفيه والتسلية خاصتك».

«نعم، غالبًا ما نلعبها، والبعض ماهرون فيها بشكل ممتاز. يطلق عليه الرمية الْبَارثيَّة. قبل ثمانمئة عام، كان البارثيون مجرد شعب من شعوب أرضنا. كانوا يعيشون شرق ميديا، في منطقة كانت في الغالب ذات طبيعة جبلية تمتد فيها الفيافي الشاسعة الوعرة، صحراء دشت-كوير (صحراء الملح الكبرى)».

«أنا أعرف صحراء دشت-كوير (صحراء الملح الكبرى). لقد عبرت قليلًا منها لآتي إليكم».

قال علاء شاه، وهو يكبح جماح جواده العربي الأصيل بقوة لإبقائه بجانب الحصان المخصي: «إذًا فأنت تعرف نوع الأشخاص الذين تناحروا عليها».

كان هناك صراع للسيطرة على روما. كان أحد المتنافسين هو ماركوس ليكينيوس كراسوس العجوز حاكم سوريا. لقد احتاج إلى غزو عسكري ليتساوى مع أو يتفوق على مآثر منافسيه، يوليوس قيصر وبومبي، وقرر تحدي البارثيين.

«الجيش البارثي ربع حجم جحافل كراسوس الرومانية المخيفة، كان تحت قيادة جنرال يدعى سورين. كان يتألف في الغالب من رماة السهام على خيول فارسية صغيرة وسريعة وقوة صغيرة من الكاتافراكت (سلاح

الفرسان الثقيلة)، وجنود الخيالة المدرعين الذين يستخدمون رماح طويلة مميتة.

جاءت جحافل كراسوس مباشرة إلى سورين، التي تراجعت إلى صحراء دشت-كوير (صحراء الملح الكبرى). وبدلًا من التحول شمالًا إلى أرمينيا، طارد كراسوس، وغاص في الصحراء. وحدث شيء رائع.

«هاجمت الكاتافراكت (أسلحة الفرسان الثقيلة المدرعة) الرومان قبل أن تتاح لهم الفرصة لإكمال ميدانهم الدفاعي الكلاسيكي. وبعد الهجوم الأول انسحب حاملو الرماح وتحرّك الرماة. استخدموا الأقواس الطويلة الفارسية مثل قوسي هذا، وهو أقوى من القوس الروماني. اخترقت سهامهم دروع الوجه ودروع الصدر ودروع الساق الرومانية، ولدهشة الجحافل، ظل البارثيون يفقدون السهام بدقة على أكتافهم أثناء انسحابهم».

قال روب: «الرمية الْبَارثيَّة».

«الرمية الْبَارثيَّة. ففي البداية حافظ الرومان على معنوياتهم، وتوقعوا أن تنفد السهام في القريب العاجل. ولكن سورين جلب إمدادات جديدة من السّهام على رحل البعير، ولم يستطع الرومان خوض حربهم المعتادة في أماكن قريبة. أرسل كراسوس ابنه في غارة تحويلية وأعيد رأس الشاب إليه على طرف رمح فارسي. لاذ الرومان بالفرار تحت جنح الليل - أقوى جيش في العالم! هرب عشرة آلاف، بقيادة كاسيوس، قاتل قيصر المستقبلي. وقع في الأسر عشرة آلاف. وقتل عشرين ألفًا من بينهم كراسوس. كانت الخسائر في صفوف البارثيين ضئيلة، ومنذ ذلك اليوم، تدرّب كل تلميذ فارسي على الرمية الْبَارثيَّة».

أرخى علاء شاه خطام جواده وحاول مرة أخرى، هذه المرة صاح

مبتهجًا لّما ارتطم السهم بقوة بجذع شجرة. ارتفع قوسه عاليًا في الهواء، وكانت إشارته للآخرين في الحاشية ليقتربوا منه.

حملت لهم سجادة بالية خشنة مبسوطة وسرعان ما رفع الجنود عليها مظلة الملك. وبعد فترة وجيزة، في حين أن ثلاثة موسيقيين كانوا يعزفون بهدوء، جيء بالطعام.

جلس علاء شاه وطلب من روب أن ينضم إليه. كانوا يقدمون صدور طيور طرائد مختلفة مخبوزة في توابل لذيذة، وكعك البيلاه، وخبز، وبطيخ، لابد أنه كان محفوظًا في كهف خلال فصل الشتاء، وثلاثة أنواع من النبيذ. كان روب يأكل مسرورًا في حين أن علاء شاه كان يتذوق القليل من الطعام لكنه يشرب باستمرار، كل أنواع النبيذ الثلاثة.

ولّما أمر علاء شاه بإحضار لعبة الشطرنج، جيء برقعة الشطرنج على الفور ووضعت القطع. تذكّر روب هذه المرة الحركات المختلفة، لكن الشاه هذه المرة ألحق به الهزيمة ثلاث مرات متتالية، على الرغم من أنه طلب المزيد من النبيذ وابتلعه بسرعة.

قال علاء شاه: «قندراسه سوف يصدر فرمانًا ضد شرب الخمر».

لم يعرف روب إجابة آمنة.

«دعني أخبرك عن قندراسه، أيها الذمي. يفهم قندراسه بشكل خاطئ! - أن العرش موجود أساسًا لمعاقبة أولئك الذين يتخطون حدودهم مع القرآن. العرش موجود لترسيخ دعائم الأمة وجعلها كلها أمة قوية، لا داعي للقلق من الخطايا البسيطة للقرويين. لكن الإمام يعتقد أنه اليد اليمنى المخيفة لله. لا يكفي أنه ارتقى من رئاسة مسجد صغير في ميديا حتى أصبح وزيرًا لشاه بلاد فارس. وهو من الأقارب البعيدين للأسرة العبّاسية حيث يجري في عروقه دماء الخلفاء في بغداد. يود أن يتولى

الحكم في يوم من الأيام في أصفهان، يستهدف عرشي بقبضة دينية».

الآن روب لا يمكن أن يجيب لو كانت الكلمات موجودة؛ لأنه أصيب بالرعب. لقد عرّضه لسان الشاه الذي أرخاه النبيذ إلى الخطر الأكبر؛ لأنه إذا كان علاء شاه الحصيف يندم على كلماته، فلن تكون مهمة ترتيب التخلص السريع من الشاهد مهمة عظيمة.

لكن علاء شاه لم يظهر أي انزعاج. لمّا أحضر إبريق نبيذ مغلقًا، ألقاه لروب وأعاده إلى الخيول. لم يقوما بأي محاولة للصيد ولكنهما بإيجاز امتطيا صهوة جواديهما خلال يوم متثاقل وشعرا بحرارة وأصابهما الإعياء الشديد. ازدانت التلال بالأزهار وبراعم الزهور كأسية الشكل من شتى الألوان الحمراء والصفراء والبيضاء على سيقان سميكة. لم تكن نباتات رآها في إنجلترا. لم يستطع علاء شاه إخباره بأسمائها لكنه قال إن كل واحدة من هذه الزهور لم ينبت من بذرة بل من بصيلة مثل حبة البصل.

قال علاء شاه: «إنني آخذك إلى مكان يجب ألا تخبر به أبدًا أي رجل»، وقاده خلال الشجيرات حتى وصلا إلى فم مغارة ملأى بنبات السرخس. وفي الداخل، وسط رائحة كريهة مثل البيض المتعفن قليلًا، كان هناك هواء دافئ وبركة من الماء البني مبطنة بصخور رمادية اللون مليئة بطحالب أرجوانية اللون. بالفعل كان علاء شاه يتحرر من ثيابه. «حسنًا، لا تتلكأ. اخلع ثيابك، أيها الذمي الأحمق!»

خلع روب ثيابه في قلق وهو غير راغب في ذلك، متسائلًا عما إذا كان الشاه رجلًا يحب أجساد الرجال. لكن علاء شاه كان بالفعل في الماء ويتفحصه بلا خجل ولكن بدون شهوة.

«أحضروا النبيذ، أنت لست مترهلًا بشكل استثنائي، أيها الأوروبي».

لقد أدرك أنه ليس من الحصافة الإشارة إلى أن قضيبه يفوق قضيب الملك طولًا.

كان الشاه أكثر حساسية من روب، لأن علاء شاه كان يبتسم له. «لست بحاجة إلى أن أكون فحلًا؛ لأنني أستطيع مضاجعة أي امرأة، أنا لا أجامع امرأة مرتين، هل تعرف ذلك؟ هذا هو السبب في أن المضيف لا يكرر وسيلة ترفيهية لي أكثر من مرة، إلا إذا كانت لديه زوجة جديدة».

استقر روب بحذر شديد في الماء الدافئ الزاخر بالترسبات المعدنية، وفتح علاء شاه إبريق النبيذ وشرب، ثم أرجع ظهره للوراء وأغمض عينيه. تقاطر جبينه ووجنتاه عرقًا حتى أصبح جزء جسمه خارج الماء مبتلًّا مثل الجزء الذي غمره الماء. فحصه روب، متسائلًا كيف كان الأمر لمّا يكون المرء أعلى منزلة.

«متى فقدت عذريتك؟» سأل علاء شاه، وما زالت عيناه مغلقتين.

أخبره روب عن الأرملة الإنجليزية التي أخذته إلى سريرها.

«أنا أيضًا كنت في الثانية عشرة من عمري. أمر أبي أخته أن تأتي إلى سريري، كما هي عادتنا مع الأمراء الصغار، الأمر شديد الحساسية. كانت عمتي حنونة ودقيقة في إعطاء التعليمات، كانت أمًّا بالنسبة لي تقريبًا. لسنوات اعتقدت أنه بعد كل مضاجعة أقذف وعاءً من المني الدافئ والسكاكر».

لقد انغمسا في صمت مطبق يشوبه الرضا. أخيرًا قال علاء شاه: «سأكون ملكًا لملوك أوروبا».

«أنت ملك الملوك».

«هذا ما ألقّب به».

الآن فتح عينيه ورمق روب بنظرة مباشرة، حدّق فيه بعينين لم تطرفا. «زركسيس، الإسكندر الأكبر، سيروس، داريوس، كل العظماء، وإذا لم يكن كل منهم فارسي النشأة والميلاد، فقد كانوا ملوكًا فارسيين لّما وافتهم المنية. ملوك عظماء حكموا إمبراطوريات عظيمة.

«الآن، لا توجد إمبراطورية. في أصفهان، أنا الملك. في الغرب، حكم طغرل بك قبائل كبيرة من البدو السلاجقة الأتراك. وفي الشرق، السلطان محمود هو سلطان السلاسل الجبلية في غزنة. ووراء غزنة، يحكم دزينتان من الراجا (الملوك) ضعاف الشكيمة في الهند لكنهم لا يشكلون سوى تهديد لبعضهم بعضًا. الملوك الوحيدون الأقوياء بما يكفي ليكونوا ذوي نفوذ هم السلطان محمود وطغرل بك وأنا عندما أخوض المعارك، يسارع الشاون والبكوات الذين يحكمون البلدات والمدن خارج أسوارهم لمقابلتي باحترام وإطراء متملق.

لكنني أعرف أن نفس الشاون والبكوات سوف يظهرون نفس الولاء والطاعة لكل من السلطان محمود أو طغرل بك إذا كان عليهم خوض المعارك بهذه الطريقة مع جيوشهم.

«ذات مرة في الأيام الغابرة كان هناك وقت مثل الآن، لّما كانت هناك ممالك صغيرة وملوك ناضلوا من أجل جائزة قوامها إمبراطورية شاسعة. وفي نهاية المطاف، استحوذ رجلان على كل السلطة فحسب. التقى أردشير وأردوان في قتال واحد في حين أن جيشيهما كانا يراقبان عن كثب. شخصان عظيمان مدرعان يطوق بعضهما بعضًا في الصحراء. انتهى الأمر لّما هزم أردوان حيث أوسعه أردشير ضربًا بالعصا حتى الموت وكان أردشير أول رجل يأخذ لقب شاهانشاه. ألا تحب أن تكون من هذا النوع من ملك الملوك؟»

هزّ روب رأسه. «أريد أن أصبح طبيبًا فحسب». كان يرى حيرة تملأ

وجه الشاه. «شيء جديد. طوال حياتي لم يخفق أحد في اغتنام الفرصة للإطراء عليّ. ولكن من الواضح أنك لن تتبادل الأماكن مع الملك.

«لقد أجريت بعض الاستقصاءات. يقولون إنك متميز بشكل استثنائي بصفتك متدربًا. تلك الأشياء العظيمة متوقعة لمّا تصبح حكيمًا. سأحتاج إلى رجال يمكنهم القيام بأشياء عظيمة ولكن لا ينهشون لحمي.

سأستخدم المكر والدهاء وقوة العرش لإزاحة قندراسه. كان على الشاه دائمًا القتال للحفاظ على بلاد فارس. سأستخدم جيوشي وسيفي ضد ملوك آخرين. وقبل أن أنتهي من ذلك، ستكون بلاد فارس إمبراطورية مرة أخرى وسأكون شاهنشاه حقًّا».

أطبق يده على معصم روب. «هل ستكون صديقي، يا يسي بن بنيامين؟»

علم روب أنه خضع لإغراء ووقع في شرك صيّاد ذكي. كان علاء شاه يريد أن يضمن ولاءه المستقبلي لأغراضه الخاصة. وكان ذلك يحدث بهدوء وتروّ؛ من الواضح أنه هذا الملك كان أكبر من كونه الماجن المخمور.

لم يكن ليختار الانخراط في السياسة وندم على خروجه في نزهة في الريف في ذلك الصباح، لكن ما حدث قد حدث، وكان روب مدركًا تمامًا لأفضاله عليه.

أمسك معصم الشاه. «ولائي لك، جلالة الملك».

أومأ علاء شاه، وأرجع ظهره للوراء مرة أخرى، في مياه البركة الدافئة، وحكّ صدره. «إذًا، وهل تحب هذا، مكاني الخاص؟»

«إنه حار ورطب مثل إطلاق الريح، يا ملك».

لم يكن علاء شاه رجلًا يقهقه. فتح عينيه فحسب وابتسم. وفي النهاية تحدّث مرة أخرى. وقال في تثاقل: «يمكنك إحضار امرأة إلى هنا، إذا أردت، أيها الذمي».

* * *

قال ميردين لمّا سمع أن روب قد خرج في نزهة مع علاء شاه: «لا أحب ذلك». «إنه أمر خطير ولا يمكن التنبؤ بعواقبه».

قال كريم: «إنها فرصة عظيمة لك».

«فرصة لا أرغب فيها».

ومما جعله يشعر بالارتياح أنه مرت الأيام ولم يستدعه الشاه مرة أخرى. شعر بالحاجة إلى أصدقاء ليسوا ملوكًا وقضى الكثير من وقت فراغه مع ميردين وكريم.

كان كريم منهمكًا في حياة طبيب شاب يعمل في البيمارستان كما كان يفعل من قبل، باستثناء أنه كان يحصل الآن على راتب صغير من الجوزجاني مقابل الفحص اليومي والعناية بمرضى الجرّاح. ومع الوقت الكثير لنفسه والقليل من المال لإنفاقه، كان يتردد على الخادمات وبيوت الدعارة. وحثّ روب قائلًا: «تعال معي». «سأجلب لك عاهرة بشعر أسود مثل جناح الغراب الأسحم وناعم كالحرير».

ابتّسم روب وهزّ رأسه.

«أي نوع من النساء تريد؟»

«واحدة بشعر أحمر مثل ألسنة اللهب».

ابتّسم له كريم. «إنهن لا يأتين بهذا الشكل».

قال لهم ميردين بهدوء: «أنت بحاجة إلى زوجة»، لكن لم يأبه لأي منهما. سخّر روب طاقته إلى دراسته. استمرّ كريم في معاشرة النساء في خلواته، وأصبحت شهوته الجنسية مصدر فرح وبهجة لموظفي المستشفى.

وبمعرفة قصته، كان روب يدرك أنه يكمن في وجهه الجميل وجسده الرياضي صبيًّا صغيرًا وحيدًا يبحث عن حب الأنثى لطمس ذكرياته التي تقشعر لها الأبدان.

ركض كريم أكثر من أي وقت مضى، في بداية ونهاية كل يوم. تدرّب بجدّ وباستمرار وليس فقط بالجري. علّم روب وميردين استخدام سيف بلاد فارس المعقوف، السيف الأحدب، سلاح أثقل من سلاح روب الذي اعتاد على استخدامه، وهو سلاح يتطلب معصمين يتسمان بالقوة والمرونة. كريم جعلهما يمارسان الرياضة بحجر ثقيل في كل يد، ويقلبان الصخور لأعلى ولأسفل، إلى الأمام والخلف، ليجعلا معصميهما سريعين وقويين.

لم يكن ميردين رياضيًّا جيدًا ولم يستطع أن يصبح مبارزًا. لكنه تقبّل ضعفه وانعدام رشاقته بمرح، وكان يتمتع بقوة فكرية بالكاد بدا أنها مهمة لدرجة أنه لم يكن شرسًا مع السيف.

لم يريا كريم سوى القليل من الوقت بعد حلول الظلام دون سابق إنذار، وتوقف عن مطالبة روب بمرافقته إلى بيوت الدعارة، معترفًا أنه بدأ علاقة غرامية مع امرأة متزوجة وقد وقع في حبها. ولكن مع الإلحاح المستمر، تلقى روب دعوة من ميردين إلى منزله بالقرب من المعبد الصهيوني لتناول وجبة العشاء.

وفي خزانة في منزل ميردين، اندهش روب لرؤية رقعة مقسمة إلى مربعات مثل التي رآها مرتين فقط من قبل. «هل هذه رقعة الشطرنج؟»

«نعم، هل أنت تعرفها؟ لقد لعبت عائلتي هذه اللعبة مدى الحياة».

كانت قطع ميردين خشبية، لكن اللعبة كانت مماثلة لتلك التي لعبها روب مع علاء شاه، باستثناء أنه بدلًا من العزم على تحقيق نصر سريع ودام، كان ميردين سريعًا في شرح العبة. لم يمض وقتًا طويلًا، وتحت

وصاية مريضه، بدأ روب في فهم النقاط الدقيقة.

أظهر له ميردين العطوف لمحات صغيرة من السلام. وفي أمسية دافئة، بعد تناول وجبة بسيطة من أرز البيلاه بالخضروات الذي صنعته فارا، تبع ميردين ليتمنى ليساكر البالغ من العمر ستة أعوام ليلة سعيدة.

«أبي، هل أبانا الذي في السماء يراقبني؟»

«نعم، يساكر، إنه يراك دائمًا».

«لماذا لا يمكنني رؤيته؟»

«إنه غير مرئي».

كان للفتى وجنتان بنيتان ممتلئتان وعينان حادتان. كانت أسنانه كبيرة جدًّا وشدقه كبيرًا أيضًا بالفعل وكان يفتقد الأناقة مثل أبيه ويمتلك عذوبة روحه.

«إذا كان غير مرئي، فكيف يعرف كيف يبدو؟»

ابتسم روب ابتسامة عريضة. كان يعتقد أنه يخرج من أفواه الأطفال والرضّع. أجب على ذلك يا ميردين، يا عالم الشريعة الشفهية والمكتوبة، وأستاذ لعبة الشطرنج، الفيلسوف والمعالج...

لكن ميردين كان كفؤا لها. «تخبرنا التوراة أنه خلق الإنسان على صورته، بعد محاكاته لنفسه، ولهذا فهو يفعل ذلك ولكن ينظر إليك، يا ابني، ويرى نفسه». قبّل ميردين الطفل. «ليلة سعيدة، يا يساكر».

«ليلة سعيدة يا أبي، ليلة سعيدة يا يسي».

قال روب: «استرح جيدًا يا يساكر»، وقبّل الصبي وتبع صديقه وهو يخرج من غرفة النوم.

49

خمسة أيام إلى الغرب

وصلت قافلة كبيرة من الأناضول وجاء سائق ماشية شاب إلى البيمارستان ومعه سلة من التين المجفف لليهودي الذي يدعى يسي. كان الشاب يدعى سعدي، الابن الأكبر لذيبيد حافظ، قائد الشرطة في مدينة شيراز، وكان التين هدية ترمز إلى حب أبيه وامتنانه لمحاربي الطاعون في أصفهان.

جلس سعدي وروب وشربا الشاي وأكلا حبات التين اللذيذ، الذي كان كبير الحجم ولحمي الثمار، وحلو المذاق. اشتراه سعدي في مدينة مديات من سائق ماشية نقلته جماله من إزمير، عبر تركيا بأكملها. والآن سيسوق الجمال شرقًا مرة أخرى متجهًا إلى شيراز، وقد وقع في مغامرة السفر والترحال العظيمة وكان فخورًا لمّا طلب المعالج الذمي أن يحمل هدية من نبيذ أصفهان إلى أبيه المتميز ذيبيد حافظ.

كانت القوافل هي المصدر الوحيد للأخبار، واستجوب روب الشباب عن كثب.

لم تكن هناك أي علامة أخرى على الطاعون لمّا غادرت القافلة شيراز. شوهدت القوات السلجوقية مرة واحدة في الجزء الشرقي الجبلي من مدينة ميديا لكنهم بدوا أنهم مجموعة صغيرة ولم يهاجموا القافلة (الحمد لله!). وفي مدينة غزنة أصيب الناس بطفح جلدي مثير للحكة ولم يتوقف قائد القافلة عند هذا الحد لئلا يضاجع سائقو الماشية النساء المحليات ويصبن بالمرض الغريب. لم يكن هناك طاعون في مدينة همذان، لكن

أجنبيًّا مسيحيًّا جلب حمى أوروبية إلى الإسلام، وكان الملالي قد منعوا الناس من أي اتصال مع الشياطين الكفرة.

«ما علامات هذا المرض؟»

احتجّ سعدي بن ذيبيد؛ لأنه لم يكن طبيبًا ولم يأبه بمثل هذه الأمور. كان يعلم فقط أنه لن يقترب منه أحد باستثناء ابنة الرجل المسيحي.

«الرجل المسيحي لديه ابنة؟»

لم يستطع سعدي وصف الرجل المريض أو ابنته، لكنه قال إن تاجر الجمال الذي يدعى بودي، الذي كان مع القافلة، قد رآهما.

بحثا معًا عن تاجر الجمال، وهو رجل ماكر متغضن الوجه يبصق لعابًا أحمر اللون من بين أسنان سوداء جرّاء مضغ جوز التنبول.

قال بودي أنه بالكاد يتذكر المسيحيين، لكن لمّا ضغط روب قطعة نقود معدنية في يده، تحسنت ذاكرته حتى تذكر أنه رآهما يسافران لمدة خمسة أيام إلى الغرب، ونصف يوم بالقرب من مدينة داتور. كان الأب في منتصف العمر، وله شعر أشيب طويل ولا لحية له. كان يرتدي ثياب أجنبية سوداء أشبه بجلباب الملالي. كانت المرأة في ريعان الشباب وكانت طويلة القامة ولها شعر غريب لونه أفتح قليلًا من لون الحناء.

نظر إليه روب في حيرة وفزع. «ما علامات المرض على الرجل الأوروبي؟»

ابتسم بودي بسرور. «أنا لا أعرف، يا سيدي». «هل كان هناك أجَراء؟»

«لم أر أحدًا يرافقهما».

أخبر روب نفسه، مما لا شك فيه أن الأجَراء قد لاذوا بالفرار. «هل يبدو أنها لديها طعام كاف؟»

«أنا عن نفسي أعطيتها سلة من البقوليات وثلاثة أرغفة، يا سيدي».

الآن رمقه روب بنظرة أخافت بودي. «لماذا أعطيتها طعامًا؟»

هزّ تاجر الجمال كتفيه. استدار وفتّش في جوال، وأخرج السكين، المقبض أولًا. كانت هناك سكاكين مربي الحيوانات التي يمكن العثور عليها في كل سوق فارسي ولكن هذا كان الدليل، وللمرة الأخيرة الذي رآه روب، كان هذا الخنجر يتأرجح من حزام جيمس جيكي كولين.

كان يعلم أنه إذا أفشى السر لكريم وميردين، فسوف يصران على مرافقته، وهو يريد الذهاب بمفرده. ترك لهم رسالة مع يوسف الجمل. قال لأمين المكتبة: «أخبرهما بأنني اضطررت للمغادرة بسبب مسألة شخصية وسأشرحها عند عودتي».

ومن بين آخرين، أخبر جلال الدين فقط.

«هل ستذهب بعيدًا لبعض الوقت؟ لكن لماذا؟»

«إنه أمر مهم، هل يتعلق الأمر بامرأة...».

تمتم جلال الدين قائلًا: «بالطبع هو كذلك». كان مجَبّر العظام حاد الطباع حتى وجد أن هناك عددًا كافيًا من المتدربين لخدمة العيادة دون إزعاجه، ثم أومأ برأسه.

غادر روب صباح اليوم التالي. لقد كانت رحلة طويلة وكان من الممكن أن تكون العجلة المفرطة في غير صالحه، ومع ذلك فلم يتوقف عن السير بالحصان المخصي البني؛ لأنه دائمًا ما كانت في ذهنه صورة امرأة وحيدة في فيفاء غريبة مع أبيها المريض.

كان الطقس صيفيًّا، وكانت مياه أمطار الربيع قد تبخرت بالفعل تحت أشعة الشمس الرمادية، حتى إن الغبار المالح لبلاد فارس غطّاه وتسلل

إلى سرجه. أكله في طعامه وشرب منه غشاءً رقيقًا في ماءه. وفي كل مكان رأى الزهور البرية تحولت إلى اللون البني، لكنه كان يمر بأناس يحرثون التربة الصخرية عن طريق الترطيب لري أشجار الكروم والنخيل، كما كان يحدث منذ آلاف السنين.

كان صاحب همة متجهم ولم يعترض طريقه أحد أو يؤخره، وفي غسق اليوم الرابع مر ببلدة داتور. لا يمكن فعل أي شيء في الظلام، لكن في صباح اليوم التالي كان يمتطي حصانه ويسير به عند شروق الشمس. وفي منتصف الصباح في قرية غوشه الصغيرة، أخذ تاجر قطعة نقدية منه، وعضها، ثم أخبره أن الجميع يعرفون المسيحيين. كانا يقبعان في منزل قبالة وادي أحمد، على بعد مسافة قصيرة غربًا.

فاته الوادي لكنه صادف قطيعين من الماعز، وشيخ وصبي. بصق الرجل العجوز على سؤاله عن مكان وجود المسيحيين.

سحب روب سلاحه. كان بداخله قبح شبه منسي. استطاع الرجل العجوز أن يستشعر ذلك، وعيناه على السيف، رفع ذراعه وأشار.

سار روب في هذا الاتجاه. ولمّا كان بعيدًا عن المرعى، وضع راعي الماعز الأصغر حجرًا في حمالته ورماه. كان يسمع اصطدام الحجر في الصخور خلفه.

صادف الوادي فجأة. كان مجرى النهر القديم جافًّا في الغالب ولكنه فاض في وقت سابق من الموسم؛ لأنه لا يزال هناك اخضرار في الأماكن الظليلة. لقد اتبعه بطريقة جيدة قبل أن يرى المنزل الصغير المبني من الطين والحجر. كانت تقف في الخارج وهي تغلي ماء الغسل ولمّا رأته قفزت بعيدًا مثل حيوان بري، إلى المنزل. في الوقت الذي كان فيه بعيدًا عن حصانه، كانت قد جرّت شيئًا ثقيلًا قبالة الباب.

«ماري».

«هل أنت ماري؟»

«نعم».

ثمة صمت هبط على المكان، ثم صوت صرير وهي تحرك الصخرة. انفتح الباب صدعًا، ثم اتسع.

أدرك أنها لم تره قط باللحية أو بالزي الفارسي، على الرغم من أن قبعة اليهودي المصنوع من الجلد هي التي تعرفها.

كانت تحمل سيف أبيها في يدها. كان المرض في وجهها الرقيق، مما جعل عينيها وعظام وجنتيها الكبيرتين وأنفها الطويل الرقيق أكثر بروزًا. ثمة بثور على شفتيها، التي تذكّر أنها حدثت لها لمّا تملكها التعب. كان خدّاها أسخمين باستثناء خطين تغسلهما الدموع من دخان النار. لكن طرفت عيناها واستطاع أن يراها شديدة الحساسية كما كان يتذكر.

«رجاءً، هل ستساعده؟» قالت، وقادت روب بسرعة إلى الداخل.

* * *

اعتصر الألم قلبه لمّا رأى جيمس كولين. لم يكن بحاجة لأخذ يدي مربي الأغنام ليعرف أنه كان يحتضر. لا بد أنها عرفت أيضًا، لكنها نظرت إليه كما لو كانت تتوقع منه أن يشفي والدها ويعالجه بلمسة.

ثمة شفّاط فوق المنزل يمتص الرائحة الكريهة التي تنبعث من كولين».

هل كان يعاني من إفرازات؟»

أومأت برأسها بضجر وتلت التفاصيل بصوت خفيض. كانت الحمى قد اجتاحته قبل أسابيع مصحوبة بقيء وألم رهيب في الجانب الأيمن من

بطنه. لقد مَرَّضَته ماري بعناية. وبعد فترة من الوقت انخفضت درجة حرارته وهجعت الحمى لديه وبفضل إغاثتها الشديدة بدأ يتعافى. ولعدة أسابيع كان قد تحققت مكاسب ثابتة وكان على وشك التعافي، ثم تكررت الأعراض مرة أخرى، وهذه المرة أكثر خطورة.

بدا وجه كولين شاحبًا وغائرًا، وبدت عيناه جامدتين. كان نبضه بالكاد محسوسًا. كانت الحمى والقشعريرة تؤلمانه بالتناوب، وكان يعاني من الإسهال والقيء.

«اعتقد الخدم أنه الطاعون. قالت إنهم لاذوا بالفرار.

«لا، ليس الطاعون». لم يكن القيء أسود ولم يكن هناك دبل. تعازينا. تصلّب بطنه في الجانب الأيمن حتى أصبح مثل اللوح. لمّا ضغط روب علي بطنه، صرخ كولين – على الرغم من أنه بدا فاقد الوعي في غيبوبة عميقة.

عرف روب ما كان. في المرة الأخيرة التي شاهدها، كان يتلاعب بالكرات ويصدح بالغناء حتى يموت طفل صغير دون خوف.

«سل الكلاب الفيروسي (ديستمبر) في الأمعاء الغليظة، يسمونه أحيانًا المرض الجانبي، إنه سم بدأ في أمعائه وانتشر في بقية جسده».

«ما سبب ذلك؟»

هزّ رأسه. «ربما تكون الأمعاء ملتوية أو هناك انسداد فيها». كلاهما أدرك اليأس من جهله.

لقد بذل قصارى جهده مع جيمس كولين، جرّب أي شيء قد يساعد. أعطى حقنة شرجية من شاي البابونج الحليبي ولمّا لم تحدث أي تأثير، أعطاه جرعات من الرَّاوَنْد والأملاح. وضع الكمادات الساخنة على البطن، ولكن بحلول ذلك الوقت أدرك أنه لا جدوى منها.

مكث بجانب سرير الاسكتلندي. كان سيرسل ماري إلى الغرفة المجاورة لتأخذ قسطًا من الراحة التي حرمت منها نفسها، لكنه كان يعلم أن النهاية كانت وشيكة وعلّل ذلك أنه سيكون لديها متسع من الوقت للراحة لاحقًا.

وفي منتصف الليل، قفز كولين قفزة صغيرة، بداية متواضعة.

همست ماري: «كل شيء على ما يرام يا أبي»، وفركت يديه، وقد فارق الحياة في هدوء ويسر لدرجة أنه لفترة قصيرة لم تكن هي ولا روب يعلمان أن والدها لم يعد على قيد الحياة.

* * *

كانت قد تخلت عن تهذيب شعره قبل وفاته ببضعة أيام، وكانت هناك لحية شيباء يجب إزالتها من وجهه. مشّط روب شعره وأمسك الجسد بين ذراعيه وهي تغسّله وعيناها جامدتان. «أنا سعيدة لفعل هذا. قالت: «لم يكن مسموحًا لي بمساعدة أمي».

كان لدى كولين ندبة طويلة على الفخذ الأيمن. «لقد حدثت هذه الندبة وهو يطارد الخنزير البري في الأدغال، لمّا كنت في الحادية عشرة من عمري. كان عليه أن يقضي الشتاء في المنزل. لقد احتفلنا بعيد الميلاد ومن ثم تعرفت عليه».

بعد تجهيز جثمان أبيها، حمل روب المزيد من الماء من الجدول وسخّنه على النار. ولمّا كانت تتحمم، حفر روب قبرًا، والذي ثبت أنه صعب للغاية؛ لأن التربة كانت في الغالب حجرية ولم يكن لديه الأدوات المناسبة للحفر. وفي النهاية، استخدم سيف كولين وفرعًا حادًّا قويًّا لفتح القبر، ويداه العاريتان. ولمّا أصبح القبر جاهزًا، صنع صليبًا من زوج من العصي ربطا معًا بحزام الرجل الميت.

كانت متشحة بردائها الأسود الذي رآها فيه لأول مرة. حمل كولين في ملاءة ملفوفة كانت عبارة عن بطانية صوفية أحضرها من منزلهما، كانت جميلة ودافئة لدرجة أنه ندم على وضعها في القبر.

لقد تطلب إقامة قدّاس إلهي من قدّاس الموتى ولم يستطع حتى التحدث بصلاة دفن مناسبة، ولم يثق بنفسه للتفوه بالكلمة اللاتينية الصحيحة. ولكن خطر بباله مزمورًا من المزامير التي تليت في قدّاس أمه.

«الرَّبّ رَاعيَّ فَلاَ يعْوزني شَيْءٌ..

في مَرَاع خضْر يرْبضني.

إلَى مياه الرَّاحَة يوردني.

يَردّ نَفْسي. يَهْديني إلَى سبل الْبرّ منْ أَجْل اسْمه.

أَيْضًا إذَا سرْت في وَادي ظلّ الْمَوْت لاَ أَخَاف شَرًّا، لأَنَّكَ أَنْتَ مَعي. عَصَاكَ وَعكَّازكَ همَا يعَزّيَانني.

ترَتّب قدَّامي مَائدَةً تجَاهَ مضَايقي. مَسَحْتَ بالدّهْن رَأْسي. كَأْسي رَيًّا.

إنَّمَا خَيْرٌ وَرَحْمَةٌ يَتْبَعَانني كلَّ أَيَّام حَيَاتي، وَأَسْكن في بَيْت الرَّبّ إلَى مَدَى الأَيَّام».

أغلق القبر وثبّت الصليب. ولّما ابتعد، ظلت راكعة، وأغلقت عيناها وشفتاها تتحركان بالكلمات التي لا يسمعها سوى عقلها.

منحها الوقت لتخلو بنفسها في المنزل. أخبرته عن إفلات حصانيها بحثًا عن الكلأ ليرعيا على العشب الخفيف في الوادي، وركب حصانه بحثًا عن الحيوانات.

ورأى أنهما بنيا حظيرة بسياج شائك. وجد في الداخل عظام أربعة

أغنام، ربما أماتتها الحيوانات وأكلتها. وبلا شكّ اشترى كولين العديد من الأغنام التي سرقها البشر.

اسكتلندي مجنون! لم يكن بإمكانه أن يعيد قطيعًا من الأغنام طوال الطريق إلى اسكتلندا. والآن لن يعود بنفسه إلى المنزل أيضًا، وتركت ابنته وحيدة في أرض قاحلة.

وفي أحد طرفي الوادي الصغير الحجري اكتشف روب بقايا حصان كولين الأبيض. ربما كسرت ساقه وكان فريسة سهلة؛ كادت الجثة أن تتحلل، لكنه تعرف على ما أحدثه ابن آوى وعاد إلى القبر الجديد ودرّعه بحجارة ثقيلة وثابتة تمنع الوحوش من نهش الجسد.

صادف حصانها الأسود في الطرف الآخر من الوادي، بعيدًا عن وليمة ابن آوى بقدر ما كان قادرًا على الوصول إليه. لم يكن من الصعب وضع خطام على الحصان، الذي بدا حريصًا على سلامة العبودية وأمنها.

ولّما عاد إلى المنزل وجدها هادئة لكنها شاحبة. «ماذا كنت سأفعل لو لم تظهر؟»

ابتّسم لها متذكرًا الباب المحصن والسيف في يدها. «ما هو المطلوب».

كانت تخضع لرقابة مشددة. «أود أن أعود معك إلى أصفهان».

«أريد ذلك». انتفض قلبه، لكنه تأثر بكلماتها التالية.

«هل هناك الكرفان سراي (خان القوافل) هناك؟»

«نعم. تتنقل القوافل بنشاط».

ثم سألتحق بقافلة محمية تسافر غربًا. وأشقّ طريقي إلى ميناء حيث يمكنني حجز رحلة إلى موطني».

ذهب إليها وأخذ يديها، المرة الأولى التي لمسها فيها. كانت أصابعها خشنة جرّاء العمل، على النقيض من كونها امرأة، لكنه لم يرغب في تحرير أصابعها من يده. «ماري، لقد ارتكبت خطأً فادحًا، لا يمكنني السماح لك بالرحيل مرة أخرى».

تأملته بعينيها الثابتتين.

«تعال معي إلى أصفهان، ولكن أقيمي معي هناك».

كان من الأسهل لو لم يشعر بأنه مضطر للتحدث نادمًا عن يسي بن بنيامين والحاجة إلى التظاهر.

بدا الأمر وكأن تيارًا يجري بين أصابعهما، لكنه رأى غضبًا في عينيها، نوعًا من الرعب. قالت بهدوء: «الكثير من الأكاذيب». ابتعدت عنه وسارت بعيدًا.

ذهب إلى الباب وشاهدها وهي تبتعد عن المنزل فوق الأرض المتكسرة في مجرى النهر.

لقد ذهبت بعيدًا لدرجة جعلته يشعر بالقلق، لكنها عادت.

«قولي لي لماذا يستحق الأمر الكذب».

أجبر نفسه على التعبير عن الأمر بالكلمات، وأخذ على عاتقه هذا العار لأنه يريدها معه ويعرف أن الحقيقة كانت حقها.

«وقع الاختيار. كأن الله قال: «في خلق الإنسان أخطأت وأكلفك بالعمل لتصحيح بعض أخطائي». إنه ليس شيئًا أرغب فيه. بل هو شيء بحث عني».

أخافتها كلماته. «بالتأكيد هذا كفر، أن تجعل نفسك من يصحح أخطاء

الله؟»

قال بلطف: «لا، لا». «الطبيب الجيد ما هو إلا أداته».

أومأت برأسها، والآن يعتقد أنه رأى في عينيها بصيص من التفاهم، وربما حتى الحسد.

«كنت دائمًا أشاركك مع عشيقة».

بطريقة أو بأخرى استشعرت وجود ديسبينا، فكّر بحماقة. قال: «أريدك أنت فحسب».

«لا، أنت تريد عملك فحسب وسيأتي أولاً، قبل العائلة، وقبل أي شيء، لكنّي أحببتك جدًّا يا روب، وأريد أن أكون زوجتك».

طوّقها بذراعيه.

قالت وهي تستند على كتفيه: «بنات عائلة كولين يتزوجن في الكنيسة».

«حتى لو تمكنا من العثور على كاهن في بلاد فارس، فلن يزوّج امرأة مسيحية لرجل يهودي. يجب أن نخبر الناس أننا تزوجنا في القسطنطينية. وعندما أنهي تدريبي الطبي سنعود إلى إنجلترا ونتزوج بشكل صحيح».

«وفي هذه الأثناء؟» قالت متجهمة.

«زواج باليد». أخذ كلتا يديها في يده.

كانا ينظران إلى بعضهما بوقار. قالت: «يجب أن تتلى بعض الكلمات، حتى مع الزواج باليد».

قال بغلظة: «ماري كولين، أتخذك زوجة».

«أعدك بالاعتزاز بك وأعدك بالحماية، ولك كل حبي». تمنى لو كانت

الكلمات أفضل لكنه تأثّر بعمق ولم يشعر بالسيطرة على لسانه.

قالت بوضوح: «روبرت جيريمي كول، أنا أتخذك زوجًا». «أعدك أن أذهب حيثما تذهب دائمًا والسعي دائمًا بحثًا عن سعادتك. لقد حظيت بحبي منذ أن رأيتك لأول مرة».

أمسكت يديه بشدة لدرجة أنها آلمته واستطاع أن يشعر بحيويتها، وخفقان قلبه. كان يدرك أن القبر الجديد في الخارج يجعل الفرح غير لائق، ومع ذلك شعر بمزيج من المشاعر الجامحة وأخبر نفسه أن وعودهما كانت أفضل مما سيسمعه في الكنيسة.

حزم أمتعتها على الحصان البني وامتطت صهوة الجواد الأسود. كان يبدّل الرحل بين الحيوانات، وينقله كل صباح. وفي الأوقات النادرة التي كان الطريق فيها سلسًا ومنبسطًا، كان هو وماري يركبان على حصان واحد، ولكن في معظم الأوقات كانت تركب الحصان ويقود هو الطريق سيرًا على الأقدام. لقد بني الطريق من أجل السفر البطيء، لكنه لم يكن في عجلة من أمره.

كانت أكثر صمتًا مما يتذكرها ولم يتحرك ليلمسها، احترامًا لحزنها. وأثناء تخييمهما في أرض مقطوعة مليئة بالشجيرات على جانب الطريق في الليلة الثانية من رحلتهما إلى أصفهان، استلقى مستيقظًا واستمع إليها وهي تنتحب أخيرًا.

«إن كنت من أنصار الله، الذين يصححون الأخطاء، فلماذا عجزت عن إنقاذه؟»

«أنا لا أعرف الكثير».

لقد ظلت تنتحب لوقت طويل ولم تستطع التوقف الآن. أخذها بين

ذراعيه. ولما كانا مستلقيين ورأسها على كتفه، بدأ بتقبيل وجهها النديّ، وأخيرًا لثم فمها الذي كان رقيقًا ومرحبًا وتذوقه كما كان يتذكر. فرك ظهرها ومسّد التجويف الفاتن أسفل عمودها الفقري، وبعد ذلك، لّما بالغ في قبلاته وشعر بلسانها، كان يتلمس ثيابها الداخلية.

كانت تنتحب مرة أخرى لكنها باعدت بين فخذيها لتحتضن أصابعه ومددت ساقيها لتضمه.

ما شعر به أكثر من العاطفة كان احترامًا كبيرًا لها ونوعًا من الشكر. كان التصاقهما نوعًا من التأرجح الرقيق الخفيف ولم يتحركا فيه على الإطلاق. واستمر التصاقهما مرارًا وتكرارًا، استمر دون توقف، حتى انتهى بشكل رائع بالنسبة له؛ سعيًا للشفاء، وسعيًا إلى الراحة، ولكن ليخفف عنها ويواسيها كان عليه أن ينهي اللقاء بيده.

وبعد ذلك أمسكها وتحدث بهدوء وأخبرها عن أصفهان والحي اليهودي والمدرسة والمستشفى وابن سينا، وعن صديقيه المسلم واليهودي، ميردين وكريم.

«هل لديهما زوجات؟»

ميردين لديه زوجة، كريم لديه الكثير من النساء».

لقد ناما ملتفين حول بعضهما.

استيقظ في ضوء الصباح الرمادي الساطع على صرير جلود السرج، القرع البطيء للحوافر في الطريق الترابي، سعال جاف لشخص ما، رجال يتحدثون وهم يجلسون على مطاياهم السائرة.

نظر من فوق كتفها من خلال الشجيرات الشائكة التي فصلت مكان اختبائهما عن الطريق، وشاهد قوة من الجنود الفرسان يمتطون خيولهم

أمامهما. كانوا شرسي المظهر، ويحملون نفس السيوف الشرقية مثل رجال علاء شاه ولكن مع أقواس كانت أقصر من الأقواس الفارسية. كانوا يرتدون عباءات ممزقة وعمائم بيضاء ملطخة بالعرق والأوساخ، وكانوا ينضحون برائحة كريهة تسللت إلى روب حيث كان مستلقيًا في ألم شديد، في انتظار أن يتخلى عنه أحد خيوله أو أن يلقي أحد الفرسان نظرة عبر الأدغال ويراه هو والمرأة النائمة.

ظهر وجه مألوف للعيان وتعرف على حداد خان، سفير السلاجقة حاد الطباع في بلاط علاء شاه.

هؤلاء هم السلاجقة، إذًا. وكان الراكب بجانب حداد خان ذي الشعر الأبيض شخصية أخرى معروفة له، وهو الملا الذي يدعى موسى بن عباس، كبير مساعدي الإمام ميرزا أبو قندراسه، الوزير الفارسي.

رأى روب ما مجموعه ستة ملالي آخرين وأحصى ستة وتسعين جنديًّا يمتطون الخيول، لم يكن لديه علم بعدد الذين مروا أمامه أثناء نومه.

لم يصهل حصانه ولم تصدر ماري أنينًا ولم يصدر أي صوت آخر ليكشف عن وجودهما، وفي النهاية سار آخر رجل من السلاجقة أمامه وتنفس الصعداء، وهو يصغي إلى أصواتهم التي تتضاءل.

وفي الوقت الحالي، قبّل زوجته ليوقظها، ثم لم يضيّع وقتًا في تحطيم خيمتهما البدائية والبدء في طريقهما؛ لأنه وجد سببًا للإسراع.

50

سباق الجري

«هل أنت متزوج؟» قال كريم. نظر إلى روب وابتسم ابتسامة عريضة. «زوجة! لم أكن أتوقع أنك ستصغي إلى نصيحتي».

قال ميردين مبتهجًا. «من رتّب هذا الزواج؟»

«لا أحد». قال روب على عجل: «كان هناك اتفاق على الزواج منذ أكثر من عام، لكن ظل معطلًا حتى الآن».

«ما اسمها؟» سأل كريم.

«ماري كولين. إنها اسكتلندية. التقيت بها ووالدها في قافلة وأنا في رحلتي باتجاه الشرق». أخبرهما شيئًا ما عن جيمس كولين، وعن مرضه ووفاته.

بدا أن ميردين غير آبه لسماع ما يقال. «اسكتلندي، هل هذا أوروبي؟»

«نعم، إنها تنحدر من عائلة من مكان ما شمال موطني».

«هل هي مسيحية؟»

أومأ روب برأسه.

قال كريم: «يجب أن أرى هذه المرأة الأوروبية». «هل هي أنثى جميلة؟»

«إنها جميلة جدًّا!» قال روب مندفعًا، وضحك كريم. «لكني أريدك أن تحكم بنفسك». استدار روب ليشمل ميردين في الدعوة، لكنه رأى أن

صديقه قد ابتعد.

لم يستسغ روب فكرة إبلاغ الشاه بما رآه، لكنه كان يعلم أنه قد التزم بولائه ولم يكن لديه خيار سوى الإبلاغ. ولمّا ظهر في القصر وطلب مقابلة الملك، ابتسم الخووف ابتسامته الفظة.

«ما رسالتك؟»

رمق قائد الحرس روب بنظرة متحجرة لمّا هزّ روب رأسه في صمت.

لكن الخووف أمره بالانتظار وذهب ليخبر علاء شاه أن الأجنبي الذمي يسي بن بنيامين يرغب في رؤيته، وفي الوقت الحالي أدخل الجندي العجوز روب إلى الحضرة الملكية.

اشتمّ علاء شاه رائحة الشراب لكنه أنصت باهتمام كاف لبلاغ روب بأن وزيره أرسل الأتباع الأتقياء للقاء جماعة من أعداء الشاه والتشاور معهم.

قال علاء شاه في تثاقل: «لم ترد أنباء عن وقوع اعتداءات في مدينة همذان». «لم تكن هذه الجماعة من السلاجقة المهاجمين؛ لذلك لا شك أنهم التقوا لمناقشة الخيانة». تفحّص روب بعينين ملثمتين. «لمن تكلمت عن هذا؟»

«لم أفصح بذلك لأحد، جلالتك».

«دع الأمر سرًّا».

بدلًا من مواصلة الحديث، وضع علاء شاه رقعة لعبة الشطرنج بينهما. وكان من الواضح أنه سعيد بمقابلة خصم أكثر صعوبة مما التقى به حتى الآن في روب.

«آه، أيها الذمي، أصبحت ماهرًا وماكرًا مثل الفرس!»

كان روب قادرًا على صد هجومه لبعض الوقت. وفي النهاية، طرحه علاء شاه أرضًا وكانت كالعادة، موت الملك، لكن كل منهما أدرك أن لعبته قد اجتازت منعطفًا خطيرًا. لقد كان الأمر أكثر صعوبة الآن، وربما كان روب قادرًا على الصمود لفترة أطول إذا لم يكن حريصًا جدًّا على العودة إلى عروسه.

كانت أصفهان أجمل مدينة رأتها ماري على الإطلاق، أو ربما لأنها كانت هناك مع روب. كانت تملأها سعادة غامرة بالبيت الصغير في الحي اليهودي، رغم أن الحي اليهودي كان متهالكًا. لم يكن المنزل كبيرًا مثل المنزل الذي كانت تعيش فيه هي ووالدها بالقرب من الوادي في همذان، لكنه كان أكثر متانة.

وبناءً على إصرارها وإلحاحها، ابتاع روب الجص وبعض الأدوات البسيطة وتعهدت بإصلاح المنزل في الوقت الذي يكون فيه خارج المنزل، في أول يوم لها بمفردها. كانت الحرارة الشديدة في موسم الصيف الفارسي تلفحهم، وسرعان ما تبلل فستان الفجيعة الأسود ذو الأكمام الطويلة بالعرق.

وفي منتصف الصباح، طرق الباب، الرجل الأكثر وسامة الذي رأته على الإطلاق. كان يحمل سلة من البرقوق الأسود، وضعها على الأرض حتى يتمكن من مد يده ليلمس شعرها الأحمر، مما أثار خوفها. كان يضحك في خفوت وبدا متهيبًا، أبهرها بأسنانه البيضاء المثالية في وجهه حنطي اللون. تحدّث حديثًا مطولًا. بدا حديثه بليغًا ورشيقًا ومليئًا بالمشاعر، لكنه كان باللغة الفارسية.

قالت: «أنا آسفة».

«آه». لقد فهم على الفور ولمس صدره. «كريم».

هدأ روعها وابتهجت. «إذًا، أنت صديق زوجي، لقد تحدّث عنك».

ابتسم وتقدّمها، محتجًّا بكلمات لا يفهمها، إلى كرسي حيث جلست وأكلت حبة برقوق حلوة في حين أنه كان يخلط الجص حتى يصير إلى القوام المطلوب تمامًا وينثره على ثلاثة شقوق في الجدران الداخلية، ثم استبدل النافذة. وبلا خجل، سمحت له أيضًا بمساعدتها في قطع الشجيرات الشائكة الكبيرة في الحديقة.

كان كريم لا يزال هناك لمّا عاد روب إلى المنزل وأصرت على أن يتقاسم كريم وجبتهما، ثم اضطروا إلى التأخر حتى تغشّى الظلام الحي اليهودي، فقد كان شهر رمضان، الشهر التاسع، شهر الصيام.

قالت لروب لمّا رحل كريم: «استلطف كريم». «متى سألتقي الآخر - ميردين؟»

قبّلها وهزّ رأسه. قال: «لا أعرف».

بدا شهر رمضان أكثر أيام الإجازة غرابة بالنسبة لماري. كان هذا ثاني رمضان لروب في أصفهان، وأخبرها أنه كان شهرًا كئيبًا، ومن المفترض أن يخصص للصلاة والتطهر من الخطايا والذنوب، لكن الطعام بدا في أذهان الجميع هو الشغل الشاغل؛ لأن المسلمين مُنعوا من تناول الطعام أو شرب السوائل من الفجر حتى غروب الشمس. تغيّب باعة الطعام عن الأسواق والشوارع، والنساء يلتزمن بالحجاب والصمت طوال الشهر، على الرغم من تجمع الأصدقاء والعائلات ليلًا لتناول الطعام وتقوية أنفسهم لصيام اليوم التالي.

قالت ماري بحزن: «كنا في الأناضول العام الماضي خلال شهر

رمضان». «ابتاع أبي الحملان من أحد الرعاة وأقام وليمة للخدم خاصتنا من المسلمين».

«يمكن أن نقيم إفطارًا في رمضان».

ذكّرته قائلة: «سيكون ذلك ممتعًا، لكنني في فترة حداد».

وفي الواقع، كانت ممزقة بسبب المشاعر المتضاربة، وفي بعض الأحيان كانت تعاني من حزن شديد لدرجة أنها شعرت بالشلل بسبب آلام الفقد، وفي أوقات أخرى كانت تدرك أنها كانت أكثر النساء حظًّا في زواجها.

وفي المرات القلائل التي غادرت فيها المنزل، بدا لها أن الناس يحدجونها بنظرات عدائية. لم يكن رداء الحداد الأسود الذي ارتدته مختلفًا عن أزياء النساء الأخريات في الحي اليهودي، لكن بلا شكّ شعرها الأحمر المكشوف ميّزها بوصفها أوروبية. حاولت ارتداء قبعة السفر ذات الحواف العريضة، لكنها رأت النسوة يشرن إليها في الشارع بنفس الطريقة، وكان جفاؤهن تجاهها بلا هوادة.

وفي ظل ظروف أخرى، ربما شعرت بالوحدة والعزلة؛ لأنها في وسط مدينة مزدحمة كانت قادرة على التواصل مع شخص واحد فقط، لكن بدلًا من العزلة شعرت بخصوصية كاملة، وكأنها وزوجها الجديد هما الوحيدان في العالم.

وفي ذلك الربع الأخير من رمضان، زارهما كريم هارون فقط، ورأت عدة مرات الطبيب الفارسي الشاب وهو يركض في الشوارع، وهو مشهد جعلها تلتقط أنفاسها، فقد كان الأمر أشبه بمشاهدة غزال اليحمور. أخبرها روب عن سباق الجري، «الشاطر»، الذي سوف يقام في اليوم الأول من عطلة الأيام الثلاثة المسماة بعيد الفِطر، الذي يعد احتفالًا بنهاية الصوم الطويل.

«لقد وعدت كريم بالحضور أثناء سباق الجري».

«هل ستكون الحاضر الوحيد؟»

«ميردين سوف يحضر أيضًا، لكنني أعتقد أنه سيحتاج إلى كلينا». ثمة سؤال في نبرة صوته وكانت تعلم أنه منزعج من أنها قد تعتبره عدم احترام تجاه أبيها.

قالت بحزم: «إذًا يجب عليك».

«السباق بحد ذاته ليس احتفالًا، لا يمكن اعتبار أنه من الخطأ أن ينظر المرء إلى الحداد فقط ولا يشارك فيه».

فكّرت في الأمر لأن عيد الفطر قد اقترب وفي النهاية قررت أن زوجها كان على حق، وأنها سوف تحضر السباق.

وفي وقت مبكر من صباح اليوم الأول من شهر شوال، كان هناك ضباب كثيف أعطى كريم الأمل في أن يكون يومًا جيدًا، يوم عدّاء. وكان قد نام بشكل متقطع لكنه قال لنفسه إن العدّائين الآخرين أمضوا الليلة بنفس الطريقة بلا شكّ، محاولين عدم التفكير في السباق والانشغال به.

نهض وطهى لنفسه قدرًا كبيرًا من البازلاء والأرز، ونثر بذور الكرفس على أرز البيلاه التي اكتالها بعناية فائقة. أكل من الطعام ما يفوق رغبته، وأفعم نفسه بالحماس والحيوية، ثم عاد إلى فراشه ونال قسطًا من الراحة في حين أن بذور الكرفس أدت وظيفتها، وأبقى ذهنه صافيًا وهادئًا مع الصلاة:

اللهم اجعلني رشيقًا مغوارًا واثقًا من ساقي هذا اليوم.
واجعل صدري مثل وسادة هوائية لا ينضب هواؤها
وساقاي قويتان ومرنتان كالشجر الصغير.

وحافظ على صفاء ذهني وحدة حواسي
وعيناي ثابتتان على الهدف.

لم يصلّ من أجل النصر. ولمّا كان صبيًّا، قال له زكي عمر كثيرًا: «كل عدّاء خسيس يصلي من أجل النصر، وما أعجز الله ذلك! ومن الأفضل أن ترجو من الله أن يمنحك السرعة والتحمل وأن تستغل ساقيك لتحمل مسؤولية النصر أو الهزيمة على النفس».

ولمّا شعر بالرغبة في ذلك، نهض وذهب إلى الدلو، وجلس القرفصاء وقتًا طويلًا مرضيًا لإفراغ أمعائه. كانت بذور الكرفس سليمة كما هي؛ ولمّا كان يفرغ أمعاءه، كان جائعًا لكنه لم يكن هزيلًا، ولم يردعه في ذلك اليوم إلا تشنج في منتصف الفخذ.

كان يسخّن الماء ويتحمم من وعاء على ضوء الشموع، ويمسح نفسه حتى يجف بسرعة لأن الظلام المتقشع امتلأ بالبرودة. ثم دهن جسمه بزيت الزيتون ضد الشمس، ومرتين كلما تسبب الاحتكاك بألم في الحلمات، والإبطين، والحقوة، والقضيب، وثنيتي الأرداف، وأخيرًا قدميه، مع الحرص على دهن أعلى أصابع قدميه.

كان يرتدي معطفًا من الكتان وقميصًا من الكتان أيضًا، وحذاء قدم من الجلد الخفيف، وقبعة مزينة بالريش. وحول عنقه علّق جعبة قاذف السهام وتميمة في حقيبة صغيرة من قماش، وألقى عباءة على كتفيه ليحتمي من البرد. ثم خرج من المنزل.

مشى ببطء وتثاقل في البداية ثم بسرعة أكبر، ومع بدء الشعور بالدفء فتح عضلاته ومفاصله. ثمة عدد قليل من المارة في الشوارع. لم يلاحظه أحد لمّا دخل في أحد الأجمة ليتبول مرة أخيرة وهو عصبي المزاج. ولكن بحلول الوقت الذي بلغ فيه نقطة البداية عند الجسر المتحرك لدار

الفردوس، تجمّع حشد من الناس هناك مئات الرجال. لقد شقّ طريقه بعناية حتى وصل إلى ميردين في المؤخرة عن طريق الترتيب المسبق، وقد وجدهما يسي بن بنيامين هنا بعد وقت قصير.

تبادل صديقاه التحية بتصنع. لاحظ كريم بعض المشكلات بينهما. أخرجها من عقله في الحال. كان هذا وقت التفكير في السباق فحسب.

ابتّسم له يسي ولمس الحقيبة الصغيرة المعلقة في رقبته.

قال كريم: «حظي». «من سيدتي». لكن يجب ألا يتحدّث قبل السباق، لم يستطع. انفرجت أسارير وجهه بابتسامة سريعة لميردين ويسي ليظهر أنه لا يقصد الإساءة وأغمض عينيه وأصبح متبلد الحس، وأنهى الحديث الصاخب والضحك الصاخب من حوله. كان من الصعب التخلص من روائح الزيوت والشحوم الحيوانية ورائحة الجسم والملابس التي تفوح منها رائحة العرق.

أدّى صلاته.

ولّما فتح عينيه، تحول الضباب إلى اللون الأبيض المطفي. ومن خلال النظر إليه، كان قادرًا على رؤية قرص أحمر دائري تمامًا، قرص الشمس. لقد تغيّر الهواء وأصبح ثقيلًا بالفعل، أدرك بألم أنه سيكون يومًا حارًّا قائظًا.

والأمر خارج عن إرادته، إن شاء الله.

خلع العباءة وأعطاها ليسي.

كان ميردين شاحب الوجه. «الله معك».

قال له يسي: «اركض، الله معك، يا كريم».

لم يرد. الآن حلّ صمت ثقيل. كان العدّاؤون والمتفرجون يحدّقون في أقرب مئذنة، مئذنة مسجد الجمعة، حيث رأى كريم شخصًا صغيرًا يرتدي عباءة داكنة يدخل البرج.

وفي لحظة، طاف الأذان المؤرق للصلاة الأولى (صلاة الصبح) على آذانهم وسجد كريم اتجاه القبلة جنوب غرب باتجاه مكة.

ولّما انتهت الصلاة كان الجميع يصرخون بأعلى أصواتهم، العداؤون والمتفرجون على حدّ سواء. كان الأمر مخيفًا وأخذته رجفة. هتف بعضهم بالتشجيع، والبعض الآخر تضرّع إلى الله بالدعاء؛ ارتفع عواء الناس بإيجاز، الصوت الذي تقشعر منه الأبدان الذي قد يصدره الرجال عند مهاجمة جدار العدو.

وبالعودة إلى المكان الذي كان يقف فيه، بالكاد شعر وأحسّ بحركة العدّائين لكنه كان يعلم من التجربة كيف كان البعض يتقدّم إلى الأمام ليكون في المركز الأول، يقاتل ويدافع، غير مكترث بمن تعرض للدهس وما هي الإصابات التي لحقت به. حتى أولئك الذين لم يتباطؤوا في القيام من الصلاة كانوا في خطر؛ لأنه في دوامة الأجساد المضطربة، ستضرب الأذرع المرفرفة الوجوه، وتركل السيقان الأرجل القريبة، وستلتوي الأكحال وتدور.

وهذا هو السبب في أنه انتظر في المؤخرة بصبر وازدراء في حين ابتعدت موجة تلو موجة من العدّائين أمامه، وانقضّوا عليه بضجيجهم.

ولكن في النهاية كان يركض. بدأ السباق وكان في ذيل صف من الرجال أشبه بثعبان طويل.

كان يجري في تثاقل. سيستغرق الأمر وقتًا طويلًا ليقطع أول خمسة أميال وربع ميل، لكن هذا كان جزءًا من خطته. كان البديل هو التمركز

أمام الحشود، بعد ذلك، بافتراض أنه لم يكن مصابًا في الاشتباك، يتقدم للأمام بوتيرة مضمونة ليتحرك بأمان أمام الفريق. ولكن هذا كان سيستهلك الكثير من الطاقة في البداية، لقد اختار الطريق الآمن.

ركضوا عبر بوابات الفردوس العريضة واستداروا يسارًا للبقاء لأكثر من ميل واحد في شارع الألف حديقة، الذي انخفض ثم ارتفع، مما صنع تلة طويلة في النصف الأول من الجولة وتلة قصيرة ولكن أكثر انحدارًا في العودة. انعطف المسار يمينًا إلى شارع الرسل، الذي كان يبلغ طوله ربع ميل فقط، لكن الشارع القصير انخفض في طريق الخروج وكان الجري فيه شاقًّا في العودة. حُشروا في جهة اليسار مرة أخرى في شارع عليّ وفاطمة، وتبعوه طوال الطريق إلى المدرسة.

ضم الحشد كل ناعر وناعق. كان من المألوف والشائع للنبلاء الشباب أن يركضوا لمدة نصف جولة، والرجال الذين يرتدون ثياب صيفية حريرية يركضون جنبًا إلى جنب مع العدّائين الذين يرتدون الأسمال البالية. عاد كريم إلى الوراء؛ لأنه في هذه المرحلة لم يكن عدّاءً بقدر ما كان أحد الدهماء الذين يركضون، ممتلئًا بالروح المعنوية العالية في نهاية شهر رمضان. لم تكن طريقة سيئة بالنسبة له للبدء؛ لأن الوتيرة البطيئة سمحت لسوائله بالتدفق شيئًا فشيئًا.

كان هناك متفرجون ولكن كان من السابق لأوانه أن يصطف حشد كثيف في الشوارع؛ لقد كان سباقًا طويلًا، وكان معظم الناس يفدون لمشاهدته لاحقًا. وفي المدرسة نظر مرة واحدة نحو السقف الطويل للبيمارستان المكون من طابق واحد، حيث قالت المرأة التي أعطته التميمة - كانت خصلة من شعرها في الحقيبة الصغيرة - إن زوجها رتّب لها أن تشاهد السباق. لم تكن هناك بعد، لكن ممرضتين وقفتا في الشارع أمام المستشفى وصاحتا «حكيم! حكيم!» لوّح كريم وهو يركض وهو يعلم

أنهما سيصابان بخيبة أمل لرؤيته في نهاية الفريق.

مضوا من أرض المدرسة وإلى الميدان المركزي، حيث نُصبت خيمتان كبيرتان مفتوحتان. واحدة لرجال البلاط الملكي، مفروشة بالبساط ومحاطة بالزخارف، تحتوي على طاولات تحمل جميع أنواع الأطعمة الدسمة وشتى أنواع الخمور. أما الخيمة الأخرى، المخصصة للعدّائين المتقاربين في السن، فقد احتوت على الخبز والبيلاه والشربات مجانًا ولم تكن أقل ترحيبًا، بحيث فقد السباق هنا ما يقرب من نصف المتنافسين، الذين حظوا بالمرطبات مع الهتافات الحارة.

وكان كريم من بين الذين تجاوزوا الخيام. تحلّقوا حول أهداف الكرة والعصا الحجرية ثم بدأوا في إعادة المسار إلى الفردوس.

الآن أصبحوا أقل عددًا وباقين على مسافة بعيدة، وكان لدى كريم متّسع لضبط خطوته.

كانت هناك خيارات. وافق البعض على الانتهاء من الجولات القلائل الأولى بذكاء للاستفادة من برودة الصباح، لكنه تعلّم على أيدي زكي عمر أن السر وراء إكمال المسافات الطويلة يكمن في اختيار وتيرة من شأنها أن تستنزف آخر جزء من طاقته عند الانتهاء، والبقاء بهذه السرعة دون تغيير. لقد كان قادرًا على التحرك بإيقاع وانتظام مثاليين لحصان يهرول. كان الميل الروماني يساوي ألف وخمسة قدم، لكن كريم ركض حوالي ألف ومئتي خطوة في الميل، كل منها يغطي أكثر من أربعة أقدام بقليل. كان عموده الفقري مستقيمًا تمامًا، ورأسه مرفوعًا. كانت ضربات قدميه على الأرض بالسرعة التي اختارها مثل صوت صديق قديم.

بدأ الآن بالمرور على بعض العدّائين، رغم أنه كان يعلم أن معظمهم ليسوا رجالًا في منافسة جادة، وكان يركض بسهولة لمّا عاد إلى بوابات

القصر وجمع أول سهم ليضعه في جعبته.

قدّم ميردين البلسم لفرك بشرته ضد الشمس الذي رفضه والماء، الذي تناوله بامتنان ولكن باعتدال.

قال يسي: «أنت في الثانية والأربعين»، وأومأ برأسه وانطلق بعيدًا.

الآن ركض في ضوء النهار الكامل وكانت الشمس على علو منخفض لكنها قوية بالفعل، مما يشير بوضوح إلى الحرارة القادمة. لم يكن الأمر غير متوقّع. وفي بعض الأحيان كان الله رؤوفًا رحيمًا بالعدّائين ولكن معظم السباقات كانت محنة في ظل الحرارة اللافحة لبلاد فارس. كانت النقاط البارزة في مسيرة زكي عمر الرياضية هي فوزه بالمركز الثاني في سباقين، مرة لمّا كان كريم في الثانية عشرة من عمره ومرة أخرى في العام الذي بلغ فيه الرابعة عشرة من عمره. يتذكّر رعبه من رؤية علامات الإنهاك والتعب في وجه زكي وجحوظ عينيه. ركض زكي لأطول فترة ممكنة وبقدر ما استطاع، لكن في كلا السباقين كان هناك عدّاء واحد يمكنه الجري لمسافات أطول وأبعد.

أمحى كريم الفكرة عن ذهنه في تجهم.

لم تبدُ التلال أسوأ مما كانت عليه في الجولة الأولى وصعدها تقريبًا دون تفكير. بدأت الحشود تتكاثف في كل مكان؛ لأنه كان صباحًا مشمسًا لطيفًا وكانت أصفهان تستمتع بعطلة. أغلقت معظم المتاجر واقتعد الناس الأرض أو وقفوا على طول الطريق في جماعات الأرمن معًا، والهنود معًا، واليهود معًا، والمجتمعات العلمية والمنظمات الدينية معًا في حشود غفيرة.

ولمّا جاء كريم إلى المستشفى مرة أخرى ولا يزال غير قادر على رؤية المرأة التي وعدت بالوجود هناك، شعر بحزن شديد. ربما، بعد كل شيء،

منعها زوجها من القدوم.

كان هناك عدد كبير من المتفرجين أمام المدرسة وهتفوا باسمه ولوّحوا له بأياديهم.

ولّما اقترب من الميدان رأى أنها كانت بالفعل في حالة هياج شديد كما لو كانت مساء الخميس. عزف الموسيقيون، وتلاعب المهرجون بالكرات، ولعب المبارزون بالسيوف، وتشقلب البهلوانيون، ورقص الراقصون، واستعرض السحرة الألعاب والخدع السحرية على الجماهير العريضة والحشود الغفيرة، بينما شقّ العدّاؤون طريقهم حول الساحة الخارجية دون أن يلاحظهم أحد تقريبًا.

بدأ كريم يمرّ على المتنافسين المنهكين الراقدين أو الجالسين على جانب الطريق.

ولّما جمع سهمه الثاني، حاول ميردين مرة أخرى أن يعطيه مرهمًا لحماية بشرته من الشمس لكنه رفض ذلك، رغم أنه كان يشعر بخزي خاصّ أن السبب هو أن المرهم كان قبيحًا وكان يريدها أن تراه بدونه. سيكون متاحًا إذا لزم الأمر؛ لأنه من خلال الترتيب المسبق، في هذه الجولة، سيبدأ يسي في متابعته على الحصان البني. عرف كريم نفسه؛ كان الاختبار الأول لروحه قادمًا؛ لأنه شعر دائمًا بالضيق بعد قطع مسافة 25 ميلًا رومانيًّا.

جاءت المشاكل في الموعد المحدد تقريبًا. وفي منتصف الطريق أعلى التل في شارع الألف حديقة، شعر بسجحات على عقب قدمه اليمنى. كان من المستحيل الركض في مثل هذا السباق الطويل دون الإضرار بقدميه وكان يعلم أنه يجب أن يتجاهل الانزعاج، ولكن سرعان ما داهمه ألم شديد في جانبه الأيمن الذي ازدادت وتيرته حتى كان يلهث كلما اصطكت قدمه

اليمنى بالطريق.

أشار إلى يسي، الذي كان يحمل قربة من جلد الماعز مملوءة بالماء خلف سرجه، لكن تذوق المشروب الدافئ من قربة من جلد الماعز لم يخفف من انزعاجه.

ولكن لمّا اقترب من المدرسة، رأى على الفور على سطح المستشفى المرأة التي كان يبحث عنها، وكان الأمر كما لو أن كل ما كان يكدره قد تلاشى.

رأى روب، الذي كان يمتطي صهوة جواده خلف كريم مثل مرافق يتعقّب فارسه، ماري وهما يقتربان من البيمارستان وتبادلا الابتسامات. كانت ماري ترتدي زي حدادها الأسود، ولو لم يكن وجهها طافحًا بمستحضرات التجميل، لكانت غير ملحوظة، لكن كل امرأة أخرى على مرمى البصر كانت ترتدي حجاب الشارع الأسود الثقيل. وقفت الأخريات على السطح بعيدين قليلًا عن زوجته، كما لو كن خائفات من أن يفسدهن عاداتها الأوروبية.

كان هناك عبيد لمرافقة النساء وقد تعرّف على العبد المجبوب الذي يدعى واصف وهو يقف خلف امرأة صغيرة متنكرة في ثوب أسود قبيح. كان وجهها مختبئًا خلف وشاح شعر الحصان لكنه استطاع أن يلاحظ عيني ديسبينا، وإلى أين تتجهان.

وبعد تحديقها في كريم، رأى روب شيئًا جعله يشعر بصعوبة في التنفس. وجد كريم ديسبينا أيضًا ورمقها بنظرة. وفي حين كان يركض أمامها، رفع يده ولمس الحقيبة الصغيرة المعلقة حول عنقه.

بدا الأمر لروب وكأنه إعلان واضح للجميع، لكن صوت الهتاف لم يتغير. وعلى الرغم من أن روب حاول تفحص الحشود ليرى ابن سينا، لكنه لم يره بين المتفرجين أثناء مرورهم أمام المدرسة.

تخلّص كريم من الألم في جانبه حتى تضاءل، وتجاهل الانزعاج في قدميه. الآن بدأ وقت الاستنزاف وكان الرجال في عربات تجرها الحمير مشغولين في تحديد العدّائين الذين لا يستطيعون الاستمرار.

ولمّا حصد سهمه الثالث، سمح لميردين أن يدلكه بالمرهم المصنوع من زيت الورد وزيت جوزة الطيب والقرفة. حول بشرته ذات اللون البني الفاتح إلى اللون الأصفر لكنه كان جيدًا ضد الشمس. دلّك يسي ساقيه في حين أن ميردين كان يضع المرهم، ثم وضع كوبًا على شفتيه المتشققة، مما أعطاه كمية من الماء أكثر مما يريد.

حاول كريم الاحتجاج. «لا أريد أن أضطر إلى التبول!» «جسمك يفرز العرق بشدة لدرجة أنك لن تكون في حاجة إلى التبول».

كان يعلم أن ذلك صحيح وشرب، وفي لحظة كان بعيدًا مرة أخرى وظل يركض ويركض.

وهذه المرة لمّا اجتاز المدرسة، كان يعلم أنها رأت شبحًا، انصهر المرهم الأصفر في شكل خطوط تتخللها جداول صغيرة من العرق والغبار الموحل.

كانت الشمس الآن ساطعة وساخنة، تحرق الأرض؛ لذا اخترقت حرارة الطريق جلد حذائه وأحرقت نعله. وعلى طول الطريق وقف الرجال وكانوا يحملون أوعية من الماء، وفي بعض الأحيان كان يتوقف ليغمر رأسه قبل أن يمرق مروق السهم دون أن يتوجه بعبارات الشكر أو الدعاء لهم.

بعد أن جمع السهم الرابع، تركه يسي؛ ليعود للظهور مرة أخرى في وقت قصير على المطية السوداء لزوجته، تاركًا الحصان البني بلا شكّ ليشرب الماء وينعم بالراحة تحت الظلال الباردة. انتظر ميردين العمود الذي يحتوي على الأسهم، وهو يتفحص العدّائين الآخرين حسب خطتهم.

ظل كريم يركض أمام الرجال الذين خرّوا ساقطين. وقف شخص ما منحنيًا عند الخصر في منتصف الطريق، وهو يتقيأ لا شيء بضعف. توقّف رجل هندي يتمتم وهو يعرج وركل حذاءه. ركض نصف دزينة من الخطوات، تاركًا الآثار الحمراء لأقدامه الدامية الملطخة بالدماء، ثم وقف بهدوء وانتظر عربة.

ولّما مر كريم على البيمارستان في الجولة الخامسة لم تعد ديسبينا واقفة على السطح. ربما كانت خائفة من ظهوره. لم يكن الأمر مهمًّا؛ لأنه رآها وفي بعض الأحيان كان يمد يده ويمسك الحقيبة الصغيرة التي تحتوي على خصلات الشعر الأسود الكثيفة التي كان قد قصّها من رأسها بيديه.

في الأماكن، أثارت العربات وأقدام العدّائين وحوافر حيوانات الحاضرين غبارًا مخيفًا غطّى أنفه وحلقه وجعله يسعل. بدأ في إيقاف وعيه حتى أصبح صغيرًا وبعيدًا في مكان ما في أعماق نفسه، ولم يقبع في أي شيء، مما سمح لجسده بالاستمرار في فعل ما فعله مرات عديدة.

كان الأذان إلى الصلاة الثانية (صلاة الظهر) صدمة.

وعلى طول الطريق، سجد العدّاؤون والمتفرجون على حدّ سواء باتجاه مكة. رقد وأخذته رجفة، ولم يتمكن جسده من تصديق أن الطلبات عليه قد توقفت، ولكن لفترة وجيزة. أراد أن يخلع حذاءه لكنه علم أنه لن يكون بمقدوره ارتداءه مرة ثانية في قدميه المتورمتين، لّما انتهت الصلاة، لم يتحرك قيد أنملة.

«كم العدد؟»

«ثمانية عشر، السباق الآن، قال له يسي.

بدأ كريم نشاطه مرة أخرى، وأجبر نفسه على الركض في وهج الحرارة،

لكنه كان يعلم أنه لم يكن السباق بعد.

كان تسلق التلال أصعب مما كان عليه طوال الصباح، لكنه حافظ على الإيقاع الثابت لركضه. كان هذا هو الأسوأ، مع الشمس التي تتوسط كبد السماء والاختبار الحقيقي أمامه. فكّر في زكي وعرف أنه ما لم يمت فإنه سيستمر في الركض حتى يفوز على الأقل بالمركز الثاني.

حتى الآن لم تكن لديه الخبرة، وفي عام آخر ربما يكون جسده قد تقدّم في السن لمثل هذه العقوبة، يجب أن يكون اليوم.

سمحت له الفكرة بالوصول إلى داخل نفسه واستجماع قواه لّما كان البعض الآخر يبحث ولا يجد شيئًا، ولّما أدخل السهم السادس في جعبته، استدار على الفور إلى ميردين. «كم العدد؟»

«بقي ستة عدّائين»، قال ميردين متعجبًا، وأومأ كريم برأسه وبدأ يركض مرة أخرى.

الآن كان السباق.

رأى ثلاثة عدّائين أمامه وعرف اثنين منهم. كان يتجاوز على عدّاء هنديّ قصير حسن الهندام. ربما كان أمام الشاب الهندي الذي لم يكن كريم يعرف اسمه ثمانون خطوة لكن كريم تعرف عليه بصفته جنديًّا ضمن حرّاس القصر. وكان متقدمًا جدًّا ولكن قريبًا بما يكفي ليتعرف على هويته، كان هناك عداءً ملحوظًا، رجل من همذان يدعى الحارات.

تباطأ الهندي لكنه ارتقى بخطوة لّما تعادل كريم، واستمرّا في الركض معًا، متطابقين في الخطوات. كانت بشرته داكنة جدًّا، تكاد تكون من خشب الأبنوس، تتألق تحتها عضلات طويلة وثابتة تحت وهج الشمس كما تحرّك.

كانت بشرة زكي داكنة، وهذه ميزة تحت أشعة الشمس الحارقة. احتاج جلد كريم إلى المرهم الأصفر؛ كان لون الجلد الفاتح، والنتيجة، كما قال زكي دائمًا، أن أنثى من أجداده ضاجعت إغريقيًا أشقر البشرة من رجال الإسكندر. اعتقد كريم أن شيئًا كهذا ربما كان صحيحًا. كان هناك عدد من الغزوات اليونانية وكان يعرف الرجال الفرس ذوي البشرة الفاتحة والنساء ذوات الصدور شديدة البياض.

جاء كلب صغير مرقط من مكان مجهول وكان يسير وراءهم وهو ينبح.

ولمّا مروا على الضياع في شارع الألف حديقة، حمل الناس شرائح البطيخ وأكواب الشربات، لكن كريم لم يأخذ أيًّا منها، خشية التقلصات. أخذ الماء، الذي وضعه في قبعته قبل أن يعيده إلى رأسه وينعم براحة مؤقتة حتى جفت القبعة في الشمس بسرعة ملحوظة.

أمسك الهندي بقطعة من بطيخ أخضر والتهمها وهو يركض، وطرح القشرة من على كتفه.

مرّا معًا على الجندي الشاب. لقد كان بالفعل خارج المنافسة، متأخرًا جولة بالكامل؛ لأنه لم يكن هناك سوى خمسة سهام في جعبته. كان هناك خطان أحمران داكنان يمتدان على مقدمة قميصه بسبب فرك الحلمات الدامية. وفي كل مرة يخطو خطوة، تنقبض ساقاه قليلًا عند الركبتين وكان من الواضح أنه لن يركض لفترة أطول.

رمق الهندي كريم بنظرة وابتسم مع افترار أسنانه البيضاء لشفتيه.

ارتاع كريم لرؤية الهندي الذي كان يركض بسهولة ووجهه كان يقظًا لكنه غير منهك نسبيًّا. حدس عدّاء كان يقول إن الرجل أقوى من كريم وأقل تعبًا. ربما يكون أسرع أيضًا، إذا كان يتعلق الأمر بذلك.

حاد الكلب المرقط الذي ركض معهم لأميال فجأة عن المسار وقطع طريقهم. قفز كريم لتجنبه وشعر بريش الفراء الدافئ، لكن الكلب اصطدم بقوة بساقي العدّاء الآخر وسقط الهندي على الأرض.

بدأ يتحرك لمّا التفت إليه كريم، ثم جلس في الطريق. كانت قدمه اليمنى ملتوية بجنون وأخذ يحدّق في كاحله غير مصدق، غير قادر على إدراك أن سباقه قد انتهى.

«اذهب!» صاح يسي على كريم. «سأعتني به. اذهب أنت!» واستدار كريم وركض كما لو أن قوة الهندي انتقلت إلى أطرافه، كما لو أن الله تكلم بصوت الذميّ؛ لأنه بدأ حقًّا في الاعتقاد بأن الوقت قد يكون الآن.

كان يتأخر عن العدّاء الذي يسمى الحارات معظم الجولة. وذات مرة، في شارع الرسل، اقترب من الخلف من عدّاء ورمقه العدّاء الآخر مجددًا. تعرّفا بعضهما على بعض في همذان ورأى في عيني العدّاء الذي يسمى الحارات ازدراءً قديمًا مألوفًا: آه، إنه صبيّ زكي عمر.

زاد الحارات من وتيرة خطواته وسرعان ما تقدّم عيه مرة أخرى بمقدار 200 خطوة.

أخذ كريم السهم السابع وأخبره ميردين عن العدّائين الآخرين وهو يعطيه الماء ويدهن المرهم الأصفر.

«أنت الرابع، في المركز الأول أفغاني لا أعرف اسمه، رجل من مدينة الراي في المركز الثاني اسمه مهدوي، ثم الحارات وأنت.

ولجولة ونصف الجولة، كان يتأخر عن الحارات وكأنه يعرف مكانه، ويتساءل أحيانًا عن الشخصين اللذين كانا متقدمين بفارق كبير ولم يكونا على مرمى بصره. وفي غزنة، وهي منطقة جبلية شاهقة، ركض

الرجال الأفغان في مسارات عالية لدرجة أن الهواء كان رقيقًا، وقيل إنهم لمّا ركضوا على ارتفاعات منخفضة لم يتعبوا. وقد تناهى إلى سمعه أيضًا أن مهدوي من مدينة الراي كان عداءً جيدًا.

ولكن أثناء نزوله إلى التل الصغير والمنحدر في شارع الألف حديقة، رأى عداءً مذهولًا على حافة الطريق، ممسكًا بجانبه الأيمن وهو ينتحب بشدة، لقد مرّوا به، ولكن سرعان ما نقل يسي الأخبار أنه كان مهدوي.

بدأ الألم يداهم كريم في جانبه مرة أخرى وألمته قدماه. رفع الأذان إلى الصلاة الثالثة (صلاة العصر) وهو في بداية الجولة التاسعة. كان توقيت الصلاة الثالثة يثير قلقه، لأن الشمس لم تعد في كبد السماء ويخشى أن تتصلب عضلاته. لكن الحرارة كانت لافحة وثقيلة مثل بطانية ثقيلة في حين أنه استلقى وصلّى، وكان لا يزال يتصبب عرقا لمّا نهض وبدأ يركض مرة أخرى.

وهذه المرة، على الرغم من أنه حافظ على وتيرة خطواته، بدا وكأنه تجاوز الحارات كما لو كان رجل من همذان يسير. ولمّا كان يقترب، حاول الحارات أن يسابق بسرعة، لكن سرعان ما ارتفعت أنفاسه اللاهثة وكان يترنح. أنهكته الحرارة، وقد عرف كريم، بصفته طبيبًا، أن الرجل يمكن أن يموت إذا كانت الحرارة من النوع الذي يسبب احمرار الوجه وجفاف الجلد، لكن وجه الحارات كان شاحبًا ومبللًا.

ومع ذلك توقف لمّا اندهش الآخر وتوقف.

كان الحارات لا يزال ينتابه شعور بالمهانة بما فيه الكفاية ليتألق، لكنه أراد أن يفوز الفارسي. «اركض، أيها الوغد».

تركه كريم بفرح.

ومن المنحدر العالي للنزول الأول، وهو يحدّق في الامتداد المستقيم للطريق الأبيض، رأى شخصًا صغير البنية يتحرك إلى أعلى التل الطويل البعيد.

في حين كان يراقب، سقط الأفغاني ثم وقف على قدميه وبدأ يركض مرة أخرى، وأخيرًا ابتعد عن الأنظار إلى شارع الرسل. وكان من الصعب على كريم أن يمسك بزمام الأمور لكنه حافظ على وتيرة خطواته ولم ير العدّاء الآخر مرة أخرى حتى وصل إلى شارع عليّ وفاطمة.

كانا متقاربين جدًّا. سقط الأفغاني مرة أخرى ونهض ليركض بثبات، ربما كان معتادًا على الهواء الخفيف لكن جبال غزنة كانت باردة وحرارة أصفهان خدمت كريم، الذي ظل يقطع المسافة.

لمّا مرّا أمام البيمارستان لم ير أو يسمع الأشخاص الذين يعرفهم؛ لأنه كان يصب تركيزه على العدّاء الآخر.

وصل كريم إليه بعد سقوطه الرابع والأخير. لقد أحضروا المياه للعدّاء الأفغاني وكانوا يضعون ثياب مبتلة وهو يرقد وهو يلهث مثل سمكة نافقة، ورجل يجلس القرفصاء عريض المنكبين وله بشرة داكنة. كانت عيناه بنيتين مائلتين قليلًا وكانتا هادئتين وهما يشاهدان كريم يمر عليه.

لقد جلب النصر معاناة أكثر من الانتصار؛ إذ لا بد من اتخاذ قرار الآن، لقد ربح اليوم؛ وهل حقّق ذلك في محاولة لفوز بخلعة الشاه؟ «الثوب الملكي»، وخمسمئة قطعة ذهبية، والتعيين الفخري مدفوع الأجر كرئيس للسباقات ستؤول إلى أي رجل أكمل مسار 126 ميلًا بالكامل في أقل من اثنتي عشرة ساعة.

عند الدوران حول الميدان، واجه كريم الشمس وتصدى لها. لقد كان يركض طوال اليوم، ما يقرب من 95 ميلًا. يجب أن يكون ذلك كافيًا

وقد تألم في تحويل سهامه التسعة وجمع جائزة العملات المعدنية، ثم للانضمام إلى العدّائين الآخرين الذين يسبحون الآن في نهر الحياة. لقد احتاج إلى أن ينفذ إلى حسدهم وإعجابهم وفي النهر نفسه، الغوص في عمق المياه الخضراء التي كانت أكبر من أي مكسب.

حلّقت الشمس فوق الأفق. هل كان هناك وقت؟ هل ما زال في جسده قوة؟ هل كانت إرادة الله؟ سيكون قريبًا جدًّا، وربما لا يستطيع إكمال 31 ميلًا أخرى قبل أن ينطلق الأذان إلى الصلاة الرابعة (صلاة المغرب) إلى غروب الشمس.

ومع ذلك، كان يعلم أن النصر الكامل قد يقضي على زكي عمر من أحلامه السيئة بشكل كامل أكثر من مضاجعة جميع نساء العالم.

وهكذا لمّا جمع سهمًا آخر، بدلًا من أن يتجه نحو خيمة المسؤولين، بدأ بالدوران للمرة العاشرة. كان طريق الغبار الأبيض أمامه خاليًا، وهو الآن يركض ضد الجن المظلم للرجل الذي كان يتوق إلى أن يكون ابنًا له والذي جعله بدلًا من ذلك عاهرة.

* * *

ولمّا تضاءل السباق إلى آخر رجل وحصد الفوز بالسباق، بدأ المتفرجون يتفرقون؛ ولكن الآن على طول الطريق، رأى الناس كريم قادمًا بمفرده وتوافدوا للتجمع مرة أخرى لمّا أدركوا أنه كان يحاول الحصول على خلعة الشاه.

لقد كانوا محنكين في شؤون السباق السنوي وعرفوا حصيلة الخسائر التي يفرضها الركض خلال يوم من الحرارة الشديدة التي تسبب العجز، وأثاروا مثل هذا الزئير الصاخب من الحب لدرجة أن الصوت بدا وكأنه يجذبه في جميع أنحاء الطريق، وهي جولة استمتع بها تقريبًا. وفي

المستشفى، كان قادرًا على انتقاء الوجوه المبتهجة بالفخر، الجوزجاني، المرض الذي يسمى روميًا، ويوسف أمين المكتبة، والحاج دافوت حسين، وحتى ابن سينا. ولمّا رأى الرجل العجوز توجهت عيناه على الفور إلى سطح المستشفى ورأى أنها عادت وعرف أنه لمّا كان بمفرده معها مرة أخرى، ستكون الجائزة الحقيقية.

لكنه بدأ يعاني من أخطر مشاكله في النصف الثاني من الجولة. كان يتغذى بالماء في كثير من الأحيان ويسكب الماء على رأسه، والآن جعله الإرهاق مهملًا وتناثر بعض الماء على حذائه الأيسر، حيث بدأ الجلد المبلل على الفور تقريبًا يتآكل وحك الجلد المصاب من قدمه. ربما حدث تغيير طفيف في خطواته؛ لأنه سرعان ما أصيب بتشنج في أوتار الركبة اليمنى.

والأسوأ من ذلك أنه لمّا نزل باتجاه بوابات الفردوس كانت حرارة الشمس أقل مما توقّع. كانت الشمس مباشرة فوق التلال البعيدة، ولمّا بدأ يصلي من أجل آخر جولة، أصابه الضعف بسرعة وخشي أنه لم يكن هناك وقت كاف، وتناهبه حزن عميق.

أصبح كل شيء ثقيلًا. ظل يسير على قدم وساق، لكن قدميه تحولتا إلى حجارة، وكانت الجعبة المليئة بالسهام تضربه بضربة ثقيلة في ظهره مع كل خطوة يخطوها، وحتى الحقيبة الصغيرة التي تحتوي على خصلات شعرها كانت تضغط عليه وهو يركض. صبّ الماء على رأسه في كثير من الأحيان وشعر أنه يتلاشى.

لكن سكان المدينة أصيبوا بحمى غريبة. أصبح كل واحد منهم كريم هارون. صاحت النسوة وهو يمر. نذر الرجال ألف نذر، وصاحوا بحمد الله والثناء عليه وتضرعوا إلى الله، وتوسلوا إلى النبي والأئمة الشهداء الاثني عشر. واستقبلوه بالهتافات التي تقترب منه، فقد رشّوا الشارع بالماء قبل مجيئه، ونثروا الورود في طريقه، وركضوا جنبًا إلى جنب

وشجّعوه أو رشّوا الماء المعطر على وجهه، وفخذيه، وذراعيه، ورجليه.

شعر بهم وهم يدخلون دمه وعظامه واشتعلت فيه النيران. قويت خطواته وصارت أكثر ثباتًا.

ارتفعت قدماه وسقطتا، ارتفعتا وسقطتا. لقد حافظ على وتيرة خطواته، لكنه الآن لم يستطع إخفاء ألمه، وسعى بدلًا من ذلك إلى هزيمة التعب الخانق من خلال التركيز على الألم في جانبه، والألم في قدميه، والألم في ساقيه.

ولمّا أخذ السهم الحادي عشر، كانت الشمس قد بدأت تنزلق خلف التلال وكانت على شكل نصف عملة معدنية.

ركض عبر الضوء العميق، رقصته الأخيرة، وهو يصعد أول منحدر قصير، أسفل المنحدر الذي يؤدي إلى شارع الألف حديقة، من خلال الانبطاح، وهو يتجه لأعلى، وقلبه ينبض.

ولمّا وصل إلى شارع عليّ وفاطمة صبّ الماء على رأسه ولم يشعر به.

انحسر الألم مع كل رد فعل في حين كان يركض. ولمّا وصل إلى المدرسة لم يبحث عن أصدقاء، وكان أكثر اهتمامًا بحقيقة أنه فقد المعاناة الحسية لأطرافه.

ومع ذلك، لم يستطع أن يشعر بقدميه في صعودهما وهبوطهما، وهو ينطلق إلى الأمام، ضربة، ضربة، ضربة.

وهذه المرة في الميدان، لم يشاهد أحد العروض البهلوانية، لكن كريم لم يسمع الزئير أو يرى المتفرجين، وهو يركض في عالمه الصامت حتى نهاية يوم كامل النضج والاضمحلال.

ولمّا دخل شارع الألف حديقة مرة أخرى، رأى ضوءًا أحمر محتضرًا

قبيحًا على التلال. بدا له أنه يتحرك ببطء، ببطء شديد، من خلال الانبطاح وأعلى التل، آخر تل يجب أن يتسلقه!

لقد انجرف للأسفل، وهو أخطر الأوقات؛ لأنه إذا كانت ساقاه فاقدتا الحس جعلتاه يتعثر وينبطح، فلن يكون بمقدوره الصعود مرة أخرى.

ولّما استدار ودخل بوابات الفردوس كانت الشمس غائبة. لقد شاهد أشخاصًا غير واضحين يبدو أنهم عائمون فوق الأرض، ويحثونه بصمت على المضي قدمًا، لكن في ذهنه كانت رؤيته واضحة لّما دخل أحد الملالي إلى الدرج الضيق المتعرج للمسجد، وصعد إلى المنصة الصغيرة في البرج العالي، وانتظر احتضار آخر شعاع ...

كان يعلم أن لديه لحظات فحسب.

لقد حاول أن يأمر ساقيه الميتتان بخطوات أطول، مجاهدًا لتسريع الخطوة الثابتة.

وأمامه، غادر صبيّ صغير جانب أبيه وركض إلى الطريق؛ تجمّد، وهو يحدق في العملاق الذي ثقل عليه وناء بحمله.

دفع كريم الطفل إلى أعلى ورفعه إلى كتفيه وهو يركض، وهزّ زئير الحشود الأرض هزًا. ولّما وصل إلى الأعمدة مع الصبيّ، كان علاء شاه ينتظر، وفي حين كان يمسك بالسهم الثاني عشر، نزع الشاه عمامته واستبدلها بغطاء رأس العدّاء المصنوع من الريش.

ألجم نداء المؤذنين من المآذن في جميع أنحاء المدينة موجة الحشد الغفير. استدار الناس باتجاه مكة وبدأوا يصلون. بدأ الطفل الذي كان لا يزال يحمله فوق كتفيه في النحيب وأطلق كريم سراحه. ثم انتهت الصلاة، ولّما نهض، كان الملك والنبلاء في وجهه يثرثرون مثل الجراء. وبعد ذلك، بدأ

عامة الناس في الصياح مرة أخرى واندفعوا إلى الأمام يفاخرون به، وكان الأمر كما لو أن كريم هارون امتلك بلاد فارس فجأةً.

الجزء الخامس

الجرّاح المحارب

51

الثقة

«لماذا يبغضونني هكذا؟» سألت ماري روب.

«لا أعرف». لم يقم بأي محاولة لإنكار ذلك؛ لم تكن حمقاء. ولمّا دلفت الابنة الصغرى هاليفي باتجاههما من المنزل المجاور، ركضت والدتها يوديت، التي لم تعد تقدّم هدايا من الخبز الساخن لليهودي الأجنبي، لانتزاع ابنتها بصمت، هاربة من أهل الضلال. أخذ روب ماري إلى السوق اليهودي واكتشف أنه لم يعد يحظى بالابتسامات باعتباره اليهودي الذي فاز بخلعة الشاه، ولم يعد الزبون المفضل لهندا، المرأة التاجرة. لقد عرّجا على جارتهما الأخرى نعومة وابنتها ليا ممتلئة الجسم، ونظرت المرأتان بعيدًا ببرود وجفاء، كما أن يعقوب بن راشي لم يأذن لروب بتناول طعام السبت لئَلّا يصبح جزءًا من عائلة صانع الأحذية.

وأينما سار روب متجولًا في الحي اليهودي، رأى اليهود الذين يتجاذبون أطراف الحديث يتغشّاهم الصمت والتحديق. لاحظ اللكمات المتعمدة عن قصد، والاستياء الشديد في النظرة الخاطفة، وكذلك اللعنة الخفيّة على شفاه العجوز راباي آشر يعقوبي الخاتن، والمرارة الموجهة ضد أحدهما الذي تقاسم الفاكهة المحرّمة.

قال لنفسه إنه غير آبه: ماذا يكون الناس في الحي اليهودي بالنسبة له، حقًّا؟

كان ميردين عسكري شيئًا مختلفًا تمامًا، لم يكن تجنب ميردين له

محض خيال. ففي أوقات الصباح هذه كان يفتقد ابتسامة ميردين العريضة التي تكشف عن أسنانه الكبيرة ويفتقد رفقته المريحة؛ لأن ميردين دائمًا كان يظهر له الجفاء حيث يقدّم تحية مختصرة ثم يبتعد.

وأخيرًا، بحث عن ميردين فوجده ممددًا أطرافه تحت ظل شجرة كستناء أو ما يعرف بـ «أبو فروة» على أرض المدرسة، يقرأ المجلد العشرين من كتاب الحاوي في الطب لمؤلفه الرازي، المجلد الأخير. قال ميردين وهو منزعج: «كان الرازي جيدًا، كتاب الحاوي يشمل جميع الأدوية».

«لقد قرأت اثني عشر مجلدًا، وسأقرأ المجلدات الأخرى قريبًا». رمقه روب بنظرة. «هل هذا سيئ أنني وجدت امرأة أحبها؟»

حدّق ميردين إلى الوراء. «كيف يمكنك الزواج من الأغيار؟»

«يا ميردين، إنها جوهرة».

«شفتا المرأة الغريبة تقطران كقرص العسل، وفمها أنعم من الزيت». ولكنها غير يهودية، يا يسي! أيها الأحمق، نحن شعب مشتّت ومحاصر يكافح من أجل البقاء. وفي كل مرة يتزوج فيها أحدنا ممن يدينون بعقيدة غير عقيدتنا، فهذا يعني نهاية الأجيال القادمة منا. وإذا لم يكن بمقدورك رؤية ذلك، فأنت لست الرجل الذي اعتقدت أنك عليه ولن أكون صديقك».

لقد كان يخدع نفسه - سكان الحي اليهودي كانوا مهمين؛ لأنهم منحوه القبول طواعية. وكان هذا الرجل مهمًّا أكثر من أي شخص آخر؛ لأنه كان نعم الصديق ولم يكن لدى روب الكثير من الأصدقاء بحيث يمكنه الاستغناء عن صداقة ميردين. «أنا لست الرجل الذي كنت تظنني أن أكونه». شعر بالحاجة إلى الكلام، معتقدًا تمامًا أنه لم يفقد ثقته. «أنا لم أتزوج خارج ديني».

«هي مسيحية».

«نعم».

امتقع وجه ميردين. «هل هذه مزحة سخيفة؟»

ولمّا لم ينطق روب بكلمة، لملم ميردين الكتاب وتلكأت خطاه. «مرْتَدٌّ عن دينه! إذا كان هذا صحيحًا - إذا لم تكن مجنونًا - فأنت لا تجازف برقبتك فحسب، بل ستعرضني للخطر. إذا رجعت إلى الفقه ستعلم أنه بإخباري فقد جرّمتني وجعلتني طرفًا في الخداع إلا إذا أبلغت عنك». بصق. «عليك اللعنة، لقد عرضت أطفالي للخطر وأنا ألعن اليوم الذي تقابلنا فيه».

وهرع ميردين بعيدًا.

مرّ يوم بعد يوم ولم يأت رجال الكيلونتر (قائد الشرطة) من أجل اقتياده، لم يبلغ ميردين عنه.

وفي المستشفى، لم يكن زواج روب مشكلة. تناثرت الشائعات التي مفادها أنه تزوج من امرأة مسيحية بين موظفي البيمارستان، لكنه كان ينظر إليه بالفعل على أنه غريب الأطوار - الأجنبي، اليهودي الذي خرج من السجن وفاز بالخلعة - وقبل هذا الارتباط غير اللائق باعتباره انحرافًا فرديًّا فحسب. وبخلاف ذلك، في مجتمع مسلم حيث كان يسمح لكل رجل بأربع زوجات، لم يكن اختطاف امرأة يسبّب ضجة كبيرة.

ومع ذلك، فقد شعر بفقد ميردين بشدة. وخلال هذه الأيام أيضًا لم ير كريم إلا لمامًا؛ حيث كان الحكيم الشاب قد أخذه نبلاء البلاط الملكي وكان يحتفى به ليلًا ونهارًا. تردّد اسم كريم على شفاه الجميع منذ فوزه بالسباق.

ولذلك كان روب وحده مع عروسه كما كانت معه، واعتادا هو وماري بسهولة ويسر على الحياة معًا. كانت تسخّر نفسها لكل ما يحتاجه المنزل؛ حتى غدا المنزل مكانًا أكثر دفئًا وأكثر راحة. وهو متيم بها، أمضى كل لحظة فراغ معها، ولّما يكون بعيدًا عنها يجد نفسه يتذكّر الجسم الوردي النديّ، وخط أنفها الرقيق الطويل، والذكاء الشديد في عينيها.

ركبا المطايا يطويان التلال طيًّا ومارسا الحب في المياه الكبريتية الدافئة في بركة علاء شاه السرية. ترك مجلد الصور الهندي القديم حيث كانت ستراه، ولّما جرب الاختلافات التي صورها الكتاب، وجد أنها درسته. بعض الممارسات كانت ممتعة والبعض الآخر جلب لهما المرح والنشوة. ضحكا كثيرًا وعلى فراش السرير شعرا بسعادة غامرة، ولعبا ألعابًا خاصة غريبة وشهوانية.

لقد كان عالمًا دائمًا وأبدًا. «ما الذي يجعلك تصبحين شبقة جدًّا؟ أنت جيدة عندما تلعقين قضيبي».

ضربت كوعها في ضلوعه.

لكنها لم تكن محرجة من فضولها. «يعجبني ذلك لّما يكون صغيرًا خفيفًا ومرتخيًا ويبدو وكأنه حرير. ما الذي يجعله يتغير؟ قالت لي ظئري ذات مرة إنه يصبح طويلًا وثخينًا وصلبًا لأنه مملوء بالهواء. هل تعتقد أن الأمر كذلك؟»

هزّ رأسه. «ليس الهواء، إنه يمتلئ بالدم الشرياني، لقد رأيت رجلًا مشنوقًا كان قضيبه الصلب مملوءًا بالدماء لدرجة أنه كان أحمر اللون مثل سمك السلمون».

«أنا لم ألُمْك يا روبرت جيريمي كول!»

«يتعلق الأمر بالرائحة والرؤية. ذات مرة، في نهاية رحلة قاسية، امتطيت صهوة حصان لم يكن قادرًا على الحركة تقريبًا، وكان منهكًا جدًّا. ولكنه اشتمّ رائحة مهرة في الهواء، وحتى قبل أن نرى الحيوان، انتصب عضوه وتصلّبت عضلاته مثل عيدان الخشب وكان يركض نحوها بشغف شديد اضطررت إلى سحبه للخلف».

لقد أحبّها لذا كانت تستحق أي تضحية. ومع ذلك، قفز قلبه بين ضلوعه في إحدى الأمسيات لمّا ظهر شخص معروف على باب المنزل وأومأ بتحية.

«تعال، يا ميردين».

وفور تقديمها للزائر، نظرت ماري إلى ميردين بفضول؛ لكنها قدّمت النبيذ والكعك الحلو وتركتهما على الفور تقريبًا، وذهب لإطعام الحيوانات بالغريزة الحكيمة التي كان يعتز بها بالفعل.

«هل أنت مسيحي حقًّا؟»

أومأ روب برأسه.

«يمكنني أن آخذك إلى مدينة بعيدة في فارس حيث الحاخام هو ابن عمي. إذا طلبت التحول إلى اليهودية على أيدي الرجال المتعلمين هناك، فربما يوافقون. وعندها لن يكون هناك سبب للكذب والخداع».

نظر إليه روب وهزّ رأسه في تثاقل.

تنهّد ميردين. «إذا كنت محتالًا ومخادعًا، فسوف توافق على الفور، ولكنك رجل أمين ومخلص وكذلك طبيب استثنائيّ، ولهذا السبب لا يمكنني أن أدير ظهري لك أو أتخلى عنك».

«شكرًا لك».

«يسي بن بنيامين ليس اسمك».

«لا، اسمي الحقيقي...».

لكن ميردين هزّ رأسه محذّرا ورفع يده. «الاسم الآخر يجب ألا يذكر بيننا، يجب أن تظل يسي بن بنيامين».

رمق روب بنظرة فاحصة. «لقد دمجت نفسك في الحي اليهودي. وفي بعض الأحيان كنت تبدو زائفًا. فقلت لنفسي إن السبب هو أن والدك كان يهوديًّا أوروبيًّا، ومرتدًّا ضلّ طريقنا وأهمل منح ابنه الحقّ الطّبيعيّ المكتسب بالولادة.

«لكن يجب أن تظل متيقظًا باستمرار لئلا ترتكب خطأً فادحًا. وإن افتضح أمرك، فخداعك سوف يجلب لك صدور حكم مخيف من محكمة الملّا. الإعدام بلا شكّ. وإذا ضبطت وقبض عليك، فقد يعرّض هذا الأمر اليهود للخطر. وعلى الرغم من أن خداعك ليس ذنبهم، فمن السهل على الأبرياء أن يعانوا في بلاد فارس».

«هل أنت على يقين أنك تريد التورط في الكثير من المخاطر؟» سأل روب بهدوء.

«لقد فكرت مليًّا في هذا الأمر، يجب أن أكون صديقك».

«أنا سعيد جدًّا».

أومأ ميردين برأسه. «لكن أريد المقابل لذلك».

انتظر روب.

«عليك أن تفهم ما تتظاهر به. هناك ما يجعلك تبدو يهوديًّا حقيقيًّا أكثر من ارتداء القفطان وتهذيب لحيتك بطريقة معينة».

«هل يمكنك التوضيح؟»

«يجب أن تدرس وصايا الرب».

«أنا أعرف الوصايا العشر». علمتهم أجنيس كول لأطفالها جميعًا.

هزّ ميردين رأسه. «الوصايا العشر جزء صغير من الشرائع التي تشكّل التوراة. تحتوي التوراة على 613 وصية. هذا ما يجب أن تدرسه مع التلمود - التفاسير والشروح التي تتناول كل شريعة. وبعد ذلك فقط سترى روح شعبي».

«ميردين، هذا أسوأ من دراسة الفقه. قال يائسًا: «أنا أشعر بالاختناق بسبب الدراسة».

التمعت عينا ميردين. قال «هذا هو المقابل الذي ارتضيه».

رأى روب أنه كان جادًّا.

تنهّد وقال: «اللعنة، وهو كذلك».

الآن ولأول مرة يبتسم ميردين. صبّ لنفسه بعضًا من النبيذ، وتجاهل الطاولة والكراسي الأوروبية، واقتعد الأرض وجلس وساقاه مطويتان تحته. «فلنبدأ إذًا، الوصية الأولى هي أن تثمر وتتكاثر».

خطر ببال روب أنه كان أمرًا ممتعًا للغاية رؤية وجه ميردين الرقيق العطوف هنا في منزله. قال مبتسمًا لصديقه: «أنا أحاول يا ميردين». «أنا أبذل قصارى جهدي!»

52

تهويد يسي بن بنيامين

قال ميردين لزوجته باللغة العبرية: «اسمها ماري، على اسم والدة يشوع (عيسى)».

قال روب لماري بالإنجليزية: «اسمها فارا».

تفحّصت الزوجتان بعضهما بعضًا.

كان ميردين قد أحضر فارا لزيارتها بالإضافة إلى ابنيهما ذوي البشرة السمراء، داود ويساكر. المرأتان لم تستطيعا التحدث لأنهن يفتقران إلى اللغة المشتركة. ومع ذلك، سرعان ما كانا يتبادلان بعض الأفكار وسط القهقهات والضحكات، وإشارات اليد، والامتعاضات، وآهات الإحباط. وربما أصبحت فارا صديقة ماري بأمر من زوجها، لكن منذ البداية، كانت المرأتان اللتان تختلفان في كلّ شيء، تشتركان في وشائج الاحترام المتبادل.

أبانت فارا لماري كيفية ربط شعرها الأحمر الطويل وتغطيته بقطعة قماش قبل مبارحة المنزل. كانت بعض النساء اليهوديات يرتدين الحجاب على الطراز الإسلامي لكن العديد منهن غطّين شعرهن ببساطة، وهذا الفعل الفردي جعل ماري غير ملحوظة. أرشدتها فارا إلى أكشاك السوق حيث توجد المنتجات الطازجة واللحوم الجيدة، وأشارت إلى التجار الذين يجب تجنبهم. علّمتها فارا كيفية طهي اللحم الكوشير (المباح شرعًا) ونقعه وتمليحه للتخلص من الدم الزائد. وكيفية وضع اللحم ومسحوق الفلفل الحلو والثوم وورق اللورا والملح في وعاء فخاريّ مغطّى ثم يكدّس

بالفحم الساخن ويترك ليتحمّص ببطء طوال يوم السبت الطويل ليصبح حارًّا وغضًّا طريًّا، وهو طبق شَهيّ ولذيذ يسمى «شالينت» الذي أصبح الطبق المفضل لروب.

«أوه، أود التحدّث معها، لطرح الأسئلة عليها وإخبارها بأشياء!»، قالت ماري لروب.

«سأعطيك دروسًا في اللغة العبرية».

لكنها لا تتكلم بلغة اليهود ولا بلغة الفرس. قالت: «أنا لست سريعة في تعلم المفردات الأجنبية، مثلك». «استغرق الأمر سنوات حتى أتعلم اللغة الإنجليزية، واضطررت للعمل مثل العبيد لإتقان اللغة اللاتينية، ألن نذهب قريبًا إلى حيث قد أسمع اللغة الغيلية الخاصة بي؟»

قال: «لّما يحين الوقت»، لكنه لم يقطع أي وعد لها بموعد ذلك.

تعهّد ميردين بأنه سوف يتدبّر عودة قبول يسي بن بنيامين في الحي اليهودي.

«اليهود منذ الملك سليمان - لا، بل قبل سليمان! - اتّخذوا زوجات غير يهوديات وعاشوا داخل المجتمع اليهودي، لكنهم كانوا دائمًا رجالًا أثبتوا خلال حياتهم اليومية أنهم لم ينشقّوا عن شعبهم».

بناءً على اقتراح ميردين، أصبح من عادتهما أن يجتمعا مرتين يوميًّا للصلاة في الحي اليهودي، ولأداء صلاة الشاهاريت في الصباح في المعبد اليهودي الصغير الذي يسمى دار السلام، والذي يفضله روب، ولأداء صلاة المعاريف في نهاية اليوم في معبد صهيون بالقرب من منزل ميردين. لم يجابه روب أي مشقّة أو عناء في ذلك. كان دائمًا ينعم بالطمَأنينَة والهدوء الناجمين عن التمايل والتأمل وترديد الصلاة الإيقاعية. ولّما

أصبحت اللغة العبرية أكثر سلاسة بالنسبة له، نسي أنه جاء إلى المعبد اليهودي كجزء من التَخَفّي والتستر وأحيانًا شعر أن أفكاره قد تصل إلى الله. لم يصلّ بصفته يسي اليهودي أو بصفته روب المسيحي، بل كان يصلي بصفته فردًا يسعى إلى التفاهم والراحة. وحدث هذا في بعض الأحيان أثناء تلاوته صلاة يهودية، لكنه كان من المحتمل أن يجد لحظة قربى في بقايا من صباه؛ وفي بعض الأحيان، في حين كان كل ما يتعلق به أن الرجال كانوا يغمغمون بنعم وآلاء قديمة جدًّا ربما قد يكونون قد تعرضوا للاستغلال عن طريق ابن نجار يهودي، فقد قدّم التماسًا إلى أحد قديسي الأم أو صلّى ليسوع أو إلى أمه.

قلّ تحديق الناس فيه شيئًا فشيئًا حتى تلاشى تمامًا، ومع مرور الأشهر، اعتاد أولئك الموجودون في الحي اليهودي على رؤية اليهودي الإنجليزي الكبير وهو يحمل ليمونًا عطريًّا ويلوّح بأغصان النخيل في المعبد اليهودي دار السلام خلال عيد الحصاد سوكوت (عيد المظلة أو عيد العرش)، ويصوم جنبًا إلى جنب مع الآخرين في يوم كيبور (يوم الغفران أو الكفّارة)، ويرقص في المَوكب الذي اتّبع الجماعات احتفالاً بإعطاء الرب التوراة للشعب. قال يعقوب بن راشي لميردين إنه من الواضح أن يسي بن بنيامين كان يسعى للتكفير عن زواجه المتسرع من امرأة مغايرة.

كان ميردين أريبًا ألمعيًّا وعرف الفرق بين الخداع الوقائي والالتزام التام لروح الرجل. قال: «أطلب شيئًا واحدًا». «يجب ألا تسمح لنفسك أبدًا بأن تكون الرجل العاشر».

فهم روب جيه. إذا انتظر المصلون اكتمال الـ «منيان» (حق النصاب)، جماعة المصلين من عشرة رجال يهود يسمح لهم بالعبادة في الأماكن العامة، فسيكون خداعهم من أجل غروره أمرًا فظيعًا. لقد قطع الوعد على الفور، وكان دائمًا حريصًا على الوفاء به.

كل يوم تقريبًا، خصص هو وميردين الوقت لدراسة الوصايا. لم يستخدما أي كتاب. عرف ميردين التعاليم بوصفها شريعة شفهية. وقال: «من المتفق عليه عمومًا أنه يمكن استقاء 613 وصية من التوراة». وأضاف، «لكن ليس هناك اتفاق على شكلها الدقيق. قد يحسب عالم ما وصية على أنها وصية منفصلة، ويجوز لعالم آخر أن يحسبها كجزء من شريعة سابقة. أنا أعطيك نسخة من 613 وصية توارثتها أجيال عائلتي الطويلة وعلمني إياها والدي، راباي مولكا عسكر من مسقط».

قال ميردين إن 248 ميتزفوت (وصية) كانت وصايا إيجابية، مثل الأمر بأن اليهودي يجب أن يعتني بالأرملة واليتيم، و365 وصية كانت وصايا سلبية، مثل التحذير بأن اليهودي يجب ألا يقبل رشوة.

كان تعلم ميتزفوت (وصية) من ميردين أكثر إمتاعًا من دراسات روب الأخرى لأنه كان يعلم أنه لن تكون هناك امتحانات. كان يستمتع بالجلوس وهو يرتشف كأسًا من النبيذ والإصغاء إلى الشريعة اليهودية، وسرعان ما وجد أن جلساتهما ساعدته في دراسته للفقه الإسلامي.

ورغم أنه عمل بجدّ أكثر من أي وقت مضى فإنه تَهَنَّأَ بأيامه. كان يعلم أن الحياة في أصفهان كانت أسهل بكثير بالنسبة له مقارنة بماري. وعلى الرغم من أنه كان يعود إليها بفارغ الصبر في نهاية كل يوم، كان يتركها كل صباح لأجل الذهاب إلى البيمارستان والمدرسة بنوع مختلف من الشغف. كانت تلك هي السنة التي درس فيها جالينوس وانغمس في وصف ظواهر تشريحية لم يستطع رؤيتها من خلال النظر إلى مريض - الفرق بين الشرايين والأوردة، والنبض، وعمل القلب مثل قبضة اليد التي تعصر باستمرار تضخ الدم من القلب أثناء الانقباض، ثم الاسترخاء وإعادة الامتلاء بالدم أثناء الانبساط.

انتقل من التدريب المهني على يد جلال الدين وترك كامشات ومقرنات

وحبال مجبّر العظام وانتقل إلى مخزن أدوات الجرّاح، حيث كلّف بالتدريب على يد الجوزجاني.

«إنه يبغضني، كل ما يسمح لي به هو تنظيف الآلات وشحذها»، اشتكى إلى كريم، الذي قضى أكثر من عام في خدمة الجوزجاني.

قال كريم: «هذه هي الطريقة التي يبدأ بها مع كل متدرب جديد». «يجب ألا تثبط عزيمتك».

كان من السهل على كريم التشدق بالحديث عن الصبر هذه الأيام. كان جزءًا من خلعته الحصول على منزل كبير وأنيق، حيث أدار منه الآن عيادة تتكون إلى حدّ كبير من عائلات البلاط الملكي. وكان من الوجاهة بالنسبة لأحد النبلاء أن يلاحظ مصادفة أن طبيبه هو البطل الرياضي لبلاد فارس، كريم الفائز بالسباق، وقد اجتذب المرضى بسرعة كبيرة لدرجة أنه كان سيصبح ناجحًا حتى بدون الجائزة المالية والراتب الذي حصل عليه كمكافأة من الشاه. كان يرتدي ثيابًا باهظة الثمن وجاء إلى منزلهما حاملًا هدايا سخية، وأطعمة شهية ومشروبات، وفي مرة من المرات أحضر سجّادة ثخينة من همذان كغطاء لأرضية المنزل، كهدية زفاف. غازل ماري بعينيه وقال لها أشياء سافرة باللغة الفارسية حيث أعلنت أنها مقرّة بالفَضْل لعدم فهمها، لكنها سرعان ما أصبحت معجبة به وعاملته كأخ مشاكس.

وفي المستشفى، حيث كان يتوقع روب أن تكون شعبية كريم محدودة، لكن لم يكن الأمر كذلك. تجمّع طلاب الامتياز حوله وتتبّعوه وهو يرعى مرضاه، كما لو كان أحكم الحكماء، ولم يستطع روب أن يعارض لمّا ابتسم ميردين عسكري ولاحظ أن أفضل طريقة لتصبح طبيبًا ناجحًا هي الفوز بسباق الجري.

وفي بعض الأحيان، قاطع الجوزجاني عمل روب ليسأل عن اسم الآلة التي ينظفها وفيما تستخدم. كان هناك العديد من الأدوات تفوق الأدوات التي استخدمها روب عددًا بصفته حلّاقًا جرّاحًا، وأدوات جراحية مصممة خصوصًا للمهام الخاصة، وقام بتنظيف المَبَاضع المستديرة وشحذها، والمَبَاضع المقوسة، والمَبَاضع الجراحية، ومناشير العظام، وكاشطات الأذن، والمسابر، والمشارط الجراحية الصغيرة لفتح التكيسات والخراجات، والمثاقيب الجراحية لإزالة الأجسام الغريبة المنغرسة في العظام. . .

كانت طريقة الجوزجاني منطقية بعد كل شيء، ففي نهاية الأسبوعين، عندما بدأ روب في مساعدته في غرفة العمليات في البيمارستان، لم يكن يتكلم الجرّاح بل يهمس بطلب ما واستطاع روب تحديد الأداة المناسبة وتسليمها في الحال.

ثمة متدربان آخران في قسم الجراحة كانا قد تدرّبا بالفعل تحت إشراف الجوزجاني لعدة أشهر. سمح لهما بإجراء عمليات جراحية في حالات غير معقدة، ودائمًا ما كانا فريسة للتعليقات اللاذعة والنقد الشديد من أستاذهما.

استغرق الأمر عشرة أسابيع من المساعدة والمراقبة قبل أن يسمح الجوزجاني لروب بإجراء قطع، حتى تحت إشرافه. ولّما أتيحت له الفرصة، كانت إزالة السبّابة من يد العتّال الذي سحقت يده تحت حافر البعير.

لقد تعلّم من خلال المشاهدة. والجوزجاني دائمًا كان يضع رباطًا ضاغطًا، مستخدمًا شريطًا جلديًّا رقيقًا مشابهًا لتلك التي يستخدمها الفَصّاد ليظهر الوريد قبل الفصد. أحكم روب الرباط الضاغط ببراعة وأجرى البتر دون تردد؛ لأنه كان إجراءً قام به عدة مرات على مر السنين

بصفته حلّاقًا جرّاحًا. ومع ذلك، فقد كان دائمًا يعمل والدم يعوقه، وكان مسرورًا بتقنية الجوزجاني، التي سمحت له بعمل سديلة وإغلاق الأرومة دون مسح النزيف وبدون أكثر من قطرة من نزّ الجرح وإفرازاته.

راقبه الجوزجاني عن كثب بعبوسه المعتاد. ولمّا انتهى روب، ابتعد الجرّاح دون أن ينطق بكلمة مدح أو ثناء، لكنه لم يهمهم ولم يشر إلى طريقة كان من الممكن أن تكون الطريقة الأفضل، وفي حين كان روب ينظّف الطاولة بعد إجراء العملية شعر بشيء من الحماسة، معترفًا بانتصار طفيف.

53

الأصدقاء الأربعة

إذا كان ملك الملوك قد اتّخذ أي خطوات لتقليص صلاحيات وزيره نتيجة للإفصاحات التي أدلى بها روب، فإن هذه الخطوات كانت غير مرئية. إذا كان هناك أي شيء، فقد بدا أن ملالي الإمام قندراسه أكثر انتشارًا من أي وقت مضى، وأكثر صرامة وحيوية في حماستهم لرؤية أصفهان تعكس نظرة الإمام القرآنية للسلوك الإسلامي.

مرت سبعة أشهر دون استدعاء ملكي. كان روب مسرورًا بذلك؛ لأن وقته كان مقصورًا على زوجته وتدريبه الطبي.

وذات صباح، أجفلت ماري لمّا استدعاه الجنود، كما في المرات السابقة.

«الشاه يتمنّى أن ترافقه في نزهته هذا اليوم».

وأكدّ لزوجته قائلًا: «كل شيء على ما يرام» وذهب معهم. وفي الإسطبلات الكبيرة خلف الفردوس، وجد ميردين عسكري بوجه شاحب. ولمّا تشاورا، اتفقا على أن كريم وراء استدعائهما، الذي أصبح الرفيق المفضل لعلاء شاه منذ أن ملأت شهرته الرياضية الآفاق.

وكان الأمر كذلك. ولمّا جاء علاء شاه إلى الإسطبلات، سار كريم خلف الحاكم مباشرة وامتلأ وجهه بابتسامة عريضة وهو يتبع الشاه في اتجاه صديقيه.

أصبحت الابتسامة أقل ثقة لمّا انحنى الشاه إلى الأمام ليصغي إلى ميردين عسكري، الذي كان يغمغم بكلمات بصوت مسموع باللغة العبرية وهو

يؤدي سجود «روي زمين» (الوجه على الأرض).

«تعال!» قال علاء شاه وهو يفرقع أصابعه: «يجب أن تتحدث الفارسية وتخبرنا بما تقوله».

«إنها دعاء يا مولاي، دعاء يقوله اليهود لّما يرون الملك»، استطاع ميردين أن يقول ذلك. «طوبى لك، أيها الرب إلهنا، ملك الكون، الذي أعطى من مجده للجسد والإنسان».

«أهل الذمة يقدمون صلاة الشكر لّما يرون الشاه؟» قال علاء شاه مندهشًا ومسرورًا.

علم روب أنها «بركة» يقولها الأتقياء عند رؤية أي ملك ولكن لم يرَ هو ولا ميردين أي سبب للإشارة إلى ذلك، وكان علاء شاه في حالة مزاجية رائعة وهو يتأرجح على حصانه الأبيض وركبوا وراءه في جولة إلى الريف الهادئ.

«قيل لي إنك اتّخذت زوجة أوروبية» تحدّث إلى روب وهو يتلوى في السرج.

«هذا صحيح، جلالتك».

«سمعت أن لديها شعرًا بلون الحناء».

«نعم، جلالتك».

«شعر الأنثى يجب أن يكون أسود».

لم يستطع روب أن يجادل الملك ولم ير أي داع للجدال؛ كان ممنونًا أنه لديه امرأة لا تروق لعلاء شاه.

لقد أمضى معظم هذا اليوم مثل أول يوم ركب فيه روب في رفقة

الشاه، باستثناء أنهما سافرا الآن مع اثنين آخرين لمشاركة عبء عناية الملك؛ لذلك كان هناك إجهاد أقل ومتعة أكثر من المرة السابقة. كان علاء شاه مسرورًا لاكتشاف معرفة عميقة للتاريخ الفارسي في ميردين، وفي حين كانا يسيران ببطء وتثاقل في التلال تحدّث الاثنان عن نهب الإسكندر لمدينة برسيبوليس قديمًا، الأمر الذي شجبه الفارسي في علاء شاه وصفّق له العسكري صاحب النزعة الحربية فيه. وفي منتصف الصباح في بقعة ظليلة، تبارز علاء شاه وكريم بالسيوف، وفي حين كانا يدوران وتتصادم السيوف وتحدث رنينًا، تحدّث ميردين وروب بهدوء عن الأربطة الجراحية، وناقشا المزايا النسبية للخيوط الحريرية والكتانية (التي اتفق كلاهما على تحللها أيضًا بسهولة) وشعر الحصان والشعر البشري المفضل لابن سينا. وفي منتصف النهار، كان هناك طعام دسم وشراب فاخر تحت ظلال خيمة الملك، وتناوب الثلاثة في لعبة الشطرنج، على الرغم من أن ميردين قاتل ببسالة وكاد أن يفوز في مباراة واحدة، مما جعل النصر أكثر متعة لعلاء شاه.

وداخل كهف علاء شاه السري، غطس الأربعة برفق وحميمية، وأرخوا أجسادهم في الماء الدافئ في بركة المياه وأنعشوا أرواحهم بإمدادات لا حصر لها من المشروبات الفاخرة.

دحرج كريم الخمر على لسانه بامتنان قبل أن يبتلعه ثم ابتسم في وجه علاء شاه. «كنت فتى متسولًا، هل أخبرتك بذلك، جلالتك؟»

ابتسم علاء شاه في المقابل وهزّ رأسه.

«صبي شحّاذ يشرب الآن خمر ملك الملوك».

«نعم، أختار صبيًّا متسولًا ورجلين من اليهود كأصدقائي». كان ضحك علاء شاه أكثر دويًّا واستمرارًا من ضحكهم. «وبصفتي رئيس الجلسة

لديّ خطط نبيلة وسامية، وقد أحببت هذا الذمي منذ فترة طويلة»، قال وهو يعطي روب لكمة ودودة في حالة سكر قليلًا. «والآن يبدو أن الذمي الآخر رجل ممتاز، جدير بالاحترام. يجب أن تبقى في أصفهان عندما تنتهي من الدراسة في المدرسة يا ميردين عسكري، وتصبح طبيبًا في البلاط الملكي».

امتعض ميردين منزعجًا. «مولاي، هذا شرف لي، أتوسل إليك ألا تعتبر ذلك إهانة أو مخالفة، لكنني أطلب موافقتك للسماح لي بالعودة إلى الوطن إلى الأراضي الواقعة على طول الخليج العظيم لمّا أصبح حكيمًا، أبي رجل طاعن في السن ومريض، سأكون الطبيب الأول في عائلتنا، وقبل أن ينتقل أبي إلى الرفيق الأعلى أتمنى أن يراني مستقرًّا في حضن عائلتنا».

أومأ علاء شاه برأسه بلا مبالاة. «ما صنعة هذه العائلة التي تعيش على الخليج العظيم؟»

«يسافر رجالنا إلى الشواطئ بقدر ما يتذكره أي شخص، ويبتاعون اللؤلؤ من الغواصين، جلالة الملك».

«اللؤلؤ! هذا جيد؛ لأنني أقتني اللؤلؤ حيثما وجدت اللؤلؤ الجيد. من شابه أباه فما ظلم، أيها الذمي؛ لأنك يجب أن تطلب منهم البحث عن أكبر لؤلؤة مثالية وإحضارها لي، وسأشتريها وأثري عائلتك».

كانوا يترنّحون في سروجهم في الوقت الذي ركبوا فيه باتجاه المنزل. جاهد علاء شاه حتى يجلس في سرجه منتصبًا وخاطبهم بإعجاب قد يصمد أو لا يصمد أمام الصحوة المفجعة التي كان من المؤكد اتباعها. ولّما وصلوا إلى الإسطبلات الملكية واقترب الحاضرون والمتملقون وتحلقوا حوله، اختار الشاه أن يتفاخر بهم.

«نحن أربعة أصدقاء!» صاح في منتصف الجلسة في البلاط الملكي.

«أربعة رجال طيبون هم أصدقاء فحسب!»

تكررت هذه الجملة بسرعة وطافت في المدينة وانتشرت، كما تنتشر الشائعات التي تدور حول الشاه.

حذّر ابن سينا روب ذات صباح بعد حوالي أسبوع قائلًا: «الحذر ضروري مع بعض الأصدقاء».

كانوا في حفلة ترفيهية قدمها فتح عليّ للشاه، وهو رجل ثري كانت شركته التجارية مسؤولة عن بيع النبيذ إلى الفردوس ومعظم نبلاء البلاط الملكي. كان روب سعيدًا برؤية ابن سينا. ومنذ زواج روب، وبحساسية مثالية، نادرًا ما طلب شيخ الأطباء من روب مرافقته في أمسياته. والآن تجوّلا أمام كريم الذي كان محاطًا بحاشية من المعجبين، واعتقد روب أن صديقه بدا سجينًا بقدر ما كان هدفًا للتملق.

كان وجودهما مطلوبًا انبثاقًا من حقيقة أن كلًّا منهما كان حائزًا على الخلعة، لكن روب كان يشعر بالملل من وسائل الترفيه الملكية؛ في حين أنها قد تختلف في التفاصيل، ولكنها استحقت اللعنة بسبب التشابه العام. وبالإضافة إلى ذلك، كان مستاءً من المطالب في وقت حضوره. وقال: «أفضل كثيرًا أن أعمل في البيمارستان المكان الذي أنتمي إليه».

نظر ابن سينا بحذر. كانا يسيران بمفرديهما في منزل التاجر وكانت لديهما فترة وجيزة ينعمان فيها بالحرية، حيث دخل علاء شاه في «حرم» فتح عليّ قبل لحظات.

قال ابن سينا: «يجب ألا تنسى أبدًا أن التعامل مع ملك ليس مثل التعامل مع رجل عاديّ». «الملك ليس مثلك أو مثلي. يسحق بلا مبالاة وقد يغتال شخصًا مثلنا. أو يؤشّر بإصبعه ويسمح لشخص ما بالبقاء على قيد الحياة. هذه سلطة مطلقة، ولا يمكن لرجل مولود من امرأة أن يقاومها.

إنها تدفع حتى أفضل الملوك إلى الجنون قليلًا».

هزّ روب كتفيه. «أنا لا أسعى أبدًا إلى رفقة الشاه، ولا أرغب في الانخراط في السياسة».

أومأ ابن سينا بالموافقة. «هذا عن الملوك في الشرق: إنهم يحبون اختيار الأطباء ليكونوا وزراء لهم، ويشعرون أن المعالجين بطريقة أو بأخرى يحظون بعناية الله. أعرف مدى سهولة الرد على إغراء مثل هذا المنصب وقد شربت نخب السلطة المَسموم. قبلت مرتين لمّا كنت أصغر سنًّا منصب الوزير في همذان. كان المنصب أخطر من ممارسة الطب. وبعد المرة الأولى، أفلت بصعوبة من عقوبة الإعدام. زجيّ بي في سجن القلعة التي تدعى قلعة فردجان، حيث أصابني الضعف والهزال لشهور. وبعد إطلاق سراحي من قلعة فردجان، وزيرًا أم لا، علمت أنني لا أستطيع البقاء في همذان في أمان. ومع الجوزجاني وعائلتي، شققت طريقي إلى أصفهان، حيث كنت تحت حماية علاء شاه منذ ذلك الحين».

عادا إلى الوراء، متتبعين خطواتهما نحو الحدائق التي أقيمت فيها حفلات الترفيه.

قال روب: «من حسن حظ بلاد فارس أن علاء شاه يسمح للأطباء العظماء بمباشرة مهنتهم».

ابتسم ابن سينا. قال بهدوء جمّ: «تناسب خططه أن يعرف بالملك العظيم الذي يرعى الفنون والعلوم». «حتى لمّا كان شابًّا، كان يتضور جوعًا بعد إمبراطورية النفوذ. والآن عليه أن يسعى لتوسيع إمبراطوريته محاولًا القضاء على أعدائه قبل أن يلتهموه».

«السلاجقة».

قال ابن سينا: «آه، يجب أن أخاف السلاجقة أكثر إذا كنت وزيرًا في أصفهان». «لكن السلطان محمود من غزنة هو من يراقب علاء شاه باهتمام شديد؛ لأن الاثنين من نفس الطّينة. شنّ علاء شاه أربع غارات على الهند، حيث أسر 28 فيلًا من أفيال الحرب. السلطان محمود في غزنة أقرب إلى المصدر، فقد أغار على الهند في كثير من الأحيان ويملك أكثر من خمسين فيلًا من أفيال الحرب. يحسده علاء شاه ويهابه. يجب القضاء على السلطان محمود بعد ذلك إذا أراد علاء شاه المضي قدمًا في تحقيق حلمه الذي يراوده».

توقّف ابن سينا ووضع يده على ذراع روب. «يجب أن تتوخى الحذر الشديد. يقول أهل الفكر أن أيام قندراسه معدودة بصفته وزيرًا، وسوف يحل محله طبيب شاب».

لم يقل روب شيئًا، لكنه تذكّر فجأة أن علاء شاه تحدّث عن وجود «خطط نبيلة وسامية» لكريم.

«إذا كان هذا صحيحًا، فإن قندراسه سيضرب بلا هوادة ودون رحمة أي شخص قد يراه صديقًا أو داعمًا لمنافسه. ليس كافيًا ألا يكون لديك طموحات سياسية لنفسك. ولّما يتعامل الطبيب مع من هم في السلطة، يجب أن يتعلم الانحناء ويعرف العاقبة وإلا فلن ينجو».

لم يكن روب متأكدًا من أنه سوف يكون ماهرًا في ممارسة الانحناء ومعرفة العاقبة.

قال ابن سينا: «لا تبالغ في الاهتمام». «يغير علاء شاه رأيه كثيرًا وبسرعة البرق، ولا يمكن للمرء أن يخطط لما سيفعله في المستقبل».

استأنفا المشي ووطئت أقدامهما الحدائق قبل فترة وجيزة من عودة علاء شاه محور نقاشهما من حرم فتح عليّ، ويبدو عليه الاسترخاء وفي

مزاج طيب.

وفي منتصف فترة الظهيرة، بدأ روب يتساءل عما إذا كان ابن سينا قد استضاف عرضًا ترفيهيًا لشاهه وحاميه. ذهب إلى الخووف وطرح السؤال من غير قصد.

ضيّق قائد الحرس الأشهب عينيه بتركيز شديد، ثم أومأ برأسه. قال: «منذ بضع سنوات».

ومن الواضح أن علاء شاه لم يكن لديه اهتمام بالزوجة الأولى، العجوز الورعة التي تسمى رضا؛ لذلك كان من المؤكد في الواقع أنه ادعى الحق السيادي المطلق لديسبينا. تخيّل روب الشاه وهو يتسلق الدرج الدائري في البرج الحجري في حين كان الخووف يحرس المدخل.

والشاه يمتطي جسم الفتاة الصغيرة اللعوب الشبقة.

وقد انبهر روب الآن، ففحص الرجال الثلاثة، كل منهم محاط بنبلاء من المتألهين والخاضعين. كان الشاه يحيط به حضوره المعتاد من المداهنين والإمعة. أجاب ابن سينا، الوقور الرزين، بهدوء عن أسئلة الدارسين المثقفين. كريم، كما هو الحال دائمًا في الوقت الحاضر، لم يكن في الواقع ظاهرًا بسبب المعجبين الذين سعوا للتحدث معه، ولمس ملابسه، والانغماس في الإثارة وبريق حضوره المنشود.

يبدو أن بلاد فارس هذه تسعى إلى تحويل كل رجل إلى رجل ديوث بدوره.

لقد شعر بأنه طبيعي وعلى صواب وهو يمسك أدوات جراحية في يده، كما لو كانت أجزاء قابلة للتبديل من جسده. منحه الجوزجاني المزيد والمزيد من وقته الثمين، وأظهر له بصبر شاقّ كيف يقوم بكل إجراء.

كان لدى الفرس طرق لشل حركة المرضى وإضعاف الحساسية. ولمّا ينقع القنب في ماء الشعير لعدة أيام ويبتلع التسريب، يسمح ذلك للمرء بالبقاء واعيًا ولكنه يسكّن الألم. قضى روب أسبوعين مع كبار الصيادلة في خزانة الشرف وهو يتعلم كيفية مزج الطَبْخَات الدَّوائيَّة التي تجعل المرضى ينامون. كانت المواد غير متوقعة ويصعب الإحاطة بها، لكنها في بعض الأحيان سمحت للجراحين بإجراء العمليات الجراحية دون حدوث الارتجاف المتشنج والأنين والصراخ جرّاء الألم.

بدت له الوصفات الدوائية كالسحر أكثر من كونها دواء.

خذ لحم شاة، افصله من الدهون وقطعه إلى كتل، وكدّس قطع اللحم فوق وحول كمية جيدة من بذور الهنبان المطهو ببطء. ضع هذا في جرة فخارية أسفل كومة من روث الخيول حتى تتولد الديدان. ثم ضع الديدان في وعاء زجاجيّ حتى تذبل وتتغضن. وعند الحاجة للاستخدام، خذ جزأين من هذه المكونات وجزءًا واحدًا من مسحوق الأفيون، واغرسه في أنف المريض.

يشتق الأفيون من عصير زهرة شرقية: الخشخاش. كان يزرع في حقول أصفهان لكن الطلب فاق العرض، حيث كان يستخدم في طقوس المساجد للمسلمين ذوي المذهب الإسماعيلي وكذلك في صناعة الأدوية؛ لذلك استورد جزء منه من تركيا ومن غزنة. كان أساس جميع التركيبات الصيدلانية لتسكين الآلام.

خذ الأفيون النقي وجوزة الطيب، اطحنهما واطبخهما معًا واترك المزيج منقوعًا في النبيذ العتيق لمدة أربعين يومًا. داوم على وضع الزجاجة في الشمس. وفي القريب العاجل سيتحول إلى عجينة. لمّا يصنع قرص من هذا ويعطى لأي شخص، فسوف يفقد الوعي على الفور ويكون بلا إحساس.

كانوا في أغلب الأحيان يستعملون وصفة أخرى؛ لأنها التي فضّلها ابن سينا:

خذ أجزاء متساوية من بذور الهنبان والأفيون ونبات بنت القنصل وبذور عرق السوس. اطحن كل منهم على حدة واخلط الكل معًا في الهاون. ضع بعضًا من المزيج على أي نوع من الطعام، ومن يأكل منه ينام على الفور.

وعلى الرغم من الشك الذي ساور روب بأن الجوزجاني استاء من علاقته بابن سينا، سرعان ما كان منشغلًا باستخدام جميع أدوات الجراحة. اعتقد طلاب الجوزجاني الآخرون أن المتدرب الجديد حصل على أكثر من نصيبه في العمل المختار وأصبحوا متجهمين عابسين، وأفصحوا عن غيرتهم تجاه روب عن طريق التذمر والشتائم. لم يأبه روب بذلك؛ لأنه كان يتعلم أكثر مما كان يجرؤ على الحلم. وبعد ظهر أحد الأيام، بعد أن أجرى لأول مرة بمفرده العملية التي أبهرته أكثر من غيره في الجراحة - إضْجَاع العَدَسة التي أصابها العمى بسبب إعتام عدسة العين - حاول أن يوجه شكره للجوزجاني، لكن الجراح قاطعه بفظاظة.

«لديك موهبة في الجراحة، إنها موهبة لا يمتلكها الكثير من الطلاب، وتعليماتي الخاصة تتسم بالأنانية؛ لأنني سأحصل على قدر كبير من العمل منك».

لقد كان ذلك صحيحًا. ويومًا بعد يوم أجرى عمليات بتر، ورتق (خياطة غرز) كل أنواع الجروح، والجس والقرع والتربيت على البطن لتخفيف ضغط السوائل المتراكمة في التجويف الصّفاقيّ، وإزالة البواسير، وإزالة الدوالي. . .

قال ميردين بذكاء في حين كانا يجلسان معًا في منزل ميردين ذات مساء

وهما يلعبان لعبة الشطرنج: «أعتقد أنك بدأت تحب الجراحة كثيرًا». وفي الغرفة المجاورة، أصغت فارا في حين وضعت ماري الصغيرين حتى يخلدا إلى النوم وكانت تتغنى بتهويدة بالغيلية الأيرلندية، لغة الاسكتلنديين.

اعترف روب: «لقد انجذبت إلى الجراحة». وفي الآونة الأخيرة، فكّر في أن يصبح جراحًا بعد حصوله على لقب (حكيم). وفي إنجلترا، كان الجراحون أقل مكانة من الأطباء، ولكن في بلاد فارس كان الناس يخاطبون الجرّاحين بلقب خاص (الأستاذ) وكانوا يتمتعون باحترام جمّ ويرتعون في رغد من العيش.

لكن كان لديه تحفظات. «الجراحة مرضية حتى الآن، لكننا مقيدون بإجراء الجراحة على الجلد فحسب. يعتبر الجزء الداخلي من الجسد لغزًا تناقلته الكتب التي يربوا عمرها عن ألف عام، نحن لا نعرف شيئا تقريبًا عن الجسم من الداخل».

قال ميردين بهدوء: «هذا ما يجب أن يكون عليه الأمر»، وأخذ واحد من الرخ مع أحد الجنود خاصته. «المسيحيون واليهود والمسلمون يتفقون على أنه من الخطيئة انتهاك قدسية الجسم البشري».

«أنا لا أتحدث عن انتهاك القدسية، أنا أتحدث عن الجراحة، أتحدث عن التشريح. لم يقوض القدماء علمهم بتحذيرات الخطيئة، والقليل الذي نعرفه الآن جاء من الإغريق الأوائل، الذين كانوا يتمتعون بالحرية لفتح الجسد ودراسته. قاموا بتشريح الموتى ولاحظوا كيف خلق الإنسان وكيف يتشكل من الداخل. للحظة وجيزة في تلك الأيام الغابرة أضاء تألقهم كل الطب، ثم سقط العالم في الظلام». لقد فكّر في الأمر ولاقى الهزيمة في لعبة الشطرنج؛ لذلك سرعان ما استولى ميردين على الرخ الآخر وواحد من جماله.

قال روب بإسهاب وهو مكتوف الأيدي: «أعتقد أنه خلال كل هذه القرون الطويلة من الجهل المظلم، كانت هناك همم صغيرة وسرية».

الآن جذب انتباه ميردين الذي انصب تركيزه واهتمامه على رقعة الشطرنج.

«الرجال الذين يتمتعون بالقوة لتشريح الموتى خلسة، الذين يتحدون الكهنة ليقوموا بعمل الرب بصفتهم أطباء».

حدّق ميردين. «يا إلهي، سوف يعاملون معاملة السحرة».

«لم يكونوا قادرين على كشف معرفتهم، لكن على الأقل كانوا قادرين على اكتساب المعرفة لأنفسهم».

بدا الآن ميردين منزعجًا.

ابتسم له روب. قال بلطف: «لا، لن أفعل». «أجد صعوبة في التظاهر بأنني يهودي، أنا ببساطة أفتقر إلى ضروب الشجاعة والجرأة الضروريتين».

قال ميردين باقتضاب: «يجب أن نظهر الامتنان على النعم الصغيرة». لقد أصبح ضجرًا ومنشغلًا بما فيه الكفاية لدرجة أنه لعب الآن بغير إتقان، حيث تخلى عن فيل وحصانين في تتابع سريع، لكن روب لم يتعلم بعد ما يكفي عن التضييق وممارسة الضغط لتحقيق النصر. حشد ميردين قواته بسرعة وبهدوء، وفي غضون عشرات الحركات، ولشعوره بالاستياء من روب اضطر مرة أخرى إلى تجربة «الشاهترينج» (الهزيمة)، محنة الملك.

54

توقعات ماري

لم يكن لماري صديقة غير فارا، لكن الصديقة اليهودية كانت كافية. تعلمت المرأتان الجلوس لساعات والتحدث مع بعضهما، والتواصل بينهما كان خاليًا من الأسئلة والأجوبة التي تتسم بها معظم المحادثات الاجتماعية. وفي بعض الأحيان كانت ماري تتحدث وتصغي فارا إلى حديثها باللغة الغيلية التي لم تفهمها، وأحيانًا تتحدث فارا باللغة العبرية غير المفهومة لماري.

كانت الكلمات غير مهمة بشكل غريب. المهم هو اللعب على العاطفة من خلال ملامح الوجه، وتعبيرات الأيدي، ونبرة الصوت، والأسرار التي تتناقلها الأعين.

وهكذا شاركتا مشاعرهن وكان ذلك ميزة بالنسبة لماري؛ لأنها تحدثت عن أشياء لم تكن لتذكرها لشخص كانت تعرفه لفترة قصيرة جدًا. كشفت عن حزنها على فقد أبيها، ووحدتها وعزلتها في القداس المسيحي، وشوقها الجارف عندما استيقظت من حلمها بالمرأة الشابة الجميلة جورا كولين التي كانت فيما مضى، ثم اضطرت إلى الاستلقاء في منزل صغير في الحي اليهودي، أشبه بمخلوق ضعيف وبغيض، تسلل الإدراك إلى ذهنها بأن والدتها وافتها المنية منذ فترة طويلة. وتحدثت عن أشياء لم تكن لتذكرها مهما طالت صداقتها مع فارا: كيف أحبّته كثيرًا لدرجة أنه تسبب أحيانًا في رعشة لها لا تستطيع السيطرة عليها، من اللحظات التي غمرتها فيها الرغبة بالدفء إلى درجة أنها لأول مرة فهمت ما يعتري

المهْر في هياجها، وكيف أنها لن تشاهد كبشًا يعتلي نعجة مرة أخرى دون التفكير بكل كيانها في روب، ومذاقه في فمها، ورائحة جسمه القوي الدافئ في أنفها، الامتداد السحري الدافئ لزوجها الذي يجعلها معه كأنما يناضلان من أجل تغلغله في صميم جسدها.

لم تكن تعرف ما إذا كانت فارا تتحدث عن مثل هذه الأشياء، لكن عينيها وأذنيها أخبراها أن ما تحدثت عنه زوجة ميردين في وقت مبكر كان حميميًّا ومهمًّا، وأصبحت المرأتان المختلفتان مرتبطتين بوشائج الحب والاحترام المتزايدين، رابطة صداقة.

وذات صباح ضحك ميردين وربّت على كتف روب في ابتهاج وفرح. «لقد أطعتما الوصية أن تتكاثرا، إنها تنتظر طفلًا، أيها الكبش الأوروبي!»

«ليس الأمر كذلك!»

قال ميردين بحزم: «بل الأمر كذلك». «سوف ترى، في هذا فارا ليست مخطئة أبدًا».

وبعد مرور يومين، امتقع وجه ماري بعد تناول طعام الفطور وتقيأت الطعام والشراب، مما تطلّب من روب تنظيف الأرضية الترابية وكشطها وإحضار الرمال الجديدة. وفي ذلك الأسبوع بدأت تعاني من القيء باستمرار، ولمّا لم تأتها دورتها الشهرية، لم يساورها شك. لا ينبغي أن يكون الأمر مفاجئًا؛ لأنهما كانا يمارسان الحب دون كلل أو ملل؛ لكنها بدأت منذ فترة طويلة تعتقد أن الرب ربما لم يبارك هذا الزواج.

كانت فترات حيضها في العادة صعبة ومؤلمة وكانت مسرورة بالتخلص منها، لكن الغثيان المتكرر جعل التبديل صفقة غير ذي قيمة. أمسك روب رأسها ونظّفه عندما كانت مريضة وفكر في الطفل القادم بمزيج من المشاعر المتضاربة من الفرح والقلق، متسائلًا بعصبية عن نوع المخلوق

الذي سينمو من بذرته. وهو الآن يجرّد زوجته من ثيابها بحماسة أكثر من أي وقت مضى؛ لأن العالم الذي بداخله شَرفَ بفرصة ملاحظة التغييرات وصولًا إلى أدق التفاصيل، اتساع الهالات وتصبغها باللون الأرجواني في حلمتيها، وامتلاء ثدييها بدرجة ملحوظة، والانحناء اللطيف للبطن، وإعادة ترتيب التعبيرات الناتجة عن التورم الخفيف في فمها وأنفها. أصرّ روب أنه يجب عليها الاستلقاء على بطنها حتى يتمكن من الحكم على تراكم الدهون في وركيها وردفيها، والتورم الخفيف في ساقيها. وفي البداية استمتعت ماري بالاهتمام لكنها فقدت صبرها رويدًا رويدًا.

تذمّرت وقالت: «أصابع القدم». «ماذا عن أصابع القدم».

فحص قدميها بجدية وذكر أن أصابع القدم لم تتغير.

مرَغّبات الجراحة لدى روب أصابها العطب بسبب العدد المتزايد من الخصْيان.

صار الإخصاء أمرًا مألوفًا، وكان يجرى نوعان من الإخصاء. عانى الرجال الوسيمون المختارون لحماية مداخل حرم النساء، حيث لا يكون لديهم اتصال يذكر بنساء المنزل، من فقدان الخصيتين فحسب. وأما فيما يتعلق بالخدمة العامة داخل الحرم، كرّم الرجال القبيحون بأقساط مدفوعة مقابل مثل هذه التشوهات مثل الأنف المهشّم أو المنفر بشكل طبيعيّ، والفم مشَوَّه الشّكْل، والشفاه الغليظة، والأسنان السوداء أو غير المنتظمة؛ من أجل جعل هؤلاء الرجال عاطلين تمامًا عن وظائفهم الجنسية، حيث استؤصلت أعضاؤهم التناسلية تمامًا واضطروا إلى حمل ريشة لاستخدامها كلما أرادوا أن يتبولوا.

وفي كثير من الأحيان خضع الغلمان للإخصاء. وفي بعض الأحيان يرسلون إلى مدرسة لتدريب الخصيان في بغداد، حيث يتلقون تعليم

ما ليكونوا مغنين وموسيقيين أو مترسخين تمامًا في ممارسات الأعمال التجارية أو في الشراء والإدارة، وتحويلهم إلى خدم ذوي قيمة عالية، وممتلكات قيّمة مثل العبد المجبوب الذي يعمل لدى ابن سينا ويدعى واصف.

كانت أساليب الإخصاء أساسية؛ حيث يمسك الجراح في يده اليسرى الشيء المراد بتره، وكان يمسك بشفرة حادة في يده اليمنى، ويزيل الأجزاء بمسحة واحدة للشفرة؛ لأن السرعة كانت ضرورية. وفي الحال توضع كمادة من الرماد الدافئ في منطقة النزيف، ويتغير الذكر بشكل دائم.

وقد أوضح له الجوزجاني أنه عندما يجرى الإخصاء بوصفه عقوبة، ففي بعض الأحيان لا توضع كمادات من الرماد ويسمح للمريض بالنزف حتى الموت.

عاد روب إلى المنزل ذات مساء ونظر إلى زوجته وحاول ألا يفكر في أن أيًا من الرجال أو الصبيان الذين أجرى لهم عمليات جراحية لن يجعل امرأة تنتفخ بالحياة. وضع يده على بطنها الدافئ الذي لم ينتفخ كثيرًا بعد.

قالت: «قريبا سيكون بطني مثل البطيخ الأخضر».

«أريد أن أراه عندما يصير بطيخًا».

لقد ذهب إلى المكتبة وقرأ عن الأجنة. كتب ابن سينا أنه بعد إغلاق الرحم على نطْفَة الرّجل، تتشكل الحياة على ثلاث مراحل، وفقًا لما قاله شيخ الأطباء، في المرحلة الأولى تتحول المضغة إلى قلب صغير، في المرحلة الثانية تظهر مضغة أخرى وتتطور إلى الكبد، وفي المرحلة الثالثة تتشكل جميع الأجهزة الرئيسية.

قالت ماري: «لقد وجدت كنيسة».

«كنيسة مسيحية؟» قال واندهش عندما أومأت. لم يكن يعرف بوجود كنيسة في أصفهان.

وفي الأسبوع السابق، ذهبت هي وفارا إلى السوق الأرمينية لشراء الحنطة. لقد اتخذتا مسارًا خاطئًا ودخلتا زقاقًا ضيقًا تفوح منه رائحة البول، وصادفت كنيسة الملاك ميخائيل.

«الكاثوليك الشرقيون؟»

أومأت برأسها مرة أخرى. «إنها كنيسة صغيرة حزينة، يحضرها عدد محدود من أفقر العمال الأرمن. لا شك في أنه يمكن التسامح معه لأنه أضعف من أن يشكل تهديدًا». لقد عادت بمفردها مرتين لتقف وتحسد الأرمن المتشحين بالأسمال البالية الذين دخلوا إلى الكنيسة وخرجوا منها.

«القدّاس سيكون بلغتهم، لم نتمكن حتى من ترديد الترانيم».

«لكنهم يحتفلون بالقربان المقدس، المسيح موجود على مذبحهم».

«سوف نجازف بحياتي للحضور. اذهبي إلى المعبد اليهودي مع فارا للصلاة، لكن صلّي صلواتك الصامتة. وعندما أكون في المعبد اليهودي، أصلي ليسوع والقديسين».

رفعت رأسها ولأول مرة يراها وقد رَمضت عيناها.

قالت مغتاظة: «لست بحاجة إلى يهود للسماح لي بالصلاة».

وافقه ميردين على رفض الجراحة كمهنة. «الأمر لا يتعلق بالإخصاء فحسب، على الرغم من أن هذا الأمر فظيع جدًّا. ولكن في الأماكن التي لا يوجد فيها المتدربون الطبيون لخدمة محاكم الملالي، يطلب من الجرّاح

رعاية السجناء بعد العقوبات. ومن الأفضل استغلال معرفتنا ومهاراتنا ضد الأمراض والأوجاع بدلًا من تقليم الأعقاب والجذوع التي يمكن أن تكون أطرافًا وأعضاء صحية».

وهو يجلس في شمس الصباح الباكر على الدرج الحجري للمدرسة، تنهّد ميردين عندما أخبره روب عن ماري وتوقها إلى الكنيسة. «يجب أن تصلي معها عندما تكون بمفردك، ويجب أن تأخذها إلى أهلك بمجرد أن تتمكن من ذلك».

أومأ روب برأسه، وهو يتفحص الرجل الآخر بعناية. كان ميردين يشعر بالمرارة والكراهية عندما كان يعتقد أن روب يهودي رفض ديانته، ولكن منذ أن عرف أن روب كان شخصًا آخر، أظهر جوهر الصداقة.

قال روب ببطء: «هل فكرت كيف يدّعي كل أناس من مختلف الديانات أن لديهم الإله الذي يفتح آذانًا صمًّا وقلوبًا غلفًا؟ نحن وأنت والإسلام - يقْسم كل واحد أنه الدين الحق، هل يمكن أن نكون جميعًا على خطأ؟»

قال ميردين: «ربما نحن الثلاثة على حقّ».

شعر روب بفيض من المحبة والمودة. وقريبًا سوف يصبح ميردين طبيبًا وسيعود إلى عائلته في مسقط، وعندما يصير روب حكيمًا سوف يعود هو أيضًا إلى موطنه، مما لا شك فيه أنهما لن يجتمعا مرة أخرى.

ولّما التقت عيناه بعيني ميردين كان متأكدًا من أن صديقه يشاركه أفكاره.

«هل سنرى بعضنا في الجنة؟»

حدّق فيه ميردين بجدية. «سوف ألتقي بك في الجَنَّة».

«هل هذا قسم مقدس؟»

ابتسم روب. «قسم مقدس».

تشابك معصماهما.

قال ميردين: «أعتقد أن الفاصل بين الحياة والجنة مثل النهر». «إذا كان هناك العديد من الجسور التي تعبر النهر، فهل ينبغي أن يكون قلق الرب الشديد من الجسر الذي يختاره المسافر؟»

قال روب: «لا أعتقد ذلك».

افترق الصديقان بحفاوة وهرع كل منهما إلى عمله.

جلس روب في قسم الجراحة مع اثنين آخرين من المتدربين واستمع إلى الجوزجاني يحذرهما من ضرورة التكتم على العملية التي سوف يقومون بإجرائها. لم يفصح عن هوية المريضة من أجل حماية سمعتها، لكنه أفصح أنها كانت إحدى قريبات رجل قوي ذي بأس شديد ومشهور، وأنها مصابة بسرطان الثدي.

وبسبب استشراء المرض وخطورته، فإن الحظر الديني المعروف باسم «العورات» - التي حرّمت على أي شخص باستثناء زوج المرأة من النظر إلى جسدها من العنق إلى الركبة - سوف يتعين التغاضي عنها حتى يكون في مكنتهم إجراء الجراحة.

كانت المرأة محاطة بالمهدئات والمسكنات والنبيذ وحملت إليهم وهي فاقدة الوعي. كانت مكتملة التكوين وثقيلة، ولها خصلات من الشعر الأشيب تتسلل من القماش الذي كان يكبح رأسها. كانت ترتدي حجابًا فضفاضًا ومسجاة بالكامل باستثناء ثدييها اللذين كانا ضخمين ولينين ومتهدلين؛ مما يدل على أن المريضة لم تعد شابة صغيرة.

أمر الجوزجاني كل واحد من المتدربين بجس كلا الثديين بلطف

لمعرفة ما يشبه ورم الثدي. كان من الممكن اكتشافه حتى بدون الفحص باللمس، وهو نمو مرئي في جانب الثدي الأيسر، بطول إبهام روب وثلاثة أضعاف ثخانته.

كان مهتمًّا جدًّا بالمشاهدة؛ لم يرَ قط ثديًا بشريًّا مفتوحًا من قبل. انبجس الدم حيثما ضغط الجوزجاني مشرط الجراحة على اللحم اللين وقطع أسفل قاع كتلة الورم، راغبًا في استئصاله بالكامل. تأوهت المرأة وعمل الجراح بسرعة، حريصًا كل الحرص على الانتهاء قبل أن تفيق وتستيقظ.

رأى روب أن الجزء الداخلي من الثدي يحتوي على عضلات، ولحم رمادي خلوي، وتكتلات من الدهون الصفراء مثل تلك الموجودة في دجاجة محشوة. ومن الواضح أنه استطاع أن يصنع العديد من القنوات اللبنية وردية اللون التي تجري للانضمام إلى الحلمة مثل فروع النهر التي تندمج في خليج ما. لعل الجوزجاني قد شقّ إحدى القنوات، وانبجس سائل مخضب بالحمرة من الحلمة مثل قطرة من الحليب الوردي.

كان الجوزجاني قد أزال الورم وخاط الجرح بسرعة. إذا كان مثل هذا الشيء ممكنًا، لكان روب قد قال إن الجرّاح كان متوترًا.

قال لنفسه إنها ذو صلة بالشاه، ربما عمة، ربما حتى المرأة ذاتها التي أخبره الشاه عنها في الكهف، العمة التي هيأت علاء شاه للحياة الجنسية.

كانت تئن وهي مستيقظة تمامًا تقريبًا، وحملت بعيدًا بمجرد إغلاق الجرح في الثدي.

تنهّد الجوزجاني. «لا يوجد علاج، السرطان سيقتلها في النهاية، لكن يمكننا أن نحاول إبطاء تفاقمه». رأى ابن سينا في الخارج وذهب للإبلاغ عن العملية الجراحية في حين نظّف المتدربون حجرة الجراحة.

وسرعان ما دلف ابن سينا إلى غرفة الجراحة وتحدّث بإيجاز إلى روب، وهو يربّت على كتفه قبل أن يتركه.

لقد أصابه الذهول مما قاله له شيخ الأطباء. غادر غرفة الجراحة وسار باتجاه خزانة الشرف؛ حيث كان ميردين يؤدي عمله. التقيا في الممر القادم من الصيدلية. رأى روب في وجه ميردين كل المشاعر التي كانت تتمازج بداخله. «وأنت كذلك؟»

أومأ ميردين برأسه. «خلال أسبوعين؟»

«نعم». لقد ذاق الذعر. «لست مستعدًّا للامتحان يا ميردين. لقد أمضيت هنا أربع سنوات، لكنني هنا منذ ثلاث سنوات فقط ولست مستعدًّا بعد».

نسي ميردين توتره وابتسم. «أنت جاهز، لقد كنت حلاقًا جراحًا وكل من علّموك يعرفون ما أنت عليه، لدينا أسبوعان للدراسة معًا، وبعد ذلك سوف نتقدم للامتحان».

55

صورة طرف مفصلي

ولد ابن سينا في قرية صغيرة تسمى أفشنه، بالقرب من قرية خرمايثان، وبعد ولادته بقليل انتقلت عائلته إلى مدينة بخارى المتاخمة. وفي حين أنه كان لا يزال صبيًّا صغيرًا، رتّب له والده -جامع الضرائب- أن يدرس مع معلم القرآن ومعلم الأدب، وعندما بلغ العاشرة من عمره، كان قد استظهر القرآن بأكمله واستوعب الكثير من الثقافة الإسلامية. التقى والده ببائع خضروات متجول متعلم يدعى محمود عالم الرياضيات، الذي علّم الطفل الحساب والجبر الهندي. وقبل أن ينمو شعر وجه الشاب الموهوب لأول مرة، كان قد تأهل في الشَّريعَة وتعمق في إقليدس وعلم الهندسة، وتوسّل معلموه إلى أبيه للسماح له بتكريس حياته للدراسة وطلب العلم.

بدأ دراسة الطب في الحادية عشرة من عمره، وعندما بلغ السادسة عشرة كان يلقي محاضرات أمام الأطباء الأكبر سنًّا ويقضي معظم وقته في ممارسة الشَّريعَة. كان طوال حياته فقيهًا وفيلسوفًا، لكنه أشار إلى أنه على الرغم من أن هذه المساعي المكتسبة حظيت بالاحترام والتوقير من قبل المجتمع الفارسي الذي عاش فيه، فلا شيء يهم الفرد أكثر من رفاهيته وما إذا كان سيعيش أم سيموت. وفي سنّ مبكرة، جعل القدر ابن سينا خادمًا لطائفة من الحكام الذين استغلّوا عبقريته لحماية صحتهم، وعلى الرغم من أنه كتب عشرات المجلدات عن الشريعة والفلسفة، وهو ما يكفي ليفوز بلقب المعلم الثاني الحنون (المعلم الأول هو النبي محمد)، وبصفته شيخ الأطباء اكتسب الشهرة والمداهنة والتملق الذي تبعه أينما سافر وارتحل.

وفي أصفهان، حيث صار على الفور من لاجئ سياسي إلى حكيم باشا شيخ الأطباء، وجد مدينة بها عدد كبير من الأطباء، والمزيد من الرجال يصبحون باستمرار معالجين عن طريق الادعاء البسيط. وقلة من هؤلاء الأطباء المحتملين تقاسموا العلم الضئيل أو افتقروا إلى العبقرية الفكرية التي ميزت دخوله إلى الطب، وأدرك أن هناك حاجة إلى طريقة لتحديد من هو مؤهل لممارسة الطب ومن هو غير مؤهل. ولأكثر من قرن من الزمان، أجريت الامتحانات للأطباء المحتملين في بغداد، وأقنع ابن سينا المجتمع الطبي في أصفهان أن الامتحان المؤهّل في المدرسة يجب أن يعدّ الأطباء أو يرفضهم، على أن يكون هو نفسه شيخ الممتحنين الطبيين.

كان ابن سينا الطبيب الأول في الخلافة الشرقية والخلافة الغربية، لكنه عمل في بيئة تعليمية لم تكن تتمتع بمكانة المنشآت الكبرى. كان للأكاديمية في طلَيْطلَة دار العلوم، وللجامعة في بغداد مدرسة المترجمين، وكانت القاهرة تتباهى وتفتخر بتقاليد طبية عريقة وراسخة يعود تاريخها إلى عدة قرون. كان لكل من هذه المنشآت مكتبات شهيرة ورائعة. وفي المقابل، في أصفهان كانت هناك مدرسة صغيرة ومكتبة تعتمد على الأعمال الخيرية للمؤسسة الأكبر والأعرق في بغداد. وكان البيمارستان نسخة أصغر وأكثر شحوبًا من مستشفى أزودي الكبير في بغداد. كان يتعين وجود ابن سينا لتعويض غياب الحجم المؤسسي وغياب العظمة والأبَّهَة.

اعترف ابن سينا بخطيئة الكبرياء. وفي حين أن شهرته الخاصة كانت تعانق السماء بحيث لا يمكن المساس بها، كان حساسًا بشأن مكانة الأطباء الذين درّبهم وتخرجوا من تحت يديه.

وفي اليوم الثامن من شهر شوّال، أحضرت له قافلة قادمة من بغداد رسالة من ابن صبور ياقوت شيخ الممتحنين الطبيين في بغداد. كان ابن

صبور قادمًا إلى أصفهان وسوف يزور البيمارستان في النصف الأول من شهر ذي القعدة. كان ابن سينا قد التقى بابن صبور من قبل وتسلّح بجرأة إضافية ليصمد أمام التعالي والمقارنات المتعجرفة المستمرة لمنافسه في بغداد.

وعلى الرغم من كل المزايا الباهظة التي يتمتع بها الطب في بغداد، فقد كان يعلم أن الامتحان هناك غالبًا ما يكون معروفًا عنه أنه يتسم بالتساهل. ولكن هنا في البيمارستان يوجد متدربان في السنة الأخيرة رشيدان مثل أي شخص رآه. وعلى الفور عرف كيف يمكنه أن يبعث برسالة إلى المجتمع الطبي في بغداد عن نوعية الأطباء الذين صنعهم ابن سينا في أصفهان.

وهكذا، لأن ابن صبور ياقوت كان قادمًا إلى البيمارستان، فقد جرى استدعاء يسي بن بنيامين وميردين عسكري إلى دخول الامتحان الذي من شأنه أن يمنح أو ينكر حقهما في أن يطلق عليهما لقب «حكيم».

كان ابن صبور ياقوت كما ذكره ابن سينا؛ حيث جعل النجاح عينيه متعجرفتين قليلًا تحت جفنيه المنتفخين. ثمة شيب في شعره أكثر مما كان عليه عندما التقى الاثنان في همذان قبل اثني عشر عامًا، والآن يرتدي زيًّا مزخرفًا باهظ الثمن من أقمشة متعددة الألوان تدل على مكانته وثرائه، ولكن على الرغم من حياكتها ببراعة، لم تستطع أن تخفي حقيقة أن مقاس خصره زاد بشكل كبير منذ أيام شبابه. قام بجولة في المدرسة والبيمارستان بابتسامة على شفتيه وروح الدعابة العالية، وهو يتنهّد ويعلّق على أنه يجب توفير الرفاهية حتى يتمكن من التعامل مع المشكلات على نطاق صغير جدًّا.

بدا الزائر المتميز مسرورًا عندما طلب منه الجلوس في لجنة الامتحان التي من شأنها أن تمتحن اثنين من المتدربين المرشحين.

لم يكن لدى المجتمع الأكاديمي في أصفهان عمق من التميز، ولكن كان هناك تألق كاف في أعلى معظم التخصصات ليسهّل على ابن سينا اختيار أعضاء لجنة الامتحان التي من الممكن أن تحظى بالاحترام في القاهرة أو طلَيْطلَة. كان الجوزجاني هو من سيمتحن المتدربين في الجراحة. وسوف يمتحن الإمام يوسف جمالي إمام مسجد الجمعة المتدربين في علم أصول الدين. وموسى بن عباس الملا الذي كان ضمن طاقم الإمام ميرزا أبو قندراسه، وزير بلاد فارس، سيختبر المتدربين في الشريعة والفقه القانوني. وابن سينا نفسه سوف يختبر المتدربين في الفلسفة وفي الطب؛ حيث جرى تشجيع الزائر من بغداد بمهارة على طرح أصعب أسئلته.

لم يكن ابن سينا منزعجًا من حقيقة أن كلا المرشحين كانا يهوديين. كان بعض العبرانيين بالطبع بلداء قدّموا أطباء ضعاف العلم، لكن في تجربته كان أكثر أهل الذمة فطنة وذكاءً الذين أتوا إلى دراسة الطب قطعوا نصف المسافة بالفعل؛ لأن الاستقصاء والحجج الفكرية والتنقيب عن الحقائق والبراهين كانت جزءًا أصيلًا في دينهم، وجزءًا متأصلًا فيهم في دور الدراسة خاصتهم قبل وقت طويل من أن يصبحوا متدربين طبيين.

جرى استدعاء ميردين عسكري لدخول الامتحان أولًا. كان الوجه الرقيق طويل الفكين متيقظًا لكنه هادئ، وعندما سأل موسى بن عباس سؤالًا في قوانين الملكية أجاب دون مبالغة بل قدّم إجابة شافية ووافية، مستشهدًا بأمثلة وسوابق في الفقه والشريعة. جلس المتحنون الآخرون أكثر استقامة قليلًا عندما دمجت أسئلة يوسف جمالي القانون مع علم أصول الدين، لكن أي اعتقاد بأن المرشح كان في وضع غير موات؛ لأنه لم يكن مؤمنًا حقيقيًّا بدّدته عمق الإجابات التي قدّمها ميردين. استخدم أمثلة من حياة النبي محمد وأشار إلى الأفكار بوصفها حجج وبراهين، وهو يقرّ بالاختلافات القانونية والاجتماعية بين الإسلام ودينه حيثما

كانت ذات صلة، وحيثما لم تكن ذات صلة، وهو يفرغ التوراة في إجاباته كدعم للقرآن، أو يفرغ القرآن في إجاباته كدعم للتوراة. لقد استخدم عقله كسيف، كما اعتقد ابن سينا، في التظاهر والتدارك، بين الحين والآخر يتعمق في نقطة بإحكام كما لو كان مصنوعًا من الفولاذ البارد. كان علمه متعدد الجوانب لدرجة أنه على الرغم من أن كل رجل استمع إلى سعة اطلاعه وإلمامه شاركه بدرجة أكبر أو أقل، فإن سعة اطلاعه أذهلتهم وشغلتهم بالإعجاب بالعقل الملهم.

ولّما حانت فرصته، أطلق ابن صبور وابلًا من الأسئلة؛ سؤالًا بعد سؤال مثل السهام. كانت الأجوبة تعطى دائمًا دون تردد، لكنها لم تكن قط رأي ميردين عسكري. وبدلًا من ذلك، كانت الاستشهادات من ابن سينا أو الرازي أو جالينوس أو أبقراط، ومرة واحدة اقتبس ميردين من كتاب الحمى المنخفضة لابن صبور ياقوت، وظلّ وجه الطبيب القادم من بغداد فاقد الحس وهو يجلس ويستمع إلى كلماته تعود إليه.

استغرق الامتحان وقتًا أطول بكثير من المعتاد، حتى صمت المرشح أخيرًا ورمقهم بنظرة ولم تنطلق المزيد من الأسئلة من أفواه الرجال الجالسين.

أذن ابن سينا بالانصراف لميردين بلطف وطلب حضور يسي بن بنيامين.

يمكن أن يشعر بتغيير طفيف في الجو العام لّما دخل المرشح الجديد، طويل القامة وعريض المنكبين بما يكفي ليكون تحديًا بصريًّا للرجال الأكبر سنًّا والزاهدين، ببشرة لفحتها شموس الغرب والشرق، وعينين بنيتين واسعتين تفيضان ببراءة حذرة، وكسر شديد في الأنف جعله يبدو وكأنه حامل رمح أكثر من كونه طبيبًا. بدت يداه الكبيرتان المربعتان مصممتين لثني الجديد، لكن ابن سينا رآهما يضربان وجوهًا محمومة بلطف شديد ويقطعان لحمًا نازفًا بمبضع متحكم فيه تمامًا. لطالما كان

عقله عقل طبيب.

تعمّد ابن سينا إحضار ميردين أولاً إلى الاختبار؛ لتمهيد الطريق ولأن يسي بن بنيامين كان مختلفًا عن المتدربين الذين اعتاد عليهم هؤلاء الأساطين، بسمات وصفات لا يمكن الكشف عنها في الامتحان الأكاديمي. لقد غطّى المواد الدراسية بشكل مذهل في ثلاث سنوات لكن علمه لم يكن بعمق العلم لدى ميردين. كان لديه حضور طاغ، حتى الآن في تململه وتوتره.

كان يحدّق في موسى بن عباس وبدا عليه القلاع الفموي حول الفم، وأكثر توترًا من ميردين عسكري.

لاحظ مساعد الإمام قندراسه التحديق الذي كان شبه فظّ، وفجأة بدأ الملا بسؤال سياسيّ لم يكلف نفسه عناء إخفاء تبعاته.

«هل الملكوت ملك للمسجد أم ملك للقصر؟»

لم يرد روب بثقة عمياء سريعة كالثقة المثيرة للإعجاب في ميردين. وقال بلكنته الفارسية: «لقد ورد تفسير ذلك في القرآن». «قال الله تعالى في السورة الثانية (سورة البقرة): «وَإِذْ قَالَ رَبكَ لِلْمَلَائكَةَ إني جَاعلٌ في الْأَرْض خَليفَةً». وفي السورة الثامنة والثلاثين (سورة ص) وردت مهمة الشاه في هذه الكلمات: «يٰدَاود إنَّا جَعَلْنٰكَ خَليْفَةً في الْأَرْض فَاحْكمْ بَيْنَ النَّاس بالْحَقّ وَلَا تَتَّبع الْهَوٰى فَيضلَّكَ عَنْ سَبيْل اللّٰه إنَّ الَّذيْنَ يَضلّونَ عَنْ سَبيْل اللّٰه لَهمْ عَذَابٌ شَديْدٌ بمَا نَسوا يَوْمَ الْحسَاب». لذلك الملكوت لله».

بإعطاء الملكوت لله، تجنب في الرد الاختيار بين الإمام قندراسه وعلاء شاه، ولكنها كانت إجابة جيدة وذكية. لم يجادل الملّا.

طلب ابن صبور من المرشح التفريق بين الجدري والحصبة.

اقتبس روب من أطْروحَة الرازي بعنوان تقسيم الأمراض، مشيرًا إلى أن الأعراض الأولية للجدري تشمل الحمَّى والألم في الظهر، في حين أن في الحصبة تكون الحمَّى أشد وطأة وهناك ضَائقَةٌ نَفْسيَّة ملحوظة. واستشهد بابن سينا كما لو لم يكن الطبيب موجودًا، قائلًا إن المجلد الرابع من كتاب القانون في الطب يشير إلى أن طفح الحصبة يظهر عادةً دفعة واحدة، في حين أن طفح الجدري يظهر بقعة تلو الأخرى.

لقد كان ثابتًا وقوي الإرادة ولم يحاول أن يستخلص إجابته من تجربته مع الطاعون، كما كان يمكن لرجل أقل أن يفعل ذلك. عرفه ابن سينا أنه كفؤٌ، من بين جميع الممتحنين كان هو والجوزجاني فقط على علم بأهمية الجهد الذي بذله هذا الرجل في السنوات الثلاث الماضية.

«ماذا لو كان يجب عليك علاج الركبة المكسورة؟» سأل الجوزجاني.

«إذا كانت الساق مستقيمة، يجب على المرء أن يثبتها بربطها بين جبيرتين ثابتتين. إذا كانت الساق مَثنيّة، فقد ابتكر الحكيم جلال الدين طريقة للتجبير تفيد الركبة جيدًا بالإضافة إلى الكوع المكسور أو المخلوع». ثمة ورقة وحبر وريشة بجانب الزائر من بغداد، وانتقل المرشح لهذه المواد. قال: «يمكنني رسم طرف مفصلي حتى تتمكنوا من رؤية موضع الجبيرة».

استولى الرعب على ابن سينا. وعلى الرغم من أن الذمي كان أوروبيًّا، فمن المؤكد أنه يجب أن يعرف أن الشخص الذي رسم صورة لشكل بشري، كليًّا أو جزئيًّا، سيحترق في جحيم مستعر. كان من الخطيئة والإثم للمسلم المتزمت والمتشدد أن يلقي حتى نظرة إلى مثل هذه الصورة. وبالنظر إلى وجود الملا والإمام، فإن الفنان الذي استهزأ بالله وأغوى أخلاقهم بإعادة خلق الإنسان، سيذهب إلى محكمة إسلامية ولن يمنح أبدًا لقب حكيم.

أبدى الممتحنون الجالسون ضروبًا مختلفة من المشاعر؛ حيث أظهر وجه الجوزجاني أسفًا شديدًا، ارتجفت ابتسامة صغيرة على فم ابن صبور، وكان الإمام مَذْهوشًا، والملا استشاط غضبًا بالفعل.

طارت الريشة بين المحبرة والورقة، ورسمت جرحًا طفيفًا بسرعة وفي لحظة فات الأوان واكتمل الرسم. سلّم روب الورقة لابن صبور وفحصها الرجل القادم من بغداد، منكرًا ذلك بشفافية تامة. ولّما مرَّرَها إلى الجوزجاني لم يستطع الجرّاح كبح ابتسامة عريضة.

يبدو أن تمريرها إلى ابن سينا استغرق وقتًا طويلًا، لكن عندما وصلت الورقة رأى الطرف المصور كذلك.

«طرف مفصلي! الغصن المثني لشجرة المشمش بلا شكّ؛ لأنه كان مرسومًا في شكل ورقة شجر. أخذت العجْرَة المعقودة بذكاء مكان مفصل الركبة المعطوب، وظهرت نهايات الجبيرة مربوطة جيدًا فوق العقدة وتحتها.

لم تطرح أسئلة بخصوص الجبيرة.

نظر ابن سينا إلى يسي، مع مراعاة إخفاء حبه وارتياحه. كان يستمتع كثيرا بإلقاء نظرة على وجه الزائر من بغداد. وبعد أن استقرّ في جلسته، بدأ يسأل طالبه السؤال الفلسفي الأكثر إثارة للاهتمام الذي يمكنه صياغته، مؤمنًا أن بيمارستان أصفهان بوسعه التباهي والتفاخر أكثر من ذلك بقليل.

* * *

أخذت روب رجفة لّما عرف أن موسى بن عباس هو مساعد الوزير، والذي كان قد رآه في اجتماع سري مع سفير السلاجقة، ولكنه سرعان

ما أدرك أنه هو نفسه في تلك المناسبة لم يلاحظه أحد، وأن وجود الملا في لجنة الامتحان لم يشكّل أي تهديد خاص.

وعندما انتهى الامتحان، ذهب مباشرة إلى جناح البيمارستان الذي كان يزخر بالمرضى الذين خضعوا للجراحة؛ لأنه اتفق مع ميردين على أن مجرد الجلوس والانتظار معًا لمعرفة مصيرهما سيكون أمرًا صعبًا للغاية. كان من الأفضل قضاء الفاصل الزمني في العمل، وانغمس في مجموعة متنوعة من المهام، مثل فحص المرضى، وتغيير الضمادات، وإزالة الغرز، وهي الوظائف المألوفة التي اعتاد عليها.

مرّ الوقت، ولكن لم ترد أنباء.

وفي الوقت الحاضر، دخل جلال الدين إلى قسم الجراحة؛ مما يعني بالتأكيد أن الممتحنين قد انصرفوا وتفرقوا. شعر روب بإغراء طرح السؤال عما إذا كان جلال الدين يعرف قرارهم لكنه لم يستطع دفع نفسه للقيام بذلك. وعندما أعطى جلال تحيته المعتادة، لم يبد أي إشارة إلى أنه كان على علم بآلام الانتظار التي يعاني منها المتدرب.

وفي اليوم السابق، كانا يعملان معًا من أجل راع تعرّض للهجوم بوحشية من ثور. تعضعض ساعد الرجل مثل الصفصاف في موضعين عندما داس عليه الحيوان، ثم نطح الثور ضحيته قبل أن يصرفه الرعاة الآخرون.

قلّم روب العضلات والكتف والذراع الممزقة وخاطهم، كما قام جلال الدين بتجبير الكسور ووضع الجبائر. والآن بعد أن فحصا المريض، اشتكى جلال الدين أن الضمادات البالية الضخمة أحدثت تضامًّا غليظًا مع الجبائر.

«هل يصعب إزالة الضمادات؟»

لقد حار روب؛ لأن جلال الدين كان يعرف أكثر. «ألم يحن الوقت بعد». هزّ جلال الدين كتفيه. نظر إلى روب بحفاوة وابتسم. قال: «يجب أن تكون كما تقول يا حكيم»، وخرج من الغرفة.

هكذا جرى تبليغ روب، أصابته دوخة لدرجة أنه وقف لفترة دون أن يحرّك ساكنًا.

وفي النهاية استحقه بعمله المعتاد. بقي أربعة مرضى من الرجال يتعين رؤيتهم، ومضى يجبر نفسه على تقديم الرعاية كطبيب جيد، كأن عقله كان قرص الشمس وهو يشع دفئًا وحرارة على كل واحد منهم من خلال بلّورة تركيزه.

ولكن عندما انتهى من الاعتناء بآخر مريض، سمح لمشاعره أن تحلق به مرة أخرى، وهي أقصى درجات المتعة التي عاشها في حياته. كان يسير في حالة سكر تقريبًا، وأسرع إلى المنزل ليخبر ماري.

56

أمر مفروض

أصبح روب حكيمًا قبل ستة أيام من يوم ميلاده الموافق الرابع والعشرين، واستمرت الحماسة لأسابيع. ولرضاه، لم يقترح ميردين أن يذهبا إلى الميادين للاحتفال بمكانتهما الجديدة كأطباء، ودون المبالغة في ذلك، شعر أن التغيير في حياتهما كان مهمًّا للغاية بحيث لا يمكن تمييزه بأمسية سكر حتى الثمالة. وبدلًا من ذلك، التقت العائلتان في منزل ميردين عسكري وابتهجتا معًا لتناول طعام العشاء.

ذهب روب وميردين لمشاهدة بعضهما أثناء أخذ قياسهما لحياكة عباءة الحكيم السوداء والقلنسوة.

«هل ستعود إلى مسقط الآن؟» سأل روب صديقه.

«سأبقى هنا لعدة أشهر أخرى؛ لأن هناك أشياء لا يزال يتعين عليّ تعلمها في خزانة الشرف. وأنت؟ متى ستعود إلى أوروبا؟»

«ماري لا تستطيع السفر بأمان أثناء الحمل. من الأفضل أن ننتظر حتى يولد الطفل ويكون قويًّا بما يكفي لتحمل الرحلة». ابتسم لميردين. «ستحتفل عائلتك في مسقط عندما يعود طبيبهم إلى موطنه. هل بعثت بخطاب يفيد أن الشاه يرغب في شراء لؤلؤة عظيمة منهم؟»

هزّ ميردين رأسه. «تسافر عائلتي في قرى صائدي اللؤلؤ وتشتري لآلئ صغيرة في حجم البذور. ثم يبيعونها بكأس القياس للتجار الذين يبيعونها بدورهم حتى تطرز في الثياب التي تحاك. ستتعرض عائلتي

لضغوط شديدة في الواقع لجمع المبالغ اللازمة لشراء لآلئ رائعة. ولن يكونوا متحمسين للتعامل مع الشاه؛ لأن الملوك نادرًا ما يكونون مستعدين لدفع ثمن اللؤلؤ الكبير الذي يحبونه جيدًا. من جانبي، يحدوني الأمل أن علاء شاه يكون قد نسي «الثروة الثمينة» التي قد أفاء بها لأقاربي».

وقال علاء شاه: «استفسر أعضاء البلاط الملكي بعد حضورك آخر أمسية وافتقدوا حضورك».

أجاب كريم: «كنت أعتني بامرأة مريضة للغاية». وفي الحقيقة لقد ذهب إلى ديسبينا. لقد استولى اليأس على كل واحد منهم. كانت هذه هي المرة الأولى منذ خمس ليال التي تمكن فيها من الهروب من المطالب المزيفة لرجال الحاشية الفاسدين، وكان يقدّر كل لحظة معها.

قال علاء شاه بحزن: «هناك مرضى في بلادي يحتاجون إلى حكمتك».

«نعم، جلالتك».

أوضح علاء شاه أن كريم كان يحظى بحظوة العرش، لكن كريم كان قد سئم بالفعل من أفراد عائلات النبلاء الذين كثيرًا ما يأتون إليه بشكاوى متخيلة، وقد فاته العمل الصاخب والحقيقي في البيمارستان، حيث يمكن أن يكون ذا نفع له وفائدة بصفته طبيبًا بدلًا من زخرف الحياة.

ومع ذلك، في كلّ مرة كان يركب إلى دار الفردوس ويحييه الحراس، يغدو وافدًا جديدًا. كان يفكر كثيرًا في مدى دهشة زكي عمر عندما يرى ابنه يركب مع ملك بلاد فارس.

". . . أنا أخطط يا كريم»، قال الشاه.

«التخطيط لأحداث كبرى».

«يضحك الله جلا وعلا إليها».

«يجب أن ترسل أصدقاءك اليهوديين لمقابلتنا. سوف أتحدث إلى ثلاثتكم جميعًا».

قال كريم: «نعم، جلالتك».

بعد مرور صباحين فيما بعد، جرى استدعاء روب وميردين للخروج مع الشاه. منحا الفرصة ليكونا مع كريم، الذي كان وقته مشغولًا هذه الأيام برفقة علاء شاه. وفي باحة إسطبل دار الفردوس، استعرض الأطباء الثلاثة الشبان الامتحانات، بناءً على رغبة كريم، وعندما أتى الشاه امتطوا مَطاياهم وراء الشاه إلى الريف.

لقد كانت الآن نزهة مألوفة، باستثناء أنهم في هذا اليوم كانوا يتدربون لفترة طويلة على الرمية الْبَارثيَّة، والتي لم يتمكن سوى كريم وعلاء شاه من أدائها وهما يراودهما أملًا عابرًا في النجاح. تناولوا طعامهم جيدًا ولم يتحدثوا عن أي شيء جاد حتى جلس الأربعة في الماء الدافئ في بركة الكهف وهم يشربون الخمر.

وكان ذلك عندما أخبرهم علاء شاه بهدوء أنه سوف يشن غارة كبيرة خارج أصفهان في غضون خمسة أيام.

«شن غارة إلى أين، جلالتك؟» سأل روب.

«حظائر الأفيال في جنوب غرب الهند».

«مولاي، هل يمكنني الذهاب معك؟» سأل كريم في الحال وعيناه تلتمعان.

قال علاء شاه: «يحدوني الأمل أن ترافقوني أنتم الثلاثة».

تحدّث إليهم بإسهاب، وهو يتملقهم من خلال إطلاعهم على أكثر خططه سرية. وفي الغرب من الواضح أن السلاجقة كانوا يستعدون

للحرب. وفي غزنة كان السلطان محمود أكثر شراسة من أي وقت مضى، وفي النهاية كان لا بد من التعامل معه. كان هذا وقتًا لبناء علاء شاه لقواته. أفاد جواسيسه أن حاميَة هندية ضعيفة في مدينة المنصورة كانت تحرس العديد من الأفيال. ستكون الغارة مناورة تدريب قيمة، والأهم من ذلك، قد تزوده بحيوانات لا تقدر بثمن والتي -مشمولة برسالة- تكون أسلحة مخيفة يمكن أن تقلب موازين المعركة.

قال علاء شاه: «ثمة هدف آخر». امتدّت يده إلى غمده الملقى بجانب البركة وأخرج خنجرًا كان نصله من الفولاذ الأزرق غير المألوف، مزينًا بنقوش حلزونية طفيفة.

«معدن هذا النصل موجود فقط في الهند، إنه لا يشبه أي معدن لدينا، وهذا المعدن له حدّة تفوق حدّة الفولاذ خاصتنا ويحتفظ بحدّته لفترة أطول، إنه صلب للغاية، وسوف يقَطِّع إلى أسلحة معروفة. سنبحث عن سيوف مصنوعة من هذا الفولاذ الأزرق؛ لأنه إذا كان هناك ما يكفي منها، يمكن للجيش أن يغزو وينتصر». مرّر الخنجر حتى يتمكن كل واحد من فحص صلابته وحدته.

«هل ستأتون معنا؟» سأل الشاه روب.

كان كلاهما يعرف أنه أمر مفروض وليس طلبًا؛ لقد حان موعد استحقاق الدَّيْن وحان الوقت لروب لسداد دَيْنه.

قال وهو يحاول أن يبدو سعيدًا: «نعم، سآتي يا مولاي». شعر بدوّار خفيف فاق الذي ينتابه مع النبيذ واستطاع أن يشعر بتسارع نبضات قلبه.

«وأنت، أيها الذمي؟» قال علاء شاه لميردين.

كان ميردين شاحب الوجه. «جلالتك منحتني الإذن بالعودة إلى عائلتي في مسقط».

«الإذن! بالطبع لديك الإذن، والآن عليك أن تقرر ما إذا كنت سترافقنا أم لا» ، قال علاء شاه بصرامة.

انتزع كريم على عجل القربة المصنوعة من جلد الماعز وصبّ الخمر في أقداحهم. «تعال إلى الهند يا ميردين».

قال على مهل: «أنا لست جنديًّا». نظر إلى روب.

«تعال معنا يا ميردين»، سمع روب نفسه الإلحاح. «لقد ناقشنا أقل من ثلث الوصايا، يمكننا الدراسة معًا على طول الطريق».

قال كريم: «سنحتاج إلى جراحين». «وعلاوة على ذلك، هل يسي هو اليهودي الوحيد الذي التقيته في حياتي والذي يرغب في القتال؟»

كانت إغاظة قاسية مهذبة، لكن شيئًا ما شدّ عضلات عيني ميردين.

«هذا ليس صحيحًا. قال روب: «كريم، تبدو أحمق وأنت مخمور».

قال ميردين: «سأذهب»، وصاحوا مسرورين.

قال علاء شاه بارتياح: «فكر في الأمر». «أربعة أصدقاء معًا يغارون على الهند!»

***

ذهب روب إلى نيتكا القابلة بعد ظهر ذلك اليوم. كانت امرأة نحيفة وصارمة، وليست طاعنة في السن، لها أنف حاد في وجه شاحب وعينين جافتين جامدتين. قدّمت له المرطبات على مضض ثم استمعت دون دهشة لما قاله. شرح فقط أنه مضطر للسفر بعيدًا. أخبره وجهها أن

المشكلة جزء من عالمها الطبيعي: يسافر الزوج، وتترك الزوجة في المنزل تعاني وحدها.

«لقد رأيت زوجتك، إحدى الأغيار ذات الشعر الأحمر».

«إنها مسيحية أوروبية، نعم».

حدّقت نيتكا بتأمل وجدية ثم بدت وكأنها اتخذت قرارها. «وهو كذلك، سوف أعتني بها حتى يحين وقتها. إذا كانت هناك صعوبة، فسأعيش في منزلك خلال الأسابيع الأخيرة».

«شكرًا لك». أعطاها خمس عملات يدًا بيد، أربعة منها ذهب. «هل هذا يكفي؟»

«هذا يكفي».

وبدلًا من العودة إلى المنزل، غادر الحي اليهودي مرة أخرى وذهب دون دعوة إلى منزل ابن سينا.

ألقى عليه شيخ الأطباء التحية ثم أصغى إلى حديثه بجدية.

«ماذا لو انقضى الأجل في الهند؟ لقي شقيقي عليّ حتفه أثناء مشاركته في غارة مماثلة. ربما لم يخطر ببالك الاحتمال لأنك لا تزال في ريعان الشباب والقوة ولا ترى إلا الحياة لنفسك، ولكن ماذا لو انتزعك الموت؟»

قال بصرامة: «سأترك زوجتي وسأترك لها المال؛ قليله خاصتي، وكثيره من أبيها». «وإذا فاضت روحي، هل سترتب السفر إلى موطنها من أجلها ومن أجل الطفل؟»

أومأ ابن سينا برأسه. «يجب أن تكون حريصًا على جعل هذا العمل غير ضروري بالنسبة لي». ابتسم. «هل فكرت في اللغز الذي تحديتك أن

تخمنه؟»

وقف روب متعجبًا أن مثل هذا العقل لا يزال بإمكانه ممارسة ألعاب صبيانية.

«لا، يا شيخ الأطباء».

«لا عليك. إن شاء الله، سيكون لديك متسع من الوقت لتخمين اللغز». تغيرت نبرته وقال بفظاظة: «والآن، اقترب مني يا حكيم، أعتقد أنه من الأفضل أن نتحدث لبعض الوقت عن علاج الجروح».

قال روب لماري وهما في فراشهما حتى ساعة متأخرة. وأوضح أنه لم يكن هناك خيار؛ أنه تعهّد بسداد الدين لعلاء شاه وأن انضمامه إلى الغارة كان أمرًا وتكليفًا على أي حال. وقال: «من نافلة القول، لا أنا ولا ميردين سنطارد مغامرة مجنونة إذا أمكن تجنبها».

لم يخض في التفاصيل حول الحوادث المحتملة، لكنه أخبرها أنه رتّب لقدوم نيتكا لتقدم خدماتها الخاصة بعملية الولادة، وأن ابن سينا سيساعدها في حالة حدوث أي مشكلة أخرى.

لابد أنها شعرت بالرعب لكنها لم تستشط غضبًا. لقد اعتقد أنه لاحظ غصة في حلقها وثمة غضب في نبرة صوتها عندما طرحت الأسئلة، لكن ربما كان ذلك شعور بالذنب؛ لأنه أدرك في أعماق نفسه أن جزءًا منه كان متحمسًا للالتحاق بالجندية، سعيدًا ليعيش حلم الطفولة.

وذات مرة في الليل وضع يده برفق على بطنها وشعر بالجسد الدافئ الذي بدأ بالفعل في الظهور.

قالت في الظلام: «قد لا تتمكن من رؤية بطني بحجم البطيخة، كما قلت إنك تتمنى أن ترى».

قال لها: «بلا شك سأعود بحلول ذلك الوقت».

انطوت ماري على نفسها مع حلول يوم الرحيل، وأصبحت مرة أخرى المرأة الأكثر صلابة التي وجدها بمفردها وتحمي أباها المحتضر بشدة في وادي أحمد.

ولمّا حان وقت ذهابه كانت في الخارج تمسح حصانها الأسود، كانت جامدة العينين لأنها قبّلته ورمقته بعينيها وهو يغادر، امرأة فارعة تحمل جنينًا آخذًا في النمو يلتصق بجسمها الضخم الآن كما لو كانت متعبة على الدوام.

57

الجمّال

كان يمكن أن تكون قوة صغيرة لجيش، لكنها كانت قوة كبيرة لفرقة غارات؛ حيث اشتملت على ستمئة رجل يقاتلون على الخيول والجمال وأربعة وعشرين فيلًا. استولى الخووف على الحصان البني بمجرد ركوب روب إلى مكان التجمع في الميدان.

«سيعاد حصانك إليك عندما نعود إلى أصفهان، سنمتطي المطايا فقط التي جرى تدريبها على ألا تتعثر وتتقافز بسبب رائحة الفيلة».

سيق الحصان البني إلى قطيع سيؤخذ إلى الإسطبلات الملكية، ولتخفيف الرعب الذي استولى على روب ولتسرية ميردين، منح روب ناقة هزيلة رمادية اللون نظرت إليه ببرود وهي تمضغ طعامها، وشفتاها المطاطيتان تلتويان وشدقاها يطحنان الكلأ في اتجاهين متعاكسين.

وأعطى ميردين جملًا بنيًّا، لقد كان يركب الجمال طوال حياته، وأظهر لروب كيفية ليّ اللجام وإناخة الجمل أحاديّ السَّنام ليبرك من خلال ثني رجليه الأماميتين والهبوط على ركبتيه، ثم طي رجليه الخلفيتين والسقوط على الأرض. جلس الفارس على السرج الجانبي وهزّ اللجام وهو يصرّح بأمر آخر، ومدّد الحيوان نفسه وهو يعكس ترتيب بروكه.

كان عددهم مئتين وخمسين جنديًّا من جنود المشاة، ومئتي جندي على الخيول ومئة وخمسين على الجمال. جاء علاء شاه الآن، مشهد مهيب. كان فيله يفوق الأفيال الأخرى طول ياردة. كانت الخواتم الذهبية تزين الأنياب الحادة. جلس الفيّال بفخر على رأس الفيل الذكر ووجّه تقدمه

بأقدام محفورة خلف أذني الفيل. جلس الشاه منتصب القامة مرفوع الرأس في هودج مليء بالوسائد الوثيرة على ظهر الفيل المحدب الكبير، مشهد مهيب وهو في حلَّة من الحرير الأزرق الداكن وعمامة حمراء. زأر الرجال. ربما كان بعضهم يهتف لبطل السباق؛ لأن كريم امتطى صهوة فحل من الخيول العربية الأصيلة رمادي اللون مضطربًا بعينين متوحشتين، راكبًا خلف الفيل الملكي مباشرةً.

صاح الخووف بأمر أجش مدوٍ وهروَل حصانه خلف فيل الملك وحصان كريم، ثم اصطفت الأفيال الأخرى في الصف وخرجت من الميدان. ووراءهما جاءت الخيول ثم الجمال، ثم قطعان من مئات الحمير التي شقت أنوفها جراحيًّا حتى تتمكن من امتصاص المزيد من الهواء لمّا يصيبها الإعياء والإرهاق. كان جنود المشاة في آخر الصف.

ومرة أخرى، وجد روب نفسه على بعد ثلاثة أرباع طريق العودة في خط المسيرة، والذي بدا أنه مكانه المعتاد عند السفر مع التجمعات الكبيرة. وهذا يعني أنه كان عليه هو وميردين مواجهة سحائب مستمرة من الغبار؛ توقعًا لذلك، استبدل كل منهما عمامته بقبعة يهودي من الجلد، والتي وفرت حماية أفضل من الغبار والشمس.

وجد روب الناقة مذعورة. ولمّا بركت واستقر وزنه الكبير على ظهرها، علا هديرها ثم بدأت تئن وتتأوه وهي ترفع رجْلَيْهَا. لم يستطع تصديق ركوبه: لقد كان أعلى مما كان عليه عندما كان على ظهر الحصان؛ كان يترنح ويتمايل، وكان هناك القليل من الدهون واللحم في سنامها لتثبيته في مقعده.

ولمّا عبروا الجسر فوق نهر الحياة، رمقه ميردين بنظرة وابتسم. «عليك أن تتعلم أن تحبها!»، صاح لصديقه.

لم يتعلم روب قطّ أن يحب ناقته. ولّما أتيحت الفرصة للناقة بصقت عليه قطرات لزجة وعضّته مثل كلب هجين؛ لذلك كان عليه أن يربط شدقيها، واستهدفته بركلات شرسة إلى الوراء مثل التي يصنعها بغل قبيح. كان يأخذ حذره من الحيوان في جميع الأوقات.

كان يستمتع بالسفر مع الجنود في المقدمة وفي المؤخرة، كما لو كانوا مجموعة رومانية قديمة، وكان سعيدًا بتخيل نفسه جزءًا من فيلق يجلب نوعًا من التنوير الخاص به حيثما ذهب. تبدّد الخيال في وقت متأخر من بعد ظهر كل يوم؛ لأنهم لم يقيموا معسكرًا رومانيًّا أنيقًا. كان لعلاء شاه خيمته المفروشة بالسجّاد الناعم، فضلًا عن الموسيقيين والطهاة والخدم الموجودين بوفرة تحت إمرته لخدمته وتنفيذ أوامره. اختار الآخرون بقعة على الأرض ولفّوا أنفسهم بثيابهم. كانت رائحة إفرازات الحيوانات والرجال حاضرة على الدوام، وإذا وصلوا إلى جدول يكون كريهًا قبل أن يبرحوه.

وفي الليل، مستلقيًا في الظلام على الأرض الصلبة، واصل ميردين تعليمه الشريعة وفقًا لإله اليهود. ساعدهم التمرين المألوف للتعليم والتعلم على نسيان الانزعاج والتخوف. لقد راجعا عشرات الوصايا، وأحرزا تقدمًا ممتازًا مما جعل روب يلاحظ أن الذهاب إلى الحرب يمكن أن يكون بيئة مثالية للدراسة. بدا صوت ميردين الهادئ والأكاديمي بمثابة طمأنة بأنهما سوف يريان يومًا أفضل.

ولمدة أسبوع، استخدموا المؤَن الخاصة ثم اختفت جميع الذخائر، وفقًا للخطة. وجرى تكليف مئة من جنود المشاة بالبحث عن الطعام وتقدموا على المجموعة الرئيسية. لقد جابوا أقاصي الريف بمهارة وتكرر المشهد يوميًّا لرؤية الرجال وهم يسوقون قطعان الماعز أو قطعان الأغنام أو يحملون الطيور الناعقة أو يحملون المنتجات. اختير الأفضل للشاه ووزّع الباقي، بحيث طهي الطعام على أكثر من مئة

حريق كل ليلة وأكل الغزاة جيدًا.

أجريت زيارة طبية يومية في كل مخيم جديد، كان على مرمى البصر من خيمة الملك لتثبيط همة المتمارضين، ولكن لا يزال الصف طويلًا. وذات مساء أتى كريم إليهما هناك.

«هل ترغبا في العمل؟ قال روب.

«هذا محظور وحرام، سأبقى على مقربة من الشاه».

قال ميردين: «آه».

ابتسم كريم في وجهيهما ابتسامته المصطنعة. «هل تريدان المزيد من الطعام؟»

قال ميردين: «لدينا ما يكفي».

«يمكنني الحصول على ما تريدان، سوف يستغرق الوصول إلى حظائر الأفيال في مدينة المنصورة عدة أشهر، يمكنكما أيضًا أن تجعلا حياتكما في المسيرة مريحة قدر الإمكان».

فكّر روب في القصة التي رواها له كريم أثناء تفشي الطاعون في شيراز. عن كيفية قيام جيش عابر بمقاطعة همذان بوضع نهاية مريرة ومأساوية لوالدي كريم. وتساءل عن عدد الأطفال الذين سوف تهشّم رؤوسهم في الصخور حتى لا يتضوروا جوعًا بسبب مرور هذا الجيش.

ثم انتابه شعور بالخجل من عداوته تجاه صديقه؛ لأن الغارة على الهند لم تكن خطأ كريم. «هناك شيء أود أن أطلبه، يجب أن تُحفر الخنادق على الحدود الأربعة لكل مخيم جديد لاستخدامها كمراحيض». أومأ كريم برأسه.

جرى تنفيذ الاقتراح في الحال، بالإضافة إلى الإعلان عن أن النظام الجديد كان بأمر من الجراحين. لم يجعلهم ذلك مشهورين، ففي الوقت الحالي كلّف الجنود المنهكون كل مساء بحفر الخنادق، وأي شخص استيقظ في الليل يعاني من مغص يستبد بأمعائه كان لا بد أن يتعثر في الظلام بحثًا عن خندق. والمتمردون الذين يلقى القبض عليهم يوسعون ضربًا بالعصي. ولكن تضاءلت الرائحة الكريهة، وكان من الجيد ألا تقلق بشأن أن تتعثر قدماك بالوقوع في الفضلات البشرية أثناء مغادرة المخيم كل صباح.

رمقتهم معظم القوات بازدراء لطيف. لم يغب عن الملاحظ العام أن ميردين أبلغ فرقة الإغارة بدون سلاح، وهو يطلب من الخووف أن يصدر له عذرًا أخرق لسيف الحارس، والذي عادة ما ينسى حمله. كما أن قبعاتهما الجلدية تميزهما عن بعضهما، وكذلك عادتهما في الاستيقاظ مبكرًا والمشي من المخيم لارتداء شالات الصلاة وتلاوة الأدعية ولف زنانير جلدية حول أذرعهما وأيديهما.

كان ميردين مندهشًا. «لا يوجد يهود آخرون هنا للتدقيق والشك فيك، فلماذا تصلي معي؟» ابتسم عندما هزّ روب كتفيه. «أعتقد أن جزءًا صغيرًا منك أصبح يهوديًّا».

«لا». أخبر ميردين كيف ذهب، في اليوم الذي اتّخذ فيه هوية يهودية إلى كاتدرائية القديسة آيا صوفيا في القسطنطينية ووعد يسوع المسيح بأنه لن يرتد عن دينه أبدًا.

أومأ ميردين برأسه، ولم يعد يبتسم. لقد كانا حكيمين بما يكفي لئلا يخوضا في الموضوع. لقد كانا على دراية بأشياء لا يمكنهما الاتفاق عليها أبدًا؛ لأن كليهما نشأ على معتقدات مختلفة تتعلق بالرب والروح البشرية، لكنهما كانا راضيين عن تجنب هذه المزالق والمحاذير ومشاركة

صداقتهما كرجلين عاقلين وطبيبين والآن كجنديين مضطربين.

ولمّا وصلوا إلى مدينة شيراز، بترتيب مسبق، جاءهم الكيلونتر (قائد الشرطة) بالقرب من المدينة بقافلة محمّلة بطعام الدواب، وهي تضحية أنقذت حي شيراز من التجريد العشوائي على أيدي الغزاة. وبعد أن قدم الولاء والطاعة للشاه، احتضن الكيلونتر روب وميردين وكريم وجلسوا معه وشربوا الخمر وتذكّروا أيام الطاعون.

عاد روب وكريم معه حتى بوابات المدينة. وبالعودة إلى الوراء، استسلما لطريق ممهد وسلس والنبيذ يجري في عروقهما وبدآ يتسابقان بالجمال. كان سباق الجمال بمثابة اكتشاف لروب؛ لأن المشية المتمايلة والمتثاقلة تحولت إلى شيء آخر عندما ركض الجمل. تمددت خطوة الناقة بحيث صارت كل خطوة أشبه بقفزة دفع تحمل الناقة وراكبها عبر الهواء في مستوى ما، اندفاع سريع. جلس روب على سنامها بسهولة وتمتع بأحاسيس مختلفة؛ طاف، وحلّق، وصار جزءًا من الرياح.

لقد فهم الآن لماذا صاغ اليهود الفارسيون اسمًا عبريًّا للتنوع الذي تبناه عامة الناس؛ جمالا ساركا، الجمال الطائرة.

جاهدت الناقة الرمادية بشدة، ولأول مرة شعر روب بالعاطفة تجاهها. «تعالي يا صغيرتي! تعالي يا فتاتي! «صاح وهم يسارعون نحو المخيم.

فاز جمل ميردين البني، ولكن المنافسة تركت روب في حالة معنوية عالية. لقد طلب علفًا إضافيًّا من مربي الأفيال وأعطاه لها وعضته في ساعده. لم تقطع العضة الجلد لكنها كانت سيئة، وتركت كدمة أرجوانية سببت له الألم لعدة أيام، وكان ذلك عندما سمّى الناقة العاهرة.

58

الهند

تحت شيراز وجدوا طريق التوابل وتبعوه حتى، لتجنب التضاريس الجبلية الداخلية، انتقلوا إلى الساحل بالقرب من هرمز. وبالرغم من أن الطقس كان طقسًا شتائيًّا فإن هواء الخليج كان دافئًا ومعطرًا. وفي بعض الأحيان، بعد أن أقاموا المخيم في وقت متأخر من النهار، سبح الجنود وحيواناتهم في الملح الدافئ على الشواطئ الرملية الساخنة في حين كان الحراس يراقبون أسماك القرش بتوتر. ومن المرجح أن يكون الأشخاص الذين رأوهم الآن من السود أو البلوش مثل الفرس. وكانوا من طبقة الصيادين، أو ممن يقطنون في الواحات التي نشأت من الرمال الساحلية، ومن المزارعين الذين يزرعون التمر والرمّان. وكانوا يعيشون في خيام أو في منازل حجرية مغطاة بالملاط الطيني ذات أسقف مستوية، وبين الحين والآخر كان الغزاة يجوبون الوادي حيث تعيش العائلات في الكهوف. ورغم أن روب اعتقد أنها أرض قاحلة، لكن ميردين صار مبتهجًا؛ لأنهما كانا يسافران ويفحصان كل شيء بعيون ثاقبة.

ولمّا وطئت أقدامهما قرية الصيد في طوز، أخذ ميردين يد روب وقاده إلى حافة المياه. «هناك، على الجانب الآخر»، قال وهو يشير إلى الخليج الأزرق. «هناك مدينة مسقط. ومن هنا يمكن للقارب أن ينقلنا إلى منزل أبي في غضون ساعات قلائل».

كانت قريبة بشكل معذب، لكن في صباح اليوم التالي غادروا المخيم وابتعدوا عن عائلة عسكري في كل خطوة.

وبعد شهر تقريبًا من مغادرتهم أصفهان، انتقلوا إلى مكان قرب بلاد فارس. جرت بعض التغييرات. أمر علاء شاه بوجود ثلاث مجموعات من الحراس حول المخيم ليلًا، وفي كل صباح تمرّر كلمة سر جديدة لكل رجل؛ حيث يقتل كل من حاول الدخول إلى مخيمهم دون معرفة الكلمة.

وبمجرد وصولهم إلى تربة أرض السند الأجنبية، أفسح الجنود المجال لغرائزهم في السلب والنهب، وذات يوم ساق الغزاة النساء إلى المخيم بالطريقة التي كانوا يسوقون بها الحيوانات. قال علاء شاه إنه سيسمح لهم بإدخال النساء في المخيم هذه الليلة فقط ثم لا أكثر. وسيكون من الصعب بما فيه الكفاية على ستمئة رجل الاقتراب من مدينة المنصورة سرًّا، ولم يكن يرغب في أن تتناثر الشائعات أمامهم بسبب سبي النساء اللواتي أسرن على طول طريقهم.

ستكون ليلة جامحة. رأوا كريم يختار أربع نساء بعناية فائقة.

«لماذا يحتاج إلى أربعة؟» سأل روب.

قال ميردين: «إنه لا يختارهم لنفسه».

لقد كان ذلك صحيحًا، لاحظوا أن كريم يسوق النساء إلى خيمة الملك.

«هل هذا هو السبب في أننا جاهدنا لمساعدته على اجتياز الامتحان ليصبح طبيبًا؟» قال ميردين في حسرة وبمرارة. لم يرد روب.

تبادل الغزاة النساء الأخريات من رجل إلى آخر، واختاروا القرعة للتناوب. وقفت المجموعات وشاهدت الشبق وابتهجوا، واستراح الحراس حتى يتمكنوا من القدوم والمشاركة في هذه الغنائم الأولى.

اقتعد ميردين وروب أحد الجانبين وبجوارهما جرة النبيذ المر المصنوعة من جلد الماعز، ولبعض الوقت حاولا الاستذكار والدراسة، لكن لم يكن

الوقت ملائمًا لمراجعة أوامر الرب وفرائضه.

قال روب متعجبًا: «لقد علمتني أكثر من أربعمئة وصية». «في القريب العاجل سوف ننتهي من دراسة الوصايا بأكملها».

«لقد أحصيتها فحسب، هناك حكماء كرّسوا حياتهم لمحاولة فهم التفسيرات والشروح على أمر واحد من أوامر الرب فحسب».

امتلأ الليل بالصياح وأصوات السكر.

ولسنوات، كان روب يتحكم في نفسه جيدًا في تجنب المشروبات الكحولية، لكنه الآن تناهبته العزلة وشعر برغبة جنسية أجّجها القبح الذي يحدث حوله، وكان يحسو الخمر بشغف شديد.

وفي وقت قصير صار شرسًا. أخذت ميردين دهشة واستولت عليه من أن هذا كان صديقه الوديع المتسامح العقلاني، ولم يلتمس له أي عذر. لكن جنديًا عابرًا اصطدم به واعترض على غضبه رغم أن ميردين استرضاه وضلله ودلّل روب مثل طفل مدلل وقاده إلى مكان النوم.

ولمّا استيقظ في الصباح ذهبت النساء ودفع ثمن حماقته بركوب الناقة وهو يعاني من صداع فظيع. لطالما زاد ميردين طالب الطب من ألمه من خلال استجوابه مطولًا، وأخيرًا خرج بفهم أكبر أن النبيذ بالنسبة لبعض الرجال يجب أن يعامل كما لو كان سمًّا وسحرًا.

لم يفكر ميردين في إحضار سلاح للمعركة لكنه أحضر رقعة الشطرنج وكانت نعمة، لأنهما كانا يلعبان كل مساء حتى تغشّاهما الظلام. والآن أصبحت المنافسات أخيرًا صعبة وقريبة المنال، وفي بعض الأحيان عندما حالفه الحظ، فاز روب.

وعلى رقعة الشطرنج، أعرب عن قلقه على ماري.

قال ميردين بمرح: «لا شك أنها بخير؛ لأن فارا تقول إن إنجاب الأطفال شيء فطري تعلمته النساء منذ أمد بعيد».

تساءل روب بصوت عالٍ عما إذا كان الطفل سيكون ذكرًا أم أنثى.

«منذ متى حدث الجماع بعد أن توقف حيضها؟»

هزّ كتفيه.

«كتب الحبيب أن الجماع إذا حدث في اليوم الأول إلى اليوم الخامس بعد توقف دم الحيض، يكون الجنين ذكرًا. وإذا حدث الجماع في اليوم الخامس إلى اليوم الثامن بعد انتهاء العادة الشهرية، يكون الجنين أنثى». تردّد، وعرف روب أن السبب هو أن الحبيب كتب أيضًا أنه إذا حدث الجماع بعد اليوم الخامس عشر، فهناك احتمال أن يكون الطفل خنثَى.

كما كتب الحبيب أن الآباء ذوي العيون البنية ينجبون الذكور في حين أن الآباء ذوو العيون الزرقاء ينجبون الإناث. ومع ذلك، فقد جئت من أرض حيث معظم الرجال بعيون زرقاء، وكانوا دائمًا ينجبون الكثير من الذكور»، قال روب برعونَة وَطَيْش.

وقال ميردين: «مما لا شك فيه أن الحبيب كتب فقط عن قوم عاديين مثل تلك الأقوام الموجودة في الشرق».

وفي بعض الأحيان، بدلًا من لعب لعبة الشطرنج، قاما بمراجعة تعاليم ابن سينا حول علاج جرحى الحروب، أو قاما بفحص الإمدادات الخاصة بهما وتأكدا من مدى استعدادهما كجراحين. كان من حسن الحظ أنهما فعلا ذلك، ففي إحدى الأمسيات تلقّيا دعوة إلى خيمة علاء شاه لتناول طعام العشاء مع الملك والإجابة عن أسئلته حول استعدادهما. كان كريم هناك يُحيّي أصدقاءه في ضيق وضجر، وسرعان ما اتضح أنه قد تلقى

أمرًا باستجوابهما والحكم على كفاءتهما.

أحضر الخدم الماء والمناشف ليغسلوا أيديهم قبل الأكل. غمس علاء شاه يديه في وعاء ذهبيّ منقوش بشكل جميل وجففهما بمناشف زرقاء شاحبة مصنوعة من الكتان تحتوي على خيوط ذهبية منقوش عليها كلمات قرآنية.

قال كريم: «أخبرونا كيف ستعالجان الجروح العميقة».

أخبر روب ما علمه إياه ابن سينا: يجب غلي الزيت وسكبه في الجرح ساخنًا قدر الإمكان، لدرء القيح والأمزجة الفاسدة.

أومأ كريم برأسه.

كان علاء شاه يستمع في تبلد، والآن أعطى تعليمات صارمة بأنه إذا أصيب هو نفسه بضربة قاتلة، فعليهم أن يعطوه جرعة من المنومات لتخفيف الألم في اللحظة ذاتها بعد أن يؤمه الملا في الصلاة الأخيرة.

كان الطعام بسيطًا وفقًا للمعايير الملكية؛ حيث جمع بين الدجاج المشوي المثير للعاب والخضر الصيفية على طول الطريق، لكنه كان معدّ بشكل أفضل من الطعام الذي اعتادا عليه، وكان يقدّم على أطباق. وبعد ذلك، في حين كان ثلاثة موسيقيين يعزفون السنطور، اختبر ميردين علاء شاه في لعبة الشطرنج ولكن كان من السهل أن يسحقه.

لقد كان تغييرًا مرحبًا به في روتينهم، لكن روب لم يكن غير سعيد بمغادرة الملك. لم يحسد كريم، الذي ركب في هذه الأيام الفيل المسمى «ذي» (ذي القرنين)، الجالس في الهودج مع الشاه.

لكن روب لم يفقد افتتانه بالأفيال وكان يراقبها عن كثب كلما سنحت له الفرصة. كان البعض محملًا بحزم من دروع الحرب شبيهة بالدروع

التي يرتديها المحاربون من البشر. حملت خمسة من الأفيال عشرين مروّض أفيال إضافيًّا أحضرهم علاء شاه كمروضين إضافيين في توقع مفعم بالأمل أنهم في رحلة العودة إلى أصفهان سينشغلون برعاية الأفيال المأخوذة من مدينة المنصورة. كان جميع مروّضي الأفيال هنودًا وقعوا في الأسر في غارات سابقة، لكنهم عوملوا معاملة ممتازة وكوفئوا بسخاء بما يتناسب مع قيمتهم، وكان الشاه واثقًا من ولائهم.

اهتمت الأفيال بأعلافها. وفي نهاية كل يوم، اصطحب الحراس الصغار ذوو البشرة الداكنة الأفيال إلى المروج الخضراء حيث ترعى العشب والأوراق والأغصان الصغيرة واللحاء، وغالبًا ما تحصل الأفيال على طعامها عن طريق اقتلاع الأشجار بسهولة مذهلة.

وفي إحدى الأمسيات، أثارت الأفيال التي تتغذى على طعامها من الأشجار الذعر في قلوب مجموعة من المخلوقات الصغيرة الصاخبة الشبيهة بالإنسان ذات الفراء والذيول، والتي عرفها روب من خلال قراءته أنها قرود. وبعد ذلك كانوا يرون القرود كل يوم، ومجموعة متنوعة من الطيور المكسوة بالريش اللامع والثعابين العابرة على الأرض وعلى الأشجار. قال الهارشا، مروّض فيل الشاه، لروب أن بعض الثعابين كانت قاتلة. «إذا تعرض شخص للدغة ثعبان، يجب استخدام سكين لفتح موضع اللدغة ويجب شفط كل السم بعيدًا وبصقه. ثم يذبح حيوان صغير ويربط الكبد بالجرح لسحب السم». حذّر الهندي من أن الشخص الذي يمتص السم يجب ألا يكون لديه قرحة أو جرح في فمه. «إذا كان لديه قرحة أو جرح في فمه، سيدخل السم إلى جسمه ويموت بعد منتصف وقت الظهيرة».

لقد مرّوا بتماثيل بوذية، وهي آلهة عظيمة جاثمة على الأرض سخر منها بعض الرجال بشكل مزعج ولكن لم ينجس أحد؛ لأنه على الرغم

من أنهم أخبروا بعضهم أن الله هو الواحد الأحد، ولكن ثمة تهديد خفي وممتع في الشخصيات الأزلية جعلهم يدركون أنهم كانوا بعيدين عن منازلهم. نظر روب إلى الآلهة الحجرية التي تلوح في الأفق، وحاربهم بتلاوة عجماء لصلاة ربانية من القديس ماثيو. وفي ذلك المساء، ربما حاربهم ميردين أيضًا؛ لأنه ملقى على الأرض محاط بالجيش الفارسي، وشرح درسًا مملوءًا بالحماسة على وجه الخصوص في الشريعة.

كانت تلك الليلة التي بلغا فيها الوصية خمسمئة وأربعة وعشرين، وكان ظاهرها فتوى محيرة: «فَإِن ارْتَكَبَ شَخْصٌ جَرِيمَةً تَسْتَوْجب عقوبَةَ المَوْت، فَقتلَ وَعلقَ عَلَى خَشَبَة، لَا تَتْركوا الجثَّةَ عَلَى الخَشَبَة فِي اللَّيل، بَل ادْفنوه فِي ذَلكَ اليَوْم. لأنَّ مَنْ يعَلَّق عَلَى خَشَبَة يَكون تَحْتَ لَعْنَة الله. فَلَا تنَجسوا الأرْضَ الَّتي يعْطيهَا إلَهكمْ ميرَاثًا لَكمْ».

أخبره ميردين أن يميز الكلمات بشكل جيد. «بسببهم، لا نفحص الموتى من البشر كما فعل الإغريق الوثنيون».

سرت قشعريرة في روب ونهض واقفًا.

قال ميردين: «يستخلص الحكماء والعلماء ثلاثة فتاوى من هذه الوصية». «أولًا: إذا كانت جثة المجرم المدان ستعامل بمثل هذا الاحترام، فمن المؤكد أنه ينبغي دفن جسد المواطن المحترم بسرعة دون التعرض للعار أو الخزي. ثانيًا: من أبقى جسده دون الدفن بين عشية وضحاها ينتهك الوصية السلبية. وثالثًا: يجب دفن الجسد كاملًا وغير مقطوع؛ لأنه إذا ترك المرء حتى كمية صغيرة من الأنسجة، يبدو الأمر كما لو أنه لم يدفن على الإطلاق».

قال روب متعجبًا: «ما حدث هذا يعدّ تشويهًا». «لأن هذه الشريعة تحظر ترك جثة القاتل غير مدفونة، فقد منع الأطباء المسيحيون

والمسلمون واليهود من دراسة ما يسعون إلى علاجه!»

قال ميردين بصرامة: «إنها أوامر الرب».

استلقى روب على ظهره وهو يتأمل الظلام. في الجوار، شخر أحد جنود المشاة بصوت عال وبعد ذلك الصوت المزعج، تَنَخَّع أحدهم وبصق. سأل نفسه للمرة المئة عما كان يفعله في وسطهم. «أعتقد أن منهجك هو عدم احترام الموتى، أن تلقي بهم في الأرض بهذه العجلة، وكأنك لا تستطيع الانتظار لإبعادهم عن الأنظار».

«هذا صحيح أننا لا نثير ضجة حول الجثة. وبعد الجنازة نؤبن ذكرى الشخص الميت ونعدد مآثره من خلال فترة تسمى شيفا (حداد)، قدرها سبعة أيام يمكث فيها المشيعون داخل منازلهم في حزن وتضرع بالدعاء».

ساد الإحباط، وشعر روب بأنه متوحش وهمجي كما لو كان قد استسلم لسطوة مشروب قوي. «هذا الكلام لا معنى له، إنها فريضة مجهولة».

«لا تقل إن كلمة الرب كلمة مجهولة!»

«أنا لا أتحدّث عن كلمة الرب، أنا أتحدّث عن تفسير الإنسان لكلمة الرب، هذا التفسير جعل العالم يقبع في الجهل والظلام لألف عام».

صمت ميردين للحظة. قال في نهاية المطاف: «موافقتك ليست مطلوبة». «ولا الحكمة ولا الحشمة. اتفاقنا كان بإيجاز أن تدرس شريعة الرب».

«نعم، وافقت على الدراسة، ولم أوافق على تعطيل عقلي أو الامتناع عن إصدار حكمي».

هذه المرة لم يرد ميردين.

وبعد يومين، وصلوا أخيرًا إلى ضفاف نهر عظيم، نهر السند. ثمة معبر

ضحل سهل العبور على بعد أميال قليلة شمالًا لكن مروضو الأفيال أخبروهم أنه في بعض الأحيان كان يحرسها الجنود؛ لذلك سافروا جنوبًا على بعد أميال قليلة إلى معبر آخر، أعمق ولكن لا يزال من الممكن عبوره. نظّم الخووف مجموعة من الرجال لبناء كتل عائمة. سبح أولئك الذين كانوا قادرين على السباحة إلى الضفة البعيدة مع الحيوانات، في حين أن أولئك الذين لم يكونوا سبّاحين اندفعوا على الكتل العائمة. سارت بعض الفيلة في قاع النهر، مغمورة بالمياه باستثناء خراطيمها التي امتدت خارج الماء وامتصت من خلالها الهواء! ولّما صار النهر عميقًا جدًّا للأفيال، سبحت الأفيال وكذلك الخيول.

وعلى الجانب الآخر، تجمّع الغزاة مرة أخرى وبدأوا في التحرك شمالًا مرة أخرى، نحو المنصورة، واجتاحوا المعبر الضحل الذي يحرسه الحراس.

استدعى كريم كلا من ميردين وروب للشاه، وركبوا مع علاء شاه على ظهر الفيل «ذي» (ذي القرنين) لبعض الوقت. كان على روب أن يركز على كلام الملك؛ لأن العالم كان مختلفًا فوق الفيل.

أبلغ الجواسيس علاء شاه في أصفهان أن المنصورة كانت تحت حراسة خفيفة. الراجا (الحاكم) العجوز في ذلك المكان، الذي كان قائدا شرسًا، وافته المنية مؤخرًا وقيل إن أبناءه كانوا جنودًا فقراء يفتقرون إلى حامياتهم.

قال علاء شاه: «الآن يجب أن أرسل الكشافة لتأكيد ذلك». «يجب أن تذهب؛ لأنه يخطر على بالي أن اثنين من التجار الذميين يمكن أن يقتربا من المنصورة دون إبداء ملاحَظَة».

قاوم روب الدافع لإلقاء نظرة على ميردين.

«يجب أن تبقي عينيك مفتوحتين بحثًا عن مصائد الأفيال بالقرب من

القرية. وفي بعض الأحيان، يقوم هؤلاء الأشخاص ببناء إطارات خشبية من خلالها تقذف مَسامير حديدية حادة، ودفنها في خنادق ضحلة خارج جدرانهم. هذه الأشياء تهلك الأفيال، ويجب أن نعلم أنها ليست قيد الاستخدام هنا قبل أن نلزم بهائمنا بالعبور».

أومأ روب برأسه، ولمّا يركب المرء فيلًا يبدو كل شيء ممكنًا. أخبر الشاه قائلًا: «نعم، جلالتك».

أقام الغزاة معسكرًا، حيث كانوا ينتظرون حتى عودة الكشافة. ترك روب وميردين جمالهما، والتي من الواضح أنها كانت حيوانات عسكرية تربى خصوصًا من أجل السرعة وليس من أجل حمل الأعباء، وركبا حمارين وسارا بعيدًا عن المعسكر.

كان صباحًا منعشًا ومشمسًا. وفي الغابة الناضجة، تتبارى الطيور المتوحشة وتنوح، ووبختهما مجموعة من القرود فوق شجرة.

«أود تشريح قرد».

كان ميردين لا يزال غاضبًا منه، وكان يجد متعة أقل في أن يصبح مراقبًا سريًّا مقارنة بكونه جنديًّا. «لماذا؟» سأل.

قال روب: «السبب، لاكتشاف ما يمكنني معرفته، حتى جالينوس شرّح القردة البربرية ليتعلّم».

«اعتقدت أنك عقدت العزم على أن تكون طبيبًا».

«هذا هو أن تكون طبيبًا».

«لا، هذا هو المشَرِّح. سأكون طبيبًا، أقضي كل أيامي في رعاية أهل مسقط في وقت المرض، وهذا ما يفعله الطبيب. لا يمكنك إصلاح عقلك سواء كنت جراحًا أو مشَرِّحًا أو طبيبًا أو . . قابلة تولّد النساء! أنت تريد

كل شيء! »

ابتسم روب لصديقه لكنه لم يقل شيئًا آخر. كان دفاعه محدودًا؛ لأن ما اتهمه به ميردين كان صحيحًا إلى حدّ كبير.

سافرا في صمت لبعض الوقت. مرّا مرتين على رجال هنود، ومزارع مغمور كاحليه في روث قناة للري على جانب الطريق، ورجلين على الطريق يسحبان بعناء عمودًا معلقًا منه سلة مليئة بالخوخ الأصفر. أشاد بهما الزوجان بلغة لم يستطع روب ولا ميردين فهمهما، وكان بإمكانهما الإجابة بابتسامة؛ كان روب يأمل ألا يمشيا بعيدًا عن المعسكر، لأن أي شخص يصادف الغزاة سيصبح في الحال عبدًا أو جثة.

وفي الوقت الحاضر، جاء نصف دزينة من الرجال يسوقون الحمير نحوهم حول منعطف في الطريق وابتسم ميردين في وجه روب لأول مرة؛ لأن هؤلاء المسافرين كانوا يرتدون قبعات يهودية من الجلد المترب مثل قبعاتهما، وقفاطين سوداء تشهد على الرحلات الشاقة.

«سلام!» نادى روب عندما كانوا قريبين بدرجة كافية.

«سلام عليكم! لقاء طيب».

وقال المتحدث باسمهم وزعيمهم إنه يدعى هليل نفتالي، تاجر توابل من الأهواز. كان صريحًا ودائم الابتسامة، وله شامة في شكل حبة فراولة زرقاء داكنة غطت الخد تحت عينه اليسرى، وبدا أنه مستعد لقضاء اليوم بأكمله في التقديم وقراءة الأنساب. كان أحد الرجال معه أخوه آري، والآخر ابنه، والثلاثة الآخرون أزواج بناته. لم يكن يعرف والد ميردين ولكنه سمع عن عائلة عسكري التي تشتري اللؤلؤ في مسقط، واستمر تبادل الأسماء واستمر حتى وصلوا أخيرًا إلى ابن عم نفتالي من بعيد كان ميردين على صلة به، وبالتالي شعر كلا الجانبين بالرضا وأنهم ليسوا

غرباء.

«هل أتيت من الشمال؟» قال ميردين.

«لقد كنا في ملتان. في مهمّة صغيرة»، قال نفتالي بارتياح شديد يشير إلى حجم الصفقة. «إلى أين تسافران؟»

«المنصورة. قال روب: رحلة عمل، القليل من هذا والقليل من ذاك، وأومأ الرجال باحترام جمّ. «هل تعرف المنصورة جيدا؟»

«هذا أمر طيب. في الواقع، قضينا الليلة الماضية هناك مع عزرا بن هوسيك، الذي يتاجر في الفلفل. رجل جدير دائمًا بضيافة ممتازة».

«إذًا هل لاحظت الحامية هناك؟» قال روب.

«الحامية؟» حدّق نفتالي بهما في حيرة.

«كم عدد الجنود المتمركزين في المنصورة؟» سأل ميردين بهدوء.

انقشع الغموض، وتراجع نفتالي إلى الوراء فزعًا مذعورًا. قال بصوت خفيض شبه هامس: «نحن لا نتورط في مثل هذه الأمور».

بدأوا في الاستدارة، وفي لحظة سوف يذهبون. عرف روب أن الوقت قد حان لإظهار الإيمان. «يجب ألا تستمروا في السير بعيدًا جدًّا في هذا الطريق معرضين حياتكم للخطر. ويجب ألا تعودوا إلى المنصورة».

حدّقوا فيه بوجوه شاحبة.

«إذًا، إلى أين نذهب؟» قال نفتالي.

«سق حيواناتك بعيدًا عن الطريق واختبئ في الأدغال. ابق مختبئًا طالما كان ذلك ضروريًا حتى تسمع عددًا كبيرًا من الرجال يمرون ويمضون.

بعد أن يمضوا جميعًا، ارجع إلى الطريق واذهب إلى الأهواز بأسرع ما يمكنك».

قال نفتالي في كآبة: «نشكرك».

«هل من الآمن لنا الاقتراب من المنصورة؟» سأل ميردين.

أومأ تاجر التوابل برأسه. «لقد اعتادوا على رؤية التجار اليهود».

كان روب غير راض. وهو يتذكر لغة الإشارة التي علمها إياه لوب في طريقه شرقًا إلى أصفهان، الإشارات السرية التي يدير بها التجار اليهود في الشرق معاملاتهم دون الانخراط في حديث، مدّ يده وأدارها، إشارة إلى كم العدد؟

حدّق فيه نفتالي. وأخيرًا وضع يده اليمنى على كوعه الأيسر، علامة المئات. ثم باعد كل الأصابع الخمسة. وأخفى إبهام يده اليسرى، وباعد أصابعه الأخرى ووضعها على كوعه الأيمن.

كان على روب أن يتأكد من فهمه. «تسعمئة جندي؟»

أومأ نفتالي برأسه. قال بسخرية هادئة: «سلام». قال روب: «سلام عليكم».

انتهت الغابة وتمكّنا من رؤية المنصورة. تقع القرية في واد صغير أسفل منحدر صخري. ومن ارتفاع كان بإمكانهما رؤية الحامية وترتيباتها: ثكنَات، ساحات تدريب، حظائر خيول، حظائر أفيال. أخذ روب وميردين ملاحظات دقيقة عن المواقع وحفظاها في ذاكرتهما.

القرية والحامية مطوقتان بحاجز واحد مصنوع من جذوع الأشجار الموضوعة في الأرض جنبًا إلى جنب، ويحتوي هذا الحاجز على قمم حادة لجعل المتاريس صعبة التسلق.

ولّما اقتربا من الجدار، لكز روب أحد الحمير بعصا، ثم تبعه صياح الأطفال وضحكهم، وتعقّب الحيوان حول الجدار الخارجي في حين ذهب ميردين في الاتجاه الآخر، زعمًا لإيقاف الحيوان والحيلولة دون هروبه.

لم تكن هناك أي علامة على وجود مصائد للأفيال.

لم يتثاقلا، لكنهما استدارا غربًا مرة أخرى. لم يستغرق الأمر وقتًا طويلًا للعودة إلى المعسكر.

وكلمة السر في النهار هي «المهدي» الذي يعني «المنقذ»، بعد أن أبلغاها لثلاثة صفوف من الحراس، صار مسموح لهم باتباع الخووف في حضرة الشاه.

قطّب علاء شاه جبينه لّما سمع عن تسعمئة جندي؛ لأنه كان منساق وراء جواسيسه لتوقع عدد أقل بكثير من المدافعين في المنصورة. ومع ذلك لم يتهيّب الأمر. «إذا كنا قادرين على استغلال عنصر المفاجأة، فستظل هذه ميزة لصالحنا».

وبالرسم على الأرض بالعصي، أشار روب وميردين إلى تفاصيل التحصينات وموقع حظائر الأفيال، في حين كان الشاه يستمع باهتمام ويضع خططه.

وطوال الصباح، كان الرجال يعتنون بالمعدات، وتزييت عدّة الخيول، وشحذ الشفرات إلى حواف ذات حدة مثالية.

أعطيت الأفيال النبيذ في أسطالها. «ليس كثيرًا، وقال هارشا (مروض الأفيال) لروب، الذي أومأ برأسه متعجبًا، يكفي فقط لجعلهم متجهمين ومستعدين للقتال. «يعطى لهم فقط قبل المعركة».

يبدو أن الحيوانات تفهم. كانت الأفيال تتحرك بلا كلل وكان على

سائقيها أن يكونوا متيقظين لأن دروع الأفيال كانت غير مكبوسة وملفوفة ومغروزة. وجرى تركيب سيوف طويلة وثقيلة خاصة ذات مغارز بدلًا من المقابض على الأنياب، وأضيفت الآن إلى هالة قوتها الغاشمة التي صارت قوة فتك وبطش جديدة شريرة.

كان هناك فوران في النشاط العصبي عندما أمر علاء شاه بإخراج القوة بأكملها.

تحركوا في طريق التوابل، ببطء شديد؛ لأن التوقيت كان كل شيء، وأرادهم علاء شاه أن يصلوا إلى المنصورة مع نهاية اليوم. لم يتكلم أحد. لم يقابلوا سوى عدد قليل من تعساء الحظ على طول الطريق، الذين أخذوا في الحال وقيّدوا وصاروا تحت حراسة جنود المشاة حتى لا يتمكنوا من إطلاق الإنذارات. ولّما وصلوا إلى المكان الذي شاهد فيه روب يهود الأهواز آخر مرة، فكر في الرجال المختبئين في مكان قريب وهم يستمعون إلى أصوات حوافر الحيوانات والأقدام الزاحفة وصرير دروع الأفيال.

خرجوا من الأدغال لّما تغشّى الظلام الدنيا، وتحت سحائب الكآبة، نشر علاء شاه قواته على طول قمة التل. وخلف كل فيل من الأفيال التي جلس عليها أربعة رماة ظهرًا لظهر، كان هناك رجال يحملون السيوف على الجمال والخيول، وبعد الفرسان يأتي جنود المشاة حاملين الرماح والسيوف المحدبة.

ابتعد فيلان عاريان من معدات القتال ويحملان فقط سائقيهما، بعيدًا فور إعطاء إشارة. شاهدهم أولئك القابعون فوق التل وهم ينزلون ببطء عبر الضوء الرمادي الخافت. وخلفهم، توهجت نيران الطهي في جميع أنحاء القرية في حين كانت النساء تجهزن طعام العشاء.

ولّما وصل الفيلان إلى الحاجز، أخفضا رأسيهما على العوارض الخشبية.

رفع الشاه ذراعه.

تحركت الأفيال إلى الأمام. حدث شرخ في الجدار ومجموعة من الضربات أسقطته. والآن أخفض الشاه ذراعه وبدأ الفرس في التحرك.

ركضت الأفيال أسفل التل في حماسة شديدة. ومن خلفهم، بدأت الجمال والخيول تتقافز ثم تهرول. ومن القرية تناهي إلى مسامعهم أولى الصيحات الخافتة.

كان روب قد سحب سيفه وكان يستخدمه لضرب الناقة على جنبيها، لكنها لم تكن بحاجة إلى حثّها على العجلة. ففي البداية كان هناك فقط قرع الحوافر السريع وموسيقا الدروع، ثم بدأ ستمئة رجل يصيحون صيحات المعارك وانضمت الحيوانات، والجمال تئن، والفيلة تنفخ أبواقها في صخب وهياج.

طال الشعر على مؤخرة عنق روب، وكان يعوي كالحيوان عندما اجتاح غزاة علاء شاه المنصورة.

59

الحدّاد الهندي

كان لدى روب انطباعات سريعة، مثل إلقاء نظرة خاطفة على طائفة من الرسومات. شقّت الناقة طريقها عبر البقايا المتصدعة للجدار مثل سهم مارق. وفي حين كان روب يتجول في القرية، منحه الخوف والرعب في وجوه الناس الذين يندفعون بشكل محموم إحساسًا غريبًا بالمَنعَة والقوة، ومعرفة جسدية نشأت من القوة والعار، مثل الشعور الذي عاشه منذ فترة طويلة في إنجلترا لمّا أثار حفيظة اليهودي العجوز.

ولّما وصل إلى الحامية ثمة معركة شرسة لا تزال مستمرة. قاتل الهنود على الأرض، لكنهم عرفوا الأفيال وكيفية مهاجمتها. وقد حاول جنود المشاة الذين كانوا يحملون رماحًا طويلة وخز الأفيال في عيونها ورأى روب أنهم نجحوا في مواجهة أحد الأفيال عديمة الدروع التي دفعت الجدار وحطّمته. اختفى مروض الأفيال، وقتل بلا شكّ، وفقد الحيوان كلتا عينيه ووقف ضريرًا وهو يرتجف، ويصرخ بطريقة مثيرة للشفقة.

وجد روب نفسه يحدّق في وجه رجل أسمر البشرة متجهّم، وهو يرى السيف المسحوب للوراء، ويشاهد النصل يتقدم للأمام. لم يتذكر أنه قرر استخدام سيفه عريض النصل مثل مدية فرنسية رفيعة، لقد دفعه حقًّا واستقر طرفه في حلق الرجل الهندي. سقط الرجل بعيدًا واستدار روب إلى رجل يصارعه من الجانب الآخر من أعلى الجمل وبدأ الهجوم.

كان لدى بعض الهنود فؤوس وسيوف وحاولوا إخراج الأفيال من خلال ضرب خراطيمها أو أرجلها الشبيهة بالأشجار، لكنها كانت منافسة غير

متكافئة. هاجمت الأفيال، وبسطت آذانها في حدة مثل الأشرعة. ومن خلال ثني خراطيمها إلى الداخل وطيّها تحت أنيابها المميتة المثبت فيها السيوف، اندفعت الأفيال مثل سفن صادمة، وسقطت على الهنود في انقضاضات بعثرت الكثيرين منهم. ورفعت الحيوانات العملاقة أقدامها عالية كما لو كانت ترقص رقصة وحشية، وطرحتها إلى أسفل تدق الأرض دقًّا حتى اهتزت الأرض. والرجال الذين وقعوا تحت الحوافر الضاغطة سحقوا مثل ثمار العنب التي وطئتها الأقدام.

لقد كان مسجونًا في جحيم القتل والأصوات المخيفة، والهمهمات، ونهيم الأفيال، والصراخ، والشتائم، والصيحات، وآهات الموت.

واجتذب (ذي القرنين)، كونه أكبر الأفيال والمزخرف ملكيًّا، مهاجمين أكثر من أي فيل آخر، ورأى روب أن الخووف يقف ويقاتل بالقرب من شاهه. فقد الخووف حصانه. كان يمسك بسيفه الثقيل، ويلفّه حول رأسه ويصيح بأغلظ الأيمان وأقبح الشتائم، في حين أن علاء شاه جلس على الفيل واستخدم قوسه الطويل.

احتدمت المعركة، وكان الرجال يتقاتلون بضراوة، وحوصروا في مذبحة خطيرة.

تعثرت الناقة وسقطت بعد أن تصدى أحد رماة الرماح إلى روب وركض، صادف ميردين مشيًا على الأقدام، وبدا السيف إلى جانبه وكأنه في غمده لم يستلّ. كان ميردين يمسك رجلًا جريحًا من تحت ذراعيه ويسحبه للخروج من القتال، غير آبه بأي شيء آخر.

كان المشهد أشبه بصدمة المياه المثلجة. رمش روب بعينه وانتزع لجام الناقة العاهرة، وانزلق قبل أن تبرك الناقة على ركبيتها حقًّا. ذهب إلى ميردين وساعده على حمل الرجل الصريع، والذي كان بالفعل يلهث

أنفاسه من جرح في رقبته.

ومنذ ذلك الوقت، نسي روب أمر القتل وعمل بصفته طبيبًا بجدّ واجتهاد.

وضع الجراحان الجرحى في حانة بالقرية، وأحضروهم واحدًا تلو الآخر في حين كانت المذبحة مستمرة. كل ما استطاعا فعله هو جمع أولئك الذين سقطوا؛ لأن إمداداتهما المعدة بعناية كانت على ظهور ستة من الحمير المتفرقة التي يعرفان مكانها، والآن لم يكن هناك أفيون أو زيت، ولا حزم كبيرة من الخرق النظيفة. ولمّا كانت هناك حاجة إلى أقمشة لوقف النزيف، مزّق روب أو ميردين خرقًا من ثياب أحد القتلى.

وسرعان ما تحول القتال إلى مذبحة ومعركة ضارية. وفوجئ الهنود، وفي حين كان نصفهم قادرين على العثور على الأسلحة واستخدامها، قاوم الآخرون بالعصي والحجارة. قتلوا بسهولة، لكن معظمهم قاتلوا بيأس في معرفة مؤكدة أنهم إذا استسلموا سيواجهون الإعدام المخزي أو العيش تحت نير العبودية أو التعرض للإخصاء في بلاد فارس.

أريقت الدماء في الظلام. استلّ روب سيفه وذهب حاملًا شعلة إلى منزل قريب. كان في الداخل رجل نحيل وضعيف وزوجته وطفلان صغيران. استدارت الوجوه الأربعة الداكنة نحوه والأعين ترمق سيفه. قال روب للرجل: «يجب أن تذهب وأنت متخفٍّ، في حين لا يزال هناك متسع من الوقت».

لكنهم لم يعرفوا الفارسية وقال الرجل شيئًا بلغته الغريبة.

ذهب روب إلى الباب وأشار في الظلام إلى الغابة البعيدة، ثم عاد وصنع بيده حركات سريعة لإطلاق النار.

أومأ الرجل برأسه. بدا مرعوبًا؛ ربما كان هناك وحوش في الغابة، لكنه جمع عائلته وفي الحال تسللوا من الباب.

وفي ذلك المنزل عثر روب على مصابيح، وفي منازل أخرى اكتشف الزيت والخرق وأعادهم إلى الجرحى.

وفي وقت متأخر من الليل، مع انتهاء القتال الأخير، قتل المبارزون الفارسيون جميع جرحى العدو وبدأت أعمال النهب والاغتصاب. سار هو وميريدن وقلة من الجنود في ميدان المعركة حاملين المشاعل. لم يحضروا الموتى أو أي شخص يحتضر بشدة، لكنهم بحثوا عن الفرس الذين يمكن إنقاذهم. وسرعان ما عثر ميردين على اثنين من الرحال الثمينة على ظهر الحمير، وباستخدام ضوء المصباح بدأ الجراحان في علاج الجروح بالزيت المغلي وخياطتها وتضميدها. قطعا الأطراف الأربعة المعطوبة، لكن جميع هؤلاء المرضى ماتوا ما عدا واحدًا، وهكذا أدّيا عملهما في ظلمة الليل المخيف.

كان لديهما واحد وثلاثون مريضًا، ولمّا بزغ ضوء الفجر على القرية المكفهرة، عثرا على سبعة جرحى آخرين مصابين ولكنهم أحياء.

وبعد الصلاة الأولى (صلاة الفجر)، نقل الخووف الأمر الذي مفاده أن الجراحين يجب عليهما الاعتناء بجروح خمسة أفيال قبل استئناف العمل على جروح الجنود. أصيب ثلاثة من الحيوانات بجروح في الساقين، وقد اخترق سهم أحد الأفيال من خلال أذنه، وبتر خرطوم فيل آخر؛ لذلك بناءً على توصية روب، يجب قتل الناقة والفيل المصاب بالعمى عن طريق رماة الرماح.

وبعد تناول طعام البيلاه الصباحي، انتقل مروضو الأفيال إلى حظائر الأفيال في المنصورة وبدأوا في فرز الحيوانات هناك، والتحدث معها بهدوء

وتحريكها عن طريق شد آذانها بشوكة عقفاء (منخس الفيل) تسمى «الأنكوشا».

«هنا، يا أبي».

«تحركي يا ابنتي. ثابت يا ابني! أروني ما يمكنكم فعله يا أطفالي».

«اركعي يا أمي، ودعيني أركب على رأسك الجميل».

ومع الصيحات الرقيقة، فصل مروضو الأفيال الحيوانات المدربة عن أقرانها التي كانت شبه جامحة. لم يتمكنوا من أخذ سوى الحيوانات المطيعة التي ستطيعهم في مسيرة العودة إلى أصفهان. سوف يطلق سراح الحيوانات البرية الأكثر شراسة ويسمح لها بالعودة إلى الغابة.

أصوات مروضي الأفيال تزاحم صوتًا منافسًا، وطنين الذباب؛ لأن الذباب قد عثر بالفعل على الجثث. وبعد فترة وجيزة، مع ارتفاع درجات الحرارة في النهار، ستصبح الرائحة غير محتملة. قتل ثلاثة وسبعون فارسًا. استسلم وعاش مئة وثلاثة فقط من الهنود، ولمّا عرض عليهم علاء شاه الفرصة ليصبحوا حمّالين عسكريين، قبلوا بارتياح شديد؛ في غضون سنوات قليلة قد يكسبون الثقة ويسمح لهم بحمل السلاح لبلاد فارس، وفضّلوا أن يكونوا جنودًا على أن يصبحوا خصيانًا. والآن كانوا يعملون في حفر مقبرة جماعية للقتلى الفارسيين.

نظر ميردين إلى روب. قالت عيناه أسوأ مما كنت أخشى. وافق روب لكنه شعر بالارتياح لأن الأمر انتهى وسيعودون الآن إلى موطنهم.

لكن كريم جاء لرؤيتهما. قال كريم إن الخووف قتل ضابطًا هنديًا، لكن ليس قبل أن يقطع سيف الهندي تقريبًا نصف المسافة للسيف الفولاذي الضخم الأكثر نعومة الخاص بالخووف. أحضر كريم سيف

الخووف ليريهم مدى عمق قطعه. صنع السيف الهندي المستولى عليه من الفولاذ الثمين ذي النقوش الحلزونية والآن يرتديه علاء شاه. أشرف الشاه بنفسه على استجواب السجناء حتى علم أن السيف صنعه حرفي يدعى دان فانجاليل في قرية كوشامبي الواقعة على بعد مسيرة ثلاثة أيام شمال المنصورة.

قال كريم: «قرر علاء شاه أن يسير إلى كوشامبي».

كانوا سيأسرون الحداد الهندي ويأخذونه إلى أصفهان، حيث يصنع أسلحة من الفولاذ ذات النقوش الحلزونية لمساعدة الشاه على غزو جيرانه واستعادة إمبراطورية بلاد فارس العظيمة مترامية الأطراف في الأيام الغابرة.

كان الكلام سهلًا ولكن ثبت أن التنفيذ كان أكثر صعوبة.

كانت كوشامبي قرية صغيرة أخرى تقع على الضفة الغربية لنهر السند، وهي مكان يضم بضعة عشر منزلًا من المنازل الخشبية المتهالكة التي تنقسم إلى أربعة شوارع ترابية، كل منها يؤدي إلى الحامية العسكرية. ومرة أخرى نجحوا في الهجوم بشكل مفاجئ، حيث زحفوا عبر الغابة التي أبقت القرية محصورة على ضفة النهر. ولمّا وافق الجنود الهنود على الهجوم، انبثقوا من المكان مثل مجموعة من القرود المذهولة، وخرجوا بعيدًا في الغابة.

كان علاء شاه مسرورًا، معتقدًا أن جبن العدو قد منحه أسهل الانتصارات. لم يضيع الوقت في وضع سيفه في حلق الرجل وإخبار القروي المرعوب أن يقودهم إلى دان فانجاليل. تبين أن صانع السيوف رجل نحيف بعينين متيقظتين وشعر أشيب ولحية بيضاء كان يسعى لإخفاء وجه عجوز هزيل. وافق فانجاليل على الذهاب إلى أصفهان لخدمة

علاء شاه، لكنه قال إنه سيختار الموت ما لم يسمح له الشاه بإحضار زوجته وولديه وابنته، بالإضافة إلى الإمدادات المختلفة اللازمة لصنع الفولاذ الحلزوني، بما في ذلك كومة كبيرة من السبائك المربعة من الفولاذ الهندي الصلب.

وافق الشاه على الفور. وقبل أن يبرحوا ذلك المكان، عادت الكشّافة بأخبار مزعجة. نصبت القوات الهندية بدلًا من الهروب كمائن في الغابة وعلى طول الطريق وكانت تنتظر الانقضاض على أي شخص يسعى لمغادرة كوشامبي.

عرف علاء شاه أن الهنود لا يمكن احتواؤهم إلى أجل غير مسمى. كما كان الحال في المنصورة، كان الجنود المختبئون ضعاف التسليح، علاوة على ذلك أجبروا على العيش على الفواكه البرية من الأرض. أخبر الضباط الشاه أنهم أرسلوا العدّائين بلا شكّ لجلب تعزيزات هندية، لكن أقرب قوة عسكرية معروفة من أي حجم كانت في سهوان، على بعد مسيرة ستة أيام.

أمر علاء شاه قائلًا: «يجب اقتحام الغابة وإبادتهم».

انقسم الفرس الخمسمئة إلى عشر فرق ضمت كل فرقة خمسين مقاتلًا، جميعهم من جنود المشاة. غادروا القرية وضربوا الأجمة ليجدوا عدوهم كما لو كانوا يصطادون الخنازير البرية. ولمّا واجهوا الهنود، كان القتال شرسًا وداميًا ودام لفترة طويلة.

أمر علاء شاه بإخراج جميع الضحايا من الغابة خشية أن يحصيهم العدو ويعطيه هذا الأمر معرفة مغلوطة بالقوة المتضائلة. وهكذا وضعت الضحايا من القتلى الفرس في الغبار الرمادي في شارع في كوشامبي، ليدفنهم سجناء المنصورة في مقابر جماعية. أول جثة جيء بها، في بداية

القتال في الغابة كانت جثة قائد الحرس. مات الخووف بسهم هنديّ انغرس في ظهره. لقد كان رجلًا صارمًا لا يبتسم لكنه كان عمود الخيمة ولاعبًا أساسيًّا وأسطورة. يمكن قراءة الندوب على جسده مثل قراءة تاريخ الحملات الشاقة لاثنين من الملوك. وطوال ذلك اليوم، جاء الجنود الفارسيون ليلقوا عليه نظرة الوداع.

لقد غضبوا بشدة لموته، وهذه المرة لم يأخذوا سجناء، وكانوا يقتلون بشراسة حتى ولو أراد الهنود الاستسلام. وفي المقابل، واجهوا جنون الرجال المطاردين الذين عرفوا أنهم لن يرحموا. كانت الحرب قبيحة بشكل لا يمكن تصديقه، إما سهام مسَنّنة أو رجال يقومون بأسوأ ما لديهم بمعدن حاد، كلهم يقطعون ويطعنون ويصرخون.

جمع الجرحى مرتين في اليوم في أرض فسيحة وخرج أحد الجراحين تحت حراسة مشددة وقدم العلاج الأول وأعاد المرضى إلى القرية. دام القتال ثلاثة أيام. ومن بين ثمانية وثلاثين جريحًا في المنصورة، توفي أحد عشر قبل مغادرة الفرس لتلك القرية ولقي ستة عشر آخرون حتفهم في المسيرة التي استمرت ثلاثة أيام إلى كوشامبي. وإلى الجرحى الأحد عشر الذين نجوا بفضل رعاية ميردين وروب، أضيف ستة وثلاثون مشوهًا جديدًا خلال الأيام الثلاثة من معركة الغابة. وقتل سبعة وأربعون فارسيًّا آخر.

أجرى ميردين بترًا إضافيًّا وروب أجرى ثلاثة، كانت إحدى عمليات البتر تتضمن فقط تثبيت سَديلة جلدية فوق أرومة صنعت بشكل جيد أسفل الكوع لمّا قطع سيف هندي ساعد جندي. وفي البداية عالجا الجروح بالطريقة التي علمها لهما ابن سينا: قاما بغلي الزيت وصبّه ساخنًا قدر الإمكان في الجرح لدرء التقرح. ولكن في صباح اليوم الأخير نفد الزيت من روب؛ وهو يتذكر كيف عالج الحلاق التهتكات بالميثيجلين، فقد أخذ

قربة من جلد الماعز من النبيذ وغسل كل جرح جديد بمشروب قوي قبل تضميده.

وفي ذلك الصباح، اندلعت آخر موجة من القتال مباشرة بعد الفجر. وفي منتصف الصباح، وصلت مجموعة جديدة من الجرحى وحمل الحمّالون شخصًا ما ملفوفًا من الرأس إلى الكاحلين في بطانية هندية مسروقة. قال روب بحدة: «هنا الجرحى فقط».

لكنهم أنزلوه ووقفوا منتظرين في حَيرة من أمرهم، ولاحظ فجأة أن القتيل كان يرتدي حذاء ميردين.

قال أحدهم: «لو كان جنديًّا عاديًّا، لوضعناه في الشارع». «لكنه حكيم؛ لذلك جئنا به إلى الحكيم».

قالوا إنهم كانوا في طريق العودة لمّا انقضّ عليه رجل من الأدغال بفأس. وكان الهندي قد ضرب ميردين فقط ثم هو نفسه قد قتل.

شكرهم روب وذهبوا بعيدًا.

ولمّا أزال البطانية عن وجهه رأى أن القتيل بالفعل هو ميردين. كان الوجه ملتويًا وبدا مرتبكًا وغريب الأطوار.

أغلق روب العينين الوديعتين وأطبق الفك الطويل الرقيق. توقف عقله عن التفكير وكان يتحرك وكأنه ثمل. كان يغادر بين الفينة والأخرى لإغاثة المحتضرين أو الاعتناء بالجرحى، لكنه كان دائمًا يعود ويجلس. وذات مرة طبع على جبينه البارد قبلة لكنه لم يعتقد أن ميردين سوف يعرف. استولى عليه نفس الشعور لمّا حاول إمساك يد ميردين. لم يعد ميردين هناك.

كان يأمل أن يكون ميردين قد عبر أحد جسوره.

ففي النهاية تركه روب وحاول الابتعاد، والعمل دون تفكير. وأحضر رجل يده اليمنى مشوهة وأجرى روب آخر عملية بتر في الحملة، وقطع يد الرجل فوق مفصل الرسغ مباشرة. ولمّا عاد إلى ميردين في منتصف النهار، كان قد تجمّع الذباب.

ولمّا كشف البطانية عن جسده المسجى رأى أن الفأس قد شقّت ميردين في صدره. ولمّا انكفأ روب على الجرح الكبير، كان قادرًا على تفحصه على نطاق أوسع بيديه.

كان مفجوعًا سواء من تمييزه لروائح الموت داخل الخيمة أو رائحة العشب الدافئ المسحوق تحت الأقدام. تلاشت آهات الجرحى وطنين الذباب والصيحات البعيدة وأصوات المعركة من أذنيه. فقد نسي وفاة صديقه ونسي العبء الساحق لحزنه.

ولأول مرة يمد يده داخل جسم إنسان ويلمس قلب بشري.

60

الأصدقاء الأربعة

غسّل روب جسد ميردين وقصّ أظافره ومشّط شعره ولفّه في شال صلاته، حيث كانت نصف أهدابه مقصوصة حسب العرف.

بحث عن كريم، الذي طرفت عيناه وكأنه صفع لمّا بلغه النبأ.

قال روب: «لا أريد أن يدفن في المقبرة الجماعية». «من المؤكد أن عائلته ستأتي إلى هنا للحصول على الجثمان وإعادته إلى موطنه في مسقط لدفنه بين قومه في أرض مقدسة».

لقد اختارا مكانًا أمام صخرة مباشرة بحيث لا تستطيع الأفيال الكبيرة تحريكها، مع أخذ الاتجاهات الدقيقة وقياس المسافة من الصخرة إلى حافة الطريق القريب. استغلّ كريم امتيازه وتفوقه وحصل على مخطوطة وريشة وحبر، وبعد أن حفرا القبر حدّد روب موقعه الجرافي بعناية. وسوف يعيد رسم خريطة واضحة ويرسلها إلى مسقط. وما دام هناك دليل لا جدال فيه على وفاة ميردين، فإن فارا ستعتبر آغوناة زوجة مهجورة، ولن يسمح لها بالزواج مرة أخرى. كانت هذه هي الشريعة؛ علّمه ميردين إيّاها.

قال روب: «علاء شاه سوف يرغب في الوجود هنا».

شاهد كريم وهو يقترب من الشاه. كان علاء شاه يشرب الخمر مع ضباطه، يحتفل ببريق النصر المتوهج. رآه روب يستمع إلى كريم للحظة ثم يلوّح له بالابتعاد في استياء.

شعر روب بموجة من الكراهية، متذكرًا صوت الملك في الكهف، وما قاله لميردين: نحن أربعة أصدقاء.

عاد كريم وقال في خجل أنهما يجب عليهما المضي قدمًا؛ تمتم بأجزاء متهدجة من الصلاة الإسلامية وهما يضعان الجثمان في حفرة القبر، لكن روب لم يحاول تلاوة الصلاة. استحقّ ميردين أن ترفع له أصوات الحزن في مراسم التأبين (هاشكافوت)، وترنيمة الدفن، وترنيمة قاديش (تمجيد الإله). ولكن كان لا بد من أن يقول ترنيمة تمجيد الإله، ترنيمة قاديش، عشرة يهود وكان روب مسيحيًّا يتظاهر بأنه يهودي، وهو يقف فاقد الحس في صمت مطبق في حين كانا يهيلان التراب على صديقهما.

***

وبعد ظهر ذلك اليوم، لم يتمكن الفرس من العثور على المزيد من الهنود في الغابة لقتلهم.

كان الطريق من كوشامبي مفتوحًا. عيّن علاء شاه أحد المحاربين القدامى ذوي العيون الصارمة، ويدعى فرهاد، ليكون قائد حرسه الجديد، وبدأ القائد في إصدار أوامر محسوبة لتحريك الجيش للاستعداد للمغادرة.

وفي غمرة الفرحة العارمة، أحصى علاء شاه مكاسبه وخسائره. لقد حصل على صانع السيوف الهندي. كان قد فقد اثنين من الأفيال في المنصورة لكنه أخذ ثمانية وعشرين فيلًا هناك. بالإضافة إلى ذلك، وجدت أربعة أفيال يافعة تتمتع بصحة جيدة بمعرفة مروّضي الأفيال في حظيرة في كوشامبي؛ كانت حيوانات للعمل الشاق، غير مدرّبة على خوض المعركة لكنها لا تزال ذا قيمة. كانت الخيول الهندية حيوانات صغيرة قذرة تجاهلها الفرس، لكنهم اكتشفوا قطيعًا صغيرًا من جمال سريعة

الخطى في المنصورة وعشرات من الجمال التي تجرّ الأحمال في كوشامبي.

كان علاء شاه متّقد الحماس ومتورد الوجنتين بنجاح غاراته.

مات مئة وعشرون من الستمئة الذين تبعوا الشاه من أصفهان، وكان روب مسئولًا عن سبعة وأربعين جريحًا. أصيب العديد منهم بجروح خطيرة وماتوا أثناء السفر، لكن لم يكن هناك شك في تركهم وراءهم في القرية التي دمرتها الحرب. أي فارسي يعثر عليه هناك سيقتل عندما تأتي القوات الهندية الجديدة.

أرسل روب الجنود إلى كل منزل من المنازل لجمع السجاجيد والبطانيات، والتي كانت تثبت بين الأعمدة لصنع الأَسرَّة. ولّما غادروا في فجر صباح اليوم التالي، حمل الهنود الأَسرَّة.

لقد مرت ثلاثة أيام ونصف اليوم من السفر الشاق والمضطرب إلى مكان حيثما يمكن عبور النهر دون قتال. وفي المراحل الأولى من العبور جرف التيار رجلين وغرقا. وفي منتصف نهر السند، كان التيار ضحلًا ولكنه سريع، ووضع مروّضو الأفيال الحيوانات عكس التيار لكسر قوة المياه مثل الجدار المتين، وهذا دليل آخر على القيمة الحقيقية لهذه الحيوانات.

وتوفي الجرحى أصحاب الجروح التي تَقْشَعرّ لَها الأبْدان في البداية، وذوو الصدور المثقوبة أو البطون المقطوعة، ورجل كان متصلب العنق. وفي يوم واحد فقط مات نصف دزينة من الرجال. ولقد وطئت أقدامهم بلوشستان بعد خمسة عشر يومًا من السفر؛ حيث خيّموا في حقل ووضع روب جرحاه في شَوْنَة مفتوحة الجوانب. وفور رؤية قائد الحرس الجديد فرهاد، سعى روب إلى لقاء الشاه، لكن فرهاد كان مشغولًا بتحديد مكان القوات ومسألة التأخير المبالغ فيه. ولحسن الحظ سمعه كريم وأحضره في الحال إلى الخيمة ليرى الشاه.

«متبقٍّ لدي واحد وعشرون، ولكن يجب أن يرقدوا في مكان واحد لبعض الوقت وإلا سيموتون أيضًا، جلالتك».

«لا طاقة لي بانتظار الجرحى»، قال علاء شاه وهو يتلهّف لمسيرة الانتصار في أصفهان.

«فلتأذن لي بالبقاء هنا معهم».

حدّق الشاه. «لن أسْتَغْنَي عن كريم للبقاء معك بصفته حكيمًا، يجب أن يعود معي».

أومأ روب برأسه.

لقد أبقوا معه خمسة عشر هنديًا وسبعة وعشرين جنديًا مسلحًا لحمل الأَسِرَّة، واثنين من مروضي الأفيال وجميع الأفيال الخمسة المصابة حتى يستمر في الاعتناء بالحيوانات. رتّب كريم لتفريغ زكائب الأرز. وفي صباح اليوم التالي، امتلأ المخيم بالضجيج والصخب الجنونيّ المعتاد. ثم خرجت القوات الرئيسية إلى الطَّريق، وعندما اختفى أثر آخر رجل، بقي روب مع مرضاه وقلة من الرجال مع التلاشي المفاجئ للضجيج الذي كان في نفس الوقت موضع ترحيب وإزعاج.

أفاد البقاء مرضاه، بعيدًا عن الشمس والغبار، وتجنبوا الارتجاجات المستمرة واهتزازات السفر. توفي رجلان في يومهما الأول في الشَّوْنَة وتوفي الآخر في اليوم الرابع، لكن أولئك الذين تمسّكوا بالبقاء كانوا هم الأقوياء الأشدّاء الذين تشبّثوا بالحياة، وقرار روب بالتوقف مؤقتًا في بلوشستان منحهم فرصة البقاء أحياء.

ففي البداية استاء الجنود من واجبهم. وسيعود الغزاة الآخرون قريبًا إلى أصفهان إلى بر الأمان والهتاف بالنصر، في حين أنهم تعرضوا لمخاطر

طويلة ومهام وضيعة. وتسلل اثنان من أفراد الحرس المسلح بعيدًا خلال الليلة الثانية ولم يشاهدا مرة أخرى. ولم يحاول الهنود منزوعو السلاح أن يلوذوا بالفرار، ولا أعضاء الحرس الآخرون. وسرعان ما أدرك الجنود حسب المهنة أنه في المرة القادمة قد يلقى أي واحد منهم حتفه فجأة أو يعاني من مرض عضال، وكانوا ممنونين لأن الحكيم قد يخاطر بنفسه لمساعدة كل من هو على شاكلتهم.

وكان يرسل فرق الصيد كل صباح، وكانت تحضر الطرائد الصغيرة وتتبل وتطهى ببعض الأرز الذي تركه كريم لهم، واكتسب مرضاه قوة على قوتهم واستردوا عافيتهم وهو يراقبهم.

لقد عالج الأفيال كما عالج الرجال، وقام بتغيير ضماداتهم بانتظام وغسيل جروحهم بالنبيذ. وقفت الحيوانات الضخمة وسمحت له بإيلامها، وكأنهم فهموا أنه فاعل الخير لهم. كان الرجال بلداء مثل الحيوانات، حتى عندما كانت الجروح ميتة واضطر إلى قطع الغرز وتمزيق اللحم الإصلاحي حتى يتمكن من تنظيف الصديد وغسيل الجروح بالنبيذ قبل إغلاقها مرة أخرى.

لقد شهد حقيقة غريبة: في كل حالة عالجها بالزيت المغلي تقريبًا، صارت الجروح حمراء ومؤلمة ومتورمة ومليئة بالتَقَيّح. وقد توفي العديد من هؤلاء المرضى، في حين كان معظم الرجال الذين عولجت جروحهم بعد نفاد الزيت كانت بدون صديد، وعاش هؤلاء الرجال. بدأ في الاحتفاظ بالسجلات، مشتبهًا في أن هذه الملاحظة الفردية ربما جعلت وجوده في الهند يستحق شيئًا. لقد نفد النبيذ تقريبًا، لكنه لم يصنع دواءً سحريًّا قبل أن يعرف الأماكن التي يوجد بها مزارعون، حيث يمكن الحصول على براميل من المشروبات القوية. سوف يشترون المزيد على طول الطريق.

وعندما غادروا الشَّوْنَة أخيرًا في نهاية الأسابيع الثلاثة، كان أربعة من

مرضاه بصحة جيدة بما يكفي لركوب الخيل. كان اثنا عشر من الجنود بلا عبء، وبالتالي يمكنهم التبديل مع أولئك الذين يحملون الأسرّة، مما يسمح للبعض بالراحة في جميع الأوقات. قادهم روب بالقرب من طريق التوابل في أول فرصة واتّخذ طريقًا دائريًّا. الطريق الأطول سيضيف ما يقرب من أسبوع إلى سفرهم، الأمر الذي جعل الجنود عابسين متجهمين. لكنه لن يخاطر بقافلته الصغيرة من خلال اتباع جيش الشاه الأكبر عبر الريف الذي زرع فيه الكراهية والمجاعة جرّاء أفعال الباحثين عن الطعام من الفرس المخَرّبين.

لا يزال ثلاثة من الأفيال يعرجون ولم توضع على ظهورها أي حمولات، لكن روب ركب على ظهر الفيل الذي أصيب خرطومه بجروح طفيفة. كان سعيدًا بمفارقة الناقة ولن يكون مسرورًا بركوب الجمال مرة أخرى. وفي المقابل منحه ظهر الفيل العريض الراحة والاستقرار ورؤية الملك للعالم.

لكن السفر السهل أتاح له فرصة غير محدودة للتفكير، وكانت ذكرى ميردين تلازمه في كل خطوة على الطريق، بحيث كانت عجائب الرحلة العادية - رحلة مفاجئة لآلاف الطيور، وغروب الشمس الذي أضفى على السماء لونًا أحمر بهيًّا بلون الشفق، والطريقة التي قفز بها أحد الأفيال على حافة خندق شديد الانحدار حتى انهارت الحافة ثم جلس الفيل كطفل ينزلق أسفل المنحدر الترابي الذي تكوّن بفعل القفز، وقد لوحظت هذه الأشياء ولكنها لم تجلب سوى القليل من الفرح.

فكّر في يسوع، أو شاذّاي، أو الله، أيًّا كان من يكون. كيف يمكنك السماح بمثل هذا الدمار؟

كان يعتقد بمرارة أن الملوك قادوا الرجال العاديين إلى المعركة وكان بعض الذين نجوا من الفقراء والبعض الآخر من الأشرار. ومع ذلك فقد

سمح الإله بقتل شخص كان يتمتع بصفات الطهر والقداسة وله عقل راجح يحسده العلماء وينشدونه. كان ميردين سيقضي حياته سعيًا وراء شفاء المرضى وخدمة البشرية فحسب.

ومنذ دفن الحلاق لم يتأثر روب ولم يزلزل الموت كيانه بشدة، وكان لا يزال مكتئبًا واستولى عيه اليأس عندما وصلوا إلى أصفهان.

شارفوا المدينة في وقت متأخر بعد الظهيرة، بحيث كانت المدينة -كما رآها لأول مرة- مباني بيضاء تكسوها الظلال من اللون الأزرق، مع أسقف من اللون الوردي المنعكس من التلال الرملية. انطلقوا مباشرة إلى البيمارستان؛ حيث جرى تسليم الجرحى الثمانية عشر إلى آخرين لتلقي الرعاية والعلاج.

ثم ذهبوا إلى إسطبلات دار الفردوس، حيث يزيح عن كاهله مسؤولية الحيوانات والقوات والعبيد.

ولّما جرى ذلك، طلب حصانه المخصي بني اللون. كان فرهاد، قائد الحرس الجديد، على مقربة منه وتناهى إلى سمعه ما قيل، وأمر مرَوّض الخيل ألا يضيّع الوقت في محاولة تحديد مكان حصان واحد في قطيع الجياد القابعة في الطواحين. «أعطوا الحكيم حصانًا آخر».

«قال الخووف لي إنني سوف أسترد حصاني نفسه». قال لنفسه، ليس كل شيء يجب أن يتغير.

«مات الخووف».

«وعلى الرغم من هذا». ولدهشته العظيمة، صار صوت روب ثقيلًا وصارت نظراته متحجّرة. لقد عاد من المذبحة التي أصابته بالمرض لكنه الآن يتوق إلى شيء يضربه، العنف كوسيلة للتنفيس. «أتمنى نفس

الحصان».

عرف فرهاد الرجال وأدرك التحدي في صوت الحكيم. لم يكن لديه ما يكسبه من الشجار مع هذا الذمي والكثير ليخسره. هزّ كتفيه واستدار.

ركب روب بجانب مروض الخيول، ذهابًا وإيابًا بين القطيع. وبحلول الوقت الذي رأى فيه الحصان المخصي كان يخجل من سلوكه القبيح. قاموا بفصل الحصان عن الأحصنة الأخرى ووضعوا عليه سرجًا في حين كان فرهاد يجيء ويذهب ولم يخف امتعاضه واستياءه بأن هذا الحيوان المعيب هو ما كان الذمي مستعدًّا للقتال من أجله.

لكن الحصان البني هرول بلهفة في وقت الغسق إلى الحي اليهودي.

سمعت ماري أصواتًا بين الحيوانات، فأخذت سيف والدها والمصباح وفتحت الباب بين المنزل والإسطبل.

لقد عاد إلى المنزل.

كان السرج بالفعل مفكوكًا على الحصان البني وكان على وشك أن يترجل عن الحصان المخصي في الحظيرة. استدارت، ورأت في الضوء المحتضر أنه فقد وزنًا كبيرًا؛ كان يشبه الصبي النحيف المتوحش الذي التقت به في قافلة كيرل فريتا.

وصل إليها في ثلاث خطوات وضمّها دون أن ينبس ببنت شفة، ثم لمست يداه بطنها المشدود.

«هل سرت الأمور على ما يرام؟»

ضحكت ضحكة مرتعشة لأنها كانت مرهقة وممزقة. لم يمر سوى خمسة أيام فقط على افتقاده سماع صرخاتها المحمومة. «لقد جاء ابنك منذ يومين».

«ابن».

وضع راحة يده الكبيرة على خدها. ومع لمسة يده، شعرت بسَكينَة غمرتها وجعلتها ترتجف، بحيث أوشكت على أن تسكب الزيت من المصباح وارتعش اللهب. ولمّا كان بعيدًا عنها، كانت قد صنعت من نفسها امرأة أبيَّة النفس صارمة وقوية، ولكن كان من الترف الشديد أن تثق مرة أخرى في أن شخصًا آخر كان يوفر الحماية وكان كفؤًا لذلك، مثل التحول من الخشونة إلى الرقة.

أنزلت السيف وأخذت يده، وقادته إلى الداخل حيث كان الطفل ينام في سلة مبطّنة.

وفجأة رأت مسحة من الحنوّ والعطف في الوجه المستدير من خلال عيني روب، علامات حمراء صغيرة منتفخة من آلام المخاض، زغب من الشعر الداكن فوق رأسه. انتابها شعور بالضيق والاستياء من هذا النوع من الرجال؛ لأنها لم تستطع معرفة ما إذا كان يشعر بخيبة أمل أو تملأه سعادة غامرة. ولّما نظر إلى الأعلى نظرة ممتزجة بالسرور، ثمة حزن مرسوم على وجهه.

«كيف حال فارا؟»

جاء كريم وأخبرها. أما أنا لازمتها خلال فترة الحداد «شيفا»، سبعة أيام. ثم أخذت داود ويساكر وانضمت إلى قافلة متجهة إلى مسقط. ويعون الرب أصبحوا الآن في كنف الأقارب».

«سيكون الأمر صعبًا عليك بدونها».

قالت بمرارة: «أصعب عليها».

بدأ نحيب الطفل يعلو، فأخذه روب من السلة وألقمه خنصَره الذي

امتصه بنهم.

ارتدت ماري ثوبًا فضفاضًا برباط على الرقبة، خاطته لها فارا. فتحت الثوب وأنزلته تحت ثدييها الممتلئين، ثم أخذت الطفل منه. استلقى روب جانبهما على السجادة عندما بدأت ترضع الصغير. حرّك رأسه على ثديها الحر الطليق وسرعان ما شعرت برطوبة خده.

لم تكن تعرف قطّ أن أباها ينتحب، أو أي رجل، وكان اهتزاز روب المتشنج يخيفها. همست وقالت: «حبيبي، روب يا حبيبي».

وبالغريزة، وجهته يدها الحرة برفق حتى صار فمه على الحلمة. لقد كان رضيعًا مترددًا أكثر من ابنه، وعندما لثم شفتيها والتهمها، تأثرت كثيرًا لكنها كانت مستمتعة بلطف، وللمرة الأولى كان جزء من جسدها يخترقه. فكرت بشكل عابر في فارا، وشكرت السيدة العذراء، دون أدنى ذنب، على أنه لم يكن زوجها هو الفقيد. زوج من الشفاه عليها، أحدهما صغير والآخر كبير ومألوف للغاية، ملأها بدفء حميمي. ربما كانت الأم المقدسة أو القديسون الذين يصنعون المعجزات، لكن ثلاثتهم صاروا واحدًا لبعض الوقت.

وأخيرًا، نهض روب، وعندما انحنى وقبّلها، انتابتها رعشة دافئة.

قال: «أنا لست رومانيًّا».



الجزء السادس

الحكيم

61

التكليف

في صباح اليوم التالي لعودته، فحص روب طفله في ضوء النهار ورأى أن الطفل كان جميلًا، بعينين زرقاوين عميقتين وله يدان وقدمان كبيران. أحصى أصابع اليد وأصابع القدم وثنى كل إصبع برفق، وابتهج لما رأى ساقيه الصغيرتين المقوستين قليلًا. رضيع قوي.

كانت رائحة الطفل مثل معصرة الزيتون، حيث كانت أمه تدهنه بزيت الزيتون. ثم تسللت إلى أنفه رائحة كريهة وعلى الفور غيّر روب الحفاض للطفل لأول مرة منذ أن كان يرعى إخوته وأخته. وفي أعماقه كان لا يزال يتوق للعثور على ويليام ستيوارت وآن ماري وجوناثان كارتر ذات يوم. ألن يكون من دواعي السرور إظهار ابن الأخ هذا لأفراد عائلة كول المفقودين منذ زمن طويل؟

تشاجر هو وماري بشأن ختان الرضيع.

«لن يؤذيه الختان، هنا كل الرجال مختونون، سواء المسلمين أو اليهود، وهذه طريقة سهلة لقبوله بسهولة أكبر».

قالت في ضجر: «لا أتمنى أن يكون أكثر قبولًا في بلاد فارس». «أتمنى أن يلقى قبولًا في موطنه، حيث لا يتعرض الرجال للضرب والتوبيخ وقطع الغلْفَة بل يتركون للطبيعة».

ضحك روب وبدأت تنتحب. كفكف دموعها ثم هرب عندما استطاع للتشاور مع ابن سينا.

حيَّاه شيخ الأطباء بحفاوة شاكرًا الله على نجاته وتحدث بحزن عميق عن فقد ميردين. استمع ابن سينا باهتمام شديد إلى تقرير روب عن العلاجات وعمليات البتر التي أجريت في المعركتين، واهتم بشكل خاص بمقارناته بين فعالية الزيت المغلي مقابل مغاطس النبيذ في تطهير الجروح المفتوحة. أظهر ابن سينا اهتمامه بالحقيقة العلمية أكثر من اهتمامه بعصمة الخطأ. وعلى الرغم من أن ملاحظات روب تتعارض مع ما قاله وكتبه هو نفسه، فقد أصر على أن يدوّن روب النتائج التي توصّل إليها. قال: «أيضًا، هذا الشيء المتعلق بالنبيذ في الجروح يجب أن يكون موضوع محاضرتك الأولى بصفتك حكيمًا»، ووجد روب نفسه يتفق مع أستاذه.

ثم رمقه الرجل العجوز بنظرة. «أود أن تعمل معي، يسي بنيامين، بصفتك مساعدًا».

لم يراوده هذا الحلم قط، أراد أن يخبر شيخ الأطباء أنه جاء إلى أصفهان -من مسافة بعيدة جدًّا، عبر عوالم أخرى، وقهر الصعاب وتغلّب على العديد من المشاكل- فقط ليلمس حاشية ثوب ابن سينا.

وبدلًا من ذلك، أومأ برأسه. «حكيم باشا، أود ذلك».

لم تبدِ ماري أي اعتراض لمّا أخبرها؛ حيث كانت في أصفهان لفترة كافية، لذا لم يخطر ببالها أن زوجها قد يرفض مثل هذا الشرف، وبالإضافة إلى الراتب المجزي الذي سوف يتقاضاه، فضلًا عن المكانة المرموقة والاحترام الجم اللذين سيحظى بهما جرّاء علاقته برجل لقي تبجيلًا وتكريمًا مثل نصف إله، وحظي بحبّ يفوق حب الملوك. ولمّا رأى روب الفرحة في عينيها من أجله، أخذها بين ذراعيه. «سآخذك إلى موطنك، أعدك يا ماري، لكن لم يحن الوقت بعد، رجاءً، ثقي بي».

وبالفعل وثقت به، ومع ذلك فقد أدركت أنهما إذا بقيا لفترة أطول، فعليها أن تتغير. لقد عقدت العزم على بذل جهد للانصياع لقوانين البلد. وعلى مضض، وافقت على ختان الطفل.

ذهب روب إلى نيتكا القابلة للحصول على المشورة. قالت: «تعال»، وقادته مسافة شارعين إلى راباي آشر يعقوبي الموهيل (الخاتن).

قال الموهيل: «إذًا، الختان». «الأم...» وهو مستغرق في التفكير، رمق نيتكا القابلة بنظرة من خلال عينيه الضيقتين، وأصابعه تداعب لحيته. «من الأغيار!»

قالت نيتكا باستياء: «يجب ألا تكون إنجليزيًّا في كل الصلوات». وبعد اتخاذ الخطوة الجادة المتمثلة في ولادة طفل من الأغيار، تقمّصت بسهولة دور المدافع. «إذا طلب الأب خاتم إبراهيم على الولد فهو بركة ونعمة لختانه، أليس كذلك؟»

«نعم»، اعترف راباي آشر. «أبوك، هل سيحمل الطفل؟» سأل روب.

«أبي ليس على قيد الحياة».

تنهّد راباي آشر. «هل سيكون أفراد الأسرة الآخرون حاضرين؟»

«زوجتي فحسب، لا يوجد أفراد عائلة آخرون هنا، سوف أحمل الطفل بنفسي».

قالت نيتكا بلطف: «وقت الاحتفال». «هل تمانع؟ حضور ولديّ شموئيل وشوفني، وعدد قليل من الجيران...».

أومأ روب برأسه.

قالت نيتكا: «سوف نحضر».

وفي صباح اليوم التالي، كانت هي وابناها قاطعا الحجارة ضخام البنية أول من وطئت أقدامهم منزل روب. جاءت هندا، التاجرة المستنكرة من السوق اليهودي، برفقتها تال إسحاق، وهو عالم أشيب اللحية بعينين حائرتين. كانت هندا لا تزال متجهمة لا تبتسم لكنها أحضرت هدية ثوبًا مبطّنًا. وأعطاه يعقوب صانع الأحذية وزوجته نعوما إبريقًا من نبيذ. جاء ميخا هاليفي الخبّاز وزوجته يوديت يحملان رغيفين كبيرين من الخبز المحلى بالسكر.

كان روب يحمل الرضيع الصغير الجميل مضطَجعًا على حِجْره، وقد ساورت روب شكوك عندما قطع راباي آشر القلفة من القضيب الصغير. «أتمنى أن ينمو الوَلَد بقوة - العقل والجسد - في حياة ملؤها الأعمال الصالحة»، أعلن الموهيل (الخاتن)، وصرخ الطفل. رفع الجيران جفان النبيذ وهللوا، وسمّى روب الصبي بالاسم اليهودي ميردين بن يسي.

كانت ماري تمقت كل لحظة. وبعد ساعة عندما بارح الجميع المنزل وصارت هي وروب بمفرديهما مع طفلهما، بللت أصابعها في ماء الشعير ولمست ابنها الذي يصرخ برفق على جبهته وذقنه وشحمة أذن واحدة ثم الأخرى.

وقالت بوضوح: «أعمّدك باسم الآب والابن والروح القدس روبرت جيمس كول»، وسمّته باسم والده وجدّه.

وبعد ذلك، عندما كانا وحديهما نادت زوجها باسم روب، وكان الطفل الذي أشارت إليه باسم روب جيه.

إلى المبجّل راباي مولكا عسكري، تاجر اللؤلؤ في مسقط.

تحية طيبة... وبعد،،،

كان ابنكم الراحل ميردين صديقي -طيّب الرب ثراه وأحسن مثواه- كنا جراحين معًا في الهند، حيث أحضرت هذه الأشياء القليلة، التي أرسلتها إليكم الآن مع صاحب الأيدي الحنونة راباي موسى بن زافيل، تاجر من مدينة قم، قافلته متّجهة هذا اليوم إلى مدينة مسقط بحمولة من زيت الزيتون.

سيعطيك راباي موسى مخطوطة ورقية توضح الموقع الدقيق لقبر ميردين في قرية كوشامبي، بحيث يمكن نقل عظامه يومًا ما إذا كانت هذه هي رغبتكم. وأرسل أيضًا التيفيلين الذي كان يلفّه يوميًّا حول ذراعه والذي أخبرني أنك أعطيته له عندما شارك في الـ «منيان» عند بلوغه عامه الرابع عشر. بالإضافة إلى ذلك، أرسلت القطع ورقعة الشطرنج، والتي قضيت معها أنا وميردين الكثير من الأوقات السعيدة.

لم يكن معه أي متاع آخر في الهند. كان بالطبع مدفونًا في الطاليت (شال الصلاة).

أتضرع إلى الرب أن يلهمكم الصبر والسلوان على مصابكم ومصابنا. مع وفاته أظلمت حياتي. لقد كان أفضل الرجال الذين أقدّرهم على الإطلاق. أعلم أن ميردين عند الرب (أداشيم)، ويحدوني الأمل أن أكون جديرًا بلقائه في يوم من الأيام مرة أخرى.

أرجو أن تنقل مَحَبَّتي واحترامي لأرملته وولديه الصغار الشجعان وأبلغهم أن زوجتي أنجبت ابنًا سليمًا صحيحًا، وأسميناه ميردين بن يسي، وأرسل لهم تمنياتها القلبية بحياة كريمة.

بارك الرب فيكم وحفظكم بحفظه.

الحكيم يسي بن بنيامين

كان الجوزجاني مساعدًا لابن سينا لسنوات. لقد حقق المجد في حد ذاته كجراح وكان أبرز نجاح بين المساعدين السابقين، رغم أنهم جميعًا أحسنوا صنعًا. شَغّل حكيم باشا مساعديه بجدّ، وكان المنصب أشبه بامتداد للتدريب، فرصة لمواصلة التعلم. ومنذ البداية فعل روب أكثر من مجرد متابعة ابن سينا وإحضار الأشياء له، كما في بعض الأحيان كان يطلب من مساعدي رجال عظماء آخرين القيام بذلك. توقع ابن سينا أن تؤخذ مشورته عند وجود مشكلة أو يطلب رأيه، لكن الحكيم الشاب كان يتمتع بثقة عالية وكان متوقعًا أن يتصرف من تلقاء نفسه.

وبالنسبة لروب، كان وقتًا مناسبًا. ألقى محاضرات في المدرسة عن مغاطس النبيذ للجروح المفتوحة، قلة من الناس حضروا؛ لأن طبيبًا زائرًا من مدينة الراي ألقى محاضرة ذلك الصباح حول موضوع الحب الجسدي. يتزاحم الأطباء الفارسيون دائمًا في المحاضرات التي تتناول الجنس، مما يثير فضول روب؛ لأن الموضوع في أوروبا لم يكن ضمن مسؤوليات الطبيب. ومع ذلك، فقد حضر الكثير من هذه المحاضرات بنفسه، وسواء بسبب ما تعلمه أو على الرغم من ذلك، فقد نجح زواجه.

شفيت ماري بسرعة من آلام النفاس والولادة. واتّبعا وصفات ابن سينا، الذي حذّر بضرورة بالامتناع عن الجماع بين الزوج والزوجة لمدة ستة أسابيع بعد الولادة، ونصح بضرورة معالجة مهبل الأم الجديدة بلطف بزيت الزيتون وتدليكه بمزيج من العسل وماء الشعير. نجح العلاج بشكل رائع. بدا الانتظار لمدة ستة أسابيع أشبه بالأبدية، وعندما انتهت، التفتت إليه ماري بلهفة لأنه عانقها.

وبعد عدة أسابيع، بدأ الحليب يتضاءل في ثدييها. كان الأمر أشبه بصدمة لأن الحليب في ثدييها كان وفيرًا، أخبرته أن لديها أنهارًا من الحليب تجري في ثدييها، حليب يكفي لإمداد العالم. ولمّا أرضعت الصغير، خفّ

الضغط المؤلم في ثدييها، ولكن سرعان ما اختفى الضغط والآن جاء الألم من سماع نحيب الرضيع النحيف الجائع روب جيه. لقد رأيا أن مرضعة ستكون ضرورية، وتحدّث روب مع القابلات ووجد من خلالهن امرأة أرمينية قوية رقيقة تدعى بريسكا لديها ما يكفي من الحليب لابنتها الجديدة وابن الحكيم. حملت ماري الطفل أربع مرات في اليوم إلى متجر الجلود الخاص بديكران زوج بريسكا وانتظرت، في حين أخذ روب جيه الصغير الحلمة. وفي الليل جاءت بريسكا إلى المنزل في الحي اليهودي ومكثت في الغرفة الأخرى مع الطفلين في حين أن ماري وروب حاولا التخفي لممارسة الحب، ثم استمتعا برفاهية النوم المتواصل.

كانت ماري تشعر بالرضا والارتياح، والسعادة جعلتها تتألق. وبرق وجهها بالطمَأنينَة. وفي بعض الأحيان بدا لروب أنها حازت على الفضل الكامل بفضل المخلوق الصغير والصاخب الذي أنجباه معًا، لكنه أحبَّها وشغفَ بها.

وفي الأسبوع الأول من شهر شعبان، جاءت قافلة راباي موسى بن زافيل مرة أخرى عبر أصفهان في طريقها إلى مدينة قم وسلّم التاجر الهدايا التي بعث بها راباي مولكا عسكري وزوجة ابنه فارا. أرسلت فارا للطفل ميردين بن يسي ست قطع من ثياب كتانية صغيرة، حاكتها بالحب والاهتمام. أعاد تاجر اللؤلؤ إلى روب رقعة لعبة الشطرنج التي كانت تخص ابنه المتوفى.

كانت هذه آخر مرة بكت فيها ماري على فارا. ولمّا أجدبت عيناها، رتّب روب القطع الخاصة بميردين على رقعة الشطرنج وعلّمها كيفية اللعب. وبعد ذلك، لعبا كثيرًا. لم يكن يتوقع الكثير؛ لأنها كانت لعبة محارب وكانت هي مجرد امرأة. لكنها تعلّمت بسرعة وأسرت إحدى قطعه بصرخة صاخبة وصيحة حرب كان من الممكن أن تكون ذات مصداقية

مع اللص السلجوقي. مهارتها السريعة في تحريك جيش الملك، وإن كانت غير طبيعية في الأنثى، لم تكن صدمة كبيرة؛ لأنه أدرك منذ فترة طويلة أن ماري كولين كانت مخلوقًا استثنائيًّا.

حلّ شهر رمضان وكريم غير مستعد، وكان عازمًا على الإثم لدرجة أن التطهر والاعتراف بالذنب الكامنين في شهر الصيام صارا مستحيلي التحقيق ومؤلمين للغاية للتفكير فيهما. حتى الصلاة والصوم لا يمكن أن يبددا أفكاره عن ديسبينا وتوقه الجارف لها. وفي الواقع، لأن ابن سينا كان يقضي عدة أمسيات في الأسبوع في مساجد مختلفة ويفطر مع الملالي وعلماء القرآن، فقد وفّر شهر رمضان وقتًا آمنًا للقاء العشاق. رآها كريم كثيرًا كما اعتاد دائمًا.

وخلال شهر رمضان، انصرف انتباه علاء شاه أيضًا إلى اجتماعات الصلاة وغيرها من المطالب في وقته، وفي يوم من الأيام سنحت لكريم فرصة للعودة إلى البيمارستان لأول مرة منذ شهور. ولحسن الحظ، كان ذلك اليوم الذي كان فيه ابن سينا بعيدًا عن المستشفى، يعتني بأحد أفراد البلاط الملكي المصاب بالحمى. عرف كريم مذاق المعصية. لطالما عامله ابن سينا بطيبة ونزاهة، ولم يكن لديه رغبة في قضاء الوقت مع زوج ديسبينا.

كانت زيارة المستشفى بمثابة خيبة أمل قاسية. تبعه المتدربون الطبيّون عبر القاعات كالمعتاد، ربما حتى بأعداد أكبر من ذي قبل؛ لأن شهرته فاقت الأرجاء. لكنه لم يعرف أيًّا من المرضى؛ كان أي شخص خضع لعلاجه هنا إما أصبح في عداد المفقودين أو تعافى منذ فترة طويلة. وعلى الرغم من أنه بمجرد أن سار في هذه القاعات بثقة مطلقة في مهاراته الخاصة، وجد نفسه يتخبط ويخطئ وهو يسأل أسئلة تنم عن توتره وقلقه، ويخامره شك بشأن فحص المرضى الذين تقع مسؤوليتهم على

عاتق الآخرين.

واستطاع أن يصمد في زيارة دون أن يجعل من نفسه أحمق، لكن كان يعي في تجهم بأنه ما لم يتمكن من قضاء بعض الوقت في الممارسة الحقيقية للطب، فإن المهارات التي اكتسبها بشق الأنفس خلال سنوات عديدة سوف تذهب أدراج الرياح قريبًا.

لم يكن لديه خيار. أكدّ له علاء شاه أن ما يخبئه القدر لكليهما سوف يجعل الطب يبدو واهنًا بالمقارنة.

في تلك السنة لم يركض كريم في سباق الجري. لم يتدرب وكان جسمه أثقل مما ينبغي أن يكون عليه جسم العدّاء. شاهد السباق مع علاء شاه.

كان فجر اليوم الأول لعيد الفطر أكثر سخونة من اليوم الذي فاز فيه، وكان السباق بطيئًا للغاية. كان الملك قد جدد عرضه للخلعة لأي شخص يمكنه تكرار الإنجاز الذي حققه كريم وإنهاء جميع الجولات الاثنتي عشرة في المدينة قبل الصلاة الأخيرة (صلاة العشاء)، لكن كان من الواضح أنه لن يركض أحد مسافة 126 ميلًا رومانيًّا في ذلك اليوم.

تطور السباق في الجولة الخامسة، وتضاءل إلى صراع بين العدّاء الذي يسمى الحارات من همذان وجندي شاب اسمه نفيس جرجس. كان كل واحد منهما قد حقق إيقاعًا سريعًا جدًّا في العام السابق وأنهى السباق في حالة انهيار. الآن، لتجنب هذا، ركضا ببطء شديد.

وصاح كريم مشجعًا نفيس، قال لعلاء شاه إن هذا بسبب أن نفيس نجا من الغارات الهندية معهم. وفي الحقيقة، رغم أنه كان يحب الجندي الشاب، فإنه لم يكن يريد أن يفوز الحارات؛ لأنه كان يعرف الحارات كطفل عاش في همذان، وعندما التقيا، كريم لا يزال ينتابه شعور الازدراء لكونه صبيّ زكي عمر.

لكن نفيس استبد به التعب والإرهاق بعد أن جمع سهمه الثامن وكان الحارات وحده المتقدم في السباق. كان الوقت متأخرًا بالفعل وكان الحر قائظًا؛ وبشكل منطقي، أشار الحارات إلى أنه سينهي الجولة ويحقق النصر.

ركب كريم والشاه في الجولة الأخيرة قبل العدّاء بوقت طويل حتى يكونا في خط النهاية لاستقباله والترحيب به، حيث امتطى علاء شاه صهوة فحل أبيض جامح وكريم كان يجلس منفرج الساقين وهو يميل برأسه إلى الوراء على الحصان الرمادي العربي. وعلى طول الطريق، ارتفعت معنويات كريم؛ لأن المتفرجين كانوا يعرفون أنه سيكون وقتًا طويلًا، أطول من أي وقت مضى، قبل أن يقوم عدّاء بالركض عدوا في سباق آخر مثل السباق الذي ركضه. لقد احتضنوه من أجل ذلك بموجة من الفرح، ولكونه بطل المنصورة وكوشامبي. علاء شاه يبتسم ابتسامة عريضة، وكان كريم يعلم أنه يمكن أن ينظر إلى الحارات الفقير بإحسان؛ لأن العدّاء كان مزارعًا من الأراضي الفقيرة، وسرعان ما سيصبح كريم وزيرًا لبلاد فارس.

ولّما مرّوا بالمدرسة رأى الخصي واصف على سطح المستشفى وبجانبه ديسبينا المحجبة. وفور رؤيتها قفز قلبه بين ضلوعه وابتسم. وكان من الأفضل أن يذهب بجانبها هكذا، على حصان لا يقدر بثمن مرتديًا الحرير والكتان، بدلًا من ترنحه في الماضي تفوح منه رائحة العرق وقد أضناه الإرهاق والتعب.

وبالقرب من ديسبينا، وقفت امرأة بلا حجاب نفد صبرها من الحرارة اللافحة ونزعت حجابها الأسود وهزّت رأسها كما لو كانت تفعل ذلك محاكاة لحصان كريم. تساقط شعرها وتطاير طويلًا ومتعرجًا. كانت الشمس تتلألأ فيه ببريقها، كاشفة عن أطياف مختلفة من اللون الذهبي

واللون الأحمر، وبجانبه تناهى إلى سمعه أن الشاه يتحدّث.

«هل هذه زوجة الذمي؟ المرأة الأوروبية؟»

«نعم، جلالتك، زوجة صديقنا يسي بنبنيامين».

قال علاء شاه: «اعتقدت أنها يجب أن تكون هي».

راقب الملك الأنثى عارية الرأس حتى تجاوزاها. لم يطرح أي أسئلة أخرى، وسرعان ما تمكّن كريم من الدخول معه في محادثة تتعلق بالحدّاد الهندي دان فانجاليل والسيوف التي كان يصنعها للشاه في الأتون الجديد ويصهرها خلف إسطبلات دار الفردوس.

62

عرض مكافأة

واظب روب على أن يبدأ يومه كل يوم في المعبد اليهودي دار السلام، ويرجع ذلك جزئيًّا إلى أن المزيج الغريب من الصلوات اليهودية المرتلة والصلوات المسيحية العجماء صارت متعة وغذاءً للروح.

ولكن في الغالب كان وجوده في المعبد اليهودي بطريقة غريبة وفاءً لدَين يدين به لميردين.

ومع ذلك، لم يتمكن من دخول المعبد الصهيوني، المعبد اليهودي الذي كان يتردد عليه ميردين. وعلى الرغم من أن العلماء كانوا يجلسون يوميًّا ويتحاجون حول الشريعة في دار السلام، وكان من السهل أن يقترح أن يقوم شخص ما بتعليمه الوصايا التسع والثمانين التي لم يدرسها، لم يكن يملك الشجاعة الكافية لإنهاء تلك المهمة بدون ميردين. وأخبر نفسه أن خمسمئة وأربعًا وعشرين وصية سوف تخدم يهوديًّا زائفًا، بالإضافة إلى ستمئة وثلاث عشرة وصية، وأدار عقله لأمور أخرى.

لقد كتب شيخ الأطباء في جميع المجالات. ولّما كان طالبًا، أتيحت الفرصة لروب لقراءة العديد من أعماله في الطب، لكنه الآن أخذ عينات من أنواع أخرى من كتابات ابن سينا واستولى عليه شعور الهيبة والرهبة من الرجل أكثر من أي وقت مضى. كتب ابن سينا عن الموسيقى والشعر وعلم الفلك، والميتافيزيقا والفكر الشرقي، وفقه اللغة والفكر النشط، وشروح وتفاسير لجميع كتب أرسطو. ولّما كان سجينًا في قلعة فردجان، كتب كتابًا تحت عنوان الإشارات والتنبيهات يلخص جميع فروع الفلسفة.

حتى إنه كان هناك دليل عسكري، إدارة وإمداد الجنود وقوات العبيد والجيوش، والذي كان سيخدم روب جيدًا إذا كان قد قرأه قبل الذهاب إلى الهند كجراح ميداني. كان قد كتب عن الرياضيات والنفس البشرية وماهية الحزن. وكتب مرارًا وتكرارًا عن الإسلام، الدين الذي منحه إياه والده، والذي -على الرغم من العلم الذي تغلغل في كيانه- كان قادرًا على قبوله بالإيمان.

وهذا ما جعله محبوبًا من الناس. لقد رأوا ذلك على الرغم من الضيعة الفخمة وكل نتائج الخلعة الملكية، على الرغم من حقيقة أن أهل العلم والمجد في العالم جاءوا ليبحثوا عنه وينهلوا من علمه، على الرغم من حقيقة أن الملوك تنافسوا على شرف الاعتراف بهم كرعاة للشيخ الطبيب، رغم كل هذه الأشياء، حتى لو كان أصغر بائس بينهم، رفع ابن سينا عينيه إلى السماء وقال:

لا إله إلا الله

محمد رسول الله.

وكل صباح قبل الصلاة الأولى (صلاة الفجر) يتجمع حشد من عدة مئات أمام منزله. كان الحشد من المتسولين، والملالي، ورعاة الأغنام، والتجار، والفقراء والأغنياء، رجال من مختلف الفئات. حمل شيخ الأطباء سجادة الصلاة الخاصة به وسار مع المعجبين به، ثم لمّا امتطى صهوة جواده إلى البيمارستان سار الحشد بجوار حِصانه وألسنتهم تلهج بالصلاة على النبي ويرتّلون آيات من القرآن.

اجتمع التلاميذ عدة أمسيات في الأسبوع في منزله. وفي العادة كانت هناك قراءات طبية. كان الجوزجاني يقرأ كل أسبوع بصوت عال من أعمال ابن سينا لمدة ربع قرن، وغالبًا ما كان يقرأ من كتابه المشهور

القانون في الطب. وأحيانًا يطلب من روب أن يقرأ بصوت عال من كتاب ابن سينا المعنون بكتاب الشفاء. وبعد القراءة تكون هناك فترة مناقشة حية، تجمع بين حفلة شرب ومناقشة رصينة، غالبًا ما تكون ساخنة وممتعة في بعض الأحيان ولكنها دائمًا ما تكون مفيدة ونافعة.

«كيف يصل الدم إلى الأصابع؟» قد يصيح الجوزجاني في يأس وهو يردد سؤال طالب من الطلاب. «هل نسيت أن جالينوس قال إن القلب عبارة عن مضخة تعمل على تحريك الدم؟»

«آه!». وغالبًا ابن سينا يتدخل. «مثلما تدفع الرياح سفينة شراعية، ولكن كيف تجد طريقها إلى مدينة البحرين؟»

وفي كثير من الأحيان عندما أخذ روب إذنًا بالانصراف كان قادرًا على إلقاء نظرة خاطفة على الخصي واصف وهو يقف مختبئًا في الظل بالقرب من باب البرج الجنوبي. وفي إحدى الأمسيات، انزلق روب بعيدًا وذهب إلى الحقل خلف سور منزل ابن سينا. لم يندهش عندما وجد الفحل العربي الرمادي الخاص بكريم مربوطًا هناك، وهو يهزّ رأسه بفارغ الصبر.

وفور عودته إلى حصانه غير المخفي، فحص روب الشقة فوق البرج الجنوبي. ومن خلال شقوق النوافذ في الجدار الحجري المستدير، ارتجف الضوء الأصفر وداعبه، ودون حسد أو ندم، تذكر أن ديسبينا كانت تحب أن تمارس الحب على ضوء ست شمعات.

أقحم ابن سينا روب في الألغاز. «يوجد بداخلنا كينونة غريبة، يسميها البعض العقل والبعض الآخر يسميها الروح، لها تأثير كبير على أجسادنا وصحتنا. رأيت لأول مرة دليلًا على ذلك عندما كنت شابًّا في بخارى، عندما بدأت أولي اهتمامًا بالموضوع الذي دفعني للكتابة عن النبض. كان لدي مريض شاب من سني يدعى أحمد، تراجعت شهيته للطعام

وفقد وزنه. كان والده -وهو تاجر ثري في ذلك المكان- حزينًا وطلب مني المساعدة.

«عندما فحصت أحمد لم أجد شيئًا خاطئًا، ولكن في حين كنت أنتظر معه حدث شيئًا غريبًا. كانت أصابعي على الشريان في معصمه في حين كنا نتجاذب أطراف الحديث بطريقة ودية حول مدن مختلفة في منطقة بخارى. كان النبض بطيئًا وثابتًا حتى ذكرت قرية أفشنة مسقط رأسي. ثمة شيء أشبه برجفة في معصمه لدرجة أنني شعرت بالخوف!

«كنت أعرف تلك القرية جيدًا، وبدأت أذكر شوارع مختلفة من شوارعها، ولم يكن هناك تأثير كبير حتى ذكرت زقَاق الإمام الحادي عشر، فتسارع نبضه وخفق قلبه مرة أخرى. لم أعد أعرف جميع العائلات في ذلك الزقَاق، لكن المزيد من الأسئلة واسْتنْهاض الهمَم أسفرا عن معلومات مفادها أنه في ذلك الشارع كان يعيش ابن الرازي، وهو عامل يعمل في النحاس، ولديه ثلاث بنات، أكبرهن ريبكا، وهي حسناء جدًّا. ولمّا تحدث أحمد عن هذه الأنثى ذكّرني الخفقان في معصمه بطائر مَهيض الجناح.

«لقد تحدّثت إلى والده قائلًا إن الشفاء له يكمن في الزواج من ريبكا. جرى ترتيب الزواج وغادر أحمد المستشفى. وبعد ذلك بوقت قصير عادت له شهيته. ولمّا رأيته آخر مرة -قبل عدة سنوات- صار رجلًا ممتلئًا ومسرورًا.

«يخبرنا جالينوس أن القلب وجميع الشرايين تنبض بنفس الإيقاع، بحيث يمكنك الحكم على الجميع من خلال نبض واحد، وأن النبض البطيء والمنتظم يشيران إلى التمتع بصحة جيدة. لكن مع حالة أحمد، وجدت أن النبض يمكن استخدامه أيضًا لتحديد حالة الكدر التي يعاني منها المريض أو راحة البال الي ينعم بها. لقد فعلت ذلك مرات عديدة، وثبت أن النبض هو الرسول الذي لا يكذب أبدًا».

لذلك علم روب أنه بالإضافة إلى القريحة التي سمحت له بقياس الحياة، يمكنه مراقبة النبض للحصول على معلومات حول صحة المريض ومزاجه. كانت هناك فرصة كبيرة للممارسة. تَقَاطَرَ البائسون على شيخ الأطباء باحثين عن علاج سحريّ. الأغنياء والفقراء، عولجوا بنفس الطريقة على حدّ سواء، ولكن القليل منهم فقط يمكن قبولهم كمرضى للخضوع للعلاج على يد ابن سينا وروب، وجرى تحويل معظمهم إلى أطباء آخرين.

الكثير من العلاجات السريرية لابن سينا شملت الشاه والأفراد المميزين والمهمين في حاشية علاء شاه. وهكذا في صباح أحد الأيام، أرسل شيخ الأطباء روب إلى دار الفردوس، وأبلغه أن امرة تدعى سيدها، زوجة صانع السيوف الهندي دان فانجاليل، كانت مريضة وتعاني من مغص.

ولحاجته لمترجم سعى روب لخدمة مروض الأفيال الشخصي لعلاء شاه، رجل هندي يدعى هارشا. برهنت سيدها أنها امرأة لطيفة مستديرة الوجه ذات شعر أشيب. كانت عائلة فانجاليل تعبد بوذا؛ لذلك لم ينطبق حظر العورات ويمكن لروب أن يلمس بطنها دون القلق من أن يدان من قبل الملالي. وبعد فحصها فحصًا مطولًا، قرر أن مشكلتها كانت مشكلة تتعلق بالنظام الغذائي؛ لأن هارشا أخبره أنه لا عائلة الحداد ولا أي من مروضي الأفيال لديهم ما يكفي من الكمّون أو الكرْكم أو الفلفل، والتوابل التي اعتادوا عليها طوال حياتهم، والتي كانت تعتمد عليها أجهزتهم الهضمية.

أعاد روب الأمر إلى نصابه الصحيح من خلال النظر إلى توزيع التوابل من منظور شخصي. لقد حظي بالفعل على احترام بعض مروضي الأفيال من خلال الاعتناء بجروح الفيلة في المعركة، والآن حظي بامتنان عائلة فانجاليل أيضًا.

أحضر ماري وروب جيه الرضيع لزيارتهم، على أمل أن تكون المشاكل المتبادلة للأشخاص الذين جرى زرعهم في بلاد فارس بمثابة أساس للصداقة. ولكن للأسف لم تظهر الشرارة العاطفية التي اشتعلت على الفور بين فارا وماري. نظرت المرأتان إلى بعضهما بشيء من عدم الارتياح وبأدب صارم، وحاولت ماري ألّا تحدّق في الكمكوم الأسود المستدير المرسوم في منتصف جبين سيدها. لم يحضر روب عائلته لزيارة عائلة فانجاليل مرة أخرى.

لكنه عاد إليهم بمفرده، مفتونًا بما يمكن أن يحققه دان فانجاليل بالفولاذ.

وفوق حفرة ضحلة في الأرض، بنى دان فانجاليل فرنًا للصهر، وجدارًا من الطين محاطًا بجدار خارجي أكثر ثخانة من الصخور والطين، وكلها محاطة بمجموعة من الشتلات. كان يبلغ طوله ارتفاع أكتاف رجل ويبلغ عرضه عرض خطوة، ويتناقص تدريجيًا إلى قطر أضيق قليلًا في الأعلى لتركيز الحرارة وتعزيز الجدران ضد الانهيار.

وفي هذا الفرن، صنع دان الحديد المطاوع عن طريق حرق طبقات متتالية من الفحم والتّبر الفارسي، بحجم يتراوح من حجم حبة البازلاء إلى حجم حبة الجوز. وتم حفر خندق ضحل حول الفرن. وبالجلوس على الحافة الخارجية وقدميه في الخندق، أدار منافيخ مصنوعة من جلد الماعز بالكامل، وهي تدفع كميات من الهواء التي يمكن التحكم فيها بدقة إلى الكتلة المتوهجة. وفوق الجزء الأكثر سخونة من النار، تحول التّبر إلى ذرات من الحديد مثل قطرات المطر المعدني. سوّيت في الفرن وتجمعت في الأسفل في مزيج أشبه بالكتل المستديرة اللزجة من الفحم والخبث والحديد، يسمى كتلة الحديد الزهر.

وأغلق دان فانجاليل فتحة العزل بالطين الذي فصلها عنه الآن حتى

يتمكن من سحب الكتلة، التي صقلها عن طريق الطرق بمطرقة قوية تتطلب العديد من عمليات إعادة التسخين في تشكيلته. ذهب معظم الحديد الموجود في التّبر إلى الخبث والنفايات، ولكن الكمية المتقلصة أسفرت عن الحديد المطاوع بدرجة جيدة جدًّا.

لكنه كان لينًا، أوضح لروب عن طريق هارشا. كانت قضبان الفولاذ الهندي التي حملتها الأفيال من كوشامبي صلبة للغاية. أذاب الكثير من هذه القضبان في بوتقة ثم أخمد النار، وبعد التبريد كان الفولاذ هشًّا للغاية وبعثره وكدّسه على قطع من الحديد المطاوع.

والآن، وهو يتعرق بين السنادين، والملاقط، والأزاميل، والمخارز، والمطارق، أظهر الهندي النحيل عضلة ثنائية الرؤوس مثل الثعابين وهو يشد المعادن اللينة والصلبة. كان يصهر ويلحم طبقات متعددة من الحديد والصلب، ويطرق كما لو كان ممسوسًا، ويلوي ويقطع، ويشابك، ويطوي اللوح ويطرقه مرارًا وتكرارًا، ويخلط معادنه مثل خزّاف يشكّل الصلصال أو امرأة تعجن الخبز.

وعند مشاهدته، أدرك روب أنه لا يمكنه أبدًا تعلم الجوانب المعقدة، والمتغيرات التي تحتاج إلى مهارات خفية تنتقل عبر الأجيال الطويلة من الحدادين الهنود، لكنه اكتسب فهمًا للعملية من خلال طرح أسئلة لا حصر لها.

صنع دان فانجاليل سيفًا أحدب وعالج السلاح في السخام المبلل بخل السيترون، مما أسفر عن ظهور شفرة ذات «علامة مائية» منقوشة بالحمض مع مسحة خفيفة من اللون الأزرق. لو صنع من الحديد وحده، كان من الممكن أن يكون ناعمًا وباهتًا؛ ولو صنع من الفولاذ الهندي الصلب فقط، كان من الممكن أن يكون هشًّا. ولكن هذا السيف أخذ حافة ملساء يمكن أن تقطع خيطًا يسقط في الجو، وكان سلاحًا مرنًا.

السيوف التي أمر علاء شاه بصنعها لم تكن مخصصة للملوك. كانت أسلحة جنود غير مزينة، كي تخزّن في مواجهة حرب مستقبلية قد تمنح فيها السيوف المعقوفة المتميزة بلاد فارس ميزة مطلوبة.

وأشار هارشا إلى أن «الفولاذ الهندي سينفد منه قبل عدة أسابيع أخرى».

ومع ذلك، عرض دان أن يصنع لروب خنجرًا؛ تعبيرًا عن امتنانه لما فعله الحكيم لعائلته ومروضي الأفيال. رفض روب معتذرًا، كانت الأسلحة جميلة لكنه لم يكن يريد أكثر من ذلك ليفعله مع القتل. ولكن بعد ذلك لم يستطع مقاومة فتح حقيبته وأظهر لدان فانجاليل مشرطًا وزوجًا من المباضع ومديتين مستخدمتين للبتر، إحداهما معقوفة ورقيقة والأخرى كبيرة ومسننة لبتر العظام.

ابتسم دان ابتسامة عريضة، وقد افترّت شفتاه عن أسنانه وظهرت الفجوات في الكثير من الأسنان المفقودة، وأومأ برأسه.

وبعد أسبوع، سلّم دان الأدوات من الفولاذ المزخرف والتي من شأنها أن تأخذ أقصى درجات الحدة والتحمل مثل أي أدوات جراحية أخرى لم يرها روب على الإطلاق.

كان يعلم أنها سوف تصمد أكثر من حياته. لقد كانت هدية أميرية واستحق هدية سخية في المقابل، لكنه كان غارقًا في التفكير في ذلك في الوقت الحالي. رأى دان سعادته الهائلة وشعر بالزهو. تعانق الرجلان بسبب عدم قدرتهما على التواصل بالكلمات. صقلا الأدوات الفولاذية وغطّياها فرادى في قطع من القماش، ثم حملها روب في حقيبة جلدية.

وكان يسير بحصانه بعيدًا عن دار الفردوس والسعادة تملأ محيّاه لّما التقى جماعة صيد عائدة بقيادة الملك. وفي ملابس الصيد الخشنة، بدا

علاء شاه تمامًا كما كان عندما رآه روب لأول مرة قبل سنوات.

سحب حصانه وانحنى، على أمل أن يتجاوزوه، لكن بعد لحظة استطاع فرهاد أن يخبب الحصان بذكاء.

«الشاه يرغب في أن تقترب».

ساق قائد الحرس حصانه وتبعه روب عائدًا إلى الشاه.

«آه، أيها الذمي، يجب أن تركب معي لبعض الوقت». أشار علاء شاه إلى الجنود الذين يرافقوه بالتراجع، وسار هو وروب بجواديهما نحو القصر.

«أنا لم أكافئك على خدمتك لبلاد فارس».

اندهش روب، وهو يفكر في أن جميع المكافآت على الخدمات خلال الغارات الهندية قد ولت منذ فترة طويلة. ترقّى العديد من الضباط لشجاعتهم وحصل الجنود على جوائز مالية. كان كريم قد أشاد به الشاه بسخاء في العلن لدرجة أن القيل والقال في الأسواق جعله قريبًا من الترشح في العديد من المناصب المرموقة. كان روب راضيًا بتجاهلهم له والتغاضي عنه، سعيدًا لأن الغارات أصبحت الآن جزءًا من الماضي.

«أفكر في أن أمنحك خلعة أخرى، تحظى معها بمنزل أكبر وأرض واسعة، ضيعة مناسبة للترفيه الملكي».

«لا حاجة لي بخلعة أخرى، يا مولاي». وبصوت صريح شكر الشاه على كرمه. «كان حضوري وسيلة صغيرة لرد أفضالكم العظيمة عليّ».

كان من الأجدر له أن يتحدث عن حب الملك، لكنه لم يستطع، ولا يبدو أن علاء شاه يأخذ كلماته على محمل الجد على أي حال.

«ومع ذلك، فأنت تستحق المكافأة».

«إذا كانَ لاَ بدَّ، أطلب من الشاه أن يكافئني بالسماح لي بالبقاء في المنزل الصغير في الحي اليهودي حيث أشعر بالراحة والسعادة».

رمقه الشاه بنظرة فاحصة، وأخيرًا أومأ برأسه. «اغرب عن وجهي أيها الذمي». ضرب عقبيه في الحصان الأبيض وانطلق الفحل بعيدًا. وخلفه جرى حارسه بالجواد عدوًا وراءه، وفي لحظة كان جنود الخيّالة يندفعون أمام روب وهم يضربون الأرض ويزلزلونها.

وبعناية، أدار الحصان البني وشقّ طريقه إلى المنزل مرة أخرى ليعرض لماري الأدوات الفولاذية المنقوشة.

63

مستوصف في مدينة إيذج

حلّ الشتاء في ذلك العام قارسًا ومبكرًا على بلاد فارس. وذات صباح صارت جميع قمم الجبال بيضاء، وفي اليوم التالي رياح عاتية شديدة البرودة حملت خليطًا من الملح والرمل والثلج اجتاحت أصفهان. وفي الأسواق غطى التجار بضائعهم بالأقمشة وتاقوا إلى الربيع. كانوا ضخام في عباءاتهم من جلود الخراف بطول الكاحل، وكانوا رابضين أما مجامر الفحم يدفئون أنفسهم بالقيل والقال عن الملك. وعلى الرغم من رد فعلهم في كثير من الأحيان على مَآثر علاء شاه بضحكة مكتومة أو بنظرة ممتعضة أو ساخرة، كانت الفضيحة الأخيرة ذات جاذبية خاصة للعديد من الوجوه التي لم تتأثر بالرياح العاتية.

وفي ضوء شرب الشاه وفجوره اليومي، أرسل الإمام ميرزا أبو قندراسه صديقه ومساعده الملا موسى بن عباس للتفاهم مع الملك وتذكيره بأن الشرب كثيره مكروه عند الله، وقد حرّمه القرآن.

كان علاء شاه يشرب الخمر لساعات عندما استقبل مندوب الوزير. استمع لموسى بجدية. ولمّا أدرك فحوى الرسالة وفهم نبرة التحذير الدقيقة، تنحى الشاه عن العرش واقترب من الملا.

كان مضطربًا لكنه لا يعرف كيف يتصرف بطريقة أخرى، واصل موسى الكلام. ففي الوقت الحاضر، دون تغيير في التعبير، كان الملك يقطّر النبيذ على رأس الرجل العجوز، مما أثار دهشة جميع الحاضرين، رجال الحاشية والخدام والعبيد. وطوال الفترة المتبقية من التوبيخ والتعنيف،

كان يمطر موسى بخمر كثير، ويبلل لحيته وملابسه، ثم صرفه بتلويح من يده، وأعاده إلى قندراسه مبتلًا، صاغرًا وذليلًا.

لقد كان عرضًا لازدراء رجال أصفهان المقدسين، وفسّر على نطاق واسع على أنه دليل على انتهاء عهد قندراسه بصفته وزيرًا. اعتاد الملالي على النفوذ والامتيازات التي منحها لهم قندراسه، وفي صباح اليوم التالي سمعت في كل مسجد في المدينة نبوءات قاتمة ومقلقة تتعلق بمستقبل بلاد فارس.

جاء كريم هارون للتشاور مع ابن سينا وروب بشأن علاء شاه.

«إنه ليس كذلك، يمكن أن يكون الأكثر إيثارًا دون رفقائه، ومرحًا ومحبوبًا، رأيته في الهند، أيها الذمي، إنه أشجع المقاتلين وإذا كان طموحًا ويريد أن يكون شاهنشاه عظيمًا، فهذا لأنه أكثر طموحًا لبلاد فارس».

استمعا إليه بصمت.

قال كريم: «لقد حاولت منعه من الشرب». نظر في يأس إلى معلمه السابق وصديقه.

تنهّد ابن سينا. «إنه أكثر خطورة على الآخرين في الصباح الباكر، عندما يستيقظ على دوار جرّاء شرب نبيذ الأمس. إذًا، أعطه شاي السنا لتطهير السموم ومساعدته على التخلص من صداع الرأس، ورش الحجر الأرميني المطحون في طعامه لتخليصه من الكآبة، لكن لا شيء سيحميه من نفسه. عندما يشرب الخمر يجب عليك الابتعاد عن مجلسه إذا استطعت». لقد نظر إلى كريم بجدية. «يجب أن تأخذ حذرك أيضًا أثناء تجوالك في المدينة؛ لأنك معروف بأنك المرشح المفضل للشاه وينظر إليك عمومًا على أنك منافس قندراسه، والآن لديك أعداء أقوياء لديهم مصلحة كبيرة في إيقاف صعودك إلى سلم السلطة».

لفت روب انتباه كريم. قال عن قصد: «يجب أن تحرص على أن تعيش حياة خالية من اللوم؛ لأن أعداءك سينتهزون فرصة أي ضعف».

تذكّر كراهية النفس التي شعر بها عندما استغفل شيخ الأطباء، كان يعزف كريم. على الرغم من طموحه وحبه للمرأة، كان كريم يتمتع بمسحة من صلاح ويمكن لروب أن يتخيل الألم الذي شعر به عند خيانة ابن سينا.

أومأ كريم برأسه. وعندما غادر أمسك معصم روب وابتسم. بادله روب الابتسامة، كان من المستحيل عدم الرد. كان كريم لا يزال يتمتع بسحره الجميل، رغم أنه لم يعد خاليًا من الهموم. رأى روب توترًا شديدًا وحيرة متواصلة في وجه كريم، فاعتنى بصديقه مع الشفقة بحاله.

رأى روب الصغير العالم بعينيه الزرقاوين بلا خوف. كان قد بدأ يحبو وابتهج أبواه عندما تعلم أن يشرب من الكأس. وبناء على اقتراح ابن سينا، حاول روب أن يطعمه حليب الإبل، والذي قال عنه شيخ الأطباء إنه أكثر الأطعمة الصحية للطفل. كانت رائحته نفاذة وكان يحتوي على كتل صفراء من الزبدة ولكن الطفل الصغير ابتلعها بنهم. ومنذ ذلك الحين، لم تعد المرأة بريسكا ترضعه. وفي كل صباح، كان روب يحضر حليب الإبل من السوق الأرميني في وعاء فخاري. كانت المرضعة السابقة، التي كانت تحمل دائمًا أحد أطفالها، تلوّح من متجر الجلود الخاص بزوجها لتبحث عنه كل صباح.

«سيدي الذمي! سيدي الذمي! كيف حال ولدي الصغير؟ نادت عليه بريسكا، وابتسمت في وجهه ابتسامة متألقة في كل مرة أكدّ لها أن الطفل بخير.

وبسبب البرد القارس، جاء عدد من المرضى إلى الأطباء مصابين بالزكام

ونزلات البرد وآلام العظام والتهاب المفاصل وتورمها. كتب بلينيوس الأصغر أنه لعلاج البرد، يجب على المريض تقبيل أرنبة الفأر المشعرة، لكن ابن سينا أعلن أن كتب بلينيوس الأصغر غير مناسبة للقراءة. كان لديه علاجه المفضل ضد البلغم ووطأة الروماتيزم. لقد أعطى أوامره لروب بعناية بجمع وزن درهمين من كل من الخروع، والجلبانوم الفارسي، والحلْتيت الآسن مر المذاق، والحلْتيت، وبذور الكرفس، والحلبة السورية، والجلبانوم، والحسك، وبذور الحرمل، والجاوشير، وصمغ السذاب، ونواة بذور اليقطين. ثم تسحق هذه المكونات الجافة. وتنقع الأصماغ في الزيت لمدة ليلة ثم تسحق، ويصب فوقها عسلًا دافئًا خاليًا من الزبد، ثم يعجن الخليط الرطب بالمكونات الجافة ويوضع العَجين الناتج في إناء زجاجي.

قال ابن سينا: «الجرعة مثقال واحد». «إنها فعالة إن شاء الله».

ذهب روب إلى حظائر الأفيال؛ حيث كان مروضو الأفيال يخنفرون ويسعلون، ويتصدون بمرح أقل لموسم على عكس فصول الشتاء المعتدلة التي كانوا يعرفونها ويألفونها في الهند. زارهم ثلاثة أيام متتالية وأعطاهم عشبتي بقلة الملك وسكبينج وعَجين ابن سينا، وكانت النتائج غير حاسمة لدرجة أنه كان يفضل أن يتجرعها المريض مع الدواء السحري للحلاق. لم تبدُ الأفيال رائعة كما كانت في المعركة، الآن ملفوفة مثل الخيام، ومزينة بالبطانيات في محاولة لإبقائها دافئة.

وقف روب مع هارشا وراقب الفيل «ذي» (ذي القرنين)، فيل الشاه العظيم، وهو يحشر نفسه في الكلأ الجاف.

قال هارشا بهدوء: «أطفالي المساكين». «وذات مرة، قبل بوذا أو البرهمي أو فيشنو أو شيفا، كانت الأفيال قوية جبّارة للغاية وكان شعبي يصلي لهم، الآن هم أقل بكثير من الآلهة لدرجة أنهم وقعوا في الأسر وأجبروا على تنفيذ رغباتنا».

ارتجف الفيل «ذي» (ذي القرنين) وهما يراقبانه، ووصف روب أن تعطى الأفيال دلاء من مياه الشرب الدافئة لتدفئتها من الداخل.

كان هارشا يراوده شك في هذه الوصفة. «لقد كنا نعمل معهم وهم يعملون بشكل جيد على الرغم من البرد».

لكن روب كان قد اطلع على معلومات عن الأفيال في بيت الحكمة. «هل تعرف حنا بعل؟»

قال: «لا».

«جندي، قائد عظيم».

«عظيم مثل علاء شاه؟»

«على الأقل عظيم، ولكن منذ زمن بعيد. قاد جيشًا مكون من 37 فيلًا فوق جبال الألب - جبال شاهقة، مخيفة، شديدة الانحدار ومغطاة بالثلوج - ولم يفقد أي فيل من الأفيال، لكن البرد والتعرض للمخاطر أضعفهم. وفي وقت لاحق، عبرت الأفيال الجبال الأصغر حجمًا، ماتت جميع الأفيال باستثناء فيل واحد. الدرس المستفاد هو أنه يجب عليك إراحة حيواناتك وإبقاؤها دافئة».

أومأ هارشا برأسه باحترام جمّ. «هل تعلم أنك مراقب وهناك من يتتبعك، يا حكيم؟»

كان روب مذهولًا.

«هذا الرجل كان هناك، جالس في الشمس».

لقد كان مجرد رجل رابض في عباءته من الصوف، وقد اقتعد الأرض واتكأ وأسند ظهره إلى الحائط ليحتمي من الرياح الباردة.

«هل أنت متأكد؟»

«نعم، يا حكيم، رأيته يتتبعك أمس أيضًا، حتى الآن يراقبك».

«عندما أغادر من هنا، هل يمكنك تتبعه بذكاء، حتى نكتشف من هو؟»

التمعت عينا الهارشا. «حسنًا، أيها الحكيم».

وفي وقت متأخر من ذلك المساء، جاء هارشا إلى الحي اليهودي وطرق باب روب.

«تتبعك إلى المنزل، يا حكيم. لما غادرك هنا، تتبعته إلى مسجد الجمعة. كنت ذكيًّا جدًّا، أيها المحترم، كنت متخفيًا. لقد دخل بيت الملا مرتديًا عباءته الرثة، وبعد فترة وجيزة ظهر مرتديًا العباءة السوداء، ودخل المسجد في الوقت المناسب لأداء الصلاة الأخيرة (صلاة العشاء). إنه ملا، يا حكيم».

أعرب روب عن شكره له وغادر هارشا.

كان الملا قد أرسله أصدقاء قندراسه، وكان متأكدًا، مما لا شك فيه أنهم قد تتبعوا كريم في لقائه مع ابن سينا وروب ثم راقبوا لتحديد مدى تورط روب مع الوزير المرتقب.

ربما خلصوا إلى أنه غير ضار؛ لأنه في اليوم التالي أخذ حذره جيدًا ولكن لم يستطع رؤية أي شخص من المحتمل أنه كان يتتبعه، وبقدر ما يستطيع أن يقول، في الأيام التي تلت ذلك لم يخضع للتجسس مرة أخرى.

ظل الجو باردًا، رغم أن الربيع كان قادمًا. فقط قمم الجبال الأرجوانية الرمادية ابيضّت من الثلوج، وفي الحديقة كانت الأغصان المتلألئة لأشجار المشمش مغطاة ببراعم سوداء صغيرة، مستديرة تمامًا.

جاء جنديان ذات صباح وأحضرا روب إلى دار الفردوس. وفي غرفة العرش الحجرية الباردة، وقفت جماعات صغيرة من أعضاء البلاط الملكي ذوي الشفاه الزرقاء على مضض. كريم لم يكن بينهم. جلس الشاه على الطاولة فوق الشبكة الأرضية التي من خلالها انجرفت حرارة التنور. بعد أن كان سجود «روي زمين» (الوجه على الأرض) في مكان منعزل، أشار إلى روب للانضمام إليه، وثبت أن الدفء الذي يحبسه مفرش المائدة الثقيل أنه ممتع.

نصبت لعبة الشطرنج بالفعل، وبدون محادثة قام علاء شاه بالنقلة الأولى.

قال الآن: «آه، أيها الذمي، لقد أصبحت قط جائع».

لقد كان صحيحًا، تعلّم روب أن يهاجم.

لعب الشاه بوجه عابس وعينين منكبتين على رقعة الشطرنج. استخدم روب فيليه لإلحاق الضرر وسرعان ما حصل على جمل وحصان وفارس وثلاثة جنود.

تابع المتفرجون المباراة بتركيز وفي صمت خال من التعبيرات، ومما لا شك فيه أن البعض أصيب بالرعب والبعض ابتهج بحقيقة أن أوروبي كافر بدا وكأنه يتفوق على الشاه.

ولكن الملك كان لديه خبرة كبيرة بصفته جنرالًا متسللًا. وبإيجاز كما بدأ روب يعتقد أنه زميل جيد وخبير في الإستراتيجية، قدم علاء شاه التضحيات وجذب عدوه إليه. لقد استغل فيليه ببراعة أكثر من استخدام حنا بعل لأفياله السبعة والثلاثين، حتى اختفت أفيال روب وأحصنته. لا يزال روب يقاتل بإصرار، وهو يتذكر كل ما علمه إياه ميردين. لقد كان وقتًا محترمًا قبل أن يلقى الهزيمة. وعندما انتهى أشادت الحاشية

بانتصار الملك وسمح علاء شاه لنفسه أن يبدو سعيدًا.

نزع الشاه من إصبعه خاتمًا ثقيلًا من الذهب الخالص ووضعه في يد روب اليمنى. «عن الخلعة، نعطيها الآن، سيكون لديك منزل كبير بما يكفي للترفيه الملكي».

مع الحرم، وماري في الحرم.

راقب النبلاء وكلهم آذان مصغية.

«سأرتدي هذا الخاتم بكل فخر وامتنان. أما بالنسبة للخلعة، فأنا سعيد جدًّا بكرم جلالتك في الماضي وسأبقى في منزلي».

كان صوته متَّسمًا بالاحترام لكنه كان حازمًا جدًّا ولم يدر عينيه بعيدًا بالسرعة الكافية لإثبات التواضع، وكل الحاضرين سمعوا الذمي يقول هذه الكلمات.

وبحلول صباح اليوم التالي، بلغت الأنباء ابن سينا.

وليس من قبيل الصدفة أن شيخ الأطباء كان وزيرًا مرتين. كان لديه مصادر للمعلومات في البلاط الملكي وبين الخدم في دار الفردوس، وسمع من عدة مصادر عن غباء متهور صدر من مساعده الذمي.

كما هو الحال دائمًا في أوقات الأزمات، جلس ابن سينا وفكر. كان يدرك أن وجوده في عاصمة علاء شاه كان مصدر فخر ملكي، مما مكن الشاه من مقارنة نفسه بخلفاء بغداد بصفته عاهل الثقافة وراعي العلم. لكن ابن سينا كان يدرك أيضًا أن تأثيره له حدود؛ الاستئناف المباشر لن ينقذ يسي بن بنيامين.

وطوال حياته، كان علاء شاه يحلم بأن يكون أعظم شاه، ملكًا خالد الذكر. والآن كان يستعد لحرب يمكن أن تأخذه إما إلى الخلود أو الاندثار

والنسيان، وكان من المستحيل في هذه اللحظة أن يسمح لأي شخص بعرقلة إرادته.

علم ابن سينا أن الملك سوف يقتل يسي بن بنيامين.

ربما سبق أن صدرت أوامر لهاجمين مجهولين بالانقضاض على الحكيم الشاب في الشوارع، أو ربما يعتقله الجنود ويخضع للمحاكمة ويصدر عليه حكم من محكمة إسلامية. كان علاء شاه يتمتع بدهاء سياسي وسوف يستخدم إعدام هذا الذمي بطريقة تخدمه على أفضل وجه.

درس ابن سينا علاء شاه لسنوات وفهم الطريقة التي يفكر بها عقل الملك. كان يعرف ما يجب فعله.

وفي ذلك الصباح استدعى فريق عمله في البيمارستان. وقال: «وردت إلينا أنباء أن عددًا من المرضى في بلدة إيذج يعانون من مرض شديد يحول دون سفرهم إلى المستشفى هنا»، وهذا صحيح. قال ليسي بن بنيامين: «لذلك يجب أن تذهب إلى إيذج وتتولى إدارة مستوصف لعلاج هؤلاء الناس».

بعد أن ناقشا الأعشاب والأدوية التي يجب أن يأخذها معه في رحل على ظهر حمار، والأدوية التي يمكن العثور عليها في تلك المدينة، وتاريخ بعض المرضى المعروف أنهم مرضى هناك، قال يسي وداعًا وغادر دون تأخير.

كانت إيذج على بعد مسيرة ثلاثة أيام سفر في رحلة بطيئة وغير مريحة إلى الجنوب، وسوف يستغرق المستوصف ثلاثة أيام على الأقل. ستعطي الرحلة ابن سينا أكثر من الوقت الكافي.

وبعد ظهر اليوم التالي، ذهب بمفرده إلى الحي اليهودي وذهب مباشرة إلى منزل مساعده.

أجابت الزوجة الطرق على الباب وهي تحمل طفلها. ملأت الدهشة والحيرة وجهها لفترة وجيزة عندما رأت شيخ الأطباء يقف على عتبة منزلها، لكنها فاقت بسرعة وسمحت له بالدخول من باب المجاملة المناسبة. لقد كان منزلًا عاديًّا ولكن في حالة جيدة، وقد كان مريحًا، حيث امتلأ بالملصقات الجدارية وافترشت الأرضيات الترابية بالسجاجيد. وبسرعة محمودة، وضعت أمامه طبقًا فخاريًّا من كعك البذور الحلوة، وشربات من ماء الورد بنكهة الحبهان.

لم يعتمد على جهلها باللغة، عندما حاول التحدث معها سرعان ما اتضح أنها تعرف كلمات قليلة بالفارسية.

أراد التحدث باستفاضة وبإقناع، وأراد أن يخبرها أنه عندما أدرك أولًا القدرات العقلية لزوجها وحسن سليقته، كان يتضور جوعًا بعد الشاب الأجنبي الكبير بالطريقة التي يشتهي بها البخيل كنزًا أو الطريقة التي يشتهي بها الرجل امرأة. لقد رغب في أن يدرس الأوروبي الطب؛ لأنه كان واضحًا له أن الله قد خلق يسي بن بنيامين ليكون طبيبًا ومعالجًا.

«سوف يتألق مثل الضوء الساطع، لقد أوشك أن يحقق ذلك، لكن الوقت ما زال مبكرًا، فهو لم يصل إلى هناك بعد.

«كل الملوك مجانين، بالنسبة لشخص يتمتع بالسلطة المطلقة، ليس من الصعب أن يقتل روحًا أكثر من منح خلعة. ومع ذلك، إذا تملصت الآن، فسوف يكون ذلك بمثابة استياء لبقية حياتكما؛ لأنه قد جاء حتى الآن، وتجرأ كثيرًا. أعرف أنه ليس يهوديًّا».

جلست المرأة وحملت الطفل، تراقب ابن سينا بتوتر متزايد. حاول

التحدث بالعبرية دون جدوى، ثم التركية والعربية في تتابع سريع. كان فقيهًا لغويًّا وعالمًا لغويًّا، لكنه كان يعرف القليل من اللغات الأوروبية؛ لأنه لم يتعلم لغة إلا سعيًا للدراسة وطلب العلم. تحدّث إليها باللغة اليونانية دون ردّ.

ثم عاد إلى اللغة اللاتينية ورأى رأسها يتحرك قليلًا وعيناها تطرفان.

«الملك يريدك أن تأتي إليه، إذا لم تفعلي ذلك سوف يقتل زوجك». كررها:

«ماذا تقول؟ قالت.

كررها ببطء شديد.

بدأ الطفل يثير ضجة بين ذراعيها، لكن المرأة لم تأبه لطفلها، حدّقت في ابن سينا وقد امتقع وجهها، كان وجهًا متحجرًا لكنه رأى أنه يحتوي على عنصر لم يلاحظه من قبل. لقد فهم الرجل العجوز الناس، ولأول مرة خفت حدة قلقه؛ لأنه أدرك قوة المرأة، سوف يقوم بالترتيبات وسوف تفعل هي كل ما هو ضروري.

جاء العبيد يحملون هودجًا لها. لم تكن تعرف ماذا تفعل مع صغيرها روب جيه؛ لذا أحضرته معها، كان حلًّا سعيدًا؛ لأنه في حرم دار الفردوس استقبل الطفل عدد من النساء المبتهجات.

أخذت إلى المراحيض، وهو أمر محرج. أخبرها روب أنه من الواجب الديني على النساء المسلمات إزالة شعر العانة كل عشرة أيام باستخدام مزيل الشعر بالليمون والزرنيخ. وبالمثل، ينتف شعر الإبط أو يحلق مرة في الأسبوع للمرأة المتزوجة، وكل أسبوعين للأرملة، ومرة في الشهر للفتاة العذراء. كانت النساء اللواتي شاهدنها في المرحاض يحدقن فيها

في اشمئزاز سافر.

بعد أن اغتسلت، عُرض عليها ثلاث صوان من العطور والأصباغ لكنها لم تستخدم سوى القليل من العطر.

ثم اقتيدت إلى غرفة وطلب منها الانتظار. كانت الغرفة مؤثثة فقط بسرير كبير ووسائد وبطانيات وخزانة مغلقة موضوع عليها حوض من ماء. وفي مكان قريب، عزف الموسيقيون. كانت باردة. ولّما انتظرت فترة بدت أنها فترة طويلة، التقطت بطانية ولفّت نفسها.

والآن جاء علاء شاه. كانت مرعوبة لكنه ابتسم لرؤيتها مدثّرة بالبطانية من الرأس إلى أخمص القدمين.

أشار بإصبعه حتى تزيل البطانية، ثم أشار بفارغ الصبر حتى تخلع دثارها أيضًا. كانت تعلم أنها نحيفة مقارنة بمعظم النساء الشرقيات، وقد بذلت النساء الفارسيات قصارى جهدهن لإخبارها أن النمش الذي يغزو وجهها هو عقاب الله العادل على امرأة صفيقة الوجه لم ترتد الحجاب.

داعبت يداه الشعر الأحمر الغزير على رأسها، ورفع خصلات ملء يديه ليتشمم شعرها، لم تكن قد عطّرت شعرها ونقص العطر جعله يشمئز.

كان بمقدورها التملص من الموقف الراهن للحظة من خلال القلق على طفلها، إذا كان روب جيه الصغير أكبر سنًا، هل يتذكر أنه حضر إلى هذا المكان؟ الصيحات الجذلة والغزل الرقيق للنساء؟ وجوههم الرقيقة الحنونة تتلألأ عليه؟ أيديهم تداعبه؟

كانت يدا الملك لا تزالان على رأسها، كان يتحدث بالفارسية، سواء مع نفسه أو معها، لكنها لم تستطع معرفة ذلك. لم تجرؤ حتى على هز

رأسها للإشارة إلى أنها لا تفهم، خشية أن يفسر الإيماءة على أنها رفض.

ذهب مباشرة إلى فحص لطخة على جسدها، كان أكثر فضولًا بشأن شعرها.

«الحناء؟»

فهمت الكلمة المفردة وأكدت له أن اللون ليس لون الحناء، بلغة لم يفهمها بالطبع. سحب جديلة بلطف بأطراف أصابعه وحاول غسل اللون الأحمر.

وفي لحظة خلع ثوبه القطني الفضفاض، كان مفتول العضلات وكان خصره ممتلئًا وله بطن مندلق ومشعر. كان جسده كله مشعرًا. بدا قضيبه أصغر من قضيب روب وأكثر قتامة.

وفي الهودج في طريقها إلى القصر راودتها الرؤَى، من بينها كانت قد بكت وشرحت أن المسيح منع النساء المسيحيات من القيام بهذا الفعل خارج إطار الزواج؛ كما لو أنها كأنها قصة عن إحدى القديسات، فقد أشفق على دموعها وأرسلها إلى منزلها بدافع الرحمة ومن باب الشفقة. وفي رؤية أخرى، بعد أن أجبرت على ذلك لإنقاذ زوجها، كانت قد تحررت لتتمتع بالتحرر الجسدي الأكثر مجونًا وفسقًا في حياتها، وهو اغتصاب امرأة على يد عاشق خارق للطبيعة، على الرغم من قدرته على الحصول على أجمل النساء في بلاد فارس، فقد اختارها من بينهن.

الواقع لا يشبه التخيل. فحص ثدييها ولمس حلمتيها، ربما اختلف لون حلمتيها عن لون الحلمات التي اعتاد عليها. ورغم أن الهواء البارد جعل ثدييها متحجران لكنهما لم يأسراه ويلهبا شوقه. ولمّا دفعها إلى السرير، توسلت بصمت إلى أم يسوع المباركة التي تحمل اسمها. كانت وعاءً غير راغب، وجاف بسبب الخوف والغضب من هذا الرجل الذي أوشك

على إصدار الأمر بموت زوجها. لم يكن هناك أي من المداعبات اللطيفة التي يفعلها روب لتحفيزها وتهيئتها. وبدلًا من أن يكون قضيبه صلبًا مستقيمًا، كان عضو علاء شاه مرتخيًا ومتدليًا وكان يواجه صعوبة في إيلاجه، حيث لجأ إلى زيت الزيتون الذي كان يرشه على فرجها بشكل غاضب بدلًا من نفسه. وأخيرًا، دلّك فرجها بالزيت واستلقت وعيناها مغمضتان.

كانت قد اغتسلت لكنها اكتشفت أنه لم يغتسل. لم يكن قويًا. بدا وكأنه يشعر بالملل تقريبًا، وهو يهمهم بهدوء أثناء إيلاجه. في لحظات قليلة جدًّا، أخذته رجفة خافتة طفيفة لرجل كبير جدًّا وأصدر أنينًا مقززًا. ثم سحب ملك الملوك قضيبه مع امتصاص طفيف لزيت الزيتون وبارح الغرفة دون أن ينبس ببنت شفة أو يعطي إشارة عابرة.

استلقت في إذلال شديد حيث تركها دون أن تعرف ماذا تفعل بعد ذلك، لم تسمح لنفسها بالنحيب.

وفي النهاية نودي عليها من نفس النساء وأخذت إلى ابنها. ارتدت ثيابها على عجل وأخذت روب جيه الصغير وعادت إلى منزلها، وقد وضعت النساء جوالًا من الخيش مملوءًا بالبطيخ الأخضر في الهودج. ولمّا وصلت هي وروب جيه الصغير إلى الحي اليهودي، فكرت في ترك البطيخ في الطريق، لكن بدا أنه من الأسهل حمله إلى المنزل وترك الهودج يذهب في طريقه.

كان البطيخ في الأسواق سيئًا؛ لأنه كان محفوظًا في الكهوف طوال الشتاء الفارسي والكثير منه كان معطوبًا. أما هذا البطيخ كان في حالة ممتازة ونضج تمامًا عندما عاد روب من مهمته إلى مدينة إيذج، وثبت أن له نكهة جيدة على غير العادة.

64

الفتاة البدوية

إنه لأمر غريب، أن تدخل البيمارستان، ذلك المكان المقدس البارد العابق برائحة المرض ورائحة الدواء الشديدة ويعج بالأنين والصراخ والأصوات الصاخبة؛ أنشودة المستشفى. ما زال روب يلتقط أنفاسه، ولا يزال يدق قلبه وهو يدخل البيمارستان ويجد وراءه قطارًا من السائرين يتتبعونه، مثل إوز صغير يتتبع أمه، طائفة من الطلاب.

يتتبعه الذين لم يمضوا وقتًا طويلًا في تتبع الآخرين!

يتوقف ويسمح لطالب بقراءة تاريخ الإصابة بالمرض، ثم يقترب من سرير ويتحدث مع المريض، ويراقبه ويفحصه ويلمسه، ويتشمم رائحة المرض مثل الثعلب الذي يتشمم للعثور على بيضة. ويحاول خداع الفارس الأسود اللعين. وباستفاضة يناقش المريض أو الشخص المصاب مع مجموعة الطلاب، ويتلقى الآراء في كثير من الأحيان التي لا قيمة لها والتي تبدو عبثية ولكنها رائعة في بعض الأحيان. الأمر للطلاب فرصة للتعلم، والأمر لروب، فرصة لتشكيل هذه العقول في أداة نقدية تقوم بتحليل العلاج واقتراحه ورفضه واقتراحه مرة أخرى، بحيث أنه في بعض الأحيان نتيجة لتعليمهم توصل إلى استنتاجات كانت ستراوغه لولا ذلك.

حثّه ابن سينا على إلقاء محاضرة، وعندما فعل ذلك، جاء الآخرون لسماعه، لكنه لم يكن مرتاحًا حقًّا لوقوفه أمامهم، حيث كان يقف ويتعرق بشدة أثناء حديثه عن موضوع راجعه بعناية في الكتب. كان يدرك كيف يجب أن ينظر إليهم، وكيف يكون أكبر مقارنة بمعظمهم

وبأنفه الإنجليزي المكسور، وكان على دراية بكيفية نطقه، في الوقت الحالي كان يتقن اللغة بما يكفي لفهم لهجته.

وبالمثل، ولأن ابن سينا طالبه بأن يكون كاتبًا، فقد صاغ مقالًا قصيرًا عن علاج الجروح بالخمر، لقد جاهد في كتابة المقال لكنه لم يستمتع به حتى بعد الانتهاء منه ونسخه ووضعه في المكتبة.

كان يعلم أنه يجب عليه نقل العلم والمهارات، حيث انتقلت له هذه العلوم والمهارات، لكن ميردين كان مخطئًا: لم يرغب روب في فعل كل شيء، لم يشكّل نفسه على اسم ابن سينا، لم يكن لديه طموح يراوده في أن يكون فيلسوفًا ومعلمًا وعالمًا بأصول الدين، فلا حاجة له بالكتابة أو الوعظ. لقد أجبر على التعلم والسعي حتى يتمكن من معرفة ما يجب فعله عندما يتعين عليه التصرف. بالنسبة له، كان التحدي يأتي في كل مرة يمسك فيها يدي مريض، وهو نفس السحر الذي شعر به لأول مرة عندما كان في التاسعة من عمره.

وذات صباح، فتاة تدعى سيتارا أحضرها أبوها، وهو خيّام بدوي، إلى البيمارستان. كانت مريضة للغاية وتعاني من غثيان وقيء وتعاني من ألم رهيب في الجزء السفلي الأيمن من بطنها المتحجر. عرف روب ما هو المرض ولكن لم يكن لديه أي فكرة عن كيفية علاج المرض الجانبي. تأوهت الفتاة وبالكاد استطاعت الإجابة، لكنه سألها بإسهاب، ساعيًا لمعرفة شيء قد يريه الطريق.

قام بتطهيرها، وجرّب الكمادات الساخنة والكمادات الباردة، وفي تلك الليلة أخبر زوجته عن الفتاة البدوية وطلب من ماري أن تصلي من أجلها.

استولى على ماري شعور بالحزن لفكرة أن فتاة صغيرة أصابها نفس المرض الذي أودى بحياة جيمس جيكي كولين. تذكرت حقيقة أن أباها

رقد في قبر مجهول في وادي أحمد بهمذان.

وفي صباح اليوم التالي، فصد روب الفتاة البدوية وأعطاها أدوية وأعشابًا، لكن كل ما فعله كان بلا جدوى. رآها وقد صارت محمومة بعينين غائرتين وبدأت تذبل مثل ورقة بعد الصقيع. وافتها المنية في اليوم الثالث.

لقد ناقش تفاصيل حياتها القصيرة بشق الأنفس.

قد كانت بصحة جيدة قبل طائفة من الهجمات المؤلمة التي أودت بحياتها. عذراء تبلغ من العمر اثني عشر عامًا جاءها الطمث ولكن مؤخرًا. . . ما هو القاسم المشترك بين الفتاة البدوية وبين طفل صغير وبين حميه الذي في منتصف العمر؟ لم يستطع روب رؤية أي شيء.

ومع ذلك، طويت صحيفة الثلاثة جميعًا بالطريقة نفسها بالضبط.

أصبح الخلاف بين علاء ووزيره، الإمام قندراسه، على أشده وأكثر علنية بين جمهور الشاه. جلس الإمام على العرش الأصغر أسفل يد علاء شاه اليمنى، كما هو معتاد، لكنه خاطب الشاه بلطف بارد لدرجة أن رسالته كانت واضحة لجميع الحاضرين.

وفي تلك الليلة جلس روب في منزل ابن سينا ولعبا لعبة الشطرنج. لقد كان درسًا أكثر من كونه مباراة، مثل رجل ناضج يلعب مع طفل. بدا أن ابن سينا قد فكر في المباراة بأكملها مسبقًا. حرّك القطع دون تردد. لم يستطع روب احتواءه ولكنه أدرك الحاجة إلى التخطيط للمستقبل، وسرعان ما أصبح هذا التبصر جزءًا من إستراتيجيته الخاصة.

قال روب: «تتجمع مجموعات صغيرة من الناس في الشوارع وفي الميادين، ويتحدثون بهدوء».

«يراودهم القلق ويضطربون عندما تتصارع حاشية علاء شاه مع صاحب دار الفردوس؛ لأنهم يخشون أن يدمر الشجار العالم». أخذ ابن سينا طابية مع حصانه. «إنها ستمضي، إنها تمضي دائمًا، وسوف ينجو ويبقى المباركون».

لعبا لبعض الوقت في صمت، ثم أخبر ابن سينا بوفاة الفتاة البدوية، وسرد الأعراض ووصف الحالتين الأخريين المصابتين بسل الكلاب الفيروسي (ديستمبر) في البطن الذي كان يطارده.

«ساتيرا كان اسم أمي». تنهّد ابن سينا، لكنه لم يكن لديه تفسير لوفاة الفتاة. «هناك العديد من الإجابات التي لم نحصل عليها».

قال روب ببطء: «لن نحصل عليها إلا إذا سعينا وراءها».

هز ابن سينا كتفيه واختار تغيير الموضوع من خلال أخبار البلاط الملكي ذات الصلة، وكشف عن إرسال بعثة ملكية إلى الهند. ليسوا غزاة هذه المرة، ولكن التجار الذين فوضهم الشاه بشراء الفولاذ الهندي أو التّبر الذي يصهر؛ لأن دان فانجاليل لم يكن لديه أي فولاذ متبقٍّ لصنع الشفرات الزرقاء المنقوشة التي كان علاء شاه يقدرها بشدة.

«لقد طلب منهم عدم العودة بدون قافلة كاملة من التّبر أو الفولاذ الصلب، حتى ولو كان عليهم الذهاب إلى نهاية طريق الحرير للحصول عليها».

«ماذا يوجد في نهاية طريق الحرير؟» سأل روب.

«تشونغ كو، بلد ضخم».

«وماذا بعد ذلك؟»

«هزّ ابن سينا كتفيه. «مياه». المحيطات».

«قال لي المسافرون إن الأرض مسطحة ومحاطة بالنار، يمكن للمرء أن يغامر فقط حتى الآن قبل أن يسقط في النار التي هي جهنم».

قال ابن سينا بازدراء: «ثرثرة الرحالة». «هذا غير صحيح، لقد قرأت أنه خارج الأرض المأهولة بالسكان كل شيء هو الملح والرمل، مثل صحراء دشت-كوير (صحراء الملح الكبرى). ومكتوب أيضًا أن الكثير من الأرض من جليد». حدّق بتأمل في روب. «ماذا وراء بلدك؟»

«بريطانيا جزيرة، ما وراءها محيط ثم الدنمارك، أرض الشمال التي جاء منها ملكنا. أبعد من ذلك، يقال إن هناك أرضًا من الجليد».

«وإذا ذهب المرء شمالًا من بلاد فارس، فإن أرض الروس ما وراء غزنة، وما وراءها أرض من الجليد. قال ابن سينا «نعم، أعتقد أنه صحيح أن الكثير من الأرض مغطى بالجليد». «ولكن لا يوجد جحيم ناري عند الأطراف؛ لأن أهل العلم والفكر يعرفون دائمًا أن الأرض مستديرة مثل ثمرة البرقوق. لقد سافرت في البحر. وعند رؤية سفينة قادمة بعيدة، فإن أول ما يرى في الأفق هو طرف الصاري، ثم المزيد والمزيد من المركبة وهي تبحر فوق السطح المنحني للأرض».

هزم روب على رقعة الشطرنج عن طريق محاصرة الملك، وهو تقريبًا شارد الذهن، ثم استدعى عبدًا لإحضار شربات النبيذ ووعاء من الفستق. «ألا تتذكر الفلكي بطليموس؟»

ابتسم روب، لقد قرأ فقط ما يكفي من علم الفلك لتلبية متطلبات المدرسة. «يوناني قديم كتب كتاباته في مصر».

«وليكن، كتب أن الأرض كروية، معلقة تحت سماء مقعرة، وهي مركز الكون، حولها دائرة حول الشمس والقمر، وهذا الذي يجعل الليل والنهار».

«هذه هي الكرة الأرضية، بسطحها البحري والأرضي والجبال والأنهار والغابات والصحاري وأماكن الجليد، هل هي جوفاء أم صلبة؟ وإذا كانت صلبة فما هي طبيعة باطنها؟

ابتسم الرجل العجوز وهزّ كتفيه استهجانًا، على طبيعته الآن وهو يمتّع نفسه. «لا يمكننا أن نعرف، إن الأرض هائلة، كما تفهم، للذين ساروا على قطعة شاسعة منها وساروا فوقها. ونحن مجرد رجال صغار لا نستطيع أن نتبحر بعمق كاف للإجابة عن مثل هذا السؤال».

«ولكن إذا كنت قادرًا على النظر داخل مركز الأرض، فهل ستفعل ذلك؟»

«بالطبع!»

«ومع ذلك، يمكنك أن تنظر داخل جسم الإنسان، لكنك لا تستطيع ذلك».

تلاشت ابتسامة ابن سينا. «البشرية أقرب إلى الوحشية ويجب أن تعيش وفقًا للقواعد. إذا لم يكن الأمر كذلك، فسنغرق في طبيعتنا الحيوانية ونهلك. أحد قواعدنا يحظر تشويه الموتى، الذين سينقذهم النبي يومًا ما من قبورهم».

«لماذا يعاني الناس من سل الكلاب الفيروسي (ديستمبر) في البطن؟»

«هزّ ابن سينا كتفيه. «افتح بطن خنزير وادرس اللغز. أعضاء الخنزير متطابقة مع أعضاء الإنسان».

«هل أنت على يقين من هذا، يا شيخ الأطباء؟»

«نعم. حتى أنه كان مكتوب منذ زمن جالينوس، الذي لم يسمح له رفاقه اليونانيون بتشريح البشر. اليهود والمسيحيون لديهم حظر مماثل.

يجتمع جميع رجال الدين جميعهم على كراهية التشريح هذا». نظر إليه ابن سينا باهتمام بالغ. «لقد تغلبت على الكثير من الصعاب لتصبح طبيبًا. لكن يجب أن تمارس العلاج في إطار حكم الدين والإرادة العامة لرجال الدين. وقال: «إذا لم تفعل، فإن قوتهم ستدمرك».

عاد روب إلى المنزل وهو يحدق في السماء حتى سبحت بقع الضوء أمام عينيه. ومن بين الكواكب، لم يتمكن إلا من تمييز القمر وزحل، والتوهج الذي ربما كان كوكب المشتري؛ لأنه تلألأ بثبات وسط التألق المرصع بالنجوم.

أدرك أن ابن سينا لم يكن نصف إله. وبإيجاز كان شيخ الأطباء عالمًا مسنًا عالقًا بين الطب والإيمان الذي تربى عليه على نحو ديني. أحب روب الرجل العجوز أكثر بسبب قيوده البشرية، لكنه كان يشعر بأنه مخدوع بطريقة ما، مثل صبي صغير يدرك هشاشة أبيه.

ولمّا وطئت قدماه الحي اليهودي كان غارقًا في تأمله وتفكيره في حين أنه كان يرى احتياجات الحصان البني. وداخل المنزل كانت ماري والطفل نائمين، وخلع ملابسه بحرص خشية أن يحدث ضجة ثم استلقى مستيقظًا، وهو يفكر في سبب حدوث سل الكلاب الفيروسي (ديستمبر) في البطن.

وفي منتصف الليل، استيقظت ماري على عجل وركضت إلى الخارج، حيث تقيأت ومرضت. تتبعها، كان مستغرقًا في المرض الذي أصاب أباها، وكان يدرك أن القيء هو أول عرض من عوارضه. وعلى الرغم من اعتراضها، فقد فحصها عندما دخلت المنزل، لكن بطنها كان رخوًا ولم تكن تعاني من حمى.

وفي النهاية عادا إلى فراشهما.

«روب!» نادت عليه مرارًا وتكرارًا. ومرة أخرى: «يا روبي» صرخة حزن، وكأنها انطلقت من كابوس.

همس قائلًا: «صه، وإلا سوف توقظي الصغير». اندهش لأنه لم يكن يعرف أنها ترى أحلامًا سيئة. كان يداعب رأسها ويربت عليه ويواسيها، وسحبته إليها بقوة يائسة.

«أنا هنا، يا ماري. أنا هنا، يا حبيبتي». تحدث لها بحميمية حديثًا من القلب يتسم بالهدوء والبساطة حتى هدأت، وتودد إليها بمغازلات بالإنجليزية، والفارسية، واللغة العبرية.

وقد أجفلت مرة أخرى بعد وقت قصير، لكنها بعد ذلك لمست وجهه وتنهدت وحضنت رأسه بين ذراعيها، واستلقى روب وخده على صدر زوجته الناعم حتى أخذه خفقان قلبها البطيء الساحر إلى رحاب الطمأنينة أيضًا.

65

محاكمة كريم

داعبت الشمس الدافئة النباتات الخضراء الشاحبة في باطن الأرض فخرجت إلى النور مع حلول موسم الربيع على أصفهان. كانت الزرازير ترفرف في الهواء حاملة القش وأغصان الأعشاش في مناقيرها، وقد تدفق الجريان السطحي من الأغادير والوديان إلى نهر الحياة، الذي ارتفع عجاجه مع ارتفاع منسوب المياه. كان الأمر كما لو أن روب قد أخذ يد الأرض في يده واستطاع أن يشعر بغلواء الطبيعة الأبدية التي لا حدود لها. ومن بين الأدلة الأخرى التي تشهد على النماء والخصوبة كانت ماري. استمر غثيانها وتفاقم، وهذه المرة لم يكونا بحاجة إلى فارا لإخبارهما بأنها حبلى. كان مسرورًا ولكن ماري كانت متقلبة المزاج، وأسرع في التعبير عن سخطها واستيائها مما كانت عليه من قبل. لقد أمضى وقتًا أكثر من أي وقت مضى مع ابنه. أضاء الوجه الصغير عندما رآه روب جيه، وصاح الطفل وتلوّى مثل جرو يهز ذيله. علّمه روب شدّ أجزاء من جسم أبيه وسحبها بطريقة تفيض بالسعادة.

قال: «اسحب لحية بابا»، وشعر بالفخر بقوة السحب.

«اسحب أذن بابا».

«اسحب أنف بابا».

وفي الأسبوع نفسه الذي خطا فيه الطفل أولى خطواته المؤقتة المتأرجحة، بدأ أيضًا في الحديث. فلا عجب أن كلمته الأولى كانت «بابا». ملأ صوت

المخلوق الصغير الذي يخاطبه روب بحب كبير لدرجة أنه وجد حظه الجيد يصعب تصديقه.

وفي منتصف فترة ما بعد الظهيرة، أقنع ماري بالسير إلى السوق الأرمينية معه، وفي حين كان هو يحمل الصغير في السوق وضع الطفل بالقرب من متجر الجلود حتى استطاع روب جيه من أن يخطو خطواته الكثيرة المتأرجحة في اتجاه بريسكا، صاحت المرضعة في فرح وابتهاج واحتضنت الصغير بين ذراعيها.

وفي طريق العودة إلى المنزل عبر الحي اليهودي، ابتسما وتبادلا التحيات مع هذا وذاك، ولأنه لم تلتفتن النساء إلى ماري منذ أن غادرت فارا، فلن يلعن أي شخص المرأة الأوروبية من الأغيار بعد الآن، وقد اعتاد يهود الحي على وجودها.

وفي وقت لاحق، في حين كانت ماري تطهو طعام البيلاه وكان روب يهذّب إحدى أشجار المشمش، ركضت اثنتان من بنات ميخا هاليفي الخبّاز من المنزل المجاور ولعبتا في الحديقة مع ابنه. كان روب مسرورًا بصوت صياحهم الطفولي وحماقاتهم.

كان هناك أناس أسوأ من يهود الحي اليهودي، كما قال لنفسه، وهناك أماكن أسوأ من أصفهان.

وفي أحد الأيام، عندما سمع روب أن الجوزجاني كان يلقي محاضرة عن تشريح خنزير، تطوّع للمساعدة. أثبت الحيوان المعني أنه خنزير شجاع وأنيابه شرسة مثل فيل صغير، وله عينا خنزير متوسطتان، وجسم طويل مغطى بهلبات من الشعر الرمادي الخشن، وقضيب صلب مشعر. كان الخنزير ميتًا لمدة يوم أو نحو ذلك وتشممه، لكنه كان يتغذى على الحبوب وكانت الرائحة السائدة عند فتح المعدة ناتجة عن تخمر

الجعة، حمضية قليلًا. علم روب أن هذه الروائح لم تكن سيئة أو جيدة، كل الروائح كانت مثيرة للاهتمام؛ لأن كلًّا منها له حكايته الخاصة. لكن لم يخبره أنفه ولا عيناه ولا يداه الباحثتان عن أي شيء بخصوص سل الكلاب الفيروسي (ديستمبر) في البطن وهو يبحث عن علامات في البطن والأمعاء. كان الجوزجاني مهتمًّا بإلقاء محاضرته أكثر من اهتمامه بالسماح لروب بالوصول إلى خنزيره، وكان منزعجًا بشكل مبرر من مقدار الوقت الذي يقضيه في البحث والتنقيب.

وبعد المحاضرة، لم يكن روب أكثر حكمة من ذي قبل، فذهب للقاء ابن سينا في البيمارستان. كان يعلم من النظرة الأولى لشيخ الأطباء أن ثمة شيئًا غير مرغوب فيه قد حدث.

«ديسبينا وكريم هارون، ألقي القبض عليهما».

قال بلطف: «اجلس، يا شيخ الأطباء، وخفف عن نفسك»، لأن ابن سينا كان مهزوزًا ومرتبكًا وأكبر عمرًا مما يظهر عيه.

لقد كان إدراكًا لأبشع مخاوف روب. أجبر نفسه على طرح الأسئلة المطلوبة ولم يندهش عندما علم أن التهمتين كانتا زنا وفحشًا.

تتبع نوّاب الإمام قندراسه كريم إلى منزل ابن سينا في ذلك الصباح. اقتحم الملالي والجنود البرج الحجري ووجدوا العاشقين.

«ماذا عن الخصي؟»

نظر إليه ابن سينا في ذلك الوقت الذي استغرقه في طرفة عين، وكره روب نفسه، واعيًا بكل ما كشفه سؤاله، لكن ابن سينا هز رأسه فقط.

مات واصف، فلولا قتله على حين غرة لما تمكنوا من دخول البرج».

«كيف يمكننا مساعدة كريم وديسبينا؟»

قال ابن سينا: «وحده علاء شاه من يستطيع مساعدتهما». «يجب علينا أن نتوسل إليه».

في حين كان روب وابن سينا يسيران في شوارع أصفهان، أدار الناس أعينهم، غير راغبين في أن ينظروا إلى ابن سينا بعين الشفقة.

وفي دار الفردوس، استقبلهما قائد الحرس بالمجاملة التي تظهر عادةً لشيخ الأطباء، ولكن أذن لهما بالدخول إلى غرفة الانتظار بدلاً من حضرة الشاه.

تركهما فرهاد وعاد في الوقت الحالي ليخبرهما أن الملك أعرب عن أسفه على عدم تمكنه من قضاء الوقت معهما في ذلك اليوم.

قال ابن سينا: «سوف ننتظر». «ربما سوف تحين فرصة».

كان فرهاد سعيدًا برؤية الجبابرة يسقطون، ابتسم لروب وهو ينحني.

انتظرا بعد ظهر ذلك اليوم كله، ثم أخذ روب ابن سينا إلى منزله.

وعادا في الصباح. ومرة أخرى كان فرهاد حريصًا على أن يكون مهذبًا ومجاملًا. اقتيدا إلى نفس الغرفة وسمح لهم بالاسترخاء، لكن اتضح أن الملك لن يقابلهما.

ومع ذلك، فقد انتظرا.

نادرًا ما تحدّث ابن سينا. وذات مرة، تنهّد. قال: «لقد كانت ابنة لي». وبعد فترة: «من الأسهل على الشاه أن يتعامل مع ضَربة قندراسه الجريئة على أنها هزيمة صغيرة بدلًا من أن يتحدى الوزير».

وجلسا طوال اليوم الثاني في دار الفردوس. وأدركا رويدًا رويدًا أنه على الرغم من شهرة شيخ الأطباء وحقيقة أن كريم هو المفضل لدى علاء

شاه، فإن الملك لن يفعل شيئًا.

قال روب بحزن: «إنه على استعداد ليفتدي كريم من قندراسه». «وعلى الرغم من أنهما كانا يلعبان لعبة الشطرنج وكان كريم قطعة لن تضيع بشكل محزن».

وقال ابن سينا: «في غضون يومين سوف تحتشد الناس». «يجب أن نسهل الأمر على الشاه لتقديم يدا العون والمساعدة لهما. سوف أطلب من الملك أن يعفو عنهما. أنا زوج المرأة وكريم محبوب لدى الناس. سوف يجأرون لدعم طلبي لإنقاذ بطلهم في السباق. سوف يسمح الشاه بأن يبدو أنه يمنح العفو نزولًا على إرادة رعاياه». قال ابن سينا، إذا حدث هذا، فقد يساط كريم بعشرين جلدة وتضرب ديسبينا ويحكم عليها بالحبس مدى الحياة في منزل سيدها.

ولكن لما برحا دار الفردوس، صادفا الجوزجاني الذي كان ينتظرهما. أحب الجوزجاني، شيخ الجراحين، معلمه بقدر ما أحب أي رجل. ومن منطلق هذا الحب، جلب له أخبارًا لا يحمد عقباها.

قد خضع كريم وديسبينا للمثول أمام محكمة إسلامية. أدلى ثلاثة بشهادتهم، كل منهم صدر له أمر من الملّا بالإدلاء بشهادته. لا شك في أنه يريد تجنب التعذيب، لم تحاول ديسبينا ولا كريم تقديم دفاع.

وكان المفتي قد حكم على كل منهما بالإعدام في صباح اليوم التالي.

«المرأة ديسبينا سيقطع رأسها، وكريم هارون سيمزق بطنه».

حدّقا بعضهما في بعضًا في يأس. انتظر روب ابن سينا ليخبر الجوزجاني كيف أن كريم وديسبينا يمكن أن ينقذا، لكن الرجل العجوز هزّ رأسه. قال بصرامة: «لا يمكننا نقض الحكم الصادر بشأنهما». «لا يسعنا إلا أن

نتأكد من أن نهايتهما تكون رحيمة».

قال الجوزجاني بهدوء: «إذًا ثمة أشياء يجب القيام بها». «دفع الرشاوى. وبدلًا من المتدرب الطبي في سجن الكيلونتير علينا أن نستبدل المتدرب الطبي بطبيب نثق به».

وعلى الرغم من دفء هواء الربيع، شعر روب بالبرد. قال: «فليكن أنا».

وفي تلك الليلة جافى النوم مضجعه. نهض قبل الفجر وركب الحصان البني في المدينة المظلمة. وفي منزل ابن سينا توقع أن يرى الخصي واصف في الظلام الدامس. لم يكن هناك نور ولا حياة في غرف البرج.

أعطاه ابن سينا جرة من عصير العنب. وقال: «إنه منقوع بشدة في المواد الأفيونية ومسحوق من بذور القنب النقية يسمى المرقد (المخدر)». «هنا تكمن المخاطرة. يجب أن يشربا الكثير منه، ولكن إذا شرب أي منهما الكثير للذهاب فور استدعائهما، سوف يموتان بسببه».

أومأ روب برأسه ليظهر أنه فهم. «رحماك يا الله».

قال ابن سينا: «رحماك يا الله». كان يردد آيات من القرآن قبل أن يبرح روب الغرفة.

وفي السجن أخبر الحارس أنه الطبيب ورافقته حراسة. ذهبوا أولاً إلى زنازين النساء، وفي إحدى الزنازين يمكن سماع صوت امرأة تغني وتجهش بالبكاء بالتناوب.

كان ينتابه الخوف أن هذا الصوت الرهيب هو صوت ديسبينا لكنه لم يكن؛ وفي زنزانة صغيرة، كانت تنتظر. كانت غير مغتسلة وغير معطرة وشعرها كان يتدلى في شكل جدائل مسترسلة هشة. كان جسدها الصغير الناعم مكسوًّا برداء أسود متسخ.

أنزل جرة المرقد وذهب إليها ورفع حجابها.

«لقد أحضرت لك شيئًا لتشربيه».

في رأيه، كانت ستصبح أنثى دائمًا، وهي مزيج من آن ماري أخته، وماري زوجته، والعاهرة التي قضى منها وطرًا في العربة في الميدان، وكل أنثى أساء الناس معاملتها.

اغرورقت عيناها بالدموع لكنها رفضت المرقد.

«يجب أن تشربي، سوف يساعدك».

وهزّت رأسها، عاجلًا سأكون في الجنة، توسلت إليه بعينيها الخائفتين أن يصدقها. همست: «أعطه إياه»، ثم ودّعها روب.

تردد صدى الخطوات وهو يتتبع الجندي على طول ممر، نزولًا على طابقين قصيرين من الدرج، إلى نفق حجري آخر ثم زنزانة صغيرة أخرى.

كان صديقه شاحب اللون.

«هكذا، أيها الأوروبي».

«هكذا، يا كريم».

تعانقا، وأمسكا ببعضهما بعضًا بقوة.

«هل هي؟»

«لقد رأيتها، هي بخير».

تنهّد كريم. «لم أتحدث معها منذ أسابيع! كل ما في الأمر أني كنت أسمع صوتها فحسب، هل تفهم؟ كنت على يقين أنه لم يتبعني أحد، في

ذلك اليوم».

أومأ روب برأسه.

ارتجف فم كريم. قدم له الجرة، وأمسك بها وشرب بنهم، وأنهى ثلثي السائل قبل إعادة الجرة.

«سوف يؤدي مفعوله، مزجه ابن سينا بنفسه».

«الرجل العجوز الذي تعبده، في الغالب كنت أرى فيما يرى النائم أني أضع له السم حتى أتمكن من الحصول عليها».

«كل إنسان لديه أفكار شريرة، لن ينفذها». لسبب ما بدا أنه من الضروري أن يعرف كريم ذلك قبل أن يصبح المخَدّر ساري المفعول. «مفهوم؟»

أومأ كريم برأسه، كان روب يراقبه عن كثب، ويخشى أن يكون قد شرب منه كثيرًا. إذا أتى هذا الشراب ثماره على وجه السرعة، فإن محكمة المفتي ستنعقد مرة أخرى لتقتص من طبيب ثان.

ارتخت عينا كريم. ظل مستيقظًا لكنه آثَر الصمت. مكث روب معه في صمت حتى سمع أخيرًا خطى تقترب منهما.

«كريم».

طرفت عيناه. «هل تنفيذ الحكم الآن؟»

قال روب بلطف: «فكر في الفوز بالسباق». توقفت الخطى، وانفتح الباب؛ كانوا ثلاثة جنود واثنين من الملالي. «فكر في أسعد يوم في حياتك».

قال كريم: «زكي عمر يمكن أن يكون رجلًا طيبًا». لقد ودّع روب بابتسامة صغيرة بلهاء.

حمله اثنان من الجنود من تحت ذراعيه. تتبعهم روب مباشرة وهو يسير خلفهم، خارج الزنزانة، أسفل الممر الحجري، وصعد طابقين من الدرج، إلى الفناء حيث تتوهج أشعة الشمس الذهبية. كان الصباح رقيقًا وجميلًا، وثمة وحشية مطلقة سوف تحدث. كان يرى أن ركبتي كريم تصطكان أثناء سيره، لكن أي مراقب له سوف يعتقد أن سبب ذلك هو الخوف. لقد تجاوزوا الصف المزدوج لضحايا الكاركان إلى الحواجز، مشهد أضغاث أحلامه.

وثمة شيء فظيع كان يرقد بالفعل بجوار شخص يرتدي عباءة سوداء على أرض مضرجة بالدماء، لكن المرقد (المخدر) خدع الملالي؛ لم يستطع كريم رؤيتها.

بدا الجلاد أكبر سنًّا من روب، وهو رجل قصير سمين وله ذراعان ضخمتان وعينان خاملتان. كانت قوته ومهارته وأشد شفراته شحذًا هي ما اشترته أموال ابن سينا.

كانت عينا كريم تلتمعان عندما دفعه الجنود إلى الأمام. لم يكن هناك وداعًا؛ كانت ضربة الجلاد سريعة وماضية. انغرس طرف الشفرة في القلب وأماتته في الحال كما لو تلقى حامل الشفرة رشوة لفعل ذلك، وسمع روب صديقه يصدر صوتًا مثل تنهيدة عالية السخط.

بقي روب ليرى أن ديسبينا وكريم نقلا من السجن إلى مقبرة خارج أسوار المدينة. لقد دفع الثمن جيدًا مقابل ترديد الصلاة على القبرين الجديدين، وتلك مفارقة مريرة: وجد الملالي الذين يؤدون الصلاة بين أولئك الذين شهدوا الإعدام.

وعندما انتهت الجنازة، أنهي روب الشراب الذي بقي في الجرة وسمح للحصان البني بإعادته بدون توجيه.

ولكن لما اقتربوا من دار الفردوس كبح جماح حصانه وتأمل القصر. كان القصر جميلًا على وجه الخصوص في ذلك اليوم، حيث كانت أعلامه الملونة تتدفق وترفرف في نسيم الربيع والشمس تتلألأ على حاملي الرايات والمطرد وتثير بريق أسلحة الحراس.

استطاع أن يسمع صوت علاء شاه. نحن أربعة أصدقاء... نحن أربعة أصدقاء...

هزّ قبضته. صاح بصوت متهدج: «حقير!»

تدحرج الصوت نحو السور، وتسلل إلى أذان الحراس وأذهلهم.

نزل ضابطهم إلى الحارس الخارجي. «من هذا؟ هل بإمكانك أن تخبرني بهويته؟»

«نعم، أعتقد أنه الحكيم يسي، الذمي».

فحصوا الراكب على الحصان، ولاحظوا أنه يهز قبضته مرة أخرى، ولاحظوا جرة النبيذ وخطام الحصان المتراخي.

كان الضابط يعرف اليهودي على أنه الشخص الذي بقي وراء قوى المغيرين الهنود العائدين للاعتناء بجراح الجنود. «وجهه ملطخ بالشرب». ابتسم ابتسامة عريضة. «لكن هذا الشخص ليس قذرًا سيئًا، دعوه وشأنه»، كما قال، وشاهدوا الحصان البني يحمل الطبيب ويأخذه نحو بوابات المدينة.

66

المدينة الكئيبة

لقد كان آخر عضو ينجو في فريق أصفهان الطبي. إن التفكير في كل من ميردين وكريم اللذين واراهما الثرى كان بمثابة امتصاص للغضب والندم والحزن، ومع ذلك فإن موتهما جعل أيامه حلوة كقبلة حنونة بشكل معاكس. عاش جوهر الحياة العادية. نفس عميق، طرطرة طويلة، ضرطة بطيئة. مضغ الخبز الفاسد لما تضوّر جوعًا، ونام لمّا داهمه التعب. وليلمس خصر زوجته الذي يفتقد إلى الرشاقة، استمع إلى غطيطها. وليعض على بطن ابنه حتى يسمع قرقرة ضحكات الأطفال، امتلأت عيناه بالدموع.

وهذا على الرغم من حقيقة أن أصفهان أصبحت مكانًا كئيبًا.

إذا كان الله والإمام قندراسه قادرين على إحباط بطل أصفهان الرياضي، فكيف يمكن للرجل العادي أن يجرؤ الآن على كسر القواعد الإسلامية التي أقرها النبي؟

اختفت العاهرات وخبا صخب الميادين في الليل. طاف الملالي في دوريات في شوارع المدينة في مجموعات ثنائية، يحذرون بشأن الحجاب الذي يغطي القليل جدًّا من وجه المرأة، وينذرون رجلًا بطيئًا يتلكأ في الاستجابة للصلاة فور سماع نداء المؤذن، ويتوعدون صاحب حانة مرطبات غبي بما يكفي لبيع النبيذ. حتى في الحي اليهودي، حيث كانت النساء حريصات دائمًا على تغطية شعرهن، بدأت العديد من النساء اليهوديات في ارتداء الحجاب الإسلامي الثقيل.

تحسّر البعض في السر، وهم يفتقدون الموسيقى ومسرات الليالي التي يتذكرونها، لكن البعض الآخر عبّر عن رضاه، وفي البيمارستان شكر الحاج دافوت حسين الله أثناء صلاة الصبح. وقال: «المسجد والدولة ولدا من رحم واحد، اجتمعا معًا ولم ينفصلا قطّ، فهما صنوان لا يفترقان».

وفي كل صباح، يفد عدد من المصلين إلى منزل ابن سينا أكثر من أي وقت مضى وينضمون إليه في الصلاة، ولكن الآن بعد انتهاء العبادات، يعود شيخ الأطباء إلى منزله ولم ير حتى يحين وقت الصلاة مرة أخرى. لقد بذل نفسه بالكامل للحزن والتأمل ولم يعد يأتي إلى البيمارستان ليلقي المحاضرات أو يعالج المرضى. وبعض الذين اعترضوا على أن يلمسهم الذمي عالجهم الجوزجاني، لكن لم يكن هؤلاء كثيرين وكان روب مشغولًا طوال الوقت الآن، وهو يعتني بمرضى ابن سينا بالإضافة إلى مسؤولياته الخاصة.

وفي صباح أحد الأيام، تجوّل رجل عجوز نحيف كريه الرائحة وأقدامه قذرة في أروقة المستشفى. كان لقاسم بن سهدي أرجل مثل أرجل طائر اللقلق مصاب بالصدفية وخصلات معثوثة من لحية بيضاء. لم يكن يعرف عمره ولم يكن لديه منزل لأنه شقّ طريقه طوال معظم حياته كرجل وضيع في قافلة تلو الأخرى.

«لقد سافرت في كل مكان، يا سيدي».

«إلى أوروبا، من حيث أتيت؟»

«في كل مكان تقريبًا». قال: لم يكن له عائلة، لكن الله كان يرعاه ويحفظه. «وصلت إلى هنا أمس في قافلة محملة بالصوف والتمور قادمة من مدينة قم. وفي الطريق داهمني ألم مثل الجن الشرير».

«أين الألم؟»

قاسم يئن وهو يتشبث بجانبه الأيمن.

«هل تعاني من غثيان؟»

«يا الله، أنا أتقيأ بشكل مقزز وأعاني من ضعف شديد. ومع ذلك، في حين أخذتني غفوة، تكلم الله، قائلًا أن هناك من يعالجني في القريب العاجل. وعندما استيقظت سألت الناس عما إذا كان هناك مكان قريب للعلاج ووجهوني إلى هذا البيمارستان».

اقتيد إلى سرير من الأسرّة، حيث كان يتحمم ويطعم قليلًا. كان أول مريض يعاني من سل الكلاب الفيروسي (ديستمبر) في البطن تمكن روب من ملاحظته في مرحلة مبكرة من المرض. لعل الله عرف كيف يشفي قاسم، لكن روب لم يعلم.

أمضى ساعات في المكتبة، وأخيرًا سأله يوسف الجمل بتملق، حارس دار الحكمة، عما كان يسعى إليه بجدّ.

«سر المرض الباطني. أحاول أن أجد شروح وتفاسير القدماء الذين فتحوا بطن الإنسان قبل أن يحظر ذلك».

طرفت عينا أمين المكتبة المبجل وأومأ برفق. وقال: «سوف أحاول مساعدتك. دعني أر ما أستطيع أن أجده».

لم يكن ابن سينا موجودًا وذهب روب إلى الجوزجاني الذي لم يكن لديه صبر ابن سينا.

وقال الجوزجاني: «كثيرًا ما يموت الناس من سل الكلاب الفيروسي (ديستمبر)، لكن البعض يأتي إلى البيمارستان يشتكي من ألم وحرقة المعدة في أسفل البطن من الجانب الأيمن، ويزول الألم ويعود المرضى إلى منازلهم».

«لماذا؟»

هزّ الجوزجاني كتفيه ورمقه بنظرة منزعجة ولم يقض مزيدًا من الوقت في الحديث عن الموضوع.

اختفى الألم الذي كان يعاني منه قاسم أيضًا بعد أيام قليلة، لكن روب لم يرغب في إطلاق سراحه. «إلى أين تذهب؟»

هزّ سائق الماشية العجوز كتفيه. «سوف أجد قافلة يا حكيم لأنها بيتي».

«ليس كل من يأتي إلى هنا قادر على أن يبرح مكانه. البعض يموت، أنت تفهم ذلك».

أومأ قاسم بجدية. «كل الرجال يجب أن يموتوا في النهاية».

«تغسيل الموتى وتجهيزهم للدفن عبادة لله، هل يمكنك القيام بمثل هذه العبادة؟

«حسنًا، أيها الحكيم». قال بوقار: «إنه عمل الله، كما تقول. «أحضرني الله إلى هنا ولعله يشاء لي أن أبقى».

كان هناك مخزن صغير بجوار الغرفتين اللتين كانتا بمثابة قبو يحفظ فيه رفات الموتى بالمستشفى. قاما بتنظيفه معًا وصار هذا المكان مسكن قاسم بن سهدي.

«ستأخذ طعامك هنا بعد إطعام المرضى، ويمكنك الاستحمام في مراحيض البيمارستان».

«حسنًا، أيها الحكيم».

أعطاه روب مفرش نوم ومصباحًا من الطين. فتح الرجل العجوز

سجادة الصلاة البالية وأعلن أن الغرفة هي أفضل منزل لديه على الإطلاق.

مرّ ما يقرب من أسبوعين قبل أن يسمح له جدول روب المزدحم بمقابلة يوسف الجمل في دار الحكمة. أحضر هدية تقدير اعترافًا بمساعدة أمين المكتبة. كان جميع البائعين يعرضون فستقًا كبيرًا ودسمًا، لكن يوسف كان لديه القليل من الأسنان لمضغ المكسرات وبدلًا من ذلك اشترى روب سلة من قصب الخَيزران مليئة بالتمور الصحراوية اللينة.

جلس هو ويوسف وأكلا التمور في وقت متأخر في إحدى الليالي في دار الحكمة. كانت المكتبة مهجورة.

قال يوسف: «لقد عدت بالزمن إلى الوراء». «بقدر ما أستطيع. في العصور القديمة. حتى المصريين، الذين تعرف شهرتهم في التحنيط، عرفوا أن فتح البطن شر وتشويه للموتى».

«ولكن . . . متى صنعوا مومياواتهم؟»

كانوا منافقين، لقد رشوا رجال حقراء يدعون المتطفلين للخطيئة لعمل الشق الأول المحظور. وبمجرد فتح الشق، يلوذ المتطفلون بالفرار خشية تعرضهم للرجم حتى الموت، وهو اعتراف بالذنب سمح للمحنطين المحترمين بإفراغ الأعضاء من البطن والاستمرار في الحفاظ عليها».

«هل درسوا الأعضاء التي استأصلوها؟ هل تركوا وراءهم ملاحظات مكتوبة؟

«لقد مارسوا التحنيط لمدة خمسة آلاف عام، وهم ينزعون أحشاء ما يقرب من ثلاثة أرباع عدد ضخم جدًّا من البشر الذين ماتوا بسبب كل الأمراض، وقاموا بتخزين الأحشاء المنزوعة في أوعية من الطين أو الحجر الجيري أو المرمر، أو ببساطة رموا بها بعيدًا. لكن لا يوجد دليل على أنهم

درسوا الأعضاء على الإطلاق.

«الإغريق -في هذه الأيام- كانوا مختلفين، وحدث في نفس منطقة النيل». ساعد يوسف نفسه في المزيد من التواريخ. «اجتاح الإسكندر الأكبر بلادنا هذه مثل إله الحرب الجميل الشاب، قبل تسعمئة عام من ولادة النبي محمد. غزا العالم القديم، وفي الطرف الشمالي الغربي من دلتا نهر النيل، على شريط من الأرض بين البحر الأبيض المتوسط وبحيرة مريوط، أسس مدينة رائعة أطلق عليها اسمه.

«بعد عشر سنوات لقى حتفه بسبب حمى المستنقعات، لكن الإسكندرية كانت بالفعل مركزًا للثقافة اليونانية. أثناء تفكك إمبراطورية الإسكندرية، سقطت مصر والمدينة الجديدة في يد بطليموس مقدونيا، أحد رفقاء الإسكندر الأكثر علمًا وثقافة. أنشأ بطليموس متحف الإسكندرية، أول جامعة في العالم، ومكتبة الإسكندرية الكبرى. ازدهرت جميع فروع المعرفة، لكن كلية الطب جذبت الطلاب الواعدين في العالم بأسره. وللمرة الأولى والوحيدة في تاريخ الإنسانية الطويل، أصبح علم التشريح هو حجر الزاوية، وجرى ممارسة تشريح جسم الإنسان على نطاق واسع خلال الثلاثمئة عام التالية».

انحنى روب إلى الأمام بلهفة. «إذًا من الممكن قراءة توصيفهم للأمراض التي تصيب الأعضاء الداخلية؟»

هزّ يوسف رأسه. «ضاعت كتب مكتبتهم الرائعة عندما نهبت جحافل يوليوس قيصر الإسكندرية قبل ثلاثين عامًا من بدء العصر المسيحي. دمّر الرومان معظم كتابات أطباء الإسكندرية. جمع سيلسوس ما تبقى من القليل وحاول الحفاظ عليه في عمله بعنوان «كتاب الطب»، ولكن هناك ذكر موجز واحد فقط لداء سل الكلاب الفيروسي (ديستمبر) الموجود في الأمعاء الغليظة الذي يؤثر بشكل أساسي على ذلك الجزء حيث ذكرت

وجود المصران الأعور، المصحوب بالتهاب شديد الوطأة، وآلام حادة، خاصة في الجانب الأيمن».

أطلق تنهيدة تعبيرًا عن خيبة أمل. «أنا أعرف الاقتباس، يستخدمه ابن سينا عندما يلقي محاضراته».

هزّ يوسف كتفيه. «لذا فإن الخوض في الماضي يتركك بالضبط حيثما كنت عندما بدأت. التوصيفات التي تبحث عنها غير موجودة».

أومأ روب برأسه بشكل كئيب. «لماذا تفترض أن اللحظة الوجيزة الوحيدة في التاريخ عندما فتح الأطباء بطون البشر جاءت مع الإغريق؟»

«لم يكن لديهم ميزة وجود إله واحد قوي يمنعهم من تدنيس مخلوقاته، وبدلًا من ذلك كان لديهم كل هؤلاء الزناة، هؤلاء الآلهة الضعاف والمتنازعين». بصق أمين المكتبة ملء فيه من نوى التمر في كفه المضموم على شكل كأس وابتسم بلطف. وقال: «كان بإمكانهم التشريح لأنهم في نهاية المطاف هم مجرد همج، يا حكيم».

67

اثنان قادمان

كان حملها متقدمًا جدًّا بحيث لا يسمح لها بالركوب، لكن ماري ذهبت سيرًا على الأقدام من أجل شراء المؤن الغذائية اللازمة لعائلتها، حيث ساقت الحمار الذي حمل مشترياتها وروب جيه الذي ركب في حمّالة على ظهر الحيوان. لقد أرهقها عبء طفلها الذي لم يولد بعد وأصابها بألم في ظهرها، وتحركت في تثاقل من متجر إلى آخر. وكما فعلت بشكل عام عندما ذهبت إلى السوق الأرمينية، توقفت في متجر الجلود لمشاركة شربات ورغيف ساخن من الخبز الفارسي الرقيق مع بريسكا.

بدت بريسكا سعيدة دائمًا برؤية رب عملها السابق والطفل الذي أرضعته، لكنها كانت اليوم على وجه الخصوص ثرثارة. كانت ماري تحاول جاهدة أن تتعلم اللغة الفارسية، لكنها لم تستطع سوى نطق بضع كلمات.

شخص غريب، قادم من بعيد، من نفس بلد الحكيم، ودينه مثل دينك.

انفصلت المرأتان دون وعي وبإحباط متبادل، وفي ذلك المساء تبرّمت ماري عندما أبلغت زوجها بما حدث.

كان يعرف ما كانت بريسكا تحاول إخبارها به؛ لأن الشائعات طافت ووصلت بسرعة إلى البيمارستان. «جاء أوروبي للتو إلى أصفهان».

«من أي دولة؟»

«إنجلترا». إنه تاجر».

«رجل إنجليزي؟» حدّقت. تورد وجهها، ولاحظ الاهتمام والإثارة في عينيها والطريقة التي ظلت بها يدها على صدرها دون أن يلاحظها أحد.

«لماذا لم تذهب إليه مرة واحدة؟»

«ماري..».

«لكن يتوجب عليك! هل تعلم أين يقيم؟»

«إنه في الحي الأرميني، ولهذا عرفت بريسكا بشأنه. يقال إنه في البداية سوف يوافق على البقاء مع المسيحيين فقط». ابتسم روب. «ولكن عندما رأى الأكواخ التي يعيش فيها عدد قليل من المسيحيين الأرمن الفقراء، سرعان ما استأجر منزلًا أكثر رقيًا من أحد المسلمين».

«يجب أن تبعث له رسالة، اطلب منه أن يأتي إلينا لتناول طعام العشاء».

«أنا لا أعرف حتى اسمه».

«لا يهم؟ استأجر مبعوثًا. وقالت: «أي شخص في الحي الأرميني سوف يوجهه». «روب! سوف يحمل معه البشرى».

آخر شيء أراده هو الاتصال المحفوف بالمخاطر مع مسيحي إنجليزي. لكنه كان يعلم أنه لا يستطيع حرمانها من هذه الفرصة لسماع أماكن أقرب إلى قلبها من بلاد فارس؛ لذلك جلس وكتب الرسالة.

«أنا بوستوك، تشارلز بوستوك».

في لمحة تذكّر روب في أول عودة له إلى لندن بعد أن صار صبيًّا للحلاق، كان هو والحلاق قد ركبا لمدة يومين في حماية قافلة طويلة لبوستوك من

الخيول المحملة بالملح المستخرج من الماء المالح في أروندیل. وفي المخيم، كانا يتلاعبان بالكرات، وكان التاجر قد أعطى روب بنسين لإنفاقهما فور وصوله إلى لندن.

«يسي بن بنيامين، طبيب هذا المكان».

«دعوتك مكتوبة باللغة الإنجليزية، وأنت تتحدث لغتي».

يمكن أن يكون الجواب الوحيد الذي راهن عليه روب في أصفهان. «لقد نشأت في مدينة ليدز». كان أكثر سعادة من كونه مباليًا. لقد مرّ أربعة عشر عامًا. قال لنفسه إن الجرو الذي كان قد نشأ في يوم من الأيام قد نما ليصبح نوعًا غريبًا من الكلاب، وكان هناك احتمال ضئيل في أن يتمكن بوستوك من ربط هذا الصبي المهرج بهذا الطبيب اليهودي طويل القامة الذي استقبل بوستوك في منزله الفارسي.

«وهذه زوجتي ماري، وهي اسكتلندية من شمال البلاد».

«الزوجة»

كانت ماري تتوق إلى الزينة والأناقة ولكن بطنها الثقيل جعل أفضل فستان أزرق عندها ضربًا من المستحيل، وكانت ترتدي ثوبًا أسود فضفاضًا يشبه الخيمة. لكن شعرها الأحمر المغسول كان يلمع بشدة. كانت ترتدي عقالًا مطرزًا وقطعة مجوهراتها الوحيدة، وهي قطعة كروشيه صغيرة من لآلئ في حجم البذور تتدلى بين حاجبيها.

كان شعر بوستوك لا يزال طويلًا مسدولًا إلى الوراء معقودًا بأناشيط وشرائط، لكن شعره الآن صار أشيب أكثر من كونه أصفر. كانت البزة الحمراء المخملية المزخرفة، والمكتملة بالتطريز العالق به الأوساخ، دافئة للغاية بالنسبة للجو ومكلفة للغاية بالنسبة لهذه المناسبة. اعتقد

روب أن العيون لم تكن ذات قيمة كبيرة جدًّا قطّ؛ لذلك من الواضح أنه يحسب قيمة كل حيوان، والمنزل، وثيابهم، كل قطعة أثاث. ومع مزيج من الفضول والنفور من تقييم اليهودي الملتحي أكمد اللون، والزوجة الغيلية ذات الشعر الأحمر الناضجة بما فيه الكفاية مع الطفل الذي لم يولد، والطفل النائم الذي كان دليلًا آخر على الاتحاد المخزي لهذين الزوجين المختلطين.

وعلى الرغم من استيائه الظاهر للعيان، كان الزائر يتوق إلى سماع اللغة الإنجليزية بشغف مثلهما، وسرعان ما انخرط الثلاثة في حديث. لم يستطع روب وماري كبح جماح نفسيهما وتدفقت أسئلتهما.

«هل لديك معلومات عن أراضي الاسكتلنديين؟»

«هل كانت الأوقات جيدة أم سيئة عندما غادرت لندن؟»

«هل كان السلام هناك؟»

«هل كان الملك كانوت لا يزال هو الملك؟»

أجبر بوستوك على الحديث وقت تناول العشاء، على الرغم من أن آخر الأخبار كانت قبل عامين تقريبًا. لم يكن يعرف شيئًا عن أراضي الاسكتلنديين ولا شمال إنجلترا. ظلت الأوقات أوقات يمن وبركة وكانت لندن تنمو بسرعة، مع زيادة عدد المساكن التي تبنى كل عام والسفن تضغط على مرافق نهر التايمز. أفاد بوستوك أنه قبل شهرين من مغادرته إنجلترا، توفي الملك كانوت وفاة طبيعية، وفي اليوم الذي وصل فيه إلى مدينة كاليه، علم بوفاة روبرت الأول، دوق نورماندي.

«الأوغاد يحكمون الآن على جانبي القناة. وفي نورماندي، أصبح وليام -الابن غير الشرعي لروبرت، على الرغم من أنه لا يزال صبيًّا- دوق

نورماندي بمساعدة أصدقاء أبيه المتوفى وأقاربه.

«أما في إنجلترا، فكانت الخلافة تعود بحق إلى هارثاكانوت، ابن كانوت والملكة إيما، ولكن لسنوات، عاش هارثاكانوت حياة غير حياة البريطانيين في الدنمارك؛ ولذلك اغتصب أخوه الأصغر غير الشقيق العرش. هارولد هارفوت الذي اعترف كانوت بأنه ابنه اللقيط من امرأة غير معروفة في نورثهامبتون تدعى ألفجيفو، أصبح الآن ملك إنجلترا».

«أين إدوارد وألفريد، الأميران اللذان أنجبتهما إيما من الملك إثيلريد قبل زواجها من الملك كانوت؟» سأل روب.

قال بوستوك: «إنهما في نورماندي تحت حماية حاشية الدوق ويليام، وربما يفترض أنهم يحدقان في القناة باهتمام كبير».

تضوّرا جوعًا لمعرفة تفاصيل الوطن، وحتى الآن جعلت روائح الطعام الذي أعددته ماري الثلاثة ينتظرون الطعام أيضًا، وقرّ التاجر عينًا إلى حد ما عندما رأى ما أعدته ماري من طعام كان إكرامًا له.

زوج من طيور الدراج، مدهونان بالزيت جيدًا ومحمصان كثيرًا، ومحشوان بالطريقة الفارسية بالأرز والزبيب، ومطهوان ببطء ولفترة طويلة. سلاطة صيفية. بطيخ حلو. وكعك بالمشمش والعسل. ولا سيما، جرة من النبيذ الوردي الجيد، اشترياها بالمال وبالمجازفة. ذهبت ماري مع روب إلى السوق اليهودي، حيث أنكرت هندا في البداية بشدة أن لديها نبيذًا، وألقت نظرة خائفة لترى من ذا الذي سمع طلبهما. وبعد الكثير من الاحتجاج والمقابل الذي بلغ ثلاثة أضعاف التكلفة العادية، دست جرة النبيذ في منتصف جوال من الحبوب وحملتها ماري إلى المنزل مخبأة عن الملالي في الحمّالة بجوار طفلها النائم.

انكبّ بوستوك على الطعام، لكن في الوقت الحالي، بعد تجشؤ شديد،

أعلن أنه سوف يغادر إلى أوروبا في غضون أيام قليلة.

«وصولي إلى القسطنطينية في أعمال كنسية، لم أستطع مقاومة الاستمرار في اتجاه الشرق. هل تعلم أن ملك إنجلترا سوف يرقّي أي تاجر مغامر يجرؤ على القيام بثلاث رحلات لفتح مناطق أجنبية أمام التجارة الإنجليزية إلى مرتبة سيّد إقطاعيّ اسكتلنديّ؟ حسنًا، هذا صحيح، وهي طريقة جيدة للرجل الحر للوصول إلى مرتبة النبلاء وفي نفس الوقت تحقيق أرباح عالية. «الحرير»، أعتقد. إذا كان بإمكاني اتباع طريق الحرير، فيمكنني إعادة البضائع التي تسمح لي بشراء لندن! كنت سعيدًا بالوصول إلى بلاد فارس؛ حيث اشتريت بدلًا من الحرير السجاد والمنسوجات الفاخرة. لكنني لن أعود إلى هنا أبدًا؛ لأن هناك ربحًا ضئيلًا في ذلك، يجب أن أدفع لجيش صغير لإعادتها إلى إنجلترا».

وعندما سعى روب إلى إيجاد تشابه في الطرق التي سلكها كلاهما في سفرهما باتجاه الشرق، كشف بوستوك أنه ذهب أولًا من إنجلترا إلى روما. «الجمع بين العمل ومهمة لرئيس أساقفة كانتربري الذي يدعى أيثيلنوث. وفي قصر لاتيران، وعدني البابا بنديكت التاسع بمكافأة كبيرة على الرحلات الاستكشافية في البر والبحر وأمرني باسم المسيح يسوع أن أشق طريق التاجر إلى القسطنطينية، هناك لتسليم الرسائل البابوية إلى البطريرك ألكسيوس».

«مبعوث بابويّ!» صاحت ماري.

حدس روب أنه ليس مبعوثًا أكثر من رسول، على الرغم من أنه كان من الواضح أن بوستوك استمتع بدهشة ماري.

قال التاجر، وهو يشدد على أهمية كلامه: «على مدى ستمئة عام، كانت الكنيسة الشرقية تتنازع مع الكنيسة الغربية». «ينظر إلى ألكسيوس

في القسطنطينية على أنه مساو للبابا؛ بسبب جفاء روما المقدسة. كهنة البطريرك الملتحين يتزوجون، فهم يتزوجون! وهم لا يصلون إلى يسوع ومريم ولا يتعاملون مع الثالوث بما يكفي من الرهبة. وهكذا تحمل رسائل الشكوى ذهابًا وإيابًا».

كان الإبريق فارغًا وأخذه روب إلى الغرفة المجاورة لإعادة ملء الإبريق من جرة النبيذ.

«هل أنت نصرانية؟»

«أنا»، قالت.

«إذًا كيف أصبحت متاعًا لهذا اليهودي؟ هل أخذك قراصنة أم مسلمون وباعوكِ له؟

قالت بوضوح: «أنا زوجته».

وفي الغرفة المجاورة، توقف روب لبرهة عن مهمة ملء الإبريق بالنبيذ وأنصت، وابتسامة حزينة ارتسمت على شفتيه. كانت إهانَة الرجل الإنجليزي له كبيرة جدًّا لدرجة أن بوستوك لم يكلف نفسه عناء خفض صوته.

«سوف أهيئ قافلتي لك ولطفلك. يمكن توفير هودج وحمّالين حتى تضعي مولودك وتتمكني من الجلوس على حصان».

«هذا ليس في استطاعتي، يا سيد بوستوك. أنا زوجته بالرضا والقبول»، قالت ماري، لكنها شكرته بهدوء.

ردّ بأدب جم أنه من واجبي بصفتي مسيحي الديانة، ومن منطلق ما يريد أن يقدمه رجل آخر لابنته؛ إذ -لا سمح الرب يسوع- قد تجد نفسها في ظروف مماثلة.

عاد روب كول راغبًا في إلحاق الأذى الجسدي لبوستوك، لكن يسي بن بنيامين تصرف بحفاوة شرقية، وصبّ النبيذ لضيفه بدلًا من أن يمسك بتلابيبه. ومع ذلك كان الكلام بينهما متناثرًا وباعثًا على الاستياء. غادر التاجر الإنجليزي على الفور تقريبًا بعد الانتهاء من تناول الطعام، وترك روب وماري مع بعضهما.

كانا منهمكين في أفكارهما الخاصة وهم يجمعان فضلات الطعام.

وأخيرًا قالت: «هل سنعود يومًا ما إلى وطننا؟»

كان مندهشًا. «بالطبع سوف نعود».

«لم يكن بوستوك فرصتي الوحيدة؟»

«أقسم لك على ذلك».

التمعت عيناها. «من حقه توظيف جيش يحميهم، الرحلة خطيرة للغاية. . كيف سيسافر طفلان حتى الآن وينجوان؟»

تشنّجت، لكنه احتضنها بين ذراعيه بحرص وعناية. «بعد أن نصل إلى القسطنطينية سوف نكون مسيحيين وسوف ننضم إلى قافلة قوية».

«وما بين هنا والقسطنطينية؟»

«عرفت السر أثناء سفري إلى هنا». ساعدها على النزول إلى السجادة. كان الأمر صعبًا عليها الآن؛ لأنه بغض النظر عن كيفية استلقائها، سرعان ما تألّم جزء منها. أمسكها وداعب رأسها، وتحدّث معها كما لو كان يروي قصة مطمئنة لطفل. «من أصفهان إلى القسطنطينية سوف أبقى يسي بن بنيامين. وسوف نحظى بالرعاية وكرم الضيافة في قرية يهودية تلو الأخرى، ونجد الطعام والحماية والتوجيه، مثل رجل يعبر نهر خطير بالانتقال من صخرة آمنة إلى أخرى». لمس وجهها. وضع

راحة يده على بطنها الدافئ المنتفخ وشعر بحركة الجنين وصار مفعمًا بالامتنان والحنان. وطمأن نفسه كيف سيحدث السفر بهذه الطريقة، لكنه لم يستطع إخبارها بتوقيت حدوثه.

لقد اعتاد على النوم وجسده متكور حول بطنها الصلب الضخم، ولكن ذات ليلة استيقظ ليشعر بالبلل والدفء، وعندما استجمع ذكاءه، ارتدى ثيابه على عجل وركض إلى نيتكا القابلة. وعلى الرغم من أنها كانت معتادة على طرق الناس على بابها في حين كان الناس نيام، فإنها خرجت وقد استبد بها غضب عارم، وأمرته أن يتحلّى بالهدوء والصبر.

«لقد انفجر كيس الماء».

تذمّرت وقالت: «حسنًا، حسنًا».

وسرعان ما صنعا قافلة في الشارع المظلم، وأشعل روب الطريق بشعلة، تتبعه نيتكا مع حقيبة كبيرة من الخرق المغسولة، ويتتبعها ابناها ذوا البنية القوية وهما يزمجران ويلهثان تحت ثقل كرسي الولادة.

وضع شوفني وشموئيل الكرسي بجوار المدفأة مثل العرش وأمرت نيتكا روب بإشعال النار؛ لأنه في منتصف الليل كان الهواء باردًا. صعدت ماري إلى الكرسي مثل ملكة عارية. وعندما غادر الابنان، حملا روب جيه بعيدًا لحمايته أثناء الولادة. وفي الحي اليهودي، كان الجيران يفعلون مثل هذه الأشياء بعضهم لبعض، حتى ولو كان أحدهم من الجوييم (الأغيار).

تخلصت ماري من عبء الألم الثقيل مع المخاض الأول، والزمجرة والصراخ الشديد الذي انطلق من حلقها ملأ روب بالفزع. كان الكرسي متينًا بحيث يمكنه تحمل أي قدر من المقاومة والتخبط، وبدأت نيتكا في مهمة طي أسمالها البالية وتكديسها، من الواضح أنها لم تنزعج في

حين كانت ماري تتشبث بالمقابض الموجودة على جانبي الكرسي وتجهش بالبكاء.

ارتجفت ساقاها طوال الوقت ولكن أثناء التشنج الرهيب كانتا تهتزان وتختلجان. وبعد المخاض الثالث، وقف روب خلفها وشدّ كتفيها على ظهر الكرسي. كشفت ماري عن أسنانها وزمجرت مثل الذئب، لم يكن ليندهش لو عضته أو ارتفع عواؤها.

لقد قطع أطراف الرجال وتأقلم على كل الأمراض الخبيثة، لكنه شعر بالدم يندفع من رأسه. رمقته القابلة بنظرة فاحصة، وأخذت طية اللحم على ذراعه بين أصابعها الرفيعة القوية، وضغطت. القرصة المؤلمة أعادت إليه حواسه ولم يفضح نفسه.

قالت نيتكا: «اخرج». «اخرج!».

فذهب إلى الحديقة ووقف في الظلام يستمع إلى الأصوات التي تتبعته وهو يخرج من المنزل. كان الجو باردًا وهادئًا، فكر بإيجاز في خروج الأفاعي من الجدار الحجري وقرر ألّا يأبه. لقد فقد الإحساس بالوقت، لكنه عرف في النهاية أن النار بحاجة إلى العناية؛ لذلك عاد إلى الداخل ليذكّي النار.

وعندما رمق ماري بنظرة، كانت ركبتاها متباعدتين.

أمرت نيتكا بصرامة قائلة: «الآن سوف يخرج الجنين». «الحزق والدفع، يا صديقتي، الحزق والدفع.

رأى وهو مشدوه هامة رأس الطفل تظهر بين فخذي زوجته، مثل رأس راهب تكتسي برقعة حليقة حمراء مبتلة، وهرع إلى الحديقة مرة أخرى. مكث هناك مدة طويلة حتى سمع النحيب الرقيق، ثم عاد إلى

الداخل ورأى الرضيع.

قالت نيتكا بخفة: «ولد آخر»، وهي تنظف المخاط من فم الصغير بطرف إصبعها الصغير.

بدت السّرّة الثخينة اللزجة زرقاء اللون في ضوء الفجر الرقيق.

قالت له ماري: «لقد كانت الولادة أسهل بكثير من المرة الأولى».

نظّفتها نيتكا وجعلتها تشعر بالراحة، وأعطت روب المَشيمَة ليدفنها في الحديقة. تلقت القابلة المكافأة المالية السخية بإيماءة راضية وعادت إلى منزلها.

وعندما صارا بمفرديهما في حجرة نومهما، تعانقا، ثم طلبت ماري الماء وعمّدت الطفل توماس إسكوت كول.

رفعه روب وفحصه: كان أصغر بقليل من شقيقه الأكبر، لكنه ليس قزمًا. طفل قرمزي مفعم بالحيوية له عينان بنيتان مستديرتان وبعض من الشعر الداكن الذي يحتوي بالفعل على البريق الأحمر لشعر أمه. جزم أن الطفل الجديد في عينيه وشكل رأسه وفمه الواسع وأصابعه الصغيرة الطويلة النحيلة كان يشبه إلى حدّ كبير أخويه ويليام ستيوارت وجوناثان كارتر عندما كانا حديثي الولادة. أخبر ماري قائلًا أنه كان من السهل دائمًا أن ننادي الطفل كول.

68

التشخيص

قضى قاسم شهرين حارسًا للموتى عندما عاد الألم إلى بطنه.

«كيف يبدو الألم؟» سأله روب.

«هذا سيئ، يا حكيم».

لكن من الواضح أنه لم يكن بهذا السوء الذي كنت عليه من قبل. هل هو ألم خفيف أم حاد؟

«يبدو الأمر كما لو أن الجن يعيش في داخلي ويغرس مخالبه في أعضائي الداخلية، التواء وتمزق». نجح سائق الماشية السابق في ترويع نفسه؛ كان يحدق متوسلًا في روب ليطمئنّ أن هذا ليس هو الحال بالفعل.

لم يكن مصابًا بالحمى كما كان منذ أن اعتراه الألم وحلّت به الإصابة التي أوصلته إلى البيمارستان، ولم يكن بطنه متصلبًا. وصف روب الجرعات المتكررة من العسل والنبيذ، والتي تجرعها قاسم بفارغ الصبر منذ أن كان يعاقر الخمر وقد حوكم بشدة بسبب الامتناع الديني القسري.

قضى قاسم عدة أسابيع ممتعة، ثملًا قليلًا في حين كان يضيع الوقت سدى في المستشفى في تبادل الآراء والرؤى. كان هناك الكثير من الأشياء التي انتشرت حولها الشائعات. وآخر الأخبار كانت أن الإمام قندراسه قد هجر المدينة، على الرغم من انتصاره السياسي والتكتيكي الواضح على الشاه.

ترددت شائعات أن قندراسه قد فر إلى الأتراك السلاجقة، وأنه عندما يعود سيكون مع جيش السلاجقة المهاجم للإطاحة بعلاء شاه وينصّب رجلًا دينيًّا متشددًا - ربما هو نفسه؟ - على عرش بلاد فارس. وفي غضون ذلك لم تتغير الحياة واستمر زوج من الملالي الكئيبين في القيام بدوريات في الشوارع؛ لأن الإمام العجوز الماكر ترك تلميذه موسى بن عباس حارسًا للإيمان في أصفهان.

بقي الشاه في دار الفردوس وكأنه مختبئ، لم يكن لديه جماهير، لم يسمع روب عن علاء شاه منذ أن صدر حكم الإعدام على كريم. لم يكن هناك أي انعقاد لحفلات الترفيه أو الصيد أو الألعاب أو الدعوات إلى البلاط الملكي. عندما جرى استدعاء طبيب في دار الفردوس ليحل مكان ابن سينا المتَوَفّى، جرى استدعاء الجوزجاني أو غيره، لكن لم يُستدعى روب قطّ.

لكن هدية الابن الجديد جاءت من الشاه.

وصلت بعد أن سمي الطفل باسم يهودي، وهذه المرة عرف روب ما يكفي لدعوة الجيران بنفسه. تمنى راباي آشر يعقوبي الموهيل (الخاتن) أن ينمو الطفل مفعمًا بالحيوية في حياة ملؤها الأعمال الصالحة، وقطع القلفة. أعطي الطفل مص من نبيذ لتهدئة ألمه، وبالعبرية أعطاه اسم «تام»، ابن يسي.

لم يكن علاء شاه قد منح أي هدية عندما ولد الصغير روب جيه، لكنه الآن أرسل سجّادة صغيرة أنيقة، من الصوف الأزرق الفاتح منسوجة من خيوط حريرية لامعة من نفس الظل ومزخرفةً باللون الأزرق الداكن مع شعار العائلة السامانية الملكية.

اعتقد روب أنها سجادة جميلة وينبغي أن توضع على الأرض بجانب مهد الطفل، لكن ماري، التي كانت سريعة الغضب بعد الولادة، قالت

إنها لا تريدها هناك. وبدلًا من ذلك اشترت صندوقًا من خشب الصندل لحمايتها من حشرات العث ووضعتها بعيدًا.

شارك روب في مجلس الامتحانات. كان يعلم أنه كان هناك في غياب ابن سينا، وقد أخجله أن يعتقد شخص ما أنه متغطرس بما يكفي ليفترض أنه يمكن أن يحل محل شيخ الأطباء.

لكن لم يكن هناك أي مساعدة لذلك، فقد بذل قصارى جهده. استعد للمجلس كما لو كان هو نفسه مرشحًا لدخول الامتحان وليس ممتحنًا. طرح أسئلة مدروسة مخصصة ليس لإثارة قلق المرشح ولكن لإخراج المعرفة، واستمع باهتمام إلى الإجابات. امتحن المجلس أربعة مرشحين وأجاز ثلاثة أطباء. ثمة حرج للمرشح الرابع. جبري البيضاوي الذي كان متدربًا طبيًّا لمدة خمس سنوات. لقد رسب في الامتحان مرتين من قبل، لكن أباه كان رجلًا ثريًّا وقويًّا يتملق ويخدع الحاج دافوت حسين، مدير المدرسة، وقد طلب حسين أن يخضع بيضاوي للاختبار مرة أخرى.

كان روب طالبًا مع البيضاوي وعرفه على أنه مسرف كسول، ومهمل وقاسٍ في علاج المرضى. خلال الامتحان الثالث أظهر أنه غير مستعد.

عرف روب ما كان سيفعله ابن سينا. قال بحزم وبدون أسف: «أنا أرفض المرشح». سارع الممتحنون الآخرون إلى الموافقة، وتأجل المجلس.

وبعد عدة أيام من الامتحانات، جاء ابن سينا إلى البيمارستان.

«أهلًا بك من جديد، يا شيخ الأطباء!» قال روب مسرورًا.

هزّ ابن سينا رأسه. «لم أعد». بدا متعبًا ومنهكًا، وأخبر روب أنه جاء لإجراء تقييم طبي تمنى أن يجريه الجوزجاني ويسي بن بنيامن.

جلسا معه في غرفة الامتحانات وتحدثا معه، وجمعا تاريخ شكواه كما

علمهما أن يفعلا.

قال لهما إنه انتظر في المنزل، على أمل استئناف مهامه قريبًا، لكنه لم يتعافَ قطّ من الصدمات المزدوجة لفقدان رضا أولًا ثم ديسبينا، وبدأ متوعكًا وشعر بالضعف.

لقد انتابه شعور بفتور الهمة والضعف، وشعر بالعجز لبذل الجهد المطلوب للقيام بأبسط المهام. ففي البداية عزا أعراضه إلى الكآبة الحادة. «لأننا جميعًا نعلم جيدًا أن الروح يمكنها أن تصيب الجسد بأشياء فظيعة وغريبة».

ولكن في الآونة الأخيرة، أصابه الزّحَار، وكان برازه ملوثًا بالمخاط والقيح والدم؛ ولذا طلب هذا الفحص الطبي.

لقد أجريا البحث كما لو أنه لن يكون لديهما فرصة أخرى لفحص إنسان. لم يتغاضيا عن أي شيء. جلس ابن سينا بصبر جميل وسمح لهما بالضغط والنقر والتربيت والاستماع وطرح الأسئلة.

ولّما انتهيا، كان الجوزجاني شاحبًا لكنه كان متفائلًا. «إنه التدفق الدموي، يا شيخ الأطباء، الناجم عن جيشان عواطفك».

لكن حدس روب أخبره بشيء آخر. نظر إلى معلمه المحبوب. «أعتقد أنها شرّي في المراحل الأولى».

طرفت عينا ابن سينا مرة واحدة. «سرطان الأمعاء؟» قال بهدوء كما لو كان يتحدث إلى مريض لم يقابله من قبل.

أومأ روب برأسه محاولًا عدم التفكير في التعذيب البطيء للمرض.

تورد وجه الجوزجاني وثارت ثائرته كونه فقد نفوذه، لكن ابن سينا هدّأه. هذا هو السبب الذي جعله يسأل الاثنين، أدرك روب أنه كان يعلم

أن الجوزجاني سيكون أعمى بالحب لدرجة أنه لن يتمكن من العثور على حقيقة بغيضة.

شعر روب بالضعف في ساقيه. أخذ يدي ابن سينا بيده، فالتقت أعينهما واحتضن بعضهما بعضًا. «أنت لا تزال قويًّا يا شيخ الأطباء. يجب أن تحافظ على إفراغ أمعائك لحمايتها من تراكم العصارة الصفراوية السوداء التي قد تؤدي إلى نمو السرطان».

أومأ شيخ الأطباء.

قال روب: «أرجو أن أكون قد ارتكبت خطأً في التشخيص».

تفضّل عليه ابن سينا بابتسامة صغيرة. «الرجاء لا يضر».

أخبر ابن سينا أنه يود زيارته قريبًا وقضاء أمسية في لعبة الشطرنج، وقال الرجل العجوز إن يسي بن بنيامين سيكون دائمًا موضع ترحيب وقتما يأتي إلى منزله.



69

البطيخ الأخضر

في يوم جافّ وكثير الغبار قرب نهاية الصيف، خرجت من الضباب إلى الشمال الشرقي قافلة من مئة وستة عشر من الإبل المزودة بالأجراس. سوف تصل الإبل التي اصطفت جميعها في صف واحد وتقذف لعابًا رقيقًا لزجًا تحت تأثير مجهود مبذول لحمل كميات كبيرة من تبر الحديد، إلى أصفهان في وقت متأخر في وقت الظهيرة. وكان علاء شاه يأمل أن يستخدم دان فانجاليل التّبر لصنع الكثير من الأسلحة من الفولاذ المزخرف باللون الأزرق. ولسوء الحظ فإن الاختبارات التي أجراها صانع السيوف سوف تثبت لاحقًا أن الحديد الموجود في التّبر كان لينًا جدًّا لهذا الغرض، ولكن أخبار المساء التي جلبتها القافلة أثارت ضجة من الإثارة بين البعض في المدينة.

وقد جرى استدعاء رجل يدعى خندي -قائد سائقي الماشية في القافلة- إلى القصر لتكرار تفاصيل المعلومات على مسمع الشاه، ثم ذهب إلى البيمارستان ليخبر الأطباء هناك بالقصة التي رواها.

وعلى مدى أشهر، أصيب السلطان محمود -سلطان غزنة- بمرض خطير، مصحوبًا بارتفاع في درجة الحرارة وكثير من القيح في صدره؛ مما تسبب في ظهور ورم كبير ورخو في ظهره، وقرر أطباؤه أنه إذا قدّر للسلطان محمود أن يعيش، يجب استئصال هذه الكتلة.

وقد كانت بعض التفاصيل التي جلبها خندي أن ظهر السلطان محمود قد دهن بدهان خفيف من حمأ مسنون.

«لماذا؟» سأل أحد الأطباء الجدد.

هزّ خندي كتفيه، لكن الجوزجاني الذي شغل منصب القائد في غياب ابن سينا، كان يعرف الإجابة. «يجب مراقبة الطين باهتمام؛ لأن أول رقعة تجف تشير إلى الجزء الأكثر سخونة من الجلد، وبالتالي فهي أفضل مكان للاستئصال».

قال خندي إنه عندما فتح الجراحون ظهر السلطان، انبثق القيح، ولتخليص السلطان محمود من القيح المتبقي، قاموا بإدخال ماصّة.

«هل كان لمبضع القطع نصل مستدير أم نصل مدبب؟» سأل الجوزجاني.

«هل أعطوه جرعة لتخفيف الألم؟»

«هل كانت الماصّة مصنوعة من القصدير أم من فتائل الكتان؟»

«هل كان القيح داكنًا أم أبيض اللون؟»

«هل كان القيح يحتوي على آثار من دم؟»

«يا سادة! يا سادة، أنا قائد الركبان فحسب ولست حكيمًا!» صاح خندي في ضجر. «ليس لدي إجابات عن أي من هذه الأسئلة. أنا أعرف شيئًا واحدًا إضافيًا فقط، أيها السادة».

«وما هذا الشيء؟» سأل الجوزجاني.

«بعد ثلاثة أيام من إجراء الجراحة، انتقل سلطان غزنة إلى الرفيق الأعلى».

لقد كانا أسدين صغيرين، علاء شاه والسلطان محمود. اعتلى كل منهما قبل الأوان عرش السلطة ليخلف والدًا قوي الشكيمة، وكان كل منهما قد

أبقى الآخر نصب عينيه في حين كانت مملكتاهما تراقبان بعضهما، وكان يدركان أنهما في يوم من الأيام سوف يتصادمان، وأن غزنة سوف تجتاح بلاد فارس أو بلاد فارس سوف تجتاح غزنة.

لم يحدث قطّ، كانا يحومان حول بعضهما بحذر وفي بعض الأحيان كانت قواتهما قد اشتبكتا في مناوشات، لكن كل منهما كان ينتظر، مستشعرًا أن الوقت لم يكن مناسبًا لخوض حرب شاملة. ومع ذلك لم يغب السلطان محمود قطّ عن أفكار علاء شاه. وفي كثير من الأحيان كان الشاه يحلم به. كان دائمًا نفس الحلم، حيث احتشدت جيوشهما وبحماسة اندفع علاء شاه بمفرده نحو رجال القبائل الأفغانية الشرسين للسلطان محمود، وألقى نداء القتال الفردي على السلطان مثلما تحدى أردشير خصمه أردوان، الناجي ليعلن مصيره على أنه ملك الملوك الحقيقي المؤكد.

والآن تدخل الله ولن يلتقي علاء شاه السلطان محمود في القتال. ففي الأيام الأربعة التي أعقبت وصول قافلة الإبل، ركب ثلاثة جواسيس متمرسين وموثوقين بشكل منفصل إلى أصفهان وأمضوا وقتًا في دار الفردوس، ومن تقاريرهم بدأ الشاه يكون على إلمام واضح لما حدث في عاصمة غزنة.

وبعد وفاة السلطان مباشرة، حاول محمد نجل السلطان محمود اعتلاء العرش لكن أخوه أبو سعيد مسعود أحبط خطته، وهو محارب شاب يحظى بدعم قويّ من الجيش. وفي غضون ساعات، صار محمد سجينًا مكبلًا بالأغلال والسلاسل وأعلن مسعود سلطانًا. كانت جنازة السلطان محمود حدثًا جللًا يشوبه الجنون، طائفة عابسة متجهمة مودّعة وطائفة مهووسة بالاحتفال، وكان ذلك من خلال دعوة مسعود لزعماء القبائل معًا وأعلن نيته القيام بما لم يفعله أبوه قط: جرى إخطار الجيش بأنه

سوف يتحرّك في مسيرة ضد أصفهان في غضون أيام.

كانت هذه هي المعلومة التي أخرجت علاء شاه أخيرًا من دار الفردوس.

لم يكن الغزو المخطط له غير مرحب به لسببين. كان مسعود طائشًا وغير محنك، وكان علاء شاه مسرورًا بفرصة تحيّنها ليفرض زعامته ضد هذا الطيش، ولأن هناك شيئًا ما في الروح الفارسية يهوى الحرب، فقد كان أريبًا ألمعيًّا بما يكفي ليدرك أن الصراع سوف يتبناه شعبه بوصفه إحباطًا للقيود الدينية التي أجبر الملالي الشعب على العيش تحت وطأتها.

كان يعقد اجتماعات عسكرية كانت أشبه باحتفالات صغيرة، مع ظهور الخمر والنساء في الأوقات المناسبة، كما في الأيام الخوالي. تأمل علاء شاه وقادته مخططاتهم وأمعنوا فيها النظر ورأوا أنه من غزنة لم يكن هناك سوى طريق واحد مناسب لقوة كبيرة. ويجب أن يعبروا التلال والسفوح الطينية إلى الشمال من صحراء دشت-كوير (صحراء الملح الكبرى)، وهم يطوقون الصحراء الكبرى حتى يتوغل جيشه في عمق مدينة همذان، ومن هناك يتجهون جنوبًا.

ولكن علاء شاه قرر أن يتقدم الجيش الفارسي إلى مدينة همذان ويلتقي بهم قبل أن يهبطوا على أصفهان.

كانت استعدادات جيش علاء شاه هي الموضوع الوحيد للمحادثات، ولا يمكن الإفلات منها حتى في البيمارستان، على الرغم من محاولة روب. لم يفكر في الحرب الوشيكة لأنه لم يرغب في أي جزء منها؛ لأنه أوفى دينه لعلاء شاه، رغم أنه كان كبيرًا. أقنعته الغارات في الهند أنه لم يرغب قطّ في الانضمام إلى صفوف المحاربين مرة أخرى.

لذلك اعتراه شعور بالقلق وانتظر استدعاء ملكي لم يأت.

وفي غضون ذلك الوقت كان يعمل بجد واجتهاد. اختفت آلام البطن لدى قاسم؛ لفرحة سائق الماشية السابق، استمر روب في وصف دواء يتضمن حصة يومية من النبيذ وأعاده إلى واجباته في قبو المستشفى. كان روب يعتني بالمرضى أكثر من أي وقت مضى، حيث تولى الجوزجاني العديد من واجبات شيخ الأطباء وقام بتسليم عدد من مرضاه إلى أطباء آخرين، من بينهم روب.

لقد صعق عندما تناهى إلى سمعه أن ابن سينا قد تطوّع لقيادة الجراحين الذين سيرافقون جيش علاء شاه شمالًا. أخبره الجوزجاني الذي تغلّب على غضبه أو أخفاه.

«خَسارة، لإرسال مثل هذا العقل إلى الحرب».

هزّ الجوزجاني كتفيه. «شيخ الأطباء يتمنى حملة واحدة أخيرة».

«إنه مسن ولن ينجو».

«لقد بدا كبيرًا في السن إلى الأبد بيد أنه لم يعش حتى ستين عامًا». تنهّد الجوزجاني بمرارة. «أعتقد أنه يأمل أن يصيبه سهم أو رمح. لن تكون مأساة أن تقابل موتًا أسرع مما قد يخبئه له المستقبل».

وسرعان ما أعلن شيخ الأطباء أنه اختار مجموعة من أحد عشر شخصًا لمرافقته كجراحين في الجيش الفارسي؛ كان أربعة من طلاب الطب، وثلاثة من أحدث الأطباء الشباب، وأربعة من الأطباء المخضرمين.

والآن صار الجوزجاني هو شيخ الأطباء باللقب وكذلك في الواقع. لقد كان ترويجًا قاتمًا؛ لأنه جعل المجتمع الطبي يدرك أن ابن سينا لن يعود بصفته قائدًا لهم.

ولدهشة روب ورعبه، أسند لروب بعض الواجبات التي قام بها

الجوزجاني نيابة عن ابن سينا، على الرغم من وجود عدد من الأطباء الأكثر خبرة الذين كان من الممكن أن يختارهم الجوزجاني. وأيضًا، نظرًا لأن خمسة من الاثني عشر الذين ذهبوا مع الجيش كانوا أساتذة، فقد قيل له إنه من المتوقع أن يلقي محاضرات في كثير من الأحيان وأن يقوم بالتدريس عندما يزور مرضاه في البيمارستان.

وبالإضافة إلى ذلك، جرى تعيينه عضوًا دائمًا في مجلس الامتحانات وطلب منه العمل في اللجنة التي أشرفت على التعاون بين المستشفى والمدرسة. وعقد أول اجتماع له في اللجنة في المنزل الفخيم لروتون بن نصر مدير المدرسة. كان اللقب شرفيًا ولم يكلف المدير نفسه عناء الحضور، لكنه جعل منزله متاحًا وترك أوامر بتقديم طعام شهيّ حلو المذاق للأطباء المجتمعين.

اشتمل الطبق الأول على شرائح بطيخ كبير الحجم ذات لون أخضر ونكهة فريدة وحلاوة ذائبة. كان روب قد تذوق هذا النوع من البطيخ مرة واحدة فقط من قبل وكان على وشك التعليق عليه عندما ابتسم له معلمه السابق جلال الدين ابتسامة عريضة. «يجب أن نشكر عروس المدير الجديدة على هذه الفاكهة اللذيذة».

لم يفهم روب.

غمز مجبّر العظام بعينه. روتون بن نصر لواء وابن عم الشاه، كما تعلمون. جاء علاء شاه هنا الأسبوع الماضي زائرًا للتخطيط للحرب والتقى بلا شكّ الزوجة الأحدث. وبعد غرس البذور الملكية، هناك دائمًا هدية من بطيخ علاء شاه الخاص. وإذا نتج عن البذور محصول ذكر، فهناك هدية أميرية، سجّادة سامانية».

لم يستطع إنهاء طعامه لكنه تذرّع بالمرض وغادر الاجتماع. وكان

عقله في حالة من الاضطراب والتشوش، وركب مباشرة إلى المنزل في الحي اليهودي. كان الصغير روب جيه يلعب في الحديقة مع أمه ولكن الرضيع كان في المهد وأخذ روب تام بين ذراعيه وتفقّده.

ليس سوى طفل صغير جديد. الطفل نفسه الذي كان يحبه عندما برح المنزل في ذلك الصباح.

أعاد الصبي في مهده وتوجه إلى الصندوق المصنوع من خشب الصندل ونزع السجّادة التي منحها الشاه، وفرشها على الأرض بجانب المهد.

ولمّا ألقى نظرة خاطفة إلى أعلى، كانت ماري في مدخل الباب.

نظرا بعضهما إلى بعض، أصبح ذلك حقيقة إذًا، وكان الأسى الذي يكابده والألم الذي يعتصره من أجلها يفتت الأكباد والقلوب.

تحرّك نحوها، وكان ينوي أن يأخذها بين ذراعيه، لكنه بدلًا من ذلك وجد أن كلتا يديه كانتا تمسكانها بإحكام شديد، حاول أن يتكلم ولكن انعقد لسانه.

أبعدته في نفور وفركت أعلى ذراعيها.

«لقد أبقيتنا هنا، أما أنا فقد أبقيتكم على قيد الحياة»، قالت بازدراء. تغيّر الحزن في عينيها إلى شيء بارد، عكس الحب.

وبعد ظهر ذلك اليوم خرجت من غرفته. ابتاعت سريرًا ضيقًا ووضعته بين أماكن نوم طفليها، بجانب سجّادة الأمراء السامانيين.

70

غرفة قاسم

جافى النوم مضجعه طوال تلك الليلة، شعر وكأنه مسحور، كما لو أن الأرض قد اختفت تحت قدميه وعليه أن يقطع مسافة طويلة سيرًا على الأقدام في الهواء. لم يكن من غير المعتاد لشخص في مكانته أن يقتل الأم والطفل، كما فكّر، بيد أنه كان يعلم أن تام وماري في أمان في الغرفة المجاورة. كان مسكونًا بالأفكار المجنونة لكنه لم يكن مجنونًا.

وفي الصباح نهض من فراشه وذهب إلى البيمارستان؛ حيث لم يكن كل شيء على ما يرام أيضًا. كان ابن سينا قد أخذ أربعة من الممرضين إلى الجيش كحاملي نقّالات وجامعي للجرحى، ولم يكن الجوزجاني قد عثر بعد على أربعة آخرين ممن يستوفون معاييره. كان الممرضون الذين بقوا في البيمارستان مرهقين ومتجهمين، وزار روب مرضاه وقام بعمله كطبيب دون مساعدة، وفي بعض الأحيان كان يتوقف مؤقتًا لتنظيف ما لم يكن لدى الممرض الوقت الكافي لتنظيفه بشكل صحيح، أو غسيل وجه محموم أو إحضار الماء لتخفيف جفاف الأفواه وعطشها.

صادف قاسم بن سهدي مستلقيًا ممتقع الوجه وهو يئن، والأرضية المجاورة له ملوثة بالقيء.

غادر قاسم غرفته المجاورة للقبو وهو مريض وخصص لنفسه مكانًا كمريض، مدركًا أن روب سيجده وهو يشق طريقه عبر البيمارستان.

وقال قاسم إنه أصيب عدة مرات خلال الأسبوع الماضي.

«ولكن لماذا لم تخبرني!»

«يا سيدي، لقد تجرعت النبيذ. تجرعت النبيذ واختفى الألم، لكن الآن النبيذ لا يساعد، يا حكيم، ولا أستطيع تحمله».

شعر بحمى وليس بحرقة، وكان بطنه رقيقًا لكنه رخو، وأحيانا يلهث في ألمه مثلما يلهث الكلب، كان لسانه مغطى بطبقة ما وكان يلهث أنفاسه.

«سوف أعطيك دواءً ناجعًا».

«بارك الله فيك، يا سيدي».

ذهب روب مباشرة إلى الصيدلية. وفي النبيذ الأحمر الذي أحبه قاسم كان ينقع الأفيون والمرقد (البنج)، ثم عاد على جناح السرعة إلى مريضه. امتلأت عينا الحارس العجوز للقبو الذي تحفظ فيه رفات الموتى بدهشة مخيفة وابتلع الجرعة.

ومن خلال الستائر القماشية الرقيقة للنوافذ المفتوحة، كانت الأصوات تغزو البيمارستان بمستويات متزايدة، وعندما ذهب روب إلى الخارج رأى أن سكان المدينة قد خرجوا للمشاركة في توديع الجيش.

تتابع الناس إلى الميدان. كان هذا الجيش أكبر من أن تحتويه الميادين، امتد وملأ الشوارع في جميع أنحاء الجزء المركزي من المدينة. ليس بالمئات، كما كان الحال في الغارة التي زحفت إلى الهند، بل بالآلاف. صفوف طويلة من المشاة الثقيلة، وصفوف أطول من الرجال المسلحين بأسلحة خفيفة. قاذفات الرماح. رماة الرماح على ظهور الخيول، والفرسان الذين يحملون السيوف على ظهور الخيول والإبل. كان ازدحام الحشود هائلًا، مثلما كان الضجيج: صيحات الوداع، والنحيب والبكاء، وصراخ النساء، والمزاح البذيء، والوصايا، وكلمات الوداع والتشجيع.

شقّ طريقه للأمام مثل رجل يسبح ضد تيار المد البشري، وهو يخترق الرائحة الكريهة التي كانت مزيجًا من رائحة البشر ورائحة الإبل ورائحة روث الخيول. كان بريق الشمس الذي تعكسه الأسلحة المصقولة يسبب العمى. وفي مقدمة الصف كانت الأفيال. أحصى روب أربعة وثلاثين فيلًا. كان علاء شاه يرسل جميع أفيال الحرب التي يمتلكها.

لم ير روب ابن سينا، كان قد ودّع العديد من الأطباء المغادرين في البيمارستان، لكن ابن سينا لم يودع روب، وكان من الواضح أنه لا يفضل كلمات الوداع.

وها قد أتى الموسيقيون الملكيون. قام البعض بنفخ الأبواق الذهبية الطويلة والبعض الآخر قرع أجراسًا من الفضة، وهم يرحبون بالاقتراب المتمايل للفيل العظيم (ذي القرنين) ذي القوة الجبّارة. كان مروض الأفيال هارشا يرتدي الأبيض والشاه يرتدي الحرير الأزرق والعمامة الحمراء التي كانت زي ذهابه إلى الحرب.

زأر الحشد بنشوة فور رؤية ملكهم المحارب. وعندما رفع يده في التحية الملكية، عرفوا أنه كان يعدهم باجتياح مدينة غزنة. فحص روب الشاه منتصب الظهر، في تلك اللحظة لم يكن علاء شاه هو علاء شاه لقد أصبح زركسيس، وأصبح داريوس، وأصبح سيروس العظيم، لقد أصبح كل الغزاة لجميع الرجال.

«نحن أربعة أصدقاء، نحن أربعة أصدقاء». شعر روب بالدوّار، وهو يفكر في المناسبات عندما كان من السهل قتله.

لقد كان بعيدًا في مؤخرة الحشد، وحتى لو كان في المقدمة، لكان قد لقى حتفه في الوقت الذي ينقضّ فيه على الملك.

التفت بعيدًا، لم ينتظر مع الآخرين ليرى الموكب المغادر الذي يجمع

أولئك الزاحفين إلى المجد أو الموت. كافح بين الجماهير المحتشدة وسار دون أن يبصر طريقه حتى وصل إلى ضفاف نهر زاينده، نهر الحياة.

نزع من إصبعه خاتم الذهب الكبير الذي قدمه له علاء شاه مقابل خدمته في الهند وألقى به في المياه البنية. وبعد ذلك، في حين كانت الحشود بعيدًا وقد دوّى زئيرها مرارًا وتكرارًا، مشى عائدًا إلى البيمارستان.

كان قاسم قد تجرّع جرعة كبيرة من المنقوع لكن بدا أنه مريض للغاية. كانت عيناه فارغتين، ووجهه شاحبًا وغائرًا. وعلى الرغم من أن اليوم كان دافئًا، لكنه كان يرتجف، وقد دثّره روب ببطانية. وسرعان ما تبللت البطانية وعندما لمس وجه قاسم، كان وجهه ساخنًا.

وبحلول وقت متأخر بعد وقت الظهيرة، أصبح الألم قويًا لا يحتمل لدرجة أنه عندما لمس روب بطنه، صرخ الرجل العجوز.

لم يذهب روب إلى المنزل، مكث في البيمارستان، وعاد إلى سرير قاسم بين الفينة والأخرى.

وفي ذلك المساء، في خضم الألم الذي استولى على قاسم، كان هناك راحة كاملة، كان تنفسه هادئًا لفترة من الوقت، وغطّ في النوم. تجرأ روب على الأمل، ولكن في غضون ساعات قليلة عادت الحمى إلى قاسم وأصبح جسده أكثر سخونة، وصار نبضه سريعًا وفي بعض الأحيان بالكاد يكون محسوسًا.

لقد تشنّج وتخبّط في هذيان. نادى قائلًا: «نواس». «آه، نواس». تحدّث أحيانًا إلى أبيه أو إلى عمه نيلي، ومرة تلو الأخرى إلى نواس المجهول.

أخذ روب يديه واعتصر قلبه؛ لم يتركه يذهب؛ لأنه الآن لا يمكنه أن يقدم سوى حضوره بجانبه والراحة الضئيلة التي تنبع من اللمسة الإنسانية.

وأخيرًا تباطأ التنفس الشاق ثم توقف. كان روب لا يزال يمسك يديه المتصلبتين عندما لفظ قاسم أنفاسه.

وضع إحدى ذراعيه تحت الركبتين المتورمتين والذراع الأخرى تحت الكتفين العظميتين العاريتين وحمل الجثة إلى القبو، ثم دخل الغرفة المجاورة. فاحت الرائحة؛ وكان عليه أن يرى أن الجثة قد غسّلت. اقتعد الأرض بين متاع قاسم، وهو قليل: ثوب واحد إضافي رث، وسجادة صلاة ممزقة، وبعض الأوراق وجلد مدبوغ دفع قاسم للناسخ لينسخ عليه عدة أدعية وابتهالات قرآنية، وقارورتان من النبيذ الممنوع، ورغيف خبز أرميني فاسد، ووعاء زيتون أخضر كريه الرائحة، وخنجر رخيص بشفرة مكسورة.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل ونام معظم من في المستشفى. وبين الحين والآخر صاح أحد المرضى أو علا نحيبه. لم يره أحد يخرج متاع قاسم الضئيل من الغرفة الصغيرة. وفي حين كان يحمل المنضدة الخشبية، التقى بممرض، لكن نقص المساعدة منح الممرض الشجاعة للنظر في الاتجاه الآخر والإسراع بتجاوز الحكيم قبل أن يسند له عمل أكثر من العمل الذي أدّاه بالفعل.

وفي الغرفة، تحت اثنين من أرجل الطاولة في أحد طرفيها، وضع روب لوحًا بحيث تميل الطاولة، وعلى الأرض أسفل الطرف المنخفض وضع حوضًا. احتاج إلى ضوء ساطع وجال في المستشفى خفية، وسرق أربعة مصابيح وعشرات الشموع، التي وضعها حول الطاولة كما لو كانت مذبحًا منصوبًا، ثم أحضر الجثة من القبو ووضعها على الطاولة.

حتى عندما كان قاسم يحتضر، كان روب يعلم أنه سوف يخالف الوصية.

ومع ذلك، حان الوقت الآن وشعر بصعوبة في التنفس. لم يكن محنطًا مصريًّا قديمًا يمكنه استدعاء متطفل حقير ليفتح الجسد ويحمل وزر الخطيئة، يجب أن يكون الفعل والخطيئة، إن وجدا، من صنيع أفعاله.

التقط سكينًا جراحيًّا منحنيًا برأس مسبار يسمى مبضعًا جراحيًّا حاد الشفرة وقام بعمل شق، وفتح البطن من الخصر إلى القَصّ. انفصل اللحم بسهولة وبدأ ينز الدم.

لم يكن يعرف كيفية المضي قدمًا وسلخ الجلد بعيدًا عن عظم القص، ثم فقد أعصابه. وطوال حياته لم يكن لديه سوى صديقين من الأقران ومات كل منهما بانتهاك تجويف جسده بوحشية. ثم إذا قبض عليه فسوف يموت بنفس الطريقة، ولكن بالإضافة إلى ذلك سوف يسلخ، ويتجرع كأس العذاب المهين. بارح الغرفة الصغيرة وجال في المستشفى وهو متوتر الأعصاب، لكن أولئك الذين كانوا مستيقظين لم يأبهوا به. كان لا يزال يشعر كما لو أن الأرض قد انفتحت وسار في الهواء، لكنه الآن يعتقد أنه كان يغوص بعمق في الجحيم.

لقد أحضر منشار عظام صغير الأسنان إلى المختبر الصغير المؤقت ونشر عظم القص في محاكاة للجرح الذي أودى بحياة ميردين في الهند. وفي الجزء السفلي من الشق الذي فتحه من الخصر إلى داخل الفخذ، صنع سديلة كبيرة وغليظة تمكن من ثنيها للخلف، وكشف تجويف البطن. وتحت البطن الوردية، كان جدار المعدة عبارة عن لحم أحمر وخيوط عضلية بيضاء، وحتى في جثة قاسم النحيل المهزول كانت هناك كريات دهن صفراء.

كانت البطانة الداخلية الرقيقة لجدار البطن ملتهبة ومغطاة بمادة قابلة للتخثر. بدت الأعضاء سليمة لعينيه المنبهرتين باستثناء الأمعاء الدقيقة التي كانت مخضبة بالحمرة وملتهبة. حتى أصغر الأوعية كانت

ممتلئة بالدم لدرجة أنها بدت وكأنها حقنت بالشمع الأحمر. كان الجزء الجرابي الصغير من الأمعاء أسود بشكل غير عادي وملتصق ببطانة المعدة؛ ولما حاول فصله بلطف عن طريق السحب، انقطعت الأغشية وظهر ملء ملعقتين أو ثلاث ملاعق من القيح، وهي العدوى التي تسببت في ألم شديد لقاسم. كان يشتبه في أن آلام قاسم قد توقفت عندما تمزّق النسيج المصاب. تسرب سائل رقيق داكن اللون فاسد من الالتهاب إلى تجويف البطن. غمس فيه طرف إصبعه وتشممه عن قرب باهتمام جمّ، فقد يكون هذا هو السم الذي تسبب في الحمى والموت.

أراد فحص الأعضاء الأخرى لكن تملكه الخوف.

وخاط الفتحة بحذر شديد، حتى لو كان القديسون على حق، وبعث قاسم بن سهدي من القبر، لكان كاملًا. ثم طوى المعصمين وربطهما واستخدم قطعة قماش كبيرة لربط حقوي الرجل العجوز. ولفّ الجثة بعناية فائقة في كفن وأعادها إلى القبو لانتظار الدفن في الصباح.

قال في تأثر شديد: شكرًا لك، يا قاسم. «فلترقد بسلام».

أخذ شمعة واحدة إلى مراحيض البيمارستان، ونظّف نفسه وغيّر ثيابه، لكنه لا يزال يتخيل أن رائحة الموت لم تفارقه وشطف يديه وذراعيه بالعطر.

وفي الخارج، في عتمة الظلام، كان لا يزال خائفًا، لم يستطع تصديق ما فعله.

كان الفجر قد انبلج تقريبًا عندما استلقى على سريره. وفي الصباح كان ينام ملء جفنيه، وصار وجه ماري متحجرًا وهي تشتم عطرًا عابقًا لامرأة أخرى بدت وكأنها تعيث في منزلهم فسادًا.

71

هفوة ابن سينا

دعا يوسف الجمل روب إلى الاستراحة الأكاديمية للمكتبة. «أريد أن أريك كنزًا».

كان كتابًا سميكًا، ومن الواضح أنه نسخة جديدة من رائعة ابن سينا، القانون في الطب.

«هذا الكتاب المعنون «القانون في الطب» ليس مملوكًا لبيت الحكمة، إنه نسخة نسخها ناسخ من معارفي، إنه للبيع».

آه. التقطه روب، كان منسوخًا بحبّ وبدقة، فالحروف سوداء وواضحة على كل صفحة بلون عاجي، كان الكتاب عبارة عن مخطوطة، كتاب به العديد من التجميعات - أوراق كبيرة من رق الكتابة مطوية، ومقصوصة بحيث يمكن قلب كل صفحة بسهولة. كانت التجميعات مخيطة بدقة بين أغطية من جلد الخراف الناعم المدبوغ.

«هل هو باهظ الثمن؟»

أومأ يوسف برأسه.

«كم الثمن؟»

«سوف يبيعه نظير ثمانين بيسيت من الفضة؛ لأنه يحتاج إلى المال». زمّ شفتيه، مدركًا أنه ليس لديه الكثير من المال. كان في حوزة ماري مبلغًا كبيرًا، وهو مال أبيها، لكنه لم يعد هو وماري كما كانا. . .

هزّ روب رأسه.

تنهّد يوسف. «اعتقدت أنه يجب عليك امتلاك الكتاب».

«متى يجب بيعه؟»

هزّ يوسف كتفيه. «يمكنني الاحتفاظ به لمدة أسبوعين».

«حسنًا، إذًا، احتفظ به».

رمقه أمين المكتبة بنظرة مريبة. «هل سيكون المال متوافرًا إذًا، يا حكيم؟»

«إن شاء الله».

ابتسم يوسف. «خسنًا، إن شاء الله».

وضع مزلاجًا قويًّا وقفلًا ثقيلًا على باب الغرفة المجاورة للقبو الذي تحفظ فيه جثث الموتى. أحضر طاولة ثانية، وفولاذًا، وشوكة، وسكينًا صغيرًا، وعدة مشارط حادة، ونوع من أزاميل قاطعي الحجارة الذي يسمى الإزميل، ولوحة رسم، وورقة وفحم ورصاص، سيور جلدية، وطين، وشمع، وريش، وحامل حبر.

وفي أحد الأيام، اصطحب العديد من الطلاب الأقوياء إلى السوق وأعاد جثة خنزير جديدة، دون جهد يذكر. لم يظن أحد أنه أمر مثير للغرابة عندما قال إنه سوف يمارس بعض أعمال التشريح في الغرفة الصغيرة.

وفي تلك الليلة، حمل وحده جثمان امرأة شابة توفيت قبل ساعات قليلة ووضعها على الطاولة الفارغة، كان اسمها ميليا.

هذه المرة كان يملؤه حماس أكثر وينتابه خوف أقل. لقد فكّر في خوفه ولم يعتقد أنه مدفوع إلى أفعاله بالسحر أو عمل الجن. كان يعتقد أنه

مسموح له بأن يصبح طبيبًا للعمل من أجل حماية أفضل مخلوقات الله، وأن الله تعالى لن يغضب من معرفته المزيد عن هذا المخلوق المعقد والمثير للاهتمام.

فتح كل من الخنزير والمرأة، وتجهّز لإجراء مقارنة دقيقة بين التشريحين.

ونظرًا لأنه بدأ الفحص المزدوج في المنطقة التي يحدث فيها سل الكلاب الفيروسي (ديستمبر) في البطن، فقد تقيأ قليلًا في الحال. كان المصران الأعور للخنزير -وهو الأمعاء الشبيهة بالجيوب التي بدأت منها الأمعاء الغليظة- كبيرًا، بطول ثماني عشرة بوصة تقريبًا. لكن المصران الأعور للمرأة كان صغيرًا بالمقارنة، بطول 2 أو 3 بوصات فقط وعرضه في حجم خنصر روب. أهلًا! . . . ثمة شيء ملتصق بهذا الأعور الصغير... شيء ما. هذا الشيء بدا وكأنه لا شيء مثل دودة وردية، مكشوفة في الحديقة، التقطت ووضعت داخل بطن المرأة.

لم تكن جثة الخنزير الموضوعة على الطاولة الأخرى تحتوي على زائدة شبيه بالديدان، ولم يلاحظ روب قطّ زائدة دودية مشابهه في أمعاء الخنزير.

لم يتوصل إلى استنتاجات سريعة. اعتقد في البداية أن صغر حجم أعور المرأة قد يكون شذوذًا، وأن الشيء الشبيه بالديدان كان ورمًا نادرًا أو نموًّا آخر.

جهّز جثة ميليا للدفن بعناية كما فعل مع جثة قاسم، وأعادها إلى القبو.

بيد أنه في الليالي التي تلت ذلك، فتح جثة شاب مراهق، وامرأة في منتصف العمر، وطفل رضيع يبلغ من العمر ستة أسابيع. وفي كل حالة، مع الإثارة المتزايدة، وجد أن نفس الزائدة الدودية الصغيرة كانت

موجودة. كانت «الدودة» جزءًا من كل شخص، ثمة دليل دقيق على أن أعضاء الإنسان ليست مطابقة لأعضاء الخنزير.

أوه، اللعنة على ابن سينا. همس: «أيها العجوز اللعين». «أنت مخطئ!»

وعلى الرغم مما كتبه سيلسوس، على الرغم مما جرى تدريسه لألف عام، كانت أعضاء الرجال والنساء فريدة. وإذا كان الأمر كذلك، فمن كان يعلم كم عدد الألغاز الرائعة التي يمكن الكشف عنها والإجابة عنها ببساطة من خلال البحث عنها داخل أجساد البشر.

وطوال حياته، كان روب وحيدًا ومنعزلًا حتى التقى بها، والآن صار وحيدًا مرة أخرى ولم يستطع تحمل ذلك، وذات ليلة عندما دخل المنزل استلقى بجانبها بين الطفلين النائمين.

لم يقم بأي خطوة للمسها لكنها تحولت إلى مخلوق جاف، وجدت يدها طريقها إلى وجهه بصفعة موجعة. كانت أنثى كبيرة وقوية بما يكفي لتؤذي. أمسك يديها وثبتها على جنبيها.

«مجنونة».

«لا تقربني بعد العاهرات الفارسيات!»

أدرك ثمة عطر يفوح منه. «استخدمه لأنني كنت أقوم بتشريح الحيوانات في البيمارستان».

لم تقل شيئًا للحظة لكنها حاولت التحرك بخلاعة. كان يشعر بالجسد المألوف في مواجهته وهي تكافح ورائحة شعرها الأحمر تملأ أنفه.

«ماري».

صارت أكثر هدوءًا، ربما استشعرت في صوته شيئًا ما، ومع ذلك لمّا

تحرّك لتقبيلها، لم يكن ليتفاجأ أن تعض فمه أو تقضم عنقه، لكنها لم تفعل. استغرق الأمر منه لحظة ليدرك أنها كانت تقبّله بدورها. توقّف عن إمساك يديها وكان ممنونًا للغاية للمس ثديين جامدين ولكن ليس لدرجة الموت.

لم يستطع معرفة ما إذا كانت تنتحب أو مستثارة فحسب؛ لأنها كانت تصدر أنينًا طفيفًا. ذاق حلمتيها الممتلئتين بالحليب ومسّ سرّتها. وتحت هذا البطن الدافئ التفّت حوايا البطن اللامعة الوردية الرمادية والْتَوَت مثل مخلوقات البحر في دوامة، لكن طرفيها لم يكونا متيبسين وباردين، وبالعقدة الأولى من إصبعه ثم الثانية أدرك الحرارة واللزوجة، متاع الحياة الدنيا.

ولّما أولجه بداخلها، اتّحدا معًا مثل اليدين اللتين تصفّقان، وهما يخفقان ويرتجان كما لو كانا يحاولان تدمير شيء لا يمكنهما مواجهته. وكأنما يطردان الأرواح الشريرة. خربشت ظهره بأظافرها وهي ترتطم به مباشرة. ولم تسمع سوى همهمات وضربات هادئة من لقائهما الحميمي حتى تأوهت أخيرًا ثم تأوه هو كذلك، وصرخ الطفل تام واستيقظ روب جيه مع الصراخ، فالأربعة ضحكوا أو بكوا سويًا، وهما ضحكا وبكيا.

وفي النهاية عاد الصفو إلى حياتهما وصارت الأمور على ما يرام. عاد روب جيه للنوم وألقمت الرضيع ثديها، وأثناء الرضاعة أخبرت روب بصوت هادئ كيف جاء ابن سينا إليها وأبلغها بما يجب عليها فعله. وهكذا رأى كيف أنقذت المرأة والرجل العجوز حياته.

دهش وصعق لّما عرف بتدخل ابن سينا.

أما بالنسبة لبقية الأمر، فقد كانت تجربتها قريبة مما كان قد خمنه بالفعل، وبعد أن نام تام حملها بين ذراعيه وأخبرها أنها المرأة المختارة

له دائمًا، ومسّد شعرها الأحمر ولثم مؤخرة عنقها الأبيض حيث لم يجرؤ النمش على الظهور. ولّما أثقل الكرى أجفانها أيضًا، استلقى وحدّق في السقف المظلم.

وفي الأيام التي تلت تلك الليلة ابتسمت كثيرا وذلك أحزنه وأعضبه لرؤية آثار الخوف في الابتسامات، رغم أنه من خلال أفعاله حاول إظهار حبه وامتنانه.

وذات صباح، كان يفحص طفلًا في منزل أحد أعضاء البلاط الملكي، ورأى بجانب مفرش النوم السجادة الزرقاء الصغيرة المنقوش عليها العائلة السامانية الملكية. ولّما نظر إلى الصبي لاحظ بشرته الداكنة، والأنف الأقنى بالفعل، وعلامة محددة في عينيه. لقد كان وجهًا مألوفًا، وصار مألوفًا أكثر كلما نظر إلى ابنه الأصغر.

خالف جدول مواعيده وذهب إلى المنزل والتقط الطفل الصغير تام وحمله في الضوء، كان الوجه وجه الطفل المريض.

ومع ذلك، بدا الطفل تام أيضًا في بعض الأحيان بشكل ملحوظ شبيهًا بشقيق روب المفقود ويليام.

قبل وبعد الوقت الذي أمضاه في مدينة إيذج في مهمة ابن سينا، كان هو وماري قد مارسا الحب، من يجرؤ أن يقول إن هذا لم يكن ثمرة بذرته؟

وغيّر حفاض الرضيع المبلل ولمس يده الصغيرة وقبّل خده الناعم جدًّا، وأعاده إلى مهده.

وفي تلك الليلة، مارس هو وماري الحب برقة واهتمام حتى تحررت روحيهما، ولكن لم يكن اللقاء كما كان من قبل. وبعد ذلك خرج وجلس في الحديقة المغسولة بضوء القمر بجوار الأطلال الخريفية للزهور التي

كانت قد أغدقت عليها فيض رعايتها.

أدرك أنه لم يبقَ شيء على حاله. لم تكن المرأة الشابة الّتي تتبعته بكل ثقة في حقل القمح، ولم يكن هو ذاك الشاب الذي قادها إلى هناك.

ولم يكن ذلك أقل من الديون التي كان يتوق لسدادها لعلاء شاه.

72

الرجل الشفاف

انبثقت من ناحية الشرق سحائب من الغبار من هذا القبيل لدرجة أن الكشّافين توقعوا بثقة قدوم قافلة ضخمة، أو ربما حتى عدة قوافل كبيرة اتّحدت في طريق واحد.

وبدلًا من ذلك، اقترب جيش من المدينة.

ولمّا وصل الجيش إلى البوابات كان من الممكن التعرف على الجنود على أنهم جنود أفغان جاءوا من مدينة غزنة. توقفوا خارج الأسوار ودخل قائدهم -وهو شاب يرتدي رداء أزرق داكنًا وعمامة شديدة البياض- إلى أصفهان برفقة أربعة ضباط. لم يكن هناك من يمنعه من الدخول. وبعد أن تتبعه جيش علاء شاه إلى همذان، كانت البوابات تحت حراسة طائفة من الجنود المسنين، وكبار السن الذين اختفوا رويدًا رويدًا عند اقتراب الجيش الأجنبي، حتى إن السلطان مسعود -من أجل ذلك- اقتحم المدينة دون منازع. وفي مسجد الجمعة حطّ الأفغان خطام رحالهم ودلفوا إلى داخل المدينة، حيث وردت أنباء أنهم انضموا إلى جموع المصلين في الصلاة الثالثة (صلاة العصر) ثم اختلوا لعدة ساعات بالإمام موسى بن عباس وزمرَة من الملالي.

لم ير معظم سكان أصفهان السلطان مسعود، ولكن عرف الجميع بوجود السلطان، كان روب والجوزجاني من بين أولئك الذين صعدوا إلى أعلى السور ورمقوا جنود غزنة بنظرة ساخرة. كانوا رجالًا قساة المظهر يرتدون سراويل ممزقة وقمصانًا طويلة فضفاضة. كان بعضهم ملثمين

ونهايات عمائمهم ملفوفة حول أفواههم وأنوفهم ليحموا أنفسهم من غبار المسيرة ورملها، وكانت مفارش النوم المبطنة ملفوفة خلف السروج الصغيرة لخيولهم الشعثاء. وكانوا في حالة معنوية عالية، ويضعون أصابعهم على سهامهم ويغيرون أقواسهم الطويلة وهم ينظرون إلى المدينة الغنية بنسائها اللائي بدون عوائل، كما كانت تنظر الذئاب إلى جحر من جحور الأرانب، لكنهم كانوا منضبطين وانتظروا دون عنف أثناء وجود قائدهم في المسجد. تساءل روب عما إذا كان من بينهم الأفغاني الذي تسابق بشكل جيد ضد كريم في سباق الجري.

«ما الذي يمكن أن يريده مسعود من الملالي؟» سأل روب الجوزجاني.

ولا شك في أن جواسيسه أخبروه بنزاع علاء شاه معهم. أعتقد أنه ينوي اعتلاء سدة الحكم هنا يومًا ما قريبًا ويساوم المساجد على الولاء والطاعة».

ربما كان الأمر كذلك؛ لأنه سرعان ما عاد مسعود ومساعدوه إلى قواتهم ولم يكن هناك نهب. كان السلطان شابًّا صغيرًا، بالكاد أكبر من صبي، لكن كان من الممكن أن يكون هو وعلاء شاه ذا قربى: كان لديهما نفس وجه المفترس الذي يمتلأ بالفخر والقسوة. راقبوه وهو يخلع العمامة شديدة البياض، التي جرى حفظها بعد ذلك بعناية، وارتدى عمامة سوداء رثة قبل استئناف المسيرة.

رحل الأفغان إلى الشمال، متبعين الطريق الذي سلكه جيش علاء شاه.

«الشاه كان مخطئًا في التفكير أنهم سيأتون عن طريق همذان».

قال الجوزجاني بهدوء: «أعتقد أن القوة الرئيسية في غزنة موجودة في مدينة همذان بالفعل».

أدرك روب أنه كان على حق، كان عدد الأفغان الراحلين أقل بكثير من

عدد الجيش الفارسي ولم تنشب حرب أفيال بينهم، كان يجب أن يكون لديهم قوة أخرى. «وحينئذ ينصب السلطان مسعود الفخاخ؟»

أومأ الجوزجاني برأسه.

«يمكننا الركوب والذهاب لتحذير الفرس!»

«لقد فات الأوان، وإلا لما تركنا السلطان مسعود على قيد الحياة. وعلى أي حال، قال الجوزجاني بسخرية: «لا يهم إذا هزم علاء شاه السلطان مسعود أو السلطان مسعود هزم علاء شاه. إذا كان الإمام قندراسه قد ذهب حقًّا لقيادة السلاجقة إلى أصفهان، فلن ينتصر السلطان مسعود ولن ينتصر علاء شاه في النهاية. السلاجقة مخيفون وهم كثر ولا يحصى عددهم».

«إذا جاء السلاجقة، أو إذا عاد السلطان مسعود ليستولي على هذه المدينة، فماذا سيحدث للبيمارستان؟»

هزّ الجوزجاني كتفيه، وأضاف قائلًا: «سيغلق المستشفى لفترة وسنسارع جميعًا للاختباء من الكارثة، ثم سنخرج من مخابئنا وستعود الحياة كما كانت من قبل. لقد خدمت مع شيخنا نصف دزينة من الملوك، يأتي الملوك ويذهبون ولكن العالم لا يزال بحاجة إلى الأطباء».

طلب روب من ماري أن تعطيه نقودًا لشراء الكتاب، وأصبح كتاب القانون في الطب ملكه. ملأه الكتاب رهبة عندما حمله بين يديه، لم يكن قد امتلك كتابًا من قبل، لكن فرحته بحيازة هذا الكتاب كانت عظيمة لدرجة أنه تعهد بحيازة كتب أخرى.

ومع ذلك، لم يمض وقتًا طويلًا في قراءته؛ لأن غرفة قاسم جذبته.

قام بتشريح جثث عدة ليال في الأسبوع وبدأ في استخدام مواد الرسم

الخاصة به، وهو يتوق للقيام بالمزيد ولكنه غير قادر على ذلك؛ لأنه كان بحاجة إلى أن ينال قسطًا من النوم من أجل العمل في البيمارستان في أثناء النهار.

وفي إحدى الجثث التي فحصها، وهي جثة شاب طعن بالسكين إثر شجار حدث في متجر من متاجر النبيذ، وجد الزائدة الدودية في الأعور الصغير متضخمة وسطحها ملتهب وخشن، وتوقع أنه كان يفحص المرحلة الأولى من المرض الجانبي، عندما يبدأ المريض في الشعور بأول الآلام المتقطعة. وأصبح لديه الآن صورة عن تفاقم المرض من البداية حتى الموت، وقد كتب في دفتر حالاته:

وقد لوحظ وجود ثقب في البطن في ستة مرضى ماتوا كلهم.

حيث كان العَرَض الأول المقرر للمرض هو ألم البطن المفاجئ.

وعادة ما يكون الألم شديدًا ونادرًا ما يكون خفيفًا.

وفي بعض الأحيان يكون مصحوبًا بألم وغثيان وقيء في كثير من الأحيان.

ويكون ألم البطن متبوعًا بالحمى كعرض ثابت تال.

وتوجد مقاومة محدودة عند جسّ الجزء السفلي من البطن الأيمن، حيث تتألم المنطقة غالبًا بالضغط وعضلات البطن المشدودة والمتشنجة.

هذه الحالة التي تصيب الزائدة الدودية في الأعور لا تختلف في المظهر عن دودة الأرض وردية اللون كبيرة الحجم عن الأنواع الشائعة. إذا صار هذا العضو ملتهبًا أو مصابًا بالعدوى، يتحول إلى اللون الأحمر ثم إلى اللون الأسود، ويمتلئ بالقيح ويطفح في النهاية، وتتسرب محتوياته إلى التجويف البطني العام.

وفي هذه الحالة، يحدث الموت بسرعة، كقاعدة عامة في غضون نصف ساعة إلى ست وثلاثين ساعة من بداية الحمى الشديدة.

قطع وفحص فقط تلك الأجزاء من الجسد التي سيغطيها كفن الدفن. وقد استبعد هذا تشريح القدمين والرأس، وهذا بمثابة إحباط لأنه لم يعد يكتفي بفحص دماغ الخنزير. ظل الاحترام الذي يكنّه لابن سينا بلا حدود، لكنه أدرك أنه في مناطقَ معينة كان معلمه نفسه قد تعلم بشكل غير صحيح عن الهيكل العظمي والجهاز العضلي وأنه نقل المعلومات المضللة.

عمل روب بصبر، وكشف النقاب عن العضلات ورسمها مثل الأسلاك ومثل خيوط الحبال، بعضها يبدأ بحبل وينتهي بحبل، وبعضها بمرتكز مسطح، وبعضها بمرتكز دائري، وبعضها بحبل في طرف واحد فقط، وبعضها كانت عضلات مركبة تتألف من رأسين، من الواضح أن قيمتها الخاصة هي أنه في حالة إصابة أحد الرأسين، فإن الآخر سيتولى وظيفته. لقد بدأ جاهلًا ورويدًا رويدًا، في حالة مستمرة من الإثارة المحمومة والشبيهة بالحلم، انقشع جهله وتعلّم. لقد رسم رسومات تخطيطية لبنية العظام والمفاصل وشكلها وموضعها، مدركًا أن مثل هذه الرسومات ستكون عظيمة الفائدة في تعليم الأطباء الشباب كيفية علاج الالتواء والكسور في المفاصل.

ودائمًا عندما ينتهي من تشريح الجثة، يكفّنها ويعيدها ويأخذ معه رسوماته. ولم يعد يشعر أنه يتغلغل في خطر اللعنة التي تحل به، لكنه لم يفقد قطّ وعيه بالنهاية المخيفة التي كانت تنتظره إذا انكشف أمره. كان يقوم بتشريح الجثث على الضوء الخافت المرتعش لمصباح في الغرفة الصغيرة الخالية من الهواء، كان يبدأ التشريح عند سماع كل ضجيج ويتجمّد في حالة من الرعب في مناسبة نادرة عندما يمر شخص ما أمام

الباب.

كان هناك سبب وجيه لخوفه.

وفي وقت مبكر من صباح أحد الأيام، أخرج جثة امرأة مسنة كانت قد لفظت أنفاسها قبل ذلك بوقت قصير فقط من القبو. ونظر إلى الأعلى خارج الباب ليرى ممرضًا يتجه نحوه وهو يحمل جثة رجل. تدلى رأس المرأة وتأرجحت ذراعها في حين توقف روب صامتًا وحدق في الممرض الذي أحنى رأسه بأدب جمّ.

«هل يمكنني مساعدتك في ذلك، أيها الحكيم؟»

«إنها ليست ثقيلة».

سبق الممرض، وعاد إلى الداخل ووضعا الجثتين جنبًا إلى جنب وغادرا القبو معًا.

استمر الخنزير الذي قام بتشريحه أربعة أيام فقط، وفاحت رائحته لدرجة جعلت التخلص منه ضرورة. ومع ذلك فإن فتح المعدة والأمعاء البشرية أطلق روائح أسوأ بكثير من الروائح الكريهة الناجمة عن تفسخ الخنازير. وعلى الرغم من الماء والصابون، كانت الرائحة تملأ المكان.

وذات صباح اشترى خنزيرًا جديدًا، وبعد ظهر ذلك اليوم سار أمام غرفة قاسم ليكتشف أن الحاج دافوت حسين كان يطرق الباب المغلق ويضربه.

«لماذا هو مغلق؟ ماذا يوجد في الداخل؟»

قال روب بهدوء: «إنها غرفة أقوم فيها بتشريح خنزير».

حدّق فيه نائب مدير المدرسة في اشمئزاز. وفي هذه الأيام، نظر دافوت

حسين إلى كل شيء بريبة شديدة؛ لأنه جرى تفويضه من الملالي لمراقبة البيمارستان والمدرسة بسبب مخالفات الشريعة الإسلامية.

وعدة مرات في ذلك اليوم، لاحظه روب وهو يحوم بحذر شديد.

وفي ذلك المساء، عاد روب إلى المنزل مبكرًا. وفي صباح اليوم التالي عندما جاء إلى المستشفى رأى أن قفل باب الغرفة الصغيرة قد فتح بالقوة وكسر. وفي الداخل، كانت الأشياء كما تركها، لكن ليس إلى حدّ ما. حيث كان الخنزير مغطى على الطاولة. ثم بعثرت أدواته دون أن يفقد أي منها. لم يجدوا شيئًا يدينه، وكان آمنًا حتى اللحظة، ولكن الاقتحام كان له آثار مروّعة.

كان يعلم عاجلًا أم آجلًا أنه سوف يكشف أمره، لكنه كان يتعلم حقائق ثمينة ويرى أشياء رائعة ولم يكن لديه استعداد للتراجع.

انتظر يومين فيهما تركه الحاج وشأنه. توفي رجل مسن في المستشفى أثناء إجراء محادثة هادئة معه. وفي تلك الليلة فتح الجسد ليرى ما سبب الميتة الهادئة ووجد أن الشريان الذي كان يغذي القلب والأعضاء السفلية كان جافًّا ومنكمشًا، أشبه بورقة ذابلة.

ورأى في جسم الطفل سبب تسمية السرطان بهذا الاسم، مشيرًا إلى أن النمو الجائع الشبيه بالسرطان قد امتدت مخالبه في كل اتجاه. ووجد في جسد رجل آخر أن الكبد بدلًا من أن يكون أكثر طراوة ولونه بني محمر، وجده قد تحوّل إلى مادة صفراء صلبة أشبه بصلابة الخشب.

وفي الأسبوع التالي، قام بتشريح امرأة حبلى منذ عدة أشهر ورسم الرحم في بطنها المنتفخ مثل كأس شرب مقلوب يحتضن الروح التي كانت تتشكل فيه. وفي الرسم أعطاها وجه ديسبينا، التي لن تنجب أطفالًا أبدا. وسمّى الرسم باسم المرأة الحبلى.

وفي إحدى الليالي جلس بجانب طاولة التشريح ورسم شابًّا -أعطى له ملامح كريم- تشابهًا ناقصًا، ولكن يمكن التعرف عليه لأي شخص كان يحبه. رسم روب الشكل كما لو كان الجلد مصنوعًا من الزجاج. وما لم يستطع رؤيته بنفسه في الجسد على الطاولة رسمه كما ادّعى جالينوس أنه موجود. وكان يعلم أن بعض هذه التفاصيل غير المدعومة بأدلة كافية سوف تكون غير دقيقة، لكن الرسم كان لا يزال رائعًا ومميزًا أمام ناظريه، حيث أظهر الأعضاء والأوعية الدموية كما لو كانت عين الله تطل من خلال جسد الإنسان الصلب.

ولّما انتهى، ذيّل الرسم مبتهجًا بتوقيعه باسمه وتاريخه، وسمّى الرسم باسم الرجل الشفاف.

73

منزل ابن سينا في همذان

طوال هذا الوقت لم ترد أخبار عن الحرب التي وضعت أوزارها. ومن خلال الترتيب المسبق، خرجت أربع قوافل محملة بالإمدادات بحثًا عن الجيش، لكن لم تُر مرة أخرى مطلقًا وكان من المفترض أنهم عثروا على علاء شاه وهو منغمس في القتال. ثم بعد ظهر أحد الأيام قبل الصلاة الرابعة (صلاة المغرب) مباشرة جاء راكب يحمل أسوأ الأخبار احتمالًا.

وكما كان متوقعًا، بحلول الوقت الذي توقف فيه السلطان مسعود في أصفهان، كانت قواته الرئيسية قد عثرت بالفعل على الفرس وكانت تشتبك معهم. وقد أرسل السلطان مسعود اثنين من كبار جنرالاته، أبا سهل الحمدوني وطاش فرّاش لقيادة جيشه على طول الطريق المتوقع. خططوا ونفذوا الهجوم المباشر بشكل مثالي. قسّموا قواتهم إلى قسمين واختبأوا خلف قرية الكرج وأرسلوا الكشافة. ولمّا اقترب الفرس بما فيه الكفاية، اندفع الجيش بقيادة أبي سهل الحمدوني من جانب واحد لقرية الكرج وجاء الجيش الآخر من الأفغان بقيادة طاش فرّاش من الجانب الآخر. لقد طوّقوا رجال علاء شاه من الجانبين، وقد اجتمعت القوتان معًا بسرعة حتى توحدت صفوف جيش غزنة عبر خط قتال نصف دائري عملاق أشبه بالشبكة.

وبعد المباغتة الأولية، قاتل الفرس ببسالة لكنهم كانوا أقل عددًا وأقل مناورة، وخسروا الأرض بثبات لعدة أيام. واكتشفوا أخيرًا أن هناك قوة أخرى من غزنة تحاصرهم من الخلف بقيادة السلطان مسعود. ثم أصبح

القتال أشد بأسًا وأكثر ضراوة أكثر من أي وقت مضى، لكن النهاية كانت حتمية. كانت القوات المتفوقة لجنرالي غزنة أمام الفرس. وخلفهم، خاض سلاح فرسان السلطان، رغم صغر عدده وضراوته، صراعًا شبيهًا بالمعركة التاريخية بين الرومان والفرس القدماء، لكن هذه المرة كان عدو بلاد فارس هو القوة سريعة الزوال. ضربهم الأفغان مرارًا وتكرارًا ودائمًا ما كانوا يتفرقون وتلاشوا ليعودوا للظهور مرة أخرى في قطاع خلفي آخر.

وأخيرًا، ولّما ضعفت قوة الفرس المتعطشين للدماء وتشتتوا بدرجة كافية، أطلق السلطان مسعود القوات الكاملة لجميع جيوشه الثلاثة في هجوم شامل تحت وطأة عاصفة رملية.

وفي صباح اليوم التالي، كشفت الشمس عن رمال تحوم فوق أجساد الرجال والدواب، الجزء الأفضل من الجيش الفارسي. قال المبعوث إن بعضهم قد لاذ بالفرار وترددت شائعات أن علاء شاه كان من بين الفارّين، لكن هذه الأخبار لم تكن مؤكدة.

«ماذا حلّ بابن سينا؟» سأل الجوزجاني الرجل.

«ترك ابن سينا الجيش قبل وقت طويل من وصوله إلى قرية الكرج، أيها الحكيم. استولى عليه مغص شديد أصابه بالعجز، وهكذا، بإذن من الشاه، نقله أصغر طبيب من بين الجراحين، وهو بيبي الغوري، إلى مدينة همذان؛ حيث لا يزال ابن سينا يمتلك المنزل الذي آل إليه عن طريق الميراث من أبيه».

قال الجوزجاني: «أعرف المكان».

علم روب أن الجوزجاني سوف يذهب إلى هناك. قال: «دعني آتي أنا أيضًا».

ولبرهة، اختلجت عينا الطبيب الأكبر سنًّا بنيران الغيرة الناجمة عن الامتعاض، لكن العقل سرعان ما انتصر وأومأ برأسه.

قال «سوف نغادر حالًا».

كانت رحلة صعبة وقاتمة. دفعا خيولهما بقوة دون أن يعرفا ما إذا كانا سيجدانه على قيد الحياة فور وصولهما. لقد أخرس اليأس الجوزجاني ولم يكن هذا أمرًا يثير الدهشة؛ أحب روب ابن سينا لسنوات قليلة نسبيًّا، في حين أن الجوزجاني كان يعبد شيخ الأطباء طوال حياته.

كان من الضروري أن يتجها نحو الشرق لتجنب رحى الحرب، التي على الرغم من معرفتهما، كانت لا تزال مستعرة في إقليم همذان. ولكن لمّا وطئت أقدامهما المدينة العاصمة التي أعطت الإقليم اسمها، خيّم الهدوء والسلام على مدينة همذان، دون أي إشارة إلى المذبحة الكبرى التي وقعت على بعد أميال قليلة فقط.

ولمّا رأى روب المنزل بدا له أنه يناسب ابن سينا أكثر من الضيعة الكبرى في أصفهان. كان هذا المنزل المبني من الطين والحجر مثل الثياب التي كان يرتديها ابن سينا دائمًا، غير مرغوب فيه، رثًّا ومريحًا، ولكن في الداخل كانت تفوح رائحة المرض الكريهة.

طلب الجوزجاني بدافع الغيرة من روب الانتظار خارج الغرفة التي يرقد فيها ابن سينا. وبعد لحظات، سمع روب همهمة خافتة من الأصوات ثم -لدهشته وانزعاجه- سمع صوت ضربة لا تخطئها الأذن.

وخرج الطبيب الشاب الذي يدعى بيبي الغوري من الغرفة. كان وجهه أبيض وكان ينتحب. لقد مرّ من أمام روب دون أن يلقي تحية وخرج من المنزل.

خرج الجوزجاني بعد فترة وجيزة، وتبعه الملا العجوز.

«الدجال الشاب أودى بحياة ابن سينا إلى الهلاك. ولمّا وطئت أقدامهما إلى هنا، أعطى الغوري بذور الكرفس إلى شيخ الأطباء لتخفيف وطأة المغص، ولكن بدلًا من أن يعطيه دانقين من البذور أعطاه خمسة دراهم، ومنذ ذلك الحين وابن سينا ينزف كميات كبيرة من الدم».

كان هناك ستة دانقات إلى الدرهم، وهذا يعني أنه أعطى جرعة موصى بها من الدواء الملين الشديد خمس عشرة مرة.

رمقه الجوزجاني بنظرة. قال بمرارة: «لقد كنت عضوًا في لجنة الامتحانات التي أجازت الغوري حكيمًا».

قال روب بلطف: «ألم تكن قادرًا على النظر إلى المستقبل ورؤية هذا الخطأ».

لكن الجوزجاني كان من الصعب مواساته. قال: «يا لها من مفارقة قاسية، أن الطبيب العظيم ينتهي أجله على يد حكيم غير كفؤ!»

«هل شيخ الأطباء على علم بهذا؟»

أومأ الملا برأسه، لقد أطلق سراح عبيده وأعطى ثروته للفقراء».

«هل يمكنني الدخول؟»

ولوّح الجوزجاني بيده.

وداخل الغرفة، أصيب روب بالصدمة. وفي الأشهر الأربعة منذ أن رآه آخر مرة، نحل جسم ابن سينا وذاب لحمه، كانت عيناه المغلقتين غائرتين، وبدا وجهه غائرًا وجلده شاحبًا.

ألحق به الغوري الأذى، لكن العلاج الخاطئ لم يؤد إلا إلى تسريع

النتيجة الحتمية لسرطان المعدة.

أمسك روب يديه وشعر بدنو أجله لدرجة أنه انعقد لسانه ووجد صعوبة في الكلام. انفتحت عينا ابن سينا. كانت عيناه تخترقان عيني روب، وشعر أنهما يستطيعان رؤية أفكاره، ولم تكن هناك حاجة إلى التَّخَفّي. سأل بمرارة: «لماذا يا شيخ الأطباء، أنه رغم كل ما يستطيع الطبيب عمله، لكنه ما إلا ورقة أمام ريح عاتية، والقوة الحقيقية فقط عند الله؟»

ولحيرته، أضاء الذكاء قسمات الوجه الذي تلاشى. وفجأة عرف لماذا كان ابن سينا يحاول الابتسام.

«هذا هو اللغز؟» سأل في خفوت.

«هذا هو اللغز... أيها الأوروبي، يجب أن تقضي بقية حياتك... في السعي... للإجابة عنه».

«شيخ الأطباء؟»

أغمض ابن سينا عينيه مرة أخرى ولم يجب، لفترة من الوقت جلس روب بجانبه في صمت.

قال بالإنجليزية: «كان بإمكاني الذهاب إلى مكان آخر دون تَخَفّي». «إلى الخلافة الغربية- طليطلة، وقرطبة، لكني سمعت عن رجل. ابن سينا الذي استحوذ اسمه العربي عليّ مثل تعويذة وهزّني أشبه بقشعريرة. أبو عليّ الحسين بن عبد الله بن سينا».

لم يكن بإمكانه فهم أكثر من اسمه، لكنه فتح عينيه مرة أخرى وضغط بيديه قليلًا على روب.

«لألمس حاشية ثوبك، أعظم طبيب في العالم»، همس روب.

نادرًا ما يتذكر النجار المتعب الذي جلدته الدنيا والذي كان والده البيولوجي، كان الحلاق قد عامله معاملة حسنة لكنها كانت تخلو من المودة، كان هذا هو الأب الوحيد الذي عرفته روحه، لقد نسي الأشياء التي ازدراها وكان يدرك فقط الحاجة.

«أطلب مباركتك».

ورغم أن الكلمات المتهدجة التي قالها ابن سينا كانت بلكنة عربية خالصة ولكن لم يكن من الضروري فهمها، كان يعلم أن ابن سينا قد باركه منذ وقت طويل.

قبّل الرجل العجوز وودعه، ولمّا غادر جلس الملا على السرير مرة أخرى وكان يقرأ بصوت عال آيات من القرآن.

74

ملك الملوك

عاد إلى أصفهان وحده، في حين أن الجوزجاني مكث في مدينة همذان، مما يتضح بجلاء أنه رغب في الخلوة مع شيخه المحتضر في الأيام الأخيرة.

«لن نرى ابن سينا مرة أخرى»، قال روب لماري بلطف عندما عاد إلى المنزل، وأشاحت بوجهها وانتحبت كطفلة.

وحالما نال قسطًا من الراحة، ذهب مسرعًا إلى البيمارستان، بدون ابن سينا أو الجوزجاني، كان المستشفى غير منظم ومليئًا بالأعمال العالقة، وأمضى يومًا طويلًا في فحص المرضى وعلاجهم، وإلقاء محاضرات عن الجروح - والقيام بعمل روتيني بغيض- الاجتماع مع الحاج دافوت حسين بخصوص الإدارة العامة للمدرسة.

وبسبب الأوقات المضطربة، ترك العديد من الطلاب تدريبهم المهني وعادوا إلى منازلهم خارج المدينة. تذمر الحاج قائلًا: «هذا الأمر يبقي القليل من المتدربين الطبيين للاضطلاع بأعباء العمل في المستشفى». ولحسن الحظ كان عدد المرضى منخفضًا بالمقابل، واستولى على الناس بالفطرة شعور بالقلق الشديد بشأن العنف العسكري وشيك الحدوث أكثر من القلق بشأن المرض.

وفي تلك الليلة كانت عينا ماري حمراء ومتورمة وتشبثت هي وروب ببعضهما بحنان كاد أن ينسى.

وفي الصباح لمّا غادر المنزل الصغير في الحي اليهودي، شعر بتغير في

الجو مثل شعوره بالرطوبة التي تسبق عاصفة إنجليزية.

ففي السوق اليهودي، كانت معظم المتاجر فارغة بشكل غير معهود، وكانت هندا تحزم البضائع في كشكها في اضطراب وجنون.

«ما هذا؟» قال.

«الأفغان».

ذهب إلى سور المدينة، ولمّا صعد الدرج وجد القمة محاطة بأناس صامتين بشكل غريب ورأى في الحال سبب خوفهم؛ لأن جيش غزنة كان يحتشد بقوة كبيرة. ملأ محاربو السلطان مسعود نصف السهل الصغير خارج السور الغربي للمدينة. كان الفرسان والجنود الجمّالون يقيمون معسكراتهم عبر التلال، وكانت أفيال الحرب مقيدة على المنحدرات العليا بالقرب من خيام ومقصورات النبلاء والقادة، الذين انتكست راياتهم وأعلامهم في الرياح الجافة. وفي وسط المعسكر كانت ترفرف فوق كل شيء راية ملتوية للغزنويين، على شكل رأس نمر أسود على حقل من البرتقال.

قدّر روب أن جيش غزنة هذا يعادل أربعة أضعاف الجيش الذي قاده السلطان مسعود عبر أصفهان في طريقه غربًا.

«لماذا لم يقتحموا المدينة؟» سأل أحد أفراد قوة شرطة الكلونتير.

«لقد طاردوا علاء شاه هنا وهو داخل أسوار المدينة».

«لماذا يجب عليهم أن يبقوا خارج الأسوار؟»

يقول السلطان مسعود إن علاء شاه يجب أن يتلقى طعنة الخيانة من قومه. يقول إذا سلمنا الشاه فسوف ينقذون حياتنا. وإذا لم نفعل ذلك، فهو يقطع وعدًا أنه سوف يصنع جبلًا من عظامنا في الميدان المركزي».

«هل سوف يسلّم علاء شاه؟»

حدّق الرجل وبصق. «نحن الفرس، وهو الشاه».

أومأ روب برأسه، لكنه لم يعتقد.

نزل من على السور وركب الحصان عائدًا إلى المنزل في الحي اليهودي، احتفظ بالسيف الإنجليزي بعيدًا ملفوفًا بخرق زيتية، ربطه بجانبه وأمر ماري بإخراج سيف أبيها وتحصين الباب خلفه.

ثم امتطى الحصان وذهب إلى دار الفردوس.

وفي شارع عليّ وفاطمة، احتشد الناس في جماعات قلقة. كان هناك عدد أقل من الأشخاص في الطريق المكون من أربع حارات المتفرع من طريق الألف حديقة ولم يكن هناك حرّاس على بوابات الفردوس. بدت علامات الإهمال على هذا الطريق الملكي النظيف، لم يقم مقدمو الرعاية بتشذيب المناظر الطبيعية أو تقليمها في الآونة الأخيرة. وفي نهاية الطريق كان هناك حارس وحيد.

خرج الحارس للتصدي للقادم لمّا اقترب روب.

«أنا يسي، حكيم في البيمارستان، استدعاني الشاه».

كان الحارس أكبر قليلًا من صبي وبدا عليه علامات الارتياب والذهول، بل كان يرتعد خوفًا، وأخيرًا أومأ برأسه وتنحى جانبًا حتى يمر الحصان.

سار روب راكبًا بين الغابات الاصطناعية التي أنشئت للملوك، متجاوزًا الساحة الخضراء المخصصة للعبة الكرة والعصا، متجاوزًا مضماري السباق والفسطاط.

توقف خلف الإسطبلات في المسكن الذي منح لدان فانجاليل. وقد انضم

صانع الأسلحة الهندي وابنه الأكبر إلى الجيش المتجه إلى مدينة همذان. لم يكن روب يعرف ما إذا كان الرجل وابنه قد نجوا أم لا، لكن عائلته قد اختفت. كان منزله الصغير مهجورًا وهدم أحدهم الجدران الطينية لفرن الصهر الذي بناه دان بهذه العناية.

سار في الطريق الأطول والأجمل الأقرب إلى دار الفردوس. كانت الأبراج المحصنة خالية من الحراس. قرعت حوافر حصانه الجسر المتحرك بشكل مجوف، وربط الحصان خارج البوابات الكبيرة.

وداخل دار الفردوس تردد وقع خطاه في الأروقة الفارغة. وأخيرًا جاء إلى غرفة الحضور التي كان دائمًا يحضر فيها أمام الملك، ورأى علاء شاه وهو يقتعد الأرض في ركن بمفرده، متربعًا في جلسته. وأمامه نصف إبريق مليء بالنبيذ، ورقعة الشطرنج مرصوص عليها القطع بمشكلة تنتظر حلًا.

بدا وكأن له حظوَة، وغير معتنى به مثل بعض الحدائق في الخارج. كانت لحيته غير مشذبة. كانت هناك هالات أرجوانية تحت عينيه وكان أنحف مما كان عليه، مما جعل أنفه أشبه بمنقار أكثر من أي وقت مضى. حدّق في روب وهو يقف أمامه ويده على مقبض سيفه.

«حسنًا، أيها الذمي!؟ هل جئت لتنتقم لنفسك؟»

لقد مرت لحظة قبل أن يدرك روب أن علاء شاه كان يتحدث عن لعبة الشطرنج وهو يعيد ترتيب القطع بالفعل على رقعة الشطرنج.

هزّ كتفيه ورفع يده عن المقبض، وأغمد السيف حتى يكون مرتاحًا وهو جالس على الأرض قبال الملك.

«جيوش جديدة»، قال علاء شاه بصرامة، وبدأ اللعب بتحريك جندي

عاجي.

حرّك روب جنديًا أسود. «أين فرهاد؟ هل قتل في الحرب؟» لم يكن يتوقع أن يجد علاء شاه وحده، كان يعتقد أنه سيضطر لقتل قائد البوابات أولًا.

«لم يقتل فرهاد، لقد لاذ بالفرار». أخذ علاء شاه جنديًا أسود مع حصانه الأبيض، وفي الحال استغل روب أحد الأحصنة من خشب الأبنوس ليأسر الجندي الأبيض.

«لم يكن الخووف ليهجرك».

ووافق علاء شاه وهو شارد الذهن: «لا، ما كان الخووف ليهرب». فحص رقعة الشطرنج. وأخيرًا، في نهاية خط المعركة، التقط الرخ المنحوت من العاج على شكل محارب يده مضمومة على شكل كأس إلى شفتيه، وهو يشرب دماء عدوه ونقله.

نصب روب شركًا واستدرج علاء شاه، وهو يتخلى عن فارس من خشب الأبنوس مقابل الرخ الأبيض.

حدّق علاء شاه.

وبعد ذلك كانت حركات الملك متأنية أكثر وأمضى وقتًا أطولًا في التأمل، ولّما استحوذ على الفارس الأبيض الآخر، التمعت عيناه ولكنها فترت لّما فقد فيله.

«وماذا عن الفيل (ذي القرنين)؟»

«آه، كان هذا الفيل جيدًا، وفقدته أيضًا عند مدخل قرية الكرج».

«وماذا عن هارشا مروض الأفيال؟»

«قتل قبل أن يموت الفيل، أصيب برمح في الصدر». احتسى الخمر دون تقديم أي شيء لروب، مباشرة من الإبريق وسكب بعض الخمر على رداءه الرث بالفعل، وهو يمسح فمه ولحيته بظهر يده. قال: «كفى كلامًا»، وملأته الثقة وهو يلعب؛ لأن المكسب الطفيف كان مع قطع الأبنوس.

تحول علاء شاه إلى مهاجم شرس وجرب كل الحيل التي نجحت في السابق بشكل جيد، لكن روب قضى السنوات الأخيرة في الاحتكاك بعقول أكثر رجاحة، لقد أوضح له ميردين متى يكون جريئًا ومتى يكون حذرًا، وقد علّمه ابن سينا أن يتنبأ، وأن يفكر في المستقبل البعيد لدرجة أنه أصبح الآن كما لو كان يقود علاء شاه في نفس المسارات التي كان فيها إبادة القطع العاجية أمرًا مؤكدًا.

مرّ الوقت، والتمعت حبات العرق على وجه علاء شاه، رغم أن الجدران الحجرية والأرضية الحجرية أبقت الغرفة باردة.

بدا لروب أن ميردين وابن سينا يلعبان كجزء من عقله.

ومن القطع العاجية لم يكن على رقعة الشطرنج إلا الملك ووزير وجمل؛ وسرعان ما كانت عيناه تراقبان الشاه، واستولى روب على الجمل مع وزيره.

وضع علاء شاه وزيره أمام قطعة الملك، وهو يسد خط الهجوم. لكن روب بقي لديه خمس قطع: الملك، والوزير، والرخ، وجمل، وجندي، وسرعان ما حرّك الجندي الذي لم يتعرض لأي تهديد إلى الجانب الآخر من الرقعة؛ حيث سمحت له القواعد بتبادله مقابل الرخ الآخر، لا يفقد بعد الآن.

وفي ثلاث حركات كان قد ضحّى بالرخ المسترد حديثًا من أجل أن يأسر الوزير العاجي.

وفي نقلتين أخريين، أطاح الوزير المصنوع من خشب الأبنوس بالملك المصنوع من العاج. قال بهدوء: «مات الملك، يا شاه».

كرر الكلمات ثلاث مرات، في حين كان يضع القطع الخاصة به بحيث لا مكان للملك علاء شاه المحاصر ليتحرك فيه.

قال في نهاية المطاف: «الهزيمة».

«نعم. هزيمة الملك». كنس علاء شاه القطع المتبقية من الرقعة بيده.

والآن أمعنا النظر في بعضهما وعادت يد روب إلى مقبض سيفه.

«قال السلطان مسعود إنه إذا لم يسلّمك الناس، فإن الأفغان سوف يمارسون القتل والنهب في هذه المدينة».

«سوف يمارس الأفغان القتل والسلب في هذه المدينة في كلتا الحالتين، هناك فرصة واحدة فقط لأصفهان». نهض واقفًا على قدميه، ونهض روب حتى لا يجلس العوام في حين كان الحاكم واقفًا.

«سوف أتحدى مسعود للقتال، ملك ضد ملك».

أراد روب أن يقتله، لا أن يعجب به أو يحبه، وقطّب جبينه.

ثنى علاء شاه القوس الثقيل الذي يمكن لقلة من الرجال أن تثنيه وربطه. وأشار إلى السيف المصنوع من الفولاذ المزخرف الذي صنعه دان فانجاليل، حيث كان معلقًا على الجدار البعيد. «أحضر سلاحي، أيها الذمي».

أحضره روب وشاهده وهو يحزم سيفه. «هل تذهب لمواجهة السلطان مسعود الآن؟»

«الآن يبدو هو الوقت المناسب».

«هل تتمنى أن أحضره لك؟»

«لا!»

رأى روب ازدراءً صادمًا للاقتراح الذي مفاداه أن اليهودي سوف يرافق ملك بلاد فارس. وبدلًا من أن يغضب، شعر بالراحة، فقد لفظ الاقتراح على عجل وباندفاع وانتابه ندم فور النطق به؛ لأنه لم يستطع أن يرى أي معنى أو مجد في الموت إلى جانب علاء شاه.

ولكن انفرجت أسارير وجه الصقر وتوقف علاء شاه مؤقتًا قبل أن يغادر. قال: «لقد كان عرضًا رجوليًا». «فكّر فيما تريده كمكافأة، ولمّا أعود سأمنحك خلعة».

صعد روب درجًا حجريًا ضيقًا إلى أعلى ساحات دار الفردوس، ومن هذا الوكر يمكنه رؤية منازل الأثرياء في أصفهان، والفرس يقفون فوق سور المدينة، والسهل الذي وراءه، ومعسكر جيش غزنة الذي امتد بطول التلال.

انتظر طويلًا والرياح تعبث بشعره ولحيته ولم يظهر علاء شاه.

ومع مرور الوقت، بدأ يلوم نفسه على عدم قتل الشاه، فكان من المؤكد أن علاء شاه قد خدعه ثم نجح في الهروب.

لكنه رأى في الوقت الحاضر.

كانت البوابة الغربية محجوبة عن ناظريه، لكن هناك على السهل المنبسط خلف السور خرج الشاه من المدينة، وهو يجلس منفرج الساقين على مطية مألوفة، الفحل العربي الأبيض الجميل الوحشي، الذي كان يهز رأسه ويتقافز بذكاء.

شاهد روب علاء شاه وهو يتجه مباشرة إلى معسكر العدو. ولمّا اقترب

كبح جماح جواده ووقف في ركاب السرج وهو يصيح بأعلى صوته على منافسه. لم يستطع روب سماع الكلمات، فقط صياح هزيل غير مفهوم، لكن بعض الناس سمعوا صياح الملك. لقد نشأوا على أسطورة أردوان وأردشير وأول مبارزة لاختيار شاهنشاه، ومن أعلى السور ارتفع صوت الهتاف. وفي معسكر جيش غزنة، نزلت مجموعة صغيرة من الفرسان من منطقة خيام الضباط. كان الرجل في المقدمة يرتدي عمامة بيضاء لكن روب لم يستطع معرفة ما إذا كان هو السلطان مسعود أم لا. وأينما كان السلطان مسعود، إذا كان قد سمع عن أردوان وأردشير والمعركة القديمة من أجل الحق في أن يكون ملك الملوك، فإنه لا يهتم بأي شيء من الأساطير.

انطلقت طائفة من الرماة على الخيول الراكضة من صفوف الأفغان.

كان الفحل الأبيض هو أسرع حصان رآه روب على الإطلاق، لكن علاء شاه لم يحاول أن يسبقهم. وقف في ركاب السرج مرة أخرى. وهذه المرة، كان روب متأكدًا، صاح بعبارات السخرية والإهانات على السلطان الشاب الذي لن يبارزه.

ولّما اقترب الجنود منه، جهّز علاء شاه قوسه وبدأ بالفرار على الحصان الأبيض، لكن لم يكن هناك مكان للهرب. ركض بقوة، واستدار في السرج وأطلق سهمًا أصاب القائد الأفغاني، وهي رمية بَارثيّة مثالية اجتذبت هتافات المتفرجين على السور، ولكن أمطروه بوابل من السهام.

وأربعة سهام أصابت جواده أيضًا. ظهر دفق أحمر اللون على فم الفحل. تباطأ الحيوان الأبيض ثم توقف ووقف، وترنّح قبل أن يسقط على الأرض بفارسه الميت.

لقد أخذ روب على حين غرة من حزنه.

شاهدهم يربطون حبلًا في كاحلي علاء شاه ثم يسحبونه إلى معسكر جيش غزنة، مما أثار سحابة من الغبار الرمادي. ولسبب لم يفهمه روب، كان منزعجًا بشكل خاص من حقيقة أنهم جرّوا الملك على الأرض ووجهه لأسفل.

أخذ الحصان البني إلى حظيرة الخيول خلف الإسطبلات الملكية وأزال السرج. كانت مهمة شاقة لفتح البوابة الضخمة بمفرده، لكن المكان كان مهملًا مثل بقية دار الفردوس، وقد حرّكه بيده مستغلًّا قوته البدنية.

قال: «وداعًا يا صديقي».

صفع الحصان على ردفه وعندما انضم إلى قطيع الخيول أغلق البوابة بحذر شديد. الله وحده يعلم من سيمتلك الحصان البني بحلول الصباح.

وفي حظيرة الإبل جمع زوجًا من أرسان الدواب من العوائق المعلقة في حظيرة مفتوحة واختار الناقتين القويتين اللتين كان يريدهما. كانت الناقتان باركتين في التراب وهما يمضغان طعامهما وهما يراقبانه وهو يقترب منهما.

حاولت الناقة الأولى أن تعض ذراعه عندما سحب خطامها بالقرب منه، لكن ميردين، أكثر الرجال رقة، أظهر له كيف يتفاهم مع الإبل، ولَكَم الناقة بقوة في ضلوعها لدرجة أن النفس أحدث صفيرًا من بين أسنانها الصفراء المربعة. وبعد ذلك أصبحت الناقة قَؤودة والناقة الأخرى لم تسبب أي مشكلة، كأنها تعلمت بالملاحظة. امتطى الناقة الكبرى وساق الناقة الثانية من خلال حبل.

وعند بوابات الفردوس، كان قد اختفى الحارس الشاب، ولأن روب كان يتنقل داخل المدينة بدا أن أصفهان قد أصابها مس من الجنون. كان الناس يتدافعون في كل مكان ويحملون حزمًا ويسوقون حيوانات محملة بمتاعهم. ثارت ضجة في شارع عليّ وفاطمة؛ واندفع حصان هارب أمام روب، مما

تسبب في تعثر الناقتين. وفي الأسواق، تخلى بعض التجار عن بضائعهم. رأى نظرات طمع موجهة إلى الإبل، وأخذ سيفه من غمده ووضعه على حجره وهو يمتطي الناقة. كان عليه أن يقطع مسافة كافية حول الجزء الشرقي من المدينة للوصول إلى الحي اليهودي؛ وقد تراجع الناس والدواب بالفعل لمدة ربع ميل أثناء محاولتهم الفرار من أصفهان عبر البوابة الشرقية للهروب من العدو الذي أقام معسكره خلف السور الغربي.

ولمّا وصل إلى المنزل، فتحت ماري الباب فور سماع ندائه، ووجهها شاحب وسيف أبيها لا يزال في يدها.

«نحن ذاهبون إلى وطننا».

اعتراها رعب شديد لكنه رأى شفتيها تتحركان بعبارات الشكر.

خلع العمامة والثياب الفارسية وارتدى قفطانه الأسود وقبعة اليهودي الجلدية.

قاما بتجميع نسخته من كتاب القانون في الطب لمؤلفه ابن سينا، والرسومات التشريحية ملفوفة وموضوعة في لفافة من الخَيزران، ودفتر الحالات الخاص به، وطقم أدواته الطبية، ورقعة الشطرنج الخاصة بميردين، والمؤن وبعض الأدوية، وسيف أبيها وصندوق صغير يحتوي على بعض المال. كل هذا كان محملًا على الناقة الصغرى.

وعلى أحد جانبي الناقة الكبرى علّق سلة من الخَيزران وعلى الجانب الآخر علّق جوال الخيش بشكل فضفاض. كان لديه قدر ضئيل من المرقد (البنج) في قنينة صغيرة، يكفي فقط للسماح له بتبليل طرف إصبعه الصغير والسماح لروب جيه بمص أنملته، ثم عمل نفس الشيء مع تام. ولمّا نام الطفلان، وضع الصبي الأكبر في السلة والطفل الأصغر في الجوال، وامتطت أمهما الناقة لتستقر في المنتصف.

لم يكن الظلام حالكًا عندما غادروا المنزل الصغير في الحي اليهودي للمرة الأخيرة، لكنهم لم يجرؤوا على التأخر؛ لأن الأفغان قد يقتحمون المدينة في أي لحظة.

كان الليل قد أرخى سدوله وتغشّى الظلام المكان في الوقت الذي ساق فيه الناقتين عبر البوابة الغربية المهجورة. كان طريق الصيد الذي سلكوه عبر التلال يمر بالقرب من نار معسكر جيش غزنة لدرجة أنه تناهى إلى مسامعهم الغناء والصياح، والصرخات الحادة للأفغان الذين يعملون بأنفسهم في أعمال السلب والنهب.

وذات مرة بدا أحد الفرسان وكأنه يركض باتجاههم مباشرة، ويصرخ صراخًا حادًّا وهو يمتطي جواده، لكن وقع الحوافر تلاشى بعيدًا.

بدأ تأثير المرقد يتلاشى وبدأ روب جيه يئن ثم يبكي. ظن روب أن الصوت مرتفع للغاية، لكن ماري أخذت الصبي من السلة وأسكتته بحلمة ثديها.

لم يطاردهم أحد. وسرعان ما تركوا نار المعسكر وراءهم، ولكن عندما نظر روب إلى الوراء من حيث أتوا، ظهرت سحائب وردية منخفضة في السماء وكان يعلم أن أصفهان تحترق.

سافروا طوال الليل ولمّا بزغ أول شعاع ضوء مع نور الصباح، رأى أنه قادهم للخروج من التلال ولم يكن هناك جنود على مرمى بصره. كان جسده مخدرًا، وقدميه... كان يعلم أنه عندما يتوقف عن المشي، سيكون الألم عدوًّا آخر. وبحلول هذا الوقت، كان كلا الطفلين ينتحبان وركبت زوجته المكلومة ذات الوجه الشاحب بعينين مغمضتين، لكن روب لم يتوقف. أجبر ساقيه المتعبتين على الاستمرار في السير، وساق الناقتين غربًا، نحو أول قرية من القرى اليهودية.

الجزء السابع

العائدون

75

لندن

عبروا القناة الكبيرة في الرابع والعشرين من مارس، لعام 1043 بعد الميلاد، ووطئت أقدامهم الأرض في وقت متأخر بعد الظهيرة في كوين هايث. وربما لو كانوا قد جاؤوا إلى مدينة لندن في يوم صيفي دافئ، لاختلفت بقية حياتهم، لكن وصول ماري تزامن مع تساقط الأمطار الربيعية الثلجية وهي تحمل ابنها الأصغر، الذي -مثل أبيه- قد تهوّع وتقيأ من فرنسا حتى نهاية الرحلة، وكانت تكره لندن وتسيء الظن بها من كآبة اللحظة الأولى.

وبالكاد كان هناك مكان للإرساء. ضمن السفن البحرية السوداء المخيفة وحدها، أحصى روب أكثر من عشرين واحدة تنتظر على عباب الأمواج في المراسي، وكانت المراكب التجارية في كل مكان. كانوا الأربعة متعبين من السفر. لقد شقّوا طريقهم إلى نزل في السوق الذي تذكّره روب في ساوثوارك، ولكن ثبت أنه ملاذ مؤسف، حيث كان يعج بالحشرات الزاحفة التي زادت من بؤسهم.

ولّما انبلج نور الصباح في اليوم التالي، انطلق بمفرده ليجد لهم مكانًا أفضل، وسار في طرق ممهدة وفوق جسر لندن، الذي كان في حالة جيدة، وأحد تفاصيل المدينة التي أقلها تغيّرًا. نمت لندن؛ حيث كانت هناك مروج وبساتين، رأى بنايات وشوارع غير مألوفة تنعطف بشكل جنوني مثل تلك الشوارع التي يزخر بها الحي اليهودي. بدا الحي الشمالي من المدينة غريبًا تمامًا عنه؛ لأنه عندما كان صبيًّا كان هذا الحي يتكون من الضياع

الملحقة بالحقول والحدائق، وهي ضياع مملوكة للعائلات القديمة. والآن بيع بعض هذه الأراضي وتحولت الأرض لتستخدم في الصنائع الأكثر تلويثًا للبيئة حيث كانت هناك حرف الحدادة، وكان للصاغة مجموعة من منازلهم ومتاجرهم الخاصة، كما فعل صاغة الفضة وعمال النحاس. لم يكن المكان الذي اختار أن يعيش فيه، بسحائبه من دخان الخشب الضبابي، ورائحة المدابغ، وقرع المطارق المستمرة على السنادين، وهدير الأفران، والقرع والضرب، والدق الناجم عن العمل والصناعة.

ظهر كل حي في عينيه ينقصه شيء ما. كانت البوابة المعطلة ثقيلة بسبب المستنقع غير الجاف، شارعا هالبورن وفليت إستريت كانا بعيدين عن وسط لندن، وشارع تشيبسايد كان مزدحم للغاية بأعمال البيع بالتجزئة. كان الجزء السفلي من المدينة أكثر ازدحامًا ولكنه كان جزءًا بطوليًا من طفولته ووجد نفسه منجذبًا إلى الواجهة البحرية.

كان شارع التايمز أهم شارع من شوارع لندن. وفي خضم قذارة الأزقة الضيقة التي تمتد من شارع بادل دوك على أحد طرفيه وتاور هيل على الطرف الآخر يعيش العَتَّالون وعمال الشحن والتفريغ والخدم وغيرهم من الفئات المحرومة والمهمشين، لكن الامتداد الطويل لشارع التايمز نفسه ورصيفه كانا المركز الرائج لعمليات التصدير والاستيراد وتجارة الجملة. وعلى الجانب الجنوبي من الشارع، اتسم جدار النهر والأرصفة بقدر معين من المحاذاة، لكن الجانب الشمالي كان يمتد بجنون، وأحيانًا يضيق، وأحيانًا يتسع. وفي بعض الأماكن، انبثقت من المنازل الكبيرة الواجهات الجملونية إلى الخارج مثل الشرفات الحوامل. وفي بعض الأحيان، كانت هناك حديقة صغيرة مسَوَّرة بارزة أو مستودع مبني في الخلف، وفي معظم الأوقات كان الشارع يكتظ بالناس والدواب التي يتذكر جيدًا روائحها وأصواتها الحيوية.

وفي حانة من الحانات استفسر عن المنازل الشاغرة وجرى تبليغه بمكان ليس بعيدًا عن والبروك. ثبت أنه بجوار كنيسة القديس آساف الصغيرة، وأخبر نفسه أن ماري سوف تحب هذا المكان. ففي الطابق الأرضي عاش مالك العقار، بيتر لوند. كان الطابق الثاني يسمح، لكونه غرفة صغيرة واحدة وغرفة كبيرة للمعيشة العامة، بالوصول إلى الشارع المزدحم بالأسفل عن طريق درج شديد الانحدار.

ولم يكن هناك أي علامة على وجود حشرات البق وكانت الأجرة تبدو عادلة. وكان موقعًا جيدًا؛ لأنه على طول الشوارع الجانبية الأفضل على الأرض المرتفعة إلى الشمال، عاش التجار الأثرياء واحتفظوا بمتاجرهم.

لم يضيّع روب الوقت في الذهاب إلى ساوثوارك لإحضار عائلته.

«ليس منزلًا جيدًا بعد، لكنه سوف يكون، أليس كذلك؟» سأل زوجته.

كانت ماري وجلة وذهب ردّها سدى مع الرنين المفاجئ لأجراس كنيسة القديس أساف، والتي ثبت أنها صاخبة جدًّا.

وحالما استقروا، سارع إلى صانع لافتات وأمر الرجل بنحت لوح من خشب البلوط وكتابة الحروف. ولّما جرى الانتهاء من صنع اللافتة، جرى تثبيتها بجوار مدخل المنزل في شارع التايمز؛ لذلك قد يرى الجميع أنه منزل روبرت جيريمي كول الطبيب.

ففي البداية كان من دواعي سرور ماري أن تكون بين البريطانيين وتتحدث الإنجليزية، على الرغم من أنها استمرت في مخاطبة طفليها باللغة الغيلية، أرادت منهما أن يتكلما لغة الاسكتلنديين. كانت احتمالية الحصول على أشياء في لندن مكلفة للغاية. وجدت خَيَّاطَة وطلبت منها أن تحيك لها فستانًا بنيًّا محتشمًا. كانت تتمنى لو كان أزرق اللون مثل الصبغة التي أعطاها إياها أبوها ذات يوم، زرقاء مثل سماء صيفية، لكن

هذا بالطبع كان مستحيلًا. وعلى الرغم من ذلك كان هذا الفستان جميلًا وأنيقًا وطويلًا، وبحزام، وبرقبة دائرية عالية وأكمام فضفاضة تتدلى على معصميها في طيات أنيقة.

وبالنسبة لروب، طلبت سراويل رمادية جيدة ومعطَفًا. وعلى الرغم من احتجاجه على الإسراف، فقد ابتاعت له معطفين أسودين، أحدهما من أقمشة خفيفة غير مبطنة للصيف والآخر أثقل بقلنسوة مزركشة بفرو الثعلب. كانت الثياب الجديدة قد تأخرت، حيث كان لا يزال يرتدي الثياب التي ابتاعها في القسطنطينية بعد أن تتبعوا مجموعة من الأماكن اليهودية الآمنة مثل اتباع سلسلة، حلقة تلو الأخرى. كان قد شذّب اللحية الكثيفة حتى صارت عثنونًا واستبدل الثياب الغربية بثيابه، وبحلول الوقت الذي انضموا فيه إلى قافلة، كان يسي بن بنيامين قد اختفى. وفي مكانه كان روبرت جيريمي كول، رجل إنجليزي يأخذ عائلته إلى مسقط رأسه.

كانت ماري مقتَصدة على الدوام، وقد احتفظت بالقفطان واستخدمت الثياب لصنع الملابس لطفليها. لقد احتفظت بثياب روب جيه من أجل تام، على الرغم من أن هذا كان صعبًا بسبب حقيقة أن روب جيه كان كبيرًا بالنسبة لسنه وكان تام أصغر قليلًا من معظم الأولاد؛ لأنه عانى من مرض خطير في رحلتهم غربًا. وفي مدينة فرايزنج الإفرنجية، أُصيب الطفلان بالتهاب الحلق والعيون الدامعة، ثم أصابتهما الحمى الشديدة التي أرعبتها بفكرة فقدان طفليها. ظلّ الطفلان محمومين لعدة أيام، لم يكن لدى روب جيه عجز مرئي ولكن المرض استقرّ في ساق تام اليسرى، والتي صارت شاحبة وبدا وكأنها هامدة.

جاءت عائلة كول إلى مدينة فرايزنج في قافلة كان من المقرر أن تغادر قريبًا، وقال قائد القافلة إنه لن ينتظر حتى زوال المرض.

قال له روب: «فلتذهب وعليك اللعنة»؛ لأن الطفل يحتاج إلى العلاج وسوف يتلقى العلاج. كان قد وضع ضمادات مبتلة دافئة على طرف تام، ولم ينم حتى يغيرها باستمرار ويمسك الساق الصغيرة بيديه الكبيرتين ويثني الركبة ويعالج العضلات مرارًا وتكرارًا، ويمارس القرص والضغط ويدلّك الساق بدهن الدب.

تعافى تام، ولكن ببطء. كان يمشي منذ أقل من عام عندما أصيب بالمرض، كان عليه أن يتعلم مرة أخرى الحَبو والزحف، وهذه المرة عندما خَطَا خطواته الأولى كان يفتقد التوازن، وكانت ساقه اليسرى أقصر قليلًا من الأخرى.

مكثوا في فرايزنج ليس بالضبط لمدة اثني عشر شهرًا وهم ينتظرون شفاء تام ثم الانضمام إلى قافلة مناسبة. وعلى الرغم من أنه لم يتعلم قطّ حب الفرنجة، فإن روب أصبح مرنًا إلى حدّ ما فيما يتعلق بعادات الفرنجة. كان الناس يأتون إليه هناك من أجل التداوي على الرغم من جهله بلغتهم، بعد أن رأوا الرعاية والحنان اللذين يعالج بهما طفله. لم يتوقف عن علاج ساق تام قطّ، وعلى الرغم من أن الصبي كان يجر قدمه اليسرى قليلًا أحيانًا عندما يمشي، لكنه كان من بين أكثر الأطفال نشاطًا في لندن.

وفي الواقع، كان الطفلان أكثر راحة في لندن من أمهما؛ لأنها لم تستطع التصالح مع نفسها. وجدت رطوبة الطقس وبرود الإنجليز. ولّما ذهبت إلى السوق، كان عليها أن تقاوم الانزلاق في المضايقات الشرقية الخفيفة التي اعتادت عليها بمودة. كان الناس في العموم أقل لطفًا هنا مما كانت تتوقعه. حتى روب قال إنه يفتقد بشدة حميمية المحادثات الفارسية. قال لها بحزن: «على الرغم من أن الإطراء نادرًا ما كان أكثر من أصواف الأغنام، فإنه كان ممتعًا».

شعرت وكأنها في ورطة تجاهه، ثمة شيء ما خاطئ في فراش الزوجية، وكآبة لم تستطع تحديدها. ابتاعت مرآة من الزجاج المصقول وفحصت انعكاسها، وهي تلاحظ أن بشرتها فقدت بريقها ولمعانها تحت شمس السفر القاسية. كان وجهها أنحف من ذي قبل، وعظام وجنتيها كانت أكثر بروزًا. كانت تعلم أن ثدييها قد تغيّرا بسبب الرضاعة. وفي كل مكان في المدينة، سارت العاهرات قساة الوجوه بطول الشارع وكان بعضهن جميلات. هل سيلجأ إليهن عاجلًا أم آجلًا؟ تخيلته وهو يخبر العاهرات كل ما عرفه عن الحب في بلاد فارس، ويجعلهن يتألمن انطلاقًا من التأمل فيهن وهن يتقلبن في نوبة ضحك كما فعلت هي وروب.

بالنسبة لها، كانت لندن مستنقعًا أسود وقفوا فيه بالفعل بعمق الكاحل. لم تكن المقارنة محض مصادفة؛ لأن المدينة كانت كريهة الرائحة أكثر من أي مستنقع صادفته في أسفارها ورحلاتها. لم تكن البالوعات المفتوحة والقاذورات أسوأ من البالوعات المفتوحة والقاذورات في أصفهان، ولكن هنا كان عدد الأشخاص يفوق عدد الأشخاص عدة مرات وفي بعض الأحياء كانوا يعيشون مكتظين معًا؛ لذا كانت الرائحة الكريهة المتراكمة جرّاء فضلاتهم الجسدية والقمامة أمرًا مقيتًا.

ولمّا وطئت أقدامهم القسطنطينية ووجدت نفسها مرة أخرى بين أغلبية مسيحية كاسحة كانت قد انغمست في طقوس الذهاب إلى الكنيسة، ولكن الآن تلاشى ذلك؛ لأنها وجدت كنائس لندن متسلطة. كان عدد الكنائس في لندن يفوق بكثير عدد المساجد في أصفهان، أكثر من مئة كنيسة. لقد تجلّت الكنائس في ارتفاعها الذي فاق كل أنواع البنايات الأخرى - كانت مدينة مبنية بين الكنائس - وتحدثت بصوت مدوٍّ دائم جعلها ترتجف. شعرت أحيانًا أنها على وشك النهوض والإثارة بفعل رياح الكنيسة العاتية التي تثيرها الأجراس. وعلى الرغم من أن كنيسة القديس آساف كانت صغيرة، لكن أجراسها كانت كبيرة وتردد صداها في المنزل الواقع

في شارع التايمز، وقد قرعت الأجراس في حفل موسيقي مذهل مع الآلات الأخرى، وكانت تتناقل الأنباء بطريقة أكثر فاعلية من جماعة المؤذنين. دعت الأجراس المصلين لأداء الصلاة، وشهدت الأجراس تقديس القداس، وحذرت الأجراس المتقاعسين من حظر التجوال، وزَلْزَلت الأجراس أبراج الكنيسة لحفلات التعميد وحفلات الزفاف، ودقت ناقوس الموت الكئيب والمهيب لكل روح تلفظ أنفاسها، وجلجلت الأجراس إنذار الحرائق وأعمال الشغب، ورحّبت بالزوار البارزين، ودوت الأجراس لإعلان كل يوم مقدس، وقرعت الأجراس بنغمات خافتة لإعلان الكوارث. بالنسبة لماري، كانت الأجراس هي المدينة.

وكانت تكره الأجراس اللعينة.

لم يكن الشخص الأول الذي أحضرته اللافتة الجديدة إلى بابهم مريضًا، كان رجلًا ضعيفًا محنيًّا يحدق ويغمز من خلال عينيه الضيقتين.

قال: «نيكولاس هون، طبيب»، ثم رفع رأسه التي غزاها الصلع مثل العصفور، في انتظار رد فعل. وأضاف على نحو هادف: «من شارع التايمز».

قال روب: «لقد رأيت لافتة عيادتك». ابتسم. «أنت في أحد طرفي شارع التايمز، يا سيد هون، وأنا الآن أثبت نفسي على الطرف الآخر. يوجد بيننا ما يكفي من سكان لندن المرضى لإلهاء عشرات الأطباء المنشغلين».

تَنَشَّقَ هون. «ليس هناك الكثير من المرضى كما قد تعتقد. وليس مثل هؤلاء الأطباء منشغلين. لندن بالفعل مكتظة للغاية بالأطباء، وفي رأيي، فإن المدينة البعيدة ستكون خيارًا أفضل للطبيب الذي بدأ للتو».

وعندما سأل عن المكان الذي تدرّب فيه السيد كول، كذب روب مثل تاجر السجّاد وقال إنه تدرّب لمدة ست سنوات في مملكة الفرنجة الشرقية.

«وما أتعابك؟»

«أتعاب؟»

«نعم. أتعابك، يا رجل، قائمة الأتعاب الخاصة بك!»

«لم أفكر في موضوع الأتعاب بالقدر الكافي».

«أتقاضى أتعابي تبعًا للحالة. سأخبرك ما العادة هنا؛ لأنها قد لا تجدي نفعًا مع الوافد الجديد ليخفّض سعر بقية الأطباء. تختلف الأتعاب حسب ثروة المريض - دون سقف، بالطبع. ومع ذلك يجب ألا تتقاضى أبدًا أقل من أربعين بنسًا لإجراء الفصد؛ لأن الفصد هو العنصر الأساسي في مهنتنا، ولا تتقاضى أقل من ستة وثلاثين بنسًا لفحص البول».

حدّق روب وهو مستغرق في التفكير؛ لأن الأتعاب المذكورة كانت عالية بلا رحمة.

«لا تنزعج بالرعاع الذين يقطنون في الأطراف البعيدة لشارع التايمز. لديهم الحلاقون الجرّاحون. ولن يكون من المجدي التطلع إلى طبقة النبلاء؛ لأن هؤلاء لا يعالجون إلا على أيدي عدد قليل من الأطباء - دريفيلد، وهدسون، وسيمبسون، وما شابه هؤلاء كثر. ولكن شارع التايمز يعد حديقة ناضجة بما يكفي من التجار الأغنياء، حتى لو عرفت الحصول على أتعاب قليلة قبل بدء العلاج، عندما يبلغ قلق المريض ذروته» . حدج روب بنظرة حكيمة. « يجب ألا تكون منافستنا كلها غبن، فقد وجدت أنه من المثير للإعجاب استدعاء استشاري عندما يكون المريض موسرًا، وسنكون قادرين على توظيف بعضنا بتواتر مربح، أليس كذلك؟»

خطا روب عدة خطوات نحو الباب وتقدّمه مشيرًا له بالخروج. قال بهدوء: «أفضل العمل بمفردي إلى حدّ كبير».

فالآخر مغرض، لا خلاف على الرفض.

«عندها ستكون راضيًا، يا سيد كول؛ لأنني سوف أنشر الخبر ولن يأتي أي طبيب آخر يفتتح عيادة على مسافة منك». هزّ رأسه باقتضاب وذهب.

جاء المرضى، ولكن ليس في كثير من الأحيان.

قال روب لنفسه إنه كان متوقعًا، لقد كان سمكة رنجة جديدة في بحر غريب، وسيستغرق الأمر وقتًا حتى يدرك الناس وجوده. ومن الأفضل الجلوس والانتظار بدلًا من لعب ألعاب قذرة ومربحة مثل الطبيب هون.

وفي تلك الأثناء، شعر بالاستقرار. اصطحب زوجته وطفليه لزيارة قبور عائلته، وكان الصغيران يلعبان بين شواهد القبور في فناء كنيسة في سانت بوتولف. لقد اعترف الآن، في أعماق نفسه، أنه لن يجد أخته أو إخوته أبدًا، لكنه كان يشعر بالراحة والفخر بهذه العائلة الجديدة التي أسسها، وكان يأمل بطريقة ما أن يتعرف شقيقه صموئيل وأمه وأبوه عليهم.

وجد حانة أحبها في كورنهيل، كانت الحانة تسمى ذا فوكس، حانة عامة من النوع الذي لجأ إليه أبوه عندما كان روب صبيًّا. وهنا تجنب الميثيجلين مرة أخرى وشرب البيرة البنية، وتعرّف على بنّاء مقاول يدعى جورج ماركهام الذي كان ينتمي إلى نقابة النجارين في الوقت نفسه الذي كان فيه والد روب عضوًا في النقابة. كان ماركهام رجلًا بدينًا، وجهه مشرب بحمرة، وشعره أسود، وقد غزا الشيب فوديه وأسفل لحيته. لقد كان في مئة مختلفة عن المئة التي كان ينتمي إليها ناثنيال كول لكنه تذكره، واتضح أنه ابن شقيق ريتشارد بوكريل، الذي كان رئيس النجارين في ذلك الوقت. لقد كان صديقًا لتيرنر هوم، النجار المعلم الذي عاش معه صموئيل قبل أن يدهس على أرصفة الموانئ. «مات تيرنر وزوجته بسبب

حمى المستنقعات (الملاريا) قبل خمس سنوات، مع طفلهما الأصغر. قال ماركهام: «كان شتاءً قاسيًا».

أخبر روب الرجال في حانة ذي فوكس أنه كان في الخارج لسنوات، وهو يتلقى العلم ليصبح طبيبًا في مملكة الفرنجة الشرقية. «هل تعرف نجارًا مبتدئًا اسمه أنتوني تيتي؟» سأل ماركهام.

«لقد كان نجارًا مرافقًا عندما وافته المنية العام الماضي جرّاء الإصابة بمرض من أمراض الصدر».

أومأ روب برأسه، وشربوا في صمت لبعض الوقت.

ومن خلال الحديث مع ماركهام وآخرين في حانة ذي فوكس، عرف روب ما كان يحدث لعرش إنجلترا. وبعض من القصة عرفه من بوستوك في أصفهان. اكتشف الآن أنه بعد خلافة كانوت، أثبت هارولد هارفوت أنه ملك ضعيف ولكن مع وصي قوي يتمثل في جودوين، إيرل ويست ساكسون. أخوه غير الشقيق ألفريد، الذي أطلق على نفسه اسم أثلينج أو ولي العهد، جاء من نورماندي، وذبحت قوات هارولد رجاله، وفقأت عيني ألفريد، واحتجزته في زنزانة حتى لفظ أنفاسه بطريقة بشعة جرّاء تقيح محجر عينيه المعذبتين.

وسرعان ما أكل هارولد نفسه وشرب دماءه حتى الموت، وعاد هارثاكانوت، وهو أحد إخوته غير الأشقاء، من خوض حرب في الدنمارك وورث عرشه.

قال جورج ماركهام، وقد أرخى الشرب الكثير لسانه، «أمر هارثاكانوت بنبش جثة هارولد في وستمنستر وإلقائها في مستنقع سبخ بالقرب من جزيرة ثورني». «جسد أخيه غير الشقيق! كما لو كان جوال حثالة أو كلب ميت».

أخبر ماركهام كيف كانت الجثة التي كانت ملك إنجلترا ملقاة بين عيدان القصب في حين انحسر المد والجزر وتدفقا فوقها.

«أخيرًا، تسلّل عدد قليل منا إلى هناك سرًّا. كان الجو باردًا، في تلك الليلة، مع ضباب كثيف كان يحجب القمر في الغالب. وضعنا الجثة في قارب ووجهناها عبر نهر التايمز. لقد دفنّا الرفات بشكل لائق في فناء كنيسة سانت كليمنت الصغيرة. كان أقل ما يمكن أن يفعله الرجال المسيحيون». رسم إشارة الصليب على نفسه وابتلع شربة كبيرة من كأسه.

كان هارثاكانوت قد استمر لمدة عامين فقط على عرش الملكية، وخرَّ صريعًا ذات يوم في وليمة عرس، وفي النهاية جاء دور إدوارد. وبحلول ذلك الوقت، كان إدوارد قد تزوج من ابنة جودوين وهيمن عليه أيضًا الإيرل الساكسوني بشدة، لكن الشعب أحبه. قال ماركهام لروب: «إدوارد ملك جيد». «لقد بنى أسطولًا مناسبًا من البواخر السوداء».

أومأ روب برأسه. «لقد رأيت هذه البواخر. هل هي بواخر سريعة؟

«هي بواخر سريعة بدرجة كافية للحفاظ على خطوط الملاحة البحرية آمنة من القراصنة».

كل هذا التاريخ الملكي، المزخرف بنوادر الحانة وذكرياتها، خلق حناجر عطشى تطلبت أن تشحذ، وتطلب الكثير من نخب الإخوة المتوفين وبالتأكيد على إدوارد الحي، عاهل المملكة، ولذلك نسي روب على مدار عدة أمسيات عجزه لتعاطي المشروبات الروحية وترنّح من حانة ذي فوكس إلى المنزل في شارع التايمز، واضطلعت ماري بمهمة خلع ملابسه وهو سكران بالتأكيد ووضعه في السرير.

زاد هذا الأمر من تعاستها.

قالت له ذات يوم: «يا حبيبي، دعنا نرحل من هنا».

«لماذا، إلى أين نذهب؟»

«يمكننا العيش في كيلمارنوك، هناك أرضي وأملاكي، ودائرة من الأقارب الذين سوف يحتفون لرؤية زوجي وأولادي».

قال بلطف: «يجب أن نعطي لندن فرصة أكبر من ذلك».

لم يكن أحمق، وتعهّد بأن يكون أكثر حرصًا عندما يذهب إلى حانة ذي فوكس، ويقلل من الذهاب إلى هناك. ما لم يخبرها به هو أن لندن أصبحت بالنسبة له حلمًا يراوده، أكثر من مجرد فرصة للعيش فيها بصفته طبيبًا. لقد عرف أشياء وتشرّبها في بلاد فارس أصبحت الآن جزءًا منه، أشياء لم يعرفوها هنا. كان يتوق إلى التبادل المفتوح للأفكار الطبية التي كانت موجودة في أصفهان. ويتطلب ذلك مستشفى، وسوف تكون لندن موقعًا ممتازًا لمؤسسة طبية مثل البيمارستان.

وفي ذلك العام تحول الربيع الشتوي الطويل إلى صيف رطب. وكل صباح كان الضباب الكثيف يخفي الواجهة البحرية. وبحلول منتصف الصباح، في الأيام التي تخلو من الأمطار، قطعت الشمس الكآبة الرمادية ودبّت الحياة في المدينة على الفور. كانت لحظة التجدد الروحي هذه هي الوقت المفضل لروب للمشي، وفي يوم جميل بشكل خاص جاء انقشاع الضباب عندما كان يمر برصيف تجاري حيث كانت مجموعة كبيرة من العبيد تكدس أكوام الحديد للشحن.

كان هناك عشرات الأكوام من القضبان المعدنية الثقيلة. كانت مكدسة في مكان مرتفع للغاية، أو ربما كان هناك عدم انتظام في أحد الصفوف. كان روب يستمتع بوميض الشمس على المعدن الرطب عندما أرجع سائق عربة الشحن، عن طريق إعطاء أوامر صاخبة وطرقعة سوطه وشَدّ

لجَامه، خيوله البيضاء القذرة بعيدًا جدًّا وبسرعة كبيرة، حتى ضربت مؤخرة العربة الثقيلة الكومة بضربة مكتومة.

تعهّد روب منذ فترة طويلة ألّا يلعب أولاده على أرصفة الموانئ. ظلّ يكره عربات الشحن. لم يرَ أحدًا قطّ، لكنه فكر في أن شقيقه صموئيل قد سحق حتى الموت تحت عجلات عربة الشحن. والآن يشاهد في رعب وقوع حادث آخر.

تحرّك القضيب الحديدي في الأعلى إلى الأمام، لدرجة أنه تأرجح عند الحافة ثم بدأ في الانزلاق فوق حافّة الكومة، متبوعًا بقضيبين آخرين.

كانت هناك صرخة تحذير صاخبة وتشتت بشري يائس، لكن اثنين من العبيد كانا أمام القضيبين، سقطا لأنهما تعثّرا، حتى سقط الوزن الكامل لأحد أكوام الحديد على أحدهما، ودمّر حياته في لحظة.

ضربت إحدى طرفي كومة الحديد الأخرى أسفل الساق اليمنى للرجل الآخر، وحرّض صراخه روب على اتخاذ إجراء.

«هنا، أزيلوها عنه، بسرعة وبحرص، الآن!» قال، ورفع نصف دزينة من العبيد القضبان الحديدية عن الرجلين.

لقد دفعهم للتحرك بعيدًا عن كومة القضبان الحديدية. كل ما كان ضروريًا هو إلقاء نظرة واحدة للتأكد من أن الرجل الذي سقط عليه العبء الأكبر قد لفظ أنفاسه. كان صدره محطمًا وأصابه الاختناق جرّاء كسر في القصبة الهوائية، بحيث صار وجهه بالفعل قاتمًا ومحتقنًا.

العبد الآخر لم يعد يصرخ، فقد الوعي عندما نقل، كان الأمر كذلك، كانت قدم الرجل وكاحله مشوهين بشكل مخيف ولم يستطع روب فعل أي شيء لترميمهما. أرسل عبدًا إلى منزله لإحضار صندوق أدواته الجراحية

من ماري، وفي حين كان الرجل الجريح فاقدًا للوعي، شقّ الجلد السليم فوق موضع الإصابة وبدأ في سلخ الجلد مرة أخرى لعمل سديلة، ثم شرّح في اللحم والعضلات.

انبعثت من الرجل رائحة كريهة جعلت روب متوترًا وخائفًا، رائحة حيوان بشري كان يتعرق في تعب مرارًا وتكرارًا حتى امتصت أسماله البالية غير المغسولة رائحته الفاسدة وفاقمتها وجعلتها جزءًا ملموسًا منه تقريبًا مثل الرأس الحليق للعبد أو القدم المعطوب الذي كان يستأصله روب. لقد تسببت هذه الرائحة في أن يتذكر روب العبدين اللذين كان يعملان في الميناء وكانت تنبعث منهما رائحة كريهة وهما يحملان أباه إلى المنزل من عمله على الأرصفة، إلى المنزل في أيامه الأخيرة.

«ماذا تفعل بحق الجحيم؟»

نظر إلى الأعلى وجاهد من أجل التحكم في تعابير وجهه؛ لأن الوقوف بجانبه كان وقوفًا بجانب شخص رآه آخر مرة في منزل يسي بن بنيامين في بلاد فارس.

«أنا أعتني بالرجل».

«لكنهم يقولون إنك طبيب».

«هم على حق».

«أنا تشارلز بوستوك، تاجر ومستورد، وصاحب هذا المستودع وهذا الرصيف. لست أحمق، بحق الرب، أن أستعين بطبيب للعبد».

هزّ روب كتفيه استهجانًا، جاء صندوق أدواته الطبية وكان جاهزًا لاستخدامه؛ استخرج منشار العظام وأحدث قطعًا في القدم المعطوبة وخاط السديلة فوق الأرومة التي تنز بالدماء بدقة كما كان يطلبها

الجوزجاني.

كان بوستوك لا يزال واقفًا هناك، كان يقول: «قصدت كلماتي بدقة». «لن أدفع لك. يجب ألا تأخذ بنسًا واحدًا مني».

أومأ روب برأسه، ضغط بلطف على وجه العبد بإصبعين حتى أصدر الرجل أنينًا.

«من أنت؟»

«روبرت كول، طبيب في شارع التايمز».

«هل يعرف بعضنا بعضًا، يا سيدي؟»

«ليس على حد علمي، سيدي التاجر».

أخذ متاعه، أومأ برأسه، وذهب بعيدًا. وفي نهاية رصيف البواخر جازف بإلقاء نظرة إلى الوراء، ورأى بوستوك يقف كواحد مذهول، أو في حيرة شديدة، وهو يستمر في التحديق خلفه وهو يهرب.

أخبر نفسه أن بوستوك رأى يهوديًّا يرتدي عمامة في أصفهان، بلحية كثيفة وثياب فارسية، العبراني الغريب يسي بن بنيامين. وفي رصيف الميناء تحدث التاجر مع روبرت جيريمي كول، أحد سكان لندن الأحرار الذي يرتدي معطفًا إنجليزيًّا بسيطًا، ووجهه... متغيّر؟... بلحية شبه مشذبة.

كان من الممكن ألا يتذكّره بوستوك على الإطلاق، وبنفس القدر من الممكن أن يفعل ذلك.

قلق روب من السؤال باستمرار، لم يكن خائفًا على نفسه (على الرغم من أنه كان خائفًا) بقدر ما كان قلقًا بشأن ما سيحدث لزوجته وطفليه

في حالة حدوث مشكلة تستلزم وجوده.

ولذا عندما اختارت ماري التحدث عن كيلمارنوك في ذلك المساء، استمع وهو يدرك بوضوح ما يجب القيام به.

قالت: «كم أتمنى أن نذهب إلى هناك». «أتوق للسير على الأرض التي أملكها وأن أكون مرة أخرى بين الأقارب والاسكتلنديين».

قال ببطء: «ثمة أشياء يجب أن أفعلها هنا». أمسك يديها. «لكنني أعتقد أنه يجب عليك أنت والصغيران الذهاب إلى كيلمارنوك بدوني».

«بدونك؟»

«نعم».

جلست جامدة تمامًا، بدا أن الشحوب يرفع من عظام وجنتيها المرتفعة ويلقي بظلال جديدة مثيرة للاهتمام على وجهها النحيل، مما يجعل عينيها تبدوان أكبر عندما تفحصه. زوايا فمها، تلك الزوايا الحسّاسة التي لطالما خانت مشاعرها، أخبرته كيف كان الاقتراح غير مرغوب فيه.

قالت بهدوء: «إذا كان هذا ما تريده، فسوف نذهب».

في الأيام القلائل التالية غيّر رأيه عشرات المرات. لم يكن هناك صياح أو إنذار. لم يأت رجال مسلحون لاعتقاله. وكان من الواضح أنه على الرغم من أنه بدا مألوفًا لبوستوك، فإن التاجر لم يتعرف عليه بصفته يسي بن بنيامين.

«لا تذهبي»، أراد أن يخبرها.

كاد أن يقولها عدة مرات، لكن كان هناك دائمًا ما يمنعه من نطق الكلمات، كان يحمل بداخله عبئًا ثقيلًا من الخوف، ولا ضير إن ذهبت

هي والطفلان في مكان آمن لبعض الوقت.

لذلك تحدّثا عن الأمر مرة أخرى. قالت: «إذا كان بإمكانك نقلنا إلى ميناء دنبار».

«في أي مكان في دنبار؟»

«ماكفيز، أقارب عائلة كولين، سوف يحرصون على وصولنا بأمان إلى كيلمارنوك».

وثبت أن دنبار آمنة. كانت نهاية الصيف تقريبًا، وكانت هناك طفرة في عمليات الإبحار حيث حاول أصحاب السفن حشد آخر رحلاتهم القصيرة قبل أن تغلق العواصف بحر الشمال لشتاء آخر. في حانة ذي فوكس، سمع روب عن باخرة تتوقف في دنبار. كانت تسمى ألفجيفو على اسم أم هارولد هارفوت، وكان قبطانها دنماركيًّا أشيب الشعر وكان سعيدًا بالأجرة المدفوعة لثلاثة ركاب لن يأكلوا كثيرًا.

كانت ستغادر باخرة ألفجيفو في أقل من أسبوعين، وتطلب الأمر الإعداد السريع، وإصلاح الملابس، واتخاذ قرارات بشأن ما ستأخذه وما ستتركه.

وفجأة، كان رحيلهم بعد أيام قليلة.

«سآتي إليكم في كيلمارنوك عندما أستطيع ذلك».

«سوف تأتي؟» قالت.

«بالطبع».

في الليلة التي سبقت الرحيل قالت: «إذا لم يكن بمقدورك المجيء...».

«سوف أفعل».

«لكن... إذا لم تفعل، إذا كان على الدنيا أن تفرق بيننا بطريقة ما، فاعلم أن أقاربي سوف يتولون تربية الطفلين حتى يصيرا رجلين».

أثار ذلك حفيظته أكثر مما كان مطمئنًا، وقد أدى ذلك إلى تأجيج مخاوفه لدرجة أنه شعر بالأسف؛ لأنه اقترح عليهم الافتراق عنه.

لقد تحسّس بعضهما بعضًا بعناية فائقة، كل مناطق الجسم المألوفة، مثل شخصين ضريرين يرغبان في تخزين الذكرى في أيديهما. لقد كان جماعًا حزينًا، كما لو كانا يعرفان أنها المرة الأخيرة. ولمّا انتهيا، بكت في صمت بالغ العمق وضمّها دون أن ينبس ببنت شفة. كانت هناك أشياء يرغب في قولها لكنه لم يستطع.

وفي الصباح وضعهم على متن باخرة ألفجيفو في ضوء رماديّ. وقد بنيت هذه الباخرة على غرار سفينة فايكنج الثابتة ولكن بطول ستين قدمًا فقط، بسطح مفتوح. كان هناك صارٍ واحد بارتفاع ثلاثين قدمًا، وشراع مربع كبير، وكان جسم الباخرة مبنيًّا من ألواح خشبية ثخينة متداخلة من خشب البلوط. سوف تبقى البواخر السوداء لملك القراصنة بعيدًا عن البحر، وستعانق الباخرة ألفجيفو الساحل، وترسو لتسليم الشحنات وتسلمها وعند أول إشارة لوقوع عاصفة، كانت أكثر أنواع البواخر أمانًا.

وقف روب على رصيف السفن، كانت ماري ترتدي وجهًا لا يقهر، الدّرع الذي كانت ترتديه عندما طوقت نفسها به ضد العالم الذي تشعر فيه بالتهديد.

على الرغم من أن الباخرة كانت تتأرجح فقط في عباب الأمواج، فإن تام المسكين بدا بالفعل شاحب الوجه وحزينًا. «يجب أن تستمري في تدليك ساقه»، صاح روب، وصنع بيديه حركات تدليك. أومأت برأسها لتظهر

أنها فهمت. رفع أحد أفراد الطاقم حبل المرساة بعيدًا عن مربط الإرساء وتأرجحت الباخرة بحرية. سحب عشرون من المجدفين مرة واحدة وسحبت الباخرة مع موجة مد عائدة قوية. كانت ماري الأم الطيبة قد وضعت طفليها على متن حمولة في منتصف الباخرة، حيث لا يسقطان خارج الباخرة.

انحنت وقالت شيئًا لصغيرها روب جيه في الوقت الذي كان فيه يرفع الشراع.

«إلى اللقاء يا أبي!» صاح صاحب الصوت الرقيق المطيع بوضوح.

«ليكن معكم الرب!» صاح روب.

سرعان ما رحلوا بالفعل، على الرغم من أنه بقي في مكانه وأجهد عينيه وهو يحدّق وراءهما. لم يكن يرغب في مغادرة رصيف السفن، فقد صدمه أنه عاد مرة أخرى إلى مكان كان فيه عندما كان في التاسعة من عمره، بدون عائلة أو أصدقاء في مدينة لندن.

76

منتدى أطباء لندن

في ذلك العام في التاسع من نوفمبر، أصبحت امرأة تدعى جوليا سوان حديث المدينة عندما ألقى القبض عليها بتهمة السحر. اتهمت بأنها حولت ابنتها جلينا -البالغة من العمر ستة عشر عامًا- إلى حصان طائر ثم امتطت صهوتها بوحشية لدرجة أن الفتاة شوّهت بشكل دائم. قال مالك العقار لروب: «إذا كان هذا صحيحًا، فإنه أمر شنيع وخطير أن تفعل ذلك بطفلة».

لقد اشتاق إلى طفليه بشدة، وأفتقد أمهما. هبّت أول عاصفة في المحيط بعد أكثر من أربعة أسابيع من مغادرتهم له. وبحلول ذلك الوقت، لا بد أنهم وصلوا إلى دنبار منذ فترة طويلة، وكان يصلي لهما أينما كانوا، وسوف ينتظرون هدوء العواصف في أماكن آمنة.

ومرة أخرى، صار متجولًا وحيدًا، يعيد زيارة جميع أجزاء لندن التي كان يعرفها ويرتاد الأماكن الجديدة التي ظهرت منذ طفولته. ولمّا توقّف أمام منزل الملك، الذي بدا له في يوم من الأيام الصورة المثالية للعظمة الملكية، تعجّب من الاختلاف بين بساطته الإنجليزية والمساحات الخضراء الشاسعة لدار الفردوس. قضى الملك إدوارد معظم الوقت في قلعته في وينشستر، ولكن ذات صباح خارج منزل الملك رآه روب يسير في صمت بين عتبات منزله وأتباعه، وهو مستغرق في التأمل والاستبطان. بدا إدوارد أكبر من سنواته الإحدى والأربعين. وقيل إن رأسه اشتعل شيبًا لمّا كان صغيرًا جدًّا فور سماعه ما فعله هارولد هارفوت بأخيهما ألفريد.

ولم يعتقد روب أن إدوارد كان شخصية ملكية مثل علاء شاه، لكنه هو نفسه اعتبر أن علاء شاه قد رحل وأن الملك إدوارد كان على قيد الحياة.

ومن بداية عيد القديس ميخائيل فصاعدًا كان ذلك الخريف باردًا ومليئًا بالرياح العاتية. وحلّ الشتاء المبكر دافئًا وممطرًا. كان يفكر بهم كثيرًا، ويتمنى لو عرف بالضبط متى وصلوا إلى كيلمارنوك. وبدافع من الوحدة، أمضى الكثير من الأمسيات في حانة ذي فوكس، لكنه حاول السيطرة على عطشه، ولم يرغب في الوقوع في مشاجرات كما فعل في شبابه. ومع ذلك فإن الشرب جلب له كآبة أكثر من الراحة؛ لأنه شعر بأنه يتحول إلى أبيه رجل الحانات العامة. لقد جعله يقاوم المومسات والنساء المتاحة اللائي أصبحن أكثر جاذبية بسبب القسوة المزعجة، وقال لنفسه بمرارة أنه على الرغم من الشرب، يجب ألا يتحول بالكامل إلى ناثانيال كول، الداعر المتزوج.

كان قدوم عيد الميلاد أمرًا صعبًا، فقد كان من المتوقع قضاء عطلة مع العائلة. وفي يوم عيد الميلاد، تناول وجبة مشتراة في حانة ذي فوكس اشتملت على لحم الرأس المحشو بالجبن الذي يسمى براون وشطيرة لحم الضأن، المدهونة بكمية هائلة من خمر العسل. وفي طريقه إلى المنزل، صادف اثنين من البحارة يضربان رجلًا كانت قبعته الجلدية ملقاة في الوحل، ورأى روب أنه يرتدي قفطانًا أسود. فأحدهما كان يمسك ذراعي اليهودي خلف ظهره في حين كان الآخر يوجه لكمات تصيبه بشكل مقزز في كل مرة ترتطم به.

«توقف، عليك اللعنة».

توقف الضارب عن توجيه اللكمات. «ارحل بعيدًا يا سيد، في حين أنها لكمات آمنة حتى الآن».

«ماذا فعل؟»

«جريمة ارتكبت قبل ألف عام، والآن سوف نعيد العبرية الفرنسية الدنيئة إلى قتلى نورماندي».

«اتركه وشأنه».

«أنت تحبه، سنشاهدك وأنت تلعق قضيبه».

لطالما ملأه الكحول بسخط شديد وكان على أهبة الاستعداد، هشّمت قبضته الوجه القاسي القبيح، أطلق الشريك المتواطئ سراح اليهودي واندفع بعيدًا في حين أن البحّار الذي طرحه روب أرضًا تسلق على قدميه. «ابن العاهرة! سوف تشرب دم المخلص من كأس هذا اليهودي اللعين!»

لم يطاردهما روب لمّا ركضا، وقف اليهودي، وهو رجل مديد الطول في منتصف العمر، متهدل الكتفين، كان أنفه ملطخًا بالدماء وشفتاه متورمتين، لكن بدا أنه يبكي من الذل أكثر من الجرح.

«مرحبًا، ما الذي يحدث؟» سأل الوافد الجديد، رجل ذو شعر أحمر مجعد وله لحية وأنف كبير معرورق بلون أرجواني.

«لا شيء، كان هذا الرجل مختبئًا».

«ممم، هل أنت متأكد من أنه لم يكن هو المحرض؟»

«نعم».

استجمع اليهودي نفسه وعاد له صوته، وكان من الواضح أنه كان يعرب عن امتنانه، لكنه تحدث بلغة فرنسية فصيحة.

«هل تفهم هذه اللغة؟» سأل روب الرجل ذا الشعر الأحمر الذي هزّ رأسه بازدراء. أراد روب التحدث إلى اليهودي باللغة العبرية وتمنى له

عيد أنوار (حانوكا) أكثر سلامًا، لكن في حضور الشاهد لم يجرؤ على ذلك. وفي الحال أخذ اليهودي قبعته وذهب بعيدًا، وكذلك فعل المارة.

وعلى جانب النهر، عثر روب على حانة عامة صغيرة وكافأ نفسه بالنبيذ الأحمر. كان المكان مظلمًا وخاليًا من الهواء، وكان يحمل قارورة النبيذ إلى رصيف الميناء ليشربها، وهو يجلس على جثوة ربما جلس أباه عليها، مع هطول الأمطار وهبوب الرياح التي تصفعه والأمواج الرمادية الخطرة التي تتلوى عبر المياه الموجودة بالأسفل.

جلس قرير العين، ما أفضل يوم لمنع صلب المسيح؟

لم يكن النبيذ خمرًا ملكيًّا عتيقًا وكان له لسعة عند ابتلاعه، لكنه مع ذلك كان يثلج صدره.

كان ابن أبيه ويمكنه الاستمتاع بالشرب إذا سمح لنفسه بذلك.

لا، التحول قد حدث بالفعل؛ كان ناثنيال كول. كان صورة من الأب. وبطريقة غريبة عرف أنه أيضًا صورة من ميردين وكريم. وعلاء شاه ودان فانجاليل. وأبو عليّ الحسين بن عبد الله بن سينا (نعم، بالتأكيد، كان على الأخص ابن سينا!)... لكنه كان أيضًا قاطع الطريق البدين الذي قتله منذ سنوات، وذلك القذر العجوز الورع، الحاج دافوت حسين...

ومع الصراحة التي أفقدته الحس أكثر من النبيذ، كان يعلم أنه كان كل الرجال وجميع الرجال كانوا جزءًا منه، وأنه كلما قاتل الفارس الأسود اللعين، كان ببساطة يقاتل من أجل بقائه، أدرك ذلك للمرة الأولى وحيدًا مخمورًا.

ولمّا أنهى الخمر انزلق من الجثوة. حمل القارورة الفارغة، التي ستحتوي قريبًا على دواء أو ربما بول شخص ما ليخضع للتحليل مقابل

أجر عادل، سار هو وجميعهم بحذر وبلا ثبات من الرصيف في أمان باتجاه المنزل في شارع التايمز.

لم يبق دون زوجته وطفليه ليتحول إلى سكّير، قال لنفسه بشدة في اليوم التالي، عندما صفى ذهنه.

وعقد العزم على أن يولي الاهتمام بالمعلومات الخاصة بالعلاج، وذهب إلى متجر بائع أعشاب في شارع التايمز السفلي لتجديد إمداداته من الأدوية؛ لأنه كان من الأسهل شراء بعض الأعشاب في لندن بدلًا من محاولة العثور عليها في الطبيعة. كان قد التقى بالفعل بمالك العقار، رجل قصير صعب الإرضاء اسمه رولف بولارد الذي بدا أنه صيدلاني متمكن.

«أين أذهب لأجد رفقة أطباء آخرين؟» سأله روب.

«لماذا، أود أن أقول المنتدى يا سيد كول؛ حيث يعقد أطباء هذه المدينة اجتماعًا بانتظام. ليس لدي تفاصيل، لكن السيد روفوس لديه تفاصيل، «مشيرًا إلى وجود رجل في الطرف الآخر من الغرفة كان يتنشق غصنًا من الرجلة المجففة لاختبار قابلية تبخرها.

قاد بولارد روب عبر المتجر وقدّمه إلى أوبري روفوس، طبيب شارع فينتشرش. قال: «أخبرت السيد كول عن منتدى الأطباء، لكنني لم أستطع تذكر التفاصيل».

ملّس روفوس، وهو زميل رصين يكبر روب بحوالي عشر سنوات، يده على شعره الأصفر الخفيف وأومأ برأسه بما فيه الكفاية. «يعقد الاجتماع عشية أول يوم الإثنين من كل شهر، ساعة العشاء في الغرفة فوق حانة إلينجسورث في شارع كورنهيل. ففي الغالب هو ستار لإشباع نهمنا. كل رجل يبتاع طعامه وشرابه».

«هل يجب الحضور بدعوة؟»

«إطلاقًا، الاجتماع مفتوح لأطباء لندن، ولكن إذا كانت الدعوة أكثر إرضاءً، فلماذا لا أدعوك الآن؟"، قال روفوس بلطف، وابتسم روب وشكره واستأذنه.

لذلك حدث أنه في أول يوم إثنين من العام الجديد الموحل ذهب إلى حانة إلينجسورث ووجد نفسه بصحبة مجموعة من الأطباء. تحلّقوا حول الطاولات وهم يتجاذبون أطراف الحديث ويضحكون وهم يشربون، ولّما دلف إلى الغرفة تفحّصوه بفضول خفي تكنّه طائفة منهم دائمًا إلى الوافد الجديد.

كان أول رجل تعرّف عليه هو الطبيب هون، الذي قطّب جبينه عندما رأى روب وتمتم بشيء لرفاقه. لكن أوبري روفوس كان يجلس على طاولة أخرى وطلب من روب أن ينضم إليه. قدّم الأربعة الآخرون على الطاولة، مشيرًا إلى أن روب وصل مؤخرًا إلى المدينة وبدأ مزاولة المهنة في شارع التايمز.

امتلأت عيونهم بقدر متفاوت من التحفظ الشديد الذي كان يرمقه به الطبيب هون.

«على يد من تلقيت تدريبك؟» سأل رجل يدعى بريس.

«تدربت مع طبيب اسمه هيبمان، في مدينة فرايزنج الإفرنجية الشرقية». وخلال الفترة التي قضاها في فرايزنج في تلك الأثناء التي كان فيها الطفل تام مريضًا، كان هيبمان هو اسم مالك العقار.

«صحيح»، قال بريس بلا شكّ تعبيرًا عن رأيه في الأطباء الذين تلقّوا تدريبًا في الخارج. «ما المدة التي قضيتها في التدريب؟»

«ست سنوات».

تحوّل مسار الأسئلة التي كان يطرحها بوصول المأكولات، والدجاج المشوي المتهرّئ مع اللفت المطبوخ، والبيرة التي شربها روب باعتدال، دون أن يريد أن يجعل من نفسه أضحوكة. وبعد تناول الطعام اتضح أن بريس كان محاضرًا للأمسية. حيث تحدّث عن الحجامة، محذرًا زملاءه الأطباء من تسخين كأس الحجامة بشكل كافٍ، حيث إن السخونَة في الكأس هي التي تجذب الدم الفاسد إلى سطح الجلد، حيث يمكن التخلص منه وتصريفه عن طريق النزيف.

وقال بريس: «يجب أن تظهر للمرضى ثقتك في أن الحجامة المتكررة والنزيف سوف يحققان الشفاء؛ لذلك قد يشاركونك تفاؤلك».

لم يكن الحديث معدًا جيدًا، ومن المحادثة عرف روب أنه بحلول الوقت الذي كان فيه في الحادية عشرة من عمره، علّمه الحلاق المزيد عن النزيف والحجامة، ومتى يستخدمهما ومتى لا يستخدمهما، أكثر مما يعرفه معظم هؤلاء الأطباء.

لذلك سرعان ما صار المنتدى مخيبًا للآمال.

بدوا مصابين بهوس الأجور والدخول. حتى إن روفوس حسد رئيس الاجتماع، وهو طبيب ملكي يدعى دريفيلد؛ لأنه كان يحقق دخلًا ويقتني أرواب كل عام.

قال روب: «من الممكن تحقيق الدخل دون خدمة الملك».

والآن جذب انتباههم. «كيف يمكن أن يحدث هذا؟» سأل دريفيلد.

«قد يعمل الطبيب في مستشفى، ومركز شفاء مخصص للمرضى وفهم المرض». نظر البعض إليه بذهول لكن دريفيلد أومأ برأسه.

«فكرة شرقية آخذة في الانتشار. تسمعون عن مستشفى أنشئ مؤخرًا في ساليرنو، ومستشفى أوتيل ديو الذي أنشئ منذ فترة طويلة في باريس. لكن اسمحوا لي أن أحذركم، فالناس يرسلون ليلقوا حتفهم في مستشفى أوتيل ديو ثم يصبحون طي النسيان، وهو مكان أشبه بالجحيم».

قال روب: «يجب ألا تكون المستشفيات مثل مستشفى أوتيل ديو»، وانزعج من عدم تمكنه من إخبارهم عن البيمارستان.

لكن هون قاطعه. «ربما يجدي مثل هذا النظام بشكل جيد مع المتنافسين المرتشين، لكن الأطباء الإنجليز مستقلين أحرار الإرادة ويجب أن يكونوا أحرارًا في إدارة أعمالهم الخاصة».

اعترض روب على نحو معتدل قائلًا: «الطب بالتأكيد هو أكثر من كونه عملًا تجاريًّا».

قال هون: «إنه أقل من كونه عمل تجاري»، «الأجر بحكم ما هو عليه وغير المؤهلين يفدون في الآونة الأخيرة إلى لندن طوال الوقت. كيف تحسبه على أنه أكثر من كونه عملًا تجاريًّا؟»

قال: «إنها دعوة يا سيد هون، كما يقال إن الرجال مدعوون إلهيًّا إلى الكنيسة».

صاح بريس ناعقًا، لكن رئيس الاجتماع سعل بعد أن اكتفى من الجدال. «من الذي سوف يلقي المحاضرة الشهر المقبل؟» سأل.

زاد الصمت ثقلًا.

قال دريفيلد بفارغ الصبر: «لا داعي للقلق، كل واحد يجب أن يدلو بدلوه ويسهم بعمله».

أدرك روب أنه كان من الخطأ تقديم اقتراحه بإلقاء محاضرة في أول

لقاء له، لكن لم ينطق أحد بكلمة واحدة وتحدّث في النهاية. «سوف ألقي محاضرة، إذا كانت هذه هي رغبتكم».

اندهش دريفيلد. «وفي أي موضوع سوف تكون المحاضرة، يا سيد؟»

«سوف أتحدث عن موضوع سل الكلاب الفيروسي (ديستمبر) في البطن».

«عن سل الكلاب الفيروسي (ديستمبر) في البطن؟ آه، يا سيد.

كرو، أليس كذلك؟»

«كول».

«سيد كول، قال رئيس الاجتماع وابتسم: «لماذا، سوف يكون الحديث عن سل الكلاب الفيروسي (ديستمبر) في البطن رائعًا».

جوليا سوان، الساحرة المتهمة، اعترفت. عثر على علامة السحر في اللحم الأبيض الناعم لباطن ذراعها، أسفل كتفها الأيسر. وشهدت ابنتها جلينا بأن جوليا حملتها وضحكت في حين جرى استغلالها جنسيًّا عن طريق شخص اعتبرته هو الشخص الشرير. اتهمها العديد من ضحاياها بتوزيع التعاويذ. وعندما كانت الساحرة مقيدة في كرسي الغطس قبل إغراقها في نهر التايمز الجليدي، قررت أن تخبر بكل شيء، والآن كانت تتعاون مع الجذور الشريرة للكنيسة، الذين قيل إنهم يقابلونها مطولًا فيما يتعلق بكل أنواع الموضوعات المتعلقة بالسحر. حاول روب ألّا يفكر فيها.

اشترى مهرة رمادية سمينة إلى حدّ ما ورتّب أن يمتطي صهوتها إلى ما كان سابقًا إسطبلات إيجليستون، المملوكة الآن لرجل يدعى ثورن. كانت عجوزًا وغير مميزة، لكنه قال لنفسه إنه لن يلعب لعبة الكرة والعصا عليها. ذهب إلى المرضى عند استدعائه، ووجد آخرون طريقهم إلى بابه.

كان هذا هو موسم الخنَاق، وعلى الرغم من أنه كان يحب الأدوية الفارسية مثل التمر الهندي والرومان والتين المطحون، فقد صنع جرعات بما كان في متناول اليد: الرجلة المنقوعة في ماء الورد لصنع غرغرة للحلق الملتهب، وتسريب من البنفسج المجفف لعلاج الصداع والحمى وصمغ الصنوبر الممزوج بالعسل لأكله ضد البلغم والسعال.

قال أحد الأشخاص الذين جاءوا إليه أن اسمه توماس هود. كان أصهب الشعر وله لحية وأنف مشوه، بدا مألوفًا وأدرك روب الآن أن الرجل كان المتفرج في الحادث بين اليهودي والبحّارين. اشتكى هود من أعراض تشبه مرض القلَاع ولكن لم تكن هناك بثور في فمه، ولا حمى، ولا احمرار في الحلق، وكان نشيطًا جدًّا بحيث لا يمكن أن يصاب به. ففي الواقع، كان مصدرًا دائمًا للأسئلة الشخصية. مع من تدرّب روب؟ هل يعيش وحده؟ ماذا، لا زوجة، لا طفل؟ منذ متى وهو في لندن؟ من أين أتى؟

يرى الرجل الأعمى بوضوح أن هذا لم يكن مريضًا بل متطفلًا. لم يخبره روب بأي شيء، ووصف له مطهّرًا قويًّا كان يعلم أن هود لن يأخذه، وأخرجه وسط المزيد من الأسئلة التي تجاهلها.

لكن الزيارة أثارت سخطه بشكل مفرط. من الذي أرسل هود؟ لصالح من كان يستفسر؟ وهل كانت مجرد مصادفة أنه لاحظ روب وهو يلقّن البحّارين درسًا؟

ففي اليوم التالي عرف بعض الإجابات المحتملة عندما ذهب إلى بائع الأعشاب لشراء مكونات للعلاجات، ووجد مرة أخرى أوبري روفوس هناك في نفس المهمة.

قال له روفوس: «هون يتحدث ضدك عندما يستطيع ذلك». «يقول إنك متطرّف للغاية. وأن مظهرك مظهر همجي وغد ويشك في أنك طبيب.

ويسعى إلى تجميد العضوية في المنتدى لأي شخص لم يتلق التدريب على أيدي الأطباء الإنجليز».

«ما نصيحتك؟»

قال روفوس: «أوه، لا تفعل شيئًا». «من الواضح أنه لا يستطيع التصالح مع نفسه بشأن مشاركة شارع التايمز معك. نعلم جميعًا أن هون سوف يشقّ خصيتي جدّه مقابل عملة معدنية، لن يعيره أحد أي اهتمام».

عاد روب مرتاحًا إلى منزله في شارع التايمز.

قرر أن يدحض شكوكهم من خلال سعة الاطلاع والإلمام بالمعلومات، وانكبّ على العمل على إعداد المحاضرة حول سل الكلاب الفيروسي (ديستمبر) في البطن كما لو كان يعطيها في المدرسة. كان المنتدى الأصلي بالقرب من أثينا القديمة هي المكان الذي ألقى فيه أرسطو محاضراته، لم يكن أرسطو، لكنه تدرّب على يد ابن سينا وسيظهر لهؤلاء الأطباء في لندن كيف يمكن أن تكون المحاضرة الطبية.

كان هناك اهتمام بالغ، بالتأكيد؛ لأن كل طبيب يحضر في المنتدى فقد المرضى الذين عانوا من الألم في الجزء الأيمن السفلي من البطن، ولكن كان هناك ازدراء عام.

«دودة صغيرة؟» طبيب متشدق بالكلام جاحظ العينين يدعى سارجنت. «دودة صغيرة وردية في البطن؟»

قال روب باستماتة: «زائدة شبيهة بالديدان، يا سيد». «تلتصق بالأعور، ومتقيحة».

قال دريفيلد: «لا تظهر رسومات جالينوس أي زوائد دودية تشبه

الديدان على الأعور». «سيلسوس، الرازي، أرسطو، ديسقوريدس، من بين هؤلاء كتب عن هذه الزائدة الدودية؟»

«لا أحد، وهذا لا يعني أنها غير موجودة».

«هل قمت بتشريح خنزير يا سيد كول؟» سأل هون.

«نعم».

«حسنًا، فأنت تعلم أن أحشاء الخنزير هي نفسها أحشاء الإنسان. هل سبق لك أن لاحظت وجود زائدة دودية وردية اللون على أعور خنزير؟»

«لقد كانت نقانق صغيرة من لحم الخنزير يا سيدي!» صيَاح مع ظرف، وضَجَّت الغرفة بالضَّحك.

قال روب بأناة: «داخليًّا، يبدو أن الخنزير يشبه الإنسان»، لكن هناك اختلافات دقيقة. واحدة من هذه الاختلافات هي الزائدة الدودية الصغيرة على الأعور في الإنسان». فك الرسم المعنون بالرجل الشفاف وثبّت الرسم التوضيحي على الحائط بمسامير حديدية. «هذا ما أتحدث عنه، الزائدة الدودية مصورة هنا في المراحل الأولى من الالتهاب».

قال طبيب بلهجة دنماركية غليظة: «لنفترض أن مرض البطن نتج على وجه التحديد بالطريقة التي وصفتها». «هل تقترح بعد ذلك علاجًا؟»

«لا أعرف أي علاج».

انطلقت الآهات.

«إذًا لماذا يهم الأطباء الصغار سواء كنا نفهم نشأة المرض أم لا؟» أعرب آخرون عن موافقتهم، وهم يتناسون مدى كرههم للدنماركيين في حرصهم الموحد على معارضة الوافد الجديد.

قال روب: «الطب مثل رفع البناء البطيء». «نحن محظوظون طوال حياتنا؛ لأننا قادرون على وضع لبنة واحدة. إذا تمكنا من تفسير المرض، فيمكن لشخص لم يولد بعد أن يبتكر علاجًا له».

انطلقت المزيد من الآهات.

لقد احتشدوا وفحصوا الرسم المعنون بالرجل الشفاف.

«هل هذا الرسم يخصك يا سيد كول؟» سأل دريفيلد، وهو يشير إلى التوقيع.

«نعم».

وقال رئيس الاجتماع: «إنه عمل ممتاز». «ماذا كان دليلك؟»

«رجل ممزق بطنه».

قال هوني: «ثم رأيت زائدة دودية واحدة فقط من هذا القبيل». «ولا شك أن الصوت الجبّار الذي جعلك تستجمع شجاعتك وتطلب دعوتنا أخبرك أيضًا أن الدودة الوردية الصغيرة شائعة في الأمعاء؟»

أثار الأمر المزيد من الضحك وسمح روب لنفسه أن يضحك. «أعتقد أن الزائدة الدودية شائعة في الأعور، لقد رأيتها في أكثر من شخص».

«فيما يصل إلى... قل، أربعة؟»

«فيما يصل إلى نصف دزينة من الأشخاص».

كانوا يحدّقون به بدلًا من الرسم. «نصف دزينة يا سيد كول؟ كيف توصلت لترى ما بداخل جثث ستة أشخاص؟ قال دريفيلد.

«شقّت بعض البطون في سياق الحوادث. وفتحت بطون الآخرين خلال

القتال. لم يكونوا كلهم مرضى أعالجهم، ووقعت الحوادث على مدى فترة من الزمن». بدا الأمر غير مرجّح حتى لأذنيه.

«النساء وكذلك الرجال؟» سأل دريفيلد.

قال على مضض: «كان العديد منهم نساء».

قال الرئيس «ربما»، موضحًا أنه يعتقد أن روب كاذب.

«هل كانت النساء يتبارزن في قتال، إذًا؟» قال هون بهدوء، وهذه المرة حتى روفوس نفسه ضحك. «أطلق عليها صدفة حقًّا أنك تمكنت من النظر داخل العديد من الجثث بهذه الطريقة»، قال هون وهو يرى الألق الشديد في عينيه، وكان روب يدرك أن التطوع لإلقاء محاضرة في المنتدى كان بمثابة خطأ من البداية.

لم تهرب جوليا سوان من نهر التايمز. وفي اليوم الأخير من شهر فبراير، تجمّع ما يربو عن ألفي شخص عند الفجر ليشاهدوا ويهتفوا في حين هي كانت ملفوفة في جوال، جنبًا إلى جنب مع ديك وثعبان وصخرة، وألقي بها في مسبح عميق في سانت جايلز.

لم يحضر روب عملية إغراقها. وبدلًا من ذلك، ذهب إلى رصيف بوستوك بحثًا عن العبد الذي استأصل قدمه. لكن لم يعثر على الرجل، وكان المراقب الفَظّ يقول فقط أن العبد قد نقل من لندن إلى مكان آخر. خاف روب عليه، وهو يعلم أن وجود العبد يعتمد على قدرته على العمل. وعلى رصيف الميناء رأى عبدًا آخر يتخلل ظهره قروح جرّاء الضرب بالسوط، حيث بدت القروح وكأنها تنخر في جسده. ذهب روب إلى منزله وصنع مرهمًا من شحوم الماعز وشحوم الخنازير والزيت والبخور وأكسيد النحاس، ثم عاد إلى الرصيف ووضعه على اللحم الملتهب لجسد العبد.

«تعال هنا، الآن، ما هذا بحق الجحيم؟»

كان أحد المراقبين يفرض نفسه عليهما، وعلى الرغم من أن روب لم ينته تمامًا من وضع المرهم، فقد لاذ العبد بالفرار.

«هذا هو رصيف السيد بوستوك، هل يعرف أنك هنا؟»

«لا يهم».

حملق المراقب لكنه لم يتبعه، وكان روب سعيدًا بمغادرة رصيف بوستوك دون مزيد من المتاعب.

زاره المرضى الذين يدفعون. عالج امرأة شاحبة الوجه بَكّاءَة من الحَيْض عن طريق تجريعها حليب البقر المغلي. جاء صانع سفن ميسور الحال وثوبه غارق في الدم من معصمه المقطوع بعمق لدرجة أن يده بدت مبتورة جزئيًّا. اعترف الرجل على الفور أنه فعل ذلك بسكينه؛ ساعيًا لإنهاء حياته رغم يأسه من الشرب.

وكاد القطع أن يصل إلى العمق المميت، وتوقف بالقرب من العظم. عرف روب من القطع الذي قام به في قبو البيمارستان أن الشريان الموجود في الرسغ يستقر بالقرب من العظم؛ لو كان الرجل قد قطع شعرة أعمق لكان قد حقق رغبة السكير في الموت. كما كان، فقد بتر الأوتار السميكة التي تحكم الحركة والتحكم في إصبعي الإبهام والسبابة في يده. ولّما كان روب يخيط الرسغ ويضمّده، كانت تلك الأصابع متيبسة وفاقدة الإحساس.

«هل سيستعيد الحركة والشعور؟»

«الأمر بيد الرب، لقد قمت بعمل بارع للغاية، إذا حاولت فعل ذلك مرة أخرى، أعتقد أنك سوف تنهي حياتك؛ لذلك إذا كنت ترغب في العيش،

يجب أن تتجنب المشروبات الكحولية».

خشي روب أن الرجل قد يحاول مرة أخرى، كان هذا هو الوقت من العام الذي كانت هناك حاجة فيه إلى الملينات؛ لأنه لم يكن هناك خضروات طوال فصل الشتاء، وصنع شرابًا من الرَّاوَنْد وفي غضون أسبوع صرفه بالكامل. عالج رجلًا عضه حمار في رقبته، بضع اثنين من الثآليل، ولفّ معصمه المخلوع، وجبّر إصبعه المكسور. وفي إحدى الليالي استدعته امرأة خائفة في أسفل شارع التايمز إلى ما كان يعتبره أرضًا محرمة، المنطقة الواقعة في منتصف الطريق بين منزله ومنزل هون. كان من الممكن أن يكون محظوظًا لو أنها استدعت هون؛ لأن زوجها قد أصيب إصابة موجعة جدًّا. لقد كان عريسًا في إسطبلات ثورن، وكان قد قطع إبهامه قبل ثلاثة أيام، وفي ذلك المساء ذهب إلى الفراش وهو يعاني من آلام في حقويه. والآن انطبق شدقاه، وأصبح بصاقه مزبدًا وبالكاد يمكن أن يمر عبر أسنانه التي اصطكّت بشدة، واتخذ جسده شكل قوس منحنٍ وهو يرفع بطنه ويدعم نفسه على كعبيه وعلى الجزء العلوي من رأسه. لم يشاهد روب أحدًا مصابًا بالمرض من قبل ولكنه عرفه من وصف ابن سينا المكتوب، كان التَقَوّسُ الأَماميّ، «التشنج إلى الوراء». لم يكن هناك علاج معروف، ولفظ الرجل أنفاسه قبل الصباح.

تركت التجربة في المنتدى طعم الرماد في فم روب. وفي يوم الإثنين أجبر نفسه على حضور اجتماع مارس كمتفرج يمسك لسانه، لكن الضرر قد حدث بالفعل ورأى أنهم اعتبروه مفاخرًا أحمق سمح لخياله أن يشطح ويهيمن. فابتسم له البعض في سخرية واستهزاء في حين نظر إليه الآخرون ببرود. لم يدعه أوبري روفوس لرفقته، لكنه أشاح بنظره بعيدًا عندما التقت أعينهما، وجلس على طاولة مع غرباء لم يحدثوه.

وتناولت المحاضرة كسور الذراع والساعد والضلوع وخلع الفك والكتف

والكوع. ألقاها رجل قصير القامة، ضخم الجسم يدعى تايلر، كانت هذه هي أفقر نوع من المحاضرات، احتوت على الكثير من الأخطاء الأسلوبية والمنهجية والحقيقة أنها كانت ستثير غضب جلال الدين مجبّر العظام. جلس روب والتزم الصمت.

وبمجرد أن انتهى المحاضر، حولوا حديثهم إلى إغراق الساحرة.

قال سارجنت: «سوف يلقى القبض على الآخرين، وتذكّروا كلامي؛ لأن السحرة يمارسون حيلهم القذرة بشكل جماعيّ. وعند فحص أجساد الناس، يجب أن نسعى لاكتشاف مكان الشيطان والإبلاغ عنه».

قال دريفيلد بعناية: «يجب أن نحرص على الظهور فوق الشبهات؛ لأن الكثير يعتقد أن الأطباء قريبون من السحر. لقد سمعت أنه قيل إن طبيبة ساحرة يمكن أن تسبب رغوة في فم المرضى ويتصلبون كما لو كانوا موتى».

فكر روب بصعوبة في العريس الميت الذي أصابه التقوس الأمامي، لكن لم يبادره أحد بالكلام أو يتهمه.

«وإلا كيف يكون التعرف على الساحر الذكر؟» سأل هون.

قال دريفيلد: «إنهم يبدون مثل أي رجال آخرين». «رغم أن البعض يقول إنهم قطعوا قلفة قضْبانهم مثل الوثنيين».

انكمش كيس الصفن لروب من الخوف. أخذ إجازته في أقرب وقت ممكن وعرف أنه لن يعود؛ لأنه لم يكن من الآمن الذهاب إلى مكان يمكن أن تفقد فيه الحياة إذا شاهده أحد الزملاء وهو يتبول.

قال لنفسه إذا كانت تجربته في المنتدى قد أسفرت عن خيبة أمل فحسب وشوّهت سمعته، فعلى الأقل كان يراوده الأمل في عمله، وصحته الجيدة.

ولكن في صباح اليوم التالي، ظهر توماس هود -المتطفل ذو الشعر الأحمر- في المنزل الواقع في شارع التايمز مع اثنين من رفاقه المسلحين.

«ما الذي يمكنني أن أفعله من أجلك؟» سأل روب ببرود.

ابتسم هود. «ثلاثتنا جميعًا مستدعون إلى محكمة الأسقف».

«نعم؟» سأل روب، لكنه كان يعرف بالفعل.

كان من دواعي سرور هود أن يتنخع ويبصق على أرضية منزل الطبيب النظيفة. وقال: «جئنا لاعتقالك يا روبرت جيريمي كول وتقديمك للمثول أمام العدالة الإلهية».

77

الراهب الأشيب

«إلى أين تأخذونني؟» سأل عندما كانوا في طريقهم للذهاب. «ستقام المحكمة في الرواق الجنوبي في كاتدرائية القديس بولس».

«ما التهمة؟»

هزّ هود كتفيه استهجانًا وهزّ رأسه.

ولّما وصلوا إلى كاتدرائية القديس بولس، اقتيد إلى غرفة صغيرة تعجّ بالناس المنتظرين، كان هناك حرّاس على الباب.

انتابه شعور أنه عاش هذه التجربة من قبل. وفي حال من الغموض طوال الصباح على مقعد صلب، كان يستمع إلى ثرثرة قطيع من الرجال في أثوابهم الرهبانية، ربما كان قد عاد إلى عالم الإمام قندراسه، لكن هذه المرة لم يكن هناك بصفته طبيب في المحكمة. لقد شعر أنه رجل أَقوَم مما كان عليه في أي وقت مضى، ومع ذلك كان يعلم أنه من خلال تقدير الكنيسة أنه مذنب مثل أي شخص جيء به ليصدر بشأنه حكم قضائي في ذلك اليوم.

لكنه لم يكن ساحرًا.

وشكر الرب على عدم وجود ماري وطفليه معه. أراد أن يطلب الإذن بالذهاب إلى المصلى لأداء صلاة لكنه علم أنه لن يمنح هذا الإذن؛ لذلك

صلّى صلاة صامتة في مكانه، طالبًا من الرب أن يبعده من أن يخاط في جوال به ديك وثعبان وحجر، ويلقي به في عمق الماء.

لقد كان قلقًا بشأن الشهود الذين ربما جرى استدعاؤهم: هل اتصلوا بالأطباء الذين سمعوه يتحدث عن التنقيب داخل أجساد بشرية، أو المرأة التي شاهدته يعالج زوجها الذي تصلب جسمه وتكونت رغوة في فمه قبل أن يلفظ أنفاسه. أم الطبيب هون، اللقيط القذر، الذي يخترع أي نوع من الكذب ليلصق به تهمة السحر ويتخلص منه.

لكنه كان يعلم أنهم إذا كانوا قد اتخذوا قرارهم، فلن يكون للشهود أهمية. سوف يجردونه من ثيابه ويرون ختانه كدليل، وسوف يفتشون جسده حتى يقرروا أنهم وجدوا علامة السحر.

ومما لا شك فيه أن لديهم وسائل كثيرة مثل الإمام قندراسه في الحصول على الاعتراف.

يا إلهي...

كان لديه أكثر من الوقت الكافي ليتعاظم خوفه. كان ذلك في وقت مبكر بعد الظهيرة قبل استدعائه للمثول أمام رجال الدين. كان الأسقف المسن الذي يحدق بعينيه جالسًا على عرش من خشب البلوط مرتديًا رداء الكاهن المصنوع من الصوف البني الباهت، وبطرشيل وحلة القداس؛ وهو يستمع إلى الآخرين باستثناء روب الذي عرف أنه كان الأسقف إيلفسيج، مطران من كاتدرائية القديس بولس ومعاقب صعب. وعلى يمين الأسقف كان هناك كاهنان في منتصف العمر يرتديان الأسود، وإلى يساره، شاب بنيديكتيني يرتدي اللون الرمادي الغامق.

أحضر رجل الدين الكتاب المقدس، والذي أمر روب بتقبيله وحلف اليمين المغلّظ أن شهادته سوف تكون صحيحة. بدأت المحاكمة كما هو

مألوف.

حدّق فيه إيلفسيج. وسأله قائلًا: «ما اسمك؟»

«روبرت جيريمي كول، يا صاحب النِّيَافَة».

«الإقامة والوظيفة؟»

«طبيب في شارع التايمز».

أومأ الأسقف إلى الكاهن عن يمينه.

«هل تورطت، في اليوم الخامس والعشرين من ديسمبر الماضي، مع شخص عبراني أجنبي في هجوم غير مبرر على السيد إدجار بورستان والسيد ويليام سميسون، مسيحيو من لندن أحرار المولد يتبعان أبرشية القديس أولاف؟»

للحظة، شعر روب بالحيرة ثم شعر بارتياح كبير؛ لأنه أدرك أنهم لم يطاردوه بسبب السحر. وقد أبلغه البحّارة عن قدومه لمساعدة اليهودي! تهمة بسيطة حتى لو أدين بها.

«يهودي نورماندي اسمه ديفيد بن أهارون»، قال الأسقف وهو يرمش بعينيه بسرعة. بدت رؤيته سيئة للغاية.

«لم أسمع من قبل اسم اليهودي ولا أسماء المشتكين. لكن البحّاران أبلغا عن ذلك بشكل غير صحيح. كانا هما اللذين يهاجمان اليهودي ظلمًا. لهذا تدخلت».

«هل أنت نصراني؟»

«أنا معمّد».

«هل تحضر القدّاس؟»

«لا، يا صاحب النّيَافَة».

تنشّق الأسقف وأومأ برأسه بشدة. قال للراهب الأشيب: «أحضروا الشهود».

تبدّد شعور الارتياح لدى روب عندما رأى الشاهد.

كان تشارلز بوستوك يرتدي ملابس فخمة وكان يرتدي سلسلة عنق ذهبية ثقيلة وخاتم كبير. أثناء التعرف على هويته، أخبر المحكمة أنه جرى ترقيته إلى رتبة سَيِّدٌ أَنْجلوسَكْسونيّ من قبل الملك هارثاكانوت كمكافأة على ثلاث رحلات قام بها بصفته تاجرًا مغامرًا، وأنه كان قسًّا فخريًّا لكاتدرائية القديس بطرس. تعامل معه رجال الكنيسة باحترام جمّ.

«الآن، يا سيد بوستوك، هل تعرف هذا الرجل؟»

قال بوستوك بشكل قاطع: «إنه يسي بن بنيامين، يهودي وطبيب».

رمقت العينان الكليلتان التاجر. «هل أنت متأكد من حكاية اليهودي هذه؟»

«يا صاحب النّيَافَة، قبل أربع أو خمس سنوات كنت أسافر إلى البطريركية البيزنطية أشتري البضائع وأعمل مبعوثًا من صاحب القداسة في روما. وفي مدينة أصفهان، علمت بامرأة مسيحية تركت وحيدة وفجعت في بلاد فارس بوفاة أبيها الاسكتلندي، وتزوجت من يهودي. وفور تلقي الدعوة، لم أستطع مقاومة الذهاب إلى منزلها للتحقيق في الشائعات، وهناك مما أثار فزعي واشمئزازي، رأيت أن القصة كانت حقيقية، كانت زوجة لهذا الرجل».

تحدّث الراهب لأول مرة. «هل أنت متأكد من أنه، أيها السَيّدُ الأَنْجلوسَكْسونيّ، نفس الرجل؟»

«أنا متأكد، يا صاحب القداسة. لقد ظهر قبل بضعة أسابيع على رصيفي وحاول أن يتهمني بسفك دماء واحد من عبيدي، والتي بالطبع تهمة لن أدفع ثمنها. ولّما رأيت وجهه أدركت أنني أعرفه من مكان ما، وبحثت في هذا الأمر حتى تذكّرته. إنه طبيب أصفهان اليهودي، ولا شك في ذلك. مدنس النساء المسيحيات. ففي بلاد فارس، أنجبت المرأة المسيحية طفلًا واحدًا من هذا اليهودي، وقد تسبب في حملها مرة ثانية».

انحنى الأسقف إلى الأمام. «بالأيمان المغلظة، ما اسمك، يا سيد؟»

«روبرت جيريمي كول».

قال بوستوك: «اليهودي يكذب».

قال الراهب: «سيدي التاجر». «هل رأيته في بلاد فارس مرة واحدة فقط؟»

قال بوستوك متذمرًا: «نعم، مرة واحدة».

«وأنت لم تره مرة أخرى منذ ما يقرب من خمس سنوات؟»

«أقرب إلى أربع سنوات من خمس سنوات، ولكن هذا صحيح».

«ومع ذلك أنت متأكد؟»

«نعم، أقول لكم، ليس لدي شك».

أومأ الأسقف برأسه. «حسنًا، أيها السَيّد الأَنْجلوسَكْسونيّ بوستوك. قال: «لكم جزيل امتناني وشكري».

أثناء اصطحاب التاجر بعيدًا، نظر رجال الدين إلى روب وواجه صعوبة في الالتزام بالهدوء.

قال الأسقف باستغراب: «إذا كنت مسيحيًا حرًّا، ألا يبدو الأمر غريبًا»، «إنك حضرت للمثول أمامنا في تهمتين منفصلتين، فالأولى تفيد أنك ساعدت يهوديًّا والأخرى تفيد أنك يهودي؟»

«أنا روبرت جيريمي كول، لقد عُمّدت على بعد نصف ميل من هنا، في كنيسة سانت بوتولف. دفتر الأبرشية سوف يبرئني. كان أبي ناثنيال، وهو نجّار بارع في اتحاد لندن للنجارين. لقد دفن في باحة كنيسة سانت بوتولف، وكذلك أمي، أجنيس، التي كانت تعمل خائطة ومطرزة في حياتها».

خاطبه الراهب ببرود. «هل التحقت بمدرسة الكنيسة في سانت بوتولف؟»

«سنتان فقط».

«من كان يعلم الكتاب المقدس هناك؟»

أغلق روب عينيه وقطّب جبينه. «كان هو الأب... فيليبرت. نعم، الأب فيليبرت».

نظر الراهب مستفسرًا إلى الأسقف الذي هزّ كتفيه استهجانًا وهزّ رأسه. «اسم فيليبرت ليس مألوفًا».

«ثم اللاتينية؟ من علمك اللاتينية؟»

«صاحب القداسة هوجولين».

قال الأسقف: «نعم». «كان صاحب القداسة هوجولين يدرّس اللغة

اللاتينية في مدرسة سانت بوتولف، أذكره جيدًا، لقد وافته المنية في تلك الفترة». سحب أنفه ورمق روب بعينيه الكليلتين. وأخيرًا تنهّد. «سوف نتحقق من دفتر الأبرشية بالطبع».

قال له روب: «ستجده كما قلت يا صاحب النّيَافَة».

«حسنًا، سأسمح لك بتطهير نفسك من خلال أداء القسم بأنك الشخص الذي تدعي أنك عليه. أنت مطالب بالمثول مرة أخرى أمام هذه المحكمة في غضون ثلاثة أسابيع. يجب أن يأتي معك اثنا عشر رجلًا حرًّا بصفتهم شهود تبرئة من خلال القسم، كل منهم على استعداد لأداء القسم بأنك روبرت جيريمي كول، مسيحي وحر المولد. مفهوم؟»

أومأ برأسه وانصرف.

وبعد دقائق، وقف خارج كاتدرائية القديس بولس بالكاد وهو يتوقع أنه لم يعد يتعرض لكلماتهم الحادة والهجومية.

«سيد كول!» فنادى أحدهم واستدار فرأى الراهب البنيديكتيّ مسرعًا وراءه.

«هل ترافقني إلى الحانة العامة، يا سيدي؟ أود التكلم معك».

والآن ماذا؟ فكّر.

لكنه تبع الرجل عبر الشارع الموحل إلى الحانة، حيث اتخذا زاوية هادئة. قال الراهب إنه صاحب القداسة بولينوس، وكلاهما طلب بيرة بنية.

«اعتقدت في النهاية أن الإجراءات سارت بشكل جيد بالنسبة لك».

لم ينبس روب ببنت شفة، وأثار صمته حواجب الراهب. «تعال، يمكن

للرجل الأمين أن يجد اثني عشر رجلًا شريفًا».

«لقد ولدت في أبرشية سانت بوتولف. التي تركتها عندما كنت صبيًا صغيرًا، «قال روب بحزن»، لأتجول في إنجلترا بصفتي مساعد حلّاق جرّاح. سأقضي وقتًا طويلًا في العثور على اثني عشر رجلًا، أمناء أو غير أمناء، يتذكرونني وسيكونون على استعداد للسفر إلى لندن للإدلاء بشهاداتهم».

رشف صاحب القداسة بولينوس بيرته البنية. «إذا لم تجد كل الاثني عشر، فإن القضية سوف تصير موضع شك، ستتاح لك بعد ذلك فرصة لإثبات براءتك عن طريق المحاكمة بالتعذيب».

كان للبيرة مذاق اليأس والقنوط. «وما أنواع التعذيب؟»

«الكنيسة تستخدم أربع أنواع من التعذيب: ماء بارد، ماء ساخن، حديد ساخن، وخبز مقدس. أستطيع أن أخبرك أن الأسقف إيلفسيج يفضل الحديد الساخن. سوف تعطى الماء المقدس لتشربه وسوف يرش الماء المقدس على اليد لاستخدامه في التعذيب. اختيارك لليد. سوف تلتقط الحديد الساخن المتوهج من النار وتحمله مسافة تسعة أقدام في ثلاث خطوات، ثم تسقطه وتسرع إلى المذبح حيث تلف اليد وتختم. وفي غضون ثلاثة أيام سوف تنزع اللفافة. إذا كانت يدك بيضاء ونقية داخل اللفافة، فسوف تعلن براءتك. إذا لم تكن اليد نظيفة، سوف تعاقب بالحرمان الكنسي وتسلم إلى السلطة المدنية».

حاول روب إخفاء مشاعره، لكن لم يكن لديه شك في أن وجهه امتقع.

قال بولينوس بفظاظة: «ما لم يكن ضميرك أفضل من ضمير معظم الرجال المولودين من نساء، أعتقد أنه يجب عليك مغادرة لندن».

«لماذا تخبرني بهذه الأشياء؟ ولماذا تسدي لي النصيحة؟»

فحص الرجلان بعضهما. كان للرجل لحية كثة مجعدة ورأسه يكتسي برقعة حليقة باللون البني الفاتح للقش القديم وعينين بلون حجر الأردواز حادتين... لكنهما متحفظتان، عينا الرجل الذي يعيش هو نفسه داخله. وله لسان الصالحين. كان روب متأكدًا من أنه لم ير هذا الرجل مطلقًا قبل أن يدخل كاتدرائية القديس بولس في ذلك الصباح.

«أعلم أنك روبرت جيريمي كول».

«كيف عرفت بذلك؟»

«قبل أن أصبح بولينوس في مجمع البنديكتيين، كان اسمي كول، يكاد يكون من المؤكد أنني أخوك».

أقرّ روب بذلك على الفور، لقد كان مستعدًّا لقبول هذا الأمر لمدة اثنين وعشرين عامًا، والآن يشعر بالبهجة المتزايدة التي قطعها تحذير سريع وآثم، وشعور بشيء خاطئ. كان قد بدأ في النهوض، لكن الرجل الآخر كان لا يزال جالسًا، يراقبه بتقدير يقظ جعل روب يجلس في كرسيه مرة أخرى.

سمع أنفاسه.

قال: «أنت أكبر من الطفل، روجر،». «صموئيل مات، هل كنت تعلم هذا؟»

«نعم».

«لذلك أنت... جوناثان أو...».

«لا، أنا كنت ويليام».

«ويليام».

استمر الراهب في مشاهدته.

«بعد موت أبيك أخذك كاهن يدعى لوفيل».

«الأب رانالد لوفيل. اصطحبني إلى دير القديس بنديكت في جارو. لقد عاش هو نفسه أربع سنوات فقط، ثم تقرر بعد ذلك أنني يجب أن أصبح منذورًا للخدمة في الدير».

روى بولينوس قصته باقتضاب. «كان إدموند، رئيس الدير في جارو، الوصي المحب على شبابي. لقد قاومني وشكّلني، وكانت النتيجة أنني كنت مترهبنًا وراهبًا وعمدة الكنيسة، كل ذلك في سنّ مبكرة. كنت أكثر من ذراعه اليمنى القوية. كان هو رئيس المشيخية الذي كرّس نفسه بشكل كامل ومستمرّ لتلاوة الأوبس داي (عمل الرب) والتعلم والتعليم والكتابة. كنت المسؤول الصارم لسجلات إدموند. لم أكن مشهورًا بصفتي عمدة». ابتسم بتحفظ. «عندما توفي قبل عامين، لم أنتخب لأحل محله، لكن رئيس الأساقفة كان يراقب جارو وطلب مني مغادرة المجمع الذي كان عائلتي. كان عليّ أن أتولى رسامة الكاهن وأعمل أسقفًا مساعدًا في ورسستر».

خطاب لم شمل فضولي وخال من الحب، اعتقد روب أن هذه الحكاية المسطحة للمهنة مع قبولها الضمني بالتوقعات والطموح. قال في كآبة: «المسؤوليات العظيمة يخبئها المستقبل لك».

هزّ بولينوس كتفيه استهجانًا. «هو مع الرب».

قال روب: «على الأقل، أحتاج الآن إلى إيجاد أحد عشر شاهد تبرئة من خلال القسم. ربما سيسمح الأسقف لشهادة أخي بأن تحتسب بعدة

شهادات أخرى».

لم يبتسم بولينوس. «عندما رأيت اسمك في الشكوى، قمت بإجراء تحقيق. وبفضل التشجيع، يمكن للتاجر بوستوك أن يشهد بتفصيل مثير للاهتمام. ماذا لو سئلت عما إذا كنت قد تظاهرت بأنك يهودي من أجل حضور أكاديمية وثنية في تحدّ صارخ للكنيسة؟»

جاءت النادلة ولوّح لها روب بالانصراف بعيدًا. «ثم أرد أن الرب بحكمته قد سمح لي أن أصبح معالجًا؛ لأنه لم يخلق الرجال والنساء فقط من أجل المعاناة والموت».

«للرب جيش مختار يفسر ما يريده الرب لجسد الإنسان وروحه. الحلاقون الجراحون أو الأطباء المدربون الوثنيون غير مختارين، وقد قمنا بسن قوانين كنسية لإيقاف من هم مثلك».

«لقد صعّبتم الأمر علينا. ففي بعض الأحيان كنتم تبطئوننا. أعتقد يا ويليام أنكم لم توقفونا».

«سوف تغادر لندن».

«وهل قلقك بسبب المحبة الأخوية، أو الخوف من أن الأسقف المساعد القادم لمدينة ورسستر سوف يتعرض للإحراج عن طريق أخ معاقب بالحرمان الكنسي سوف يخضع للإعدام بسبب الوثنية؟»

لم يتحدث أي منهما للحظة أبدية.

«لقد بحثت عنك طوال حياتي، لطالما حلمت بالعثور على الأطفال»، قال بمرارة.

«لم نعد أطفالًا». وقال بولينوس: «والأحلام ليست حقيقة».

أومأ روب برأسه. دفع كرسيه للخلف. «هل تعرف أيًّا من الآخرين؟»

«فقط الفتاة».

«أين هي؟»

«لقد وافتها المنية في السنوات الست الماضية».

«أوه». الآن وقف متثاقلًا. «أين أجد قبرها؟»

«لا يوجد قبر، لقد كان حريقًا عظيمًا».

أومأ روب برأسه، ثم ابتعد عن الحانة العامة دون النظر إلى الراهب الأشيب.

الآن هو أقل خوفًا من الاعتقال من القتلة الذين يستأجرهم رجل قوي للتخلص من الإيقاع في الإحراج. سارع إلى إسطبلات ثورن ودفع فاتورته وأخذ حصانه. وفي المنزل الكائن في شارع التايمز، توقف لفترة كافية فقط لجمع الأشياء التي أصبحت جزءًا أساسيًّا من حياته. لقد سئم من مغادرة الأماكن في عجلة يائسة ثم السفر لمسافات شاسعة، لكنه أصبح سريعًا وخبيرًا في ذلك.

ولَمّا جلس صاحب القداسة بولينوس لتناول العشاء في قاعة الطعام في كاتدرائية القديس بولس، كان شقيقه يغادر مدينة لندن. امتطى روب صهوة الحصان المتثاقل فوق طريق لينكولن الموحل المؤدي إلى شمال البلاد، وهو يطارده الغضب لكنه لم يهرب منه قطّ لأن بعضه كان يحمله داخله.

78

الرحلة المألوفة

في الليلة الأولى كان ينام قرير العين على كومة من القش على جانب الطريق. لقد كان قشًا من الخريف الماضي وكان قديمًا ومتعفنًا تحت السطح؛ لذلك لم يغص فيه، لكنه لا يزال تنبعث منه حرارة طفيفة وكان الهواء معتدلًا. ولّما استيقظ في الفجر، كان الهاجس الأول الذي يراوده هو الحقيقة المرة أنه ترك في المنزل الكائن في شارع التايمز رقعة لعبة الشطرنج التي كانت تخص ميردين. لقد كانت ثمينة جدًّا بالنسبة له لدرجة أنه حملها عبر العالم من بلاد فارس، وحقيقة فقدانها للأبد كانت أشبه بطعنة له.

كان جائعًا لكنه لم يرغب في محاولة تناول أي طعام في المزرعة، حيث سيتذكره أي شخص يقتفي أثره بحثًا عنه. وبدلًا من ذلك، ركب نصف الصباح وبطنه فارغًا حتى وصل إلى قرية بها سوق، حيث ابتاع الخبز والجبن ليسد رمقه والمزيد ليحمله معه.

كان مستغرقًا في التفكير وهو يمتطي صهوة جواده. كان العثور على مثل هذا الأخ أسوأ من عدم العثور عليه أبدًا، واعتراه شعور بالغش والنكران.

لكنه أخبر نفسه إنه حزن على ويليام بعد أن فقد كل منهما الآخر في مرحلة الطفولة، وسوف يغدو سعيدًا إذا أشاح بنظره بعيدًا عن بولينوس

المتحفظ مرة أخرى.

«فليذهب إلى الجحيم، أسقف ورسيستر المساعد!» صاح.

أرغم صياحه الطيور على الخروج من بين الأشجار وهي ترفرف وأتلع صياحه أذني حصانه وتقافز. وخشية أن يظن أي شخص أن المزرعة تتعرض للهجوم، أطلق صوتًا يشبه صوت القرن الساكسوني، وأعاده النواح المألوف إلى طفولته وشبابه وكان مصدر راحة له.

إذا كان هناك من يقتفي أثره بحثًا عنه، فسوف يبحثون عنه على طول الطرق الرئيسية؛ لذلك ابتعد عن طريق لينكولن واتّبع الطرق الساحلية التي تربط القرى الساحلية. كانت رحلة ذهب فيها عدة مرات مع الحلاق. والآن لم يسمع صوت الطبل ولم يقدم أي ترفيه، ولم يبحث عن مرضى خوفًا من أن البحث جار عن طبيب هارب. ولم يتعرف أي شخص في أي قرية على الحلاق الجراح الشاب الذي كان يعمل حلاقًا جراحًا منذ زمن بعيد، كان من المستحيل العثور على شهود تبرئة من خلال القسم في هذه الأماكن. كان سيحكم عليه بالفناء. كان يعلم أنه كان ينعم بالهروب، وهجْران الكآبة لأنه أدرك أن الحياة لا تزال مليئة بالاحتمالات التي لا حصر لها.

لقد تعرّف على بعض الأماكن، وهو يلاحظ أن منزلًا أو كنيسة بارزة قد احترقت على الأرض، أو أنه هناك حيث بُني مسكن جديد، أو جرى إزالة غابة من الغابات. لقد حقق تقدمًا بطيئًا بشكل مؤلم؛ لأنه في بعض الأماكن كانت الطرق موحلة جدًّا وسرعان ما صار الحصان في حالة سيئة للغاية. كان الحصان مثاليًّا لحمله إلى الزيارات الطبية في منتصف الليل بخطوات وئيدة، لكنه لم يكن مناسبًا للسفر في البلاد المفتوحة أو الطرق الموحلة القديمة والمتكسرة والكئيبة. لقد بذل قصارى جهده بمساعدة الحصان، حيث توقف كثيرًا للاستلقاء على ظهره بجانب النهر في حين

كان الحيوان يَجزّ العشب الأخضر الجديد في الربيع وينال الراحة، لكن لا شيء من شأنه أن يعيد للحصان شبابه مرة أخرى، أو يجعله ملائمًا للركوب.

ادّخر روب ماله. وكلما منح الإذن أو دفع مقابل السماح له، كان ينام في حظائر دافئة على القش، متجنبًا الناس، ولكن عندما يصير الأمر خارج عن إرادته، كان يحتمي بالحانات. وذات ليلة في حانة عامة في مدينة ميدلزبره الساحلية، شاهد اثنين من البحّارة يحتسيان كمية مخيفة من البيرة البنية.

وقد قرع أحدهما وهو قصير وبدين وعريض المنكبين، بشعر أسود نصف مخفي تحت القَلَنْسوة الجوربيّة، الطاولة. «نحن بحاجة إلى فرد ينضم إلى طاقمنا. سوف نتجه عبر الساحل إلى ميناء إيماوث، اسكتلندا. نبحث عن سمك الرنجة طوال الرحلة. هل من رجل في هذا المكان؟

كانت الحانة نصف ممتلئة، لكن ثمة صمت ثقيل يخيم على المكان وقليل من الضحكات الخافتة، ولم يحرك أحد ساكنًا.

أتجرأ وأتقدّم؟ اندهش روب، سوف يكون أسرع بكثير.

حتى المحيط كان أفضل من تخبط الحصان في الوحل، اتخذ قراره، وقام وذهب إليهما.

«هل هو قاربك؟»

«نعم، أنا القبطان، أنا اسمي ني، وهو اسمه ألدوس».

قال روب: «أنا جونسون». كان اسمًا جيدًا مثل أي اسم آخر.

رمقه ني بنظرة. «وغد ضخم». أمسك يد روب وقلّبها، وحرّك الكف الناعمة بازدراء.

«يمكنني العمل».

قال ني «سوف نرى».

تخلّى روب عن الحصان في تلك الليلة وأعطاه إلى شخص غريب في الحانة؛ لأنه لم يكن هناك وقت لبيعه في الصباح وكان الحيوان سيجلب له القليل من المال. ولمّا رأى قارب الصيد الشراعي المتهالك، اعتقد أنه قديم ورخيص مثل الحصان، لكن ني وألدوس أمضيا شتاءهما جيدًا. كانت شقوق القارب مسدودة بإحكام بالبلوط ومطلية، وركبوا الأمواج بيسر.

وكان يعاني من مشكلة بعد وقت قصير من انطلاقهما، حيث كان يميل إلى البحر ويتقيأ في حين كان الصيادان يمطرانه بوابل من اللعنات ويهددان بإلقائه في البحر. وعلى الرغم من الغثيان والقيء، أجبر نفسه على العمل. وفي غضون ساعة، أخرجوا الشباك، وسحبوه وراءهم أثناء إبحارهم، ثم سحبوه الثلاثة معًا لإحضاره على ظهر القارب، وهو فارغ ويتقاطر منه الماء. أخرجوه وسحبوه مرارًا وتكرارًا، لكنهم أحضروا القليل من الأسماك، وأصبح ني سريع الغضب وقبيحًا. كان روب مقتنعًا بأن حجمه فقط منعهما من معاملته بشكل سيئ.

كانت الوجبة المسائية عبارة عن خبز جاف وسمك عظمي مدخن ومياه لها مذاق سمك الرنجة. حاول روب أن يأكل بعض الكِسْرَات لكنه طرح الطعام جانبًا. ومما زاد الطين بلة، أن ألدوس كان يعاني من إسهال وسرعان ما جعل دلو فضلات الطعام إهانة للعيون والأنوف. لم يكن هناك شيء يزعج الشخص الذي عمل في المستشفى، وأفرغ روب الدلو وشطفه بمياه البحر حتى أصبح نظيفًا. ربما إنجاز الأعمال المنزلية أدهش الرجلين الآخرين؛ لأنه لم تزحف شتائمهما إلى أذنيه بعد ذلك.

وفي تلك الليلة، وهو يرقد مرتجفًا من البرد ومتقلبًا في يأسه في حين كان القارب يرتفع ويترنح في الظلام، زحف روب مرارًا وتكرارًا إلى الجانب، حتى لم يبق فيه شيء ليتقيأه. وفي الصباح، بدأ الروتين مرة أخرى، ولكن في السحب السادس للشباك، تغيّر شيء ما. عندما شدّوا الشباك، بدا أنه مربوطًا. ورويدًا رويدًا، وبشق الأنفس، جمعوا الشباك، وأخيرًا جلب لهم تيارًا فضيًّا متلألئًا.

«الآن اصطادوا سمك الرنجة!» ابتهج ني.

كان الشباك ممتلئًا عن آخره ثلاث مرات، ثم امتلأ بعد ذلك بكميات أقل، وعندما لم يكن هناك مساحة لتخزين الأسماك، توجهوا قبل هبوب الرياح إلى اليابسة.

وفي صباح اليوم التالي، أخذ التجار الأسماك التي صيدت لبيعها طازجة ومجففة بالشمس ومدخنة، وبمجرد تفريغ قارب ني، تقدّموا إلى البحر مرة أخرى.

كانت يدي روب متقرحة ومتألمة ومتصلبة. تمزّق الشباك وتعلم كيفية ربط العقد اللازمة لإجراء الإصلاحات. وفي اليوم الرابع اختفى مرض الغثيان دون سابق إنذار، ولم يعد مرة أخرى، يجب أن أخبر تام، فكر بامتنان عندما أدرك.

كل يوم يتقدمون ببطء على الساحل، ويدخلون دائمًا إلى ميناء جديد لبيع الأسماك التي صيدت طازجة قبل أن تفسد. وفي بعض الأحيان في الليالي المقمرة، كان ني يرى سربًا من الأسماك الصغيرة مثل قطرات المطر، يخترق الماء هربًا من سرب الأسماك العالقة، وكان عليهم أن يسقطوا الشباك ويسحبوه على طول مسار ضوء القمر، ليحصدوا عطايا البحر.

بدأ ني يبتسم كثيرًا وسمعه روب يخبر ألدوس أن جونسون قد جلب لهما الحظ السعيد. والآن عندما وصلوا إلى ميناء في إحدى الأمسيات، ابتاع ني لطاقمه البيرة البنية ووجبة ساخنة وجلس الثلاثة متثاقلين وصدحوا بالغناء. ومن بين الأشياء التي تعلمها روب باعتباره أحد أفراد الطاقم عددًا من الأغاني البذيئة.

قال ني: «سوف تصبح صيادًا». «سنكون في ميناء إيماوث لمدة خمسة أو ستة أيام لإصلاح الشباك. ثم نعود إلى ميدلزبره لأن هذا هو ما نفعله، ونتجه إلى صيد سمك الرنجة بين ميدلزبره وإيماوث، ذهابًا وإيابًا. هل أنت تريد البقاء؟»

شكره روب، مسرورًا بالعرض المقدم، لكنه قال إنه سوف يتركهما في إيماوث.

وصلوا بعد أيام قليلة، وهم يبحرون إلى ميناء جميل مزدحم، ودفع له ني بعض العملات المعدنية وربّت على ظهره. ولّما أعلن روب عن حاجته إلى حصان، قاده ني عبر البلدة إلى تاجر أمين قال إنه يمكن أن يوصي باثنين من خيوله، إما مهرة أو حصان مخصي.

كانت المهرة حيوانًا أجمل بكثير. قال روب: «لقد حظيت ذات مرة بحسن الحظ مع الحيوان المخصي»، واختار تجربة الحيوان المخصي مرة أخرى. لم يكن هذا الحصان عربيًا، لكنه كان حصانًا إنجليزيًا قذرًا وله أرجل قصيرة مشعرة وعرف مجدول. كان عمره عامين وقويًّا ويقظًا.

رتّب صرّته خلف السرج وتأرجح على الحيوان، وتبادل التحية مع ني.

«أتمنى أن تعثرا على صيد جيد».

قال ني: «ليكن معك الرب، يا جونسون».

منحه الحصان المخصي متعة كبيرة. كان أفضل من مظهره وقرر تسميته بالبراق، بعد أن اعتقد المسلمون أن الحصان حمل محمد من الأرض إلى السماء السابعة.

وخلال أدفأ فترة بعد ظهر كل يوم، حاول أن يتوقف عند بحيرة أو جدول ليغسل البراق، وهو يخلل أصابعه في عرف الحصان المجدول، متمنيًا أن يكون لديه مشط خشبي قوي. بدا الحصان دؤوبًا وكانت الطرق جافة؛ لذلك سافر بشكل أسرع. لقد أخذه قارب الصيد إلى ما وراء الأرض التي كانت مألوفة له والآن أصبح كل شيء أكثر إثارة للاهتمام لأن كل شيء صار جديدًا. تبع ضفة نهر «تويد» لمدة خمسة أيام، حتى اتجه جنوبًا واتجه شمالًا، وهو يدخل بين المرتفعات ويركب بين التلال التي كانت منخفضة جدًّا بحيث لا يمكن تسميتها بالجبال. وانقطعت المستنقعات المتدحرجة في بعض الأماكن بواسطة المنحدرات الصخرية. وفي هذا الوقت من العام، لا يزال ذوبان الجليد يندفع أسفل سفوح التلال وكان عبور كل جدول من الجداول إنجازًا فذًّا.

كانت المزارع قليلة وواسعة الانتشار. كان بعضها ممتلكات كبيرة، والبعض الآخر كان عبارة عن بيوت صغيرة متواضعة، ولاحظ أن معظمها محمية جيدًا وتتسم بجمال التنظيم الذي لا يمكن تحقيقه إلا من خلال العمل الجاد. كان ينفخ القرن السكسوني في كثير من الأحيان. كان المزارعون يقظين وحذرين ولكن لم يحاول أحد أن يؤذيه. ومن خلال مراقبة البلاد وشعبها، أدرك لأول مرة أشياء معينة عن ماري.

لم يرها منذ شهور طويلة، هل كان في مهمة حمقاء؟ ربما لديها الآن رجل آخر، ربما ابن العم اللعين.

كانت طبيعة الأرض رائعة للرجال ولكنها مخصصة للأغنام والأبقار، كانت قمم التلال قاحلة إلى حدّ كبير، لكن معظم المنحدرات السفلية كانت

تتكون من المراعي الغنية، كل الرعاة استخدموا الكلاب وتعلم أن يخاف منهم.

وبعد نصف يوم وراء مدينة كامنوك توقف في مزرعة ليطلب الإذن للنوم في تلك الليلة على حشية قش، ووجد أنه في اليوم السابق كانت مالكة المكان قد مزق أحد الكلاب صدرها.

«الثناء ليسوع!» همس زوجها عندما قال روب إنه طبيب.

كانت امرأة شجاعة ولديها أطفال كبار، والآن فقدت عقلها من الألم، لقد كان هجوم الكلب هجومًا وحشيًّا، كما لو عضها أسد. «أين هو الكلب؟»

«لم يعد الكلب موجودًا»، قال الرجل في تجهم.

أجبروها على شراب البرغل، أصابها بالاختناق، لكنها ساعدها في تلك الأثناء التي كان روب فيها يقطع اللحم الممزق ويخيطه. كان يعتقد أنها ستعيش على أي حال، لكن لم يكن هناك شك في أنها كانت أفضل حالًا بسببه. كان يجب أن يراقبها يومًا أو يومين، لكنه بقي لمدة أسبوع، حتى أدرك ذات صباح أنه لا يزال هناك لأنه لم يكن بعيدًا عن كيلمارنوك وكان يخشى إنهاء رحلته.

أخبر زوجها أين يريد أن يذهب وأراه الرجل أفضل طريق.

كانت جروحها لا تزال في ذهنه بعد يومين عندما هاجمه راعٍ متذمر ضخم وأغلق طريق الحصان. سحب نصف سيفه عندما هوجم الحيوان. قال الراعي شيئًا غامضًا لروب باللغة الغيلية.

«لا أتحدث لغتك».

«أنت على أرض كولين».

«هذا هو المكان الذي أريد أن أكون فيه».

«ماذا؟ لماذا؟»

«سوف أقول ذلك لماري كولين». قيّمه روب ورأى رجلًا كان لا يزال في ريعان الشباب، لكنه هزيل الجسم وأشهب الرأس وكان يقظًا مثل كلب الحراسة. «من أنت؟»

حدّق الاسكتلندي مرة أخرى في وجهه، وبدا مترددًا بشأن ما إذا كان يريد الإجابة. قال أخيرًا: «كريج كولين».

«اسمي كول، روبرت كول».

أومأ الراعي برأسه، ولم يبد متفاجئًا ولا مرحّبًا. قال: «الأفضل أن تتبعني»، وانطلق على قدم وساق. لم يكن روب قد رآه يشير إلى الكلب، لكن الحيوان تباطأ وتراجع خلف الحصان، حتى دخل بين الرجل والكلب، وأرشده مثل شخص وجدوه ضلّ الطريق في التلال.

كان المنزل والحظيرة من الحجر، وقد جرى ترميمهما جيدًا منذ فترة طويلة. حدّق الأطفال وتهامسوا وهو يتجول، واستغرق الأمر بعض الوقت ليدرك أن طفليه من بينهم. تحدّث تام بهدوء إلى أخيه باللغة الغيلية.

«ماذا قال؟»

«قال: «هل هذا هو أبونا؟» قلت أنت».

ابتسم روب وأراد أن يضمهما، لكنهما صرخا وتشتتا مع بقية الأطفال عندما تأرجح على السرج. أشار روب إلى أن تام ما زال يعرج لكنه كان قادرًا على الركض بسهولة.

«إنهما خجولان فحسب». قالت من المدخل: «سوف يعودان». أشاحت بوجهها بعيدًا ولم تلتق عيناها بعينيه، كان يعتقد أنها لم تكن سعيدة برؤيته. ثم كانت بين ذراعيه، حيث شعرت أنها بخير! إذا كان لديها رجل آخر، هنا في فناء الحظيرة أعطياه شيئًا ليفكر فيه.

اكتشف وهو يقبلها أنها فقدت أحد أسنانها، في الجهة اليمنى في منتصف شدقها العلوي.

«كنت أكافح من أجل إدخال بقرة في الحظيرة وسقطت على قرنيها». كانت تصرخ. «أنا عجوز وقبيحة».

«لم أخلع سنًّا ملعونة لزوجتي». كانت نبرة صوته غليظة لكنه لمس الفجوة بأطراف أصابعه بلطف، وشعر برطوبة ودفء فمها وهي تمص إصبعه. قال: «لم تكن سنًّا ملعونة أخذته إلى سريري»، وعلى الرغم من أن عينيها ما زالتا تلتمعان، ابتسمت.

قالت: «إلى حقل القمح الخاص بك». «وفي الحال في الأرض بجوار الفئران والأشياء الزاحفة، مثل كبش يطأ نعجة». كفكفت دموعها. قالت: «أنت متعب وتتضور جوعًا»، وأخذت يده وقادته إلى غرفة الطبخ. كان من الغريب أن يراها هنا في المنزل. أعطته كعكات الشوفان والحليب وأخبرها عن الأخ الذي وجده وفقده، وعن هروبه من لندن.

«كم هو أمر باعث على الحزن والغرابة بالنسبة لك. لو لم يحدث، هل كنت ستأتي إليّ؟»

«عاجلًا أم آجلًا». ظلا يبتسمان لبعضهما. قال: «هذا بلد جميل». «ولكن بلد صعب».

«أسهل مع الطقس الأكثر دفئًا، قبل أن نعرف سيكون وقت الحرث».

لم يعد بإمكانه ابتلاع كعكات الشوفان. «حان وقت الحرث الآن».

لا تزال مخضّبة بسهولة، ولاحظ بارتياح أنه شيء لن يتغير أبدًا. ولّما قادته إلى المنزل الرئيسي، حاولا الاحتفاظ ببعضهما، لكن ذلك أدى إلى تشابك ساقيهما وتصادم وركيهما، وسرعان ما ضحكا بشدة لدرجة أنه خشي أن يتعارض ذلك مع ممارسة الحب، لكن هذا لم يثبت أنه كان يمثل مشكلة.

79

ولادة النعاج

في صباح اليوم التالي، ومعهما طفل أمامهما على السرج، قادته عبر المزرعة الجبلية مترامية الأطراف. كانت الأغنام في كل مكان وهي ترفع الوجوه السوداء والوجوه البيضاء والوجوه البنية من العشب الغض عندما مرّت الخيول. أخذته لمسافة، وأظهرت كل شيء بفخر. كان هناك 27 مزرعة صغيرة على أطراف المزرعة الكبيرة. «كل الرجال في المزارع الصغيرة هم أقاربي».

«كم عدد الرجال هناك؟»

«واحد وأربعون».

«هل عائلتك كلها اجتمعت هنا؟»

«عائلة كولين هنا، إن عائلة تيدير وماكفيز ذوو قربى أيضًا. تعيش عائلة ماكفيز على بعد مسافة رحلة صباحية عبر التلال المنخفضة إلى الشرق. وتعيش عائلة تيدير على بعد مسافة رحلة ليوم واحد إلى الشمال، عبر الوهاد وعبر النهر الكبير».

«مع العائلات الثلاث، كم لديكم من الرجال؟»

«ربما مئة وخمسون».

زمّ شفتيه. «جيشك الخاص».

«نعم، هذا فضل ونعمة».

بدا له أن هناك قطعانًا لا تنتهي من الأغنام.

«الأصواف والجلود هي سبب الاحتفاظ بالقطعان. يفسد اللحم بسرعة؛ لذلك نأكله كله. سوف تسأم من لحم الضأن».

انخرط في أعمال العائلة في ذلك الصباح. قالت ماري: «لقد بدأت ولادة النعاج في موسم الربيع بالفعل، ويجب على الجميع مساعدة النعاج في الليل والنهار. يجب ذبح بعض الحملان في اليوم الثالث إلى العاشر من العمر، عندما يكون الفراء في أفضل حالاته». أوصلته إلى كريج وغادرته. وبحلول منتصف الصباح استقبله الرعاة، ولاحظوا أنه كان هادئًا أثناء عمليات الولادة الصعبة ويعرف كيف يشحذ السكاكين ويستخدمها.

استاء من طريقتهم في إخصاء الحملان. قطعوا الخصيتين الطريتين وألقوهما في دلو.

«لماذا تفعلون ذلك؟» سأل.

ابتسم كريج في وجهه بفم لعين. «يجب أن تقطع الخصيتين، لا يمكن أن يكون لديكم الكثير من الكباش، أليس كذلك؟»

«لماذا لا تستخدمون المشرط؟»

«هذه هي الطريقة التي يتم اتباعها دائمًا. أسرع طريقة، وتسبب للحملان ألمًا خفيفًا».

ذهب روب إلى حقيبته وأخرج مشرطًا من الفولاذ المزخرف، وسرعان ما اعترف كريج والرعاة الآخرون على مضض أن طريقته كانت فعّالة أيضًا. لم يخبرهم أنه تعلّم أن يكون سريعًا وماهرًا من أجل تجنيب الرجال الألم في عملية تحويلهم إلى خصيان.

رأى أن الرعاة كانوا رجالًا مستقلين، ولديهم مهارات لا غنى عنها.

قال لها لاحقًا: «لا عجب أنك تريدني». «كل شخص آخر في هذا البلد اللعين هو قريبك».

ابتسمت ابتسامة باهتة؛ لأنهم كانوا يسلخون طوال اليوم. كانت الغرفة تفوح منها رائحة الأغنام ولكن أيضًا رائحة الدم واللحم، ولم تكن الروائح مزعجة؛ لأنها كانت تذكيرًا بالبيمارستان وخيام المستشفى الميداني في الهند.

قال لها: «الآن بعد أن أصبحت هنا، ستحتاجين إلى خفض الرعاة بمقدار واحد»، وتلاشت ابتسامتها.

قالت بحدة: «صه». «هل أصابك مس من الجنون؟»

أمسكت يده وأخرجته من غرفة السلخ إلى مبنى خارجي آخر من الحجر. وفي الداخل كانت هناك ثلاث غرف مطلية باللون الأبيض. كانت واحدة منها حجرة دراسة. ومن الواضح أن واحدة منها جرى تجهيزها كغرفة فحص، مع طاولات وخزائن مماثلة للغرفة التي كان يستخدمها في أصفهان. وفي الغرفة الثالثة كانت هناك مقاعد خشبية يجلس عليها المرضى أثناء الانتظار لرؤية الطبيب.

بدأ يتعرف على الناس كأفراد. رجل يدعى أوستريك كان موسيقارًا. انزلق سكين السلخ وقطع شريان في ساعد أوستريك، وأوقف روب النزيف وأغلق الجرح.

«هل يمكنني ممارسة العزف؟» قال أوستريك بقلق. «إنها الذراع التي تحمل وزن الناي».

وأكد له روب قائلًا: «أيام قليلة ستحدث فرقًا كبيرًا».

وبعد عدة أيام، كان يمشي تحت مظلة الدباغة حيث تعالج الجلود، رأى مالكولم والد كريج كولين العجوز، ابن عم ماري. توقف وفحص أطراف أصابع الرجل المتَعَجِّرَة والمتورمة ورأى كيف تنحني أظافره بشكل غريب مع نموها.

«لفترة طويلة كنت تعاني من سعال سيئ. قال للرجل العجوز بهدوء: «وحمى متكررة».

«من كان يخبرك؟» قال مالكولم كولين.

كانت حالة أطلق عليها ابن سينا اسم «أصابع أبقراط»، وكانت تعني دائمًا مرض الرئة. «أستطيع أن أراه بين يديك، أصابع قدميك هي نفسها، أليس كذلك؟»

أومأ الرجل العجوز برأسه. «هل يمكنك أن تصنع شيئًا من أجلي؟»

«لا أعرف». وضع أذنه على صدره وسمع صوت طقطقة مثل الصوت الذي يصدر عن الخل المغلي.

«صدرك مليء بالسوائل، تعال إلى المستوصف ذات صباح، سأفتح ثقبًا صغيرًا بين ضلعين وأسحب تلك المياه، القليل منها في كل مرة. وفي غضون ذلك، سوف أفحص بولك وأراقب تفاقم المرض، وسأعطيك أبخرة مطهرة وأصف لك نظامًا غذائيًا لتجفيف جسمك».

وفي تلك الليلة ابتسمت له ماري. «كيف سحرت مالكولم العجوز؟ إنه يخبر الجميع أن لديك قوى سحرية للشفاء».

«لم أفعل شيئًا له حتى الآن».

وفي صباح اليوم التالي كان الوحيد في المستوصف، لم يكن هناك مالكولم أو أي روح حية أخرى، ولا حتى في الصباح التالي بعد ذلك.

ولّما اشتكى، هزّت ماري رأسها. «لن يأتوا إلا بعد الانتهاء من ولادة النعاج، فهذه مهنتهم».

لقد كان ذلك صحيحًا. لم يأت إليه أحد لمدة عشرة أيام أخرى. ثم كان الوقت أكثر هدوءًا بين ولادة النعاج وجز الأصواف، وفي صباح أحد الأيام فتح باب المستوصف وامتلأت المقاعد بالناس وتمنى له مالكولم العجوز يومًا طيبًا.

وبعد ذلك كانوا يأتون على الفور كل صباح؛ لأن الأخبار انتشرت في الوهاد والوديان بين التلال بأن زوج ماري كولين كان معالجًا حقيقيًّا. لم يكن هناك طبيب في كيلمارنوك على الإطلاق، وقد أدرك أنه سيقضي سنوات في محاولة لإلغاء بعض من المعالجة الذاتية. وبالإضافة إلى ذلك، قادوا حيواناتهم المريضة، أو إذا لم يتمكنوا من ذلك، لم يخجلوا من استدعائه إلى حظائرهم. أصبح على دراية جيدة بتعفن القدم والتهاب الفم. ولّما سنحت الفرصة، قام بتشريح بقرة وبعض الخراف حتى يعرف ما كان يفعله. وقد وجد الأبقار والخراف مختلفة عن الخنازير والإنسان.

وفي الظلام داخل غرفة نومهما؛ حيث جرى توظيفهما طواعية في هذه الليالي في مهمة بدء طفل آخر، حاول أن يشكرها على تجهيز المستوصف، الذي قيل له إنه كان أول شيء فعلته فور عودتها إلى كيلمارنوك .

اتكأت عليه. «كم من الوقت سوف تبقى معي بدون عملك، يا حكيم؟»

لم يكن هناك أي حافز قوي في الكلمات، وقد قبّلته فور أن تفوّهت بها.

80

الوفاء بالعهد

اصطحب روب ولديه إلى الغابة والتلال وبحثوا عن النباتات والأعشاب التي يريدها، وجمع الثلاثة الأعشاب وأحضروها وجففوا بعضها وطحنوا البعض الآخر. جلس مع ولديه وعلّمهما بعناية، وهو يريهما كل ورقة وكل زهرة. لقد أخبرهما عن الأعشاب التي كانت تستخدم لعلاج الصداع وعلاج التشنج، والحمى والزكام، ونزيف الأنف والشرث (تورم الأصابع)، والتهاب اللَّوْزتَين وعلاج آلام العظام.

كان كريج كولين صانع ملاعق واستغل حرفته لتصميم صناديق خشبية مغطاة يمكن أن تحفظ فيها الأعشاب الصيدلانية آمنة وجافة. كانت الصناديق، مثل ملاعق كريج، مزينة بالحوريات والعفاريت المنحوتة والمخلوقات البرية من كل نوع. وعند رؤيتهم استوحى روب رسم بعض القطع التي شكّلت رقعة لعبة الشطرنج.

«هل يمكنك عمل شيء كهذا؟»

رمقه كريج بنظرة فضولية. «لِمَ لا؟»

رسم روب تشابهات لكل قطعة والرقعة المقسمة إلى مربعات. ومع التوجيه الطفيف، نحت كريج كل شيء، حتى إن روب وماري في الوقت الحاضر أمضيا مرة أخرى بعض ساعاتهما في لعبة علمها إياه ملك ميت.

كان روب عاقد العزم على تعلم اللغة الغيلية. لم يكن لدى ماري أي كتب ولكنها انطلقت لتعليمه، بدءًا من الأبجدية المكونة من ثمانية عشر

حرفًا. لقد عرف الآن ما يجب فعله لتعلم لغة أجنبية وطوال الصيف والخريف عمل جاهدًا، حتى إنه بحلول أوائل الشتاء كان يكتب جملًا قصيرة باللغة الغيلية ويحاول التحدث بها، لتسرية الرعاة وأهله وأبنائه.

كما كان يفترض، كان الشتاء هناك صعبًا. جاء البرد القارس قبل عيد دخول السيد المسيح إلى الهيكل. وبعد ذلك كان وقت الصيد؛ لأن الأرض الثلجية ساعدتهم على تعقب الغزلان والطيور الداجنة والهرر الجبلية والذئاب التي كانت تهاجم قطعان الأغنام. وفي المساء كان الناس يتجمعون دائمًا في الرواق أمام نار كبيرة. قد يجلس كريج هناك ينحت الأخشاب، في حين يجلس الآخرون ويصلحون عدة الخيول أو ينجزون أي مهام منزلية يمكن القيام بها في أجواء ملؤها الدفء والحميمية. وفي بعض الأحيان كان أوستريك يعزف على الناي. لقد صنعوا قماشًا صوفيًّا شهيرًا في كيلمارنوك، وصبغوا أفضل أنواع الصوف بألوان الخلنج عن طريق غمسها بالطحالب التي جرى التقاطها من بين الصخور. لقد نسجوه في خصوصية لكنهم تجمعوا في الرواق من أجل أن يصدحوا بالأغاني الشعبية الاسكتلندية، وتقليص النسيج. جرى تمرير قطعة القماش المبللة، التي كانت منقوعة في الماء والصابون، حول الطاولة في حين تقوم كل امرأة بضربها وفركها. وطوال الوقت كانوا يصدحون بالأغاني الشعبية الاسكتلندية، واعتقد روب أن غناءهم وناي أوستريك يصنعان صوتًا فريدًا.

كانت أقرب كنيسة صغيرة على بعد مسافة ركوب تستغرق ثلاث ساعات، وكان روب يعتقد أنه لن يكون من الصعب تجنب الكهنة، ولكن ذات يوم في ربيعه الثاني في كيلمارنوك ظهر رجل قصير ممتلئ الجسم بابتسامة باهتة.

«الأب دومهنال! إنه الأب دومهنال!» بكت ماري، وسارعت للترحيب به.

تجمّعوا حوله وحيّوه بحفاوة. لقد أمضى لحظة مع كل منهما وهو يطرح سؤالًا بابتسامة، ويربّت على ذراع أحدهم، ويلقي كلمة تشجيع -مثل إيرل- طيب يمشي بين الأجلاف، فكّر روب في حزن.

جاء إلى روب ورمقه بنظرة. «إذًا، أنت زوج ماري كولين».

«نعم».

«هل أنت صياد سمك؟»

أوقعه السؤال في حيرة. «أنا أبحث عن سمك السلمون المرقط».

«سوف أراهن على ذلك. قال: «سآخذك لاصطياد سمك السلمون غدًا في الصباح»، وقال روب إنه سيذهب.

وفي اليوم التالي سارا في غبش الليل إلى نهر صغير متدفق. أحضر دومهنال جزعين ضخمين كانا بالتأكيد ثقيلَين للغاية، وخيطًا قويًا وطعمًا طويل الساق من الريش مع الأشواك المخبأة غدرًا في بؤره الأنيقة. «مثل الرجال الذين أعرفهم»، نظر روب إلى الكاهن، وأومأ دومهنال برأسه، وهو يحدق إليه بفضول.

أظهر له دومهنال كيفية رمي الطعم وسحبه من الماء في ارتفاعات صغيرة تشبه اندفاع سمكة صغيرة. فعلا ذلك مرارًا وتكرارًا دون جدوى، لكن روب لم يهتم، فقد تاه مع اندفاع الماء. والآن أشرقت الشمس. شاهد في الأعالي نسرًا يرفرف على لا شيء، وفي مكان قريب سمع صرخة قنبرة.

التهمت السمكة الكبيرة طعمها على السطح بوحشية أسفرت عن تدفق ينبوع من الماء في الهواء.

وعلى الفور بدأت في الجري مع التيار.

«يجب أن تتجه نحوها وإلا سوف تقطع الخيط أو تمزق الخطاف!» صاح دومهنال.

كان روب قد طرطش الماء في النهر بالفعل، وهو يدبدب خلف سمكة السلمون. استنفدت القفزة الأولى القوية للسمكة تقريبًا قواه؛ لأنه سقط عدة مرات في الماء المتجمد، واصطدم بقاع صخريّ وتعثّر داخل وخارج البرك العميقة.

ركضت السمكة مرارًا وتكرارًا، وهي تسحبه وراءها صعودًا وهبوطًا في النهر. كان دومهنال يصيح بالتعليمات، ولكن على الفور بصر روب طرطشة الماء ورأى أن دومهنال كان قد بذل قصارى جهده أيضًا. كان قد اصطاد سمكة وكان في النهر أيضًا.

جاهد روب لإبقاء السمكة في منتصف الجدول. وفي النهاية بدا أن سمكة السلمون كانت تحت سيطرته، على الرغم من أنها كانت ثقيلة بشكل خطير في نهاية خيطه.

وعلى الفور تمكّن من زحلقة السمكة الضعيفة التي تقاوم -الضخمة جدًّا!- في المياه الضحلة المليئة بالحصي. وأثناء إمساكه بساق الطعم، قفزت سمكة السلمون قفزة متشنجة أخيرة وتمزّق الخطاف حاملًا معه شريحة من الأنسجة المضمخة بالدماء من داخل حلق السمكة. استلقت سمكة السلمون للحظة بلا حراك على جانبها، ثم رأى روب خليطًا ثخينًا من الدم ينبثق بشكل قاتم من خياشيمها، وانسرب في المياه العميقة وتلاشى.

وقف مرتعدًا ومشمئزًّا؛ لأن لطخة من الدم أخبرته أنه قتل السمكة، والآن قد ضاعت.

تحرّك بدافع الغريزة أكثر منه بدافع الأمل، ومشى ضد التيار، لكن

قبل أن يخطو ست خطوات، رأى رقعة فضية على صفحة الماء أمامه وطرطش الماء باتجاهها. فقد الانعكاس الشاحب مرتين عندما سبحت السمكة أو تحركت قرب النهر. ثم رأى أنه كان فوقها مباشرة. كانت سمكة السلمون تحتضر ولكنها لم تكن ميتة تمامًا، وضغط عليها مع التيار على جانب صخرة من خلال التيار القوي.

كان عليه أن يغمر نفسه في الماء الذي أفقده الإحساس ليأخذها بكلتا ذراعيه ويحملها إلى الضفة، حيث أنهى آلامها بحجر. كانت تزن ما لا يقل عن حجرين.

كان دومهنال يصيد للتو سمكته، التي لم تكن كبيرة تقريبًا.

«سمكتك فيها من اللحم ما يكفينا جميعًا، أليس كذلك؟» قال. عندما أومأ روب برأسه، أعاد دومهنال سمكة السلمون التي صادها إلى النهر. أمسكها بعناية للسماح للمياه برفعها. تحرّكت الزعانف وتموّجت في خمول كما لو أن السمكة لم تكن تكافح للحفاظ على وجودها، وبدأت الخياشيم تضخ الماء. رأى روب قشعريرة سرت في السمكة، وعندما شاهدها تبتعد عنهما وتختفي في تيار الماء، عرف أن هذا الكاهن سيكون صديقه.

***

تحرّرا من ثيابهما المبتلة ونشراها حتى تجف، ثم استلقيا بالقرب منها على صخرة ضخمة دفّأتها الشمس.

تنهّد دومهنال. قال: «ليس مثل صيد سمك السلمون المرقط».

«الفرق بين قطف زهرة وخلع شجرة». أصيب روب بنصف دزينة من الجروح النازفة في ساقيه جرّاء السقوط في النهر، وكدمات لا حصر لها.

تبادلا الابتسامات العريضة.

فرك دومهنال بطنه الصغير المستدير، الأبيض مثل أي سمكة، وغرق في الصمت. توقع روب الأسئلة، لكنه أدرك أن أسلوب هذا الكاهن هو الاستماع باهتمام والانتظار، وهو صبر ثمين سيجعله خصمًا فتّاكًا إذا كان على روب أن يعلمه لعبة الشطرنج.

«أنا وماري غير متزوجين في الكنيسة، هل كنت تعلم هذا؟»

«لقد سمعت شيئًا من هذا القبيل».

«حسنًا، لقد تزوجنا زواجًا حقيقيًّا، خلال هذه السنوات، لكنه كان زواج باليد».

تنهّد دومهنال.

أخبر رجل الدين بقصتهما، لم يغفل أو يستخف بمتاعبه التي واجهها في لندن. «أود منك أن تزوجنا، لكن يجب أن أحذر من أنه ربما خضعت لحرمان كنسي».

جففا أجسادهما في تراخ ودعة تحت أشعة الشمس، مع التفكير في المشكلة.

قال دومهنال: «إذا كان بإمكان هذا الأسقف المساعد في مدينة ورسستر أن يفعل ذلك، فسوف يتستر على الأمر». «مثل هذا الرجل الطموح يفضل أن يكون له أخ مفقود ومنسي على أن يكون له أقرباء مقربون طردوا بطريقة مخزية من الكنيسة».

أومأ روب برأسه. «افترض أنه لم يستطع التستر على الأمر؟»

قطّب الكاهن جبينه. «ليس لديك دليل دامغ على الحرمان من الكنيسة؟»

هزّ روب رأسه. «لكن هذا محتمل».

«محتمل؟ لا أستطيع إدارة الكهنوت حسب مخاوفك. يا رجل، يا رجل، ما علاقة مخاوفك بالمسيح؟ ولدت في بريستويك. منذ أن توليت رسامة الكاهن لم أترك أبرشية الجبل هذه وأتوقع أن أكون راعيًا هنا عندما أموت. وبخلافك أنت، لم ألتق مطلقًا طوال حياتي بأي شخص من لندن أو من ورسستر. ولم أتلق قطّ رسالة من رئيس أساقفة أو من صاحب القداسة، ولكن فقط من يسوع. هل تصدق أن إرادة الرب هي أنني لم أقم بتكوين أسرة مسيحية منكم أنتم الأربعة؟»

ابتّسم له روب وهزّ رأسه.

وطوال حياتهما سوف يتذكّر الصبيان حفل زفاف والديهما ويصفانه لأحفادهما. كان قدّاس العرس في قاعة كولين صغيرًا وهادئًا. كانت ماري ترتدي فستانًا من الأقمشة ذات اللون الرمادي الفاتح وكانت ترتدي بروشًا فضيًّا وحزامًا من جلد اليحمور مرصع بالفضة. كانت عروسًا رابطة الجأش، لكن عينيها أشرقتا عندما أعلن الأب دومهنال أنه أكثر من أي وقت مضى وفي حماية مقدسة، قد تزوجت مع وطفليها بشكل لا رجعة فيه روبرت جيريمي كول.

وبعد ذلك، أرسلت ماري دعوات لجميع أقاربها لمقابلة زوجها. وفي اليوم المحدد، جاءت عائلة ماكفيز من الغرب عبر التلال المنخفضة وعبرت عائلة تيدير النهر الكبير ووصلوا عبر الوهاد إلى كيلمارنوك. جاءوا حاملين هدايا الزفاف والكعك المحلى بالفاكهة وشطائر محشوة باللحم وبراميل المشروبات القوية وحلوى اللحم والشوفان الرائعة التي أحبوها. وفي المزرعة كان ثور وعجل يتقلبان ببطء في أسياخ على وهج النيران المكشوفة، وثمانٍ من الأغنام وعشرات الحملان والعديد من الطيور الداجنة. عزفت الموسيقا على القيثارة والناي والكمان والبوق، وانضمت

ماري عندما صدحت النساء بالغناء.

وبعد ظهر كل يوم، خلال المسابقات الرياضية، التقى روب بأفراد عائلة كولين وعائلة تيدير وماكفيز. لقد أعجب به البعض في الحال والبعض الآخر لم يكن معجبًا به. حاول ألا يفحص أبناء العم الذكور الذين كانوا جيشًا كبيرًا. وفي كل مكان، بدأ الرجال يسكرون، وحاول البعض إجبار العريس على الانضمام إليهم، لكنه شرب نخب عروسه وطفليه وعشيرته، وأبعد البقية عنهم بكلمة طيبة وابتسامة.

وفي ذلك المساء، في حين كان اللهو الصاخب لا يزال مستمرًّا، غادر المباني، وتجاوز الحظائر وابتعد. كانت ليلة سعيدة، مليئة بالنجوم لكنها لم تكن دافئة. استطاع أن يشتم رائحة نبات القنديل، ومع تلاشي أصوات الاحتفال وراءه، تناهى إلى سمعه صوت الأغنام وصهيل الخيول وأزيز الرياح في التلال وتدفق المياه في الجداول، وكان يتخيل أنه يشعر بجذور وتدية تنبثق من أخمص قدميه وتتوغل في أعماق التربة الصخرية القاحلة.

81

اكتمال الدائرة

السبب أنه يجب على المرأة أن تتعجل مولودًا جديدًا أم لا، كان اللغز المثالي. بعد أن أنجبت ولدين ثم قضت خمس سنوات وهي عقيم، أينعت ماري بمولود بعد زفافهما. وكانت تتوخى الحذر في عملها، وعلى الفور وبشكل أسرع تطلب من أحد الرجال مساعدتها في مهمة ما. تبعها الابنان وقاما بالأعمال المنزلية الخفيفة. كان من السهل معرفة أي طفل سيكون الراعي؛ في بعض الأحيان كان يبدو أن روب جيه يستمتع بالعمل، في حين أن تام كان دائمًا متحمسًا لإطعام الحملان ويتحين فرصة لجز الصوف. وثمة شيء آخر يميزه، لوحظ أولًا في الخطوط العريضة الأولية التي نكتها في الأرض بعصا، حتى أعطاه أبوه الفحم ولوح الصنوبر وأظهر له كيف يمكن رسم صور الأشياء والأشخاص. لم يكن روب مضطرًّا لإخبار الصبي ألا يغفل العيوب.

عُلِّقت سجّادة الملوك السامانيين على الحائط فوق سرير تام، وكان الجميع يعرف أنها هدية له، هدية من صديق للعائلة في بلاد فارس. ومرة واحدة فقط واجهت ماري وروب الشيء الذي أقحماه وأدخلاه رغمًا عنهما في خبايا عقليهما. وعقب مشاهدته وهو يركض خلف نعجة ضالة، علم روب أنه لن يكون من الجيد أن يعلم الصبي أن لديه جيشًا من الإخوة الأجانب الذين لن يراهم أبدًا. «لن نخبره أبدًا».

قالت: «فهو لك». استدارت واحتضنته بين ذراعيها، وبينهما ثمة نتوء ثخين كان من المفترض أن يكون جورا أجنيس، الابنة الوحيدة.

تعلم روب اللغة الجديدة؛ لأنه جرى الحديث بها في كل شيء وانكب على نفسه يتعلمها. أقرضه الأب دومهنال نسخة من الكتاب المقدس باللغة الغيلية لرهبان أيرلندا، وبما أنه أتقن اللغة الفارسية من القرآن، فقد تعلم اللغة الغيلية من الكتاب المقدس.

وفي حجرة الدراسة علق صورة الرجل الشفاف وصورة المرأة الحامل وبدأ في تعليم ولديه المخططات التشريحية والإجابة عن أسئلتهما. وفي كثير من الأحيان عندما يجري استدعاؤه لرعاية شخص مريض أو حيوان، كان أحدهما أو كلاهما يرافقه. وفي يوم كهذا، ركب روب جيه خلف أبيه على ظهر البراق، إلى منزل مسوّر على تل ينبعث منه رائحة موت زوجة أوستريك، التي تسمى أرديس.

راقب الصبي وأباه يأخذ القياسات ويعطي تسريبًا، وسكب روب الماء على قطعة قماش وسلّمها لابنه.

«يمكنك أن تمسح وجهها».

مسح روب جيه وجهها بلطف وهو يعتني بشفتيها المتشققتين. ولمّا انتهى، تحسسته أرديس وأمسكت اليدين الصغيرتين في يديها.

رأى روب أن الابتسامة الحانية تتحول إلى شيء آخر. شهد ارتباك الإدراك الأول، شحوب الوجه. القسوة التي دفع بها الصبي يديها.

قال: «كل شيء على ما يرام». وضع ذراعيه حول الكتفين النحيلتين وضمّ روب جيه بشدة. «كل شيء على ما يرام». سبع سنوات فقط. كان هو أصغر منه بعامين. كان يعلم -بشكل عجيب- أن حياته قد اكتملت في دائرة كبيرة.

واسى أرديس واعتنى بها. ولمّا كانا خارج المنزل، أمسك بيد ابنه حتى

يشعر روب جيه بالقوة الحية لأبيه ويطمئن قلبه. نظر في عيني روب جيه.

«ماذا شعرت عندما لمست أرديس، والحياة التي تكتشفها بداخلي الآن... إن الإحساس بهذه الأشياء قريحة يمنحها الرب، قريحة جيدة، إنها ليست شرًّا، لا تخف منها. لا تحاول أن تفهمها الآن، سيكون هناك وقت أمامك لفهمها، لا تخف.

عاد الابن إلى رحاب الطمأنينة. «نعم، يا أبي».

امتطى صهوة جواده وأردف الصبي خلف سرجه وهو يتمايل، وأخذه إلى المنزل.

لفظت أرديس أنفاسها بعد ثمانية أيام. ولعدة أشهر بعد ذلك، لم يأت روب جيه إلى المستوصف أو يطلب مرافقة أبيه عندما يذهب لرعاية المرضى. ولم يلح عليه روب. حتى بالنسبة للطفل، شعر أن إشراك المرء في معاناة الناس يجب أن يكون عملًا طوعيًّا.

حاول روب جيه أن يهتم برعي الأغنام مع تام. ولمّا تلاشى ذلك، ذهب بمفرده وقطف الأعشاب باستمرار ولفترة طويلة. كان فتى متحيرًا.

لكنه كان لديه ثقة عمياء في أبيه، وجاء اليوم الذي ركض فيه روب جيه خلف روب لأنه كان يركب جواده ويخرج من فناء المزرعة. «أبي! «هل يمكنني الذهاب معك؟» لرعاية الحصان وما شابه؟

أومأ روب وسحبه خلف السرج.

وسرعان ما بدأ روب جيه في القدوم إلى المستوصف بشكل متقطع واستؤنفت تعليماته، وعندما بلغ التاسعة من عمره، بدأ بناءً على طلبه بمساعدة أبيه كل يوم بصفته متدربًا.

وبعد عام من ولادة جورا أجنيس، أنجبت ماري طفلًا ثالثًا؛ نثانيال روبرتسون. وبعد عام كان هناك ولادة جنين ميت لصبي جرى تعميده وتسميته كاريك ليون كول قبل الدفن، ثم أجهضت مرتين متتاليتين بصعوبة. وعلى الرغم من أنها كانت لا تزال في سن الإنجاب، فإنها لم تحمل مرة أخرى. لقد أحزنها، كما كان يعلم؛ لأنها أرادت أن تمنحه العديد من الأطفال، لكن روب كان راضيًا عن رؤيتها وهي تستعيد قوتها وروحها شيئًا فشيئًا.

وفي أحد الأيام عندما كان طفله الأصغر في عامه الخامس، دخل رجل يرتدي قفطانًا أسود مغَبَّرًا وقبعة جلدية على شكل جرس إلى كيلمارنوك، وهو يسوق حمارًا مثقلًا بحمولة.

قال روب باللغة العبرية: «السلام عليكم»، وفغر اليهودي فمه عندما سمع اللغة العبرية وأجاب قائلًا: «وعليكم السلام».

وكان رجلًا مفتول العضلات وله لحية بنية كبيرة شعثاء، وبشرة لفحتها شمس السفر والترحال، وفي وجهه تبدو علامات الإرهاق الذي سحب فمه وصنع خطوطًا في زوايا عينيه. كان دان بن جمليل من مدينة روان، وكان بعيدًا عن موطنه.

اعتنى روب بحيواناته وأعطاه ماء ليغتسل به ثم وضع أمامه الأطعمة المباحة شرعًا. لقد وجد أن إتقانه للغة العبرية كان ضعيفًا؛ لأن مقدارًا هائلًا من الحصيلة اللغوية هرب منه، لكنه تلا الصلوات على الخبز والخمر.

«هل أنتم يهود إذًا؟» قال دان بن جمليل وهو يحدّق بهم.

«لا، نحن مسيحيون».

«لماذا تفعلون ذلك؟»

قال روب: «نحن مدينون بدَيْن كبير».

جلس أطفاله على الطاولة وحدّقوا في رجل يبدو وكأنه لم يروه من قبل، وهم يستمعون في عجب عندما انضم إليهم أبوهم في تلاوة صلوات غريبة قبل أن يأكلوا طعامهم.

«بعد أن نأكل، قد تهتم بتلقي العلم معي». شعر روب بنشوء إثارة شبه منسية. قال: «لعلنا نجلس معًا نتدارس الوصايا».

حدّق به الرجل الغريب. «يؤسفني، لا، لا أستطيع!» امتقع وجه دان بن جمليل. تمتم الرجل قائلًا: «أنا لست عالمًا».

أخفى روب خيبة أمله، وأخذ المسافر إلى مكان جيد للنوم، كما كان سيحدث في قرية يهودية.

وفي اليوم التالي استيقظ مبكرًا. ومن بين الأشياء التي أخذها من بلاد فارس، وجد قبعة يهودي وشال صلاة وتمائم وذهب للانضمام إلى دان بن جمليل في الصلوات الصباحية.

حدّق دان بن جمليل وهو يربط الصندوق الأسود الصغير بجبهته ويلف الجلد حول ذراعه لتشكيل الحروف باسم العلي المتعال. راقبه اليهودي وهو يتمايل واستمع إلى صلواته.

قال بغلظة: «أنا أعرف من أنت». «كنت يهوديًا وصرت مرتدًا. رجل أدار ظهره لشعبنا وإلهنا وأسلم روحه لقوم آخرين».

قال روب: «لا، ليس الأمر كذلك»، ورأى بأسف أنه قطع صلاة الآخر. قال: «سأشرح لك عندما تنتهي»، ثم انسحب.

ولكن عندما عاد لدعوة الرجل لتناول الفطور، لم يكن دان بن جمليل موجودًا. اختفى الحصان، واختفى الحمار. رفع الحمولة الثقيلة وحملها بعيدًا، ولاذ ضيفه بالفرار بدلًا من تعريض نفسه لعدوى الرّدة المخيفة.

كان آخر يهودي يراه روب؛ لم يرَ شخصًا آخر ولم يتكلم باللغة العبرية مرة أخرى.

لقد شعر أن حصيلته من الفارسية أفلتت منه أيضًا، وذات يوم قرر أنه قبل أن تتخلى عنه، يجب أن يترجم كتاب القانون في الطب إلى اللغة الإنجليزية حتى يستمر في استشارة شيخ الأطباء. استغرقت الترجمة منه وقتًا طويلًا بشكل مخيف. قال لنفسه مرارًا وتكرارًا أن ابن سينا ألّف كتاب القانون في الطب في وقت أقل من الوقت الذي استغرقه روبرت كول في ترجمة الكتاب!

وفي بعض الأحيان اعتراه شعور الندم بحزن؛ لأنه لم يدرس جميع الوصايا مرة واحدة على الأقل. وغالبًا ما كان يفكر في يسي بن بنيامين ولكنه تصالح بشكل متزايد مع وفاته، كان من الصعب أن تكون يهوديًا! ولم يحدث قطّ أنه تحدّث عن أوقات وأماكن أخرى. وذات مرة عندما دخل تام وروب جيه في مسابقة الجري التي يحتفل بها كل عام في عيد القديس كولومب في التلال، أخبرهما عن عدّاء يدعى كريم فاز بسباق جري طويل ورائع يسمى الشاطر. وعندما ينخرط في إحدى المهام العادية التي تميز الإيقاع المنتظم لحياة الاسكتلنديين، مثل إزالة الروث من الحظائر أو تجريف الثلج المتساقط أو قطع حطب التدفئة، نادرًا ما كان يشتم رائحة حرارة الصحراء الباردة في الليل، أو يتذكر رؤية فارا عسكري وهي تضرم النار في أيام السبت، أو صوت فيل غاضب يندفع إلى المعركة، أو الإحساس بحبس الأنفاس بالطيران وهو جاثم فوق جمل سباق بأرجل طويلة وهو يجري مترنحًا. ولكن بدا أن كيلمارنوك كانت

دائمًا حياته، وأن ما حدث من قبل كان حكاية سمعها وهو جالس حول النار عندما هبت الرياح باردة.

كَبر أطفاله وتغيّروا، وصارت زوجته أجمل مع تقدمها في العمر. ومع تعاقب الفصول، ثمة شيء واحد لم يدركه التغيير. البصيرة الزائدة، وحساسية المعالج، لم تتخل عنه قطّ. سواء جرى استدعاؤه وحيدًا في الليل إلى زيارة مريض في فراشه أو سارع في الصباح إلى المستوصف المزدحم، دائمًا ما كان يشعر بآلام الناس.

وبالسعي إلى مواجهتها، لم يخفق قطّ في الاعتراف -كما كان يعرف منذ اليوم الأول في البيمارستان- بذروة الامتنان العجيب أنه كان من المختارين، وأنها يد الرب التي امتدت ولمست، وأن مثل هذه الفرصة لاستغلالها والاستفادة منها كان يجب أن تمنح لصبي الحلّاق.





تأخذنا رواية "الطبيب" في رحلة إلى القرون الوسطى.. تحديدا في القرن الحادي عشر الميلادي، تبدو الرواية وكأنها قصة فتى يتيم يعيش في بريطانيا ولكنها في الحقيقة قصة لقاء الشرق والغرب.

يحاول هذا الفتى -الذي كان يمتلك موهبة خاصة من خلالها يتنبأ بدنو أجل من يوشك على الموت- أن يجد حلاً لأوجاع الناس، وبعد أن يقابل طبيب عيون يهوديًا درس الطب في أصفهان على يد ابن سينا، يراوده حلم السفر لدراسة الطب في بلاد فارس ولكن حظرًا على السفر للدراسة في مدارس الشرق كان العقبة التي تواجه البطل. وهنا تبدأ مغامرته الكبرى ورحلته التي تحبس الأنفاس.

نوح جوردون

روائي أمريكي وصحفي (1926-2021) وُلد في الولايات المتحدة الأمريكية. بدأ دراسة الطب ولكنه تركه والتحق بكلية الصحافة، وحصل على بكالوريوس العلوم الصحفية من جامعة بوسطن، وبعدها حاز على درجة الماجستير في اللغة الإنجليزية والكتابة الإبداعية من كلية الدراسات العليا من جامعة بوسطن. واشتهر بكتابة الروايات التاريخية. وقد صدرت له عدة روايات اشتهرت في موضوعاتها بالتركيز على المجال الطبي وتاريخ الطب وأخلاقياته. وتعتبر رواية "الحاخام" باكورة أعماله الروائية. وله أعمال أخرى منها رواية "صانع النبيذ"، "لجنة الموت"، "ماسة أورشليم"، و"اليهودي الأخير"، و"ثلاثية عائلة كول" التي تضم ثلاث روايات: "الطبيب"، "مسألة اختيار"، و"العرّاف". وجدير بالذكر أن نوح جوردون حاز عدة جوائز منها على سبيل المثال لا الحصر: جائزة جيمس فينيمور كوبر الأولى عن رواية العرّاف، وغيرها من الجوائز والتكريمات.

